

أمثال القرآن

تأليف

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

إعداد

أبو القاسم عليان نزادي

تعریف

تحسین البدری

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإِهْدَاءُ

إِلَى الْمُتَعَطِّشِينَ لِزَلَالِ مَعَارِفِ الْقُرْآنِ الطَّاهِرَةِ.

إِلَى الْبَاحِثِينَ فِي عِلْمِ الرَّفِيعَةِ.

إِلَى عُشَاقِهِ الَّذِينَ أَحْبَبُوا عِيشَةَ ظَلَّهُ وَالْحَشَرَ مَعَهُ.

إنارة

إنّ كتاب (امثال القرآن) عبارة عن محاضرات القها سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازى خلال شهري رمضان من عامى ١٤١٨ و ١٤١٩ وقد قام بتدوينها واعدادها حجة الاسلام والمسلمين ابو القاسم عليان نزادي وقام دار النشر (نسل جوان) بنشر نسختها الفارسية ، كما قام بنقلها إلى العربية الشيخ تحسين البدرى وصُفت حروفها في المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات (دانا فجر) وبرعاية خاصة منها.

الموضوع باعتباره طُرح على شكل محاضرات قد يفقد بعض الترتيبات الفنية التي يستلزمها أي كتاب ، لذا نأي بعنوان مكتب المؤلف لتقدير الاقتراحات والانتقادات البناءة ، ولإتاحة الفرصة لابداء الرأي من أحب ذلك.

ایران . قم . شارع الشهداء . مدرسة الإمام أمير المؤمنين علیه السلام مركز نشر وتدوين آثار سماحة آية الله العظمى المكارم الشيرازى (مدّ ظله).

www.makaremshirazi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين ، لا سيما أفضلهم خاتم النبّيين ، وعلى آلـه الطاهرين المعصومين المنتجبين.

لقد عَدَ الرسول ﷺ (في الخطبة الشعbanية المعروفة) شهر رمضان شهر المغفرة والبركة. ^(١)

انه شهر الرحمة ، لأن أعمال الانسان الروتينية مثل النوم والتنفس في هذا الشهر لها ثواب العبادة فضلاً عن العبادة نفسها.

إِنَّه شهر المغفرة والعفو ، لأن بحر لطف الله وعفوه مواجه في هذا الشهر. أبواب الجنة فيه مفتوحة وأبواب جهنم مغلقة ، والشياطين في غلٰ وسلاسل. يغفر في كل ليلة منه . حسب ما في رواية . لسبعين الف وفي ليلة القدر يغفر بعدد الذين غفر لهم خلال هذا الشهر الا اولئك الذين يحملون البعض والعداوة عن اخواهم في الدين ، ولا يغفر لهم حتى يتصالحوا. ^(٢)

انه شهر البركة ، لأن فيه نزول انواع النعم والمواهب المعنوية والاهلية ، انه شهر نزول وابل الرحمة على الانسانية ، واهم نعمة فيه هو نزول القرآن المجيد (أي مائدة السماء العظمى). هنيئاً

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ، ابواب احكام شهر رمضان ، الباب ١٨ ، الرواية ٢٠.

(٢) وسائل الشيعة ج ٧ ، ابواب احكام شهر رمضان ، الباب ١٨ ، الرواية ٢١.

لاإشكال الذين ينهلون من زلال معارفه ويتأملون فيها ويتدبرون ويلتقطون من بحر تعاليمه الجواهر ومن حديقة حكمه ومواعظه الازهار.

ان بعضاً من الدول الاسلامية وبخاصة ايران الاسلامية تعطر نفسها في هذا الشهر بالتبليغ والاعلام للمعارف الالهية. ان الناس بدخولهم في ضيافة الله يستقبلون المبلغين وعشاق المعارف الالهية ، لذلك نرى جلسات القرآن وتلاوته وتفسيره وبيان معارفه والاحكام الدينية والتوصل بأهل البيت عليهم السلام في كل شارع وزقاق.

إن جلسات المرجع الكبير آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) من جملة تلك الجلسات حيث اختصت بتفسير القرآن ، فانه في محاضراته هذه يسقي عشاق هذا الكتاب من زلال معارف القرآن الجيد.

ان موضوع التفسير في محاضرات آية الله مكارم الشيرازي لعامي ١٤١٨ و ١٤١٩ هـ هو (أمثال القرآن) وهو موضوع رغم بساطته يعدّ من اهم وأعقد المفاهيم القرآنية. مع الالتفات إلى قوة طرح الموضوع وسلامة بيان هذا المفسر الجليل وغنى المطالب التي تضمنتها المحاضرات ، بادرت إلى جمع هذه المطالب وتدوينها وتنظيمها ونشرها بعد اخذ الرخصة من سماحته.

وما في متناول ايدينا هنا هو عبارة عن الشكل المنظم والمرتب لمحاضراته تقدم لعشاق المعارف الالهية والقرآنية.

ونبه هنا على النقاط التالية :

١ . قد يظن بعض القراء الاعزاء ان آيات (أمثال القرآن) قد فسرت بالمقدار الكافي في تفسير (الأمثل) ، الا ان مطالعة هذا الكتاب يكشف لنا ان الاستاذ الجليل قد توصل في هذه المحاضرات إلى حقائق جديدة وبديعة ومفيضة جداً لم يشر لها في تفسير (الأمثل) رغم كل مزاياه وامتيازاته ، وهو لا يعيينا عن مطالعة هذا البحث.

٢ . ينقل الاستاذ آية الله العظمى مكارم الشيرازي (زيد عزه) : ان البعض اعتراض عند ما بدأت بتأليف تفسير (الأمثل) قائلاً بكفاية (جمع البيان) ولا ضرورة لتفسير جديد ، الا ان

مضي الزمان وتدوين تفاسير جديدة مثل (الميزان) و (الامثل) كشف عن حاجة الناس وتطلعهم للجديد مما يستشف من كتاب الوحي الاهلي.

انه كتاب مصدق للحديث الشريف للرسول ﷺ : «لا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضي عجائبه». ^(١) وان المفسرين في كل عصر موظفون للنهل من مستجداته وذلك بالافادة من العلوم والاكشافات الجديدة ؛ وكما قيل (كم ترك الاول لآخر).

٣ . نقر بنواصص التدوين والتنظيم ، لذلك نمد اليكم . أيها القراء الإفاضل . يد العون لنستقبل الإقتراحات والانتقادات البناءة.

ربنا أحيانا مع القرآن وامتنا معه ، واحشرنا معه ، آمين يا رب العالمين.

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم.

الحوزة العلمية في قم

ابو القاسم عليان نژادي

١٨ / ١٢ / ١٣٧٦ الموافق للحادي عشر من ذي القعدة

يوم ولادة الامام علي بن موسى الرضا علیہ السلام .

(١) مجمع البيان ١ : ٦١ .

تحليل لأمثال القرآن

أهمية القرآن وشهر رمضان

شهر رمضان الذي هو شهر نزول القرآن له علاقة محكمة بالقرآن. ولأجل بيان هذه العلاقة نقوم بدراسة اجمالية لبعض آيات القرآن المجيد.

يبيّن القرآن في الآية ١٨٣ من سورة البقرة حكم وجوب الصوم ، وإيضاً لأهميته يطرح قضية شمولية الصوم للنحل الآخر ويقول : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم﴾ ثم يعتبر التقوى وتربيه الروح هي نتيجة الصيام.

ثم يستثنى ثلث طوائف من وجوب الصوم في الآية ١٨٤ اما الطائفة الاخيرة فملزمة باداء الكفارة وهي بحجم ٧٥٠ غراماً من الحنطة او ما شابه.

كما أن هذا العجز المذكور في الآية يرفع وجوب الصوم على البنات الالاتي بلغن توا باعتبارهن لم يتجاوزن العشر ؛ فان البلوغ هو احد شروط وجوب الصوم ؛ والاطاقة هو الشرط الآخر له ، وبذلك تحل مشكلة هذه البنات ، فان الصوم غير واجب على البالغات توا واللاتي لم يطقنه الصوم لضعف جسمهن وصغر سنهن.

وفي الآية ١٨٥ من نفس السورة يعلن القرآن أن شهر رمضان شهر الصوم ، ويبيّن أهمية هذا الشهر من حيث انه شهر نزول القرآن ويقول : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ...﴾ ان المستشفى من هذه الآية هو ان نزول القرآن في ليلة القدر على صدر الرسول ﷺ هو اهم خصوصية يمتاز بها هذا الشهر الكريم.

علاقة شهر رمضان المبارك بالقرآن

شهر رمضان شهر العبادة والتربية وترك المعصية واداء الطاعة. لاجل القيام بهذه المهمة تحتاج إلى التعليم والتربية معاً. ان (القرآن) يعلم الانسان و(الصوم) يربيه. ولا يصل الانسان إلى الكمال الا بهما. وفي الحقيقة ؛ ان (القرآن) من دون فريضة (الصوم) تعليم ناقص ومن دون تربية. والصوم من دون (قرآن) تربية فاقدة للعلم والمعرفة. ولذلك فعلى المسلم ان يصوم ويحيي شهر رمضان لكي يتربى ، وباقترابه بالقرآن وانسه معه يهتدي ، وذلك لأن القرآن هداية وبيانات وفرقان ﴿هُدَىٰ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ إن كتاباً كهذا نزل في شهر رمضان ، كما قد وجب الصوم في الشهر ذاته لذلك ينبغي الالتفات الخاص إلى هذين المديتين.

موضوع البحث

تلاوة القرآن فضيلة كبرى ، وبخاصة في شهر رمضان المبارك فان فضيلة ذلك لا تعد ولا تحصى.

وهذه الفضيلة تحصل في وقت تزامن فيه التلاوة مع التدبر والتفكير الذي يطهر الروح ويوفر الأرضية للعمل.

ولهذا الغرض ارتأينا ان يكون لنا درس تفسير القرآن في شهر رمضان هذا العام ^(١) وقد اخترنا موضوع (امثال القرآن) ليكون ارضية جديدة في التفسير ولكي تعم فائدته.

﴿لماذا جاء القرآن بالامثال؟﴾

يشاهد في القرآن أكثر من خمسين مثلاً ^(٢) ففي سورة البقرة التي هي ثاني سورة يوجد عشرة امثال على أقل تقدير. مما هي الحكمة في الامثال بحيث جاء بها القرآن وبهذا الحجم؟

(١) شهر رمضان المبارك لعام ١٤١٨ هـ. ق.

(٢) لقد عدّت بعض الكتب (امثال القرآن) بمائة وثلاثين مثلاً ، إلا أن ذلك يبدو غير صحيح ؛ وذلك لأن مضارب الأمثال ليست أمثالاً. فالآية الشريفة ١٦٤ من سورة الانعام : «وَلَا تَئُرُوا وَازِرَةً وَرُزْ أُخْرَى...» والآية ٣٩ من سورة النجم : «إِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْمُحَاجَةِ إِلَّا مَا سَعَى» مضارب لامثال ؛ وليس أمثالاً ؛ لأنها تخلو من التشبيه.

الجواب : ان المثل يعني تشبيه الحقائق العقلية بالامور الحسية الملموسة. فمن جانب هناك أمور عقلية كثيرة لا يفهمها أكثر الناس. ومن جانب آخر ، فإن الناس اعتادوا على المحسوسات والعينات الملموسة ، ولهذا كان المثل (عقول الناس في عيونهم) وهو يعني ان ادراك الناس للامر الملموسة والمترتبة اسهل لهم. ومن هنا طرح القرآن بعض المفاهيم العقلية الرفيعة في قالب الامثال ليسهل على الناس ادراكتها. وعلى هذا ؛ فان فلسفة امثال القرآن هو تنزيل القضايا العميقية والرفيعة إلى مستوى يتناسب مع أفق تفكير الناس.

الأمثال العملية واللسانية

ينبغي الالتفات هنا إلى نقطة وهي ان بعض الامثال عملية وتبين بلسان العمل ، وبعضها لفظية تبين باللسان والقول.

ان أمثال القرآن هي من النوع الثاني ، الا انه يشاهد بعضاً ما في سيرة الرسول عليهما السلام واهل بيته الاطهار عليهمما السلام امثال عملية ، وهي بالطبع ذات تأثير اكبر ، ^(١) نأتي هنا بنمذجين من ذلك.

١ . عند ما تتراكم الذنوب الصغيرة

إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ بَارِضَ قَرْعَاءَ فَقَالَ لِاصْحَابِهِ : «إِئْتُونَا بِحَطَبٍ» - قَدْ هَدَى الرَّسُولُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً غَيْرَ الْأَعْدَادِ لِلنَّارِ . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ بَارِضُ قَرْعَاءَ مَا بِنَا مِنْ حَطَبٍ . قَالَ : «فَلِيَأْتِ كُلُّ اِنْسَانٍ بِمَا قَدِرَ عَلَيْهِ» ، فَجَاءُوا وَابَهُ حَتَّىٰ رَمَوْا بَيْنَ يَدِيهِ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «هَكَذَا تَجْتَمِعُ الذُّنُوبُ» ثُمَّ قَالَ : «إِيَّاكُمْ وَالْمُخَرَّاتُ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنْ لَكُلَّ شَيْءٍ طَالِبًا إِلَّا وَانْ طَالَبَهَا يُكْتَبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارُهُمْ . وَكُلُّ شَيْءٍ احْصَنَاهُ فِي اِمَامٍ مُبِينٍ» . ^(٢)

نعم ان الذنوب الصغيرة قد تتراكم لتبلغ مستوى الجبل ارتفاعاً ، وكثافة جبلٍ من النار. ان خطر الذنوب الصغيرة هو عدم الانتباه إليها وتخاذل موقف الامبالاة تجاهها ، فذكرَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخطرها بهذا المثل العملي.

(١) لقد أثثنا بعض الأمثال اللفظية عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأئمة عليهمما السلام ، راجع ميزان الحكمة الروايات ١٨١٠٦ إلى ١٨٢٣٦ .

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ١٣٧٢ ، الحديث ٦٥٩٣ .

٢ . ترسيم نار جهنم

عند ما كان الإمام علي عليه السلام خليفة كان له اخ صاحب اطفال وعائلة وما كانت تكفيه مؤنة بيت المال فطلب من الإمام سهماً أكبر من بيت المال فكان جواب الإمام علي عليه السلام ... ولنقرأ القصة على لسان الإمام نفسه :

«والله لقد رأيت عقلاً وقد املق^(١) حتى استماحني^(٢) من بركم^(٣) صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث^(٤) الشعور ، غير اللوان^(٥) من فقرهم ، كانوا سودت وجوههم بالظلم^(٦) وعاويني مؤكداً وكرر علي القول مردداً فاصغيت اليه سمعي فظن ان ابيه ديني ، واتبع قياده^(٧) مفارقاً طريقي ، فأحmitt له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف^(٨) من ألمها ، وكاد ان يحترق من ميسماها.^(٩) فقلت له : ثكلتك الثواكل^(١٠) يا عقيل! أئن من حديدة احاماها انسانها للعبه وتجربني إلى نار سحرها جبارها لغضبه! أئن من الاذى ولا ائن من لظى!^(١١) وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوقة^(١٢) في وعائهما ومعجونة شبتتها^(١٣) كانوا عجنت بريق حية او قيئها ، فقلت أصيلة^(١٤) ام زكاة ام صدقة؟ فذلك حرم علينا اهل البيت؟

(١) افتر أشد الفقر.

(٢) استعطاني.

(٣) البر هو الحنطة.

(٤) الشعر المتلبد بالوسخ.

(٥) متغير اللون وشاحبه.

(٦) سواد يصبح به.

(٧) ما يقاد به.

(٨) المرض.

(٩) المكواة.

(١٠) الثكل هو فقدان الحبيب ، والثواكل هي النساء.

(١١) من أسماء جهنم.

(١٢) نوع من الحلوي اهدتها الاشعث بن قيس إلى علي.

(١٣) كرمتها.

(١٤) العطية.

فقال : لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية . فقلت هبتلك المبول !^(١) أعن دين الله اتيتني لتخدعني ؟
ا مختبط انت او ذو جنة^(٢) ام تحجر^(٣) والله لو أعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افالكها
على ان اعصي الله في نملة اسلبها جلب^(٤) شعيرة ما فعلته ، وان دنیاكم عندي لا هون من
ورقة في فم جرادة تقضى بها^(٥) ما لعلی ولعيم يفخى ، ولذة لا تبقى !! نعوذ بالله من سبات
^(٦) العقل ، وقبح الزلل^(٧) وبه نستعين ».^(٨)

ان هذه الامثال تسهل ادراك وهضم كثير من المفاهيم ، ولها وقع وتأثير يفوق
النصيحة الموعظة ان هذا المثل لا يختص بعقليل وفي ذلك الزمن والعصر فحسب بل انه مثل
للحجيم وفي كل العصور والازمنة . ولهذا الغرض استخدم القرآن الامثال .

الهدف من الامثال من لسان القرآن

لقد بُيّن الهدف من الأمثال في بعض آيات القرآن ، نأتي هنا بثلاثة نماذج :

- ١ . في الآية ٢٥ من سورة ابراهيم بعد ما شبه (الكلمة الطيبة) بالشجرة الطيبة .
وسيأتي بحث ذلك . يقول في اخر الآية : ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
وعلى هذا فالذكير هو من أهداف الامثال .
- ٢ . في الآية ٢١ من سورة الحشر بعد ما يشبه بعض القلوب بالجبال وان امكانية
التأثير على الجبال اكثر من امكانية التأثير على هذه القلوب يقول في نهاية الآية : ﴿وَتُلَكَ الْأَمْثَالَ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
وعلى هذا فالتفكير هو من اهداف هذه الامثال .

(١) هل أي ثكل ، والمبول هي الثكول .

(٢) من أصحابه مس من الشيطان .

(٣) تحذى .

(٤) قشر .

(٥) تكسرها باسنادها .

(٦) نوم .

(٧) السقوط في الخطأ .

(٨) نهج البلاغة ، صبحي الصالح : ٣٤٦ . ٣٤٧ .

٣ . وفي الآيات ٤٠ - ٤٣ من سورة العنكبوت ، بعد ما يشبهه من اتخاذ أولياء من دون الله بالعنكبوت الذي يتخذ بيتاً وهنأ . يقول في نهاية الآية ٤٣ : ﴿وَتُلْكَ الْأَمْثَالُ نَصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُون﴾ وحسب ما في هذه الآية فإنَّ تعقل العلماء هو من اهداف تلك الأمثال .

يمكننا استنتاج ثلاث مراحل لتأثير الأمثال على النفوس ، هي كالتالي :

- ال الأولى : مرحلة التذكر وهي مرحلة مرور حقيقة الخطاب الالهي في الذهن.
- ال الثانية : مرحلة التفكير ، وهي مرحلة التفكير في موضوع المثل وحكمته.
- الثالثة : مرحلة التعقل وهي مرحلة ادراك وفهم الحقائق .^(١)

أهمية خطاب المثل

إن الناس في كثير من الأمور يعدون الكبير دليلاً على العظمة والصغير دليلاً على قلة الأهمية ، لكن الواقع ليس كذلك فالمهم هو الخطاب الذي يحمله ذلك الشيء أو يستهدف المتalking بيانه . والأمر كذلك في القرآن فالمهم هو الخطاب الذي يوجهه ويهدفه من خلال المثل لا عظمة او حقارة (المثل به) .

يقول الله في الآية الشريفة ٢٦ من سورة البقرة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْوَذَةً فَمَا فَوْقَهَا فَمَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِين﴾

تأمل في الآية

إنَّ التأمل في الآية يرشدنا إلى النتائج التالية :

- ال الأولى : ان الله تعالى اعتبر المدف من الأمثال هو هداية البشر.
- ال الثانية : ان موضوع المثل ومحتواه يحظى بأهمية تفوق أهمية المضمون الظاهري

(١) يمكننا الأخذ بنظر الاعتبار احتمالين آخرين ، الأول : تقسيم الأمثال حسب النتائج ، فبعضها تذكر وبعضها تجعلنا نفك وبعضها تؤدي إلى الاستيعاب والادراك . الثاني : تقسيم الأمثال حسب المخاطب ، فالمخاطب على ثلاثة أقسام وكل من الأقسام الثلاثة الماضية للأمثال تختص بقسم من المخاطبين .

والموجودات المذكورة في المثل.

الثالثة : إن المخلوقات جيئاً ولو كانت بعوضة تكشف عن عظمة الخالق.

الشرح والتفسير

قبل البدء بتفسير الآية ولأجل اعداد الاذهان للاستيعاب الاعمق نذكر هنا باقتضاب شأن نزولها.

ان التحجج او التذرع بالحجج هو من مواصفات المنافقين. ان المنافق يتحجج ويماطل ويتذرع بالتبيرات الباطلة في كل قضية ومسألة ، انه لا يهتم بتوجهات المخاطب وموافقه ؛ وذلك لانه ينظر إلى القضية من موقف مخالف ويعمل على اساس هذه الرؤية. وكمثال على ذلك نفرض ان شخصاً او اشخاصاً بنوا مركزاً اسلامياً يضم مسجداً ومكتبة ومصلى ومستشفى وداراً للعجزة ... ففي هذه الحالة سيعرب المنافق عن شعوره بالكلمات التالية :

هل من الصحيح بناء مركز بهذه الصخامة والكلفة في هذه المدينة رغم ما تضم من الفقراء والجياع؟ لم يكن من الصحيح ان تصرف هذه المبالغ لاجل اشباع الفقراء وسد رقمهم؟ لم يكن من الأفضل ان تصرف هذه المبالغ لاجل تزويع الشباب العزاب؟ لم يكن من الأفضل أن يداوى بهذه المبالغ المرضى من الاحتياجين والفقراء؟ لم يكن من الأفضل أن تصرف هذه المبالغ في سبيل تعليم الشباب وتربيتهم؟!

إنّ هذا الشخص او الاشخاص الخيرين لو صرفوا هذه المبالغ لاجل اطعام المساكين واعانة الشباب ومداواة المرضى و... لاحتاج هذا المنافق بحجج اخرى ولتمسك بذرائع من قبيل قوله : أي اسلام هذا واي مسلمين هؤلاء ، فانا لا نجد في هذه المدينة مسجداً ، وقد خصصتم هذه المبالغ الطائلة لامور تافهة لا فائدة فيها ، انكم قد ضيّعتم الاسلام باعمالكم هذه !

تعلّموا من اليهود والنصارى ؟ فانهم يبنون معابد فخمة وجميلة تجذب الانسان نحوها
تعلّموا من الهندوس فإنهم يبنون معابد عظيمة لاصنامهم الحامدة .
والخلاصة ؛ إنّ غاية المنافق هي المشاكسنة والمخالفة وزرع بذور الشك والاختلاف
وايذاء الآخرين .

ومع الالتفات إلى هذه المقدمة نقوم بشرح الآية المذكورة.

عند ما نزلت بعض الامثال القرآنية بدأ المنافقون بالترديد في المسألة والاشكال فيها
والقول : (ما هذه الامثال التي جاءت في القرآن؟ إن شأن الله أرفع من ان يمثل بمحودات
ضعيفة مثل الذباب ^(١) والعنكبوت ، او ان يمثل بمحودات جامدة مثل الرعد والبرق ^(٢) وقد
كانوا يهدفون من هذا الحديث القاء التشكيك في الهمة القرآن ومصدره الرباني ، وان القرآن
ليس من الوحي الالهي .

بالطبع ، لو لم تنزل هذه الآيات والامثال او نزلت بكلمات وصياغات معقدة لتمسك المنافقون . قطعاً . بذرائع اخرى ولقالوا : (كيف يمكن لهذا ان يكون كلام الله معانا لا نفهم منه شيئاً)؟ او لقالوا : (لماذا لم ينزل الله هذه المفاهيم والحقائق بلغة بسيطة يفهمها الجميع)؟ كما ان هذا قد حصل لشعب عاشقان وقد حكته الآية الشريفة (٩١) من سورة هود :

﴿فَالْوَا يَا شَعِيبُ مَا نَفْقَهَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِغَرِيبٍ﴾

يستفاد من الآية ان التمسك بالذرائع كان منطقهم ، من جانب اخر كانوا يقولون :

﴿لَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي لا نفهم ما تقول ، ومن جانب اخر يقولون : ﴿لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لو لا قبيلتك لقتلناك فيجيبهم شعيب عائلا : ﴿قَالَ يَا قَوْمَ أَرْهَطْتِي أَعْزِرْ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ!﴾ (٣)

بما ان المنافقين اللجوهين كانوا يشككون ويختجون على التمثيل بالجمادات او

الموحدات الضعيفة جاءت الآية ٢٦ من سورة البقرة لتجيب عليهم وتدحض حجتهم :

وَيُسْتَبِّنُ أَن يُصْرِبَ سَارِدًا بَعْوَشَةَ لَمَّا تَوَهَا ...

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَاتًا كَمَا أَخْتَمَ اللَّهُ بِذَاتٍ لَا يَسْتَقْدِهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُومِ».

(٢) يأتي شحها في المثان الأول والثاني.

٩٢ - ٩٣ هود الآية (٣)

شبّه بشيء ضعيف وصغير من الحيوانات والجمادات.

وعلى هذا ؛ فإن التمثيل بالشيء الكبير لا يدل على فصاحة الكلام وبلاعته دائمًا. إذن ، لا اشكال على القرآن عند تمثيله بشيء يتناسب مع موضوع المثل والمدف منه مهما كان صغيراً أو كبيراً.

ان المؤمنين والصالحين ، حيث يعلمون بحقيقة هذه الامثال ومحتوها ، يعلمون بأنها الحق وأنها من رحهم ولا ينكروها ، لكن المنافقين والكافرين لتعصبهم ولجاجتهم يقولون :

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا؟!﴾

خطأ المنافقين

إن خطأ المنافقين الكبير هو عدم توجههم او عدم رغبتهم للتوجه إلى أن بلاغة القرآن وفضاحته أحد وجوه إعجاز القرآن المجيد والرسول الكريم .^(١) إن الفصاحة والبلاغة . وهما من العلوم التي تدرس في الحوزة العلمية؟ . بتعبير مقتضب هما عبارة عن ما يلي : إن ظاهر البيان إذا كان جميلاً قيل انه فصيح ، وإذا كان ذات معنى رفيع شاناً قيل انه بلغع.

وعلى هذا ؛ الفصاحة والبلاغة . وهما من وجوه اعجاز القرآن . يعنيان الجمال الظاهري والرفة في محتوى الخطاب .

حقاً ان القرآن فصيح وبليغ أي ان ظاهره جميل وجذاب يدعو إلى الإصغاء إليه ، ومحتواه رفيع معنى و شأنها . ان بلاغة القرآن وفضاحته إلى درجة جعلت الاعداء تسميه السحر ! وذلك لأنه يجعل الصاغي يسلم اليه ويخضع له ، وهذا بحد ذاته اقرار واعتراف بجازية القرآن

(١) للقرآن وجوه اعجاز كثيرة والبلاغة والفصاحة هي أحد تلك الوجوه ؛ أما بقية الوجوه فعبارة عن : ١ . اعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم الحديثة والاكتشافات العلمية. ٢ . اعجاز القرآن من الناحية التاريخية. ٣ . اعجازه من حيث وضعه للقوانين. ٤ . اعجازه من حيث اخباره عن الغيب. ٥ . اعجازه من حيث المعارف الالهية. ٦ . اعجازه من حيث عدم احتوائه على التضاد والاختلاف . راجع نفحات القرآن ٨ : ٩٣ . مما بعدها إذا ما رغبت في التفصيل.

الشديدة والخارجية عن المتعارف. إنّ كثيراً من الناس آمن اثر سماعه آيات من القرآن.

جاذبية القرآن وانقاد المسلمين

هاجر الكثير من المسلمين في صدر الإسلام إلى الحبشة اثر الضغط المتزايد الذي لاقوه من المشركين في مكة. ولهذا بعث الكفار مبعوثين عنهم حاملين معهم هدايا وافرة إلى النجاشي ملك الحبشة لارحاء المسلمين إلى مكة. طمع المبعوثان في البداية حاشية ملك الحبشة ثم جاءوا للملك قائلين له : (أيها الملك ، انه قد ضوى (أي جأ) إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى بhem عيناً ، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوا فيه).

كان المجلس لصالح الكفار من جميع السواحي وقد كان المشركون اعدوا من قبل المقدمات لكسب الموقف لصالحهم.

لكن باعتبار كياسة النجاشي ورفعته ، طلب من المسلمين بيان مواقفهم ؛ فبدأ جعفر بن أبي طالب (رض) بالحديث وعرف بالاسلام وبالرسول ﷺ والقرآن فطلب النجاشي منه قراءة بعض من الآيات.

وباعتبار الزمان والمكان وباعتبار ان الحضور يتتمون إلى الديانة المسيحية قرأ آيات من القرآن تناولت ولادة عيسى . على نبينا وآلـه وآئـلـهـاـ . وهنا انقلب المجلس الذي كان قد أعد ليكون لصالح الكفار وبضرر المسلمين في البداية ، انقلب لصالحهم وبدأت عيون النجاشي ورجال دينه تغورق بالدموع. ان فصاحة القرآن وبلاغته وجاذبيته كانت بدرجة من التأثير على النجاشي حيث جعلته يرد هدايا الكفار ويسمح لجعفر والمسلمين بالإقامة في الحبشة إلى أي وقت شاءوا. ^(١)

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ : ٣٣٤ . ٣٣٥ .

نموذج آخر لتأثير القرآن

ان النموذج الآخر لتأثير فصاحة القرآن وبلاعته هو قصة اسعد بن زراة. ان قبيلة اسعد كانت لفترة طويلة في صراع محتدم بينها وبين قبيلة اخرى. فغادر اسعد يوماً ما المدينة إلى مكة قاصداً زيارة بيت الله والأصنام التي فيها ، فواجهه في الطريق أحد المشركين حذره من السماع لساحر يجلس قرب حجر إسماعيل ، فانشغل اسعد بالطوفاف الا انه عند ما شاهد وجه الرسول النوراني فكر ، ورجح السماع والاسمع لما يقوله الرسول ﷺ وقرر ان يعرض عنه إذا كان كلامه غير منطقى ^(١) وعند ما اقترب من الرسول سمع منه بعض الآيات الجذب له إلى مستوى طلب منه تلاوة آيات أخرى ، فتلى الرسول له .. ثم أسلم. وحكي للرسول قصة الاختلاف بين قبائل المدينة ودعى الرسول للمجيء إلى المدينة لأجل حل هذه الاختلافات. ^(٢)

خطابات الآية

١ . البعوضة ليست حيواناً حقيراً!

إنّ كثيراً من المفسرين المعروفين ومنهم المرحوم الطبرسي (ره) في تفسيره القيم (مجمع البيان) ينقل حديثاً عن الإمام الصادق عاشراً في ذيل الآية ، حيث قال : «إِنَّمَا ضرب اللَّهُ الْمَثَلَ بِالْبَعُوضَةِ لِأَنَّ الْبَعُوضَةَ عَلَى صَغِيرِ حَجْمِهَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا جَمِيعَ مَا خَلَقَ فِي الْفَيْلِ مَعَ كُبُرِهِ وَزِيادةِ عَضُوَّيْنِ آخَرَيْنِ فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لَطِيفِ خَلْقِهِ وَعَجِيبِ صَنْعِهِ». ^(٣)

ان الله في الحقيقة أراد بهذا المثال بيان ضراعة الخلق ، وان التفكّر في هذا الحيوان الضعيف ظاهراً . الذي خلقه الله شيئاً لأكبر حيوان في اليابسة . ليرشد الانسان إلى عظمة خالقه.

(١) لقد أيدت الآية الشريفة التالية هذا المنطق : (فَيَسِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَئِمُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكُ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) الرمر ١٧ . ١٨ .

(٢) نص القصة الكاملة في اعلام الورى : ٤ . ٣٥ ، بحار الانوار : ٩ : ٨ . ١١ .

(٣) مجمع البيان ، ذيل الآية.

التوضيح : في جسد البعوضة ضعيفة الجسم نفس الاعضاء الموجودة في فيل ضخم . ففيه جهاز المضم ، وخرطوم دقيق ذات منفذ رفيع ، وأعضاء للحركة واجهزة للتناول و .. اضافة إلى هذا ، فإن للبعوضة قرنين تشبه المواتيات وذلك للتواصل فيما بينها وبين البيئة المحيطة بها وهو أمر يفقده الفيل .

٢ . حجابان عظيمان : كثرة النعم والتّعود عليها

إنّ سبب غفلة الإنسان عن نعم الله العظيمة وعدم تفكره في دقة الخلق وظرافته هو شيئاً : الأول : حجاب كثرة النعم ؛ فإن وفرة النعم يجعل الإنسان يستهين ولا يعتد ولا يفكر بها . وكمثال على ذلك : ان البعوضة لو كانت نادرة في العالم وقعت بأيدي العلماء ، لاعتبرها هؤلاء العلماء موجوداً ذات أهمية وأهلاً للدراسات والتحقيق العلمي .

الثاني : حجاب التّعود ؛ فان العين مثلاً من آيات الخلق العظمى ؛ الا اننا لم نفكّر بها ولا نتعمّن في خلقها . الاذن كذلك ، فهو مستسلم قوي ودقيق وعجب لا انما بسبب تعودنا عليه لا نعرف قدره ولا نشمنه مع اننا لو دققنا ليس في هذين فقط بل في كل اشياء العالم لوجدناها عجيبة ومدهشة وتكتشف عن اسرار الخلق والعظمة والتوحيد .

٣ . الهدایة والضلالة في القرآن

في نهاية الآية يجيب الله المنافقين الذين قالوا : ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ حيث قال : ﴿وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ في هذه الآية وامثلها^(١) نسبت الضلال إلى الله كما نسبت الهدایة في آيات أخرى^(٢) إليه كذلك .

إذا كانت الهدایة والضلالة من الله ونحن جبوريون عليهما ولا إرادة لنا في ذلك فلما ذا يثبت

(١) مثل الآيات ٨٨ و ١٤٣ من سورة النساء والآيات ١٨٧ و ١٨٦ من سورة الاعراف والآيات ٢٣ و ٣٦ من سورة الزمر والآية ٤٦ من سورة الشورى وغيرها .

(٢) مثل الآيات ١٤٢ و ١٤٣ و ٢١٣ و ٢٧٢ من سورة البقرة والآية ١٦ من سورة المائدة والآية ٢٥ و ٣٥ من سورة يونس وآيات أخرى .

الله المهتدين ويعاقب الضالين رغم انهم مجبورون على ذلك؟

هناك آراء مختلفة في تفسير هذه الآية وأمثالها ، فبعض قال : ان المراد من (يضل) هو

(يتحن) أي ان الله يريد امتحان الناس من خلال هذه الامثال. ^(١)

ويقول البعض الآخر : ان الهداية والضلال تعنيان إعداد المقدمات لها لا نفسها

والقرار النهائي فيها يرجع إلى ارادة الإنسان نفسه. وكأن الله يسلب الموفقية من الإنسان

اللحوح ، فيراد من الضلال . على هذا . سلب الموفقية. ^(٢)

ان سبب الاختلاف بين المفسرين يرجع إلى صعوبة معنى المفردتين وتعقدهما ، ولهذا

علينا ايضاً حماها اولاً ثم البث في حل مشكلة الاختلاف في تفسيرهما.

معنى الهداية والضلال

انتبهوا إلى هذا المثال : ان قطرات الغيث الشفافة والسليمة والمانحة للحياة تنزل على

الكرة الأرضية اجمع ، كما ان الشمس تستطع على هذه الكرة وتنحها نوراً وطاقة. ان الغيث

والشمس كلامها من رحمة الله الا ان المحاصيل الزراعية التي تنتجها الأرضي التي تتمتع بهذين

النعتين تختلف ، ففي الارضي الماحلة تنبت الادغال ، بينما في الارضي الاخري تنبت

الازهار والنباتات المطلوبة. هل سبب هذا الاختلاف الغيث والشمس ام سببه ملوحة

الارض؟

لا شك في ان منشأ الاشكال هو الارض فلو نشرت بذور الازهار مكان بذور

الادغال في هذه الارض لتبدل الارض إلى حديقة أزهار. وعلى هذا فلو قيل : ان المطر

جاء لنا بالادغال فان ذلك لا يعني ان المطر هو السبب في ذلك بل الارض كانت سقيمة.

ان قضية الهداية والضلال تجري هذا المجرى ، فان وابل الرحمة الالهية نزل بواسطة الرسول

عليه السلام على قلوب جميع البشر ، وقد اصغى الجميع لوحبي القرآن ، فالذين قد أعدوا أراضي

قلوبيهم من ذي قبل ، اهتدوا ، اما اوئلك الذين لم يغسلوا ملوحة قلوبهم بزلال الامان ولم

يعدوا انفسهم فضلاً.

(١) انظر مجمع البيان ١ : ٦٨.

(٢) انظر تفسير الامثل ١ : ١٢٣ - ١٢٤.

إن آيات القرآن تؤيد هذا الادعاء ، فالآلية الثانية من سورة البقرة تقول : ﴿ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبٌ فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي ان المداية تتغمد اولئك الذين ازالوا ستار التعصب واللحاجة عن نفوسهم وعلم اذن صاغية.

وفي الآية المبحوثة هنا (٢٦ من سورة البقرة) يقول الله : ﴿مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي انهم كانوا فاسقين واراضي قلوبهم مالحة لذلك اضلهم الله ، ونبت في قلوبهم . اثر نزول مطر الرحمة والإيمان . أدغال الكفر.

ويقول الله في سورة الروم الآية ١٠ : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الدِّينِ أَسَاءُوا السُّوَاءِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ أي أن تكذيب آيات الله والضلاله كانا نتيجة أعمال الظالمين انفسهم.^(١) وعلى هذا ؛ فالهداية والضلاله نتيجة لاعمالنا والله . الحكيم على الاطلاق . وضع مقدرات للعباد حسب حكمته . إذا خطوت خطوات لاجل كسب الاطراف الإلهية فاني سافوز بهدايته وإذا ما خطوت وفي طريق غير الحق فاني ساكون مصداقاً للآلية الشريفة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ وكان مصيري الضلاله.

ذيل الآية يفيد ان الهداية ليست من غير حساب ، بل تتغمد الإنسان هداية ربانية إذا ما خطى باتجاه طريق الحق وتاب إلى الله ، إلا أن الذي يعادي الله فلا يكون مصيره الا الضلاله.

الخلاصة : لا جبر في البين ، وان الهداية والضلاله هما نتيجتان لاعمال الإنسان ذاته ، وان الضلاله سم قاتل فلا يلوم الشخص إلا نفسه إذا ما تجرّعه بارادته. إن آيات (الهداية والضلاله) ليست بتلك الدرجة من التعقيد ؛ وقد فسرتها آيات أخرى من القرآن.

وفي النهاية ان تكليف المسلم هو العمل ما في وسعه لاجل اعداد ارض القلب لاستقبال مطر الرحمة الإلهية ، وان يطلب من الله التوفيق والعفو عما صدر منه من أخطاء.

(١) عدت الآية ٣٤ من سورة غافر ، الاسراف سبيلاً للضلاله ؛ والآلية ٧٤ من نفس السورة عدت الكفر سبيلاً لذلك.

المثل الأول :

المنافقون

المثل الاول موضوع بحثنا هو ما ورد في الآيات ١٧ و ١٨ من سورة البقرة :

﴿مَنَّا لَهُمْ كَمَّلٌ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلِمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمُ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

تصوير البحث

تحدثت الآية عن المنافقين الذين تستروا بستار النفاق ؛ الا ان التمزق كان عاقبة هذا الستار ، والخزي هو عاقبة المنافقين انفسهم.

ان المنافق شُبه هنا بانسان ضلّ وحيداً في صحراء يسعى للحصول على طريق لإنقاذ نفسه من خلال استيقاد النار ، إلا أن ذلك لم ينفعه ولا زال في حيرة من أمره.

الشرح والتفسير

دون تفسيرات للأية الشريفة :

﴿التفسير الأول :﴾ إنَّ مثلَ المُنَافِقِينَ مُثَلَّ الَّذِينَ يَضْلُّونَ فِي صَحْرَاءِ ظُلُمَاتٍ وَمَخْوفَةٍ. افْرَضُوا أَنَّ مَسَافِرًا تَخْلُفَ وَحِيدًا عَنْ قَافْلَتِهِ فِي صَحْرَاءِ ظُلُمَاتٍ، فَهُوَ لَا يَمْلِكُ نُورًا وَلَا ضُوءًا وَلَا دَلِيلًا يَرْشِدُهُ، وَلَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَلَا يَمْلِكُ بِوَصْلَةً. فَهُوَ يَخَافُ قَطَاعِي الْطَّرَقِ وَالْحَيَوانَاتِ الْمُفْتَرَسَةَ مِنْ جَهَّةٍ، وَيَخَافُ الْمَلَائِكَ مِنَ الْجَوْعِ وَالْعَطْشِ مِنْ جَهَّةَ أُخْرَى. وَهَذَا يَدْفِعُهُ لِلتَّفْكِيرِ بِجَدِيدٍ.

بطريق والسعي الأوفر للخلاص مما هو فيه. فيجد حطباً بعد البحث المتوالي فيستوقد ناراً ثم يأخذ بشعلة نار بيده ، إلا أن الريح تطفئ الشعلة فيبادر إلى جمع حطب آخر ليوقد ناراً أخرى إلا ان بحثه هذا لا يؤدي به إلا إلى ضلال آخر وانحراف عن الطريق تارة أخرى . إنَّ المنافقين كهذا المسافر فهم قد ضلوا الطريق. انهم يعيشون في ظلمات في حياة مضيئة.

تخلفو عن قافلة الإنسانية والآيمان. ولا دليل لهم على الطريق ، لأنَّ الله سلب عنهم نور المداية ، وتركهم في ظلمات.

للمنافقين شخصيات مزدوجة ، ظاهرها مسلمة وباطنها كافرة ؛ ظاهرها صادقة وباطنها كاذب ؛ ظاهرها مخلص وباطنها مرائي ، ظاهرها أمين وباطنها خائن ، ظاهرها الصدقة وباطنها العداوة و .. انهم يصنعون من ظاهرهم إنارة خادعة. يتظاهرون بالاسلام وينتفعون بمزايا الاسلام ؛ فذبحتهم حلال واعتبارهم وعرضهم محفوظ وأموالهم محترمة ، ويتمتعون بحق الزوج من المسلمين و .. انهم يتمتعون بمنافع مادية ودنية قليلة يحصلون عليها من حلال تلك النار التي استوقدوها ، إلا ان هذه النار تحمد بعد الموت ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ويتركهم الله آنذاك في ظلمات القبر والبرزخ والقيامة وحيثند يدركون ان لا فائدة في اسلامهم الظاهري وایمانهم الريائي.

النتيجة هي أن في الآية أو المثل تشبيهاً ، المنافقون هم المشبهون والمسافر المختار في الصحراء هو المشبه به ووجه الشبه هو الحيرة والضلال وأن لا أثر لسعيه الظاهري.

﴿التفسير الثاني﴾ فيما يخص التفسير الأول ينبغي التذكير هنا بان الاضاءة الظاهيرية لتلك النار والظلمات التي تلحق تلك الإضاءة لا تختص بعالم القيامة المعنوي ؛ بل إنَّ لها نتائج في هذه الدنيا كذلك.

لا يمكن المنافق اخفاء نفاقه لابد فانه سيفتضح في النهاية ؛ وهذا يحصل فيما لو وجد نفسه أو مصالحة عرضة للخطر والفناء ، فانه يفصح عن خلده القدر آنذاك كما افصح المنافقون في صدر الإسلام عن بواطنهم في الحروب والحوادث المختلفة؟!

ألم نرَ بأم اعيننا في الثورة الاسلامية وخلال النهضة التي سبقتهاكم من المنافقين كشفوا بمرور الزمن عن بواطنهم التنة وأزالوا نقاب النفاق عمما في داخلهم وافتضحوا في هذه الدنيا

- أعادنا الله من شرور أنفسنا . وعلى هذا ؛ فان ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لا يختص بالآخرة والقيامة بل انه أمر يتحقق في هذا الدنيا كذلك.

خطابات الآية

١ . أقسام المنافقين

ان المنافق ليس شخصاً بالضرورة ، بل يمكن ان يكون جماعة أو منظمة أو حزب بل حتى حكومة دولة ما. لقد شاهدنا افتضاح بعض الدول التي تتقمص بالاسلام ظاهراً وتشترك في المجالس والمؤتمرات الاسلامية. وذلك إثر اتضاح العلاقة بينها وبين أكبر أعداء الإسلام أي اسرائيل الغاصبة ، وافشاء أمر العقود المبرمة بينها وبين اسرائيل ما خفى منها وما ظهر. فان ضوء نار ادعاءاتها اخذت بالحمدود وثبتت ازدواجيتها ورياءها.

نعم ؛ ان ذلك هو عاقبة النفاق «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ».

٢ . صور النفاق

من الأمور التي تستنتج من البحث الاجمالي السابق هو صور النفاق المختلفة وهي كالتالي :

﴿أ﴾ . النفاق في العقيدة : ﴿وَذَلِكَ مُثُلُ الَّذِي يَدْعُونَ إِلَيْهِ إِلَلَهُمْ، إِلَّا إِنَّهُ لَا يَعْدُ مُسْلِمًا، أَوْ إِنَّهُ يَتَظَاهِرُ بِالإِيمَانِ لَكُنَّهُ لَا يُحْسِبُ مِنْ زَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ب﴾ . النفاق في الكلام : ﴿وَهُوَ كَالَّذِي يَنْطَقُ بِكَلَامٍ لَا يُعْتَقِدُ بِهِ﴾ . وعلى هذا ، فان الكاذب منافق لأنه لا يتطابق قلبه مع لسانه.

﴿ج﴾ . النفاق في العمل : ﴿وَهُوَ مُثُلُ الَّذِي يَتَضَادُ وَيُخْتَلِفُ عَمَلُهُ مَعَ نِيَّتِهِ وَبَاطِنِهِ، كَالَّذِي يَتَظَاهِرُ بِالصَّلَاةِ أَوِ الْإِمَانَةِ لَكُنَّهُ فِي الْوَاقِعِ لَا يَصْلِي وَخَائِنَ﴾.^(١)

٣ . علام النفاق

يحكى الرسول ﷺ في رواية له عن علامات المنافق حيث يقول : ﴿نَّالَّذِي كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا﴾

(١) للمزيد راجع ميزان الحكمة ، الباب ٣٩٦٦ الحديث ٢٠٥٩٩

وان صام وصلى وزعم انه مسلم ، من إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب وإذا وعد اخلف

...

الأولى : الخيانة ، ان الخائن منافق وذلك لانه يتظاهر بالأمانة وهو في الواقع خائن.

وعلى هذا لا يمكننا أن نأمنه بيت المال. قد يكون البعض امناء بحاجة للأموال القليلة إلا انهم يفصحون عن واقعهم الخائن عند ائتمانهم على الأموال الطائلة.

الثانية : الكذب ، ان الكاذب منافق وذلك لانه يبطن نوايا قدرة ومخالفة للحقيقة

والواقع من خلال تلقّه الكلامي ، رغم انه يصلّي ويقرأ دعاء الندبة والتسلّل وغيرهما.

الثالثة : خلف الوعد ، ان الذي يخلف الوعيد منافق ، وذلك لأنّ الوفاء بالوعيد

ضروري من الناحية الأخلاقية ومن الناحية الفقهية قد يكون واجباً أحياناً.^(١) وخلاصة الكلام هنا ان كل نوع من الأزدواجية يعدّ نفاقاً.

٤ . نبذة من تاريخ المنافقين

لم تخل المجتمعات البشرية من المنافقين ابداً ، ويمكن ان يقال ان النفاق وجد منذ ان

بدأ الإنسان حياته على الكره الأرضية ، وعداء المنافقين للبشرية اتضحت ذلك الحين.

إذا عد المنافقون اخطر أعداء المجتمعات البشرية فذلك بسبب انهم يتقمصون قميص

الاصدقاء ويطعنون العداء.

ان مقارعة الأعداء هي احد صفات المجتمعات البشرية ، وهي آلية تفقد فاعليتها عند

المنافق ، وذلك لانه يظهر نفسه صديقاً ، ولهذا كان ألد الأعداء ، ولأجل ذلك كانت

التعابير القرآنية في حقه شديدة جداً.

المنافقون في القرآن

كلما قلنا سابقاً ، فإن القرآن أشار إلى المنافقين بتعابير شديدة نشير إلى بعض منها

: هنا

أ . يقول الله في الآية ٤ من سورة المنافقين : ﴿ هُمُ الْعَدُوُ فَاخْذُنَهُم ﴾

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٩٣١ ، الحديث ٢٠٥٧٧ ، وفي الباب روایات اخرى عدّت علائم اخرى للنفاق.

لقد أشار القرآن المجيد إلى أعداء المسلمين^(١) من خلال آياته الشريفة لكنه لم يستخدم هكذا اسلوب تجاه أيّ من الأعداء. وحسب قواعد اللغة العربية فان الجملة تفيد ان المنافقين هم الاعداء الحقيقيون للانسان.

ب . يقول الله في تسمة الآية : ﴿قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي يحرفون عن الحق.

إنَّ هذا الخطاب الشديد فريد ولم يستعمله القرآن في مورد اخر.^(٢)

ج . يقول الله في الآية ١٤٥ من سورة النساء : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وعلى هذا ينبغي تجنب صدقة أعداء الله التي هي من علامات النفاق.

إن (الدرج) أو (الدرجة) ذات معنى واحد وهو نفسه الذي في (درك) أو (درك) إلّا أنَّ المفردتين الأوليتين تستخدمان للسلام بلحاظ الاتجاه إلى الأعلى ، بينما تستخدم المفردتان الآخريتان بلحاظ اتجاه السلم إلى الأسفل. كما أنَّ كلاًًا منهما استخدم مرة واحدة في القرآن.^(٣)

ان (الدرك الأسفل) هو قعر جهنم أو أخفض نقطة فيها ، ومن البديهي ان يكون العذاب في هذه النقطة اشد ، ومن هنا نستنتج أنَّ الله أعدَّ أشد العذاب للمنافقين. وهذا يكشف عن مدى حساسية موضوع النفاق وخطر المنافقين في جميع العهود ماضياً وحاضراً.

خطر المنافقين من وجهة نظر رسول الإسلام ﷺ

ينقل المرحوم الشيخ عباس القمي (رض) في كتابه القيم (سفينة البحار) تحت مادة (نفاق) حديثاً ملفتاً عن الرسول ﷺ نأي به هنا :

(١) عَدَّ القرآن الشيطان والكافرين وال مجرمين والمنافقين أعداءً للإنسان ؛ ولأجل المزيد يراجع المعجم المفهرس للقرآن المجيد كلمة (عدو).

(٢) لقد استخدم القرآن هذا الخطاب في اليهود في الآية ٣٠ من سورة التوبة لكن ينبغي الالتفات إلى ان اليهود كانوا مبتلين بنوع من النفاق.

(٣) (الدرك) استخدمت في الآية المذكورة في النص. اما (درك) فقد استخدمت في الآية ٧٧ من سورة طه عند بيانه لعبور موسى عليه السلام والإسرائيليين من نهر النيل للإشارة إلى المسير الذي ينتهي إلى سطح النهر.

«إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِأَيْمَانِهِ وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللَّهُ بِشَرْكِهِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقٍ عَالَمَ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ وَيَفْعُلُ مَا تَنْكِرُونَ» .^(١)

وفقاً لهذه الرواية ، إنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان قلقاً على المجتمع الإسلامي من خطر المنافقين ، وقلقه لم ينحصر في العهود الماضية وفي الحجاز فحسب ؛ بل ان قلقه شامل لجميع العصور والبلاد الإسلامية وحتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

٥ . التعبير بـ(النار) في القرآن

هناك نتيجتان تتربنان على استخدام القرآن لمفردة (نار) لا (نور) :

الأولى : ان الدخان والرماد من لوازم النار ، والمنافق يليل الآخرين بما ينجم من مضار عن هذه النار التي احتجها بنفسه ، المضار التي نتيجتها التفرقة والضغوط التي تفرض على الناس ، هذا مع ان المؤمن ينهل من النور الخالص والمشرعل المضيء للإيمان.

الثانية : رغم ظاهر المنافقين بنور الإيمان الا ان واقعهم نار ، واذا تمعنوا في بشاعة ضعيفة وقصيرة مدتها .^(٢)

٦ . النور والظلمات

يقول الله ﷺ **وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**

إنَّ مفردة (ظلمات) استخدمت ٢٣ مرة في القرآن ، ولم تستخدمن في مورد من الموارد بصيغتها المفردة بل كانت في جميع هذه الموارد جمعاً. أما مفردة (النور) فقد استخدمت ٤٣ مرة في القرآن وفي صيغة المفرد لا الجمع. ويا ترى أليس في ذلك خطاب؟

سر هذا يرجع إلى أنَّ القرآن يريد بيان ان النور واحد مهمما كان نوعه ، وهو نور الله ﷺ



(١) نهج البلاغة رسالة ٢٧ وكذا ميزان الحكمة ، الباب ٣٩٣٤ .

(٢) للمزيد راجع تفسير الأمثل ١ : ٩٦ - ١٠٠ .

نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(١) أما نور الإيمان ونور العلم ونور اليقين ونور الاتحاد والتلاحم وكلها ترجع إلى نور واحدٍ ، وهو نور الله ولا نور غيره ؛ لذلك لم يستخدم القرآن النور بصيغة المفرد.

أما النفاق والكفر والاختلاف والتفرقة فهي ليست ظلمة واحدة ، بل ظلمات متعددة ، هناك ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة البخل وظلمة الحسد وظلمة عدم الخوف من الله وظلمة الهوى والهوس وظلمة الوساوس الشيطانية و .. وخلاصة الظلمات متنوعة وليس واحدة ، لذلك استخدمت بصيغة الجمع.

٧ . خصال المنافقين الثلاث

إنَّ المنافقين . حسب هذه الآية (١٨) . هم ثلات خصال :

الأولى : صمٌ ، وهي صيغة جمع لأصم وتعني عدم السمع.

الثانية : بكم ، وهي صيغة جمع لأبكم وتعني أخرين.

والآية تعني أنهم لا يسمعون ولا ينطقون . إنَّ الأصم لا يستطيع التكلم رغم سلامته جهاز النطق عنده ؛ لأنَّ الإنسان لا يمكنه ان ينطق بكلمة لم يسمعها ولم يتعلماها ، ولذلك جاء القرآن بصفة الأصم قبل صفة الأبكم ، وهي تعني في النهاية ان المنافقين صم وبكم دائمًا.

الثالثة : عمي ، وهي جمع (أعمى) وتعني فاقد البصر ، وعلى هذا فإنَّ المنافقين صم بكم وعمي ، أي لا اذن لهم يسمعون بها ولا لسان لهم ينطقون به ولا عين لهم يصرون بها . ومع هذا الحال ، كيف يمكنهم معرفة الطريق الصحيح وكيف يمكنهم ادراك انحرافهم وخطأهم؟

إنَّ هذه الحواس والعناصر الثلاثة هي وسائل معرفة الإنسان ، فالاذن وسيلة للتعلم ، واللسان وسيلة لنقل العلوم من حيل إلى آخر ، والبصر هو وسيلة لاكتشاف العلوم والظواهر الجديدة ، والذي يفقد هذه العناصر الثلاثة لا يمكنه الخروج من الطريق المنحرف كما لا يمكنه الرجوع إلى طريق الحق . لكن يطرح سؤال هنا وهو : أنا نشهد المنافقين يتمتعون بالحواس الثلاث ، فلم القرآن ينفيها عنهم؟

نقول في الجواب : للقرآن منطقاً خاصاً فينظر إلى كل شيء في معجم القرآن من حيث الآثار التي تترتب عليه ، ووجود شيء وعدمه يتوقف على وجود آثاره وعدمها. وعلى هذا ؛ فالذين يتمتعون بنعمة النظر لكنهم لم يستخدموا لمشاهد آيات الله والاعتبار من مناظر الدنيا هم في الحقيقة عمي حسب رؤية القرآن. وأولئك الذين يتمتعون بنعمة السمع لكنهم لا يصغون لكلام الله ولا صوت المظلومين والمستضعفين فهم صم في منطق القرآن.

وأولئك الذين يتمتعون بنعمة اللسان لكنهم لا يشغلونه في ذكر الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وارشاد الجاهل ... فهم بكم في معجم القرآن. ووفقاً لهذا المعجم في مقياس اوسع اعتبر بعض الاحياء من الناس أمواتاً ، وبعض الاموات احياءً ، كمثال على ذلك يصف القرآن شهداء طريق الحق بأنهم احياء رغم انهم اموات ظاهراً.

﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(١)

إنَّ الشهداء من وجهة نظر القرآن احياء ؛ وذلك لأنهم يحضرون بالتأثير الذي يحضرى به الإنسان الحي ، فانهم يقوون الإسلام وذكرهم يداعى في الذهن المعروف والحسنات.

ويقول القرآن في مكان آخر : **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَفُرْقَانٌ مُبِينٌ لِّيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحقِّقَ**

الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ^(٢)

إنَّ الأحياء من وجهة نظر القرآن المجيد وفق هذه الآية هم طائفتان : الاولى : المؤمنون الذين يعيشون حياة قرآنية. الثانية : غير المؤمنين وهم اموات يعيشون بين الأحياء ، فإنَّ الذين يفقدون الأذن الصاغية اموات حسب رأي القرآن.

وفي النتيجة إنَّ المنافقين رغم ما يحضرون به من اذن وعين ولسان ، يفقدون الآثار الروحوية المترتبة على هذه الحواس. لذلك عذروا صمماً وبكماً وعمياً من وجهة نظر القرآن ، فهم إذن **﴿لَا يُرِجِّعُونَ﴾** أي لا يرجعون عن طريق الباطل ؛ وذلك لأنهم يفقدون آليات المعرفة ؛ شأنهم شأن الذي تجتمع فيه صفات الصم والبكم والعمى وقد أخذ بالسقوط ، فإننا لا يمكننا انقاذه أبداً ؟

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) يس : ٦٩ و ٧٠ .

لأنه لا لسان له ليستنجد ولا اذن له ليسمع تحذيرنا ، ولا يملك عيناً ليرى بها علائم الخطر قبل أن يسقط.

٨ . منشأ (النفاق)

للنفاق ثلاثة مناشئ :

الأول . العجز عن المواجهة والنزاع المباشر : ان الاعداء عند ما يخسرون النزاع ويفقدون القدرة عليه بشكل مباشر ، يتقمصون قميص النفاق ليستمروا بالعداء والخصومة. إن اعداء الرسول ﷺ كانوا يتظاهرون بالعداء له ، لكنهم تظاهروا بالاستسلام عند ما تغلب الرسول عليهم واستمروا ييطنون الكفر والعداء له وللإسلام وإن أبو سفيان وأمثاله ضلوا منافقين إلى آخر عمرهم. ^(١)

والأجل ذلك كان الإعتقداد بأن النفاق بدأ من المدينة ؛ لأن الإسلام في مكة كان ضعيفاً ، وما كان أحد يخافه. لذلك ما كان حاجة للتظاهر بالإسلام وتبطين الكفر الاانا نعتقد ان النفاق بدأ من مكة رغم ان دواعي النفاق في مكة لم تكن الحوف ، بل داعي النفاق آنذاك هو توقع البعض مستقبلاً زاهراً للإسلام ، الأمر الذي يضمن لهم مستقبلاً وموعاً جيداً.

يمكنا مشاهدة هذا الاسلوب من النفاق في جميع الازمنة والثورات منها الثورة الإسلامية في ايران ؛ فان بعض المنافقين هم الأعداء الذين خسروا المعركة ضد الشورة وعيوا النزاع المباشر والعلني.

الثاني . الإحساس بالحقاره الباطنية : ان الشخصيات الضعيفة والجبانة والتي تفقد الشجاعة الالزمة لابراز الاعتراض والتغوفه بما يخالف الآخرين ، تسعى هذه الشخصيات ان تسلك النفاق منهجاً لحياتها ولتجنب المواجهة بل تتظاهر بالاتفاق مع الجميع. إن المنافق يتظاهر بالإسلام عند المسلمين ويتظاهر بعبادة النار عند عبادة النار ، ويتظاهر

(١) إن الرسول ﷺ كان يعلم بمحامم لكن باعتبار ان مواجهتهم العلنية وال مباشرة كانت تؤدي إلى نتائج لا يحمد عقباها اجتنب عن منازعاتهم ومخاصلتهم وقد قال : «لو لا اني اكره ان يقال : ان محمد استعان بقوم حتى إذا ظفر بهم قتلهم لضربيت أعناق قوم كثير» وسائل الشيعة ج ١٨ ، ابواب حد المرتد ، الباب ٥ ، الحديث ٣.

بالعلمانية عند العلمانيين ؛ وذلك لضعف الشخصية ، فهو لا يتحرّأ التفوّه بعقيدته الواقعية.

(١)

الثالث . حب الدنيا : إن النفاق الدولي والعالمي لهذا العصر ينبع من هذا المنشأ. إن سبب الازدواجية في التعامل وانطلاق دعوات لاحترام حقوق البشر من قبل بعض الدول الاستكبارية في موارد ، وسکوت ذات الدول في موارد أخرى ، رغم ما تحصل من انتهاكات وجرائم ضد البشرية ، هو حب الدنيا. فالدول تطلق هذه الدعوات متى ما تعرضت مصالحها للخطر وتستخدم هذه الحرية ضد الدول التي تعرضت مصالحها للأخطار ؛ إلا أنها تتغاضى عن هذه الانتهاكات إذا ما صدرت عن أحد صديقاتها التي لا تعرّض مصالحها للخطر ، حتى لو كانت الانتهاكات واضحة ولا شبهة فيها ولا تبرير لها.

القرآن المجيد يحكي نماذج بارزة ومؤلمة عن هذه الطائفة من المنافقين في الآيات ٧٥ .

٧٧ من سورة التوبه :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلُّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ إِيمَانًا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَمِمَّا كَانُوا يَكْنِدُونَ﴾

هذه الآيات نزلت في ثعلبة بن حاطب ، وكان من الانصار فقال للنبي ﷺ : ادع الله ان يرزقني مالاً. فقال : «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»^(٢) أمّا لك في رسول الله اسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت ان تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت».«.

ثم اتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالاً والذى بعثك بالحق ، لئن رزقني الله مالاً لاعطين كل ذي حق حقه. ^(٣) قال ﷺ : «اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

(١) في حديث للإمام علي عليه السلام أشار فيه إلى هذا المنشأ «نفاق المرء من ذل مجده في نفسه» ميزان الحكمة الباب ٩٣٩٢ ، الحديث ٢٠٢٥٨.

(٢) مراد الرسول الاكتفاء بالحياة البسيطة والقناعة بما.

(٣) من الأمور المستفاده من هذه الرواية هو عدم الاصرار على الطلب. وقد جرت هذه القضية مرات عديدة ، فان عدم الاستجابة قد تكون لصالح الإنسان وهو لا يعلم بذلك كما يقول الله ﴿عَسَى أَنْ تُحِبُّو شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الأمر صادق حتى بالنسبة إلى الطلبات المعقولة مثل الاصرار على التوفيق لاداء صلاة الليل فان عدم توفيقه قد يكون لاجل المول دون ابتلائه بالعجب والرياء.

فاتخذ غنماً فنمـت كـما يـنـمـو الدـود فـضـاقـت عـلـيـهـ المـدـيـنـة فـتـحـى عـنـهـا فـنـزـلـ وـادـيـاً مـنـ أـوـدـيـتـهـا ، ثـمـ كـثـرـت نـمـوـا حـتـىـ تـبـاعـدـ مـنـ المـدـيـنـة فـاشـتـغـلـ بـذـلـكـ عـنـ الـجـمـعـةـ وـالـجـمـاعـةـ . وـبـعـثـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ إـلـيـهـ الصـدـقـ لـيـأـخـذـ الصـدـقـةـ فـابـيـ وـبـخـلـ وـقـالـ : مـاـ هـذـهـ إـلـاـ اـحـتـ الـجـزـيـةـ ، (١) فـقـالـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ : «ـيـاـ وـيـحـ ثـلـبـةـ ، يـاـ وـيـحـ ثـلـبـةـ»ـ ، وـأـنـزـلـ اللهـ الـآـيـاتـ . (٢) أـرـجـعـ الـقـرـآنـ سـبـبـ نـفـاقـ ثـلـبـةـ إـلـىـ بـخـلـهـ وـحـبـهـ لـلـدـنـيـاـ وـخـلـفـهـ لـلـوـعـدـ . وـالـمـدـهـشـ أـنـ الـآـيـةـ الشـرـيفـةـ اـعـتـبـرـتـ نـفـاقـ اـمـثـالـ ثـلـبـةـ مـسـتـمـراـ إـلـىـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـلـاـ يـخـرـجـ مـنـ قـلـوـبـهـ إـلـىـ يـوـمـ يـلـقـوـنـ اللهـ . اللـهـمـ اـجـعـلـ عـوـاقـبـ اـمـورـنـاـ خـيـراـ .

إـذـاـ اـرـدـنـاـ انـ لـاـ نـبـتـلـىـ بـهـذـاـ المـرـضـ الـخـطـرـ عـلـيـنـاـ تـحـبـ مـنـاشـيـءـ النـفـاقـ وـالـابـتـعـادـ عـنـهـاـ ، وـبـخـاصـةـ أـنـاـ فـيـ لـيـالـيـ شـهـرـ رـمـضـانـ الـمـبارـكـةـ ، عـلـيـنـاـ انـ نـهـلـ مـنـ بـرـكـةـ هـذـهـ الـلـيـالـيـ فـيـ الـاسـحـارـ وـذـلـكـ بـادـاءـ صـلـاـةـ الـلـيـلـ وـلـوـ باـخـتـصـارـ وـمـنـ دـوـنـ الـمـسـتـحـبـاتـ جـمـيعـهـاـ وـالـسـجـودـ وـالـلـجـوـءـ إـلـىـ اللهـ وـالـعـوـدـ بـهـ مـنـ النـفـاقـ وـجـمـيعـ الـذـنـوبـ وـالـرـذـائـلـ الـأـخـلـاقـيـةـ .

(١) كـثـيرـ اوـلـئـكـ الـذـينـ لـاـ يـؤـدـونـ مـاـ عـلـيـهـمـ مـنـ خـمـسـ وـبـرـرـونـ عـلـمـهـمـ بـاـقـاوـيلـ مـثـلـ : «ـنـحـنـ حـصـلـنـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـمـوـالـ بـعـرـقـ جـبـيـنـاـ فـلـمـاـ ذـاـ نـعـطـيـهـاـ لـغـيـرـنـاـ؟ـ»ـ .

(٢) تـفـسـيرـ الـأـمـثـالـ ٧ : ١٢٤ - ١٢٥ .

المثل الثاني :

تمثيل آخر للمنافقين

يقول الله في الآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة البقرة :

﴿أَوْ كَصَّيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمُؤْتَ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ كُلُّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لِذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تنوع أمثال القرآن

أمثال القرآن متنوعة جداً. والله استعان بمحترف الأمثال لأجل ايضاح حقائق مهمة لها تأثير بالغ في تربية الإنسان وسعادته. تارة يمثل الله بالحمدادات كما في الآية ١٧ من سورة الرعد : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَأَلَتْ أُودِيَّةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْئَنُ زِيدًا رَابِيًّا وَمَمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةً أَوْ مَنَاعِ زَبَدٌ مَثُلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلِ ..﴾
لأجل ايضاح ماهية الحق والباطل استعان القرآن هنا بالتمثيل بالمطر ، فانه عند ما ينزل من السماء ينزل زلاً طاهراً ، الا انه عند ما يجري على الارض يتتسخ باللوحل وبما على الارض من أوساخ ، وتبدل الاوساخ أحياناً إلى رغوة (زيد) وعند ما يصل هذا الماء الجاري إلى أودية يفقد رغوته تدريجياً ليرجع إلى زلاله. والحق والباطل مثل هذا الماء فالرغوة الوسخة بمثابة الباطل والماء الجاري الطاهر بمثابة الحق.

وقد يمثل القرآن بالنباتات كما هو الحال في الآية ٢٤ من سورة ابراهيم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ

الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ

إنَّ أَبْرَزَ مَسْدَاقَ لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ هُوَ كَلِمَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَمَثَلَهَا اللَّهُ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ
الْخَضْرَاءِ دَائِمًا.

وقد يمثل القرآن بالحيوانات ونموذج ذلك ما جاء في الآية ٢٦ من سورة البقرة : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَعْوَضُهُ فَمَا فَوْقَهَا ...** فمثيل هنا بживان صغير ، كما مثل
في سورة العنكبوت الآية ٤١ بالعنكبوت.

وقد يمثل القرآن بإنسان كما فعل في الآية ١٧١ من سورة البقرة : **وَمَئَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَئِلِ الَّذِي يَعْقِعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنَدَاءً صُمُّ بُكْمُ عُنْيٍ فَهُمْ لَا يَعْقُلُونَ**
مثل الله تعالى الرسول ﷺ في الآية بالراعي والكافر بالحيوانات التي يرعاها الراعي .
إنَّ أَهْمَ سبب لتنوع أمثال القرآن هو تبسيط الفهم وتعميقه عند المخاطبين الأوائل
للقران وهم العرب الأميون في عهد الجاهلية وكذا المسلمين فانهم باستثناء عدد قليل منهم
كانوا اميين وما كانوا يتمتعون بحظ وافر من الفهم والتعقل .
وما كان بالامكان تفهمهم المفاهيم القرآنية الا بهذا الأسلوب وبآلية التمثيل التي
تجسد المفاهيم القرآنية الرفيعة .

على الجميع وبخاصة العلماء والفقهاء والخطباء و .. ان يتنهجوا منهج القرآن هذا ،
ليسهلوه على المخاطب إدراك المفاهيم ويؤثرها في نفسه ويجذبوه نحوها. إنَّ القرآن الذي هو
من تخليات الجمال الإلهي هو بنفسه مظهر للجمال الكلامي . وعلى هذا ينبغي اتباع القرآن
في تسهيل الكلام وتنميته ، ونحن نعدُّ هذا أصلًا قيمياً.

اوئلَكَ الَّذِينَ تَحْضُى كَتَابَهُمْ بِالتَّعْقِيدِ وَصَعْوَدَةِ الْفَهْمِ وَيَعْدُونَ اسْتِخْدَامَ اسْلُوبِ التَّسْهِيلِ فِي الْكِتَابَةِ عَلَى قَلْةِ الْعِلْمِ ، هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ انتَهَجُوا مِنْهَاجًا عَكْسَ الْمَنْهَجِ
الَّذِي سَلَكَهُ الْقُرْآنُ .^(١) نأمل من الجيل الشاب للحوza العلمية وطلاب الجامعة ان يعدوا
سهولة البيان فـأ

(١) يقول الله في الآية ٤ من سورة ابراهيم **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لَيَسِّئُ لَهُمْ** كما قال الرسول ﷺ مراراً : «أمرنا ان نكلم الناس على قدر عقوتهم» بحار الانوار ١ : ٨٥ .

وقيمة ويعدوا صعوبة الكلام وتعقده كعمل غير قيمي بل مخالف للقيم.

الشرح والتفسير

الآيات ماضية الذكر^(١) تحدثت عن المنافقين وخطر النفاق ، وقد تكون آيات المثل السابق ناظرة إلى مجموعة خاصة من المنافقين ؛ وهذه الآيات ناظرة إلى مجموعة أخرى من ذوي الوجهين.

إنَّ مثل هؤلاء المنافقين حسب هذه الآيات كمثل المسافر الذي يضل في صحراء ويختلف عن قافلته في يوم مطر ولا ملجاً يأويه ولا صديق يعينه ولا يعلم الطريق ولا ضوء ينير له الطريق ، في وقت ملئت ظلمات الغيوم السماء بحيث لا يصله حتى نور النجوم الضعيف ، والسماء ترتعد ، والبرق لا يزيد إلا خوفاً ودهشة ، وذلك لشدة صوت ووقع الرعد والبرق في الصحاري ، وكأنَّ البرق يريد أن يخطف بصره ويعميه ، وخوفه من الرعد يجره لوضع أصابعه في أذنيه وهو مرتاح خوف موت الصاعقة. إن المنافق بمثابة هذا المسافر.

﴿... وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لقد فسرت الاحاطة في الآية بتفسيرين : الاول : الاحاطة العلمية لله. الثاني : احاطة الله من حيث قدرته. فإذا كانت الاحاطة بمعناها الاول فالآلية تعني أنَّ الله يعلم بالكافرين. وإذا كانت الاحاطة بمعناها الثاني فالآلية تعني ان الله قادر على كل شيء ولا يخرج شيء عن دائرة قدرته.

﴿بَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ وذلك لأنَّ الإنسان إذا اعتاد على مكان مظلم ، ثم يسلط على عينه ضوء قوياً ، فإنه سيكون حينئذ عرضة للعماء وفقدان البصر.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ﴾ هذا المسافر عند ما يشاهد البرق يفرح لأنَّه اضاء له الطريق ، لكن فرصته لم تدم ؛ لأن الضوء سريعاً ما ينطفئ.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي يتوقف المسافر بعد ان انطفىء نور البرق ، ويرجع إلى حيرته السابقة.

(١) الآيات ١٩ . ٢٠ من سورة البقرة.

﴿وَلُوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾

شأن المنافق شأن هذا المسافر حيث يفید من نور الایمان ، لكن بما أن إيمانه ظاهري لم يستمر الا مدة محدودة وما يمضي زمن طويل حتى يفتضح ويغرق تارة أخرى في ظلمات ريائه وكفره ونفاقه.

خطابات الآية

١ . كيفية ايجاد البرق والرعد والصاعقة

إن البرق يحصل اثر اصطدام غيمتين أحدهما تحمل شحنات موجبة وآخرى شحنات سالبة والاصطدام هذا يولد الضوء المعروف بالبرق ؛ كما ان صوتاً شديداً يحصل اثر هذا الاصطدام يعرف بالرعد. وكلما كانت الغيمتان كبيرتين كان البرق والرعد أعظم ؛ وذلك لكثره الشحنات المحمولة من قبل كل من الغيمتين.

أما الصاعقة فتحصل اثر اصطدام غيمة ذات شحنات موجبة مع مانع ارضي من قبيل الجبل أو الشجرة أو الإنسان ، ونتيجة ذلك هي اشتعال الشيء المصطدم به . إذا كان قابلاً للاشتعال . وتبدلاته إلى كومة من الرماد بسرعة مدهشة ، ولذلك يقال : إنَّ الصاعقة خطرة على الإنسان إذا كان في سهل.

ما يلفت الانتباه هنا هو أنَّ بعض الروايات عدت الرعد والبرق نتيجتين لاعمال موجودات ميتافيزيقية ، فاعتبرت الرعد اصواتاً للملائكة والبرق من آثار جلد الملائكة للغيبوم والسحب .^(١) وهذا أمر يتنافى مع المسلمات العلمية للعصر الحاضر ، كما ان هذا الاختلاف يطبع تساؤلاً في ذهن المتأمل .

يا ترى أي الامرين هو السبب الحقيقي والواقعي للرعد والبرق؟
في الجواب نقول : لا تضاد بين التبرير العلمي والديني لظاهري البرق والرعد ؛ وذلك لأنَّ أحد معاني مفردة الملك الواردة في الروايات هو القوى الطبيعية التي خلقها الله ، فالجاذبية

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٣٤ ، الحديث ٩ و ١٠ .

والسحاب وغيرها من الظواهر الطبيعية التي سميت في الروايات ملكاً . لقد جاء في رواية أنَّ كل قطرة تنزل من السماء يحتضنها ملك وينزلها إلى الأرض .^(١)

وبهذا التبرير أي اعتبار الجاذبية ملكاً يمكن القول بعدم التضاد بين الرؤى والكتشفيات العلمية مع ما ورد في الروايات الدينية ، بل ينطبق أحدهما على الآخر وتحل بذلك عقدة التضاد الظاهري بينهما .

٢ . الاختلاف بين المثلين

المثلان يتعلقان بالمسافر الذي ضل الطريق في صحراء ؛ لكن المسافر في المثل الأول يواجه خطر المجاعة والعطش والافتراض من قبل الحيوانات ، أمّا في المثل الثاني فان الأخطار التي تحدق به هي الاعصار والسيول والرعد والبرق والصاعقة . ومن الطبيعي ان تكون شدة الأخطار في المورد الثاني أكثر من المورد الأول وتجعل حياته عرضة للموت بشكل اشد .
يعتقد البعض أنَّ المثلين يحكيان حال طائفة خاصة وهي طائفة المنافقين عموماً ، إلّا ألي أرى أنَّ كلاً من المثلين يحكي حال قسم من المنافقين ، فان المنافقين ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول : هم المسلمون الذين ضعف ايامهم عن مواجهة المطاعم المادية والدنيوية مثل المال والجاه والمقام ، فلا يهابون الكذب وخلف الوعيد ونكث العهد ؛ وصولاً لما رحم الشخصية ، فهم في النتيجة (مسلمون ضعيفو الإيمان) امثال ثعلبة بن حاطب الذي تكلمنا عنه في الصفحات الماضية .

والقسم الآخر للمنافقين : هم أولئك الذين لم يدخلوا الإيمان في قلوبهم أبداً وقد تظاهروا به فحسب دون ان يحملوه ، وذلك خوفاً من قدرة الإسلام أو طمعاً بمصالح المسلمين ، فهم في النتيجة (كفار متظاهرون بالإسلام) امثال أبي سفيان ومعاوية ومروان .
ومن الواضح أنَّ القسم الثاني هم الاعداء اللدودون للإسلام وجودهم يشكل خطراً على الإسلام والمسلمين يفوق خطر القسم الأول بمرات ، ولذلك نرى أنَّ المثل الأول ناظر إلى

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٣٣ ، الحديث ٥ .

القسم الاول من المنافقين ، والمثل الثاني ناظر إلى القسم الثاني من المنافقين الذين يعدّ خطفهم أشد وأعظم من خطر القسم الأول.

٣ . عالم النفاق أو النفاق العالمي

للنفاق مستويات مختلفة ، فمنه ذات المستوى الفردي ومنه ذات المستوى الجماعي والحكومي والعالمي . وما يؤسف له أن عالمنا اليوم عالم منافق حيث يدعو لشيء ويعمل بما يخالف دعوته ، والحدث الآتي ذكره من أبسط مظاهر النفاق العالمي واوضحها في ذات الوقت.

أرسل الإنسان في سنة من السنوات الماضية كلباً في مركب فضائي وذلك لدراسة تأثير القضاء على الموجودات الحية ، وبعد هبوط المركبة على وجه الأرض وجد الكلب ميتاً. اذاعة هذا الخبر آثار إعترافاً من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الحيوانات وكذا غيرها من المؤسسات والجمعيات وقد كان محور الاعتراضات هو : لماذا قتلت حيواناً في سبيل تجربة علمية؟

إنَّ هذه الاعتراضات تكشف عن الوجه الظاهري النزيه للمجتمع الدولي ، إلا أننا نشاهد حالياً مقتل العشرات بل المئات والآلاف من المواطنين الجزائريين في مجازر جماعية دون أن تطلق صرخات ضد هذه المجازر.

لمن تلك اليد التي ترتكب هذه المجازر من دون ان تلاقي اعتراضات معتد بها؟ يا لها من أيد لا تستطيع الشرطة بل ولا الجيش ان تقف امامها؟ أنها ايدي العالم المستر والمتقمص قميص الدفاع عن حقوق الحيوانات فضلاً عن حقوق البشر. ألا يمكن ان نقول : ان هذا العالم هو عالم منافق؟ واي نفاق يرتكبه؟ انه نفاق وقع ، فيه صرخات تعلو وتشتد لاجل قتل كلب ، كما فيه سكوت على قتل الشعوب وارتكاب المجازر الجماعية.

إن الإسلام ووجودان البشرية ينفر من هذا النفاق العالمي ونحن مطمئنون بان زعماء النفاق سيفتضحون يوماً ما.

الهي أكف المستضعفين وبخاصة المسلمين شر هذا النوع من النفاق.

٤ . ظهور المنافقين في الإسلام

هل (جذور النفاق) بدأت من المدينة أم من مكة؟ قضية مختلف فيها.
ولاحل ايضاح الموضوع دراسة تاريخ النفاق والمنافقين في الإسلام نستعين بالقرآن المجيد ، فقد جاءت آيات كثيرة في مجال النفاق ، والدراسة الاجمالية للموضوع يكشف عن استخدام هذه المادة ٣٧ مرة في القرآن.

لكن أمر النفاق والمنافقين لا ينحصر في هذه الموارد المحدودة ؛ وذلك لأننا بحد الكثير من الآيات تعرضت لهذه القضية من دون ذكر لهذه المادة أبداً ، كما هو الحال بالنسبة لثلاثة عشر آية من الآيات الاولى لسورة البقرة ^(١) فقد كان موضوعها النفاق من دون ان يأتي ذكر مادة النفاق مباشرة بل استخدمت مواد مرادفة لمادة النفاق.

إنَّ الآيات السبع والثلاثين التي تضمنت مادة النفاق ، نزلت كلها في المدينة ؛ ومن هنا يمكننا ان نستنتج ان القائلين ببدء النفاق من المدينة نظروا إلى ظاهر القرآن ، إلَّا أنَّ الأفضل لنا ان نرجع إلى الوراء قليلاً لننظر إلى تاريخ حياة الرسول ﷺ والنبوة وكيفية التبليغ ومراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام.

مراحل جهاد الرسول لاعداء الإسلام

ان مواجهة الكفار والمشركين للرسول ﷺ والدين الإسلامي الحنيف ذات مراحل

ست :

المرحلة الأولى : الاستهزاء والاستخفاف بال الدين

بعث محمد نبياً في غار حراء ونزلت آنذاك اول آيات القرآن عليه ، وأصبحت دعوته علنية بعد ثلاث سنوات من الكتمان والتستر في دعوة الناس إلى الدين الجديد. كان المشركون والوثنيون يعتبرون هذا الدين خطراً على مصالحهم ، لكنهم ما كانوا يأخذونه مأخذًا جدياً لذا بادروا إلى الاستهزاء بالرسول ونسبة الجنون اليه.

يقول الله في هذا المجال في الآية ٦ من سورة الحجر : **﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرِ إِنَّكَ**

(١) من الآية الثامنة وحتى العشرين.

لمَجْنُونٌ ^(١) وكانوا يستهذفون من ذلك عدم اخذ الناس هذا الدين مأخذًا جدياً ، وعدم الاعتناء والتصديق بكلام الرسول ؛ إلا أنّ المسلمين رغم هذه الاتهامات كانوا يزدادون يوماً بعد اخر ، وكان الناس وبخاصة الشباب ^(٢) منهم يصغون لكلام الرسول وينجذبون اليه ، لذلك باءت مواجهتهم في هذه المرحلة بالفشل ، وباتوا يفكرون بمواجهة أخرى ومرحلة أخرى من التصدي.

المرحلة الثانية : نسبة السحر والشعر للرسول ﷺ

بما أنّ الكفار لم ينجحوا في الحد من تأثير الرسول على الناس ، من خلال المرحلة الأولى من المواجهة ، بادروا إلى التصدي له بنعته بالكذب والشعر والسحر. إنّ النسبة هذه تعني أنهم قالوا للناس : إنّ تأثير الرسول فيهم لأجل كونه . نعوذ بالله . ساحراً ذكياً وشخصية مرموقة ويجذب النفوس نحوه لعلمه بالشعر وامتهانه مهارة انشاده. ولو كان كلامه كلاماً عادياً ما كان يجذب الناس بهذه الشدة. يقول القرآن في هذا المجال في الآية ٤ من سورة (ص) : «**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**» ^(٣)

لم تتوفر آلية المواجهة هذه جميع الاهداف التي كانوا يستهدفونها ، وذلك لأنّ عدد المسلمين لا زال في تزايد مستمر والرجال والنساء والشباب والشيخوخ لا زالوا يتوفدون على الرسول ليعلنوا الإسلام ، وكان نتيجة ذلك ان بادر الكفار إلى تغيير اسلوبهم في المواجهة.

(١) وقد تكررت هذه الإتهامات في آيات أخرى نقلأً عن المشركين ، وهي : الدخان : ١٤ والطور : ٩٢ ، والقلم : ٢ ، و ٥١ والتوكير : ٢١. ويستفاد من آيات القرآن ان اول مواجهة يخوضها المشركون والكفار لرسول يبعث لهم هي نسبة الجنون إليه. وللمزيد يمكن مراجعة الآيات التالية : الذاريات : ٣٩ و ٥٢ ، الصافات : ٣٦ ، الشعراء : ٧٢ ، نوح : ٩.

(٢) لقد كان لجييل الشباب دور فاعل في تمكّن الإسلام وامتداده في بقاع الأرض ؛ وحالياً للشباب نفس الدور الذي كان للشباب في صدر الإسلام ؛ فما دام الشباب في حضن الإسلام لا خطر يواجه هذا الدين. ولهذا ينبغي العناية الخاصة بهذه الشريحة في بلداننا.

(٣) ان هذه التهمة لم تختص برسولنا ، بل شملت الكثير من الرسل حيث يقول الله في الآية ٥٢ من سورة الذاريات : «**كَذِلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ مَجْنُونٌ**» وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن متناولة الموضوع ذاته.

المرحلة الثالثة : المحاصرة الاقتصادية وقطع العلاقات

إنَّ فشلُ أساليبِ التهم ونسبةِ الجنون وغیره إلى الرسول جعلَتِ الكفارَ والمشركين يفكرون بالمواجهة العملية ، لذلك فرضوا حضراً على المسلمين وحبسوهم في مكان يدعى (شعب أبي طالب) ، فمنعوا التردد عليهم والتعامل معهم.

لقد صبرَ المسلمون مدةً ثلاثةَ سنواتَ في ذلك الشعبِ الحالي من الماءِ والكلأِ ، وتحملوا المشاكلَ التي واجهتهم آنذاك وثبتوا ولم تزل أقدامهم .^(١) والمكانُ هذا رغمَ انه مشجر حالياً إلَّا أنَّ الإنسان لا يطيق قراءةَ الفاتحة على قبرِ أبي طالب عليهما السلام هناك ، وذلك لشدة الحرارة ، والمسلمون آنذاك صمدوا وثبتوا ، وقد قضى البعضُ نحبه هناك ، رغمَ ذلك لم يستسلموا للاعداء.

وبعد تحييش عواطفِ اهالي مكة بادر البعض إلى فك الحصار عنهم شيئاً فشيئاً إلى ان فقد الحصار تأثيره وباءت جهود الكفار مرة أخرى بالفشل الذريع وما باتت هذه الآية تجدي نفعاً.

المرحلة الرابعة : التدبير لاغتيال الرسول ﷺ

لقد شاهدَ المشركون من جانبِ فشلِ آلياتِ التصدي للرسولِ والمسلمين ومن جانبِ اخر شاهدوا انتشار الدعوة الإسلامية بشكل سريع بين الناس وإدبارهم عن الاصنام ؛ لذا فكرُوا بإجراءاتٍ جديةٍ وخطرةٍ أكثر من ذي قبل وقد استهدفوا في هذه المرحلة شخصية الرسول ﷺ ذاتها. فقد وجد زعماء قريش حلولاً ثلاثةً لمشكلتهم :

الأول : نفي الرسول ﷺ خارج مكة حفظاً لمصالح الكفار في مكة.

الثاني : حبسه للحيلولة دون اتصاله بالناس والمسلمين.

الثالث : قتله.

(١) ان الإسلام الذي بلغنا حالياً هو نتيجة للمشاكل والزحmate والشهادات والتضحيات التي تحملها الأوائل ، لذلك كان علينا لزاماً أن نسعى لحفظ هذا الدين بالقول والعمل.

نتيجة شوراهم كان قرار قتل الرسول في ليلة المبيت^(١) حيث حاصر أربعون شخصاً من شجعان العرب بيت الرسول ﷺ ليقتلوا في صباح تلك الليلة. اطّلع الرسول ﷺ على مؤامرهم بحدي الهي فامر الامام علي عليهما السلام ان ينام في فراشه آنذاك ، وخرج بشكل معجز من بيته قاصداً يثرب (المدينة) ، إلا أنه تحرك خلاف اتجاه وطريق المدينة لخداع المشركين ، وبعد ان اطلع المشركون على تملص الرسول قاموا بتعقيبه وتبع خطواته ، لكنَّ الله شاء بقدرته ان يصل الرسول المدينة بسلامة ليقيم اول حكومة اسلامية زادت من قدرة المسلمين وشوكتهم.

المرحلة الخامسة : الحروب المتواتلة ضد المسلمين

بعد ما نجع الكفار من النيل من شخصية الرسول ﷺ سلكوا طريق المواجهة المسلحة ، وذلك لعدم نجاح آليات الحرب النفسية التي سلكوها ضد المسلمين لردهم عن دينهم وللحد من توسيع رقعة الإسلام.

إنَّ الإسلام يهدد سلطة الكفار ومصالحهم ؛ ولا جل القيام بهمة المواجهة العسكرية همُوا في البداية اعداد رجال مكة ثم رجال القبائل الأخرى لبدء سلسلة حروب عسكرية متواتلة ومتواصلة كانت معركة (بدر) البداية و معركة الأحزاب^(٢) هي الذروة.

لقد استفاد كفار قريش في معركة الأحزاب من جميع ما توفر لهم من امكانيات وقوى ، وكما يبدو من اسمها فان جميع قبائل العرب وطوائفهم اجتمعوا واعدوا انفسهم للنزال ضد الإسلام ولقتل الرسول ورجال المسلمين ولإغارة على اموالهم ولهدم بيوتهم ، وسيجي نسائهم والقضاء على الإسلام في النهاية.

تشير الآياتان ٩ و ١٠ من سورة الأحزاب إلى هذه المرحلة من المواجهة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَنَّكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجْنُودًا لَمْ تَرُؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ

(١) الاصطلاح يطلق على الليلة التي نام فيها الامام علي عليهما السلام مكان الرسول ﷺ ليمرره على خروج الرسول من بيته. ولاجل هذه التضحيه العظيمة نزلت الاية الشرفية التالية في حقه عليهما السلام : «وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْيَاعَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَوُوفٌ بِالْعِبَادِ».

(٢) بعد الأحزاب كانت معارك أخرى إلا أنها ليست بمستوى الأحزاب من حيث الأهمية.

**بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ، إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرُ وَنَظَرُوا بِاللَّهِ الظَّنُونَا**

إنّ هذه الآيات أهل للتأمل من حيث أنها تكشف عن معاناة المسلمين في صدر الإسلام.

وبحسب هذه الآيات ، فإنّ العَدُو حاصر المدينة مِنْ جميع الجهات ، وقد بلغت اعدادات الاعداء وعدتهم إلى مستوى جعلت أبصار المؤمنين تزيع ، وقلوبهم تبلغ الحناجر ؛ وذلك لأن المسلمين قليلون وعدتهم محدودة وأسلحتهم بسيطة ، وهذا هو السبب في نفوذ الرعب والخوف في قلوب ضعاف الإيمان من المسلمين حيث كانت عبارات التزلزل والشك تدور في اذهانهم وقد يكون المسلمون جميعاً باستثناء الرسول ﷺ والإمام علي عليهما السلام وعدة قليلة من المسلمين تزلزلوا إيماناً. فان ضعيف الإيمان يتزلزل عند مواجهته لأزمة شديدة ، عكس قوي الإيمان حيث يقوى إيمانه ويزداد ثباته عند مواجهة الأزمات والمشاكل .

إنّ معركة الأحزاب كانت ساحة للإختبار لتمييز المؤمنين الحقيقيين عن غيرهم من ضعاف الإيمان والمترددين في إيمانهم. إنّ نهاية هذه المعركة كان لصالح المسلمين ولم تحصل مواجهة وارقة دماء الا في مورد واحد ، حيث قتل الإمام علي عليهما السلام عمرو بن ود.

عسكر الاعداء ابتلي باعصار شديد ، ولشادته كانت تقلع خيامهم من أماكنها وتقلب قدور الطعام ، كما سادهم خوف واضطراب وخيبة امل اجبرت أبا سفيان وغيره من زعماء الكفر على الرجوع كالجيش الخاسر ، وبذلك تحقق وعد الله بنصر المؤمنين تارة أخرى ، ونجى المؤمنون من خطر كبير كان يهدد وجودهم ودينهـم ، فكان نصراً للمسلمين اضفي عليهم قدرة وعظمة جعلت مكة وضواحيها لا تفكـر بعدئذ بحرب مع المسلمين. ولاجل هذا استسلمت بعد فترة من الزمن مكة واهاليها ليصبح الإسلام القوة الوحيدة في بلاد الحجاز.

المراحلة السادسة ، اللجوء إلى أخطر سلاح (الفاقد)

رغم انتكاسة الاعداء في حرب الأحزاب وخسارتهم الحرب آنذاك ، ورغم ما ترتب على هذه الانتكاسة من عدم تفكيرهم بعدئذ بدخول حرب مع المسلمين ، إلا أنّ ذلك ما كان يعني تركهم لمعارضة الإسلام ومخالفته. إنّ الأعداء ، اثر ادراكم فشل وسائل المواجهة

السابقة

واقرارهم بذلك ، بدأوا يفكرون بوسيلة ناجحة وفضلى للتخييب والدمار ، وما كانت وسائلهم الجديدة إلا النفاق .

إن الأعداء خسروا الحرب مع المسلمين ، وهو أمر جعلهم في النهاية يستسلمون ويفتضرون إلا أنفسهم لم ينسوا حربهم مع الإسلام وعدائهم له ، وقد تستروا في هذه المرحلة من المواجهة بنقاب النفاق وانتظروا يترصدون الفرصة للنيل من الإسلام وانزال الضربة القاسمة فيه . ولآية الشريفة الأولى من سورة المنافقين ناظرة إلى هذه المرحلة من المواجهة

﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ إِنَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

وبهذا الشكل تشكل تيار النفاق ليصبح تدرجياً كالسيل الجارف ،^(١) وظاهر هذه الآية وآيات أخرى هو أن النفاق بدأ من المدينة . لكن هذا لا يعني أن مكة كانت تخلو من النفاق والمنافقين ، فقد يملك البعض قدرة حدس وتخمين المستقبل وفكراً سياسياً قوياً ، وكان من خلال ذلك قد رأى النصر النتيجة الحتمية لنشاطات الرسول ﷺ ، ولا يمكن بلوغ المقامات العليا آنذاك إلا من خلال التظاهر بالإيمان الواقعي والقوى والتماشي مع هذا التيار .

نتائج الأمثال

يمكننا الخروج بالنتيجة التالية من الآيات الأربع للمثلين السابقين : (المنافق لا ثبات له) وانه يعاني من حالات نفسية منها الوحدة والخوف والوحشة والاضطراب والفضيحة ، كما تتصور في حقه جميع الأخطار التي عدت للمسافر الذي ضل الطريق في الصحراء . أمّا المؤمن فيحضرى بخدوه وسكتينة واطمئنان خاص يحصل في ظل الإيمان الخالص بالله .

ما أحسن ما قال الله تعالى في هذا المجال : **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِسُوا إِيمَانَهُمْ بِطْلِمٌ﴾**

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢)

(١) ان الثورة الإسلامية في إيران واجهت نفس المراحل الست ، وقد شهدناها قبل الثورة وبعدها فكان منها الاستهزاء بالأمام الخميني (قده) واتهاته ونفيه إلى الخارج والحصار الاقتصادي والحروب المسلحة الداخلية منها والخارجية ، والنهاية هو النفاق الذي كانت منظمة خلق إيران نموذجاً بارزاً له .

(٢) الأنعام : ٨٢ .

وقد فسّر الظلم في الآية بتفسيرين ، الاول : هو الشرك ، أي أنَّ ﴿يُمَانُهُمْ بِظُلْمٍ﴾ تعني الإيمان الخالص الذي لم يمتزج بالشرك . والثاني : هو المعنى المعروف والمتبادر من المفردة ، أي أنَّ المؤمن الذي لم يمتزج إيمانه بظلم لأحد فله الأمان وهو مهتد . ونقرأ في آيات أخرى : ﴿أَلَا إِنَّ أُولَئِكَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُجُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)

إنَّ عدم الأمان والاضطراب والخوف والوحشة في الدنيا ، وعذاب جهنم في الآخرة هو نصيب المنافقين ، أمّا المؤمنون فنصيبهم الأمان والسعادة والفلاح .

وهذا أمر ثبت العلم الحديث صحته ، ففي مؤتمر حمل عنوان (تأثير الدين على نفس الإنسان) ، توصل العلماء المشتركون فيه إلى أنَّ المؤمنين قليلاً ما يبتلون بالامراض النفسية وكثيراً ما ينحدر هذا النوع من الامراض في الذين يفقدون الإيمان بالله ؛ وذلك لأنَّ غير المؤمن يشعر بالوحدة دائماً وتحزه أبسط المشاكل .

أمّا المؤمن فيرى الله معه ، يتوكّل عليه في الحوادث ويدلي الشبات والصبر من نفسه دائماً ، فإذا فقد أحد أعزته قال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢) وبهذا الإعتقاد تسهل عليه الوطعة وتغ媚 رحمة الله وألطافه كما تقول الآية ١٥٧ من سورة البقرة .

وهو إذا فقد رأس ماله لا يأسى ولا يحزن ، كما انه إذا اتاه شيء ثمين لا يفرح ولا يفخر ﴿لَكِيلًا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٣)

وإذا حصلت له حوادث أخرى فيعدّها امتحانات المية تسلك به نحو الكمال في الدنيا وتدرُّ عليه الشواب والأجر في الآخرة . فهو لا يلعن الزمان ولا المكان بل يشكر الله ويحّكم إيمانه بالله ويقوّيه . وإذا ما تصفحنا سيرة عظمائنا لوجدنا مفاهيم هذه الآيات متجلسة فيهم عملياً .

(١) يونس : ٦٤ . ٢٦ .

(٢) البقرة : ١٦٥ .

(٣) الحديد : ٢٣ .

سعيد بن جبير عند الموت

إن سعيد بن جبير من العظام والأولياء ، كما انه من انصار الامام السجاد عليهما السلام ، فقد كان مؤمناً حنيفاً ومتوكلاً على الله في اعماله ، وقد ابتسם عند مقتله.

عند ما جي بسعيد بن جبير إلى الحجاج ^(١) دار نقاش بينهما استهدف الحجاج عبره النيل والاستهزاء بسعيد ، إلا أنه ما استطاع ، لقدرة سعيد على الكلام ، فامر بقتله وقال له : اختر أي قتلة شئت! قال : اختر لنفسك فان القصاص امامك. ولما أمر بقتله قال ﴿وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٢) فقال : شدوا به لغير القبلة. فقال : ﴿إِنَّمَا تُولُوا فَشَّمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ^(٣) قال : كبوه على وجهه. فقال : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ^(٤)

وبعد ما أمر الحجاج بقتله دعى سعيد بهذا الدعاء (اللهم لا تسلطه على احد بعدي) ، وقد استجيب دعاؤه ولم يبق الحجاج بعده الا خمسة عشرة ليلة ^(٥) ولم يقتل بعده الحجاج احداً.

وقد مات الحجاج اثر مرض كان يشعر خلاله بالبرودة والرعشة بحيث كان يدخل يديه في النار وتحترق وهو لا يشعر بها. ولما جاءه احد الوجهاء وطلب منه ان يدعو له ، ذكره بما قد أوصاه سابقاً من عدم الاكتار في القتل.

نعم إن الامان في الدنيا للمؤمنين فقط دون المنافقين ، ودين الله ليس للآخرة فقط بل هو منهج للحياة الدنيا كذلك.

(١) يقول احد الكتاب في الحجاج : «لو كانت هناك مسابقة تعرف من خلالها الملل والنحل طغائهما وجناحهما وعرّفنا نحن المسلمين الحجاج في تلك المسابقة لربحنا تلك المسابقة قطعاً».

ويبدو انه منصف في كلامه وليس الأمر بعيداً عن الواقع ؛ فأن قطع رؤوس المعارضين له ومشاهدة فوران الدم من الجسد والشرابين هي احد موارد ترفيهه والتذاذه ، وكان يصرّح بالتذاذه بمشاهدة هذه المناظر.

(٢) الأنعام : ٧٩.

(٣) البقرة : ١١٥.

(٤) طه : ٥٥.

(٥) سفينة البحار ، مادة سعد.

المثل الثالث :

فسوة القلب

يقول الله في الآية المباركة ٧٤ من سورة البقرة :

﴿ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ الْحِجَارَةُ أَوْ أَشَدُّ فُسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

الآية الشريفة جاءت في بني اسرائيل وضررت مثلاً جيلاً في قسوة قلوبهم ؛ فان دفتر أعمالهم مسوّد على طول التاريخ. وإن التعصب واللحاجة والتحجج والغرور والضغينة تجاه الانبياء والمقاومة قبل الحق من خصال هذا القوم العاصي والكافر لنعم الله.

لقد شاكس هذا القوم المسلمين ونافق ضدهم ، فمن جانب كانوا يتعاهدون مع المسلمين ومن جانب اخر ينالون منهم بخنجر من الخلف. إنّ عداء هذا القوم المعاند للمسلمين لم تنته ابداً ولا زال مشهوداً في عصرنا هذا ، بل هو حالياً بلغ ذروته. ويمكن القول : إنّ اكبر صفة نالتها الامة الاسلامية كانت من بني اسرائيل ومن قسم خاص منهم معروف باسم (الصهاينة) ؛ ائمهم في الدول الاسلامية منشأ الفساد والقتل والنزاعات والاختلافات والفحشاء واللامبالاة تجاه الاحكام الاسلامية والربا و .. إنّ انتهاكائهم ومظلومتهم لو جمعت في مكان واحد لاصبحت كتاباً ضخماً بل كتاباً. إنّ قسوة قلوبهم بلغت درجة حيث لا يرحمون حتى انبيائهم فضلاً عن غيرهم ، وقد حمل منهم نبيهم موسى عليه السلام الكثير.

قصة بقرة بنى اسرائيل

الآلية الشريفة جاءت بعد آيات حكت قصة بقرة بنى اسرائيل ؛ وخلاصة القصة محكمة في الآيات ٦٧ - ٧٣ من سورة البقرة نأتي بها هنا :

ُقتل شخص من بنى اسرائيل من دون ان يعرف القاتل ، وهو أمر سبب اختلافاً بين القوم. وعادة عند ما يُقتل شخص يسعى البعض ان يرجعه إلى عملية تصفية الحسابات فيلقى القتل على عاتق اطراف خاصة. وقد كان اصل الحادث ان شخصاً قتل عمه الثري ، وقد كان الشاب الوارث الوحيد لعمه وكان منزعجاً من جراء تأخر وفاة عمه فقتله ليinal نصيه من الارث في وقت مبكر. وقد عذر البعض حب الشاب لابنة عمه هو سبب القتل ؛ وذلك لأن العم رغم حبه لابن أخيه زوج ابنته من شخص آخر.

إنَّ بِثَ خَبْرَ مَوْتِهِ هَذَا الشَّخْصُ أَثَارَ ضَجَّةً شَدِيدَةً جَعَلَتِ الْعَوْضَ وَمِنْهُمُ الْقَاتِلَ الْحَقِيقِيَّ يَبْحَثُونَ عَنِ الْقَاتِلِ ، فَكَانَتِ الْفَتْنَةُ الْعَظِيمَةُ وَكَانَ الْمَوْقِفُ يَوْشِكُ عَلَى نِزَاعٍ بَيْنَ الْقَبَائِلِ لِيَتَبَدَّلَ إِلَى حَرْبٍ شَامِلَةٍ ، فَطَلَبُوا مِنْ مُوسَى أَنْ يَحْلِ لَهُمُ الْمُشَكَّلَةَ فَكَانَتِ الْمُسَاءَلَةُ التَّالِيَّةُ حَسْبَ مَا دُوْنَهَا الْقَرآنُ :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُو بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَخْدِنَا هُنُّوْا؟ قَالَ أُعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. أي أن الاستهزاء من عمل الجاهلين ، والأنبياء مبرؤون من ذلك.

بعد أن ايقنوا جدية المسألة ، **﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ؟﴾** أجابهم موسى عليه السلام : **﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾** ، أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة بل متوسطة بين الحالتين **﴿فَاقْعُلُوا مَا ثُومَرُونَ﴾** لكن بنى اسرائيل لم يكفووا عن حاجتهم ، **﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾** أجابهم موسى **﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعُلُوهَا تُسِرُّ النَّاظِرِينَ﴾** أي أنها حسنة ولا يشوها لون آخر.

ثم جروا مرة أخرى وعاودوا السؤال : **﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمُهْتَدِونَ﴾** أجابهم موسى **﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُشِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تُسْقِي الْحَرْثَ﴾** ، أي ليست

من النوع المذلل لحرث الارض وسقيها . وبعد المساعي الحثيثة وجدوا هذه البقرة وذبحوها ولمسوا الاعجاز الالهي .

الشرح والتفسير

المفروض بهذه الآية العظيمة ان تزيد من ايمان القوم إلا أن ذلك لم يحصل ، بل الآية الشريفة حكت حالهم بعد ذلك بالقول : ﴿قَسْتُ فَهِيَ كَالْحَجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي لم تزد هذه الآية الكبرى القوم الا حاجة وقسوة وتمرداً وعصياناً وانتهاكاً لحرمات الانبياء و .. وذلك بسبب قسوة قلوبهم تحجرها .

ان مفردة (قلب) استخدمت مائة وثلاثين مرة في القرآن ، لكن يا ترى هل يراد من هذه المفردة ذلك العضو الصنوبرى الذى يدق في الدقيقة اكثر من سبعين مرة في الجسم ليضخ دم الإنسان إلى جميع اجزاء جسمه مرتين في الدقيقة؟ إنَّ هذا العضو من عجائب خلق الله حقاً وله في الجسم وظائف مهمة ، لكن مراد الله من القلب في القرآن ليس ذلك العضو .

نشير هنا باقتضاب إلى مهام هذا العضو وذلك لايصال اهميته :

أولاً : تغذية جميع خلايا الجسم ؛ إنَّ الأغذية التي تصل المعدة متذبذبة مع ترشحات المعدة لتهيئاً للذهاب إلى الأمعاء ؛ وتتم عملية هضم وجذب الأغذية في الأمعاء من خلال الدم ، والأخير يوزعها على جميع خلايا الجسم وبذلك تتم عملية تغذية الجسم .
ثانياً : ارواء الإنسان ؛ إنَّ الجزء الأكبر من جسم الإنسان عبارة عن الماء و اذا ما قلت نسبة الماء في الجسم فانه قد يؤؤول ذلك الامر إلى الموت إذا ما بلغ مستوى الجفاف .

ثالثاً : ا يصل الحرارة الموحدة للجسم ؛ ان جسم الإنسان حار ، لكن هل فكرتم من اين قدمت له هذه الحرارة؟ ان الاوكسجين يدخل الجهاز التنفسى ومن خلال هذا الجهاز يدخل الدم ليصل من خلاله إلى جميع خلايا الجسم ، واشر الاحتراق الذي يوجده الاوكسجين عند تركيبه مع اغذية الخلايا تتولد حرارة تنتقل هذه الحرارة بشكل ثابت إلى جميع اجزاء الجسم بواسطة الدم .

رابعاً : جمع المواد الزائدة والسمية ودفعها . ان الاحتراق الأغذية في الجسم يولـد مواد

وزائدة يطرح جسم الإنسان بعضها من خلال الزفير وبعضها الآخر من خلال الكلية والأدرار ، وهذه العمليات كلها تتم من خلال الدم.

حقاً ان القلب مع هذه الظراوة والعمل المتواصل آية إلهية عظمى ، فلو كان هذا القلب من حديد لصداً وتلف خلال سبعين سنة من عمر الإنسان الا ان قدرة الله الامتناعية صنعت منه عضواً يعمل أكثر من مائة سنة في بعض الموارد. والمدهش هنا أنَّ القلب من الاعضاء التي تعمل ليل نهار وفي النوم واليقظة رغم أنَّ نشاطه عند النوم أقل.

ومن هنا نجد سر تعظيم المؤمنين ومجدهم مقوله الله تعالى :

لِمُؤْمِنٍ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(١)

لو لم يكن لدينا دليل على عظمة الخالق غير القلب لكن كافياً لادرأك قدرته وحكمته السرمدية.

ولأجل استيعاب عظمة الخلق وادرأك أكبر لهذه الهدية الالهية القيمة نقرأ الموضوع

التالي :

القلب الصناعي مرآة لعظمة قلب الإنسان

كلف صناعة قلب صناعي قبل عدة سنوات ثلاثة مليون دولاراً ، إلا أنَّ هذا القلب لم يدم عمله أكثر من ستة أيام ، كما أنَّ المستفيد منه لم يكن قادرًا على الحركة والمشي خلال هذه الفترة. كيف يمكننا شكر الخالق على نعمة القلب التي منحها إياناً مجاناً؟

ما أجمل ما قاله القرآن :

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

وبعد ما عرفنا أنَّ المراد من القلب في الآية ليس ذلك العضو الصنوبري نقول هنا : إنَّ المراد منه هو العقل والعاطفة. يقول الله في سورة الاعراف الآية ١٧٩ :

وَلَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

فالمراد من القلب هنا هو العقل والعاطفة ؛ لأن الفهم والأدرار من شأن العقل ، كما أنَّ الإحساس والشعور والحب والمعرفة من شأن العاطفة والعقل ، وكنموذج على ذلك

يقول الله في الآية ١٠ من سورة البقرة :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَرَأَدُهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

(١) الذاريات : ٢٠ . ٢١ .

هل إن قلب المنافق الصنobiي يعطل من جراء مرض النفاق؟ أو أن مرض النفاق يؤدي إلى اتساع في صمام القلب؟

من الواضح أنه لا يراد من القلب ذلك العضو الصنobiي ، ولا يراد من المرض تلك الحالة الطبيعية التي تعرض للإنسان وأعضائه. إن القلب هنا هو العقل والعاطفة اللتان قد يضعفان بسبب مرض النفاق إلى مستوى يسمحان للإنسان قتل الآباء في حرم الإمام الرضا عليه السلام ، فهما في الحقيقة يموتان.

نقرأ في رواية أن للأمر بالمعروف ثلات مراحل : الأمر بالقلب أولاً ، وباللسان ثانياً ، وبالعمل ثالثاً. فإذا كانت المرحلة الأخيرة غير ممكنة فتتوجب المرحلتان الأولىتان. وإذا استحالت المرحلة الثانية والثالثة فعلينا بالأولى أي علينا أن نكون متذمرين من الظالمين وسلوكهم وأن نكون محبين للمؤمنين والمصلحين. وإذا ترك شخص الامر بالمعروف بمراحله الثلاث فقد صدق عليه الحديث التالي : «فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكِر منكراً فُلِبَّ ؟ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ اسْفَلَهُ». (١) وهل يراد من القلب هنا هو ذلك العضو الصنobiي؟ بالطبع لا ، لأن ذلك العضو لا يتحرك من مكانه ولا يتزلزل بل المراد منه هو العاطفة والإدراك.

ما مضى نستنتج أن للقلب معينين في القرآن والروايات : ١ . العقل الإنساني ٢ . العواطف الإنسانية. وهذا ظاهرتان روحيتان يعدان مركزاً للإدراك والشعور. ولهذا عند ما يقال : (لهم قلوب لكن لا يفهون) فإن المراد كونهم يملكون القلب لكن ملكة الإدراك عندهم معطلة وإذا قيل (قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فإن المراد أن عواطفهم ميتة.

القلب الذي في الآية ٤٦ من سورة الحج ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ﴾ قد يعني ذلك العضو الصنobiي بقرينة (في الصدور) ، لكن هل الواقع كذلك؟

رغم أن العقل ليس في صدر الإنسان ، إلا أن له ارتباطاً بالدماغ ولذلك نرى البعض قد تعطل دماغه لكن قلبه لا زال يعمل. وعلى هذا فالصدر الذي في الآية ليس ذلك الجزء من البدن المكسو بالقفص بل المراد منه الروح. وعليه فالقلب هنا يعني العقل والإدراك ، فمفهوم

(١) بخار الانوار ٩٧ : ٨٩ (طبع بيروت).

الآية هو (العقول التي في الأرواح).

وهناك إحتمال آخر وهو : رغم أن هذا العضو الصنobiي ليس مركزاً للعواطف والعقل ، إلا أنَّ الأمر لا يخلو عن علاقة بينهما ؛ وذلك لأن هناك علاقة مباشرة بين القلب والروح أو العقل والعاطفة فان القلب يتتأثر مباشرة وأولاً في أي ظاهرة تطرأ على الإنسان ، فإذا واجه الإنسان موقفاً مفرحاً ازدادت ضربات قلبه وسرعت ؛ وإذا واجه موقفاً مؤلماً شعر في قلبه التعب والتقليل ، وكذا الامر في كل الحوادث والقضايا الروحية. إنَّ العلاقة بين القضايا الروحية والقلب هي كالعلاقة بين الماء والعين وسطح الأرض. إنَّ الماء يعلو منطبقات التحتية للأرض ثم ينبع من نقطة خاصة من الأرض والظواهر الروحية مثل ذلك ، فإنها تتبع من القلب. ومن خلال التفاسير الماضية يمكننا معرفة الكلام الالهي في الآية الكريمة ﴿قَسْتُ قُلُوبَهُمْ﴾

تصوير القرآن لقلوب بني إسرائيل

لقد وصف القرآن قلوب بني إسرائيل في الآية ٧٤ من سورة البقرة بأنها كالحجارة أو أشد قسوة : ﴿ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ وقد اختلف المفسرون في تفسير ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ وفي ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ بما أنَّ الآية نزلت في المنافقين وبما أنَّ للنفاق درجات ومراتب فإنَّ صفة كالحجارة ترجع إلى طائفة خاصة من المنافقين ، وأما ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ فترجع إلى طائفة أخرى أسوء حالاً من السابقة.

لكن كيف يمكن للقلب أن يكون أشد قسوة من الحجارة؟

إنَّ القرآن يعد ثلاط بركات من بركات الحجارة :

الأولى : بعض الأحجار في الجبال تتفجر ليينبع منها الماء والأهmar وبحريانه تُروي المزارع والنباتات والحيوانات. نعم ، ان للحجارة بركة التفجر ليينبع الماء ، وهي بركة عظيمة إلا أنَّ قلوب بني إسرائيل لا ينبع منها الفضيلة ولا العلم ولا الحكمة كما أنها ليست مراكز للعواطف والحب والحنان ؛ إنَّ قُلُوبَهُمْ أَشَدَّ قَسْوَةً من الحجارة حقاً.

الثانية : إنَّ من الأحجار تتشقق لتضم في شقوتها مقداراً من الماء. ورغم أنَّ هذا الماء لا يروي المزارع والحيوانات ، إلا أنه قد ينقذ حياة سائر عطشان. أما قلوب بني إسرائيل فهي

لا

تضم حتى ذلك المقدار القليل من الحبة والحنان.

الثالثة : بعض الاحجار تهبط وتسقط خشية من الله وخصوصاً امام قدرته واستطاعته العظمى كما تؤكد ذلك الآية ٢١ من سورة الحشر ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

تسبيح الموجودات جميماً

إن خصوص وخشوع الاحجار والجبال امام قدرة الله وعظمته وتسبيحها عموماً أمر يمكن استظهاره من الآيات العديدة للقرآن ، والآية ٤٤ من سورة الاسراء نموذج على ذلك : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴾^(١) وقد اعتبر بعض المفسرين الجمادات حية ومنحها حياة ذات نوع خاص من الشعور والاحساس الذاتي يختلف عن الشعور الإنساني ، فشعورها مثل تسبيحها الذي لا يُفْقِه ﴿لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم﴾ حيث نجد مقابل الحمد والخشوع والخصوص امام الله القادر الذي يشهد من الموجودات وبخاصة الاحجار قلوبًا قاسية لا تسبيح ولا تذكر الله ولا تخضع أمامه.

القصوة

للإنسان قوتان قوة العقل والفكر وقوة العاطفة الإنسانية ، الجهاز الذي يستطيع الإنسان من خلاله فهم الحقائق يقال له عقل ، وكل ما يدركه الإنسان ويفهمه يتم من خلال عقله.

أما العاطفة فهي القوة التي يتمكن الإنسان من خلالها ادراك القضايا الأخلاقية مثل الحب والبغض ، فنحن مثلاً نتأثر من جراء سمعانا للمجازر الجماعية التي ترتكب من قبل اناس فقدوا العاطفة في الدولة المسلمة (الجزائر). أو نتأثر بالاوضاع المتأزمة لافغانستان الذي ابتلي بحب وبغض بعض الرعماء الانانيين.

(١) نجد هذا المضمون في آيات أخرى منها الآية ١٤ من سورة النور والآية ٢٤ من سورة الحشر ، والآية ١ من سورة الجمعة ، وفي سورة التغابن والحديد والحضر والصف.

إنّ هذه الاحاسيس تتعلق بقوة العاطفة الإنسانية ، والشعوب الإنسانية حية ما دامت عواطفها حية ، وفي الحقيقة ان موت هذه العواطف يعني موت المجتمعات البشرية.

تبأً للإنسان في اليوم الذي تموت فيه عواطفه حباً للدنيا ؛ فإنه يصبح انذاك إنساناً خطراً اخطر من الحيوان المفترس والوحشي !

من الذي صنع القنابل الكيميائية؟ العلماء الذين فقدوا عواطفهم حباً للدنيا ، اوئلئك الذين اشتروا العواطف الإنسانية بالدولارات وغضوا اطرافهم عن الذين قتلوا في حلبجة! من هم الذين قصفوا مدينتي هيروشيما وناكازاكي وقتلوا فيهما مئات الآلاف بالقنابل النووية في لحظة. (١)

انهم العلماء الذين ماتت عندهم العواطف والذين لم يأثروا من الإنسانية شيئاً ، والذين يرون اللذة في تدمير الآخرين! من هم الذين زرعوا أكثر من عشرين مليون لغم من النوع المضاد للآفراط على سطح الكوكبة الأرضية؟ هم اوئلئك الذين اتسموا بصفات حيوانية ولم يأثروا من الإنسانية الا اسمها وما كان لهم نصيب من العواطف الإنسانية.

إنّ العالم قرر منع تصنيع هذا النوع من اللغم ؛ وذلك لأجل كونها غير أخلاقية وذات ابعاد غير إنسانية ؛ إلا أن الدولة العظوفة والمهتمة بحقوق البشر ، أي أمريكا ، خالفت ذلك ، كما خالفت مشروع حضر تصنيع أسلحة الدمار الشامل رغم تظاهرها بالدفاع عن حقوق البشر وتزعمها لمنظمات إنسانية تخدم بهذه الحالات. هذا كلّه بسبب الضغوط التي تمارسها إسرائيل والصهاينة المنافقين على أمريكا ، وهي تستخدم هذه المنظمات والآليات الإعلامية دائمًا لأجل تدمير الأعداء ، وكأنّ رعاية حقوق البشر أمر ينبغي أن يحصل في الدول المناهضة لأمريكا فحسب دون الصديقة لها.

(١) يقول الطيار الذي ألقى بهذه القنابل : (في مدة ساعة وجدت المدينة كالخيمة التي تلتهب وترتفع ألسنة النار فيها إلى مستوى مائة متر).

العلم والعاطفة وجه تمایز الإنسان عن الحيوان

اختلاف الإنسان عن الحيوان في أنَّ الأول يتمتع بالعقل والعاطفة ، أو بتعبير آخر يمكنه الإدراك والشعور ، أمّا الحيوان فانه يفقد هذين الامتيازين. ورغم أنَّ بعض الحيوانات تحضى بذكاء واحساس ضعيفين وفي بعضها نرى نوعاً خاصاً من العاطفة البسيطة ، كدفاع الحاجة عن افراخها عند الاحساس بالخطر ، فإنَّ هذا لا يعد شيئاً بالنسبة للعاطفة الإنسانية ، بل إنَّ بعض الحيوانات تأكل افراخها وبعضها الآخر تطرد افراخها عند البلوغ. إنَّ الإنسان إذا فقد عقله عُذِّ احتماً ولا يستحق اطلاق الإنسان عليه ، أمّا إذا فقد العاطفة فسوف لا يرى معنى للترحم والمرارة والحب والعنق ، فهو حيئذ بهيمة بل أسوأ حالاً.

دنيا دون عاطفة

من المؤسف أنَّ عالم اليوم عالم يخلو من العواطف رغم أنَّ الإنسان بلغ المدارج العليا في مجال العلم والمعرفة وقد حصل على المزيد من التقنيات ، إلَّا أنَّه بنفس المقدار فقد العاطف والحساس البشري في ذات الوقت. إنَّ القيم في الدول الصناعية هي المال والمادة ؛ أمّا سلعة المحبة والعاطفة فغير متوفرة ، واذا وجدت فلا مشتري لها!

إنَّ العواطف هناك حتَّى في العائلة الواحدة قليلة وضعيفة. الوالدان يتخلان عن أبنائهمما بمجرد ان يبلغوا ، والأولاد يتخلون عن والديهم بمجرد ان يشيخوا ويضعفوا ، واذا شعروا بعاطفة جزئية تجاههم أو دعوهם في دار العجزة ، وتركوا السؤال عنهم حتَّى الموت. إنَّ نسبة الطلاق في هذه الدول كبيرة جداً وقد تقدر هذه النسبة في بعض الدول إلى أكثر من خمسين بالمائة ، أي أنَّ نصف حالات الزواج أو أكثر من ذلك تؤول إلى الطلاق. إلَّا أنَّ نسبة الطلاق في بلدنا هي واحد والعشرين رغم ذلك نعدها نسبة كبيرة. إنَّ البيئة التي تفقد العواطف لا تجد معنى لاعانة الفقراء والمحاجين ، فلا نسمع شيئاً

عن

(حفلة العواطف) و (تعالوا لنتقاسم افراحنا)^(١) ولا شأن للناس هناك حتى لو سمعوا بشخص يوشك ان يموت من الجوع والعطش.

لقد ورد في الأخبار أنّ شخصاً نفذ وقود سيارته في طريق مزدحم وفي يوم بارد جداً ، فأخذ بوعاء البنزين يؤشر للسيارات المارة طلباً للوقود ، إلّا أنّه لم يجد عوناً رغم انتظاره مدة احدى عشرة ساعة هناك ، وما كانت النتيجة الا موته في الطريق. في الحقيقة ان موت العاطف في هكذا مجتمعات ادى إلى موت هذا الشخص.

ولاحل هذه الشواهد نعتقد أنّ الغرب لا قدرة له على استيعاب المفاهيم الاسلامية الرفيعة ، مثل الشهادة والجهاد والايثار واعانة المحتاجين وغيرها ، وحتى دفاعهم عن حقوق البشر لا يكشف عن عواطفهم ، بل انها وسيلة لتدمير وتسقيط أعدائهم. فإذا قُتل اسرائيلي مثلاً على يد فلسطيني في عملية استشهادية ارتفعت اصوات مدوية لهذه الموجودات الفاقدة للعواطف ؛ وذلك دفاعاً عن حقوق البشر ، إلّا أنه عند مقتل النساء والرجال والاطفال والشباب في الجزائر وتقطّع أبدانهم إرباً إرباً لا تشار حفيضة هؤلاء المنافقين المترائين ، وكأنه لم يحدث شيء ابداً.

الدين أو المذهب يقويان العاطفة

الدين أو المذهب هو اهم عامل يقوى العاطفة الانسانية ؛ وذلك لأن الدين عُرف في الروايات (بالحب والبغض) أي محبة المسلمين وبغض الكافرين.

جاء في رواية عن الصادق علیه السلام يسأله فضيل بن يسار عن الحب والبغض ، أمن الایمان هو؟ فقال : «وهل الایمان الا الحب والبغض»؟!^(٢) ونقرأ في رواية أخرى أن رسول الله عليه السلام قبل الحسن والحسين عليهما السلام فقال الاقرع بن حabis : إنّ لي عشرة من الاولاد قبلت واحداً منهم.

(١) ان حفلة العواطف حفلة تقام في نهاية السنة المحرية الشمسية في ايران تجمع خلالها التبرعات للفقراء والمحتاجين ويرفع في خلال هذه الحفلة شعار (تعالوا لنتقاسم افراحنا).

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٦٥٨ الحديث ٣٠٩٦ ، وفي هذا الباب نرى ثلاث روايات أخرى حكت نفس المضمون.

قال : «ما علي ان نزع الله الرحمة منك». ^(١)
 القلب الذي يخلو من الحب ليس قلباً بل قطعة من الحجر ، وليس اهلاً لاستقبال
 نعم الجنة ، بل اهل لعقوبة جهنم.
 بركة دين الإسلام وبركة تمعن شعبنا المؤمن بالعواطف الإنسانية النبيلة نرى تسارع
 الإيرانيين للخيرات ونصبهم للخييم لأجل جمع الاعانات في الشوارع والاحياء بمجرد حصول
 حادثة أو كارثة تستدعي المساعدة والاعانة ..
 يا له من منظر رائع وجميل للعواطف الإنسانية.

عوامل القسوة في القرآن

يشير الله من خلال الآيات التالية إلى عوامل القسوة وأسبابها.

﴿الأول﴾ يقول في الآية ١٣ من سورة المائدة : **﴿فِمَا نَقْضُهُمْ مِيثَاقُهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾**

القرآن هنا يعتبر (نقض الميثاق) من عوامل قسوة القلب ، نقض الميثاق مع الله ومع
 الرسول ﷺ ومع الفطرة الإنسانية ومع البشرية. نعم إنّ بني إسرائيل لم يحترموا أبداً من
 الموثيق وكأّهم . لأجل الدعامة العسكرية القوية التي كانوا يتمتعون بها . لم يبرموا ميثاقاً إلا مع
 مصالحهم الدنيوية ولم يفوا بميثاق إلا به.

﴿الثاني﴾ يقول الله في الآية ١٦ من سورة الحديد :

﴿أَلَمْ يَأْنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَطْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾
 إنّ الآية الشريفة توقيظ في البداية الغافلين بكلام حق.

يا انسان متى تصدق الموت وانت ترى موت اعزتك وأقاربك؟!
 إلى متى تستمر في تعليقك بالدنيا رغم ما ترى منها من الفناء وعدم الوفاء.

(١) مكارم الاخلاق : ٤٧٤ ، طبع جامعة المدرسين في قم ، نقلأً عن اخلاق الأنبياء : ٤١٦ .

ثم تحدّر المؤمنين خوفاً أن يصبحوا مثل بني إسرائيل الذين قسّت قلوبهم بعد ما طالت أعمارهم ، وتأخرت بعثة الرسول اللاحق ، ونسياهم تدريجاً تعاليم نبيهم ، وعدم نزول العذاب الإلهي عليهم ، فكانت الغفلة التي لحقتها قسوة القلوب وكثرة الذنوب. يمكننا معرفة السبب الثاني لقسوة القلب من خلال هذه الآية وهو (الابتعاد عن تعاليم الأنبياء والأولياء والأديان الإلهية).

ومن خلال هذه العوامل التي بينها القرآن يتضح لنا أن بعضًا من العذاب الإلهي في الحياة الدنيا هو نوع من ألطافه تعالى ؛ وذلك لأنَّه يؤدي إلى التوبة والابتعاد عن الذنوب والرجوع إلى الله ، وهو في الحقيقة الحال دون الابتلاء بقسوة القلب. ^(١)

إخوتي وأخواتي الأعزاء! اتصلوا بالشباب والأشبال من خلال المجالس الدينية وادهبوها إلى هكذا مجالس لتعريفهم بال تعاليم الدينية الإسلامية لكي لا يبتعدوا عنها فيبتلوا بقسوة القلوب وترحل عنهم العواطف الإنسانية.

القسوة في الروايات الإسلامية

اشارت روايات المعصومين عليهم السلام إلى عوامل عديدة يمكنها أن تؤدي إلى قسوة القلب نشير إلى بعض منها هنا :

الاول : يقول الإمام علي عليه السلام : «ما جفَّت الدموع الا لقسوة القلوب وما قسَّت القلوب الا بكثرة الذنوب». ^(٢)

إذا شاهدنا إنساناً لم يتأثر بالمصائب الدنيوية ولا يبكي ولا يشتاق للعبادة والمناجاة ، أو يفتقد العواطف والترجم على أبناء جنسه ولا يفكر إلا بنفسه وضمان مصالحه ، ولا يقلقه ما يصيب الآخرين ، فتلك جميعها بسبب كثرة الذنوب وتراكمها.

(١) ان الآيات ٤٢ و ٤٣ من سورة الأنعام تؤيدان ما اوردناه هنا : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّةٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَمَّا لَّا إِذْ جَاءَهُمْ بِآسِنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَرَبَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(٢) علل الشرائع : ١٨ ، ميزان الحكمة الباب ٣٤٠٢ ، الحديث ١٦٦٩٩ .

في إحدى رحلاتي إلى بيت الله الحرام كنت جالساً في المسجد الحرام ، جاءني شاب وقال لي : إيني احج الصرورة ولم اسق بالمجيء إلى هذا المكان المقدس رغم ذلك لا اشعر بالمعنوية ولا بالحيوية في هذا المجال ، فلم اشتق للمناجاة والبكاء والتضرع؟ فكان يريد معرفة سبب ذلك. اجبته ييدو أئنك ارتكبت ذنوباً كثيرة في حياتك؟ عليك اولاً طلب المغفرة من الله على تلك الذنوب ، ثم اشتغل بالزيارة والعبادة والمناجاة.

الثاني : طول الامل هو من العوامل الاخرى لفسوة القلب.

جاء في احدى الروايات أنَّ الله قال لموسى عليه السلام : «لا تطول في الدنيا أملك فيقسوا

قلبك والقاس القلب مني بعيد». ^(١)

الثالث : حب الدنيا والغرق في الطلبات المادية.

ان هذه الأمور من شأنها ان لا تترك مجالاً لننمو وبروز العواطف الانسانية ولا لتقرب الإنسان لله ؛ وذلك لأن اكبر هدف للإنسان العطوف هو الوصال بالحق. وعلى هذا فحب الدنيا والابتعاد عن الله هو ثالث عامل لفسوة القلب.

يقول الرسول ﷺ : «لا تکثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسو القلب». ^(٢)

فالرسول ﷺ هنا يصرح بان كثرة الكلام بالاشاعة والكذب والاتهام والمزاح الخارج عن حده والتدخل بما لا يعني الشخص وغيرها من مظاهر كثرة الكلام هي اسباب لفسوة القلب.

الرابع : هناك رواية أخرى عن الرسول ﷺ يقول فيها : «ثلاث يُقْسِنَ القلب استماع اللهو وطلب الصيد واتيان بباب السلطان». ^(٣)

إنَّ الاصغاء إلى الموسيقى حرام ويؤدي إلى فسوة القلب وينبغي هنا أن نكون نبهين دون الوقوع في مصيدة الشيطان بتبريرات من قبيل : إنَّ الموسيقى تنشطنا روحياً ، وأنَّ الموسيقى

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٤٠٢ ، الحديث ١٦٧٠٠ .

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٣٤٠٢ الحديث ١٦٧٠٢ .

(٣) ميزان الحكم ، الباب ٣٤٠٢ ، الحديث ١٦٧٠٣ .

ليست للنزة فقط ، أو أنَّ الموسيقى المحلية والتقلدية جائزة وما شابه ذلك.

الصيد إذا كان طلباً للمعيشة فلا اشكال فيه ، أمّا إذا كان لاجل التسلية والترفيه فهو حرام في الإسلام ، وعلى الصياد حينئذٍ التمام في الصلاة دون القصر ؛ وذلك لأن سفره معصية. أكثر الملوك والحكام كانت لهم أماكن خاصة يصطادون فيها للتسلية والترفيه. كيف يمكن أن يكون سلب روح حيوان ما سبباً للتسلية والترفيه؟!

إنَّ الحكام وأشخاص قساة القلب ، كما أنَّهم ظلمة وهم مستعدون لارتكاب ابشع الجرائم لاجل حفظ كراسיהם ومواقعهم القيادية ، وقد يستعد الحاكم لقتل أبيه أو أخيه لديمومة عرشه ، كما فعل المأمون بالأمين العباسين ، فقد قتل الأول الثاني ، رغم أنه كان أخاه. وفي الفترة الأخيرة قتل أحد الملوك العرب إباه ليحكم بذلك موقعه القيادي.

ان الاشخاص الذين يرتبطون بهذه الطبقة من الناس تقسو قلوبهم ويتبعدون عن الله لما يرون من زخارف الدنيا التي تجذبهم إليها.

سؤال الله ان يمنحك قلباً عطوفاً ، قلباً ينضح من حبه ، ويجرئ دموع العين من ذكره.

الخامس : يقول الإمام علي عليه السلام : «كثرة المال مفسدة للدين ومقاساة للقلب». ^(١)

ما لا شك فيه أنَّ المال وسيلة جيدة لبلوغ المقامات المعنوية العليا ولعمل الخير ، وقد يكون هذا هو مغزى مقوله القرآن في الآية ١٨٠ من سورة البقرة ﴿... انْ تَرَكْ خَيْرًا
الوَصِيَّة﴾ فقد فسر المفسرون (خيراً) هنا بالمال والثروة. لكن الذين يحسنون الافادة من المال هم العدة القليلة بل نادراً ما يحصل ذلك. ^(٢)

إنَّ أكثر المتمولين لا ينفقون أموالهم في مجالات الخير وهذا يعني أنَّ كثرة أموالهم سبب لابتعادهم عن الله ، الامر الذي يؤدي إلى قسوة القلب.

السادس : يقول الإمام الصادق عليه السلام في احدى الروايات المنسوبة عنه : «أنهاكم أنْ

تطرحوا

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٤٠٢ الحديث ١٦٧٠٧ .

(٢) كما هو الحال بالنسبة لخديجة سلام الله عليها حيث وضعت أموالها تحت اختيار الرسول عليهما السلام لتبيين الدين الإسلامي.

التراب على ذوي الارحام فإن ذلك يورث القسوة ومن قسي قلبه بعده من ربه عزّل». ^(١)
 لقد وضع الإسلام منهجاً جمِيع شؤون الإنسان حتى في القضايا التي تبدو قليلة الأهمية ، فعند استقبال الضيف مثلاً يأمر الإسلام إعانة الضيف للضيف في حمل امتعته لادخالها في البيت ، إلَّا أَنَّه عند التوديع يأمر بعدم اعنة الضيف على اخراج امتعته ؛ وذلك لأن هذا يعني رغبة صاحب البيت في التخلص من الضيف وهذا يؤدي إلى قسوة في القلب .
 وفي هذا الحديث اشارة أخرى لاحد القوانين الدقيقة التي تصب في هذا المجال ، فبما أنَّ ذوي الارحام يحملون العواطف الوفرة تجاه احدهم الآخر فان طرح التراب ونشره على موتاهم يحد من العواطف ويجلب للناس قسوة في القلب وابتعاداً عن الله .

السابع : يقول الإمام علي عليه السلام : «النظر إلى البخيل يقسى القلب» ^(٢) إنَّ الشخص إذا نظر إلى البخيل تذَكَّر بخله ، وتذَكَّر البخل يتداعى معه تذَكَّر القساوة ، وتذَكَّر القساوة يؤثر تدريجياً على الإنسان .

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٣٤٠٢ ، الحديث ١٦٧١٠ .

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ٣٤٠٢ ، الحديث ١٦٧٠٩ .

المثل الرابع :

الكافار

يقول الله في الآية ١٧١ من سورة البقرة :

﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمُ عُمُّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

﴿العقبة الكبرى امام دعوة الانبياء هو التقليد الأعمى﴾

إن تقليد الآباء والاسلاف كان مانعاً مهماً ومتواصلاً امام دعوة الأنبياء. عند ما كان الانبياء يدعون ائمهم للتوحيد والدين كانوا يسمعون الجواب التالي : ﴿بَلْ نَتَّسَعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائَنَا﴾ (١)

وفي الحقيقة ، إن سبب رد دعوة الانبياء هو عبادة الاصنام من قبل الاسلاف ، والتقليد الأعمى للمعاصرين والأنبياء. وعند ما دعى رسول الإسلام ﷺ الناس إلى الإسلام وعبادة الله الواحد كان رد فعلهم هو التعجب مما يدعو اليه الرسول من عقائد مخالفة لسننهم وتقاليدهم وكان وتبشيرهم لرد دعوته هو اتباعهم لما كان عليه اسلافهم من عبادة اصنام كانوا يصنعونها بيديهم من التمر ، ويأكلونها عند شعورهم بالجوع.

يقول الله في هذا المجال حكاية عن لسان الكافرين : ﴿أَجَعَلَ الْآلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (٢)

(١) لقمان : ٢١ ، كما جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن ، منها : المائدة : ١٠٤ ، الأعراف : ٢٨ ، يونس : ٧٨ ، الأنبياء : ٥٣ ، الشعرا : ٧٤ ، الزخرف : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) سورة ص : الآية ٥ .

جاء في بعض كتب التاريخ أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) مرض يوماً وكان محمد ابن أخيه منشغلاً بالتبليغ خارج البيت فاتى اشرف قريش ابا طالب بحججة العيادة له وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فانه سفه احلامنا وشتم المتنا . فدعا ابو طالب رسول الله ﷺ وقال : يا بن أخي ! هؤلاء قومك يسألونك فقال : «ماذا يسألونني»؟ قالوا : دعنا وأهلكنا ندعوك وإهلك . فقال ﷺ : «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم»؟ فقال ابو جهل : الله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها . فقال : «قولوا لا إله إلا الله». فقاموا وقالوا : أجعل الالهة الماء واحداً .^(١) وهو يدعوهם للتوحيد في عبارته الأخيرة.

الشرح والتفسير

شبّه الكفار في هذا المثل القرآني بالحيوانات ؛ ولاجل تبرير هذا التمثيل أكد على تقليدهم التام والأعمى لأسلافهم .

يقول الله في الآية ١٧٠ من سورة البقرة : ﴿وَإِذَا قُتِلَ لَهُمْ أَتَّعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْيَنَا عَلَيْهِ آبَائِنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

وكأنه يقول : يا جهال ! هل أنَّ اتباعكم للاسلاف الذين لا يعقلون شيئاً اتبع عن بصيرة ؟ ثم يمثل الرسول (عند ما يقرأ الآيات على هذا القوم المشرك) بالراعي الذي ينادي رعيته بالاصوات للتوجيه حركتها ، إلا أنَّ هذه البهائم لا تعقل من كلامه شيئاً إلا الأصوات التي تتأثر بها ، فإذا كانت اصوات الراعي شديدة وذات ايقاع قوي اثرت في البهائم وإنما فلا . إنَّ مثل المشركين كمثل هذه البهائم لا تفهم ما تقرأ عليه من المعاني والمفاهيم الرفيعة لكنهم يفهمون الأصوات وموسيقى كلامك فحسب لهذا يستمرون في تقليدهم الأعمى للاسلاف .

(١) مجمع البيان ٨ : ٣٤٣ طبع مؤسسة الاعلمي بيروت .

خطابات الآية

الاول : إن الآية حواب لائق للسؤال التالي : إذا كان القرآن المجيد وحيًّا فينبغي أن ينفذ في القلوب ويترك أثره فيها ، فلما ذا لا نشاهد هذا الامر في بعض المشركين الذين ظلت قلوبهم نائمة دون يقظة إلى آخر عمرها؟

إنَّ التأثير على أي شيء يستدعي وجود عاملين :

١ . فاعلية الفاعل.

٢ . قابلية القابل.

وما لا شك فيه أنَّ القرآن فاعل وذات تأثير ونفوذ ، إلَّا أنَّ الكافرين ليست لهم القابلية لاستقبال مفاهيم القرآن واستقطابها. لا خلاف في لطافة طبع الغيث لكنه إذا هبط على الحجر فانا لا نتوقع منه انبات الشجر ؛ وذلك لأن الحجر ليست له قابلية على تنمية البذور ، وكذلك هو شأن الكافرين. فإنَّ كلام الله بروعة قطرات المطر وقلوب الكافرين بقسوة وشدة الحجر ولا تؤثر هذه القطرات اللطيفة في الحجر ، لكن بمجرد أن تحصل ادنى قابلية لهذه الأحجار على الانبات نرى الغيث يؤثر فيها. وقلوب الكافرين المتحجرة إذا تبلورت فيها أي قابلية على التأثير كان كلام الله نافذًا فيها وتاركًا أثره. وعلى هذا فتأثير المؤثر غير كافية بل قابلية القابل مهمة أيضًا ، والكافرين ما كانت لهم تلك القابلية.

الثاني : افاده الناس من المعارف القرآنية يتوقف على مستوى لياقتهم وقدرتهم على الافادة.

القرآن حديقة يستطيع أن يتمتع بها كل شخص بمستوى ذوقه ، أو هو ينبع من الماء الزلال يستطيع كل واحد أن ينهل منه ماء الحياة ويروي عطشه. والاختلاف بين الجميع في مقدار ما ينهلون منه.

إنَّ هؤلاء الكفار لا هم يملكون الاناء للنهل من هذا الينبوع ، ولا هم قادرون على تجرب الفيض والرحمة الالهية ؛ وذلك لأنَّ تقليلهم الأعمى لدين آبائهم يمنعهم من النهل من زلال المعرفة الربانية.

وبتعبير آخر : إنَّ اتباعهم لدين آبائهم ضرب حجاباً ضخماً على وسائل معرفتهم حال دون سمعهم أو ابصارهم أو نطقهم فاصبحوا عمياً بكمأ صماً لا يفقهون شيئاً . وقد فسرت الآية المذكورة بشكل آخر ، هو : أئِّها المشركين ! إِنَّكُمْ ترکعون لاصنام تعبدونها وتناجونها وهي لا تسمع حاجاتكم ولا ترى اعمالكم ولا تستطيع النطق والكلام معكم ، فهي بكم وعمي وصم كالبهائم . أئِّها الإِنْسَان ! إِنَّكَ قد كسرت شخصيتك بنفسك من خلال العبادة والخضوع لهذه الاصنام الجامدة .

بما أنَّ ضمير (هم) في (فهم) والضمير الذي في (لا يعقلون) يشيران إلى العقلاة لذا كان التفسير الأول أقرب للمنطق والعقل .

على أي حال ، فإنَّ الخطاب الرئيسي للاية هو رفض التقليد الاعمى للأسلاف والآباء .

التقليد في القرآن

تحدثت آيات كثيرة عن التقليد ، ومن الآيات ما تذم التقليد وتعتبره عملاً مضاداً للقيم ، ونموذج ذلك الآية ١٧٠ من سورة البقرة .^(١)

ل لكن بعض الآيات التي وردت في التقليد لا أئِّها لم تذمه فحسب ، بل دعت له وشحنت الناس عليه ، كما في الآية ٧ من سورة الأنبياء : ﴿فَاسْتَأْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ومع الالتفات إلى التضاد الظاهري بين هذين الطائفتين من الآيات ، ما هي وظيفة المسلم المؤمن؟ هل التقليد أمر مستحسن أم من نوع محروم؟ وهل يتمكن المؤمن من تقليد أهل العلم؟

أقسام التقليد

لاجل ايضاح الموضوع من الافضل ان ندرس اقسام التقليد .

١ . **تقليد الجاهل للجاهل :** ومثل هذا هو تقليد الكفار والمشركين الجهال لابائهم الجهال .

(١) وكذلك في الآيات ١٣٦ و ١٣٨ من سورة الشعرا و الآية ٤٠ من سورة المائدة و الآية ٢٨ من سورة الأعراف و الآية ٢١ من سورة لقمان و الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

وهذا النوع من التقليد منوع وغير صحيح حسب المعازين الشرعية والعقلية.

٢ . تقليد العالم للعالم : إنَّ العالم هو صاحب الرأي وليس من الصحيح ان يقلد العالم عالمًا آخر ؛ لانه إذا كان صاحب رأي فعليه أن يفكر في أن ييدي رأيه ويفيد من علمه الذاتي ، ولهذا قيل في الفقه (حرم التقليد على المجتهد).

٣ . تقليد العالم للجاهل : بأن يترك صاحب الرأي رؤاه وافكاره ويبحث عن رأي الجاهل ليعمل على اساسه. من المؤسف أنَّ هذا النوع من التقليد يكثر في عالمنا اليوم ، ونموذج ذلك هو الديمocrاطية الغربية ، فإنَّ أصحاب الرأي والمفكرين يتكونون من خلال هذه الديمقراطيات رؤاهم في مجال تخصصهم ويبحثون عن آراء الناس فيها فإذا ابدى الناس خلاف ما ينحthem تخصصهم من افكار طرحوا افكارهم واخذوا بما يشاء الناس.

٤ . تقليد الجاهل للعالم : بأنْ يسأل الشخص الذي يفقد المعرفة في مجال أو تخصص ما من العالم والمتخصص في ذلك المجال ، فالمريض يراجع الطبيب ، والذي يريد بناء بيت يراجع المهندس ، والفالح الذي يريد حفر بئر يراجع المهندس المختص في هذا المجال و.. والناس يرجعون في مسائلهم الشرعية إلى مرجع تقليدهم. وخلاصة الكلام هنا أنَّ تقليد الجاهل للعالم يعني الرجوع إلى المتخصصين والخبراء ، وهذا أمر متداول في جميع شؤون الحياة ، كما أنَّه أمر معقول.

وعلى هذا ، فالأنواع الثلاثة الاولى من التقليد هي الاقسام المتنوعة منه ، والآيات التي تزدِم التقليد ناظرة إلى هذه الأقسام. أمّا القسم الرابع فهو مدوح لا جائز فحسب ، والآيات التي تشجع التقليد وتحث عليه ناظرة إلى هذا النوع منه. (١)

لكن ينبغي الالتفات هنا إلى ان التخصص والعلم في مجال ما ، هو الشيء الوحيد الذي يمنح الانسان امكانية ابداء الرأي ، ولا شيء اخر يجيز للانسان ابداء الرأي في موضوع ما. ومن المؤسف أنَّ نشهد مؤخرًا البعض ييدي رأيه في مواضيع مختلفة قد لا تدخل في مجال تخصصه. إنَّه ييدي رأياً في مجال الحجاب والقصاص والعقولة والارث وقضاء النساء واجتهادهن

(١) للمزيد في هذا المجال راجع نفحات القرآن ١ : ٣٤٠ فما بعدها.

والديات وغيرها ، رغم أنه لا يملك الارضية الالازمة في هذه الحالات. لكن يا ترى هل هؤلاء يجيزون لانفسهم الدواء عند التمرض من دون مراجعة الطبيب؟ وهل هؤلاء يقومون بعمليات جراحية عند الابتلاء بامراض حادة؟ بالطبع لا. اذن كيف يمكن لهم أن يسمحوا لانفسهم في ابداء الرأي في القضايا الشرعية من دون أن يحملوا المعرفة الكافية في مجال الفقه والمسائل الشرعية؟

المثل الخامس :

الإنفاق

يقول الله تعالى في الآية ٢٦١ من سورة البقرة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلٍ حَجَّةَ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبْلَةٍ
مِائَةً حَجَّةً وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾

تصوير البحث

تحدث الآية الشريفة عن (الإنفاق) وذكرت مثالاً رائعاً للإنفاق في سبيل الله . إنَّ الفقر معضلة ، والبشر لا زال يعاني منها في مختلف مجتمعاته ، وهي مشكلة ترجع في الحقيقة إلى عدم التوزيع العادل للثروة ، الأمر الذي يؤدي إلى تقسيم البشر إلى فقير وغني .

التاريخ يشهد بأنَّه كانت هناك شخصيات مثل قارون تمتلك ثروات عظيمة ، بحيث حمل مفتاح مخازن ثروته يحتاج إلى طاقة عدة أشخاص أقوياء .^(١) وفي مقابل هؤلاء كان هناك اشخاص بحاجة إلى قرص من الخبز يقضوا بها ليتهم . إنَّ هذه المشكلة اشتدت في عصمنا الحاضر .

﴿كَمَثَلٍ عَلَى مَا نَقُولُ :﴾ إن بعض الاحصائيات حكت عن أن نسبة ٨٠ % من ثروة الكوكبة الأرضية يمتلكها نسبة ٢٠ % من الناس فإذا كان مجموع البشر في الكوكبة الأرضية عبارة عن

(١) لقد جاءت قصة قارون في القرآن المجيد في سورة القصص الآية ٧٦ فما بعد ، ومنها الآية التالية : ﴿وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا أَنْ مَغَاتِحَهُ لَتَشُوَّبَ بِالْمُضْبَطَةِ أُولَى الْفُؤَادِ ...﴾ وقصة قارون من قصص القرآن الجميلة والمليئة بالعبر .

خمس مليارات ؟ فان ٨٠ خ من الشروة تحت تصرف مليار من البشر و ٢٠ خ من الشروة العالمية يتقاسمها اربعة مليارات.

وبعبارة أخرى : إذا كان مجموع شعوب الدول الصناعية يقدر بـمليار فهذا المليار يملّك اربعين اخرين من ثروة الكوكبة الأرضية وما تبقى من البشر فلهم خمس تلك الشروة. والمدهش هنا أن هذه النسبة وتلك المفارق تزداد يوماً بعد آخر ولصالح الأغنياء.

طرق علاج الفقر

حل هذه المعضلة قدم العلماء منذ القدم علاجات ، والبشرية حربت عالجين مختلفين.

الأول : يعتقد الاشتراكيون والشيوعيون أن الفقر مشكلة نجد جذورها في الملكية الخاصة ، فإذا ما اجتننا جذور هذه المشكلة فإن المشكلة ستحل.

إن أصحاب هذه الفكرة جربوا هذا العلاج مدة سبعين عاماً ، قتلوا خلالها الملايين من البشر ، وارتكبوا جرائم كثيرة وتحملوا التكاليف الباهضة وواعدوا الناس وعوداً كاذبة كثيرة ، وأقلوهم بحياة متعلقة ، وخدعوا الناس عن جنة الأرض ، بل اعتبروا جنة الانبياء هي نتيجة اعمالهم ... إلأ انهم اعترفوا بفشلهم بعد هذه التجربة وتلاشى نظامهم ، الامر الذي أراح الناس الذين كانوا يرضخون تحت حكمتهم.

الثاني : رسمت الدول الرأسمالية خططاً أخرى لرفع معطلة الفقر ، فشكلوا لأجل ذلك مؤسسات ومنظمات كثيرة ، مثل : الهلال الأحمر وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وصندوق التعاون ومؤسسات الاعانات الاقتصادية والغذائية للدول الفقيرة ، وخصصوا لأجل ذلك ميزانيات ، لكنها جميعاً كانت تعاني من نقطتي ضعف :

ال الأولى : إجراءاتها محدودة وقليلة وغير متناسبة مع نفوس الدول الفقيرة ، ولذلك لم تحدث تغييراً في مستوى الفقر في هذه الدول.

الثانية : كثيراً ما تقترن هذه الاعانات بأغراض سياسية ، فإذا اقتضت مصالح هذه الدول الاعانة أعنوا وألا امتنعوا عن الاعانة ، وأحياناً يعترف بعض مسؤولي هذه الدول بهذه الأمور. ^(١)

(١) كما شهدنا ذلك في حرب البوسنة وفي شتايتها القارص ، إذا اعترف بعض رؤساء هذه الدول بعدم وجود مصالح لها

وعلى هذا فان العلاج الثاني ما حل عقدة من عقد الفقر العالمي.

علاجات الإسلام

إن العلاج الآخر لمعضلة الفقر هو وصايا الإسلام ، فإن العمل بها يؤدي إلى ملء فجوة الفقر وتقليل الفاصلية بين الطبقات الفقيرة والغنية .

لقد حصل هذا في عهد الرسول ﷺ فإن العمل بها حصل لأول مرة في التاريخ في ذلك العهد وكانت نتيجة ذلك هو مجتمع غير مقسم إلى طبقات ، أو مجتمع مع مفارقات طبقية محدودة جداً .

إذا تمكننااليوم تطبيق هذه الوصايا والأوامر الالهية في مجتمعنا هذا بل وفي المجتمعات البشرية لكيان الثروة موزعة على البشر بشكل عادل ولصغر فجوة بين الفقير والغني في مجتمعات الكورة الأرضية .

الإنفاق طريق لرفع الفقر

الإنفاق هو أحد الوصايا والأوامر الالهية القيمة التي هي موضوع بحثنا هنا. إن القرآن المجيد أكد كثيراً على موضوع الإنفاق وقد كان هذا الأمر موضوعاً لكثير من آياته ، والآيات التي تضمنت مادة الإنفاق تقدر بسبعين آية ، وإذا أضفنا إليها الآيات التي اشارت لهذا الموضوع من دون أن تأتي بمادة الإنفاق ، فالعدد يتجاوز عن هذا الحد بكثير.

أمر الله في القرآن للإنسان أن يدفع مقداراً مما كان من نصيبه في هذه الحياة الدنيا.

الآية ١٩ من سورة الذاريات أمرت بهذا بتعبير جميل : ﴿وَفِي أُمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومُ﴾ ، وبناء على هذه الآية فان للفقراء والمساكين حقاً في أموال الناس.

ولأجل تشجيع الناس على الإنفاق جاء القرآن بآيات عبرت عن الأمر بتعابير جميلة:

١ - يقول الله في الآية ٩٦ من سورة النحل : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقِ﴾

في البوسنة لكي تتدخل عسكرياً في النزاع الدائر هناك.

يا له من تعبير جميل ! فالعبارة تضم معان كثيرة رغم صغرها . وهي تعني أنّ الإنسان إذا صرف الملايين من امواله فان تلك الملايين تعد نافدة ومستهلكة ، بينما إذا صرف اقل مقدار من امواله انفاقاً في سبيل الله فإنَّ ذلك سيبقى في خزينة الله العبيبة ولا ينفد ، وهذا خلاف ما يتصوره أكثر الناس .

٢ . جاء في الآية ٨٩ من سورة النمل : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ونفسها في سورة القصص الآية ٨٤ .

وبحسب ما صرحت به هذه الآية ، فإنَّ الصدقة والانفاق لا يذهبان سدى فحسب ، بل يمنحك الله عليهم شيئاً افضل منهما عوضاً عن ذلك .

٣ . الآية ١٦٠ من سورة الانعام رفعت من قيمة الانفاق لتصريح بما يلي : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾

الآية تحدثت عن الحسنات عموماً ، وباعتبار أنَّ الانفاق من الحسنات العظيمة فهي تشمله . وبحسب ما صرحت به ، فإنَّ للإنفاق عشرة أضعاف من التواب والأجر .

أما الآية المبحوث هنا (٢٦١ من سورة البقرة) فقد رفعت مستوى الانفاق إلى أعلى مستوى ممكن ، فمثلت الإنفاق بالستابل التي تضم حبات كثيرة وكل حبة تنبت ستابل كثيرة ، وهي بذلك تشير إلى التضاعف التصاعدي للثواب المترتب على الإنفاق . ولكي تجib الآية عن بعض التساؤلات التي تتراود في اذهان البعض عن مصدر هذه العطاءات أشارت إلى أن ذلك كله من كنوز الله العظيمة ، وهو واسع وأوسع من أن يتصور .

خطابات الآية

١ . المراد من (في سبيل الله)

إنَّ اصطلاح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استخدم أكثر من ٤٥ مرة في القرآن ، واصطلاح ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استخدم ٢٥ مرة . وقد أريد من ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجهاد في كثير من الموارد كما في الآية الشريفة ١٦٩ من سورة آل عمران التي جاءت لبيان المقام الرفيع للشهداء : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ اللَّهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقد اريد من ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هنا

الجهاد كما اريد منه هذا المعنى في موارد كثيرة أخرى.

إلا أنَّ (سبيل الله) اختلف معناه في الآية ٢٦ من سورة (ص) : ﴿وَلَا تَتَبَعُ الْهَوَى فَيَضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ فقد نحت الآية النبي داود عليه السلام عن اتباع الهوى في القضاء ودعته للقضاء في سبيل الله ، أي القضاء العادل والذي يصل الحق إلى حقه من خالله. وعلى هذا ؛ فلا نصح ما ادعاه البعض من أنَّ المراد من ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هو الانفاق لأجل الجهاد فقط ؛ وذلك لأنَّ المراد منه مطلق سبيل الله سواء كان في الجهاد العسكري أو الجهاد الثقافي أو الجهاد العمري أو تأسيس مكتبة أو اعانة المحتاجين أو بناء المستشفيات والمستوصفات أو تأسيس صندوق للقروض أو غير ذلك. بالطبع ، إنَّ رعاية الأولويات والضروريات أمر مهم وفي محله ، كما أنَّ الابداع في هذا المجال سوف يؤدي إلى جذب الناس إلى هذه الاعمال بشكل واسع ، نأتي هنا بنموجين لهذه المقوله :

الأول : صندوق إعانة عوائل السجناء

مهما كان سبب سجن الرجل فإنه غالباً ما يكون معيلاً لعائلته. وخلال فترة حبسه . وخاصة إذا كانت طويلة . تواجه عائلته مشاكل جمة ، فمن جانب تهددهم مشكلة الفقر المالي ، ومن جانب آخر ترتصدهم المشاكل الاجتماعية والأخلاقية ، وهنا إذا لم نلتفت إلى الأوضاع التي تعيشها عوائل السجناء ولم نجد حلًا لها فإنَّ عملية حبس رب العائلة سوف تورث بالقوة سجينه و مجرمين آخرين. ومن المؤسف أنَّ هذا الأمر لم يلتفت اليه في المجتمع وقلما نجد شخصاً يفكير فيه.

إذا قمنا بمثل العمل الذي حصل في بعض المحافظات وهو تأسيس صندوق القرض الحسن فإنَّ عملنا هذا سيكون علاجاً لكثير من المشكلات الخاصة بعوائل السجناء وبالسجناء انفسهم ، وبذلك نقى المجتمع من كثير من الشذوذ والجرائم المحتمل وقوعها.

إنَّ شخصاً إذا كان سجينًا بسبب دين في ذمته يعطى من هذا الصندوق قرضاً لكي يطلق سراحه ، وبعد أن يحصل على عمل شريف يقوم بالدفع لهذا الصندوق. وبذلك تكون قد عالجنا مشكلته ومشكلة عائلته ونقذناهم من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية التي ترتصدهم.

الثاني : جمعية اعانة مرضى الكلية

هناك الكثير من يعانون من امراض الكلية وقد يحتاج بعضهم للديزلة اكثر من مرة في الاسبوع وخلال هذه الفترة يعانون آلاماً حادة. وأكثر هؤلاء يشفون إذا ما زرعت لهم كلية جديدة ، لكنهم في الغالب غير قادرين على دفع مبلغ الكلية الجديدة ، وفي هذه الحالة إذا تشكلت جمعية لاعانة هؤلاء المرضى المحتاجين لأجل زرع كلية فإن الجمعية ستقوم بعمل جبار في سبيل انقاذهم من الالام التي يعانون منها ، كما تخرج عوائلهم من حالة الاضطراب والقلق.

ويمكن تأسيس جمعيات مشابهة لهذه الجمعية تعم منافعها قطاعات و مجالات أخرى ، وذلك سعياً لتقليل المشاكل الاجتماعية والمالية عن الناس.

٢ . المراد من «الحبة» في الآية الشريفة

هناك بحوث كثيرة قام بها المفسرون متناولين فيها موضوع الحبة والمراد منها . قيل : معنى ذلك أنَّ الله يقوم بهذه المضاعفة لمن يشاء ، وهي قد تصل إلى سبعمائة ضعف .^(١)

إنَّ هذا المثل قد لا يكون له وجود في الخارج لكن هذا لا يضر ، فإنَّ شأن أكثر الأمثال هو هذا سواء كانت بالفارسية أو العربية أو بالي لغة أخرى . فالعنقاء وغيرها من الحيوانات التي لا وجود لها في الخارج تستخدم في الأمثال .

لكن بما أنَّ المثل صدر من الله الحكيم والعالم ، فلا بد وأن يكون له وجود خارجي . ولما ذلك قال البعض : المراد من الحبة في المثل هو حبة الدخن لا حبة القمح ؛ لأنَّ حبة الدخن قد تنتج سبعمائة حبة . لكن بما أنَّ مزارعاً بوشهرياً (مدينة في جنوب إيران) استطاع في السنوات الأخيرة أن ينتج ٤٠٠ حبة من حبة واحدة ، لذلك فسرنا الحبة هنا بالقمح ،

(١) الميزان ٢ : ٣٨٧ ، طبعة جامعة المدرسین في الحوزة العلمية . قم.

وأمكنا القول بـان لذلك وجوداً خارجياً. (١)

٣ . المراد من (يضاعف) في الآية الشريفة

هل المراد من عبارة ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء﴾ أَنَّ اللَّهَ يَمْنَعُ لِلْمُحْسِنِ وَالْمُنْفِقِ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ حِسَابٍ بَأَنْ يَمْنَعَ الشَّخْصَ (أ) ضَعْفَيْنِ مِنَ الْثَّوَابِ بَيْنَمَا يَمْنَعُ الشَّخْصَ (ب) ثَلَاثَةَ أَضْعَافٍ؟ أَوْ أَنَّ الْمُضَاعِفَةَ لِهَا حِسَابٌ خَاصٌّ وَقَوَاعِدٌ خَاصَّةٌ؟

إِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَقْتَضِي بَأَنْ لَا يَكُونَ مِنْحُ الثَّوَابِ بِشَكْلِ اعْتِبَاطِيٍّ وَمِنْ دُونِ حِسَابٍ ، بَلْ جَعْلُ الْأَمْرِ مُرْتَبَطًا بِمَفَارِقَاتٍ مِنْ قَبْلِ درَجَةِ الْاِخْلَاصِ وَكَيْفِيَةِ الْانْفَاقِ وَمُورَدِهِ وَشَخْصِيَّةِ الْمُنْفِقِ وَالْمُنْفَقِ عَلَيْهِ ، أَيْ أَنَّ ثَوَابَ الشَّخْصِ الَّذِي أَنْفَقَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّهِ يَخْتَلِفُ عَنْ ثَوَابِ الشَّخْصِ الَّذِي لَمْ يَلْعُجْ تِلْكَ الدَّرْجَةَ مِنَ الْاِخْلَاصِ ، وَالشَّخْصِ الَّذِي يَنْفَقُ سَرًّا وَمِنْ دُونِ مَنْهُ وَإِذْ يَخْتَلِفُ ثَوَابًا عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي يَنْفَقُ عَلَيْنَا ، فَهُمَا يَقْعُدُانِ فِي مَرْتَبَتَيْنِ لَا مَرْتَبَةٌ وَاحِدةٌ . وَالْمُسْلِمُ الَّذِي يَنْفَقُ قِرْصًا مِنْ قِرْصِيِّ الْخَبِيزِ الَّذِينَ يَمْتَلَكُهُمَا يَخْتَلِفُ عَنِ الْمُسْلِمِ الَّذِي يَنْفَقُ قِرْصًا وَهُوَ يَمْلِكُ عَشَرَةَ أَقْرَاصَ مِنَ الْخَبِيزِ . كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يَعِينُ عَائِلَةً مُسْكِيَّةً لَمْ يَنْفُوهُوا بِحَاجَتِهِمْ لَاهِدٌ يَخْتَلِفُ عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي يَعِينُ عَائِلَةً طَلَبَتِ الْإِعَانَةَ مِنْهُ .

أرفع نموذج للإنفاق في القرآن

في القرآن سورة باسم (الدهر) أو (الإنسان) أو (الابرار) نزلت في شأن الإنفاق
الخالص ، وقد ادرجت هذه السورة أجمل نعم الجنة للمنتفقين.

العامة والخاصة نقلوا أنَّ السورة نزلت في الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام حيث مرضا فنذر الإمام علي عليهما السلام صيام ثلاثة أيام لشفائهم ، فالتحقت فاطمة عليها السلام بهذا النذر ، ثم فضله كذلك. وبعد الشفاء صام الجميع وقد أعدت فاطمة في اليوم الأول خمسة اقراص من خبز الشعير وعند الإفطار طرق فقير الباب طالباً العون فاعطى الجميع اقراصهم له وافطروا على

٢٠٦ : ٢) تفسير الأمثل .

الماء فحسب. وفي اليوم الثاني جاءهم يتيم ، وفي اليوم الثالث جاءهم اسير ، وقد أعطوهما مثل ما أعطوا الفقير في الليلة الاولى ، وفي اليوم الرابع نزلت هذه السورة في حقهم ،^(١) وفيها توصيف وتمجيد للإنفاق ووعود بنعم عظيمة في الجنة.

وعلى هذا ، فإن هذه العائلة حصلت على ثواب عظيم اثر انفاقها لخمسة عشر قرصاً من الخبز.

تقول الآيات ٩ و ١٠ من سورة الدهر : **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَحَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيًّا﴾**

النموذج المذكور وغيره من النماذج التي اثناها عن المعصومين عليهم السلام ، هي في الحقيقة موارد نتأسى بها نحن المسلمين لنسير قدماً نحو مجتمع اسلامي مقبول خلو من المفارقات الإقتصادية.

ما يمكن أن يستشف من الاحاديث والروايات هو : أن عدم الفقر وال الحاجة من خصائص المجتمع الاسلامي المطلوب.

أي أنّ إذا بلغنا يوماً مستوى اقتصادياً رفيعاً وتنمية صحيحة بحيث توزع الشروة في المجتمع الاسلامي توزيعاً عادلاً في جميع البلاد الاسلامية فانا قد بلغنا . من الناحية الاقتصادية مستوى المجتمع الاسلامي المطلوب.

إنّ هذه العقيدة ليست شعراً ولا شعاراً ولا كلاماً عاطفياً وذات صبغة احساسية بل إنّه مضمون رواية منقولة عن الامام الصادق عليه السلام : محمد بن مسلم من اصحاب الامام الصادق عليه السلام ينقل عن الامام قوله : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَ فِرْضَ الْفَقَرَاءِ فِي مَالِ الْأَغْنِيَاءِ مَا يَسْعُهُمْ وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسْعُهُمْ لِزَادَهُمْ إِنْهُمْ لَمْ يَؤْتُوا مِنْ قَبْلِ فِرْضَةِ اللَّهِ عَزَّجَ وَلَكِنَّهُمْ أَوْتُوا مِنْ مَنْعِهِمْ حَقَّهُمْ لَا مَا فِرْضَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدْوَاهُ حُقُوقَهُمْ لِكَانُوا عَايِشِينَ بِخَيْرٍ». ^(٢)

المجتمع الذي يضم فقراء ، لا يكون الفقراء المتضررين الوحدين من هذا المجتمع ، بل

(١) التبيان ج ٩ : ٢١١.

(٢) وسائل الشيعة ج ٦ ، ابواب ما يجب فيه الزكاة ، الباب ١ الحديث ٢ ، وكذا من لا يحضره الفقيه ج ٢ ، ابواب الزكاة ، الباب ١ (عملة وجوب الزكاة) الحديث ٤ ، وكذا الكافي ج ٣ (كتاب الزكاة) باب فرض الزكاة ، الحديث الاول.

اضرار الفقر تعم جميع المجتمع ، فإنَّ الفقر منشأً كثير من الذنوب منها : السرقة والاعمال المنافية للعفة وغير ذلك.

وقد جاء في رواية أخرى للإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ : «ولو أَنَّ النَّاسَ أَدْوَى زَكَاةً امْوَالَهُمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمًا فَقِيرًا مُحْتاجًاً لَا سُتْغَنِيَّ بِهَا فَرَضَ اللَّهُ وَأَنَّ النَّاسَ مَا افْقَرُوا لَا احْتَاجُوا لَا جَاعُوا لَا عَرَوَا لَا بَذَنُوبَ الْأَغْنِيَاءِ». (١)

وبحسب هذه الرواية فإنَّ الحقوق الشرعية الواجبة مثل الخمس والزكاة تسد حاجة المحتاجين ، وإذا ما تم العمل بهذه الواجبات ، فإنَّ هذه المعضلة ستُجْتَبِطُ جذورها بالكامل . يطرح هنا تساؤل وهو : ما الحاجة إلى الإنفاق والتبرعات المستحبة إذا كانت التبرعات الواجبة تعمل عملها وتسد حاجة الفقراء إلى المال؟ وعلى هذا فما دور الآية ٢٦١ من سورة البقرة في هذا المجال؟

يمكنا الإجابة عن هذا السؤال بطريقتين :

الأولى : قد يتخلَّفُ بعض المتمولين والاغنياء عن وظائفهم الشرعية ولا يدفع ما عليه من الزكاة الواجبة . كما هو الحال في الوقت الحاضر فان كثيراً من المتمولين غير موفقين في دفع ما عليهم من الزكاة الواجبة ، وفي هذه الحالة يأتي دور الصدقات والتبرعات المستحبة لتملاء الفراغ الناشئ عن عدم دفع الاغنياء لما عليهم من صدقات واجبة .

وعلى هذا ، فالمحسنون من المؤمنين يقومون بدور الاغنياء العصاة ويتحملون نتائج عصيانهم ، هذا إضافة إلى ما يتتحملون من دفع الصدقات الواجبة عليهم .

الثانية : إنَّ الزكاة وغيرها من التبرعات الواجبة والمفروضة على الاغنياء تسد الحاجة الضرورية للفقراء إذا ما دفعت . واما الإنفاق فدوره يبرز في التوسيع على الفقراء ليبلغ بهم مستوى رفاهي نسبي ومعتدل به .

في النتيجة : إذا اخذنا بنظر الاعتبار مستوى الفقر ونوعيته في المجتمع يمكننا الحكم في ضوئه على مستوى اقتربنا من المجتمع الإسلامي المطلوب .

(١) وسائل الشيعة ج ٦ أبواب ما يجب فيه الزكاة ، الباب الأول ، الرواية السادسة .

٤ . دراسة المشبه في آية الانفاق

للمفسرين رأيان في تحديد المشبه في الآية ٢٦١ من سورة البقرة ، فبعض قال بأنه المال المنفق ، حيث شُبِّه بالحبة المباركة التي تنتج سبعمائة حبة .
وقال بعض آخر : بأنَّ المشبه هو المنافق الذي ينمو ويتکامل إلى مستوى رفيع جداً .
أكثر المفسرين يعتقد بأنَّ المشبه هو المال المنفق ويقدرون جملة مخدوفة هنا لتكون حقيقة الآية كالتالي : (مثل اموال الذين ينفقون ..).

ونحن نعتقد أنَّ الآية لا تحتاج إلى التقدير ، وحسب الظاهر فإنَّ المشبه هو الإنسان المنافق الذي تعلو شخصيته وتكامله وتنمو إلى مستوى سبعمائة ضعف ، ومصداق هذا الاعتقاد هو الآيات والروايات التي دلت على أنَّ الإنسان كالنبات ينمو ويتکامل .

أولاً : يقول الله في الآيات ١٧ و ١٨ من سورة نوح : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِدُّكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ فقد شُبِّه الإنسان هنا بالنبات الذي يُزرع لينمو ويتکامل ثم يجف ثم يحيى مرة أخرى ثم يجف ثم يحيى وهكذا ...

ثانياً : يقول الله في الآية ٣٧ من سورة آل عمران : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبْوِلِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَا ...﴾ فقد استخدم هنا مادة الابنات للاشارة إلى تربية مريم من قبل زكريا ، والشاهد هو تشبيه تربية الإنسان بتنمية الزرع بعد انباته .

ثالثاً : جاء في حديث نقل عن الرسول ﷺ : «إياكم وحضراء الدمن!» قيل وما حضراء الدمن؟ قال : «المرأة الحسناء في منبت السوء» ^(١) فقد شُبِّه الإنسان هنا بالنبات الذي قد ينبت في مكان سيء .

من جانب آخر ، إنَّ في هذا الحديث خطاباً واضحاً ووصية مهمة للشباب المقربين على تشكيل عائلة . ففي هذا الحديث يوصي الرسول ﷺ المؤمنين أن لا يجعلوا الجمال المقياس الوحيد لانتخاب الزوجة بل اضافة اليه ينبغي النظر إلى العائلة ، أي المكان الذي تربت فيه الزوجة ، وذلك رغم أنَّ الجمال بحد ذاته قيمة إلا أنَّه يرضي الزوج في الفترة الوجيزة الأولى من

(١) وسائل الشيعة ج ٤١ ، أبواب مقدمات النكاح ، الباب ٧ ، الحديث ٧ . والدمن تعني المزيلة .

الحياة المشتركة ، أمّا القيم الأساسية والمهمة في الحياة العائلية ، وهي التربية والثقافة والفكر والقيم المكتسبة في البيت فيبرز دورها في المراحل اللاحقة من حياة الإنسان. والجملة إذا لم تتميز بسيرة حسنة واحلاق جميلة بدلت محيط العائلة المقدس إلى جهنم يصعب تحملها.

كما شاهدنا في الآيات والروايات السابقة ، فإنَّ الإنسان شَبَّه بالنبات الذي ينمو ويتكامل ، وبهذا يمكن أن نستدل على أنَّ المراد من المشبه في الآية هو الإنسان نفسه. وفي النتيجة يكون مفهوم الآية كالتالي : أيها الإنسان أنت كالنبات والإنفاق بمثابة الماء الذي يسقي النبات ليمنحه حياة ونمواً. وبعبارة أخرى : إنَّ الإنفاق يُحيي في الإنسان الصفات العليا مثل السخاء والعطاء والمرأة والانصاف والشجاعة وغير ذلك.

إنَّ هذه الصفات في البداية تكون (فعلاً) أو عملاً مجرداً ، وإذا ما تكررت تصبح عادة وفي صورة الاستمرار تصبح (حالات) وفي النهاية تكون (ملكة) ^(١) وجزءاً من وجود الإنسان.

وعلى هذا ، فالإنفاق ، قبل أن تكون له عوائد مادية ، له مردودات معنوية ، وكلما كان الإنفاق عن اخلاص أشد وكلما كان اطهر وانسب كلما كانت هذه المردودات أكثراً وأوسع. وقد تكون جميعاً جربنا عطاءنا مسكييناً لم يصّر بحاجته لنا مقداراً من المال (رغم حاجتنا له) وجدنا في ذلك لذة معنوية احسسناها بكل وجودنا ، وبلغنا إثر ذلك هدوءاً باطنياً وحالة روحانية ومعنوية خاصة.

ذلك هو النمو والتعالي الذي تشير إليه الآية من خلال مثيلها. إنَّ الله القادر والحكيم بإمكانه أنْ يغني الجميع ويجتث جذور الفقر من المجتمعات ، لكنه شاء أن تكون هناك فجوة بين الفقراء والأغنياء يسعى المؤمنون في ملئها ليروا آثار أعمالهم الحسنة وبركات انفاقهم في الدنيا ويسعروا بهذه الآثار وينجذبوا أثر ذلك الدرجات العليا من الكمال والمعنوية. وعلى هذا فلا نحن على الله بالإنفاق ولا على المنفق عليه ، بل الله هو الذي يمن علينا أنْ وفقنا لهذا العمل العظيم (للهم وفقنا لما تحب وترضى).

(١) إنَّ الملكة تعني (الصفة الراسخة في البدن) ، وتوضيح ذلك : إذا حصلت للإنسان هيئة خاصة من جراء فعل ما قيل لهذه الهيئة : (كيفية نفسانية) ، وإذا كانت هذه الكيفية سريعة الزوال قيل لها : (حال) ، وإذا كانت بطبيعة الزوال كانت ملكة أو عادة (موسوعة دهخدا ينقلها عن الجرجاني).

ومن مجموع ما مضى يمكننا ان نفسر الآية ٢٦١ من سورة البقرة بصرامة من دون حاجة إلى تقدير جملة مخدوفة. رغم ذلك فانا لا نصر على تفسيرنا بل نعتبر أنَّ كلام التفسيرين مقبولان ، أي يمكننا القول : الآية تفيد أنَّ مال الفرد المنفق ينمو كما أنَّ شخصيته تنمو من خلال نمو وتكامل خصائصها الحسنة. ^(١)

نمو المال المنفق في كلام الرسول ﷺ

في مجال نماء المال المنفق ، للرسول ﷺ كلام جميل نقله هنا : «ما تصدق احد بصدقة من طيب . ولا يقبل الله الا الطيب . إلَّا أخذها الله الرحمن بيديه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون اعظم من الجبل». ^(٢)

في هذه الرواية نرى عدة نقاط أهلاً للإنتباه :

الاولى : الرواية صرحت بأنَّ الله يأخذ الصدقة بيديه وهذا أمر يطرح تساؤلاً : هل الله جسم وأعضاء؟

من البديهي أنَّ الله غير جسم ، وتعبير (الأخذ باليمين) كناية عن قدرة الله الكاملة ، وذلك لأنَّ اليمني عند الإنسان غالباً أقوى ، لذلك كان مفهوم العبارة أنَّ الله يأخذ الصدقة بقدرة كاملة مع احترام.

الثانية : إنَّ ما يحظى بالأهمية في الإسلام هو كيفية العمل ودوافعه لا كميته وظاهره . وعلى هذا ، فإنَّ اعطاء تمرة حلال لمسكين من دون منة ولا أذى افضل عند الله من تمر كثير غير حلال أو تزامن مع منة أو أذى.

الثالثة : وفقاً لهذه الرواية ، فإنَّ المال المنفق ينمو إلى سبعمائة ضعف أو أكثر. وعلى هذا الأساس ، فإنَّ المال يبقى عند الله ينمو ويرد إلى صاحبه يوم القيمة ليكون سبباً لإنقاذه من نار الجحيم.

(١) الاستاذ كغيره من محققين علم الاصول يجوز استعمال اللفظ في اكثر من معنى واحد. وبناء على هذا الرأي يتمكن المتكلم النطق بلفظ وارادة عدة معانٍ منه. وللمزيد راجع انوار الاصول ١ : ١٤١ فما بعدها.

(٢) صحيح مسلم ٢ : ٧٠٢ ، وقد جاء نفس المضمون في روایات اهل البيت ؑ في وسائل الشيعة ج ٦ ، ابواب الصدقة الباب ٧ ، الحديث ٨.٥.

(الإنفاق) في تعبير القرآن الجميلة

لأجل بيان أهمية الإنفاق في الإسلام وقيمتها في القرآن ، وردت في القرآن تعبيرات كثيرة عن هذا الأمر ، وهي اهل للالتفات والدقة نكتفي هنا بذكر نمودجين منها :

الأول : جاء في الآية الشريفة ٢٤٥ من سورة البقرة ما يلي : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

التعبير بالقرض الحسن عن الإنفاق تعبير بديع ومدهش. كيف يمكن لله القادر والمالك لكل شيء أن يفترض من الإنسان الفقير والحتاج لربه في كل حركاته وسكناته وحتى في الشهيق والزفير؟ ومع حاط أنَّ القرض الربوي في الإسلام حرام فإنَّ التعبير عن الإنفاق بالقرض الحسن لا يكشف إلَّا عن أهمية الإنفاق وتشجيع للعباد لأجل إداء هذا العمل بإخلاص.

ويبدو أنَّ ذكر هذه النقطة ضروري ، وهي أنَّ (القرض الربوي) ناظر إلى العباد وسلوكهم بينما القرض الحسن ناظر إلى رب العباد ، وهو يعني أنَّ من يقرض الله قرضاً فالله يرجعه مع اضعاف مضاعفة. والنقطة المدهشة كثيراً هنا هي أنَّ يَد الفقير . حسب الآية والروايات المذكورة . هي يَد الله ، وبنته هو بيت الله. وفي الحقيقة إنَّ ما يوضع في يَد الفقير يوضع في يَد الله ، ولذلك كانت الروايات توصينا بأنَّ نضع أيدينا في مستوى ادنى من يَد الفقير عند التصدق إليه ، لأجل أنَّ يأخذها من أيدينا ، وأنَّ يده هي يَد الله وقدره الكاملة ، وهو الذي يستلم المال من المتصدق. حذاراً أن تصدر منا اهانة أو تحzier لفقير.

وقد تكررت العبارة المذكورة هنا في الآية ١١ من سورة الحديد ، كما قد أضيف لها

جملة أخرى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ...﴾

الثاني : جاء في الآية ٩٢ من سورة آل عمران : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّ تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ...﴾

وكذا جاء في الآية الشريفة ٢٦٧ من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيَّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ، أي عليكم أن لا تنفقوا إلا من الطيبات فلا تنفقوا من الأشياء التي لا فائدة فيها أو مضرة مثل الملابس الخلقة أو الفواكه والماكولات الفاسدة وما

شابه ذلك ، بل تذهب الآية إلى أبعد من ذلك لتأمر بانفاق ما يحبه الإنسان ، والذي هو أهل لأن يعطي بيده الله ، فإنَّ غير ذلك ليس أهلاً لوضعه بيده الله ، فالانفاق بالأكل ينبغي أن يكون من النوع الذي يحبه المنافق له ولعياله وفي الملابس من النوع الذي يحب لبسه المنافق واهل بيته.

إنَّ نظام القيم الحاكم في الإسلام يحکي عن منح الإسلام القيمة والأهمية لكيفية العمل لا كميته ومقداره ، ولهذا يضاعف الله أحقر تمرة واحدة ألف ضعف ، بينما لا يفعل ذلك في تمرة أخرى ؛ لأنَّا قد لا تكون مكتسبة من حلال أو قد تنفق بنية الرياء وما شابه .
ننقل هنا حكاية عن الرسول ﷺ تكشف عن دقائق الانفاق :

كان الرسول يُعد العدة لأحد غزواته وكان المسلمين يتبرعون لاجل هذه الغزوة .. فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مراء ، وهذا القول صدر من المنافقين الذين لا يأبهون من أحد من لسانهم ، وجاء أبو عقيل ، الذي ما كان مورده يسعه للتصدق فاضطر للعمل ليلاً نهار لاجل الاشتراك في هذه التعبئة الجماهيرية ، بنصف صاع فقال المنافقون : إنَّ الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت الآية ٧٩ من سورة التوبة : ﴿الَّذِينَ يَلْمِرُونَ الْمَطَوْعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)

(١) انظر الأمثل ٦ : ١٣٠ - ١٣٣ .

المثل السادس :

الإنفاق مع المَنْ والأذى

يقول الله تعالى في الآية ٢٦٤ من سورة البقرة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَأَبْلَى فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

المثلان الخامس والسادس كلاهما حول الإنفاق لكنهما غير مكررين ، بل إنَّ المثل الخامس حكى فضل الإنفاق وقيمه ، أمَّا في المثل السادس فالحديث عن الإنفاق ذات الصبغة السلبية وأنَّ المؤمنين لا ينبغي أنْ يبطلوا صدقاتهم وانفاقهم بالمنْ وأذى الآخرين.

الشرح والتفسير

الآية بدأت حديثها بخطاب المؤمنين ، ومعنى ذلك أنَّ ما ورد في الآية من أوامر فهي خاصة بالمؤمنين ، وشرطها الأول هو الإيمان وأنَّ الذي خرج مصداقاً عن هذه الآية وكان غير عامل بها فهو ليس بمؤمن.

عبارة **﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذَى﴾** تفيد أنَّ شيئاً يبطلان الصدقة ، الأول : المَنْ ، والثاني : إيصال الأذى لآخرين ؛ وذلك لأنَّه قد لوحظ أنَّ البعض يتصدق على آخرين لكن صدقته تتزامن مع أذى إلى آخر العمر ، بأن يقول له : (لو لاي لكنت محترماً وما كان لك شأن واعتبار) أو (خذ هذا المبلغ ولا تربني وجهك بعد ذلك).

ليس المَنْ والاذى هما الوحيدان اللذان يبطلان الصدقة ، بل قطع كلام الفقير الذي يريد حكاية حاله ومشاكله أيضاً أمر غير صحيح ومرفوض.

جاء في رواية : «لا تقطعوا على السائل مسألته ، فلو لا أنَّ المساكين يكذبون ما افْلَح

من ردهم». ^(١)

لا بأس هنا ان نبتّ بتوضيح مفردة (المن). إنَّ أصل هذه المفردة هو (من) وهو وزن خاص ، وقد استخدمت هذه المفردة للإشارة إلى المعنى المراد في الآية ؛ لأجل أنَّ الشخص المانِ يحمل الممنون عليه عبئاً وثقلًا يشعر به.

من جانب آخر ، فإنَّ انعام الشخص على آخر يقال له (من) وهو على قسمين :
الأول : المَنْ العملي بأنْ ينعم شخص عملياً على شخص اخر ، وهذا أمر مستحسن.

الثاني : المَنْ الادعائي بان ينعم شخص على اخر بالقول دون العمل ، فهو عملياً لم ينعم عليه أبداً. وقد استخدمت هذه المادة في القرآن الجيد عشرين مرة.

من موارد استخدام هذه المادة هو ما جاء في الآية ١٧ من سورة الحجرات : ﴿يَمْنُونَ

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَى إِسْلَامَكُمْ بِلِ اللَّهِ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِإِيمَانِ﴾

فالمنُ الاول في الآية هو من إدعائي ، وذلك لأنَّ الاعراب لم يمنوا على النبي بأي نعمة. فإنَّ المريض إذا جاء طبيباً وطلب منه الدواء فكتب الطبيب الدواء له وشفى من جراء استخدام هذا الدواء ، فهل هذا يعني انعام المريض ومنه على الطبيب؟!
أما المَنُ الثاني في الآية فهو من عملي ؛ وذلك لأنَّ الله أنعم عليهم نعمة الإسلام ، فمَنْ عليهم بهذا العطاء.

وعلى هذا ، فالمَنُ الصادر من الله يعني البذل والعطاء أو المَنُ العملي ، أما المَنُ الصادر من الإنسان فيحتمل كلا المعنيين العملي والادعائي. والمَنُ الأول في الآية هو من ادعائي وقولي.

ثم تمثل الآية هؤلاء الاشخاص بقطعة من الحجر وتقول : ﴿... كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ كَمَثَلِ صَفْوَانِ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابْلَ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ، ابواب الصدقة الباب ٢٢ ، الحديث ٣.

يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ... ﴿١﴾

فالذى ينفق مع منْ وادى (كالكافر المرأى) انفاقه غير مقبول عند الله ؛ لأنَّ الإيمان هو شرط القبول ، ومثل هذين (أى المان والمؤذى من جهة والكافر المرأى من جهة اخرى) كمثل صفوان ، أى قطعة من الحجر تراكمت عليها طبقة من التراب بحيث تبدو صالحة للزراعة ، فاذا بوابل (مطر) يصييها ليكشف عن واقعها الصلد المتحجر وعدم صلاحيتها للزراعة ، فيجدون أنفسهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ فذهبت مسامعهم هباءً ؛ لأنَّ عملهم لم يكن عن علم ومعرفة بل كان بناءً على النظر إلى الظاهر لا الباطن والعمق . الغيث نعمة يمكنه أنْ يروي المزارع وينمي البذور ، كما يمكنه ان يدمر الزرع . كذلك سائر آيات الله فهي تفيد المؤمنين والصالحين من بركاتها ، كما توضح وتضل الكافرين والمنافقين .

إنَّ كلفة وزحمة المزارع الذي يزرع بذور الاخلاص والمزارع الذي يزرع بذور الرياء واحدة لكنَّ حاصل الزرعين ليس واحداً ، فاحدهما يحصل على سبعمائة ضعف والآخر قد لا يحصل على ادنى شيء بل يفقد كل ما كان لديه .

خطابات الآية

١ . خطابات القرآن المجيد غالباً ما تكون عامة (يا أَيُّهَا النَّاس) و (يا بَنِي آدَم) و (يا أَيُّهَا الْإِنْسَان) و (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وهذا يعني تعميم خطابات القرآن لجميع البشر مهما كان جنسهم ومهما كانت قوميتهم ، ولذلك لا نجد في خطاباته عبارات من قبيل : (يا أَيُّهَا الْعَرَب) أو (يا قريش) وما شابه ذلك .

هذه الخطابات تتضمن نقطة ظريفة وهي عولمة الدين الإسلامي ، أي ان الإسلام دين لا يختص بقوم أو بلد أو قبيلة أو جنس بل هو للجميع اينما وجدوا .

٢ . إنَّ الرياء والظاهرة عمل لا أساس له ولا تواصل ، والمتزاي والمتظاهر يحكم عليه بالفضيحة ؛ وذلك لأنَّ كلَّ وقتٍ يحتمل أنْ طرُّ ظاهرة تكشف عن وجه الحقيقة ، كما كشف الوابل في الآية عن حقيقة الصخرة المتحجرة .

٣ . إنَّ الذين ينفقون مع المَنْ والأذى كالحجارة وقلوبهم بشدة الحجارة . وما يلفت

الانتباه هنا هو أنَّ المطر اللطيف يكشف عن قسوة قلوب هؤلاء وطبعتهم. إنَّ الغيث يروي البذرة لتنمو ، لكن دوره هنا هو تدمير هذه البذرة. إنَّ الغيث من الآيات الالهية تنفذ في قلب المترائي فتغسل فيه طبقة الرياء وتكشف عن صلابة القلب ، ليتفضح صاحبه.

٤ . انَّ المتراءين والمنفقين ، الذين يعنون ، لا يحصلون على ثمرة من حراء عملهم هذا ، كما هو الحال بالنسبة للمزارع الذي ينشر البذور في الأرض الصلبة فانه يفقد بذوره كما تذهب مساعيه هباء ، وفي النهاية لا يحصل على أي ثمرة ، كذا المنفق مع الرياء فهو لا يحصل على أي ثواب كما يفقد المال المنفق.

٥ . بناء على التفكير الفلسفى لأكثر المدارس ، وبناء على ما يعتقد عامة الناس ، فإنَّ المال شيء ثمين ، والغنى يُعدُّ من القيم. وحسب ما يرى الإسلام . مع الاخذ بنظر الاعتبار اهمية المال ودوره في الحياة الدنيا . فإنَّ مفاهيم مثل الایمان والايثار والشهادة و.. لها قيمة أكبر من المال. ومن جملة تلك القيم التي يعتقد بها الإسلام هي احترام الانسانية وحفظ حرمة المؤمن وكرامته.

وعلى هذا ، هل يمكن عُدُّ عمل الشخص ، الذي يمنع مبلغًا لمسكين أمام أعين الناس وينذهب بذلك اعتباره وماء وجهه ، صدقة أو انفاقاً؟ وهل من الصحيح أن يتوقع هذا الشخص الأجر والثواب من الله؟

من المؤسف أنَّ نظام القيم للمذاهب المادية هو المال ، ومظهره الراهن هو الدولار ، وهو بامكانه ان يبرر كل شيء حتى الجرائم التي ترتكب في حق الإنسانية.

من تلك الجرائم هو مبادعة الإنسان وبخاصة البنات والبنين الصغار ، فإنَّ دلائل البشر يقومون بشراء البنات والبنين من الدول الفقيرة وبخاصة الشرقية بابخس قيمة ثم يبيعونهم في الدول الغربية المدافعة عن حقوق البشر بمبالغ باهضة. وقد يساء استخدام هؤلاء الأطفال بقطع اعضائهم وزرعها في أجسام بعض المتمولين في العالم الغربي ، كما قد يستخدمون لاغراض جنسية وتجارية.

ومن جملة اجراءات الغربيين التي بررها دولاتهم هي (الديمقراطية) التي تشكل البنية الاساس لدعوى حقوق البشر عندهم ، فقد تم المعاملة على هذه القضية بالدولارات. ومثل

ذلك هو أصوات الشعب الجزائري المظلوم حيث أبطلت وبتوا علاوة على ذلك بسلسلة من اجراءات تعسفية ومجازر جماعية ، لكنّ مدعى حقوق البشر في الجزائر عمّي وصم وبكم ، فلا سمعوا بهذه المجازر ولا رأوا صورها ولا غير ذلك.

إنَّ ذلك في الحقيقة من الآثار القيمة للدولار ؛ وذلك لأنَّ هذه الحوادث تؤمن مصالحهم ، بل انفسهم مباشرة أو بشكل غير مباشر يقومون بهذه الاجراءات ؛ حفظاً لصالحهم.

هذا الامر لا ينحصر في الجزائر بل الامر عام في العالم أجمع ، فإنَّ أي حكومة في العالم تؤمن مصالحهم ولا تحول دون زيادة مواردهم تعد حكومة جيدة مهما كانت قبلية أو بدوية أو لا يلحظ فيها أي دور لآراء الناس ، بينما الحكومة التي تعرض مصالحهم واموالهم للخطر فهي حكومة غير انسانية ومخالفة لحقوق البشر ولو كانت تحضى بعالم انسانية عالية وتدار بواسطة نظام سياسي متقدم .

إنَّ الأمر في الإسلام مختلف ، فنظام القيم فيه يتنبى على قيم من قبيل الإيمان والكمال الإنساني وكراهة الإنسان واعتباره وشرفه وحيثيته الرفيعة.

سيرة الأئمة في الإنفاق والبذل

إنَّ طريقة بذل الأئمة وكيفيتها من الحكايات التي يُعتبر ويُتعلم منها الدروس. ينقل العلامة المخلسي عند ذكر سيرة الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام الحكاية الجميلة التالية التي مؤرثها العبر والدروس :

«خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر (زوج زينب عليهما السلام) حجاجاً ففاقتهم اثقالهم ، فجاعوا وعطشوا فمرروا بعجوز في خباء لها فقالوا : هل من شراب؟ فقالت : نعم فanaxوا بها وليس الا شوبيه في كسر الخيمة ، فقالت : احلبوها وامتنقوها لبنتها ، ففعلوا ذلك وقالوا لها : هل من طعام؟ قالت : لا إلَّا هذه الشاة ، فليذبحنها احدكم حتى اهيء لكم شيئاً تأكلون. فقام اليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا ثم اقاموا حتى ابردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين فالملي بنا فانا صانعون إليك خيراً ، ثم ارتحلوا.

وأقبل زوجها وخبرته عن القوم والشاة ، فغضب الرجل وقال : ويحك تذبحين شاتي لاقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش .

ثم بعد مدة الجأتم الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها وجعلها ينقلان البعير إليها وبيعانيه ويعيشان منه فمررت العجوز في بعض سكك المدينة ، فإذا الحسن عليه السلام على باب داره حالس فعرف العجوز وهي له منكرة ، فبعث غلامه فردها فقال لها : يا امة الله تعرفيني ؟ قالت : لا . قال أنا ضيفك يوم كذا . فقالت العجوز بأبي أنت وأمي فامر الحسن عليه السلام فاشترى لها ما شاء الصدقة ألف شاة ^(١) وامر لها بآلف دينار وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين عليه السلام فقال : بكم وصلك أخي الحسن ؟ فقالت : بآلف شاة وآلف دينار ، فامر لها بمثل ذلك ، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر عليه السلام فقال : بكم وصلك الحسن والحسين عليهما السلام ؟ فقالت : بآلفي دينار وألفي شاة فامر لها عبد الله بآلفي شاة وألفي دينار » . ^(٢)

الصدقة تدفع ميّة السوء ^(٣)

لقد قلنا سابقاً : إنَّ الصدقة تفيد المنفق قبل أنْ يفید منها الحاجة ، وقد درسنا في السطور السابقة ما يتربَّ على الصدقة من صفات كمالية إضافة إلى الاجر والثواب المعنوي ، ونقول هنا : بأنَّ الصدقة تدفع البلاء والموتة السيئة ، والرواية التالية تكشف عن هذا الامر .

مرءٌ يهودي بالرسول عليهما السلام فقال : السام عليك ^(٤) فاجاب الرسول : «وعليك» ، فقال النبي عليهما السلام : «إنَّ هذا اليهودي يعضه اسود في قفاه فيقتله» ، قال : فذهب اليهودي فاحتطلب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث أنْ انصرف فقال له رسول الله عليهما السلام : «ضعه»

فوضع الحطب

(١) رغم الولاء الظاهر الذي كان يديه الناس لحكومة معاوية ، إلا أنَّ قلوب كثيراً منهم أو اشتهرهم كانت مع الأئمة ، ويبدو أنَّ بذل الامام الحسن هذا كان من محل تبرعات الناس وانفاقهم وعطائهم لأهل البيت .

(٢) بحار الانوار ٤٣ : ٣٤٨ .

(٣) يراد من ذلك الموت الذي يحصل اثر الإحتراق أو الموت بالتنقيط ارياً ارياً وما شابه .

(٤) هذه الطريقة من السلام تعارفت عند بعض المسلمين ، وهو أمر يؤسف له ، ويبدو أنَّ عملهم هذا ناشيء عن الجهل بما يعني هذا السلام ، الذي هو نوع من اللعن .

فاما اسود في جوف الخطب عاض على عود فقال : «يا يهودي أي شيء عملت اليوم؟»^(١)
 فقال : ما عملت عملاً إلّا حطّي هذا احتمله فجئت به وكان معي كعكتان فاكلت واحدة
 وتصدقـتـ بـواحدـةـ عـلـىـ مـسـكـينـ ،ـ فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ الـحـلـمـ :ـ «ـبـهـاـ دـفـعـ اللـهـ عـنـهـ»ـ وـقـالـ :ـ «ـإـنـ الصـدـقةـ تـدـفعـ مـيـةـ السـوـءـ عـنـ الإـنـسـانـ»ـ.

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ، أبواب الصدقة ، الباب ٩ ، الحديث ٣ ، ونجد هناك روایات أخرى بهذا المضمون.

المثل السابع :

الإنفاق اللاقى

يقول الله الرزق في الآية ٢٦٥ من سورة البقرة :

﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْيِتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَّلَ جَنَّةً بِرِزْوَةِ أَصَابَهَا وَإِلَّا فَأَتَتْ أَكْلَهَا صِعْدَيْنِ إِنَّ لَمْ يُصْبِهَا وَإِلَّا فَطَلْلٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

رغم أنَّ هذا المثل كسابقه عن الإنفاق لكن يختلف عنه في أنَّه يعكس الجوانب الايجابية للإنفاق والمناظر الجميلة له غير تلك المناظر التي تحدث عنها المثل السابق والتي تزامنت مع المن والأذى ، لأنَّ الحديث هنا عن الإنفاق المتزامن مع الاخلاص.

الشرح والتفسير

يقول الله في هذه الآية : إنَّ مثل الذين ينفقون باخلاص ومن دون رباء وأذى كمثل البستان في مكان مرتفع ذات تربة خصبة يسقيها الغيث ، والشمس تسقط عليها من كل مكان ، فكانت النتيجة هي محاصيل وافرة ومضاعفة ، قياساً لمحاصيل الأرضي المماثلة ، والذين ينفقون بمثابة البستان ويكون انفاقهم كمحاصيل هذا البستان وافراً ومتضاعفاً.

إنَّ دَوَافِعِ الإنفاق عند هؤلاء وفقاً لهذه الآية هي كالتالي :

الاول : ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وهذا اشاره إلى الحديث المعروف عن الامام علي

عليه السلام : «ما عبدتك خوفاً من نارك» رغم أنَّ ناره مخيف تصورها فضلاً عن واقعها.

«ولا طمعاً في جنتك» رغم أنَّ نعمها ثمينة وقيمة جداً ولا يمكنها أن تدخل في خيلة

الانسان .^(١)

(١) معرفة المزيد من النعم الجسمانية والروحانية في الجنة راجع تفسير نفحات القرآن ٦ : ١٨٩ فما بعدها.

«لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(١) أي أنَّ أهلية للعبادة هي التي دفعت الامام للعبادة لا الخوف والطمع.

إنَّ النوع الاول من العبادة هو عبادة العبيد ؛ لأنَّ العبد يتمثل الاوامر خوفاً من مولاه وسطوه. والنوع الثاني من العبادة هو عبادة التجار ؛ لأنَّ العبادة هنا يُتوخَّى منها الشمن والعوض. والنوع الاخير من العبادة هو عبادة الاحرار ، حيث إنَّ اطاعتهم لموالهم لا خوفاً ولا طمعاً بل الله خالصه.^(٢)

وقد تكون الآية الشريفة هنا ناظرة إلى النوع الاخير من العبادة ، أي أنَّ الإنفاق هنا لم يتوجه منه إلَّا وجه الله ورضوانه.

الثاني : الدافع الثاني للمنافقين في الآية الشريفة هو بلوغ الكمالات النفسانية والملكات الروحانية ، حيث قالت الآية : ﴿تَشْبِئَا لِأَنفُسِهِم﴾ ، وقد جاء في مفردات الراغب أنَّ التشبيت يعني التقوية والتحكيم. بالطبع ليس المراد من التشبيت في الدعاء ﴿اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ هو تقوية الاقدام وتحكيمها ، بل المراد تقوية خطى الاقدام وتحكيم هذه الخطى.^(٣)

خطابات الآية

١ . في هذا المثل شُبِّهَ المنافق بالجنة^(٤) والبستان الذي يقع في ارضٍ مرتفعة ، وفي هكذا أرض توحد عدة خصائص هي كالتالي :

الف . نور الشمس من العوامل المهمة لنمو النباتات ، والارض المرتفعة تناول نور الشمس من كل صوب ؛ لأنَّه لا شيء يحول دون السطوع المباشر عليها.

(١) بحار الانوار ٦٧ : ١٨٦ .

(٢) هذا مضمون لكلمة قصيرة للامام علي عليه السلام في نهج البلاغة الكلمة ٢٣٧ .

(٣) الآية ٢٦٥ من سورة البقرة شاهد اخر على ما ذهبنا إليه في المثل السادس من أنَّ المشبه ليس المال المنافق بل نفس الشخص المنافق ، فإنَّ الآية هنا تصرح في تشبيه شخصية المنافق بالجنة (البستان).

(٤) الجنة من مادة (جن) وتعني التستر ، وقد استخدمت في البستان باعتبار أنَّ اشجاره تستر الأرض وتغطيها. وعلى هذا ، فليس كل بستان جنة. واطلاقاً مفردة (الجن) على الموجود المعروف باعتبار أنه غير مرئي بل مستتر ومختفي. واطلاق الجنون على من سلب عقله باعتبار ان عقله يتحجم ويتعطل ويتستر.

باء . جو المناطق المرتفعة كثيراً ما يكون نقياً وذلك يعد من عوامل نمو الاشجار وإثمارها.

جيم . الأرضي المرتفعة محفوظة من السيول والفيضانات ، بينما البساتين التي تقع في السهول والوديان والشواطئ كثيراً ما تكون عرضة للفيضانات.

DAL . أنَّ جمال وعظمة بستان يقع في مرتفع أكثر بكثير من جمال وعظمة بستان في سهل.

وعلى هذا ، فإنَّ منفقين كهؤلاء يتلقون انوار المداية أكثر من غيرهم هذا أولاً.

وثانياً : ينالون من نسيم بذل الله وعطاءه النقى بشكل افضل.

وثالثاً : قلما يكونون عرضة للبلايا وميته السوء.

ورابعاً : يبدون محظيين عند الاخرين أكثر ؛ لما يحضرون به من معنويات عالية.

المشكلة الوحيدة لهذا بساتين هي أكماً محرومة من امكانية جريان قنوات وسواعي فيها ، ولا حل ذلك ينزل الله وابلاً من المطر كثرته تروي تربة البستان بالمقدار الكافي.

٢ . أشارت الآية الشريفة إلى نوعية المطر (وابل) وهي قد تكون ناظرة بذلك إلى درجات الإنفاق ؛ باعتبار أنَّ الوابل أو المطر الكثير يروي البستان بالكامل ونتيجة ذلك هو الشمار والفوائده الكثيرة أمّا المطر القليل فلا يروي الاشجار ولا ينضج الشمار جيداً.

هناك فرق في الإنفاق في سبيل الله بين أن يكون المنفق بحاجة إلى المال المنفق وبين أن لا يكون هناك حاجة له. رغم أنَّ الإنفاق في كلا الحالتين رضاء لوجه الله.

كما أنَّ هناك فرقاً بين أن يصل المال المنفق إلى من يحتاجه حقاً وبين أن يصل بيد من لا يحتاجه حقاً.

ذيل الآية القائل : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ شاهد قيّم على ما قلناه في المقطع السابق حيث إنَّ مضمون هذا الذيل هو أنَّ الله بصير وعليم بكل من ينفق رغم حاجته للمال أو لا أو أنه اتفقه للمستحق ألم لا.

٣ . موضوع الإنفاق في الآيات الشريفة ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٥ من سورة البقرة هو إنفاق المال والثروة ، فالآيات تحدثت عن الإنفاق في الشروات من المال والثياب والماكولات والأدوية والكتب والقرطاسية ووسائل العمل وما شابه ذلك ، إلا أنَّ الآية الثالثة من سورة البقرة وسعت نطاق الإنفاق ليشمل كل ما انعم من نعم. وقد عدت الآية الإنفاق من صفات

المؤمنين ﴿وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١)

وبحسب هذه الآية فإنَّ موضوع الإنفاق عام ويشمل جميع نعم الله وارزاقه ، مثل الموارد التالية :

ألف . العلم ، على العلماء أن يبذلوا من علمهم ، وذلك من خلال تعليم الآخرين ، وإلا حُوكمو كالمحتكرين في محكمة العدل الإلهي .

وقد جاء في رواية للإمام الصادق عليه السلام «رَحْمَةُ الْعِلْمِ تَسْرُّهُ». ^(٢)

باء . نفوذ الكلام وهو من ارزق الله ، ومن المستحسن أنْ ينفق منه . فإذا شاهدت اختلافاً بين زوج وزوجته أو بين الجيران أو بين شريكين أو بين الأخوة والأخوات أو بين أهالي قرية و .. فمن المستحسن استخدام النفوذ للمصالحة .

جيم . الاعتبار والجاه في المجتمع ، وهذه نعمة الهيئة أخرى ينبغي أنْ ينفق منها ، فإذا ما كان مظلوم متورطاً في مخالف ظالم وكان بالامكان الشفاعة لهذا المظلوم باستخدام الوجهة والاعتبار الاجتماعي وانقاده من مخالف الظالم فلا ينبغي التكاسل ، بل ينبغي العمل باشتياق .

د . الأولاد ، وهي من أكبر نعم الله وينبغي انفاقها في سبيل الله متى ما اقتضت الحاجة ، كما حصل ذلك للشعب الإيراني أثناء الثورة الإسلامية وال الحرب المفروضة فقد ضحّوا بأولادهم دون أنْ يخلوا بشيء من ذلك .

ه . الفكر ، وهو من أثمن نعم الله على الإنسانية وينبغي انفاقه وبذله عند المشورة لاعانة الآخرين إلى مستوى يعد الإنسان خلاله مستشاراً صالحاً وناصحاً .

(١) وقد جاء مثل هذا التعبير في سورة الرعد الآية ٢٢ ، وسورة النساء الآية ٣٩ وسورة فاطر الآية ٢٩ وآيات متعددة أخرى .

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ١٥٨٧ الحديث ٧٦٠٣ . وفي الباب روایات أخرى عينت زكاة خاصة لكل شيء وقد جاء في رواية : (على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله تعالى بل على كل شعرة بل على كل لحظة) وقد عدت بعض الروایات مانع الزكاة كافراً أو سارقاً وفي روایات أخرى اردفت أنواعاً موحشة من العذاب مانع الزكاة ، للمزيد راجع ميزان الحكمة ، الباب ١٥٨٠ - ١٥٨٢ .

طرق الإنفاق وإعانة الآخرين

للإعانة والإنفاق طرق مختلفة ، والطريق المتعارف عند الناس هو الإنفاق المالي النقدي وغير النقدي للمحتاجين ، وهو أمر مستحسن إلا أن هناك طرقاً أفضل وأكثر تأثيراً تبني بهذا العمل الخير ، وهو تشكيل منظمات ومؤسسات خاصة للإعانة والإنفاق المنظم.

لقد تشكلت هكذا مؤسسات على مستوى واسع في بعض المحافظات الإيرانية وهي تسعى لجمع التبرعات من جهة ، ومن جهة أخرى تستقصي المحتاجين لاعاتتهم بمختلف الطرق ، مثل إعداد وسائل البيت الرخيصة من بعض المؤسسات والشركات والدوائر. وقد تكفلت بعض هذه المؤسسات قضية دراسة الأطفال وتحمل نفقاتهم والاشراف عليهم من هذا الجانب ، وارتقي بعض من هؤلاء الأطفال الدرجات العليا ودخلوا الجامعات وتخرجو منها.

وتقوم بعض منها بنشاطات ثقافية إضافة إلى الإعانات المالية ، وذلك من قبيل تشكيل دورات تعليمية تثقيفية لمختلف الأعمار.

على المسلمين في العصر الراهن أن يلتفتوا إلى هذا النوع من الإنفاق المنظم أكثر. ورغم أن بعض الدوائر الحكومية تكفلت بهذه القضية إلا أن كثرة المحتاجين والقراء في عصتنا هذا يستدعي وجود مؤسسات خيرية منسجمة على نطاق واسع.

جمعيات إعانا السجناء والمرضى من ضمن الطرق الأخرى المنسجمة والجيدة التي أشرنا إليها في السطور السابقة.

إن الالتفات إلى الابتكار والإبداع^(١) في مجال الإعانات لهذه المؤسسات والجمعيات يؤدي إلى انتاجية أكثر ، بحيث تتم الإعانات والمساعدات بالافادة من أقل مقدار ممكن من الامكانيات.

لقد قلنا سابقاً: إن الصدقة كما قال رسول الله ﷺ تمنع من ميئه السوء ، وهذا حديث آخر للرسول ﷺ يقول فيه : «إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَدْفَعُ بِالصَّدَقَةِ الدَّاءَ وَالْدَّبِيلَةَ وَالْحَرَقَ وَالْغَرَقَ»

(١) ومن هذه الابداعات هو تنظيم جمادات لارسالهم إلى المناطق الحرومة وبخاصة المناطق الحدودية للبت في النشاطات الثقافية ، مثل بناء المدارس والمساجد والمستوصفات وغير ذلك ، وهذه الجامعات يمكنها ان تصد أو تحد من المحجومات الثقافية لاعداء الإسلام من امثال (الوهابية).

والطبع ، كلام الرسول ﷺ ليس هراء بل يحكي عن الواقع . وهذه آثار حقيقة للصدقة فإذا أحيت هذه السنة الحسنة لزالت الكثير من مشاكلنا الاجتماعية والشخصية كذلك .

٤ . في آية المثل السابع يلاحظ أربع خصائص :

ال الأولى : الأرض المرتفعة . الثانية : اشجار البستان . الثالثة : الوابل أو المطر الشديد .
والرابعة : الشمار والفواكه الكثيرة . وكلٌ من هذه تشبيهات من ناحية ، ومن ناحية أخرى تعبّر عن أعضاء الإنسان وصفاته أو النعم الالهية التي يتمتع بها هذا الموجود .
التعابير التالية عن التشبيه الأربعة الماضية جاءت في أحد التفاسير :

لقد شبه روح الإنسان وقلبه بالارض المرتفعة التي يقع فيها البستان ، أمّا اعمال الإنسان الصالحة واللائقة فقد شبهت بالانفاق والبذل في سبيل الله ، وقد شبهت رحمة الله ونعمه وهدايته التكوينية والتشريعية (٢) بالمطر الكثير (الوابل) الذي يروي الاشجار والاعمال الصالحة والملائكة الفاضلة لتنمو . واما الفضائل النفسية والصفات الروحية والاخلاقية البارزة من قبيل الايثار والجود والسخاء والبذل والتواضع والخضوع وحب الغير فقد شبهت بشمار البستان وفواكهه المباركة .

المدف من هذه التشبيه وهذا المثل . كغيره من الامثال . هو التكامل الوجودي للانسان وبلغ درجة القرب إلى الله ، ويُعبر آخر : صيرورة الإنسان عبداً خالصاً لله ، وذلك هو المدف من خلق الإنسان وجميع الموجودات ذات الشعور والاحاسيس ، (٣) وذلك عبارة أخرى عن ايصال الإنسان إلى مقام يؤهله للدخول في خطاب الآية اللطيفة والمهدئة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيًّا مَرْضِيًّا، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٤)

(١) وسائل الشيعة ج ٦ ، ابواب الصدقة ، الباب ٩ ، الحديث ١ .

(٢) المراد من المدفية التشريعية هو آيات القرآن الجيد والوحى واقوال وسيرة الرسول ﷺ . والمراد من المدفية التكوينية هو الاعدادات والإمدادات الغيبية التي تطرأ على قلب الإنسان المؤمن وروحه لتهديه إلى الصواب .

(٣) يقول الله في الآية ٥٦ من سورة الذاريات : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّةَ إِلَّا لِيَعْلَمُوا﴾ .

(٤) الفجر الآيات ٢٧ . ٣٠ .

ما أحسن السعادة التي ينالها الإنسان

من النتائج المستوحاة من هذا المثل هي أن هناك جنة (علاوة على الجنة الموعودة في الآخرة) في الدنيا ، وهي جنة قلب الإنسان المؤمن المملوء بالأشجار والشمار ، أي الصفات والفضائل الأخلاقية لروح الإنسان وصفاتها من التلوك ، والإنسان لا يمكنه ادراك هذه الجنة ولا يمكنه الشعور بها إلّا أن تكون أعماله جميعها خالصة لوجه الله وابتغاء مرضاته ، ولا يكون فيها ذرة من الرياء . والجملة الأخيرة للاية تشير إلى هذا الموضوع : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإنَّ الله يرى الاعمال ويرى نواياها ويرى كل ما يطرأ على النوايا من اغراض غير إلهية .

موضوع الشرك في العمل الذي يصطلح عليه (الرياء) تعرضت له الآيات والروايات على مستوى واسع .

يقول رسول الله ﷺ في حديث نقل عنه : «إِنَّ الشَّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمَلِ عَلَى صَفَّةِ سُوْدَاءِ فِي لَيْلَةِ الظَّلَمَاءِ» .^(١)

وبحسب هذه الرواية ؛ فإنَّ الشرك أخفى من حركة نملة سوداء على صخرة سوداء في ليلة ظلماء .

الإنسان بعد سنوات من العبادة قد يدرك عدم خلوصه في كثير من العبادات ، إنَّ هكذا انسان سيكون سعيداً إذا ما تاب وبت في الجبران .

وتباً للإنسان الذي يدرك عدم خلوصه لكن ادراكه يكون متأخراً ، يقول الله تعالى ﴿... كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ...﴾^(٢)

ننهي بحثنا عن الشرك بذكرى عن مرجع عالم الإسلام آية الله العظمى السيد البروجردي رضوان الله تعالى عليه .

كان السيد قد ذهب لقرية بشنة (في ضواحي مدينة قم) لأجل الاستراحة ، وفي

احد

(١) ميزان الحكمة ، الباب ١٩٩٤ ، الحديث ٩٣١٦ .

(٢) المؤمنون الآية ١٠٠ .

الا يام هناك كان قد فرش سجادة قرب قتال هو مع مرفقيه ، وقد شاهد المراقبون انذاك أنَّ السيد قد غاص في التفكير كثيراً فسألوه عن علة ذلك فأجاب : (كنت افكر في أنَّه هل كان لي عمل خالص لوجه الله وابتغاء مرضاته من دون أنْ يشوبه شائبة ام لم يكن؟).

فقالوا له : مولانا! الحمد لله ، إنَّ لك خدمات كثيرة قدمتها للحوزة العلمية وال المسلمين

، (١) فلا مجال للقلق. فهز السيد رأسه وقرأ الحديث «إخلاص العمل فإنَّ الناقد بصير». (٢)
الناقد هو الذي يميز السكك الخالصة عن المزورة ، إنَّ نسبة التزوير إذا كانت كبيرة فقد يستطيع الناس عموماً تشخيصها أمّا إذا كانت نسبة الغش والتزوير قليلة جداً فذلك أمر لا يشخصه الا الناقد. وحسب هذه الرواية ، فإنَّ الله هو الناقد لنوايا الإنسان وبمكنته تشخيص الخالص عن غيره ، فهو بصير وعليم ويشخص حتى أقل مقدار من الغش وعدم الخلوص.

وعلى هذا ، ما علينا إلَّا أنْ نسعى بأنْ لا يكون أي جزء ولو بسيط من عدم الخلوص في اعمالنا واقوالنا وافكارنا ، وذلك لاجل التقرب إلى الله تعالى.

آداب الانفاق

ندرس هنا بعض آداب الانفاق واصوله :

١ . الإنفاق مما تحبون

إذا انفق شخص ما كان لديه من أغذية زائدة وألبسة رثة فلا اشكال في ذلك وهذا أقل مرتبة للانفاق وادنى حد له ، إلَّا أنَّ على الإنسان أن ينفق ما يجب لاجل بلوغ أعلى مراتب

(١) حقاً ان خدمات السيد جباره ، وهي من قبيل : احياء الحوزة العلمية الشيعية وبناء ما يقرب من الف مسجد وترميم ابنية دينية واعادة طبع كتب قديمة قيمة كانت قد نسيت ومبادرته الذكية في ارسال مبعوث عنه إلى جامعة الازهر في مصر واعلام هذا المركز اثر ذلك عن أنَّ التشيع مذهب كبقية المذاهب الاسلامية وأنَّ المسلمين ينكهم التمسك به والعمل حسب تعاليمه وخدمات مهمة وكثيرة أخرى.

(٢) بحار الانوار ١٣ : ٤٣٢ .

الإنفاق : ﴿لَنْ تَأْلُوا الْبَرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١)

وقد قيل في الزهراء عليهما السلام : انها عند ما ذهبت إلى بيت زوجها للعرس صادفت في الطريق محتاجاً سألهما الاعانة ، فبذلت له ثوب عرسها رغم أنها كانت تحمل ملابس رثة وزائدة. ^(٢) لا يمكن العثور في كل التاريخ على إنفاق خالص مثل ما صدر من الزهراء عليهما السلام فهي شابة في مقتبل العمر تنفق ملابس عرسها رغم ان بإمكانها إنفاق ما كان عندها من ملابس زائدة أخرى. وذلك مصدق حقاً للاية الشريفة السابقة.

يمكننا العثور على إنفاق من هذا القبيل صدر من المعصومين عليهما السلام ، فإن الإمام علي عليهما السلام إنفاق خاتمه لفقيه وهو راكع في صلاته ، وقد نزلت في هذا الشأن الآية ٥٥ من سورة المائدة. ^(٣)

وفي حال الإمام علي عليهما السلام ينقل انه كان يشتري قميصين ، ويخير قبر غلامه في انتخاب احدهما ويترك الآخر له. ^(٤)

وقد قال الإمام الصادق عليهما السلام في رواية له : «ما من شيء إلا و وكل به ملك إلا الصدقة فانها تقع في يد الله تعالى». ^(٥)

وهل من المناسب واللائق للإنسان ان يبذل اموالاً لا يحبها تصل مباشرة بيد الله؟!

٢ . الإنفاق في غاية الأدب

إن الأدب ضروري عند البذل والإنفاق ، وينبغي السعي آنذاك لاجل حفظ ماء وجه وشخصية المحتاج ، يقول القرآن المجيد : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَبَعَّهَا أَذَى﴾ ...^(٦)

(١) آل عمران : ٩٢.

(٢) النقل بالمضمون وليس بالنص وهو عن احراق الحق ١٠ : ٤٠١ ، نقاً عن كتاب (مظهر ولايت) ص ٢٦٩.

(٣) تفصيل القصة في ذيل الآية في المجلد الرابع من الأمثل الصحشفة ٤٥ . ٤٦ .

(٤) بحار الانوار ٤ : ٣٢٤ طبع بيروت.

(٥) وسائل الشيعة ٦ : ٣٠٣ .

(٦) البقرة : ٢٦٣ .

إذا راجعك محتاج وسائلك شيئاً واجبته بهذا : (أعتذر ، لا يمكنني اعانتك) أي تردد باحترام فذلك افضل من أن تنفق له مع أذية ومنة بأن تقول له : (لا اراك بعد هذا) أو (خذ هذا لتخيني من شرك).

إنَّ هذه الأخلاقية الرفيعة في الإنفاق تلاحظ عند الموصومين بشكل واضح ، فقد قيل في الإمام السجاد عليه السلام : إذا أعطى السائل قبل يده ، فقيل له لم تفعل ذلك؟ قال : «لأنما تقع في يد الله قبل يد العبد». ^(١)

كم هو الفرق بين الإنفاق المخلص والمتزامن مع الأدب والاحترام الوافر ، والإنفاق الذي يتم عن رباء وتحقيق.

٣ . التعجيل في دفع الصدقة

لا ينبغي التأني والتواقي الوافر والوسوسة عند دفع الصدقة تقرباً لله تعالى ؛ لأنَّ الشيطان في ذلك الزمن يسعى كثيراً لمنع الإنسان من دفع الصدقة ، يقول الله تعالى في الآية ٢٦٨ من سورة البقرة : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْعَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَقَضَلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾

إنَّ الشيطان يوسموس للإنسان بشتى الطرق ، فهو يقول مثلاً : (فَكُّرْ بِمُسْتَقْبَلِ أَطْفَالَكَ ، وَبِأَيَّامِ شَيْبِكَ وَحَفَظْ عَلَى أَمْوَالِكَ لِذَلِكَ الْحَيْنِ). هذا لأجل صرف الإنسان عن الإنفاق ، بينما الله يعد بالغفرة وبارجاع المال المنفق.

وقد تعارف بين الناس أنَّ الشيطان يتعلق بيد الإنسان عند ما يريد الأخير بذل المال ؛ وذلك لمنعه عن البذل. وهذا اشارة أخرى إلى الآية الشريفة.

ومن المثير أنَّ القرآن لم يستخدم كلمة (الفقر) ^(٢) الا في هذه الآية ، وقد نسبه إلى الشيطان.

من كان يرزقك عند ما كنت جنيناً في ظلمات ثلاث؟ الله هو الرزق ، وهو بنفسه سيكون

(١) وسائل الشيعة ٦ : ٣٠٣.

(٢) أمّا مشتقات هذه الكلمة فقد استخدمت أربعة عشر مرة في القرآن.

رازقاً لك ولأولادك عند الشيخوخة والعجز.

هناك قول جليل لأحد العظام يقول فيه : (لا أعمل شيئاً لمستقبل أولادي ؛ لأنهم إن كانوا من أولياء الله فالله لا يكلّ عليه لنفسه ، وإن كانوا أعداء الله ، فما لي أعينهم؟!).

٤ . صدقات السر والعلانية

المستفاد من الروايات هو أن الصدقة عمل الأفضل إتيانه سراً ، إلا أنه في بعض الأحيان يستدعي الأمر العلانية في التصدق ، وذلك لعنوان ثانوي طارئ. ^(١)

إن هذا الأمر قد يُبيّن بوضوح في الآية الشريفة ٢٧١ من سورة البقرة : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٥ . الأولية للمساكين المستترین

القرآن المجيد يعتبر المساكين والمتسكرين على فقرهم هم المحتاجون الحقيقيون كما هم أولى باسلام هذه الاعانات والصدقات ، الآية ٢٧٣ من سورة البقرة تحكي هذا المضمون : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَخْصِرُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَحَافًا وَمَا تُنِفِّقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾

من القراء ذو عزة نفس عالية ومثل هؤلاء هم اهل لهذه الصدقات وأولى بها ، وبخاصة أن هذا الشهر شهر مبارك والأعمال العادية فيه تعدّ عبادة ، فكيف بطاعة ذات قيمة عالية مثل التصدق؟ كما أن من فلسفة الصيام هو الاحساس بالآم المحتاجين للبت في رفع احتياجاتهم. ^(٢)

(١) من المفضل في الموارد التالي ذكرها ان يكون التصدق علانية : لتشجيع الاخرين على التصدق ، لاحياء سنة التصدق الاسلامية ، هذا إذا ما كان كل المسلمين يتصدقون سراً ، فان التصدق سراً هنا قد يؤدي إلى تهمة ترك الإنفاق ، وكذا التصدق لتعظيم الشعائر الدينية.

(٢) وسائل الشيعة ج ٦ ، ابواب الصوم ، الباب ١ ، الحديث ١ و ٣ و ٤ و ٥ .

المثل الثامن :

عقبة الامور

يقول الله تعالى في ثامن مثل من أمثال القرآن في الآية ٢٦٦ من سورة البقرة :

﴿إِيَّاُدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكَبَرُ وَلَهُ ذُرَّةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

تصوير البحث

كيف يكون أحدكم راغباً في أن يتلى بمصير الشخص الذي له بستان فيه نخيل وأشجار مثمرة وفيه أنوار بعد ما بلغ هذا الشخص سن الكبر ، وكان قد جمع حوله ذرية واطفالاً ضعفاء ، حينئذ يواجه البستان إعصاراً متزاماً مع نار ملتهبة تلتهم بستانه وما فيه ليصبح ذليلاً بعد عمر من العز .

الشرح والتفسير

للمفسرين أقوال في هذه الآية :

يعتقد بعض المفسرين أنَّ هذا المثل يحكي عاقبة الإنسان الذي يحرق محاصيل اتفاقه وبذله بنار الرياء ، لتذهب بذلك أعماله الصالحة وعباداته سُدى .

قد يقوم البعض باعمال كثيرة من قبيل الحج والصلوة والصوم والجهاد واعانة المساجد

وبناء المستشفيات واعانة الايتام ، وقد يقضي عمرًا طويلاً في هذه الأعمال إلّا أنه قد يحرقها وينذهب بها مع الريح ليمحو آثارها وذلك بأن يتراءى بها. ^(١)

ويرى البعض أنَّ آية المثل لا تختص بالرياء ، بل تشمل جميع الذنوب ، فإنَّ الآية تحذر المسلمين ليراقبوا أعمالهم وعبادتهم ، ويحفظوها مما قد يدمرها ويحرقها من الذنوب.

وحسب هذه الآية ، فإنَّ الإنسان إذا لم يراقب أعماله قد يتلقي بمصير هذا الشيخ الذي تضرر هو مع عياله وأولاده وأوقع مستقبل اطفاله بخطر. ^(٢)

وبعبارة أخرى : يا إنسان! حافظ على أعمالك وعباداتك دائمًا وبشكل مناسب وفكر بعاقبة أمرك ؛ وأنَّ حفظ العمل أصعب من اداء نفس العمل.

قال رسول الله ﷺ : «من قال لا إله إلا الله ، غرس الله بها شجرة في الجنة» ، والحديث يعني أنَّ الإنسان كلما نطق بهذه الكلمة غرست له شجرة في الجنة.

والمستفاد من هذه الرواية هو أنَّ الجنة وكذا جهنم تبني بواسطة أعمالنا ، فهي ليست مبنية من ذي قبل.

قال رسول الله ﷺ : «من قال : سبحان الله غرس الله بها شجرة في الجنة. ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة. ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة.

ومن قال : الله أكبير غرس الله له بها شجرة في الجنة».

فقال رجل من قريش : يا رسول الله إنَّ شحرنا في الجنة لكثير ، قال : «نعم ، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك أنَّ الله عزَّ يُحِبُّ يقول : **﴿إِنَّمَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾** ^(٣)

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر : «العلماء كلهم هلكى إلَّا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلَّا المخلصون ، والمخلصون على خطر». ^(٤)

(١) انظر الأمثل ٢ : ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) انظر مجمع البيان ٢ : ٣٧٩.

(٣) بخار الأنوار ٩٠ : ١٦٨.

(٤) ميزان الحكمة ، الباب ١٠٣٢ ، الحديث ٤٧٦٨.

وفي هذا الحديث تحذير آخر للانسان بان لا يذهب باعماله الخالصة الماضية بذنبه المقبلة.

﴿أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ إن الإشارة إلى فاكهة العنبر والتمر دون غيرها يفيد أنهما أهم أغذية للبشر ، أما الأهم منها فمعدم أو قليل.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ﴾ البستان قد يحتوي على بركة أو قنال يسقى منها ، والأخير قد يستدعي بذل المال مقابل الماء. وفي كلا الحالتين ، إن السقي بحما يستلزم متاعب وزحمات جمة. إلا أن البستان الذي تحدثت عنه الآية يقع في مسیر نهر ، وهذا يعني أن السقي لهذا البستان مريح جداً ولا يستدعي تحمل زحمات وافرة. اضافة إلى هذا ؟ فإن في هذا البستان فواكه من قبيل التمر والعنبر.

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرَيَّةٌ ضُعْفَاءُ﴾ أي أن صاحب هذا البستان أصبحشيخاً كبيراً. وضعف الذرية اشارة إلى عدم امكانهم اعانته على شؤون البستان ، بل ان عباء هؤلاء الأطفال واقع جميعاً على عاتق هذا الشيخ ، وهذا البستان لا يحتاج إلى عنابة كبيرة ومستمرة فيمكنهم التمتع بمحاصيله وثماره.

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاخْتَرَقَتْ﴾ أي في الوقت الذي يكون فيه الشيخ بأمس الحاجة إلى هذا البستان يأتي إعصار من نار يحرق هذا البستان ويبدلـه إلى تل من الرماد ثم يذهب هذا الرماد مع الرياح منتاثراً بحيث لا يبقى أي اثر منه.

الإعصار يحصل اثر اصطدام ريحينقادمين من اتجاهين مختلفين ، وهو يخوضى بقدرة عجيبة إذا حصل في مكان فانه يذهب معه كل ما يكون هناك من اشياء ، فقد يذهب بماء حوض مع اسمائه ويسقطها في مكان اخر بحيث يتصور البعض ان الاسماك جاءت من السماء ، وقد يعرف انساناً من مكانه ويلقيه في مكان آخر.

سؤال : كيف يحصل النار ويتزامن مع هذا الاعصار؟

هناك إجابات عديدة لهذا السؤال :

الف . يعتقد البعض أن الاعصار خالٍ من النار ، والنار تقدم من الصواعق فالصاعقة تحرق البستان ثم يأتي الاعصار ليذهب برماد البستان وينقله إلى مكان آخر.

باء . إنَّ الاعصار قد يتلاقي مع نار مستعرة فيأخذ منها ويلقيه على البستان فيحترق البستان ويتبدل رماداً .

جيم . هذه الأعصار ليست اعصاراً متعارفة ، بل هي اعصار يطلق عليها (سموم) تحب غالباً في السعودية والذين يقعون في طريقها يتلقون وينبطحون إلى أن تتحاولهم ، وهذه الأعصار عند ما تلاقي البستان تحرقه وتدمريه .

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَسْفَكُرُونَ﴾ يعتبر الله المهد من هذا المثل هو التفكير والتعقل . ووفقاً لهذه الآية الشريفة ، فإنَّ على الإنسان أن يودع نفسه بيد الله ويعتقد أنَّ كل ما يقوم به من أعمال وطاعات وعبادات هي قليلة في حق الله وأنَّ ما يصله من الله تعالى من نعيم هو بلطنه وإحسانه لا لعمل وعبادة استحق بعما الإنسان تلك النعم . من المؤسف أنَّ هذا الإنسان الضعيف قد لا يفكر جيداً ويغتر بما جاء به من ركعات صلاة وأيام من الصوم فيعد نفسه . لأجل ذلك . من أصحاب الجنة . بل يعد الجنة ، واجبة له ، ونفس هذا الإنسان قد يرى نفسه ميتاً خلو الإيمان .
اللهم اجعلنا من المرحومين ولا تجعلنا من المحرومين .

إنَّ السوء كان عاقبة هذا الشخص

في زمن الطاغوت البهلوi كان طالب حوزة متدينٌ جداً ومتقيٌ ، وكان يواضب على اعماله كثيراً ، وقد كان متذمراً من أخيه ولا يعاشره لأجل أنه كان لا يدفع الخمس والزكاة . في يوم من الأيام مرض هذا الطالب مرضًا شديداً فأخذته أخوه إلى بيته ليعتني به وأثناء تواجده عند أخيه ذهب أحد الأساتذة لعيادته وعند الدخول قال للأستاذ : لا تجلس على السجادة لأنها مغضوبية .. لكن الزمان غير هذا الطالب ولم يقه على ما كان ، بل حوله إلى درجة أنه ما كان يجلس على مأدبة طعام خالية من المسكر .

يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة القاسعة ^(١) التي تعرض في حزء منها إلى آثار التكبر

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ .

والعجب : «فاعتبروا بما كان من فعل الله ببابليس إذ احبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبد الله ستة الاف سنة ، لا يدرى أمن سني الدنيا ام من سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة» ، فإنّ ساعة من العناد والتكبر احبطت اعماله وورطته بمصير لا يحمد. وعلى هذا ، فلا ينبغي ان يغتر الإنسان ابداً بطاعاته واعماله ، بل عليه ان يتطلع دائمًا إلى عفو الله ورحمته.

اللهم اجعل عاقبة أمرنا خيراً.

خطابات آية المثل هي الاحباط والتکفير

من البحوث المطروحة في علم الكلام هي مسألة الاحباط والتکفير وقد أشارت اليهما الآية.

إنَّ الاحباط عبارة عن أعمال وذنوب ، الاتيان بها يؤدي إلى ذهاب حسناوات الإنسان وعباداته. أما التکفير فهو عبارة عن اعمال ، اداؤها يؤول إلى ذهاب الذنوب ومحوها. وعلى سبيل المثال ، فإنَّ تكبر الشيطان وحسده وجله سبب في احباط اعماله التي أداها خلال ست الاف سنة ، أما توبة الحر بن يزيد الرياحي عند الامام الحسين عليهما السلام فقد كانت تکفيرًا لذنبه التي ارتكبها.

ان التوبة تطفئ نار الذنوب ، وعلى المسلمين ان يتوبوا وينبئوا إلى الله دائمًا بالدعاء والمناجاة والتوكيل بالأئمة المعصومين عليهم السلام .

اضافة إلى الآيات ، فإنَّ ادعية العشرة الثالثة من شهر رمضان أشارت إلى مسألة الاحباط والتکفير ، فنقرأ في دعاء ليلة القدر مثلاً : «وان كنت من الاشقياء فاخني من الاشقياء وأكتبني من السعداء»^(١) فان القسم الاول من الدعاء يشير إلى مسألة الاحباط والقسم الثاني إلى مسألة التکفير.

(١) مصباح الكفumi ، أعمال ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك اضافة الى هذا فان جملة (ان يجعل اسمى في هذه الليلة في السعادة) نجدها في جميع ادعية الليالي العشر الاخيرة من شهر رمضان.

الاستدلال على وجود الاحباط والتکفير

رغم أنَّ بعض العلماء المسلمين لا يعتقد بالاحباط والتکفير ولا يرى تأثيراً لاحدهما على الآخر أي أنَّ الأعمال الحسنة لا تؤثر على السيئة والسيئة لا تؤثر على الحسنة ، لكن القرآن يصح في بعض الآيات بالاحباط والتکفير.

ونختار من ذلك بعض النماذج :

الف . يقول الله في الآية ١١٤ من سورة هود : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ دِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

باء . يتحدث القرآن المجيد عن الاحباط في الآية ٥ من سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ يَكُفُرْ بِإِيمَانِهِ فَقَدْ حِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١)

وعلى هذا ، فأصل الإحباط والتکفير قد بيَّنَ في الآيات ، إلا أنها لم توضح أي نوع من الذنوب توجب الاحباط وأي نوع من الاعمال توجب التکفير ، وعلينا استفاداة ذلك من الروايات .

ما ينبغي علينا إلا مُراقبة أعمالنا خوف أنْ يصدر مِنَّا عمل يحيط اعمالاً قيمة كثيرة . وإذا ما أذنبنا فعلينا طلب الاعانة من الله بالبكاء والنواح لكي يتواتر بذلك بحر من الماء يطفئ نار الذنوب . وإذا كانت شخصية مثل الإمام علي (عليه السلام) يسجد ويقول خصوصاً : «آه من قلَّة الرزاد وطول الطريق وبعد السفر ...»^(٢) فكيف بنا نحن أنا وأنت؟!

(١) وهناك آيات أخرى من القرآن الكريم دلت على الاحباط والتکفير ، للمزيد راجع تفسير الأمثل ٢ : ٦٧ . ٩٦ ، ومحال أخرى من الكتاب نفسه متباشرة في باقي مجلداته ، منها في سورة هود ومنها في سورة الحجرات وغيرها من سور .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ٧٧ .

المثل التاسع :

أكل الربا

يقول الله تعالى في الآية ٢٧٥ من سورة البقرة :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الظِّيَّالُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتَلُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

تصوير البحث

إنَّ أَكْلِي الرِّبَا عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ مَا يَدْخُلُونَ الْخَشْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْخُلُونَ كَالسَّكَارِيَّ أوِ الْجَاهَنَّمَ أوِ الْمَصْرُوْعِيْنَ ، لَا يَتَمَالَكُونَ عَلَى افْسَهَمِهِمْ وَلَا يَسْتَطِعُونَ حَفْظَ تَعَادُلِهِمْ فَيَقْعُونَ وَيَقْوِمُونَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ . وَهَذَا الْمَنْظَرُ الْمَرْعُوبُ يَلْفَتُ اِنْظَارَ أَهْلِ الْخَشْرِ وَيَجْعَلُهُمْ يَدْرِكُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ أَكْلُو الرِّبَا .

علاقة الآية بما قبلها

الآيات السابقة تحدثت عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ، وهذه الآية ترتبط بشكل آخر بالصدقة ؛ وذلك لأن الصدقة على قسمين :

- ١ . الصدقة دون عوض وهو الإنفاق والبذل للمحتاجين.
- ٢ . الصدقة مع العوض وهو الدين أو القرض الحسن.

إنّ الدين إذا لم يكن مع عوض وربح كان قرضاً حسناً والآ عُدّ رباً وحراماً. وقد جاء في الروايات أنَّ الصدقة والبذل من دون عوض اجرها عشرة اضعاف ، أمّا إلأقراض أو الصدقة مع العوض فاجرها ثمانية عشر ضعف ،^(١) وسبب ذلك واضح من حيث أنَّ المقترضين محتاجون حقاً ، وهم ذوى اعتبار وماء وجه.

وعلى هذا ، فإنَّ شieئين يتلوخى من القرض هما : أولاً . رفع حاجة المحتاجين. ثانياً .

الحفاظ على حياثة واعتبار الحاج.

وعلى أساس الآية الشريفة : ﴿مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢) فإنَّ كلاً منها له عشر حسنتات والمجموع هو عشرون ، ولكن باعتبار انَّ القرض يسترجع بعد فترة من الزمن فتنقص منه حسنتان ليكون المجموع ثمانية عشر.

الشرح والتفسير

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ...﴾ أي أنَّ أكل الربا سيتلون يوم الحشر بعدم التعادل والتوازن في المشي ويبدون كأنهم مصروعون أو محانين.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ إنَّ سبب ابتلاء هؤلاء بهذا المصير هو أَنَّهُم إضافة إلى أكلهم الربا كانوا يسعون في تبرير عملهم بالقول : إنَّ البيع مثل الربا ، كما الاول حلال كذلك الثاني.

﴿أَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا﴾ حلية البيع ومعاملة لأجل وجود مصلحة في ذلك عكس الربا ، ففيه مفسدة اضافة إلى أنه يفقد المصلحة. ففي المعاملة تارة يكون ربح واخرى يكون

(١) عن رسول الله ﷺ انه قال : ((رأيت مكتوباً على باب الجنة (الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر) فقلت : يا جبريل وَمَنْ ذَلِكَ وَالذِي يَتَصَدَّقُ لَا يَرِيدُ الرَّجُوعَ وَالذِي يَقْرَضُ يَعْطِي لَا يَرْجِعُهُ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، هُوَ كَذَلِكَ وَلَكِنْ مَا يَأْكُلُ مَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ لَهُ بِهَا حَاجَةٌ وَالذِي يَسْتَقْرِضُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ حَاجَةٍ فَالصَّدَقَةَ قَدْ تَصُلُّ إِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحْقِقِ وَالْقَرْضُ لَا يَصْلُ إِلَّا إِلَى الْمُسْتَحْقِقِ ، وَلِذَلِكَ صَارَ الْقَرْضُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ)).

مستدرك الوسائل ١٣ : ٣٩٥ ، أبواب الدين والقرض الباب ٦ الحديث ٣.

(٢) الأنعام الآية ١٦٠ .

خسارة إلا أنَّ الأمر في الربا مختلف ، فـأكل الربا يحصل على الربح دائمًا ولا يتضرر أبدًا والخسارة يتحملها المقترض فقط ، ولذلك عدت امواله حاصلة بلا تعب .

اضافة إلى هذا ، فإنَّ أكل الربا سبب في ايجاد الفجوة بين طبقات المجتمع ، وذلك لأنَّ ظاهرة الربا إذا تفشت في المجتمع اجتمعت ثروات الناس وأموالهم عند آكلي الربا بعد فترة وجيزة من الزمن ، أمَّا الآخرون فتتردى أوضاعهم إلى أسوأ ما يمكن .

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةً مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ في بداية الاعلان

عن هذا الحكم يصرح الله بشمول العفو والمغفرة لـأولئك الذين كانوا يمارسون الربا قبل هذه الآية فلا خوف عليهم .

وعليه ، فالذين كانت لهم اموال عند الناس وتعاقدوا معهم على ان يكون لهم فيها ربا ، فإنَّ هذه المعاملة تبطل واصحاب الاموال من الان فما بعد باتوا لا يملكون الا رؤوس اموالهم فحسب ولا حق لهم في استلام أكثر من ذلك .

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يهدد الله في هذه الآية أولئك الذين يعاودوا ممارسة هذا العمل بعد هذه الآية ويقول بأنَّهم إذا فعلوا هذا مرة أخرى . وهو عمل عد في بعض الروايات كممارسة الفاحشة مع المحارم ^(١) . فإنَّ جهنم تنتظركم وسيكونون مخلدين فيها .

سؤال : إنَّ الخلود في جهنم خاص بالكافار فما يعني الخلود بالنسبة لــأكلي الربا من المسلمين؟

الجواب : من التفاسير التي ذكرت في هذا المجال هو أنَّ آكلي الربا يموتون غير مؤمنين بسبب عملهم القبيح هذا ، ومن الواضح أنَّ غير المؤمنين يخلدون في جهنم . ^(٢)

(١) شبه الربا بالزنا في كثير من الروايات ، وللمزيد يمكنك مراجعة وسائل الشيعة ج ١٢ أبواب الربا ، الباب الاول ، الروايات ١ و ٥ و ٦ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ .

(٢) والاحتمال الآخر هو أنه يراد من الخلود هنا الزمن الطويل لا معناه المتعارف .

خطابات الآية

عقاب آكلي الربا في الدنيا والآخرة

هناك بحث بين المفسرين في هل أن التشبيه لآكلي الربا في الآية تشبيه لمصيرهم في الدنيا؟

ام أن ذلك نوع من العقاب والعذاب الآخر؟

يستفاد من الروايات أن هذا النوع من المصير يتعلّق بكلّ العالمين. وقد نقلت رواية في تفسير (نور الثقلين) عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها: «آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبّطه الشيطان»، (١) والعبارة الأخيرة تعني الجنون.

وفي رواية أخرى حكت موضوع المعراج (٢) أنّ الرسول عليه السلام قال: «ما أُسرى بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه ، قال : قلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا». (٣)

نسبة الجنون إلى الشيطان

لماذا نسب الجنون إلى الشيطان في آية المثل؟

المستفاد من ظاهر الآية هو أنّ الشيطان سبب الجنون عند الإنسان.

لكن الأبحاث العلمية أثبتت وجود أسباب أخرى للجنون لا علاقة لها بالشيطان ، ومن هنا كانت للمفسرين آراء مختلفة في تفسير الآية ، نشير إلى بعضها هنا.

الف . القرآن يخاطب الناس بما يتماشى مع عقائدهم ؛ فإنّ الناس عصر النزول (العرب آنذاك) كانوا يعتقدون أنّ الجنون من الشيطان ، أو أنّ الشيطان ينفذ في جسم الإنسان فيجّن ، ولهذا كان هذا التعبير القرآني كناية عن الجنون.

باء . المعنى الحقيقي للجملة هو المراد لا المعنى الكتائي ، ونسبة الجنون للشيطان من

حيث

(١) نور الثقلين ١ : ٢٩١ .

(٢) إنّ مسألة المعراج تعد من عقائد المسلمين ، وقد عرج الرسول عليه السلام إلى السماء عدة مرات ، وللمزيد راجع تفسير الامثل ٨ : ٣٤٣ - ٣٥٤ ، وما يذكر هنا أنّ جهنم والجنة التي شاهدتها الرسول كانتا بزرختين .

(٣) وسائل الشيعة ج ١٢ ، أبواب الربا ، الباب الأول ، الحديث ١٦ .

إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ عَقَابَ هُؤُلَاءِ الْمُذَنبِينَ تَسْلِطَ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمْ وَهَذَا التَّسْلِطُ هُوَ الَّذِي يَسْبِبُ
الْقَلْقَ وَالجُنُونَ.

التناسب بين الجنابة والعقاب

يعتقد بعض المفسرين أنَّ العقاب الذي يعينه القرآن لذنب ما يتناسب مع ذلك الذنب ، فبين العقاب الذي عُيِّنَ لِأَكْلِي الرِّبَا وَبَيْنَ الْجَنَّوْنَ تَنَاسُبٌ ، وَبَيْنَ هَذَا الذَّنْبَ وَذَلِكَ
الْعَقَابُ عَلَاقَةٌ وَارْتِبَاطٌ ، فَبِمَا أَنَّ أَكْلَ الرِّبَا يَقُولُ مِنْ خَلَالِ عَمَلِهِ الْقَبِيعِ بِتَدْمِيرِ اقْتَصَادِ
الْمُجَمَّعِ وَيَخْرُجُهُ عَنْ حَالَةِ التَّعْدَالِ وَيَحْوِلُ دُونَ حَرْكَةِ الْعَجْلَةِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ كَذَلِكَ هُوَ ذَاتُهُ فَإِنَّهُ
سَيْبَلِي بِمَصِيرِهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فِي الْآخِرَةِ.

في رواية لِلَّامَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ فِيهَا : «الظُّلْمُ فِي الدُّنْيَا هُوَ الظُّلْمُاتُ فِي الْآخِرَةِ».

(١)

فَإِنَّ الْعَقَابَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ يَتَنَاسُبُ مَعَ الذَّنْبِ ، ذَلِكَ أَنَّ الظَّالِمَ يُظْلِمُ الدُّنْيَا وَالْعَالَمَ
فِي عِينِي الْمُظْلومِ وَعَلَى هَذَا الْاسَاسِ تُظْلِمُ الْآخِرَةُ فِي عِينِي هَذَا الظَّالِمِ.

فلسفة تحريم الربا

كما أَنَّ الرِّبَا وَأَكْلَهُ يُوجِبُ مَفَاسِدَ عَدِيدَةَ فَإِنَّ تَحْرِيمَهُ يَنْمِيُ عَنْ فَلْسِفَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ نَشَرَ
إِلَى بَعْضِهَا هُنَّ :

الف . إِنَّ الظُّلْمَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ ٢٧٩ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ هُوَ فَلْسِفَةُ تَحْرِيمِ الرِّبَا .
بَاءَ . الْفَلْسِفَةُ الْأَخْرِيُّ لِلتَّحْرِيمِ هِيَ تَثْبِيتُ سَنَةِ (الْقَرْضِ) فِي الْمُجَمَّعِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا
الْمُطْلَبُ فِي رَوَايَاتِ عَدِيدَةٍ ، مِنْهَا رَوَايَةُ سَمَاعَةَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِيثُ يَسْأَلُ فِيهَا :
إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ الرِّبَا فِي غَيْرِ آيَةٍ وَكَرِهَ ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أَوْتَدْرِي لَمْ ذَلِكَ ؟» قَلَتْ :
لَا . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «لَئِلَا يَمْتَنَعُ النَّاسُ مِنْ اصْطَنَاعِ الْمَعْرُوفِ» . (٢)

(١) مِيزَانُ الْحُكْمَةِ ، الْبَابُ ٢٤٤٨ ، الْحَدِيثُ ١١١٠٨ ، وَهُنَاكَ رَوَايَاتٌ أُخْرَى فِي نَفْسِ الْبَابِ تَدَلُّ عَلَى
الْمُضْمُونِ ذَاتِهِ .

(٢) وَسَائِلُ الشِّعْيَةِ ج ١٢ ، ابْوَابُ الرِّبَا الْبَابُ ١ ، الْحَدِيثُ ٣ وَالرَّوَايَاتُ ٤ وَ ٩ وَ ١٠ وَ ١١ كُلُّهَا تَدَلُّ عَلَى
نَفْسِ الْمُضْمُونِ ، كَمَا أَنَّهُ قدْ فَسَرَ صَنَاعَ الْمَعْرُوفِ فِي الْحَدِيثِ (١١) مِنْ نَفْسِ الْمُصَدِّرِ بِالْقَرْضِ .

أي أنّ الربا إذا تفشت فسيترك الناس سنة القرض وتقوت من جراء ذلك العواطف الإنسانية ليحل محلها الانتهاز والربح. ولهذا كان الربا محظى في الشريعة الإسلامية المقدسة.^(١)

الإرتباط بين الأخلاق والاقتصاد في الإسلام

بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد المادي بون شاسع ، واهم مفارقة بينهما هو أنّ الاقتصاد الإسلامي يعد مزيجاً من الأخلاق والاصول والمبادئ الإنسانية ، بينما الاقتصاد المادي لا أنه حال من الأخلاق والعاطفة فحسب ، بل إنّ المصلحة المادية تعدّ المبدأ الحاكم على هذا الاقتصاد. وعلى هذا ، فكل شيء يتعارض ويتضاد مع ذلك يُضحي به لأجل المصالح المادية.

إنَّ إنتاج المخدرات وعوائدها . الذي يعد امراً يتمانع مع المبادئ الإنسانية . يعد امراً ليس مهماً عند كثير من الدول وحتى تلك الدول التي تدعى مكافحتها لهذه الظاهرة وتعقد بين الحين والآخر مؤتمرات في هذا المجال ، لها نصيب ليس قليلاً في تجارة هذه المواد . إنَّ مؤيدي ودعاة الاقتصاد المادي لا يكتنون من فساد جيل الشباب وتزلزل المبادئ الأخلاقية وتفكك العوائل وما يهمهم هو مصالحهم الذاتية.

إنَّ المتاجرة بالانسان وبيع الاطفال رغم تمانعه مع جميع المبادئ الإنسانية يعد جائزاً عند دعاة حقوق البشر المزيفين ويعترفون بذلك بشكل غير علني . من الذي وفر للعراق أسلحة الدمار الشامل والقنابل الكيميائية والميكروبية والصواريخ بعيدة المدى والقنابل

العنقودية وامثالها ، وذلك ليرتكب بواسطتها ابشع الجرائم في ايران الاسلامية؟ لماذا سكت دعاة حقوق البشر ولم يعتضوا على ذلك؟ لكنّهم رفعوا هتافات الاعتراض بمجرد أنْ هجم العراق على الكويت وحكموا عليه بضرورة نزع السلاح.

إنَّ سرّ هذه الإزدواجية واضح ؛ فإنَّ مصالح الدول الاستكبارية قد اقتضت يوماً أنْ

(١) للمرزيد راجع (ربا وبانكاري اسلامي) من سلسلة دروس سماحة اية الله مكارم الشيرازي في مجال البك الاسلامي (بالفارسية).

يتسلح العراق بأحدث الاسلحة واسدها فتكاً ، وهذه المصالح ذاتها اقتضت يوماً أن ينزع العراق أسلحته ليضمونا بذلك مصالحهم. والمالك في كل ذلك هو مصالحهم المادية ، أمّا المبادئ الإنسانية فمغلوب على أمرها.

المبدأ الحاكم على الاقتصاد الإسلامي هو الأخلاق ، وينبغي أن تتم عملية كسب المصالح المادية تحت ضلّ حفظ القيم الأخلاقية ، وعلى هذا الأساس حرم الإسلام المعاملة التي تعد منشأً للفساد. وعلى سبيل المثال أنّ الإسلام إذا منع تأسيس مراكز للفحشاء أو حرم بيع الشراب ولعب القمار أو تأسيس مصرف ربوى وغيرها فذلك لأجل أنّ أموراً من هذا القبيل تعدّ منشأً للفساد الكثير ، الامر الذي لا يتناسب مع الأخلاق الإسلامية. إنَّ القيمة الأخلاقية التي تحكم الاقتصاد الإسلامي لها مبادئ عديدة نشير إلى بعض منها هنا :

الف . من المبادئ التي تحكم الاقتصاد الإسلامي هي خطاب الآية الشريفة : ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي أنَّ المعاملات الاقتصادية ينبغي أنْ تنظم بشكل يخلو من الظلم لكلا الجانبين البائع والمشتري.

باء . كسب النفع ودفع الضرر العام ؛ وعلى أساس هذا المبدأ ، فإنَّ المصلحة الشخصية تكون ضحية المصلحة العامة. والبُّت بالأعمال التي يحتاجها المجتمع يعد واجباً ، فإذا كان المجتمع بحاجة إلى معلمين ، فعلى كل من يستطيع أن يبادر بهذا العمل.

ومن جانب آخر ، أنَّ الأعمال التي تضر المجتمع تعد محرمة في الإسلام رغم ما قد يكون فيها من مصلحة ومنافع شخصية ، فيبيع المسكر مثلاً ، وكذا النشاطات المتعلقة بهذا النشاط ، محروم ومنع لهذا جاء في الروايات أنَّ غرس شجرة العنبر لأجل صنع المسكر من ثمارها ، وكذا سقيتها وقطف ثمارها وحمله و.. هذا كله حرام. (١)

ويذكر هنا أنَّ المبادئ الأخلاقية لا تنحصر في الواجبات والمحرمات ، بل تشمل حتى المستحبات والمكرهات. ومن هنا كان (تلقي الركبان) مكرهها في الفقه الإسلامي. والمراد من

(١) وسائل الشيعة ج ٢١ ، أبواب ما يكتب به ، الباب ٥٥ ، الحديث ٣ و ٤ و ٥.

تلقي الركبان هو انتظار القوافل خارج المدينة أو القرية وال مباشرة بشراء بضاعة القوافل قبل معرفة أصحابها بقيمها في أسواق القرية أو المدينة.

وقد اعتبر بعض الفقهاء هذا العمل حراماً ، إلا أن بعضهم الآخر اعتبره مكروها ،^(١) كما أنَّ ا عملاً مثل بيع الكفن مكره ، وذلك لأنَّ القائم بها يتطلع إلى موت الآخرين دائمًا ، وهذا أمر يسبب قسوة في القلب.

جيم . توجيه الرأسال نحو الآخرة ، وهذا المبدأ يستفاد من الآية ٧٧ من سورة القصص ، حيث قال الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تُبْغِيَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وفقاً لهذه الآية ، فإنَّ رأس المال يكون قيمًا إذا ما صبَّ في طريق الآخرة ، وبتعبير آخر : المال الذي يسد الحاجة الدنيوية وال الحاجة الاخروية. وفي النهاية : أنَّ القيمة الأخلاقية هي الحاكمة على الاقتصاد الإسلامي ، بينما يفقد الاقتصاد المادي هذه القيم ويضحي أتباع هذا المذهب كلَّ شيء لأجل المصالح الذاتية.

الاسوة في القيم الاخلاقية

يُوصي الإمام علي عليه السلام في عهده مالك الأشتر^(٢) بطبقات المجتمع من العسكريين والقضاة والعلماء والتجار والمزارعين والوزراء والمسئولين الحكوميين وغيرهم إلا أنَّه عند ما يصل إلى الطبقة المحرومة يستخدم في حقهم تعابير لم يستخدمها في حق غيرهم ، حيث يقول : «ثمَّ اللهُ اللهُ في الطبقة السفلی من الذين لا حيلة لهم من المساكين والحتاجين وأهل

البؤس^(٣)

(١) شرح اللمعة ١ : ٣٣١ .

(٢) الرسالة ٥٣ من نوح البلاعه شرح صبحي الصالح ؛ ويدرك أنَّ هذه الرسالة من اطول العهود ، وتعد اوامر جامعة صدرت من الإمام علي عليه السلام خطاباً لمالك فحسب بل لجميع الرؤساء في الحكومات بلا قيد الزمان والمكان ، وذلك لما تحضى به من حكمة وطراوة دائمة.

(٣) شدة الفقر .

والزمني ^(١) فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ^(٢) ومعترأً ^(٣) واحفظ الله ما استحفظك ^(٤) من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غالات ^(٥) صوافي ^(٦) الإسلام في كل بلد ، فان للاقصى منهم مثل الذي لladن وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ^(٧) فانك لا تعذر بتضييعك التافه ^(٨) لاحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك ^(٩) عنهم ولا تصرع خدك لهم ^(١٠) وتفقد امور من لا يصل إليك منهم من تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك» ^(١١).

ما أحسن هذا. إنّه حديث جميل حقاً! فهو كالشمس التي لا زالت تضيء رغم مضي أكثر من ألف سنة على عمره وكل يوم يزداد ضياؤه. أحسن قائل هذا الحديث أحسن وأحسن ألف مرة. إنه حديث أهل لأن يكتبه الحكماء الذهب ليجعلونه على رأس قائمة اعمالهم.

المدهش هو أنّ اسوة الأخلاق هذه ، شخصية كانت حاكمة ، ورغم ذلك توصي بالناس وبخاصة المستضعفين والمحروميين منهم خيراً. إنّ رجال الدول الغربية حالياً يمثلون قدوة أخرى ونوع آخر من الحكماء حيث يرتكبون مقتل الآلاف من المحروميين لأجل مصالحهم المادية. انظر للمفارقات!

سؤال : قد يتمانع الحفاظ على القيم الأخلاقية مع التنمية الاقتصادية ، فكيف يمكن الجمع بين هذه القيم والتنمية المطلوبة؟

(١) جمع زمين وهو المصايب بالزمانة ، أي العاهة ، يريد ارباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب .
(٢) السائل .

(٣) المعرض للعطاء بلا سؤال .

(٤) طلب منك حفظه .

(٥) ثمرات

(٦) أرض الغنيمة .

(٧) طغيان بالنعمـة .

(٨) المخـير .

(٩) أي لا تصرف اهتمامك عن ملاحظة شؤونـهم .

(١٠) الامالة اعجـاباً وكـيراً .

(١١) تفريغ الثقة يعني جعل اشخاص يتفرغون للبحث عنـهم لمعرفة احوالـهم يكونـون من تفقـهم .

الجواب : إنَّ نظامنا نظام قيمي ، والمهم عندنا هو حفظ هذه القيم الأخلاقية ، ونرى أنَّ الحفاظ على القيم لا يتمانع مع التنمية الاقتصادية ، ومزجها مع بعض سوف لا يؤدي إلى التخلف ، بل أنَّ الاقتصاد الذي لم يعتمد القيم الأخلاقية والذي ساد العالم أدى إلى أضرار لا يمكن حبرانها.

أم يكن هذا الاقتصاد غير القيمي هو السبب الأساس في نشوء الحرب العالمية الثانية؟ الحرب التي دمرت بعض الدول بالكامل وأنزلت ببعض أخر اضراراً جسيمة وأودت بحياة ٣٠ مليون شخصاً و ٣٠ مليون معلولاً ، هذا بعض ما خلفته هذه الحرب وأودعته في ذاكرتنا. فهل الاقتصاد المتخلَّف . حسب تعبير اتباع المذهب المادي . أفضل أم الاقتصاد المتطرّر؟!

ينبغي العلم أنَّ العالم لا يعمَّر ولا ينمو الا تحت ظل إقتصاد قيمي.

علي عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ والهدية الليلية

بعد ما يذكر الإمام علي عليه السلام قصة احيه عقيلاً عند ما طلب منه شيئاً من بيته المال يقول في الذي أراد إرشائه لاجل قضية حقوقية ما يلي :

«.. وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوقة ^(١) في وعائهما ومعجونة شستها ^(٢) كأنما عجنت بريق حية أو قيئها ، فقلت : أصلة أم رِّزْكَة ، أم صدقة؟ فذلك محروم علينا أهل البيت. فقال : لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية ، فقلت : هبلك المبول! ^(٣) أعن دين الله أتني لتخدعوني؟ أختبط ^(٤) أنت ام ذو جنة ^(٥) ام تحجر ، ^(٦) والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على أنْ اعصي الله في نملة أسلبها جلب ^(٧) شعيرة ما فعلته وأنَّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة

(١) نوع من الحلويات اهداها الشاعر بن قيس إلى علي.

(٢) أي كرهتها.

(٣) هبلك : أي ثكلتك ، والمبول المرأة لا يعيش لها ولد.

(٤) أختبل نظام ادراكك؟

(٥) من اصابه مس من الشيطان.

(٦) أي تحذى بما لا معنى له في مرض ليس بصرع.

(٧) قشرة الشعيرة.

تقضمها. ^(١) ما لعلني ولنعم يفني ، ولذلة لا تبقى ، نعوذ بالله من سبات ^(٢) العقل وقبح الزلل. ^(٣)

هل يؤمن حالياً على العالم مع وجود زعماء يضخون بكرامة واعتبار بلدتهم مقابل امرأة ملوثة!! يا لها من مفارقات؟ على كل مسلم أنْ يتعلم القيم ويدركها ويدير عن جلات الاقتصاد مع حفظه على تلك القيم في ذات الوقت.

البحوث التكميلية للآلية

١ . أكل الربا في عصرنا

كان أكل الربا في العصور الماضية محدوداً باشخاص كانوا يسلفون الناس ويرجعون اموالهم بعد فترة من الزمن مع مقدار من الربح ، إلا أنَّ الأمر اختلف في عصتنا ، فقد ازداد أكلة الربا ، كما أنَّ رقعته اتسعت لتشمل الدول والشعوب ككل ، فإنَّ الكثير أصبح يمارس هذا العمل القبيح حالياً.

بعض الدول التي تجيز لنفسها أكل الربا اوقعت بعض الدول الفقيرة في مخالفتها باعطائها بعض الديون ، وقد باتت هذه الدول تصرف كل ما تجني من أرباح وعوائد وطنية لعلاج هذا المرض المتفاقم. ولأجل ذلك نرى أنَّ الفجوة بين الدول الفقير والغنية تزداد كل يوم ، وإذا ما استمر الوضع هكذا فلا يبعد أنَّ تعلن هذه الدول عن افلاسها. وكمثال على ما نقول في مجال الربا هو الوضع المرتيب لاقتصاد دول جنوب شرق آسيا ^(٤) فهو بسبب قضية أكل الربا.

ان أكلة الربا العالميين بسطوا لنا فخاً بعد الحرب المفروضة على ايران . التي خرج من امتحانها الشعب الايراني الشجاع مرفوع الرأس . وذلك بذلهم السخي للاموال والديون. ورغم أنَّهم لوثونا بعض الشيء بهذه الديون إلا أنَّ المسؤولين بحمد الله سرعان ما التفتوا إلى خطورة هذا السم الفتاك ، وأوقفوا عملية اخذ الديون ودفعوا تدريجياً اقساط الديون لينقذوا

(١) أي كسرته باطراف أسنانها.

(٢) نوم العقل.

(٣) الزلل هو السقوط في الخطأ.

(٤) حيث حصلت أزمة شديدة في تلك الدول شلت اقتصادها عام ١٤١٨.

بذلك بلدنا من هذا الفخ.

اضافة إلى النوع المذكور من الربا هناك نوع اخر من الربا هو اقبح وأسوأ حالاً من سابقه ، وهو الذي يعتمد رأس مال الناس ، فإنَّ البعض إذا كانوا يتّبعون بهذا العمل سابقاً وبأموالهم الشخصية تقوم حالياً البنوك (التي أموالها من الناس) بهذا العمل القبيح وهذا . قطعاً . يستتبع عذاباً أشد وأقسى من سابقه.

٢ . النشاط المصرفي الالاربوي هل هو ممكن؟

يعتقد البعض أنَّ عصرنا يستدعي اقتصاداً ربوياً ولا يمكن فيه أي نشاط من دون ربا ، وحذف الربا عن النشاطات المصرفية يؤدي إلى ركود في العمليات المصرفية وركود في الاقتصاد في النهاية ، وبعبارة أخرى : أنَّ الربا امتنج بالاقتصاد بشكل لا يمكن تفكيكهما . هذا النوع من التفكير يطرح من قبل المفكرين المغتربين ، باعتبار حاجة الدول الثرية إلى مبلغين لها في الدول الفقيرة ؛ وذلك لأنَّ تفكيراً من هذا النوع يتطابق مع مصالحهم ، رغم سقمه .

إنَّ البنوك الإسلامية لو عملت بالقرارات المصوّبة في بلدنا ولو اطلعت الناس على محتويات هذه القرارات وكانتوا اوفياء بتجاهها فسوف تحل قضية الربا وسوف يفيد أصحاب رؤوس الأموال من اموالهم ، كما أنَّ البنوك نفسها ستستفيد وعجلة الاقتصاد ستتحرّك . من العقود الإسلامية . التي جاءت في قرار البنوك . هو عقد (المضاربة) ، وهو لا يختص بالتجارة^(١) بل يشمل الاستثمارات في قطاع الصناعة والبيطرة والزراعة والخدمات وغير ذلك .

على أساس عقد المضاربة يودع الشخص رئيس ماله عند البنك ، والبنك يعين مستوى الربح على أساس العقد ، بالطبع ينبغي أن يكون الربح نسبة من المنفعة لا من رأس المال . والمشتري يمكنه ان يوكل البنك في ان يتصالح على سهمه بنسبة معينة ليقبضه كل شهر . لكن

(١) يختلف العلماء في هذا المجال ، فبعض يرى اختصاص هذا العقد بالتجارة والآخر يراه شاملًا لجميع القطاعات الاقتصادية .

يحسب مجمل الربح بعد انتهاء العقد ، ثم يوكل البنك وكالة مطلقة لأنّ يستمر الاموال في أي مجال أراد ، وعلى البنك أنْ يعمل طبقاً للعقد.

وفي هذه الحالة فإن مشكلة الربا منافية رغم انتفاع صاحب رأس المال وانتفاع البنك إضافة إلى أنّ عتلة الاقتصاد سوف لا تبقى ساكتة بل تعتمد بحارة سليمة وصحيحة.

ينبغي الالتفات إلى أنه ينبغي تنفيذ العقود الشرعية. وانزالها على الورق دون العمل بها لا يغير شيئاً من الواقع وتبقى مشكلة الربا معضلة بلا حل.

حذف الربا من المصارف أمر ممكن بدليل أنّ الربا كان رائجاً في صدر الإسلام وحرم بعد ظهوره رغم ذلك لم يحصل ركود اقتصادي واشكالات من هذا القبيل.

٣ . حكم الایداعات والسلف

هل يحل للناس ايداع أموالهم في البنوك وأخذ الأرباح التي تترتب عليهما؟ وما حكم السلف التي يمنحها البنوك لزبائنه ويأخذ عليها أرباحاً نسبية؟

من المناسب قبل الاجابة على المسؤولين ان نقدم مقدمة نطرح فيها فلسفة هذا النوع من الایداع والسلف.

كثير من الناس يملك رأس مال وصله عن طريق الارث أو العمل أو شيء من هذا القبيل ، لكن لا يستطيع توظيف رأس المال هذا في المجال الاقتصادي ، من جانب آخر هناك الكثير من له طاقة على توظيف الاموال ويحضى بقدرة ادارية جيدة مثل خريجي الجامعات من الشباب ذوي الطاقة والحوافز الجيدة.

يأتي هنا دور البنوك حيث يمكنها أن تلعب دوراً فاعلاً ، بأن تجمع بين رأس المال والطاقات والكوادر ، فتأخذ الاموال من اصحابها وتسلفها للكوادر لتوظيفها في سبيل دفع عجلة الاقتصاد وتطلب من الاخرين ارجاع الاموال من خلال اقساط. وفي هذا المجال تناول البنك جزءاً من العوائد والارباح.

من جانب آخر تتمكن البنوك أخذ رؤوس اموال فاقدى القدرة على توظيفها ، لتشترك في توظيفها واستثمارها ، وترجم مقداراً من ارباحها إلى اصحاب رؤوس الأموال.

وعليه ، إذا تمت هذه المشاركة على أساس عقود شرعية فلا إشكال في شرعيتها.

ولأجل التحقق من هذا الأمر نوصي بالامور التالية :

١ . تعليم موظفي البنوك الاحكام والعقود الشرعية المتعلقة بالبنوك والزامهم بتنفيذ القوانين الخاصة في هذا المجال.

٢ . أن يقوم العلماء ومن له باع في الاحكام الشرعية الخاصة بالبنوك بتبيين المسائل الشرعية الخاصة بالبنوك واياضها إلى الناس بلغة بسيطة ويدركوا اخطار الربا ومواقف الإسلام الشديدة تجاهه.

٣ . من المناسب أن توازن البنوك بين ارباح الإيداعات والسلف ، ولا ينبغي أن تكون ارباح السلف أكثر من ارباح الإيداعات. كما أن عليها أن تحبى السنة الحسنة للإقراض وان تخطو في هذا المجال خطوات مؤثرة.

٤ . آيات أخرى عن الربا

لأجل تكميل البحث نشير هنا إلى ثلاثة آيات تعرضت لجزئيات الربا واحكامه :

الف . يقول الله في الآية ٢٧٨ من سورة البقرة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ وَذِرْوَا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنَّ كُلَّمُؤْمِنٍ﴾

إنّ بداية الآية خطاب للمؤمنين ونهايتها مشروط بالإيمان ، ومعنى حسن المطلع وحسن الختام في الآية هو أنّ أكل الربا لا يتفق وروح الإيمان وأنّ أكل الربا ليس مؤمناً.

شأن نزول الآية

بعض الأغنياء من المسلمين كانت لهم مطالبات ربوية من كانوا قد استلفووا منهم ،

ومن أولئك كان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد. وعندما نزلت آية تحريم الربا

تساءل هؤلاء البعض عن مصير أموالهم وأرباحها ، فنزلت الآية محددة الحكم هنا في أنّ لهم

الحق في إرجاع أصل رأس المال دون ربحه ورباه. وقد قال الرسول ﷺ عند ما نزلت آية

تحريم الربا :

«ألا أَنَّ كُلَّ رِبَا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ وَأَوْلَى رِبَا اضْعَهُ رِبَا الْعَبَاسِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِّبِ» ،^(١)
وهذا يكشف عن أنَّ الإِسْلَام لا يرى قيمة للعلاقة السُّبْبَية والنُّسْبَيَّة مقابل القوانين
والضوابط.

باء . يقول الله في الآية الأخرى من نفس السورة البقرة (٢٧٩) : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَادَّنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(٢)
ينبغي الالتفات هنا إلى أنَّ صدر الآية يشير إلى اعلان الحرب من قبل الله ورسوله لا
من قبل آكلي الربا ؛ وذلك لأنَّ (فَادَّنُوا) تعني فاعلمنوا أو فأيقنوا ، إلَّا أنَّ الكلمة إذا قرئت
(فَادَّنُوا) . كما قرأها البعض ، وهي قراءة غير معروفة . فانَّ اعلان الحرب سيكون من قبل
آكلي الربا .

جيم . الآية ٢٨٠ من سورة البقرة : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي على اصحاب رؤوس الاموال ان يمهلو المعاشرين والمحاجين ولا يطالبوا بأموالهم ..
وإن كان حالم متأزم فالأفضل أن يعتبروا اموالهم صدقة بذلوها لمستحقها .
من مجموع الآيات المذكورة يستشف أنَّ الربا عند الله أثم عظيم وخطر ، وقد استخدم
له القرآن تعبير لم يستخدمها في أيٍّ من الذنوب .

(١) مجمع البيان ٢ : ٣٩٢ .

(٢) يبدو من الآية ان آكلي الربا لا يجتنبون عن هذه الممارسة بالارشاد والتبيغ لذلك كان على الحكومة
الإسلامية ان تجبرهم على الامتناع عنها .

المثل العاشر :

الخَلْقُ الْمَدْهُشُ لِعِيسَى بْنِ مَرِيمٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يقول الله تعالى في الآية ٥٩ من سورة آل عمران :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

على هذه الآية ، فإنَّ ولادة عيسى دون أب لا يدل على الوهيتها.

الشرح والتفسير

يقول الله في هذه الآية : إنَّ خَلْقَ عِيسَىٰ يُشَبِّهُ خَلْقَ آدَمَ في أنَّهُ خلق من تراب دون دخالة أب وأم في ذلك ، بل وجد بمجرد أن قال له الله : كُن.

تحدث القرآن المجيد في الآيات ٤٥ إلى ٥٩ من سورة آل عمران عن عيسى بن مریم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحكي مراحل حياته المختلفة من قبيل كيفية الولادة والتربية ونموه وبعثته ورسالته وكراماته ومعاجزه وعروجه إلى السماء ، وقد سعى القرآن خلال هذه الآيات أنْ يرفع الشبهة المثارة حوله.

سؤال : كيف يمكن أنْ يولد انسان من أم فقط دون أب؟ أو كيف يمكن أنْ يولد انسان من دون تركيب بين الأسبرم والبويضة؟

هل الآية في صدد الاجابة على هذه الشبهة ، بحيث تقول : لم يخلق آدم دون دخالة أب؟ أي كأنها تريد القول بأنَّ خلق آدم أصعب من خلق عيسى ؟ لأنَّ في خلق عيسى توسطت الام ، أمًا في خلق آدم فلا واسطة ، من قبيل أم أو أب ، فكان أصعب خلقاً من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

إِنَّ أَفْعَالًا مِّنْ هَذَا الْقَبِيلَ لَيْسَ صُبْعَةً بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا إِنْ قَالَ لِشَيْءٍ كُنْ فَيَكُونُ^(١) (١) إِنَّ الْخَلْقَ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَفْرَقُ فِيهِ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّعْبِ وَالسَّهْلِ . إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ عَالَمًا كَعَالَمِنَا الْحَالِي بِحَرَاتِهِ وَنَجْوَمِهِ . الَّذِي كَشَفَ الْأَحْصَائِيَّاتِ وَالاِكْتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ عَنْ سُعْتِهِ وَعَظِيمَتِهِ . فَإِنَّهُ سَيَخْلُقُ بِمَحْرَدٍ أَنْ يَأْمُرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ الصَّلَاةِ إِذَا تَصَوَّرَ أَمَامَهُ خَالقًا بِهَذِهِ الْقُدْرَةِ وَالْعَظِيمَةِ وَشَعَرَ بِأَنَّهُ (لَا شَيْءَ) يَتَحَدَّثُ مَعَ (كُلِّ شَيْءٍ) لَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَحَالَاتُهُ فِيهَا تَخْلُفٌ بِالْكَاملِ .

قدرة الله في كلام أمير المؤمنين عليه السلام

تحدث الإمام علي عليه السلام في الخطبة ١٨٥ من نجاح البلاغة عن قدرة الله وأشار إليها بجملة كما نرى هنا : «لو فكروا في عظيم القدرة وجسم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخفقوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخلة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه واتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ..» ، ثم يتعرض إلى خلق النملة وظرفها ما تحتويه هذه الخلقة .

من الحجب التي تحول دون التفات الإنسان إلى عجيب الخلقة ، هو حجاب العادة ، وذلك لأن العادة تنسى الإنسان عظمة الشيء . فالنملة ، مثلاً ، أصبحت عادية باعتبار كثرتها وتعودنا على رؤيتها ، الأمر الذي يجعل الإنسان غافلاً عن عظمة خلقها ، وهي إذا قيست مع أهم صناعات الإنسان لاتضاحت عظمتها .

إِنَّ صَنْعَةَ الطَّائِرَةِ صَنْعَةٌ تَعْتَمِدُ تِقْنِيَّةً مَتَّقِدَّمَةً جَدًّا ، فَهِيَ تَحْمِلُ فِي الْفَضَاءِ أَنَاسًا وَسَلْعًا ، وَلَهَا أَحْرَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ تُشَبِّهُ الْمَدِينَةَ الصَّغِيرَةَ .

وهذه الطائرة . التي تكشف عن ذورة التقنية والصناعة البشرية . إذا قيست بالنملة . التي هي من أصغر صناعات قدرة الله اللامتناهية . وكانت النملة أكثر عظمة من الطائرة ؟ وذلك لأنَّ النملة تضم كل شيء رغم جثتها الصغيرة والنحيفة ، وفيها أجهزة من قبيل : الباصرة

(١) تكرر مضمون هذه الآية في ثمان آيات من القرآن .

والسامعة والرجل واليد وجهاز المضم والدفع والتناسل وتعلم بمنهضة بناء البيت وتحبّة الاخذية وخزنها بشكل يحول دون فسادها و .. ويا ترى كيف يمكن لموجود صغير أن يضم هذه الاجهزة جميعها؟!

أئّا الصائرة فاضافة إلى أئّا تفقد الكثير من هذه الاجهزة مثل جهاز التناسل وغيره ، فهي بنفسها غير قادرة على تحريك نفسها ، وتستعين لأجل الحركة بطاقم من التقنيين والمهندسين .

نعم ، إن الإنسان سيهتدي ولا يتعجب من خلق إنسان بلا أب إذا فكر في خلق الله وتدبر فيه. ينبغي السجود لرب قادر مثل هذا ، كما ينبغي الصلاة والسلام على الإنسان الكامل (الإمام علي عليه السلام) حيث استطاع توصيف هذه القدرة اللامتناهية وبشكل بدائع ورائع.

قصة خلق الإنسان

هناك نظريتان رئيسيتان في خلق الإنسان :

- ١ . (تنوع الأنواع) ، يعتقد أصحاب هذه النظرية أن الإنسان خلق مستقلاً كما خلقت الحيوانات الأخرى. وقد يُسمى هذا التصور وهذه النظرية (ثبوت الانواع).
- ٢ . (تبديل الانواع) ، وهي النظرية المشهورة بين علماء الطبيعة والقائلة بأنَّ الخلقة بدأت بموجود أحادي الخلية كان يسبح في البحار ، نمى هذا الموجود بشكل تدريجي ليتبدل إلى سمكة ، تكاثرت هذه السمكة ، ثم ألقت أمواج البحر بيوض من أفراد فصيلتها خارج البحر ، لتتبديل تدريجياً إلى حيوانات برية ومنها القرد ، ثم تكاملت بعض أصناف القرد لتتبديل إلى إنسان.

هل يمتلك أصحاب نظرية (تبديل الانواع) أدلة قاطعة على كلامهم؟
كلا ؛ وذلك لأنَّ كلامهم يرجع إلى ملايين من السنوات الغابرة ، إلى زمن لم يكن فيه إنسان أبداً ، إلى زمن لم تصلنا عنه معلومات دقيقة ، وما لدينا من تلك العهود هو شواهد وقرائن أثرية جمعت من قبل منقيي الآثار.

الاختلاف بين (الفرضية) و (القانون)

إنّ مجموعة القضايا التي يسعها المختبر ويمكن أن تُحلل وتقع في طريق التجربة العلمية تتبدل إلى قانون إذا ثبتت صحتها ، كالقضية القائلة بأنّ سرعة الضوء ٣٠٠ كيلومتر في الثانية. أما مجموعة القواعد التي لا يمكن اخضاعها للتجربة ، ويتمسك لأجل إثباتها بالعقل من خلال القرائن والشهادات الموجودة فهي فرضية.

وعلى هذا ؛ فإنّ (تبديل الانواع) فرضية لا قانون. ومن خصائص الفرضية أنها تحتمل التبدل والتغيير والبطلان ، كالفرضية القائلة بأنّ الإنسان قبل أربعين ألف سنة يختلف عن الإنسان الحالي ، فإنّ علماء الآثار وجدوا جماجم تتعلق بعشرات ملايين سنة قبل عصرنا هذا كشفت عن شباهة الإنسان في ذلك العصر مع الإنسان الحالي ، وبهذا بطلت الفرضية السابقة.

رأي القرآن في خلق الإنسان

إنّ نظرية (تنوع الانواع) هي المستفادة من القرآن المجيد ، ويسعدون أنّ القرآن يؤيد هذا الرأي وهذه النظرية ، أمّا (تبديل الانواع) فلا يمكن النظر إليها كقانون ثابت يستحيل الخدش فيه.

على أي حال ، سواء كانت النظرية الأولى صحيحة أم الثانية ، فإنّ تفسير الآية لا يتغير ، وحتى لو قلنا بتبدل الأنواع فإنّا سنقول :

إنّ الذي استطاع أن يخلق الموجود أحادي الخلية يستطيع أن يخلق عيسى عليه السلام دون حاجة إلى أب وأم. هذا اضافة إلى أنّ العلماء عثروا على موجودات يمكنها التكاثر دون حاجة إلى التلاقي ، وهي حيوانات تستطيع الانشى منها التكاثر دون حاجة إلى لقاح من الذكر. وإذا كان عالم كهذا ممكناً فان ولادة عيسى عليه السلام لا أنه أمر غير عجيب فحسب ، بل قد حصل ما هو أتعجب منه.

المثل الحادي عشر :

إنفاق الكفار

يقول الله في الآية ١١٧ من سورة آل عمران :

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

تصوير البحث

في هذه الآية يمثل القرآن بذل الكفار بزراعة كافر في أرض خصبة ، فهو ينشر فيها البذر ، إِلَّا أن مجيء ريح بارد وجاف يجفف ما زرعه وأنبهه هذا الكافر في هذه الأرض.

الشرح والتفسير

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعتقد بعض المفسرين أنَّ كلمة النية أو الدافع مقدرة هنا ، وهي توضح هذا الجزء من الآية. وبهذا التقدير يصبح معنى الآية كالتالي : أنَّ نية هكذا إنفاق ودافعه كمثل ريح فيها صر أصابت حرت قوم ، فكما أنَّ هذا الريح يدمر الحرت ، كذلك النية هذه فاكِها تدمر هذا الإنفاق.

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ إنَّ مفردة الصر

بالعربية

تعني ريحًا شديد البرد ، أو ريحًا شديد الصوت. ^(١)
على أي حال ، المراد من هذه الكلمة هو الريح الشديد الذي يحرق حتى بعض
الغابات الكبرى أحياناً.

وسبب هذا الحريق . كما نسمع من المختصين . هو الصواعق والرعد والبرق ، وقد يكون هناك إعصار شديد تختك بسيبه بعض الاشجار اليابسة . التي تدحر في نفسها طاقة . فتتولد قدحه تشعل النار ، فيحصل الحريق. وعلى هذا ، فإنَّ مثل انفاق الكفار كمثل المزرعة التي تواجه ريحًا شديدة تُضرم النار فيها.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وذلك لأنَّ ما يترب على فعلهم لم يكن ظلماً من الله بل كان ذلك كله بسبب سوء نواياهم وعدم صدقها .
إنَّ المزارع الذي يعتمد الزرع في أراضٍ تقع في مسيرة الرياح الشديدة والباردة ، إذا تلفت زراعته إثر هبوب الرياح فذلك ظلم أورده بنفسه على نفسه.

خطابات الآية

١ . المراد من الإنفاق في آية المثل

أي نوع من الإنفاق شُبِّه بالريح الصر في الآية الشريفة؟ إنَّ في ذلك احتمالات ثلاثة نشير إليها هنا.

الف . المراد منه الإنفاق الذي يُصرف في غير سبيل الله ، مثل الإنفاق والبذل الذي كان يصدر من أبي سفيان الكافر والمنافق . فهو لم يسلِّم قلبياً وصلَّى كافراً إلى آخر عمره . في سبيل عظمة الأصنام وأجل إسقاط الإسلام .

إنَّ القرآن المجيد يقول : إنَّ إنفاقاً من هذا القبيل مثل الأرض التي تعدُّ للزراعة ، ود الواقع هؤلاء المنفقين . وهي الشرك وبعبادة الأصنام . مثل الريح الصر.

(١) الصر من نفس المادة وتعني الضجة ، ومفردة (الصُّرْة) التي من نفس المادة كذلك تعني الكيس الذي أغلقت فوهته بشدة. وعلى هذا ، فإنَّ الشدة متضمنة في جميع معاني هذه المادة ومشتقاتها ، الريح الشديد والصوت الشديد والكيس الذي أغلقت فوهته بشدة.

باء . المراد من ذلك هو الإنفاق والبذل الذي يصدر من المسلمين المترافقين لأجل بناء المساجد والحسينيات والمستشفيات والمستوصفات والجسور والطرق وما شابه ذلك ، فهي إنفاقات ذات دوافع غير إلهية ، وتنم عن دافع مثل المباهاة وجلب رضاء الناس لأجل الفائدة الأكبر في المستقبل . إنَّ إنفاق هؤلاء مثل الأرض الزراعية الخصبة ، ونية المنفقين غير الخالصة مثل الريح الصر .

حيم . المراد منه هو الإنفاق الذي يقترن مع المُن والإيذاء ، فهو في الظاهر إنفاق وفي الواقع إذاب ماء وجه الآخرين وسلب اعتبارهم . فالإنفاق آنذاك كالأرض الزراعية ، أما الماء والأذى فبمتابة الريح الصر فأنما تُبطل الإنفاق ، كما أن لها أضراراً دنيوية ، وذلك لأنَّه فقد ماله اضافة إلى أنه ارتكب ذنباً عليه عقاب .^(١)

٢ . الإنقاص من كافر النعمة

يستفاد من الآية وآيات أخرى من القرآن المجيد أنَّ الله ينتقم في كثير من الحالات من الذين يكفرون بنعمه ويطغون ، فيجعل النعم وسيلة لعذابهم وبيدهما إلى نِعْمٍ (أي الموت في قلب الحياة) .

كمثال على ذلك ، الله أباد قوم نوح بواسطة المطر والطوفان ، مع أنَّ المطر قطرات تمنح الحياة لمن تصله ، وهو من أكبر نعم الله تعالى على هذا القوم .
إنَّ الغيث إذا لم ينزل ينتهي كل شيء على وجه الأرض ، فهو نعمة لكنه تبدل إلى مصيبة على قوم نوح !

تحدثت سورة سباء عن قوم سباء ، والحكاية واقع وعبرة في نفس الوقت . إنَّ هذا البلد يقع في مسير المياه الحاصلة من المطر ، ولأجل الحد من أضرار الأمطار الغزيرة بني هذا القوم سداً تراياً جمع المياه الزائدة والافادة منها عند الحاجة ، وشقوا قنوات وسوادي من هذا السد إلى

(١) رغم أنَّ الاحتمالات الثلاثة غير متمانعة مع مضمون الآية الشريفة ، إلا أنَّه باعتبار الآية السابقة لها فإنَّ الأول هو الأصح ، وذلك لأنَّ الآية السابقة (١١٦ من سورة آل عمران) تصريح بموضوعها ، أي الكفار .

أراضيهم ، فأصبحت أراضيهم بذلك قطعة من الخضار لكتلة التشجير والمزارع والبساتين ، وما كان الله يريده من هذا القوم إلا شكر رب على نعمه الوفرة ، كما يصرح القرآن بذلك في الآية ١٥ من سورة سباء : ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقٍ رَبُّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبَّ عَفْوٍ﴾ لكن باعتبار أنَّ الإنسان ينسى الله عند ما يغرق في نعمه ، فكذا قوم سباء كانوا قد نسوا الله وأصحابهم الغور والطغيان وكفران النعمة ، وهذه من صفات الإنسان إذا كان ضيق الصدر ، حيث ينسى كل شيء عند ما يبلغ مستوى الرخاء.

إنَّ الْقُرْآنَ يصفُ العذابَ والنِّقْمَةَ الَّتِي أَصَابَهُمْ كالتالي : ﴿فَأَغْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتِينِ دَوَائِي أَكْلٌ حَمْطٌ وَأَثْلٌ وَشَيْءٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١) نعم ؛ إنَّ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ هُوَ الَّذِي بَدَّلَ نِعْمَةَ السَّدِ التَّرَابِيِّ إِلَى نِقْمَةٍ وَعَذَابٍ . وقد توفرت مقدِّماتُ العذاب ، بعدَ مَا أَوْحَى اللَّهُ لِفُرَّانَ أَنْ تَقْبَ السَّدَّ ، فَكَانَ الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنَ الثَّقُوبِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ تَوَسَّعَ التَّقُوبَ لِتَصُلَّ إِلَى مَسْتَوِيِّ اسْتِطَاعَتِ أَنْ تَدْمِرَ السَّدَّ ، فَتَدَقَّقَ الْمَاءُ بِشَدَّةٍ وَدَمَرَ قَصْورَ الْقَوْمِ وَبِسَاتِينَهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ ، وَبَدَّلَ مَزَارِعَهُمْ إِلَى أَرَاضِ جَرَادَةٍ . وفي النِّتْيَةِ تَبَدَّلُ هَذَا السَّدَّ . إِثْرَ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللَّهِ . إِلَى عَذَابٍ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدُهُمْ ، وَلَكِي لا يَطْغَى الإِنْسَانُ أَمَامَ اللَّهِ .

النموذج الآخر ، هو عذاب الله الذي نزل على قوم شعيب من خلال الصيحة (كما يعبر عنها القرآن في الآية ٩٤ من سورة هود) أو الصاعقة ، وهي من جهتين تعتبر عذاباً ، الأولى : أنَّها تحرق كل ما تصطدم به . والثانية : أنَّ أمواجهها الصوتية تذهب بالسمع . وينذكر هنا أنَّ هذه الصاعقة كانت نعمة لهم ؛ لأنَّها تسبب هطول الامطار ، تلك النعمة التي يدين لها جميع الأحياء على الكره الأرضية .

وبحسب ما ذكر في الآية ١٦ من سورة هود ، أن الاستئصال كان نتيجة طغيانهم وكفرانهم لنعم الله ، وتبذلت بذلك الأرض التي هي مهد الإنسان ومسكنه إلى وسيلة عذاب يتعدّيون بها .

(۱) سپا : ۱۶

إن اهتزاز الأرض دمر جميع مدنهم ، وقد أنزل الله وابلاً من الأحجار عليهم بحيث لم يبق من آثارهم شيء أبداً.

أشرنا سابقاً إلى أن الريح من نعم الله العظمى للمزارعين ، كما أنه إذا لم يهب فان عملية لقاح الاشجار سوف لا تتم ، كما أن الهواء إذا لم يتغير فسوف يستهلك الاوكسجين فيه ، وفي النهاية سوف لا تشرب الاشجار والنباتات من جراء ذلك.

٣ . فلسفة الكوارث الطبيعية

منذ القدم كانت المسألة التالي ذكرها أحد مسائل بحث العدل الإلهي ، وهي : إذا كان الله عادلاً فما فلسفة الكوارث والحوادث المؤلمة من قبيل الأمراض والسيول والطوفانات والزلزال والامطار الشديدة والاعصار المخيفة؟

هل تتلاءم هذه الامور المؤلمة للإنسان أو المدمرة له مع عدالة الله؟
لا نعرف التاريخ الدقيق لطرح هذه الشبهة ، وقد يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام . وقد دوّنت في هذا المجال البحوث والكتب الكثيرة ، وهمنا في كتاب (خمسين درساً عقائدياً) بالاجابة على هذه الشبهة .

وقد تصدّى القرآن في بعض آياته للإجابة على هذه الشبهة ، نشير إلى نماذج من تلك الآيات :

١ . تعتبر بعض الآيات التنبّه واليقظة من أهداف هذه البلايا والكوارث ، كما هو كذلك في الآية ٤١ من سورة الروم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذْيِقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

على أساس هذه الآية ، تعد الكوارث لطفاً من الله للغافلين من الناس ، فإذاً قد تفيق الغافلين عن غفلتهم لعلهم يرجعون إلى الله ، مثلما ابلي الله الناس في زماننا هذا بمرض الايدز لكثرة فسادهم لعلهم بهذا الابتلاء يرجعون عن فسادهم ويتبعون إلى أنفسهم ، أو مثلما يبتلي شعوب العالم حالياً بالحروب والاختلاف الطبقي الفاحش والانقلابات والسقوط وتدمّر الحضارات البشرية وذلك لتفشي أمراض مثل أكل الربا فيهم . فهذه الابتلاءات تحمل الناس

لعلّها تنبههم وترجعهم إلى الطريق الصواب وتفيقهم من غفلتهم هذه.

إذن ، الابتلاءات هذه موهب إلهية في الواقع.

ولأجل اتضاح هذه الفلسفة بشكل أفضل التفتوا إلى هذا المثال :

نشاهد في بعض الشوارع الضوئية والمستوية بعض العقبات والعكر تعتمد إيجادها المعنيون. إذا ما سألنا عن سبب ذلك قالوا : إن شوراع من هذا القبيل قد تؤدي إلى غفوة السائق وغفلته الأمر الذي قد يودي ، بحياته وحياة الآخرين ، ولأجل الحيلولة دون غفوة السائق نتعتمد إيجاد هذه العكر ليقى السائق منتهاً دائمًا.

إن حياة الإنسان إذا خلت من هذه العقبات قد تؤدي إلى غفلة الإنسان وغفوته وسقوطه في المهاوية في نهاية الأمر ، لكن وجود هذه العقبات تحول دون غفلته ونجيه من السقوط رغم أنها تؤديه ولا تريجه.

٢ . الفلسفة الأخرى المستفادة من الآيات هي أن بعض هذه البلاءات والحوادث نتيجة عمل الإنسان نفسه ، وبتعبير آية المثل : أنَّ الإنسان يظلم نفسه وأنَّ الله لا يظلم أحداً.

على سبيل المثال ، الأبوان اللذان لا يكتران بسوء أو حسن تربية الأطفال ، ولا يهتمان بتعليمهم المسائل الدينية ، ولا يرشدونهم إلى الأماكن الدينية مثل المساجد والحسينيات ولا يعودونهم على التردد على هذه الأماكن ، فان النتيجة ستكون اطفالاً غير مهذبين أو متعاطفين للمخدرات ، الأمر الذي يعود بأضراره لا على نفسيهما فحسب بل على جميع المجتمع ، لكن يا ترى من كان السباق والناثر للبذرة الأولى لهذا الشذوذ وهذا الظلم؟ لا أحد غير الأبوين.

اعتبروا

قبل مدة جاء شخص محترم لمكتبنا لغرض دفع ما عليه من واجبات مالية ، فقضى الموظفون حاجته وأدى ما عليه ، ثم رحل.

بعد فترة من الزمن جاء نفس الشخص مع صديق له ، وهو يحمل معه الكثير من الهم والغم ، ورأيته يبكي ، فسألته عن سبب بكائه؟ فأجابني : أنَّ إطفالي صادروا جميع ما جمعت من المال خلال السنوات الماضية من عمري ، وقد طردوني من البيت ، وأنا الآن أنام في كل ليلة في بيت

من بيوت المعرف. ثم أشار إلى صديقه وقال : إنّ الطريق الذي سلكه صديقي كان طریقاً صحيحاً ، فهو سعى منذ البداية في تربية أولاده وتعاليمهم والاحكام الإسلامية وأرشادهم منذ الصغر إلى المساجد والحسينيات ، وأولاده حالياً كالعصي بيد والديهم يحترمونهما ويؤدون واجباتهم تجاههما ، إلاّ اني أحطأت منذ أن فکرت في إرسالهم للخارج وتعليمهم العلوم من دون الاتكاث بهما قد يسيء ذلك إلى تربتهم. حالياً عند ما رجعوا إلينا وجدناهم لا يفكرون إلاّ بأنفسهم ومصالحهم المادية ، فلا يهتمون بشيء غير المال **﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** ^(١)

إنّ لطف الله ورحمته على العباد مثل الغيث الذي يهطل على الأرضي ، ففي بعضها تنبت الزهور والنباتات ، وفي بعضها الآخر تبت الأدغال ، والأشكال ليس في المطر بل في ذات الأرض. كما أنه لا اشكال في أنوار المداية الإلهية ، بل الاشكال في قلوب الناس. وعلى هذا ، فإنّ الفلسفة الأخرى لهذه الابتلاءات هي أنها ردود فعل لأفعالنا نحن. بالطبع هناك فلسفات أخرى لهذه الظواهر ، نحن نكتفي هنا بالموردين السابقين.

(١) جاءت آيات كثيرة بهذا المضمون ، منها الآية ٥٧ من سورة البقرة ، والآية ١١٧ من سورة آل عمران والآية ٩ و ١٦ و ١٦٢ و ١٧٧ من سورة الأعراف ، والآية ٧٠ من سورة التوبه والآية ٤٤ من سورة يونس.

المثل الثاني عشر :

الكفر والإيمان

يشير الله تعالى إلى هذا المثل في الآية ١٢ من سورة الأنعام ، حيث يقول :

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثُلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تصوير البحث

في الآية مثلان كلاهما عن الكفر والإيمان. شبه القرآن الإيمان في المثل الأول بالحياة ، والكفر بالموت. وفي المثل الثاني شبه الله الإيمان بالنور والكفر بالظلمات.

شأن نزول الآية

ذكر شأنان لنزول الآية :

١ . نزلت الآية في حمزة العم الجليل لرسول الله ﷺ وفي أبي جهل العدو اللدود للرسول ﷺ .

إن حمزة لم يؤمن في صدر الإسلام ، وقد يكون ذلك تانياً منه لدراسة الدين الجديد بشكل أفضل ، فهو في صدر الإسلام سلك سبيل السكوت تجاه الدعوة. أما أبو جهل فكان يؤذى الرسول دائماً بشكل آخر وكان يضع أمام الرسول العقبات لأجل إيذائه. في يوم كان حمزة قد ذهب للصيد ، وفي نفس اليوم كان أبو جهل قد آذى الرسول بشدة بحيث تأثر من جراء ذلك

حتى عبدة الأصنام ، وقد وصل خبر إيذاء الرسول ﷺ لحمزة بعد أن قدم من الصيد ، فذهب إلى أبي جهل وضربه على أنفه بحيث رعف أنفه دماً ، ورغم ما كان لأبي جهل من قوم وأنصار ، إلا أنه هاب حمزة ، ولم يصدر منه أي رد فعل ، وفي هذه الائتاء استسلم حمزة .

إن الآية نزلت هنا ، وكأنها تريد القول : إنَّ حمزة حبي عند ما أسلم ، وبذلك تنور قلبه ، عكس ما كان عليه أبو جهل في تورطه بالظلمات ، وأنَّ تعصبه وجّه حال دون الخروج منها.

الكفار يعتقدون بصحبة أعمالهم ورفعة شأنها رغم أنهم يزدادون كل يوم غطساً في طين الشقاء والكفر. ^(١)

٢ . الشأن الآخر هو أنَّها نزلت في عمّار بن ياسر وأبي جهل. إن عمّار من الشباب الشجعان ومن أوائل الذين أسلموا ونوروا قلوبهم بالإيمان ، فهو من أنصار رسول الله ﷺ ، وأصبح نصيراً للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة الرسول ﷺ ، وقد استشهد في صفين. ^(٢)

عند ما أسلم هذا الشاب ذمّه المشركون ، منهم أبو جهل ، وقد تعرض آنذاك لأنواع من العذاب. ومن هنا قيل : إنَّ الآية نزلت في إيمان عمّار وكفر أبي جهل ، باعتبار أنَّ عمّار قبل الإسلام كان ميناً وحيّ بعد الإسلام وتنور قلبه به ، أما أبو جهل فظل في وادي الظلمات باصراره على الكفر وجّه في ذلك ، ولا أمل له في النجاح والسعادة ؛ لأنَّه كان يعتبر أعماله القبيحة حسنة. ^(٣)

ما هي الحياة؟

لأن نستوعب بعمق المثل الأول علينا أن نفهم معنى الحياة. رغم أن آثار الحياة نجدها في كل مكان ، ورغم أنَّه يمكننا أن نميز الحياة عن الممات ، إلا أنَّ تعريف الحياة وإدراك حقيقتها أمر مشكل ، وقد لا يوجد شخص استطاع إبداء تعريف جامع لحقيقة الحياة.

(١) انظر تفسير الأمثل ٤ : ٤٠٣ . ٤٠١ .

(٢) إنَّ قتل عمّار أوجد ضجة في معسكر معاوية ، وذلك لأنَّ الرسول ﷺ كان قد قال له : ((قتلك الفئة الباغية)) إثر ذلك كاد أن يرتد الكثير من معسكر معاوية ، إلا أنَّ معاوية أنقذ نفسه بالقول بأن قاتله هو من دعاه أو جاء به للقتال.

(٣) انظر تفسير الأمثل ٤ : ٤٠١ . ٤٠٣ .

يعتقد العلماء أنّه لا يمكن أن يولد الحي من الميت. ورغم ما انجراه العلماء من صناعات مدهشة كالكمبيوتر والطاقة الذرية و... إلا أنهم ما استطاعوا أن يخلقوا موجوداً حياً من موجود ميت.

اعتبر القرآن قبل ١٤٠٠ سنة الإنسان عاجزاً، حيث قال في الآية ٧٣ من سورة الحج : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَا اجْتَمَعُوا لَهُ﴾. وفي هذا العصر المليء بالاحتزارات ، يعجز الإنسان عن إدعاء الخلق فضلاً عن الخلق نفسه.

من المبادئ التجريبية المسلمة هي أنّ الحي لا يمكن خلقه من الميت ، وظنُّ بعض العوام أن الرطوبة تخلق بعض الموجودات الحية فذلك ظن باطل ، كما أنّه لا يتصور أن التفاحة بنفسها توجد الدودة التي في داخلها ، بل ينبغي أن يكون في داخل التفاحة بيبة الدودة لكي توجد الدودة ، فلا الحيوان يوجد النبات ولا النبات يوجد الحيوان.

سؤال : في اليوم الذي انفصلت الأرض عن الشمس لم يكن موجود حتى على الكرة الأرضية ، لكن الموجودات الحية وجدت بعد ذلك. ألم يكن ذلك بسبب أنّ الموجودات الحية تخلق من الموجودات الجامدة؟

الجواب : نعم كانت هناك ظروف معقدة خاصة خلقت الجمادات الموجودات الحية ، لكن هذه الظروف غير متوفّرة بالفعل ، كما لا يمكن للإنسان أن يوافر تلك الظروف. وعلى هذا ، فإنّ الحياة أتعجب ظاهرة في عالم الوجود. والأعجب من ذلك هو خالق الحياة ، فرغم تحقيق دراسة الملايين من العلماء ، ما أستطاع أحد منهم كشف هذا السر ومعرفة سر الخلق! ولهذا كانت قضية الحياة من أهم أدلة وبراهين معرفة الله.

أقسام الحياة

إن الحياة على ثلاثة أقسام :

١ . الحياة النباتية ، وعلاماتها أشياء ثلاثة :

الف . النمو . باء . التغذية. جيم . التناسل.

٢ . الحياة الحيوانية ، وهي حياة تضم علامتين ، هما : الحس والحركة.

٣ . الحياة الإنسانية ، وهي تحضى . أضافة إلى الخصائص السابقة المذكورة في الحياة النباتية والحيوانية . بخصائص من قبيل العلم والمعرفة والإيمان والأخلاق والحب والارادة . وإذا فقدت الحياة الإنسانية الخصائص الثلاث الاخيرة تبدلت إلى حياة حيوانية . ولذا ، اعتبر القرآن الجيد غير المسلمين موتى ؛ لأنَّه ينظر إلى حياتهم من الزاوية الدينية الإسلامية .

المراد من الحياة في آية المثل

لا شك في أنَّ المراد من الحياة في الآية الشريفة هو الحياة الإنسانية ، أي أنَّ حمزة أو عمار أو أي شخص آخر يحيى إذا ما أسلم ، فتظهر فيه علامات الحياة الإنسانية ، أي العلم والمعرفة والأخلاق والإيمان والحب والارادة . ومن هنا كان امثال عمار وحمزة والشهداء في سبيل الله أحياء ^(١) أمّا أمثال أبي جهل فأموات غير أحياء . ^(٢)

لماذا عُدَّ عرب الجاهلية أمواتاً؟

يبحث الإمام علي عليه السلام هذا الأمر في الخطبة رقم ٢٦ من نهج البلاغة ويقول : «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَذِيرًا لِّلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ...» ثم يذكر عشر خصال لعرب الجاهلية .

١ . «وَأَنْتُمْ مَعْشِرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ» فإنَّ عبادة الأصنام هي أسوأ خرافات ، كيف يمكن للإنسان أن ينحت صنماً ثم يسجد ويرکع إليه ويناجيه ويطلب منه الطلبات؟ والأسوأ من ذلك كله هو أنَّه يضحي بولده لهذه الأصنام ، وعند الجحود يأكل أصنامه التي صنعها من التمر .

٢ . «وَفِي شَرِّ دَارٍ» فهم كانوا في دارٍ لم يحكمها السلام أبداً ، فنار الحرب كانت مستعرة دائماً ، وكانوا يصررون على النزاع والمحاصمة ويورثون الأحقاد لأولادهم ، وكان الموت مصير من لم يستطع الانتقام من خصمه ، وكانوا يوصون أولادهم بالانتقام .

٣ و ٤ . «مُنِيخُونَ بَيْنَ حَجَارٍ خُشِنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٌّ» أي كانوا فقراء يعيشون بين

الاحجار

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

(٢) سورة النحل الآية ٢١ .

الصلبة والخشنة والحيات الخطرة التي كانت صماء لا تسمع ، «فكان الأرض فراشكم والسماء غطاءكم».

٥ . «تشربون الكدر» أي ما كانوا يشربون ماءً زلاً بل ما ذهبت كان وسحاً دائماً.

٦ . «وتأكلون الجثب» أي مأكلوا لهم ما كانت لذيدة بل متواضعة ولا تلذ.

٧ . «وتسفكون دماءكم» فان عدم الأمان والأمان كان هو الحاكم آنذاك.

٨ . «وتقطعون الأرحام» فما كانوا يرحمون أولادهم فضلاً عن غيرهم ، إنّ وأد البنات كان من عاداتهم.

٩ . «الأصنام فيكم منصوبة» أي أئمّها كانت منصوبة للاحترام والتجليل والعبادة ...

١٠ . «والآثام بكم معصوبة» أي كانوا قد غرقوا في وحل الذنوب والعصيان.

من مقال الإمام يستفاد أن الفقر كان هو السائد ، سواء كان معناه الديني أو الثقافي أو السياسي أو الاقتصادي أو الأمني ... فبعث الله في هذا الوسط . الذي كان ميتاً بكمال معنى الكلمة . رسولًا مع باقة من العلم والمعرفة.

عندما التقى عرب الجاهلية ومسلمو صدر الإسلام مع العلم والمعرفة وما مرّ زمن طويل حتى تزعموا عالم العلم ، ووفرّوا الأرضية للحركة العلمية في أوروبا . وخلال أربعة أو خمسة قرون استطاع المسلمون أن يرشدوا الأوروبيين نحو العلم . ورغم أنّ المسلمين تزعموا العلم وكانوا رواد الحركة العلمية في العالم ، إلا أنّهم تخلفوا حالياً عن عجلة الصناعة والتكنولوجيا ، وهم يمدون أيديهم الآن إلى الدول الأوروبية لارسال خبراء ومستشارين رغم ما يترك هذا الأمر من مضار أخلاقية واجتماعية ودينية.

وعلى العلماء في الوقت الحاضر أن يشدو الشباب بماضيهم المنير وأن يعرّفوا هذا الجيل بما أقرّ به الأوروبيون لل المسلمين من علوم وابتكارات علمية قبل النهضة الأوروبية ... وبتدريسهـم هذه المطالب في الجامعات والماـركـزـ العـلـمـيـة سوف يحرّضون الشـبابـ نحو النـشـاطـ الـأـكـبـرـ وـالـأـكـثـرـ فـاعـلـيـةـ.

آثار النور وبركاته

لقد شُبِّهَ الإيمان في المثل الثاني بالنور ، والكفر بالظلمات. ولأجل اتضاح عظمة النور من المناسب ان نشير إلى آثاره المادية وبركاته هنا :

النور هو ألطاف موجود وأسرعه في عالم المادة ؛ فإن سرعته في الثانية ٣٠٠ / ٣٠٠ كيلو متر ، وبعبارة أخرى : النور يستطيع أن يطوي الأرض سبع مرات ونصف المرة في الثانية الواحدة ، لأن قطر الأرض في خط الاستواء هو ٤٠ الف كيلو متر ، وإذا قسمنا ٣٠٠ على ٣٠٠ / ٤٠ فان الناتج سيكون سبعة ونصف.

إن بركات عالم المادة جميعها من النور ، وذلك لأن بواسطته تُقتل الميكروبات المضرة و تعالج بعض الامراض ، وببركته يدفع الجو ، وببركته تنور الأرض ، وببركته تنزل نعمة المطر الالهية.

في الإسلام والإيمان إضاءة كما في النور. إن حمزة وعمار كانوا أمواتاً قبل الإسلام ، كما هو حال عرب الجاهلية أجمع ، ثم تنوروا بعد إيمانهم ، وأحيا هذا النور وجودهم وقلوبهم ، وقد سلكوا طريق الحق والحقيقة بواسطة هذا النور ، وطبعي أن يختلف صاحب هذا النور عن من لا يمتلكه.

نور الفرقان

الآية التالية (٢٩ من سورة الأنفال) من الآيات ذات المحتوى والمعنى العميق التي نزلت

في هذا المجال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَسْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾

الفرقان لغويًّا يعني ما يميز به الحق عن الباطل. والآية تعني أن الإنسان إذا انقى الله ، فالله يلقي في قلبه نوراً يستطيع الإنسان من خلاله أن يميز الحق عن الباطل. ولهذا قد يحصل أن يكون بين الناس العوام اشخاص يحملون هذا النور ويعلمون الواقع الأمر رغم اكتناف الواقع بملابسات وغموض بحيث يعلمون بالمنشأ والأهداف. إن أصحاب هذا النور لا يقعون في فخ الشيطان ولا يكونون آلة بيده ، كما لا يتورطون بشباك المحتالين ؛ وذلك لأن نور الفرقان يكشف لهم عمما غمض ويهديهم إلى الصواب ، لذا قال رسول الله

عليه السلام : « المؤمن ينظر بنور الله ». (١)

(١) بخار الأنوار ٦٤ : ٧٥.

التقوى ثمرة الصوم والفرقان ثمرة التقوى

شهر رمضان شهر التقوى والنور ، والإنسان يحصل بالصوم على تقوى أكثر إلى مستوى تتجذر فيه نبتة التقوى (لعلكم تتقوون). وعليه ، فالتقوى ثمرة الصوم و نتيجته ، وعلى أساس الآية الشريفة ، إنَّ الفرقان هو ثمرة التقوى.

ومن المناسب في هذه الليالي والأيام المباركة وبخاصة عند الاسحار أنْ نرفع أيدينا إلى السماء خشية وتضرعاً سائلين الله التقوى والفرقان (اللهم آمين).

الأعمال القبيحة تبدو حسنة في نظر الكفار

يقول الله في نهاية الآية الشريفة : ﴿رَبَّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ؛ وذلك لأنَّ حب الذات والمهوى والأنانية والغرور يجعل الإنسان في غفلة عن أعماله القبيحة وتتنزّن له الأعمال القبيحة ، بحيث تبدو جميلة وحسنة.

المثل الثالث عشر :

شرح الصدر

يقول الله تعالى في المثل الثالث عشر من أمثال القرآن في الآية ١٢٥ من سورة الأنعام :

﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاوَاتِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

تصوير البحث

إنَّ الآية الشريفة في صدد بيان الأرضيات الروحية للناس لقبول الحق. والمستفاد من هذه الآية ، أنَّ الناس يختلفون من هذه الحيشية ، فبعض من الناس بمجرد أن يواجه الإسلام يتلقاه ويختضنه ؛ وذلك لطهارة روحه ونورانية قلبه ، ولأجل ذلك يشرح الله صدوره. وفي قبال هذا البعض ، هناك البعض الذي لا يتأثر بالقرآن حتى لو قرأته كله عليه ؛ وذلك لأنَّه يفقد الأرضية الالزمة لقبول الحق ، فيجعل الله صدر هذا ضيقاً ومظلماً.

الشرح والتفسير

﴿فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ والعبارة الأخرى لشرح الصدر هي توسيعه بحيث يجعله مؤهلاً وقابلًا لاستقطاب الحق والحقيقة.

﴿وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ والعبارة الأخرى لضيق الصدر هي سلب القدرة والطاقة عن القلب بحيث يختل توازنه الفكري لأصغر مشكلة وأنفها.

﴿كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ...﴾ أي أنَّ ضيق الصدر يصل إلى مستوى وكأنه يحلق إلى السماء بدون وسيلة ، كما أنَّ تحليقاً من هذا النوع محال بالنسبة إلى الإنسان ، كذلك تحمل الضيق والظلمة بالنسبة لهؤلاء ، فهم لا يطيقون ذلك. إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ هَكُذا ظُلْمَةً وَكُفْرًا فِي قُلُوبِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ.

خطابات الآية

١ . الهدایة والضلال بيد الله

إنَّ المفهوم الذي يتطابق مع ظاهر الآية هو أنَّ الهدایة والضلال بيد الله ، وهذا لا يعني إِلَّا الجبر. ففي هذه الحالة يُعدُّ الإِسْلَامُ وَالْكُفَّارُ أَمْرَيْنِ غَيْرِ اخْتِيَارَيْنِ ، لكنَّ قبولَ هذَا حَسْبَ عَقِيدَتِنَا . يَتَنَافَى مَعَ عَدْلَةِ اللَّهِ .

ومن هنا كان علينا أن نقدم مقدمة نوضح فيها الأمر :

من الفرق الإسلامية . التي لا تنہل من المنبع الزلال للولاية والامامة . فرقه تقول بالجبر وتعتقد أنَّ الإنسان مسلوب الإختيار. إِنَّ الإِعْتِقَادَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ . الْمُخَالِفُ لِمَذْهَبِ الشِّیعَةِ . يتساوى مع انكار اصول الدين الخمسة.

إنَّ أَوَّلَ أَصْلٍ يَغْضُبُ النَّظَرُ عَنْهُ هَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ أَصْلُ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ تُحِبِّرًا عَلَى أَعْمَالِهِ فَعِذَابُ الْكَافِرِ وَثَوَابُ الْمُؤْمِنِ لَيْسَا مِنَ الْعَدْلِ ؛ لَأَنَّهُ لَا الْكَافِرُ اخْتَارَ الْكُفَّارَ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ اخْتَارَ الْإِيمَانَ . وَهَذَا لَمْ يَقُلْ بِعَدْلِ اللَّهِ مَنْ قَالَ بِالْجُنُبِ .

إِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْأَصْلُ الثَّانِيُّ الَّذِي يَنْفِي بِالاعْتِقَادِ بِالْجُنُبِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَادِلًاً فَهُوَ لِيُسَأَّلُ لَادَارَةً وَتَدْبِيرَ هَذَا الْعَالَمِ الْوَاسِعِ الَّذِي يُدَارُ عَلَى أَسَاسِ النَّظَمِ وَالْحَكْمَةِ . مِنْ هَنَا كَانَ إِرْسَالُ الرَّسُولِ وَبَعْثَةُ الْأَنْبِيَاءِ خَالِيًّا مِنْ أَيِّ مَعْنَى وَتَبْرِيرٍ ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا قَدْرَةَ لَهُمْ عَلَى هَدَايَةِ الْكُفَّارِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مُسَلَّوْبُو الإِخْتِيَارِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَى إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الْجُنُبَ يَحُولُ دُونَ اخْرَافِهِمْ ، وَبِعَبَارَةٍ أُخْرَى : أَنَّ الْأَوَّلَ مَحَالٌ ، وَالثَّانِي تَحْصِيلٌ حَاصِلٌ ، وَكَلَّاهُمَا غَيْرُ مُمْكِنَيْنِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ فَلَسْفِيَّةٍ .

الإماماة . التي هي استمرار للنبوة . تبطل للسبب السابق . وآخر أصل يبطل بالجبر هو

أصل المعاد ؛ فإنَّ المعاد يبْتَدِئُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ . وَعَلَيْهِ ، إِذَا كَانَ النَّاسُ جَمِيعَهُمْ مُجْبُرِينَ وَمُسْلُوبِيِ الْإِخْتِيَارِ فَإِنَّ الْجَزَاءَ وَالْجَنَّةَ وَجَهَنَّمُ وَالْقِيَامَةُ وَالْمَعَادُ كُلُّهُ تَكُونُ مَفَاهِيمُ دُونِ مَعَانٍ .

وَفِي النِّهايَةِ ، لَا يَكُنُّنَا أَنْ نَكُونُ مُسْلِمِينَ بِالاعْتِقَادِ بِالْجَبَرِ ، كَمَا لَا يَكُنُّنَا عَلَى أَسَاسِهِ قَبْولُ أَصْوَلِ الدِّينِ^(١) وَلَهُذَا عَلَى الشِّعْيَةِ أَنْ تَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَوْقُعُهَا . بِيرْكَةُ الائِمَّةِ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . فِي وَادِي الْجَبَرِ الظَّلِيمِ ، كَمَا لَمْ يَتَرَكْهَا تَتَسَبِّبُ فِي صَحَّرَاءِ التَّفَوِيقِ الظَّلِيمَةِ ، بَلْ سَلَكَ اللَّهُ بِالشِّعْيَةِ طَرِيقًا بَيْنَ الْمُذَهِّبِينَ الْمُنْحَرِفِينَ ، وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ وَالواضِحِ .

إِنَّ مَا تَدَلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ هُوَ : أَنَّ الْخَطْوَةَ الْأُولَى لِلْهُدَى وَالْإِلْهَى يَخْطُوْهَا إِنْسَانٌ نَفْسُهُ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْخَطْوَةُ بِاتِّجَاهِ الْهُدَى ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مَشْمُولًا لِلْهُدَى الرِّبَانِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْخَطْوَةُ بِاتِّجَاهِ الْإِلْهَى فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مَشْمُولًا لِلْإِلْهَى الرِّبَانِيَّةِ . سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ . مَثَلًاً . تَحْرُكُ مِنْ إِيَّارَنَ وَخُطْبَى بِاتِّجَاهِ مَنْبَعِ الْمَهْدِى ، وَتَحْمِلُ فِي هَذَا السَّبِيلِ الْمَشَاكِلَ إِلَى مَسْتَوِيِّ أَنَّهُ أَحَدُ رَقَّا ، لَكِنْ باعتِبَارِ أَنَّ خَطَّاهُ الْأُولَى كَانَتْ بِاتِّجَاهِ الْهُدَى ، شَمَلَتْهُ هُدَايَةُ اللَّهِ وَشَرَحُ اللَّهِ صَدْرُهُ وَنَالَ مَا نَالَ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ .

أَمَا أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهْبٍ فَرَغُمُ أَكْهَمَا كَانَا بِجَنْبِ مَنْبَعِ الْمَهْدِى ، إِلَّا أَنَّ حَطَاطَاهُمَا الْأُولَى كَانَتْ بِاتِّجَاهِ الْعَنَادِ وَالْعَدَاوَةِ ، أَيِّ اخْتِارَ طَرِيقَ الْإِلْهَى تَبَعًا لِلشَّيْطَانِ وَأَغْلَقَا أَعْيُنَهُمَا وَأَسْمَاعَهُمَا لِلْحِيلَوَةِ دُونَ رَؤْيَا أوْ سَمَاعِ الْحَقِّ وَنَدَاءِهِ ، لَذَا شَمَلَتْهُمَا ضَلَالَةُ اللَّهِ وَضَيْقُ اللَّهِ صَدُورُهُمَا وَأَظْلَمُهُمَا .

وَعَلَى هَذَا ، فَإِنَّ الْهُدَى وَالْإِلْهَى نَتْرِيْجَةٌ لَخَطْيِ إِنْسَانِ الْأُولَى ، وَالْآيَةُ الشَّرِيفَةُ كَعِيرَهَا مِنَ الْآيَاتِ لَا تَتَنَافَى مَعَ اخْتِيَارِ إِنْسَانٍ .^(٢)

٢ . الْأَعْجَازُ الْعُلْمِيُّ لِلْقُرْآنِ فِي آيَةِ الْمَثَلِ

رَغْمُ أَنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَعْتَبِرُونَ جَمْلَةَ ﴿كَانَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كَنَاءَةً عَنِ الْأَمْرِ الْحَالِ

وَغَيْرِ

(١) هُنَاكَ عَوَامِلٌ كَثِيرَةٌ أَدَتْ لِلْإِعْتِقَادِ بِالْجَبَرِ ، لِلْمُزِيدِ راجِعٌ كِتَابَنَا خَمْسِينَ درْسًا فِي أَصْوَلِ الْعَقَائِدِ ، بِالْفَارَسِيَّةِ الصَّفَحةُ ١١٨ فَمَا بَعْدَهَا .

(٢) لِلْمُزِيدِ راجِعٌ كِتَابَ خَمْسِينَ درْسًا عَقَائِدِيًّا ، الصَّفَحةُ ١٣٧ فَمَا بَعْدَهَا .

الممكن ، إلّا أَنَّه باعتبار التقدّم الملحوظ في العلوم البشرية وامكانيّة الوصول إلى الفضاء ، يمكن ذكر تفسير آخر لهذه الجملة يكشف عن إعجاز علمي للقرآن المجيد .^(١)

يحيط الكرة الأرضية وإلى ارتفاع ٣٠ كيلومترًا مقدار من غاز الاوكسجين ، والذين يفيدون من هذا الاوكسجين من الموجودات الحية يفيدون من المقدار الموجود إلى ارتفاع كيلومترات محدودة ، اما الموجود في الفضاء المرتفع فالإفاده منه صعب للغاية ، بحيث بالنسبة للإنسان كلّما ارتفع عن سطح الأرض كلّما صعب عليه التنفس وضاق.

ولأجل ذلك قد يبتلي متسلقو الجبال بمشاكل عسر التنفس إذا ما تسلقوا جبالاً عالية ، أي بلغوا مستوى يصعب بعده جذب الاوكسجين في البدن ، الأمر الذي قد يؤدي بهم إلى الغيوبة ، والموت بعضاً ما.

ولنفس السبب تجهر الطائرات بمعدات لتنظيم مقدار الاوكسجين في الطائرة عند التحلق في أماكن مرتفعة ، وإذا احتل عمل أجهزة الهواء في الطائرة يضطر المسافرون للبس الأقنعة الخاصة التي تمدهم بالاوكسجين والتي أعدت للحظات من هذا القبيل ، وإذا تعسر الإفاده من ذلك تضطر الطائرة للتخلق في ارتفاعات أدنى للحفاظ على حياة المسافرين.

في الوقت الذي نزلت فيه الآية لم يكن الإنسان على علم بهذه القضية العلمية إلّا أنَّ القرآن المجيد في ذلك الزمان (١٤٠٠ سنة قبل) كشف عن هذا اللغز العلمي وقال بعدم امكان الإفاده من الهواء في الفضاءات المرتفعة ، وشبَّه الضالين بأولئك الذين يريدون التنفس في تلك الفضاءات.

٣ . شرح الصدر

عند ما بلغ النبي موسى عليه السلام مقام النبوة ، طلب من الله عدّة أشياء ، منها : شرح الصدر حيث جاء : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ... ﴾^(٢)

(١) إنَّ اعجاز القرآن ذات وجوه مختلفة منها الاعجاز العلمي ، للمزيد راجع تفسير نفحات القرآن ٨ : ١٢١ .

. ١٦٧

(٢) طه : ٢٥

نال الرسول ﷺ هذه النعمة الإلهية العظمى دون أن يطلبها من الله : ﴿أَلَمْ نَشُرِّحْ﴾

لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

ما معنى شرح الصدر باتضاع؟

لا يعني الصدر ذلك القسم العلوى من البدن ، بل يعني الروح والفكر. وعلى هذا ، فشرح الصدر يعني الروح المنفتحة والفكر المنفتح ، أي منشرح الصدر هو صاحب الفكر العميق والصبر والتأني الفكري والروحي بحيث لا يتزلزل أمام أبسط الحوادث أو أشدتها. ولهذا كان شرح الصدر أحد أهم مستلزمات الترقى والتعالى نحو الله تعالى.

الرسول ﷺ وجاره اليهودي

كان للرسول ﷺ جار يهودي يلقى فضلات بيته وجر ناره على الرسول عند مروره من بيته ، وكان يمارس هذا العمل يومياً ، وفي يوم مرّ الرسول من بيت اليهودي ولم يواجه الظاهرة اليومية التي كانت تصدر من اليهودي ، فسأل الرسول أصحابه؟ فأجابوه بأنه مريض ، فذهب الرسول لعيادته ، وطرق الباب وكانت إمرأته خلف الباب فسألته عما يريده فأجابها أن المدف هو العيادة ففتحت له الباب ، وكان سلام الرسول ﷺ وتحياته لليهودي تبدو وكأنَّ اليهودي لم يكن من المؤذنين للرسول يومياً.

عند ما شاهد اليهودي هذه المعاملة من الرسول سأله عما إذا كانت هذه الأخلاق من صلب الدين الذي يدعوه له؟ فأجابه بالإيجاب.

ونجد الكثير من هذه النماذج في سيرة الرسل والأئمة وعلماء الدين.

على سبيل المثال ، كتب شخص في شيراز رسالة إلى أحد علماء تلك المدينة يهجره ويشهّر به فيها ، فبرى العالم ذلك الشخص الكاتب في الغد ويقول له : (لقد رميت الرسالة التي كتبتها لي ^(٢) يبدو أنك تعاني من مشكلة مالية ، فخذ هذا المبلغ لعلَّ مشاكلك تُحل .
به).

(١) سورة الشرح الآية ١ . وقد جاء نفس المضمون في الآية ١٠٦ من سورة النحل وكذا الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) كان في كلامه توربة ، لأنَّه رماها خلف الكتاب بعد أن قرأها ، أما الكاتب فتصوَّر أنه لم يقرأها.

ففرح كاتب الرسالة وكان يقول مع نفسه (كان خيراً أن السيد لم يقرأ رسالتي). على المسلم أن يتأنّى بالرسول ﷺ وأن يشرح صدره ويوسع فيه ، وأن تكون همته أرفع من أن يتنازل ويضعف أمام المشاكل ؛ بل عليه أن يتحمّل ولا يكفر بالنعيم لكل مشكلة يواجهها ولو كانت صغيرة ، وما عليه أن يحقد ويسعى للإنتقام . إلهي ببركة هذا الشهر (رمضان) اشرح صدورنا ووفقنا جميعاً لتحمل ما لا نستسيغه .

المثل الرابع عشر :

المبدأ والمعاد

يقول الله تعالى في المثل الرابع عشر من امثال القرآن الجميلة في الآية ٥٧ من سورة

الأعراف :

**﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ
لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرُجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**

تصوير البحث

جاءتنا الآية بخطابين مصيريَن ، هما صدر الآية الذي تضمن التوحيد ومعرفة الخالق وبرهان مقنع على المبدأ ، وذيل الآية الذي تضمن مثلاً جميلاً أشار به إلى عالم الآخرة والمعاد.

أهمية المبدأ والمعاد

إن المبدأ والمعاد من المسائل المهمة جداً والتي طرحت في القرآن بشكل واسع بحيث اختص ما يقرب الألفين من الآيات (أي ثلثا القرآن) بالمعاد ، كما أن ثلث الآيات اختصت موضوع المبدأ . وهذا الأمر يكشف عن أهمية المبدأ والمعاد.

إن القضايا التي تناولتها الآيات هي من قبيل العدل الإلهي والجنة والنار ، ودفتر الاعمال وبختسم الأعمال والمعاد الجسماني وثار الجنة وغير ذلك . وسر الاهتمام البالغ بالمعاد واضح ، من حيث أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يقع في طريق السعادة ولا يمكنه أن يخطو في هذا الطريق إلا أنْ

يكون معتقداً بالأصلين المهمين ، الأول : هو المبدأ أو التوحيد والثاني : هو المعاد أو رجوع الإنسان إلى الله.

إن الإعتقاد بالله يعلم الإنسان أنَّ الله يراقبه في كل زمان ومكان ﴿وَهُوَ مَعْلُومٌ أَيْمَنًا كُنْتُمْ﴾^(١) والاعتقاد بالمعاد يعلم الإنسان أنَّ الله لا يخفى عليه شيء وهو عالم بأعمال الإنسان جميعاً ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢) ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.^(٣) وحسب ما جاء في الآيات ، يدرس سجل الإنسان يوم القيمة في محكمة العدل الإلهي ، وهي محكمة لا يمكن إغواء القاضي فيها كما لا يمكن انكار شهودها ، فقد جاء في الآية الشريفة :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٤) ، كما جاء في الآية الشريفة التالية : ﴿لَا يُعَادُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْهَا﴾^(٥) فالإنسان مسؤول على جميع أعماله ولو كانت صغيرة جداً.

إن الإلتفات إلى الأصلين يجعلان من الإنسان أن يعتبر الله ناظراً على أعماله ، الأمر الذي يحول دون ارتكابه المعصية. كما أنَّ الغفلة عن ذلك يترك للشيطان فحوة ينفذ من خلالها ، كما قالت ذلك الآية الكريمة : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِيبٌ﴾^(٦)

المعاد الجسماني والمعاد الروحاني

المعاد من وجهة نظر القرآن جسماني وروحاني ، أي أنَّ جسم الإنسان يخشى يوم القيمة كما تخشى روحه. وبعبارة أخرى : أنَّ روح الإنسان تكون مشمولة لنعم الله ونقمته ، كما هو الحال بالنسبة إلى جسمه ، وذلك هو مقتضى العدل الإلهي ، فكما أنَّ الإنسان بجسمه وروحه عمل خيراً أو شراً ، ففي القيمة ينبغي أن ينال كليًّا من الروح والجسم نصيبه وجزاءه من العمل

(١) سورة الحديد الآية ٤ ، وقد تناولت الآية ٧ من سورة المجادلة نفس المضمون.

(٢) لقد جاءت هذه العبارة في آيات كثيرة من القرآن منها الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

(٣) غافر الآية ١٩.

(٤) الزمر الآية ٧ و ٨.

(٥) الكهف الآية ٤٩.

(٦) الزخرف الآية ٣٦.

الدُّنْيَويِّيِّ من ثواب أو عقاب.

إنَّ ما أثار دهشة وإعجاب منكري المعاد في صدر الإسلام هو القول بالمعاد الجسمني لا الروحاني ؛ وذلك لأنَّ عقل أكثر الناس في عيونهم فيصدقون ما يرون ويكتذبون ما لم يروا. من هنا كان يسأل منكرو المعاد : كيف يمكن أن يحيي الإنسان بعد ما تبدل إلى تراب بعد الموت بحيث يتعدَّب يوم القيمة؟ فأجابهم الله على شبهتهم هذه في الآيتين ٧ و ٨ من سورة سباء حيث قال : ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُذَلِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مُرْفَقُتُمْ كُلُّ مُمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَغَيْرِ خَلْقِ جَدِيدٍ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جَنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾^(١)

لقد تمسك القرآن المجيد بالمثل لاثبات المعاد الجسمني والروحاني ، كما هي سيرته في تفهيم المطالب لمحاطبيه. وقد أفاد هنا من ثلاثة أمثال :

- ١ . التمثيل بالنباتات وتشبيه الحياة بعد الموت بإحياء النباتات بعد موتها.
- ٢ . التمثيل بالمراحل الجنينية لخلق الإنسان حيث تبدأ حياته بنطفة صغيرة تنموا كل يوم ، ويعُدُّ كل يوم من هذه المراحل حياة جديدة لهذا الجنين.
- ٣ . التمثيل بنوم أصحاب الكهف ، فإنَّ نومهم كان بمثابة الموت ، ويقطظهم كانت بمثابة الحياة الجديدة بعد سنوات عديدة.

كيف يمكن لشخص أن يستيقظ من النوم سالماً بعد أكثر من ثلاثة سنة دون أن يأكل أو يشرب خلال هذه الفترة؟

حسب ما أفرته الآية ، إنَّ أصحاب الكهف ناموا مدة مليون يوماً ، وخلال هذه الفترة لم يتناولوا شيئاً من الطعام أو الماء رغم هذا استيقظوا سالمين ، مع أنَّ الإنسان العادي لا يستطيع العيش لأكثر من يومين أو ثلاثة دون أكل وشرب.

من عجائب خلق الإنسان هو قلبه ، فان ضرباته تصل إلى مائة الف ضربة في اليوم.

وإذا

(١) معرفة المزيد في مجال المعاد الجسمني راجع نفحات القرآن ٥ : ٢٧٢ فما بعدها.

اعتبنا عمر الإنسان العادي سبعين عاماً ، فإنّ عدد ضربات قلبه ستصل إلى ٢٥٠ مليون ضربة (عَجَباً لِحِكْمَةِ اللهِ) !

إنّ قلب الإنسان كافٍ لأجل معرفة الله ولأن يقرّ الإنسان بعظمته الخالق ويخضع له

...

وعليه ، فاذا كانت أجسام أصحاب الكهف تعيش بالأغذية التي تناولتها قبل النوم ولمدة مليون يوماً ، فإنّ على قلوبهم أن لا تدق في اليوم الواحد أكثر من مرة واحدة. وعلى هذا ، فإنّ أصحاب الكهف كانوا أشبه ما يكونون بالموتى ، أحياهم الله بعد أكثر من ثلاث مائة عام. وإذا كان الله قادراً على أن يوقظ أنساً بعد مليون يوم من النوم ، فكيف لا يمكنه أن يحيي الموتى !

لهذا يصرّح الله في ذيل آية أصحاب الكهف بالحديث التالي : ﴿وَلَيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ

الشرح والتفسير

إنّ الآية إحدى الآيات الثلاث التي شبهت المعاد بإحياء النباتات ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاخَ ...﴾ أي أنّ الله يُرسّله كبشرى لتزول الغيث ؛ وذلك لأنّ السماء تتهيأ للمطر بواسطة الرياح.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثَقَالًا ...﴾ أي تستمر الرياح حتى تجتمع الغيوم ويترافق فيها الماء. (١)

إنّ الله يُرسل الرياح ليجمع بها الغيوم المطرة في المدن والبلاد الميتة فيحييها ويحيي أراضيها.

﴿فَأَخْرِجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ ...﴾ فإنّ المطر هو الذي يشعر الأشجار وينفعها القدرة على إنتاج الفواكه.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أنّ الله يحيي الموتى يوم القيمة مثلما يحيي الأشجار والأراضي الميتة. وفي نهاية الآية يعتبر الله التذكرة وتنمية الناس هو فلسفة المثل.

(١) لقد كشف القرآن المجيد قبل ١٤٠٠ عن هذا السر العلمي ، وبين أنّ الغيوم على قسمين : مطرة وغير مطرة ، والمطرة أثقل من غير المطرة.

فواكه مختلفة من ماء وهواء وتراب واحد

كما قلنا سابقاً : إنَّ التعود من حجب المعرفة الإنسانية ، فالإنسان عند ما يتعود على شيء سوف لا يفكر في ماهيته وسبر غوره ، وهذا حجاب عظيم. ومن هنا كان إنبات النباتات المتنوعة وإثمار الأشجار المتنوعة من عجائب الطبيعة. فإنَّ هذا من مظاهر قدرة الله تعالى حيث تبنت من تراب وماء وهواء واحد ثمار وزهور متنوعة بألوان مختلفة وطعم متفاوت.

وهذا يدعى الإنسان أن لا يتعجب من إحياء الإنسان يوم القيمة. لقد خلق من هذه الأرض الواحدة أصناف عديدة من البشر منهم الصالحون والأنبياء والائمة والشهداء ، ومنهم الفجرة والوضيعون مثل الفراعنة والنماردة ومعاوية وصدام و... فكل هؤلاء مبعوثون من هذه الأرض الواحدة. إنَّ الإنسان من خلال مشاهدته لهذه الظواهر يرى لقطات من المعاد وتتكرر عنده هذه اللقطات كل يوم إلى حين الممات. والعجيب أنَّ السماء تمطر في يوم البعث ، وذلك المطر يحيي من في القبور جمِيعاً.^(١) القانون الكلي الذي يستفاد من الآية الشريفة هو أنَّ مبادئ الموت والحياة واحدة في جميع المخلوقات الحية ، فكما أنَّ هناك حياة بعد ممات في النباتات كذلك بالنسبة إلى الإنسان.

سؤال : في عالم النبات نتمكن من إعادة حياة نبات ما من خلال زرع بذوره ، أما في عالم الإنسان فالأمر مختلف من حيث أنه إذا مات يتبدل إلى تراب ، فكيف يمكن إعادةه من تراب؟

الجواب : إنَّ الحياة الثانية للنبات ليست من خلال البذور دائمًا ، بل قد تكون حياة وموت النبات شبيهة بحياة الإنسان وموته ، فقد تصفر أوراق الأشجار في الخريف وتسقط ، وبعد مدة تصبح ترباً تتصبها جذور الشجرة لترجع ورقة من جديد وهذا ما يحصل في الربيع ، وبهذا تحيي الورقة الميتة مرة أخرى رغم أنها ماتت بالكامل وتبدل إلى تراب ، فالإنسان كذلك يموت بالكامل ويُبعث مرة أخرى.

وعلى هذا ، فالإنسان يرى . كل عام . المعاد بعينه ، لكنه يغفل عن أنَّ الله القادر على إحياء النبات بعد موته قادر على إحياء الإنسان الميت.

(١) بخار الانوار ٦ : ٣٢٩ ، الحديث ١٣ وكذا ٧ : ٣٩.

آثار المعاد

إن الاعتقاد بالمعاد يعلم الإنسان الخضوع والتسليم إلى الحق ، وأن لا يظلم ولا يخون ، وهذا ما نراه منعكساً في كلام جميل ملول المتقين الإمام علي عليهما السلام في الخطبة ٢٢٤ من هجج البلاغة يخاطب به أخاه عقيل : «والله لأن أبىت على حسك السعدان^(١) مسهدأً ، أو أحرَّ في الأغلالِ مصقَدًا ، أحبَّ إلىَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيمة ظالماً لبعض العباد».

أيَّ أَنَّ المَيْتَ عَلَى أَشْوَاكِ نَبَاتِ السَّعْدَانِ أَوَ الْحَرَّ بِالْأَغْلَالِ وَالسَّلاَسِلِ فِي النَّهَارِ أَحَبُّ لِعَلِيٍّ مِّنْ أَنْ يَلَاقِيَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ ظَالِمٌ لِبَعْضِ عَبَادِ اللَّهِ.

هل من المحتمل صدور ظلم من هكذا زعيم عارف بالمبدا والمفاد ومتيقن بمحما؟! هل يتحمل صدور تمييز من حاكم كهذا؟ هل يقبل أو يتحمّل هكذا رئيس أقل خطأ من حواشيه؟!

قطعاً جواب هذه الأسئلة هو النفي ، فإن إنساناً كهذا يعتقد بيوم القيمة والمعاد يعظُّم الذنب ولو كان صغيراً ، فلا يرتكيه.

وينقل من خلال الخطبة ذاتها قصتين ذات عبرة عن أخيه عقيل والمنافق الأشعث بن قيس ، وفي القصتين آثار الاعتقاد بالمعاد واضحة وجلية.^(٢)

(١) أشواك السعدان عجيبة جداً من حيث أنها تشبه الخنجر في استحكامها وحدتها ، وهي تخرج البدن أينما أصابته.

(٢) أشرنا إلى القصتين في المباحث الماضية.

المثل الخامس عشر :

البلد الطيب

يقول الله في مثله الخامس عشر ، في الآية ٥٨ من سورة الاعراف :

﴿وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتٌ يَأْذِنُ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

تصوير البحث

إنَّ هَذِهِ الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي جَاءَتْ مُبَاشِرَةً بَعْدَ الْمَثَلِ الرَّابِعِ عَشَرَ هِيَ فِي الْوَاقِعِ اسْتِمْرَارٌ لِبَحْثِ الْمَعَادِ وَجَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مَقْدَرٍ قَدْ تَنْدَعِي مَعَانِيهِ فِي أَذْهَانِ الْبَعْضِ ، وَسَنَأْتِي بِهِ فِي الصَّفَحَاتِ الْمُقْبَلَةِ.

إشارة للمثال السابق

في المثل الرابع عشر (الآية ٥٧ من سورة الاعراف) جاء القرآن في بيان جميل ببرهان على المبدأ وأصل التوحيد ، كما استدل على المعاد وعالم الآخرة.
 إنَّ حَرْكَةَ الْرِّيَاحِ وَاجْتِمَاعَ الْغَيْوَمِ الشَّقِيلَةِ وَنَزْوَلَ الْمَطَرِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا تَحَا ، وَتَوَفَّرَ الشَّمَارُ الْمُتَنَوِّعُ وَالْأَزْهَارُ وَالنَّبَاتَاتُ وَالْأَشْجَارُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَهِيَ أَدَلَّةٌ لَوْ مَا يَكُنْ غَيْرَهَا لَكَانَتْ كَافِيَةً فِي إِثْبَاتِ الْمَرَادِ .
 إِمَّا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ آثَارَ مَوْتٍ تَبَدُّو عَلَى الْبَسْتَانِ كُلِّهِ بِحَلْوَلِ فَصْلِ الشَّتَاءِ بِحِيثُ تَصْبِحُ

الأشجار وكأنها مهتمة وجrade من الروح ، لكن بعد فترة من الزمن أي بعد حلول فصل الرياح تبدأ الحياة الجديدة تنبض في البستان ، فتخضر الأشجار وتتفتح الزهور وتنمو النباتات المختلفة وتشمر الأشجار فواكه حامضة وحلوة بألوان متنوعة بحيث تضفي طرافة على روح الإنسان.

هذه الطبيعة المدهشة دليل قاطع على وجود الله القادر المطلق ، وإذا ما فكر الإنسان بورقة خضراء فقط لكان ذلك كافياً لمعرفة الحق.

إنَّ هذه الورقة . كما يقول العلماء . إذا قصت من العرض فيبدو فيها سبع طبقات ، كل طبقة منها تحضى ببناء خاص ومهام خاصة ، إذا دققنا قليلاً نجد خطوطاً رفيعة على هذه الورقة الظرفية وكأنها تشبه تأسيسات الماء في مدينة ، وهي تتکفل بايصال الأغذية والماء إلى الأقسام المختلفة من الورقة . من الذي خلق هذه الطبقات الظرفية والجميلة؟! يا له من خالق حكيم صمَّم هذه الشبكة العظيمة والدقيقة . إنَّ الورقة وما فيها يُعدُّ كتاباً لمعرفة الخالق ملئ كان أهلاً للعلم المعرفة .

إذن ، صدر الآية يدل على التوحيد ، أما ذيلها ﴿كذلك نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ فيدل على مسألة المعاد ويرشدنا إليها .

الشرح والتفسير

كما قلنا سابقاً : إنَّ الآية الشريفة جواب لسؤال مقدر يمكن أن يتدااعي في ذهن الذي يلتفت إلى الآية السابقة ، وهو : إذا كان الماء واحداً والهواء واحداً والتربة واحداً فلما ذا تنبت الزهور والنباتات في بعض البقاع ، وتنبت الأدغال والأشواك في البعض الآخر؟ وإذا كان وابل الرحمة الإلهية يصبُّ على القلوب جميعاً بشكل متساوٍ ، فكيف أنَّ بعض القلوب تختدي وتكون مصداقاً للبلد الطيب وبعضها الآخر يكون مصداقاً للبلد الخبيث ؟ لأنها ظللت ولم تختدِ؟

إنَّ الآية في صدد الأجابة على هذا السؤال ، حيث تقول : ﴿وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتًا بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ فإنَّ التربية الطاهرة وغير الماحنة تكون مناسبة ولائقة ونخرج باذن الله نباتات مناسبة وجيدة ، كذلك القلوب المستعدة والطاهرة ينمو فيها الشمار الحلو من الاخلاق والصفاء ، ذلك كله بوحي من الله .

﴿وَالَّذِي حَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فإنَّ الأرض غير المناسبة لا تنبت إِلَّا النكد.

والنكد يعني الإنسان البخيل ، ويُطلق على النباتات غير المفيدة التي تنمو في الأراضي المالحة. فكما أنَّ البخيل لا يصل نفعه إلى غيره ، كذلك الأرضي المالحة لا يخرج منها الشيء المفيد ولا يتتفع بها أحد.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَسْكُرُونَ﴾ أي أنا نبيت آيات الله للناس بعبارات وأمثاله

بسقطة ليستفيدوا منها ويشكرروا رَحْمَم عليها. وعلى هذا ، فلا اشكال على وابل الرحمة الإلهية ولا على الوحي السماوي ؛ وذلك لأنَّ هذين الرحمتين تنزلان على القلوب كلها بشكل متساوٍ ، وإذا كان هناك قصور أو تقصير فمن نفس القلوب والأراضي ذاتها ، فإنَّ بعض الأرضي غير مستعدة وغير مؤهلة لنمو النباتات فتنمو فيها الأشواك والأدغال فحسب ، كذلك بعض القلوب فإنَّها غير مؤهلة للهدایة وترى نفسها في غنى عن الوحي الإلهي.

لِمَنْ هَذَا الْمَثَلُ؟

هناك بحث في هذا المجال بين المفسرين ، فالكثير منهم يعتقد أنَّ الآية جاءت في الكفار والمؤمنين ، أي شُبِّهَ الوحي الإلهي هنا بالغيث ، باعتباره ينزل على جميع القلوب ، لكن لا يفيد منه إِلَّا ذلك البعض الذي يكون مصداقاً للبلد الطيب ، أي يحصل بقلب طاهر ، وتكون ثمار هذه الأرضي الظاهرة هي الاخلاق الحسنة والايام القوي والشوق إلى أولياء الله ، والاخلاص في العمل ، والعمل بما تستدعيه الوظيفة و... وفي مقابل هؤلاء هم الكفار الذين قلوبهم تشبه الأرضي الملوثة التي لا تستفيد من المطر شيئاً.

خطابات الآية

١ . فاعلية الفاعل وقابلية القابل كلاهما ضروريان

إِنَّ الآية الشريفة وكذا آيات أخرى تشير إلى مطلب مهم ، وهو : ضرورة توافر شيئين

بلوغ الكمال :

الف . فاعلية الفاعل.

باء . قابلية القابل.

لأجل بلوغ الكمال والرقي ينبغي توافر العوامل كما ينبغي توفير الأرضية. وعلى هذا ، ففاعلية الفاعل (الغيث) ليس كافياً ، بل ينبغي أن يكون القابل قابلاً (استعداد الأرض وشأنها) فإن المطر لو هطل مدة مائة عام على الأرض المالحة لما أنبت هذه الأرض ولا زهرة واحدة.

إنَّ الرسول ﷺ كما دعى سلمان وأبا ذر وال المسلمين الآخرين للإسلام كذلك دعى أبي جهل وأبا هب وبباقي الكفار ، فالقلب الطاهر لسلمان أنبت الإيمان ، لكن الدعوة لم تنبت في قلوب أبي جهل وأبي هب إلَّا البخل والبغض.

٢ . مردودات القرآن والوحى على الكافر عكسية

آيات القرآن في بعض الأحيان لا أنها لا تكون هادبة فحسب ، بل قد تكون ضالة لأولئك الذين ساءت طينتهم من الكفار ، فإِنَّمَا بسماعهم للآيات يزدادون ضالة. إنَّ هذا الأمر بيته آيات من القرآن ، منها الآية ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة :

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَأْتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

سؤال : كيف يمكن للآيات القرآنية المنيرة أن تكون سبباً لضلال البعض؟

الجواب : أنَّ القرآن الحميد بمثابة المصباح الذي اذا وقع بيد أحد العلماء أفاد منه لأجل العلم والاكتشاف والاختراع والتقدّم ، وهو بذاته اذا وقع بيد لصّ أفاد منه لأجل سرقة أشياءٍ ثمينة ، وبذلك تزداد ذنبه وآثامه.

الإشكال هنا ليس من المصباح ذاته ، بل من قابلية القابل ، كذا الحال بالنسبة للغيث حيث إن تاجه يتوقف على نوعية الأرض ، فإذا كانت حيدة نبت فيها الزهور والنباتات الصالحة وإذا كانت مالحة وغير مؤهلة نبت فيها الأدغال والأشواك.

﴿فَرَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ فإنَّ الآية اذا نزلت فزعوا للمخالففة والعناد والعداوة ، لذلك لا عجب إذا قلنا : إنَّ آيات القرآن قد تسبب للضالين ضالة أكثر.

الناس ثلاثة أصناف

لإيضاح هذا المطلب (الذي يتناول قابليات الناس المختلفة) نأتي بكلام لأمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً فيه كميل بن زياد بعد ما دعاه إلى المقبرة ، وعند بلوغهما الصحراء قال الإمام له بعد أن تأوه : «يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية فخирها أو عاها».

وكمثال نقول :

إن الناس يختلفون في إفادتهم من المطر ، واحد منهم يفید من المطر بمقدار بحيرة ماء ، وذلك لسعة طرفيته والآخر يفید منه بمقدار كأسٍ صغير ، وذلك لأنّه لا يستوعب أكثر من ذلك. وقد يكون هناك شخص لا يفید من المطر أبداً ، لأنّه قد قلب إناهه على ظهره. والمثال يوضح أن الإشكال ليس من جانب الله بل من جانب الأوعية التي تُحيي للافاده من ماء المطر .. ثم يخاطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كميل قائلاً : «فاحفظ عني ما أقول لك الناس ثلاثة : فعلم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع» أي أنّ الناس ثلاثة أصناف :

- ١ . الصنف الأول هو صنف العلماء الذين طروا طريق الحق والحقيقة ويسعون لارشاد الناس وتربيتهم.

- ٢ . والثاني هم الذين يفقدون العلم لكنهم يسعون في سبيل تحصيله العلم وكسب المعرفة.

- ٣ . والثالث هم الحمقى من الناس الذين لا يعلمون ولا يسعون لأن يعلموا ولا يسألون أهل الطريق لإرشادهم إليه.

يوضح الإمام خصال الصنف الثالث في أربع :

الف . أتباع كلّ ناعق ، أي يتبعون أصحاب الرأييات المختلفة دون علم وبصيرة. باء . يميلون مع كلّ ريح ، فهم كالريح تحزّهم الدعوات المختلفة وتميلهم إلى جنبها ، ومثلهم كمثل الذين قاتلوا تحت راية الرسول في عصره ، وقاتلوا تحت راية معاوية بعد وفاته ، ولو كان الأجل يسمح لهم لقاتلوا تحت راية يزيد كذلك ؛ وذلك كله لأجل أن الريح آنذاك كان بهذا الاتجاه.

جيم . لم يستطعوا بنور العلم ، فهم المستضعفون المخربون من العلم. دال . لم يلحوظوا إلى زَكْن وثيق ، أي لا أنهم يفقدون العلم فحسب ، بل لا يعتمدون على أعمدة المحكمة. (١)

(١) نوح البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ١٤٧.

إنَّ الصنف الثالث وهم ذووا الأوعية الصغيرة أشخاص خطرون ، كما أكَّمَ مصداق للآية الشريفة ﴿وَالَّذِي خَبَثَ﴾ ، إِلَّا أَنَّ الصنف الأول والثاني مصاديق للآية الشريفة : ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾

الفاعلية اكتسابية أم جبرية؟

قابلية القابل . التي هي شرط الكمال . اكتسابيه أم جبرية؟ وبعبارة أخرى : هل أَنَّ الله خلق بعضاً بقابلية ضحمة وخلق آخرين مع قابلية ضعيفة؟ إنَّ قابلية القابل اكتسابية لا جبرية ؛ وذلك لأنَّ القول بجبريتها يعني عدم ترتيب الذنب على الشخص الذي ينبع قلبه الرياء بدل الاخلاص ، وما عليه من عقاب ، كما أَنَّه لا فائدة فيبعثة الأنبياء .

من هنا نقول : إنَّ الإنسان كَلَّما سعى لكسب التقوى والمعرفة الإلهية أكثر ، كَلَّما استعدَّ قلبه أكثر لقبول الوحي الإلهي والآيات القرآنية .

إنَّ القرآن يُؤكِّد على كون الإنسان مخلوقاً بأفضل شكل وصورة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، (١) ووفقاً لهذه الآية فإنه لا فرق في خلق الناس ، والمهدية والضلال يتوقفان على الإنسان ذاته . وحتى الشيطان لم يُخلق خبيشاً ، ولذلك كان في صفوف الملائكة وعبد الله ستة آلاف عاماً . (٢)

نعم ، إنَّ الناس يختلفون عن بعضهم البعض ، ليس بمعنى أنَّ بعضهم خلق حسناً وبعضهم الآخر خلق سيئاً ، بل في أن بعضهم خلق حسناً وبعضهم الآخر أحسن ، لذلك قال رسول الله ﷺ : «الناس معادن كمعان الذهب والفضة». (٣)

في النتيجة لم يخلق إنسان شقياً أو خبيشاً ، وقابلية القابل اكتسابية لا جبرية . إنَّ المطر يهطل شفافاً وزلاً لـ لكنه يتتسخ عند ما يلتقي بالأرض الوسخة ، لكنه يبقى نظيفاً عند ما يقع على الأرضي النظيفة ، فيبقى على فطرته وطهارته .

(١) سورة التين الآية ٤ .

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ٢٠٠٥ ، الحديث ٩٣٦٥ .

(٣) بحار الأنوار ٥٨ : ٦٥ .

إن البيئة الموبوءة والكتب المنحرفة والمفاهيم الفاسدة والأصدقاء السيئين والعائلة غير السليمة هذه كلها بمثابة الأرض الملوثة ، تلوث قلب الإنسان الطاهر وفطرته النقية.

أيُّها الشَّبابُ الْاعزَةُ! يَا أَمْلَ الْإِسْلَامِ وَالشُّورَةِ وَالوَطْنِ!

إن الله خلقكم كقطرة المطر الشفافة الطاهرة ، إسعوا للحفاظ على هذه الطهارة ،
واحدروا معاشرة صديق السوء ، لأن هذا الصديق قد يغيّر مستقبل الإنسان بالكامل.

من وجهة نظر الإسلام ، ليس أداء الذنب لوحده معصية ، بل الحضور في مجلس يرتكب فيه الذنب يُعد محرماً ومعصية. أي إذا حضر الإنسان في مجلس يعصي فيه الله فإنَّ حضوره في هذا المجلس يُعد معصية كذلك ، رغم أنه لم يفعل الذنب الذي اقترف في المجلس ، وذلك لأنَّ المحيط الملوث يؤدي إلى التللوث تدريجياً ، ويفقد الذنب آنذاك قبحه تدريجياً ، الأمر الذي قد يؤدي إلى اقتراف الذنب في المستقبل. إنَّ المتعاطين للمخدرات تعاطوها بهذا الشكل وبهذا الأسلوب.

وعلى هذا ، ينبغي السعي لأجل الحفاظ على نقاء الباطن ، وتحيئه أرض القلب وإعدادها للافاده من وابل الرحمة اقصى إفاده.

المثل السادس عشر :

العالم المنحرف

يقول الله تعالى في الآيات ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ من سورة الأعراف في مثله

السادس عشر :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَا آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا وَلَكَنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هُوَيْهُ فَمَقْعُلَةً كَمَثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَشْرِكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

تصوير البحث

الحديث في الآيات الثلاث عن العالم الذي كان في الطريق الصواب والصحيح وبلغ في هذا الطريق مقامات رفيعة ، إلا أنه تدرجياً انحرف وطرد من الساحة الربانية ، فيشيء الله هذا العالم بالكلب ليعتبر الآخرين منه.

شأن نزول الآية

هناك بحث وخلاف بين المفسرين حول المراد من هذا العالم الذي تحدث عنه الآية . وأكثر المفسرين يعتقد أنه (بلعم بن باعورا) فهو من علماء بني اسرائيل وقد نال بعبادته مقامات عليا إلى مستوى انه حصل على اسم الله الأعظم ، وأصبح مستحباب الدعوة . وعند ما بعث موسى (عليه السلام) نبياً ونال هذا المقام الشامخ ، كانت بعثته قد اثارت حسد بلعم ،

وقد كان الحسد يزداد كل يوم ، ويأكل حسناته شيئاً فشيئاً ، كما أنَّ هذا الحسد من جهة ، وحب الدنيا من جهة أخرى بلغا به إلى مستوى أن جأ إلى فرعون وبلاطه ليصبح من وعاظ السلاطين. فقد بذلك كل افتخاراته وكانت عاقبته السوء. فين القرآن قصة هذا العالم المنحرف ليكون عبرة لآخرين.

يعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم في الآيات هو (أميمة بن الصلت) فهو من الشعراء المعروفيين في عهد الجاهلية ، أسلم في البداية ، لكنه بعد ذلك شاكس وخالف ؛ حسداً للرسول ومقام نبوته.

ويعتقد مفسرون آخرون أنَّ العالم هنا هو (أبو عامر النصري) فقد كان راهباً مسيحيًا أسلم ثم التحق بركب المنافقين ، ثم سافر إلى الروم للتحالف مع سلطانه ، ثم رجع إلى المدينة والتحق بدينه بعض المنافقين ، وبنى مسجد (ضرار) المعروف.

إنَّ القول الأول هو أصح الثلاثة ، والآخران مستبعدان من حيث أنَّ صدر الآية ﴿وَاتُّلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ...﴾ قرينة على حكاية قصة تتعلق بالأقوام السالفة. ^(١)

الشرح والتفسير

﴿وَاتُّلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ يطلب الله من الرسول أن يحكى للأصحاب قصة ذاك العالم.

المراد من الآيات هو أحكام التوراة ومواعظها ، فإنَّ هذا العالم كان عالماً باحكام التوراة ومواعظها ، كما كان عاماً بها. ويعتقد البعض أنَّ المراد من الآيات هو الاسم الأعظم ، ولهذا كان بلעם بن باعورا مستحاج الدعوة وكان صاحب نفوٍ وجاه رفيع في المجتمع.

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ إنَّ مادة السلخ تعني نزع جلد الحيوان ، ولذلك قيل ملن ينزع جلد الحروف سلاحاً. إلا أنَّ كلمة (فاتبعه) لها معيان :

(١) ما لا شك فيه أنَّ الآية تعني كل شخص يحمل نفس الموصفات المذكورة في الآية ، وشأنها شأن باقي الآيات حيث نزلت في مورد خاص لكن شأنها يعم ... وبخاصة بالنسبة للآيات هذه فإنَّ هناك حديثاً للإمام يقول فيه : ((إنَّ الآية تعم جميع أهل القبلة)). للمزيد راجع الأمثل ج ٥ ذيل الآية ١٧٥.

الف . تعني تبع ولحق ، أي أنَّ الشيطان جعل العالم تبعاً له .
باء . أنَّ الفعل استخدم هنا بمعناه لو كان ثالثياً مجرداً بحيث يكون المعنى أنَّ الشيطان اتَّبع هذا العالم ، بعبارة أخرى : أنَّ سبق الشيطان في الضلال ، وتجاوزه مهارة في هذا المجال .
مثله مثل ذلك الشخص الذي كان يفعل عملاً قبيحاً جداً بطريقة جديدة وكان يلعن الشيطان دائماً على فعله هذا ، ظهر له الشيطان وقال : اللعن عليك لا عليَّ ، لأنِّي رغم مهارتي في الشيطنة ما كنت أعلم بهذه الطريقة ، بل انت الذي علمتني إياها .

وعلى هذا ، فالآية تعني أنَّ بلעם بن باعورا خُلِّي من آيات الله ، وانسلخت هذه الآيات عنه رغم أنَّه كان يحيط بها جميعاً ، لكنها انسلخت واتَّبع الشيطان ، أو أنَّ الشيطان اتَّبعه ، وكانت عاقبته الشر والشقاء فكان في عداد الأشقياء والضالين .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي أنا لو أردنا إجباره على البقاء على الحق لفعلنا لكننا تركناه لنرى ما يفعل باختياره وإرادته ، وذلك لأنَّ في الإسلام الاختيار لا الإجبار ، **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**^(١) فالله يستطيع أن يجعل جميع الاعمال من قبيل الحج والصوم والصلوة جزءاً من غرائز الإنسان ، كما جعل الأكل والشرب ، لكنه لم يفعل ذلك ، بل خلق الإنسان حراً ومحظياً ليكون هناك هداية وتكامل وتقدُّم واختبار وثواب وعقاب و... ولكي لا تفقد هذه المفاهيم معانيها .

وفي النهاية يكون معنى الآية هو : أنا تركنا بلעם بن باعورا إلى نفسه ، إلا أنَّ هذا العالم المنحرف . الذي سبق وأنَّ كان مبلغاً قوياً لموسى عليه السلام . تبع الموى والهوس حباً للدنيا وحسداً من موسى عليه السلام وانحذاياً بعود فرعون ، وكان عاقبته الطرد من الساحة الربانية .
وعلى هذا ، فإنَّ شيئاً كانا سبباً لسقوط بلעם بن باعورا هما : أولاً : حبُّ الدنيا والميل إلى فرعون . وثانياً : الموى واتَّبع الشيطان .

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَسْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ ، إنَّ الكلاب عادة ذات منفعة متعارفة يفيد منها الإنسان ولذلك يصبح اجراء معاملة عليها في الفقه الإسلامي ، إلا أنَّ بعض

(١) الإنسان : ٣

الكلاب تكون مسحورة دائمًا إثر ابتلائهما بداء الكلب ، وهو مرض يجعلها تلهث دائمًا وتصبح ، وتفرز سماً ، وإذا عضت الإنسان يمكن أن تؤدي هذه العضة إلى موته أو ابتلاعه بالجحون. والكلاب تعد حيئذ فاقدة للقيمة لا يُجرى معاملة عليها ؛ لأنَّها تفقد الفائدة اضافة إلى ما فيها من مضايقة لآخرين. علامات هذا المرض في الكلاب هو أنَّها تفتح فمها وتحرك لسانها دائمًا ؛ وذلك لتحفُّف من الحرارة الداخلية التي تشعر بها ، وحركة اللسان عندها بمثابة المروحة التي تدفع بالهواء لتبريد الجسم. ومن علاماته أيضًا العطش الدائم ... وعلى كل حال يكون هذا الكلب مهاجمًا.

والقرآن بمثله الجميل هذا يشبه العالم المنحرف بالكلب الذي يفقد القيمة ويحمل أخطارًا كثيرة ... فحب الدنيا والمحوِي والمحوس يُحرِّك العالم ويفقده البصر وال بصيرة بحيث يصبح لا يميز صديقه عن عدوه.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْفَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) أي أنَّ هذا

مثل المجتمعات التي كذَّبت بآيات الله فاقصص . أيها النبي . على الناس وبخاصة اليهود والنصارى هذه القصص ليعتبروا منها ، ولكي يعلموا أنَّهم إذا كذَّبوا بآيات الله فإنَّ مصيرهم سيكون كمصير بلעם بن باعورا.

خطابات الآية

خطر العلماء المنحرفين

لقد سقط بلעם بن باعورا من مقامه الرفيع من جراء حبه للدنيا وتبعيته للشيطان ، وقد كان سقوطه بدرجاته أن شبهه القرآن بالكلب المتوحش الذي لا يرحم شخصاً وكأنه جحون. إنَّ حب الدنيا والمحوِي والتبغية للشيطان أُجنت عالماً كان قد حصل على الاسم الأعظم ، وكان جحونه بشكل يبدو عطشاناً للدنيا دائمًا ولا يبدو مرتوياً منها أبداً ، إنَّ عالماً مثل هذا يحمل معه

(١) إنَّ هذا الجزء من الآية يدل على حكايتها للعصور السالفة لا عصر النبي ، لذا كانت الآية تدل على بلעם بن باعورا لا غيره.

أخطاراً جمة نشير إلى بعض منها هنا :

الف . أنَّ عالماً كهذا يكون في خدمة الظلمة ، كما هو الحال بالنسبة إلى وعاظ السلاطين الذين كانوا في خدمة أهل الجور من الحكام والملوك. ومن الواضح أنَّ خطر علماء كهذا لا يقل عن خطر الظلمة ذاتهم.

أراد سلطان في العصور الماضية أن ينفذ مشروعًا خاصاً ، فطلب أحد علماء البلاد يسأله عن رأي الشارع في المشروع ، فأجابه العالم : (إن رأي الشارع متسع ، والأمر يتوقف على إرادة السلطان) أي يمكنه أن يجعل مخرجاً شرعاً لكل ما يريد السلطان.

نعم ، أنَّ علماء كهذا يمكنهم أن يبرروا ظلم السلاطين الظلمة!

هؤلاء هم الذين يحكمون أسس الظلم ، ويصرفون الناس عن أي رد فعل تجاه الظلم.

إن علماء كهؤلاء ، استطاعوا فترة حكومة بنى امية وبني العباس أن يزوروا أحاديث الرسول عليهما السلام والأئمة عليهم السلام ويتذمرون في بعضها سلاطين ظلمة من سلسلة بنى العباس وبني امية!

باء . أنَّ علماء كهذا يمكنهم أن يزلزوا الأسس الاعتقادية للناس ؛ فإنَّ الناس العوام ، عند ما يشاهدون عالماً غير عامل ، يتزلزل اعتقادهم في الدين ، بل قد يتزددون في حقائق من قبيل الجنة والنار ويوم الحساب والقيمة فيقولون لأنفسهم : (إذا كانت هناك قيمة فالآمرین بالدين والتدين أولى بأن يعلموا لذلك اليوم).

وعلى هذا ، فالسلاطين إذا أظلموا على الناس دنياهم ، فالعلماء المنحرفون يُظلمون على الناس أخراهم.

جيم . العالم المنحرف يجرُّ الناس نحو الذنب. إنَّ الدول المخالفة للإسلام أسسوا في القرن الأخير . لأجل مواجهة الإسلام . فرقة ضالة ، ولأجل تقوية هذه الفرقه رُثوا في أحضانهم عالماً منحرفاً استطاع تأليف كتاب أيد في الفرقه واستفاد في تأييده للفرقه من الآيات ، وكان كتابه بدرجة من الضلاله بحيث عدّت خدمته للفرقه أكثر من خدمة مؤسسها لها.

من هنا على متعلمي المعارف الإلهية أن يعلموا أن سبب هكذا انحراف هو عدم الإخلاص ، فإنَّ بعض الطلاب يبغى العلوم لا لوجه الله تعالى بل لأغراض دنيوية مثل الموى والهوس وحب الدنيا ، وبهذه الأغراض تنهدم آخرته لتتصبح جحيناً.

الإنسان مهما بلغ من مقام ، عليه أن لا يرى نفسه في أمان من وساوس الشيطان ، فإنَّ هذا الإحساس هو بداية الانحراف والسقوط ، بل على الإنسان أن يكون دائمًا بين الخوف والرجاء ، الخوف من الهوى والهوس والوساوس الشيطانية ، والرجاء والأمل برحمة الله ولطفه ، فهو أرحم الراحمين.

عالم الدين من وجهة نظر الإمام الحسن العسكري عليه السلام

ينقل الفقيه الشيخ الأعظم الأنباري . رضوان الله عليه . في كتابه القيم (فرائد الأصول) حديثاً جميلاً من التفسير الجليل المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام نأتي به هنا :

(ومثل ما في الاحتجاج عن تفسير العسكري عليه في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ...﴾ الآية من آنَّه قال رجل للصادق عليه : فاذاكا كان هؤلاء القوم من اليهود والنصارى لا يعرفون الكتاب إلَّا بما يسمعون ، ومن علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره فكيف ذمهم بتقليلهم والقبول من علمائهم ، وهل عوام اليهود إلَّا كعوامنا يقلدون علمائهم؟ فإنَّ لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم . فقال عليه : «بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة . أمَّا من حيث استواوا فإنَّ الله تعالى ذَمَّ عوامنا بتقليلهم علمائهم كما ذَمَّ عوامهم بتقليلهم علمائهم . وأما من حيث افترقا فلا» .

قال : بين لي يا بن رسول الله !

قال : «إن عوام اليهود قد عرفوا علمائهم بالكذب الصريح وبأكل الحرام والرشاء وتغيير الأحكام عن وجهها ... فلذلك ذمُّهم لما قلدوا من عرقو ومن علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه ولا العمل بما يؤديه إليهم عَمَّن لا يشاهدوه . ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله عليه السلام ... وكذلك عوام امتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة ... فمن قلَّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمُّهم الله تعالى بالتقليل لفسقة فقهائهم ، فأمَّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدینه خالفاً على هواه مطيناً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه وذلك لا يكون إلَّا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم . فأمَّا من

ركب من القبائح ... وآخرون يعتمدون الكذب علينا ... فضلوا أو أضلوا أولئك أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد (لعنة الله عليه) على الحسين بن علي عليه السلام». (١)

سؤال : لماذا كان العلماء المنحرفون أسوأ حالاً من جنود يزيد؟

الجواب : إنَّ جند يزيد أعلنوا بصرامة عدائهم ، إلَّا أنَّ علماء السوء بمثابة الذئاب الذين تقمصوا قمقمان الرعاة وهم يكيدون بالدين باسم الدين. واضح أنَّ خطر هؤلاء أشدّ من خطر من أعلن عدائهم بصرامة.

إنَّ ما يفتخر به الشيعة هو أئمَّهم خلال العصور الماضية كانوا تبعاً للمراتجع والعلماء الذين اجتمعوا فيهم شرائط الرعامة حسب ما أراده الأئمَّة عليهم السلام ، وأئمَّهم كانوا ولا زالوا تحت مضلة وألطاف هؤلاء العظماء.

ولا شكَّ أن تقليل علماء زهاد ذوي بصيرة لا أنه غير مذموم فحسب بل واجب حسب ما نستشفه من آيات القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام.

(١) فائد الاصول : ٥٨ ، طبعة المجلد الواحد ، رغم أنَّ هناك بحثاً في سند الرواية ، لكنها . كما قال الشيخ الأعظم . من حيث النص بدرجة من الاستحكام والجمال حيث يجعلنا نطمئن بمصدرها ، كما هو الحال بالنسبة لمضمون نوح البلاغة والصحيفة السجادية ، فإن مضمونها تكشف عن صحة مصادرها.

المثل السابع عشر :

مسجد ضرار

يقول الله تعالى في الآيات (١٠٧ - ١٠٩) من سورة التوبة :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرْدَنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقْمِ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَاهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أُمُّ مَنْ أَسَسَ بُنْيَاهُ عَلَى شَفَّا جُرْفٍ هَارِ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

تصوير البحث

إنَّ الآيات الثلاث التي تعتبر المثل السابع عشر للقرآن تحدثت عن مسجد ضرار الذي أسسه أعداء الدين لأجل مواجهة الدين الجديد واعتبروه متراساً ومرصاداً محكماً لهم مواجهة الدين بالدين.

شأن النزول

أشار أكثر المفسرين إلى شأن نزول الآية ،^(١) ونحن هنا نذكر شأن النزول أيضاً :

(١) راجع تفسير الميزان ٩ : ، وكذا تفسير مجمع البيان ٥ : ٧٢.

إِنَّ بْنِي عُمَرَ بْنَ عُوْفَ الَّذِينَ تَخَذَّلُوا مَسْجِدًا قَبْلًا ، وَبَعْثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ أَعْلَمُ بِأَيِّ تَبَّاعِهِمْ فَأَتَاهُمْ وَصَلَّى فِيهِ فَحَسَدُهُمْ جَمَاعَةٌ مِّنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ بَنِي غُنْمٍ بْنَ عُوْفٍ فَقَالُوا : نَبْنِي مَسْجِدًا فَنَصَلِّي فِيهِ وَلَا نَخْضُرْ جَمَاعَةَ مُحَمَّدٍ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، وَقِيلَ : خَمْسَةٌ عَشَرَ رَجُلًا ، مِنْهُمْ : ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ وَمَعْتَبُ بْنُ قَشِيرٍ وَنَبِيلُ بْنُ الْحَارِثِ فَبَنَوْا مَسْجِدًا إِلَى جَنْبِ مَسْجِدِ قَبْلًا .

فَلَمَّا بَنُوهُ أَتَوْهُ رَسُولُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِأَيِّ تَبَّاعِهِمْ وَهُوَ يَتَجَهِّزُ إِلَى تَبُوكَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعَلَةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُمْطَرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَّةِ ، وَإِنَّا نَحْنُ أَنْتَيْنَا فَنَصَلِّي فِيهِ لَنَا وَتَدْعُونَا بِالْبَرَكَةِ فَقَالَ أَعْلَمُ بِأَيِّ تَبَّاعِهِمْ : «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَلَوْ قَدِمْنَا أَتَيْنَاكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَصَلِّيْنَا لَكُمْ فِيهِ» ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِأَيِّ تَبَّاعِهِمْ مِنْ تَبُوكَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فِي شَأنِ الْمَسْجِدِ .

الشرح والتفسير

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ﴾. نعم إن جرئيل عليهما السلام نزل على الرسول مانعاً إياه عن الصلاة في هذا المسجد؛ وذلك رغم أن ظاهره للعبادة، لكن واقعه معبد للأصنام ومركز للتأمر ضد المسلمين، فالآية هنا بيّنت أربعة أهداف من وراء بناء هذا المسجد.

١ - **﴿ضِرَارًا﴾** أي أن مؤسسي هذا الجسد كانوا يستهدفون الإضرار بال المسلمين من خلاله وذلك بجعله متراساً لأعداء الإسلام.

٢ - **﴿كُفْرًا﴾** إن المدف الآخر لهم من وراء بناء هذا المسجد هو تقوية أسس الكفر، والمسجد دوره هنا كمركز لدعم الشرك والكفر.

٣ - **﴿تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** المدف الآخر لهم وهو من أخطر الأهداف عبارة عن إيجاد الفرق بين المسلمين، واستهلاك الطاقة الموحدة التي يتلكونها، في النزاعات فيما بينهم، الأمر الذي يضر بالاطراف الإسلامية المتنازعة أكثر من اضراره في شيء آخر، وهذا مبدأ يحكم جميع الاختلافات.

٤ - **﴿إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ﴾** أي إعداد مركز للاعداء في قلب الدولة الإسلامية، الأعداء الذين يكتون العداء لله ورسوله من ذي قبل.

أبو عامر النصراني العدو اللدود للإسلام

عن (جمع البيان) : «إنه كان قد ترَّهَب في الجاهلية ولبي المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده ، وحزَّب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، وخرج إلى الروم وتنصر وهو أحد المسيسين والموقدين لحرب أحد. وسيّى رسول الله ﷺ أبو عامر (الفاسق) ، وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا وابنوا مسجداً فإني أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود ، وأخرج محمدًا من المدينة ، فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم». ^(١)
وبعد هذا طلب هؤلاء من الرسول ﷺ أن يفتح المسجد ، لكن جبرائيل نزل ونهاه عن ذلك بهذا الخطاب :

﴿وَلَا تَقْمِ فِيهِ أَبَدًا﴾ والرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لم يقم فيه ولم يصل فيه أبداً.

﴿لَمْسِجِدٌ أَسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أنَّ مسجد ضرار

ليس محلاً مناسباً لعبادة الله الواحد ، والمسجد المؤهل لذلك يتسم بالسمات التالية :

١ . أن يكون أساس تأسيسه هو الإيمان والتقوى ، وهذا القسم من الآية يعلمنا أن يكون أساس تأسيس مراكز مثل الحسينيات والمدارس الدينية والسياسية والاقتصادية والإدارية هو الإيمان والتقوى ، فهما روح الأعمال.

٢ . السمة الأخرى هي أن يكون الحضور من المتدينين والطاهرين ؛ وذلك لأن المصلين في المسجد يعدون معروفاً للمسجد.

إن السمتين حاصلتان في مسجد قبا ، فقد كان أساس تأسيسه الإيمان والتقوى ، كما أنَّ مصليه كانوا من المؤمنين عكس ما كان في مسجد ضرار فلا أساسه كان يعتمد الإيمان والتقوى ولا حضوره كانوا من المؤمنين.

الأمر بتخريب مسجد ضرار

الرسول ﷺ لم يكتف بعدم افتتاح المسجد والصلاحة فيه ، بل أمر المسلمين بإحرقه

ثم

(١) تفسير الأمثل ٦ : ٢٠٠ - ٢٠١.

تخرّب جدرانه وتكبّيته ليكون مرمى للنفايات.

﴿أَفَمِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أُمُّ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَاعَةٍ﴾

جُرْفٌ هَارٌ

(الشفا) يعني الطرف من كلّ شيء ، واطلقت هذه المفردة على شفاه الفهم لأجل ذلك.

(الجرف) يعني الجب فجرف الشيء أي ما يجانبه ولذلك اطلق على شاطئ النهر جرف.

(هارٍ) يطلق على الشيء الأخذ بالسقوط. إنَّ النهر قد يفرغ جرفه من الداخل ليصبح الجرف أجوف ، والإنسان الذي لا يعلم بذلك قد يقدم على المشي على هذا الجرف فيسقط فيه ويغرق.

الله تعالى يشبه بناء مسجد ضرار ببناءٍ على حرف نهر ، والحرف لا يشرف على ماء النهر ، فانَّ ذلك قد لا يؤدي بالإنسان إلى موته وهلاكه الحتمي لانه قد يكون عارفاً بالسباحة ، بل إنَّ هذا الحرف مشرف على جهنّم ذاتها بحيث إذا سقط إنسان فيه فذلك يعني هلاكه الكامل وانتفاء احتمال نجاته ...

وهل الإنسان إذا كان عاقلاً يرضى باقامة بنيانه في أرضٍ رخوة كهذا الحرف ويتحمل ما فيه من مخاطر؟

نعم ؛ إنَّ المسجد الذي أساسه التقوى ورضاء الله فبناؤه يكون محكماً جداً ولا يؤدي بالإنسان إلَّا إلى النجاة ، أمَّا المسجد الذي يؤسّس على أساس الكفر والشرك ويكون مقراً للأعداء فهو بدرجة كبيرة من الخطورة ويؤدي بالإنسان إلى السقوط. وحسب ما تذكر الآية إنه سقوط في جهنّم.

هل يمكن العثور على تعبير أجمل ومثلىً أوضح لمصادر الشرك والنفاق مثل التعبير الذي تضمنته الآية الكريمة؟!

خطابات الآية

١ . إنَّ المستفاد من الآية هو ضرورة مراقبة المسلمين أعمالهم ، وأنَّ الأعداء قد يواجهون الدين بالدين نفسه وبالآيات ذاتها ... ولهذا عند ما نقرأ تاريخ الإسلام نعثر على الكثير من الفرق

التي أنسها الأعداء لضرب الإسلام الخالص.

من المذاهب الموضعية (فرقة البهائية الضالة) التي اتضح حالياً للجميع مكان تأسيس هذه الفرقـة وشخصيات المؤسسين والمستفیدین من تأسيس هذه الفرقـة. ^(١)

٢ . على المسلمين أن يكونوا كيسين وأن لا تغـرّهم الظواهر . ما أن تحصل فتنـة فعلى المسلمين أن يتعرّفوا على متولـيهـا وموـلـيهـا والمستـفـيـدـين والمتـضـرـيـنـ منها ؛ وذلك خوفـ الاغـتـارـ باولـئـكـ الـذـيـنـ يـنـوـونـ تـخـرـيـبـ الـبـلـادـ باـسـمـ استـعـمـارـ ، أوـ أـسـرـ الـمـسـلـمـيـنـ باـسـمـ تـحـرـيـرـهـمـ أوـ سـلـبـ الدـيـنـ عـنـهـمـ باـسـمـ الدـيـنـ نـفـسـهـ.

وقد قال الرسول ﷺ في هذا المجال : «المؤمن كيسٌ فطن حذر». ^(٢)

(١) للمزيد راجع الكتابين (ارungan استعمار) و (بای سخنان بدر) . بالفارسية.

(٢) ميزان الحكمـةـ ، الـبـابـ ٢٩١ ، الـحـدـيـثـ ١٤٤٩ـ.

المثل الثامن عشر :

الدنيا العابرة

يقول الله تعالى في الآية ٢٤ من سورة يونس :

**﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ
وَالنَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَحَدَتِ الْأَرْضُ رُزْخَرَفَهَا وَازْبَقَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾**

تصوير البحث

الحديث في المثل عن الحياة الدنيا العابرة ، والتذكير بها خوف أن يغتر الإنسان بظاهرها الحالب ويتعلق بها ، فإنَّ الإنسان قد يفقد كل شيء في وقت يتصور أنَّ كل شيء قد تهيأ وأُعد لصالحه . ويدعو الله في نهاية الآية الإنسان للتفكير لعله ينقذه ويجد لنفسه من خالله مخرجاً .

الشرح والتفسير

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ استخدمت عبارة (الحياة الدنيا) ما يقرب السبعين مرة في القرآن ، والدنيا قد تعني أحد المعนدين التاليين :

الف . أن تعني القرب ، ودنيا مؤنث (أدنى) ، وذلك باعتبار أن الحياة الدنيا أقرب قياساً للحياة الآخرة التي هي بعيدة نسبياً.

باء . أن يراد منها السافلة أو التافهة ، ومنها اطلاق (الدني) على الإنسان الساقط

والسافل. وباعتبار أنَّ الحياة الدنيا حياة تافهة وتفقد القيمة الكافية فهي حياة دنيا عكس ما عليه الحياة الآخرة فإِنَّا عليها ومتاز بالقيمة المتفوقة.

هذا ، اضافة إلى أنَّه يستفاد من آيات قرآنية مثل الآية التالية : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُيَ الْحَيَاةُ﴾^(١) أنَّ الحياة هي الحياة الآخرة فحسب ، أمَّا الدنيا فهي لا تستحق من

الحياة إِلَّا الاسم ، بل هي موت تدريجي !

على كل حال ، فإنَّ الحياة الدنيا إِمَّا أَنَّها حياة لا قيمة لها ، أو أَنَّها ليست حياة بالكلية.

﴿كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي مثل هذه الحياة العابرة

كمثل الماء الذي ينزل من السماء بقطراته الشفافة والفاقدة لللون ، وباختلاطه بالأرض تنمو نباتات ومحاصيل متنوعة.

المراد من الاختلاط في الآية هو تنوع النباتات.

إنَّ النباتات على ثلاثة أقسام :

١ . القسم الذي يشكل الأغذية للإنسان مثل الفواكه والخضروات والحبوب ﴿مِمَّا

يَأْكُلُ النَّاسُ﴾

٢ . القسم الذي يشكل أغذية للحيوانات ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ... الْأَنْعَامُ﴾ وهي قد تشترك .

نوعاً ما . بين الحيوان والإنسان كالأشجار التي يفيد الإنسان من ثمارها ، والحيوان يفيد من أوراقها وغصونها. وقد تكون خاصة بالحيوانات مثل العلف.

٣ . القسم الآخر هو النباتات والأشجار التي تزيّن الطبيعة مثل الأزهار والخشائش

الآخر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ رُخْرُفَهَا وَازْبَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾

أي في الوقت الذي هطل فيه المطر وأثمرت الأشجار وحان الوقت لجني الثمار في هذا الوقت تحدث حادثة وتحلّط كل حسابات الإنسان وتحول دون جنيه ثمار ما زرع. وهذا أمر مؤلم ملن تعلق بالدنيا.

﴿أَتَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ نعم ، في الوقت الذي يرى الإنسان أنَّ الدنيا أقبلت عليه

(١) العنكبوت الآية ٦٤.

وکشفت عن وجهها الخلاب والخادع ، ويجد أنَّ كل شيء حسب ما يرام ، في هذا الوقت يصدر أمر الله بالعذاب ليلاً أو نهاراً لتدمير بذلك كل الآمال والزحمات ، بحيث تبدو الدنيا لم تكن شيئاً مذكورةً.

إنَّ كلمة «أَمْرًا» في الآية الشريفة تدعونا للدقة والتأمل الوافر من حيث إنَّها تضمُّ موارد ومصاديق كثيرة وتشمل كل أنواع العذاب الذي يصدر من الله.

نشير إلى بعض من تلك المصاديق.

١ . قد تؤمر مجموعة من الحيوانات تبدو وكأنها ضعيفة مثل الجراد ، فتؤمر الجراد لتهجم على مزرعة بشكل كتلة ، لم تبق منها شيئاً إلَّا أكلته أو دمرته ، كما يحصل ذلك بين الحين والآخر في بعض الدول.

٢ . وقد يلقى هذا الأمر على عاتق السموم من الرياح ، فيؤمر بتنفيذ مهمة العذاب الإلهي ، وهو عند ما يمر بشيء يسمّه ويحقيقه ، بحيث إذا مرّ من مزرعة أبدلها إلى رماد يذهب مع الريح.

٣ . وقد يتکفل بتنفيذ المهام الإلهية موجود هو أخطر من ريح السموم ، مثل الصاعقة (١) التي تدمّر كل شيء تصطدم به مثل الجبال والأشجار والانعام والناس ، أو مثل موجودات أخرى نشير إليها في البحوث المقبلة.

هناك نقطة مثيرة تضمنتها عبارة ﴿لِيلًا أَوْ نَهَارًا﴾ وهي أنَّ الإنسان لا خيار له غير التسليم والخضوع للعذاب الإلهي. ولا يفرق في ذلك الليل والنهار ولا يتصور أنَّ الإنسان سوف يخضع للعذاب في الليل باعتباره مسلوب القدرة آنذاك ، بل أنَّ العذاب إذا نزل سيستسلم له الإنسان سواء كان نازلاً في الليل أو في النهار.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانُوا لَمْ تَغْنِ بالْأَمْس﴾ أي عند ما يصدر أمر بالعذاب تهدم ممتلكات الإنسان وتدمّر مزارعه في آن ، بحيث لا تبدو الأرض وكأنها كانت مزروعة قبل لحظات ، بل تبدل إلى كومة من الرماد.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي أنَّ اهداف هذا المثل لا يدركها إلَّا

الذين

(١) لقد مرَ التعريف العلمي للصاعقة وفرقها مع الرعد والبرق في البحوث السابقة.

يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ ، وَلَا يَدْرِكُ غُورَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ إِلَّا بِالْتَّفَكُّرِ وَالتَّأْمُلِ الَّذِي لَا تَوْجَدُ عِبَادَةٌ أَرْفَعُ مُسْتَوِيِّ مِنْهُ .^(١)

فلسفة المثل

لأجل استيعاب فلسفة المثل نشير هنا إلى ثلات من خصائص الحياة الدنيا :

١ . الحياة الدنيا عابرة ولا ثبات ولا دوام فيها.

٢ . الحياة الدنيا جوفاء ، ظاهرها فاتن وباطنها خالٍ من المحتوى ، وقد تبلورت بوضوح في حياة بعض الناس الذين تجذبنا حياهم من بعيد وتجعلنا نأسف على حياتنا ونتحسر على حياهم ، لكن عند ما نقترب لهم نحمد الله كثيراً على كون حياتنا ليست مثل حياهم من حيث كثرة المساواة والابتلاءات.

٣ . الحياة الدنيا تُغْرِي الإنسان وتخدعه.

وفي حديث للرسول ﷺ أشار فيه إلى هذه الخصائص الثلاث : «الدنيا تغر وتضمر» .^(٢)

من هنا نستوعب فلسفة المثل في أنه من دونه لا يمكننا إدراك ماهية الحياة الدنيا. والإنسان من خلال المثل يدرك حقيقة الدنيا وما هي أفضليـة ولذلك تمسـك الله به إيسـاحاـ ويـانـاـ.

تفسير وتطبيق للمثل المذكور

في الآية الشريفة شُبِّهَ الإنسان وحياته الدنيا بالمطر ، وبذلك يشير القرآن إلى قابليته وأهليته العالية ، فإذا فعلت هذه الأهلية لأمطرت عليه ثماراً من قبيل الابتكار والأخلاقية المتنوّعة ، ولاستخدم كل طاقته في سبيل الحياة الأفضل ، ولنشط في مختلف المجالات ، ولاستهلك طاقات جمة في سبيل بلوغ الأهداف الخاصة . إلـا أـنـ حـادـثـةـ تحـصـلـ فـجـأـةـ تـحـيـبـ كلـ

(١) جاء ما يلي في ميزان الحكمة ، الباب ٣٢٥٣ ، الحديث ١٥٩٢٠ : «لَا عِبَادَةٌ كَالْتَّفَكُّرِ فِي صُنْعَةِ اللَّهِ عَزِيزٌ» .

(٢) بحار الانوار ٧ : ٩١١ ، وقد نقل هذا الحديث كأحد كلمات الإمام علي عليه السلام القصار في نهج البلاغة الكلمة . ٣٨٥

آماله وتدمّر كل ما جناه في حياته حتى هذه اللحظة ليبدو وكأنه لم يفعل شيئاً لحياته أبداً ولم يكن قد فعل وتحمل لأجل ضمان المستقبل.

إنَّ هذه الحوادث هي (الأمر الإلهي) ، وقد تبلور في داخل جسم الإنسان ويسلُّم لها الإنسان رغم ضعفها وصغرها. وعلى سبيل المثال قد تحصل جلطة في دم الإنسان تسري في الشرايين لتصل إلى القلب فتحدث سكتة فيه ، أو تصل إلى الدماغ فتحصل سكتة فيه أيضاً قد تتسبب في شلل جزء من جسمه إذا لم تمت.

والأبسط من ذلك هو أن يأمر الله تعالى خلية من خلايا جسم الإنسان للتتكاثر بشكل غير متعارف وبتصاعد هندسي كأن تصبح الخلية خليتين والخليتان أربع خلايا والأربع ثمانية والثمانية ستة عشر وهكذا إلى أن تبدل فجأة إلى غدة سرطانية تنتشر في جسمه بدنة شيئاً فشيئاً لتجعل من الإنسان قعيداً **﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَانْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾** فيبدو وكأنه قد مات منذ سنوات وأماله قد اندرت منذ ذلك الحين.

وقد يلقى الأمر الإلهي في عهدة حادثة خارجية مثل الزلزلة أو الطوفان أو الاعصار أو الشهاب السماوي أو غير ذلك.

هذا المثل وما شابهه من حوادث التي شهدناها طوال عمرنا مرات عديدة بمثابة صافرة الانذار تحذرنا أن لا نغرسنا الحياة الدنيا ولا نتعلق بها ولا نرتكب الجرائم لأجل بلوغ الأهداف الدنيوية الآنية.

من المناسب أن نفكّر بعمق في هذه الآية الشريفة وفي أمثلها ، ونعدّها كالمصاحف نستنير به الطريق.

خطابات الآية

١ . معرفة الله

إنَّ الله بتشبيهه الحياة بقطارات المطر علمنا شيئاً من دروس المعرفة ، ورسخ في قلوبنا الإيمان بالله. الآية تعلّمنا أنَّ الله بواسطة هذا الماء الشفاف الذي لا لون له يستطيع أن يخلق ألواناً مختلفة.

إِنَّ الْأَرْضَ تُسَقَى بِمَاءً وَاحِدًا ﴿يُسَقَى بِمَاءً وَاحِدًا﴾ ،^(١) لَكِنَّ الثَّمَارَ وَالفَوَاكِهِ
وَالشَّجَارَ تَبْتَ مُتَنَوِّعَةً ، فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا المَاءِ أَحْلَى الْفَوَاكِهِ وَأَشَدُّهَا حَمْوَةً وَأَشَدُّ السُّمُومَ
مَرَّةً ، وَأَجْلَلُ الْأَزْهَارَ وَ... هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ مَاءِ وَاحِدٍ وَتَرَابٍ وَاحِدٍ. إِنَّ قَدْرَةَ اللَّهِ عَجِيبَةٌ حَقًا!
لَكِنَّ أَسْفًا لِلْعَادَةِ لِكُونِهَا تَحْجِبَنَا وَتَعْنَنَا دُونَ أَنْ نَفْكِرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُنَاطِقِ لِلَّهِ.

٢ . كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُخْلُوقٌ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ النَّظَمِ

إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مَاءَ الْمَطَرِ سَبِيلًا لِلْبَرَكَةِ وَالْعُمَرَانِ ، وَهُوَ بِذَاتِهِ إِذَا زَادَ عَنْ حَدَّهِ الْمُتَعَارِفِ
سَبِيلُ الدَّمَارِ وَالْكَوَارِثِ ، وَإِذَا قَلَّ عَنْ مَقْدَارِهِ الْمُتَعَارِفِ سَبِيلُ الْجَفَافِ وَالْقَحْطِ.
وَهَذَا دَرْسٌ آخَرٌ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَكُونَ مُعْتَدِلًا وَمُنْتَظَمًا فِي جَمِيعِ مَحَالَاتِ حَيَاتِهِ
وَيَجْتَنِبَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْرُطَ حَتَّى فِي الْعَدَاءِ وَالْخَصْوَمَةِ ، وَهَذَا فَرْضُ الْإِسْلَامِ آدَابًا
لِلْحَرْبِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَوْامِرِ جَيْلَةٍ وَلَطِيفَةٍ مُحَذِّرًا مِنْ خَالِلِهِ الْمُسْلِمِينَ التَّفْرِيطَ فِي الْعَدَاءِ.
وَعَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَكُونُ مُنْتَظَمًا وَمُبِرْجَمًا فِي جَمِيعِ شَؤُونِهِ.

٣ . قَدْ تَبَدَّلُ النَّعْمَةُ إِلَى نَقْمَةٍ

أَيُّ قَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ الَّذِي يَنْحَى الْإِنْسَانَ حَيَاةً هُوَ بِذَاتِهِ يَكُونُ سَبِيلًا لِلْدَّمَارِ الْإِنْسَانِ
وَمَوْتِهِ ، وَذَلِكَ بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. إِنَّ الْمَاءَ يَنْحَى الْإِنْسَانَ حَيَاةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِكَثْرَةِ قَدْ يَتَبَدَّلُ
إِلَى سَيِّلِ جَارِفٍ وَقَاتِلٍ.

٤ . إِذَا جَرِيَ الْمَاءُ كَانَ سَالِمًا وَهَبِيئًا وَذَا طَعْمٍ لِذِيذِ

أَئْمَا إِذَا رَكَدَ الْمَاءُ تَعَقَّنَ وَتَلَوَّثَ وَيَكُونُ غَيْرَ صَالِحٍ لِلشَّرْبِ. فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا أَئْمَّهُ لَا
يَنْحَى الْحَيَاةَ فَحَسْبٌ ، بَلْ يَكُونُ سَبِيلًا لِلتَّلَوَّثِ . إِنَّ الْأَمْوَالَ وَالثَّروَاتَ ذَاتَ نَفْسِ الْخَصْلَةِ هَذِهِ ،

(١) الرعد الآية ٤.

فييمكنها أن تنمي اقتصاد البلاد إذا كانت جارية ويتداولها الناس ، إلا أنها عند ما تتحكر وتركد في مكان واحد فقد تسبب السقم في اقتصاد البلد.

٥ . بعض النباتات سامة رغم جمالها

بعض النباتات تبدو زينة جميلة مثلما تبدو بعض الزهور لكنها في الواقع سموم قاتلة. لهذا كان علينا أن لا نغتر بالظاهر وإن كان جميلاً ، بل علينا سير الغور والتفكير فيه لكشف الواقع ثم انتخاب المناسب.

وفي نهاية الآية وصية للتفكير ، ومدح للعلماء والمفكرين.

يقول رسول الله ﷺ : «أعطوا أعينكم حظها من العبادة».

قالوا : وما حظها من العبادة يا رسول الله؟ قال : «النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبها». (١)

فكروا في آيات القرآن لكي لا تبتلوا بما ابتلى به النماردة والفراعنة وامثال ابو هب كما فكروا من جهة اخرى بامثال سليمان وموسى وداود و... توافقوا وتأملوا في عجائب آيات القرآن.

لا تكتفوا بقراءة القرآن رغم ما لهذه القراءة . وبخاصة في شهر رمضان المبارك . من أجر وثواب جزيل ، بل لنقتربن مع التدبر والتأمل.

(١) المحة البيضاء ٢ : ٢٣١ ، تفسير البرهان ١ : ٣٣١ ، الحديث ١١ .

المثل التاسع عشر :

الكافر والمؤمن

يقول الله تعالى في الآية ٢٤ من سورة هود :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هُنَّ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

تصوير البحث

يقارن الله العظيم في هذا المثل بين الكافرين والمؤمنين ، ويشبهه أحد الفريقين بالأعمى والأصم والآخر بالبصير والسميع ، وذلك لأنَّ الإيمان والتقوى يورثان السمع والبصر ، أما اللجاجة والتعصب والكفر فيحجبان عن هذين الموهبتين الالهيتين.

إشارة إلى الآيات ما قبل آية المثل

الآيات التي تسبق آية المثل هذه تبيَّن أحوال المؤمنين والكافر ، ومن الضروري إلقاء نظرة عليها لكي نتمكن من شرح الآيات وتفسيرها ب بصيرة أكثر.

سيرة الكافرين

شرح الآية ١٩ من سورة هود أحوال الكافرين حيث قالت : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

لقد بيَّنت الآية ثلاثةً من خصال الكفار :

- ١ . الكفار يمنعون عن سبيل الله ويحولون دون دخول الآخرين في هذا السبيل.
- ٢ . الكفار يغون الأعوجاج عن طريق الحق ، أو أَهْمَّ يريدون إظهاره معوجاً ، مع أنه حسب سورة الحمد . طريق مستقيم ولا إعوجاج ولا افراط ولا تفريط فيه بل هو متعادل ومتوازن.

٣ . الكفار ينكرون المعاد والحياة بعد الموت . ويبدو أن هذه القضية هي السبب الأساس في انحطاطهم ؛ وذلك لأنَّهم عند ما أنكروا المعاد سعوا في اظهار طريق الحق معوجاً ومنعوا من اهتداء الآخرين إلى هذا الطريق .

ثم يقول الله في الآية ٢٢ من نفس السورة : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

الْأَحْسَرُونَ

أيَّ أَنَّ الكفار الذين منعوا من اهتداء الناس إلى طريق الحق ، وأظهروه وكأنَّه معوجاً ، وفي النهاية أنكروا المعاد ، وإنَّهم في المعاد أخسر من الجميع .

سيرة المؤمنين

الآية ٢٣ من سورة هود همت بدراسة الفريق الثاني (المؤمنين) وقالت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
بَيَّنت الآية الشريفة ثلاثة خصال للمؤمنين :

١ و ٢ . الإيمان والعمل الصالح ، إنَّ هذين الخصلتين ذكرتا معاً في كثير من الآيات القرآنية ، فهما لازم وملزوم ولا يمكن تفكيكهما ،^(١) ولهذا كان إدعاء الإيمان بالنسبة للذين لا يعملون إدعاء خواء ، وهم غير مؤمنين في الواقع . ومن جانب آخر ، أنَّ الصادقين الذين يعملون صالحاً من دون إدعاء ، هم المؤمنون الحقيقيون ؛ وذلك لأنَّهم . كما أشرنا سابقاً . بمثابة الغصون والأوراق لشجرة واحدة .

٣ . الحصلة الثالثة التي يحملها المؤمنون هي حوصلة (الاخبار). إنَّ (الاخبار) جمع (خبر) والأخيرة تعني . في الأصل . الصحراء الواسعة والمستوية ، وقد اطلقت بعد ذلك على

(١) ذكرنا معاً في ما يقارب من سبعين آية .

بعض خصائص الإنسان ، نشير هنا إلى ثلات حالات منها :

الف . تستخدم في الإنسان ذي الروح المتواضع ، فكما أنَّ الصحراء المستوية تتواضع أمام الماء وتسمح له بالسير في جميع بقاعها ، كذلك روح الإنسان المتواضع فإنَّها تستسلم للحق ببساطة.

باء . أنَّ مفردة (مختُ) كما تطلق على الإنسان المتواضع تطلق كذلك على من سلم نفسه لله تعالى ، أي كما أنَّ الأرض المستوية مستسلمة ، كذلك روح الإنسان المؤمن .
جيم . تطلق هذه المفردة على من اطمئنَ بالله تعالى . الإنسان عموماً عند ما يخطو في الصحراء يخطو باطمئنان ومن دون خوف وذعر ، عكس ما لو كان يمشي في جبال وأراضٍ وعرة ، فإنَّ خطاه ستقترب بالخوف والذعر ، وخطى الإنسان المؤمن في طريق العبودية تقترن بالاطمئنان .

وعلى هذا ، فالمؤمنون الذين يحملون هذه الصفات (الإيمان والعمل الصالح والاحبات) هم أصحاب الجنة خالدين فيها ويتمتعون بنعمتها .

الشرح والتفسير

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَّ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ﴾ بعد أن بين الله خصائص الفريقين في الآيات السابقة نعت هنا كلاً من الفريقين بصفات فقال : إن الكافر مثل الأعمى والأصم ، والمؤمن مثل البصير والسميع .

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والسؤال هنا استنكاري أي أنَّ الفريقين لا يستويان فالأعمى ليس كالبصير والأصم ليس كالسميع ؛ كذلك المؤمن فهو غير الكافر وليس مثله .
المفروض بهذه المقارنة أن تثير مخاطبي الآية وتدركهم ، أليس كذلك؟!
لأجل الوقوف على عمق هذا المطلب واستيعاب آثار الإيمان والقدرة اللامتناهية لرب العالمين ، نقوم في البداية بدراسة أهمية العين والاذن ودورهما في جسم الإنسان .

العين من أعظم آيات الله

لا شك أنَّ العين من أعظم الآيات الإلهية ، بل يمكننا القول : إنها أعجب آيات الله

سخرها

تعالى في خدمتنا. إن العين ذات بناء معقد جداً ، والأعجب من ذلك أن البناء يتشكل من مواد بسيطة جداً ، فهي تتكون من مقدار قليل من الشحوم والعضلات ومقدار بسيط من السوائل.

إنَّ هذا يكفي للكشف عن قدرة الله تعالى ، فهو يستطيع بناء وسيلة معقدة من مواد بسيطة جداً.

للعين سبع طبقات ممتازة ومحرّأة ، وهي مستقلة عن بعضها البعض بالكامل وقد رتبت بشكل لطيف جداً ، كما أنه تعالى جعل لكل طبقة وظائف خاصة.

لا يوجد في الدنيا كاميرا يمكنها التصوير تلقائياً مثل ما تعمل العين ، فهي تعمل دون حاجة إلى منظم لعدستها ، فهي تنظم نفسها لتصوير أدنى وأقصى نقطة في أقل زمن ممكن. مع أن تنظيم العدسة للأماكن البعيدة في كاميرات التصوير يحتاج إلى وقت غير قصير نسبياً ، وقد يستدعي هذا الأمر ساعة من الزمن إذا أريد تصوير لقطة حساسة.

كذلك الأمر بالنسبة لتنظيم النور ، فإذا كنا . مثلاً . في محيط مضيء ثم انطفأت الكهرباء فيه وساد الظلام ، فإنَّ بؤبؤة العين توسع نفسها لتتكيف مع المحيط وتتمكن من الرؤية.

وفي العين يوجد عضلات تتحرك في ست جهات تمكنها من الحركة إلى الأمام والخلف إضافة إلى الحركات الأربع أي اليمين واليسار والفوق والتحت.

ومن عجائب العين الأخرى هو السائل الذي يترشح منها ويسمى الدموع. إنَّ الدموع غذاء للعين كما أنه سائل لغسلها ولتطهير هذا البناء الدقيق والظريف من أي تغفن يتحمل حصوله.

من خصائص العين أَنَّها هي بنفسها تقوم بترميم ما يطرأ عليها من اشكالات ونواقص.

هل هناك شيءٌ من مصنوعات الإنسان يحظى بهذه الخصائص؟ لتنصف ونرى لو لم يكن هناك دليل وآية على ثبات الخالق غير هذه العين أليس ذلك بكاف؟^(١) كيف يمكن تصديق أن الطبيعة الفاقدة للأحساس والشعور يمكنها خلق جهاز بهذه العظمة؟

الاذن آية الله الأخرى

رغم أنَّ بناء الاذن قياساً للعين ليس بنفس الدرجة من حيث التعقد والظرف ، إلا أنه

(١) للمزيد راجع الأمثل ٢٠ : ١٩٨ . ٢٠٠ .

يحكي كما هو حال العين عن قدرة الله تعالى. إنَّ الاذن تتكون من الجزء الخارجي والداخلي والوسط. والاقسام تقع في مناطق متجززة عن بعضها الآخر ، ولكلٌّ وظائف خاصة ومستقلة. هناك عظام يشبه عملها عمل المضرب ، كما أنَّ هناك طبلة ترتعش بضربات المضرب ، والارتعاشات هذه عند ما تنتقل إلى الدماغ بواسطة الأعصاب تُسَرِّرُ هناك. والعجيب في هذا كله أنَّ الاذن يمكنها تعين جهة الصوت.

إنَّ العين والاذن نعمتان إلهيتان أنعمهما الله علينا ، وهما عجيجتان جداً ، وفي توصيفهما كتبت كتب كثيرة ، ولكلٌّ منها من حيث الطبابة مختصون ، بل أنَّ في العين لوحدها عدة تخصصات.

العين والاذن وسائلان مهمتان للمعرفة

إنَّ أهمَّ وسائل المعرفة عند الإنسان هي العين والاذن. إنَّ الإنسان عند ما يولد يكون خلواً من أي علم ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(١) والإنسان يحصل على العلوم بعد أن تنمو عنده حاسة السمع والبصر.

إنَّ العلوم التجريبية تنتقل للإنسان عبر حاسة البصر ، فالإنسان يبلغ النتائج المختلفة في المختبرات بعد ما يراها بعيته ، ورؤيته هذه هي التي تنقل النتائج إلى الذهن. أما العلوم النقلية . وبخاصة العلوم التي قدمت من الوحي الالهي . فهي تنتقل عبر حاسة السمع (الاذن). بالطبع أن العلوم العقلية تعتمد في الأساس على العلوم الحسية أي أنَّ الأشياء ما لم تر أو لم تسمع فلا يمكن العقل من إدارتها ، وذلك لأنَّ أساس العلوم العقلية هو (تجريد) و (تعيم) المحسوسات ، وهذا اذا كان هناك إنسان بالغ أصم وأعمى . وهو بالنتيجة أخرس . فان مستوى فهمه سيكون بمستوى فهم طفل عمره خمس سنوات حتى لو كان يحضى بدماغ بمستوى دماغ ابن سينا ؛ لأنَّ هكذا انسان يكون فاقداً لعمودين أساسيين من أعمدة العلوم العقلية وهما البصر والسمع.

(١) التحل : ٧٨

الكافر يفتقد وسائل المعرفة

وفقاً لما ذكرت الآية ، أنَّ الكافر أعمى وأصم ، أي أنَّه يفقد وسائل المعرفة أو أنَّ هذه الوسائل مسلوبة منه ، لذلك لا يدرك شيئاً من نور الأيمان. أما المؤمن فهو . بفضل نور الإيمان . يتمتع بجهاز السمع والبصر بشكل كامل ، ويفيد من العلوم ، ووسائل المعرفة.

لماذا كان الكافر أعمى وأصم؟

الوصف المستخدم في الآية يفيد أنَّ العمى والصم هما بسبب حاجب الكفر الذي يحول دون السمع والنظر ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾^(١) إنَّ اللجاجة مع الله وعدم التسليم له والصفات الرذيلة الأخرى سبب عدم إدراك الكفار للحقائق.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعائه العرفاني (أبو حمزة الثمالي) : «إِنَّكَ لَا تُحَجِّبُ عن خلقك إِلَّا أَنْ تُحَجِّبَ الْأَعْمَالُ دُونَكَ».

وعلى أساس هذا الدعاء ، فإنَّ أعمال الناس هي التي تحجب الإنسان عن الله. وفي بعض نسخ هذا الدعاء ذكرت مفردة (آمال) مكان أعمال ، وعلى هذه النسخة ، فإنَّ الآمال هي التي تحجب الإنسان عن الحقائق والمعرفات الإلهية.

الإيمان عند ما يظهر في الإنسان فإنَّ حجب التعصب والجهل والغرور والكبراء والأناية تتلاشى لوحدها ، ويتبين للإنسان بعد ذلك كل شيء ، بل الله نفسه يهديه من الظلمات إلى نور الإيمان ، لذلك قال الله في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة : ﴿اللَّهُ وَلِيُ الدِّينُ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

كيف يمكن إزالة الحجب؟

كيف يمكن أن يكون لنا عين واذن قرانية؟ كيف يمكن أن يكون لنا عين ترى الحقيقة؟ وفقاً

(١) البقرة : ٧.

لما أفرَّته الآية الشرفية فإنَّ هذه الحجب تزال إذا أزْلنا عن أنفسنا ستار الجهل والتعصب
واللحاجة لنرى ما يرى أولياء الله.
ما علينا هو أن نكون مؤمنين.

لقد ذكرت علامات للمؤمن في روايات أهل البيت عليهما السلام ، وأجل الاطلاع نأتي
بنموذجين هنا :

علامات المؤمن

- ١ . يقول رسول الله ﷺ : «لا يؤمن عبدٌ حتى يحب للناس ما يُحب لنفسه». ^(١)
- ٢ . في رواية أخرى يقول الإمام الصادق ع: «إِنَّ مِنْ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ أَنْ تَؤْثِرَ الْحَقَّ
وَإِنْ ضَرَكَ عَلَى الْبَاطِلِ وَإِنْ نَفَعَكَ». ^(٢)

وبحسب هذه الرواية فإنَّ الحقيقة والصدق من علائم المؤمن ، وهي تحمل في طياتها خطاباً للأحزاب والتكتلات السياسية في البلد بأن يقوم نشاطهم على الصدق والحقيقة وتحنّب الزيف. إنهم إذا بلغوا مرحلة يرجحون فيها حديث عنصرهم الطالع على حديث العنصر الصالح للتكتل المنافس فذلك يعني أنهم لم يدركوا حقيقة الإيمان ، ودعواهم الإيمان زيف لا أكثر.

اللهم ارزق جميع المسلمين الإيمان الكامل.

(١) ميزان الحكمة ١ : ١٩٣ .

(٢) بخار الانوار ٦٧ : ١٠٦ .

المثل العشرون :

الذين يدعون من دون الله

يقول الله في الآية ٤ من سورة الرعد :

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَحِيُّونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْبُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

تصوير البحث

إن آية المثل درست قضية الدعاء والتوكيل ، وهي تسعى لتعليم الإنسان إلى مَنْ يمد يده؟ ثم مثَّلت أولئك الذين يطروقون أبواب المخلوقات دون خالقهم طالبين حاجاتهم من بسط يديه إلى الماء

سؤال :

قبل البت بشرح وتفسير آية المثل ينبغي التساؤل عن سبب عدم التطرق إلى بعض الأمثال التي جاءت قبل سورة الرعد ، مثل الآية الشريفة ٣٢ من سورة المائدة التي اعتبرت قتل النفس البريئة بمثابة قتل الناس جميعاً واحياء نفس بريئة بمثابة احياء الناس جميعاً. فإن فيها تشبيهاً ومتناهياً نوعاً ما ، فلِم لم تأت في البحث.

الجواب:

في القرآن أمثال وتشابيه كثيرة ، لكن بحثنا في الامثال القرآنية لا التشابيه. إنَّ التشبيه هو تنظير شيء بشيء كأن يقال : (إن حسن كالأسد). فهذا تشبيه وليس مثلاً ،

أما المثل فهو تجسيد وبيان لقصةٍ أو جماعةٍ أو قضيةٍ أو مطلب عقلي ليس في متناول أذهان الناس ، كما لو أنَّ الله أراد بيان قضية الحق والباطل وهما قضيتان غير حسية مثُلُهما بالملطري والسيِّل والزِّيد الذي يتجمع على الماء ، فيمثل الحق بالماء والباطل بالزِّيد ، من حيث أنَّ الزِّيد رغم ابتهه وارتفاعه وظهوره إلَّا أنه أجوف ويلاشى بسرعة ... وبناءً على هذا الإيضاح فقد حصلنا على معيار كلي للتمييز بين الأمثال والتشابيه.

البرق والسحب الشقال

لأجل الاستيعاب الأفضل للمثل المذكور علينا شرح الآيات ١٢ و ١٣ من سورة الرعد باقتضاب .

يقول الله تعالى في الآية ١٢ من سورة الرعد : ﴿هُوَ الَّذِي يَرْيِكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمِعًا وَيُنِشِّأُ السَّحَابَ الشَّقَالَ﴾

إنَّ البرق من آثار عظمة الله تعالى ، فهو يزرع الأمل في نفس الإنسان كما يزرع الخوف والقلق .

إنَّ البرق يبشر الناس بمحدية المطر الإلهية ؛ وذلك لأنَّ الرعد والبرق يتسببان في نزول الكثير من المطر .

كيف يسبب البرق نزول المطر؟

اصطدام السحب التي تحمل شحنات كهربائية متضادة يوجد حرارة تقدر بخمسة عشر ألف درجة سانتيغراد . إن هذه الحرارة تحرق الماء الحبيط بها وبذلك يقل ضغط الجو الأمر الذي يؤدي إلى هبوط المطر . من جانب آخر قد يتبلور البرق على شكل صاعقة فيحرق حينئذٍ ما يصطدم به من الغابات والقرى والأشخاص والحيوانات والمزارع ، وهذا هو الذي ينجم عنه خوف الإنسان .

﴿وَيُنِشِّأُ السَّحَابَ الشَّقَالَ﴾ قد يتصور كثير من الناس أنَّ السُّحُب لا تختلف ، وهي تعامل على وتيرة واحدة ، مع أنَّ الحقيقة شيء آخر ، وهي تختلف عن بعضها الآخر كثيراً .

مما تختلف فيه السحب هو أكلاً تنقسم إلى ثقال وخفاف ، والثقال تتموقع في جوٌّ أقرب إلى سطح الأرض ، أمّا الخفاف ففي جوٌّ مرتفع أكثر عن سطح الأرض ، وسبب اقتراب الثقال هو كثرة الرطوبة والماء فيها ، الأمر الذي يمنعها من التصاعد إلى أجواءٍ أبعد.

الرعد دليل على عظمة الله

يقول الله تعالى في الآية ١٣ من سورة الرعد : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَبُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَاكِ﴾ تشير الآية الشريفة إلى موضوعين ، أحدهما : الرعد ، والثاني : الصواعق. وبما أننا تناولنا موضوع الصواعق في البحوث السابقة لذا نخص بحثنا هنا بالرعد.

لقد قلنا سابقاً : إنَّ اصطدام سحب ذوات شحنات كهربائية مختلفة تولد قدحة ضوئية وصوت ، فالنور يقال له : برق ، أمّا الصوت فيقال له : رعد. إنَّ الصوت والضوء يحصلان في وقت واحد ، لكن بما أنَّ سرعة الضوء أسرع من الصوت بمرات ، لذلك يصلنا الضوء قبل أن يصلنا صوت الاصطدام.

رغم ما يبذلوه من بساطة في ظاهرة الرعد ، إلا أنَّه يُعد من آيات الله العظمى ، وله تأثير مهم على حياة جميع الموجودات.

لقد ذكر العلماء آثاراً كثيرة للرعد والبرق نشير هنا إلى أهمها :

١ . هطول الأمطار هي أول فوائد الرعد والبرق ، وهي فائدة تعم جميع الموجودات سواء الإنسان أو الحيوان أو النباتات أو الجمادات.

٢ . يقتل الرعد والبرق بعض الآفات النباتية ؛ وذلك لأنَّ الحرارة التي توجد من خلال هذين الظاهرتين تسبِّب أكسجة الماء أي حلق ماءً مؤكسج يتكون من ذرتين من الأوكسجين بدل ذرة واحدة مع ذرتين من الهيدروجين. ومن فوائد هذا الماء أنه من المطهرات ويمكنه قتل بعض الآفات وال الموجودات المضرة. إنَّ هذا الماء متوفَّر في الصيدليات ويستخدم لغرض التطهير. وكلما زادت ظاهرتا الرعد والبرق كلَّما قلت الآفات النباتية.

الفائدة الأخرى للرعد والبرق هو انتاج الكثير من الاسمدة للنباتات. إنَّ هذين

الظاهرتين

تنتحان كل عام عشرات الملايين من الاطنان من الأسمدة القوية والمفيدة والمؤثرة على جميع النباتات.

طريقة ايجاد هذه الأسمدة هو أن الحرارة الناشئة عن الرعد والبرق تسبب تركيب الماء بذرات الكاربون فينتج أوكسيد الكاربون ، وعند ما يهبط هذا الاوكسيد على الأرض يتربك مع الاترية فينتج نوعاً من السماد المفید والقوى والمؤثر.

نعم ، إن الرعد والبرق لهما هذه الآثار ، وهما من آيات الله العظمى . والمدهش أن الله كشف عن هذه الأسرار العلمية في وقت لم تخطر في ذهن الإنسان هذه الامور أبداً . طبقاً للآية الشريفة ، الرعد يحمد الله ويسبح له ، والتسبيح هنا يعني تنزيه الله من أي عيب ونقص ، ألم يكن قبل الآفات النباتية تنزيهاً الله من كل عيب ونقص؟ أليست هذه الظاهرة تسبيحاً لله نوعاً ما؟

إن الرعد يحمد الله على صفاته وجلاله وجماله. ألم تكن تغذيه النباتات نوعاً من الحمد والثناء لله في عالم الممكنات والمخلوقات؟

لا شك أن الآيات ١٢ و ١٣ تشير إلى هذه النقطة وتعدها من وجوه عظمة الخالق. الخلاصة : أن الآيتين أشارتا إلى بعض من الآيات الإلهية المهمة ، أي الرعد والبرق والمطر الصاعقة.

الشرح والتفسير

﴿لَهُ دُعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يختلف المفسرون في المراد من هذه الجملة ، فالبعض يرى أنها تعني التوحيد ، والتوحيد خاص بذاته تعالى.

ويعتقد بعض آخر أن المراد منها هو القرآن المجيد ، فهي تشير إلى هذا الكتاب الإلهي.

وكتير من المفسرين فسّرها بالدعاء ، أي إذا أراد الإنسان أن يستجاب دعاؤه دعى الله خالصاً ، فغيره لا يحل شيئاً من المشاكل بل الله هو الوحيد القادر على استجابة الدعاء وحل المشاكل.

والشاهد على هذا الرأي (الرأي الثالث) الذي نحن نذهب إليه هو ذيل الآية ، حيث تقول :

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

إنَّ سببَ كونِ دعاءِ الكافِرِينَ في ضلالٍ هو أَهُمْ يسأَلُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ حَتَّى عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَسْتَطِعُ كَسْبَ مَنْفَعَةٍ لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَنْ نَفْعِهِ الْآخَرِينَ.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ

فَاهُوَ مَا هُوَ بِالْغَيْرِ﴾^(١) إنَّ شاهدَ حديثنا في المثل العشرين هو هذا الجزءُ من الآيةِ.

إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَقْصُدُونَ مَعَابِدَ الْأَصْنَامِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهَا لِأَجْلِ حَلِّ مشاكلِهِمْ ، فَمَشَاكِلُهُمْ سُوفَ لَا تُحْلَلُ . وَمِثْلُ إِنْسَانٍ كَهُذَا مِثْلُ الذِّي يَبْسِطُ يَدَهُ وَيَمْدُهَا لِيَأْخُذَ الْمَاءَ وَيَشْرُبُ ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِعُ مِنْ خَالِلِ هَذَا الْعَمَلِ شَرْبَ الْمَاءِ أَبْدًا.

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ ﴿كَبَاسِطٌ كَفَيهُ إِلَى الْمَاءِ ...﴾ نَشِيرُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ هُنَّ :

١ . الْمَرَادُ مِنْهَا هُوَ شَخْصٌ عَطْشَانٌ يَرِيدُ إِرْوَاءَ عَطْشِهِ فَيَقْصِدُ بَعْرًا لَيْسَ فِيهِ حَبْلٌ وَلَا دَلْوٌ ، وَعَمْقُ الْبَئْرِ كَثِيرٌ جَدًّا ، فَيَبْسِطُ هَذَا الشَّخْصُ يَدِيهِ فِي الْبَئْرِ ، لَكِنَّ يَدِيهِ لَا تَمْتَدَانُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مِتْرٍ وَاحِدٍ . وَلَا شَكَ أَنَّ شَخْصًا مِثْلَ هَذَا سُوفَ لَا يَبْلُغُ هَدْفَهُ وَلَا يَرْوِي عَطْشِهِ.

٢ . مَرَادُ الْآيَةِ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يَقْفَى بِجَنْبِ الْبَئْرِ وَيَشْرِبُ لِلْمَاءِ لَكِي يَصْعُدُ وَيَشْرُبُ مِنْهُ .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمَاءَ هُنَّا لَا يُتَالُ بِالْاِشْارةِ إِلَيْهِ ، بَلْ هُنَاكَ حَاجَةٌ وَاقِعَةٌ لِوَسِيلَةٍ تَرْفَعُهُ .

نَعَمْ ، دَعَاءُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ مَعْبُودِ الْأَصْنَامِ ضَلَالٌ ، وَحَالُهُمْ حَالُ إِنْسَانٍ كَهُذَا .

٣ . إِنَّ (بَاسِط) تَعْنِي الَّذِي يَفْتَحُ يَدِيهِ وَلَا يَخْنِيَهُمَا بِحِيثُ يَتَمَكَّنُ الْاِغْتِرَافُ بِهِمَا . فَإِنَّ هَذَا الشَّخْصَ يَذْهَبُ إِلَى جَنْبِ الْمَاءِ وَيَغْتَرِفُ مِنْهُ بِيَدِيهِ حَالًّا كَوْنِهِ فَاتِحٌ لِيَدِيهِ وَبَاسِطُهُمَا ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَوْفِرُ لِلْمَاءِ فَيُضْطَرُ لِلابْتِدَاعِ عَنْ مَصْدَرِ الْمَاءِ ، وَهُوَ عَطْشَانٌ .

نَرِى أَنَّ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلُ هُوَ أَنْسَبُ الْثَّلَاثَةِ ، رَغْمَ إِمْكَانِيَّةِ القُولِ بِأَنَّ الْثَّلَاثَةَ صَحِيحَةٌ وَكُلُّهَا تَبَيَّنَ مَرَادًا وَاحِدًا ؛ وَذَلِكَ لَأَنَّا نَعْتَقِدُ بِامْكَانِيَّةِ اسْتِعْمَالِ لِفَظٍ وَاحِدٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَعْنَى وَاحِدٍ . ^(١)

وَعَلَى مَا تَقْدِمُ عَلَيْنَا . لِأَجْلِ حَلِّ الْمَشَاكِلِ . أَنَّ لَا نَطْرُقُ غَيْرَ بَابِ اللَّهِ ، بَلْ نَقْصِدُ بَابَهُ مِنْذِ الْبَدَائِيَّةِ ، فَهُوَ الْحَالِقُ وَالرَّازِقُ وَالْحَيِّيُّ وَالْمَمِيتُ وَهُوَ حَالٌ لِلْمَشَاكِلِ وَكُلُّ شَيْءٍ بِيَدِهِ . امَّا غَيْرِهِ فَلَا

(١) إِنَّ هَذِهِ قَضِيَّةً اصْوَلِيَّةً طُرِحَتْ فِي كُتُبِ الْأَصْوَلِ ، وَلِلْمُزِيدِ راجِعُ انْوَارِ الْأَصْوَلِ ١ : ١٤٥ .

شيء بيده ؛ لأنّه ما من موجود إلّا وهو يحتاج إلى الله الغني ، فالكلّ يحتاج إليه فكلّ شيء عاجز ، وهو القادر ، وكلّ شيء ضعيف ، وهو القوي والقادر المطلق ، فلا يصح الذهاب لا لمعبّد الأصنام فحسب بل لكلّ شيء غير الله.

خطابات الآية

١ . هل التوسل بالمعصومين لله ولائمه شرك؟

وبعبارة أخرى : هل أنّ الأدعية والتосّلات بالأئمّة تشملها الآية الشريفة وينهي عنّها الشارع المقدّس وينبغي الاجتناب عنها؟

نقول جواباً عن التساؤل الماضي : إنّ التوجّه لهؤلاء العظّماء لا يعني طلبنا منهم حل المشاكل بشكل مباشر ، بل نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله ويبحثوا لنا عن حلٍّ لنا من الله القادر المطلق ؛ وذلك لأنّا نعتقد أنّ هؤلاء إذا استطاعوا فعل شيء فبأذنِ من الله. أما الوهابيون الذين ينسبون لنا الشرك والكفر لأجل هذه الأدعية والتوسّلات فما هم على خطأ ، وهم لا يعرفون المعنى الحقيقي للشرك والكفر ، كما أنّهم لم يستوعبوا ماهية التوسل الذي عند الشيعة.

في رحلتي لمكة والمدينة عام ١٤١٩ هـ . ق. التي كانت لغرض أداء العمرة ، حضرت صلاة الجمعة في اليوم الثاني والعشرين من شعبان في المسجد الحرام ، وكنت أصغي لما يقول الخطيب. والمدهش هنا أنّ الخطيب كان يقرأ عن ورقة قد أعدّها من ذي قبل ، يبدو أنّه ما كان بحاجةً لإضافة أو تنقيص ولو كلمة واحدة ، فتذكرت خطبة الجمعة في مدن ايران ومدى ما يتمتع به الخطيب من حرية التعبير والتحليل. وعلى أي حال هاجم هذا الخطيب في أثناء خطبته أولئك الذين يتولّون عند القبور المشرفة ورميهم بالشرك والكفر.

بالطبع لم نسكت أمّام هجوم هذا الخطيب ، بل كتبنا رسالة إلى زعماء السعودية اعتراضنا فيها عما تفوه به هذا الشخص.

إنّ الذين يعتقدون بالدعاء والتوكّل لا يعتبرون أولياء الله شركاء الله ، بل شفعاء عنده. وبعبارة أخرى : أنّ اعتقادنا هو تحسيد للأية الشريفة (المائدة ١١٠) التي تحدّث عن السيد

المسيح (على نبينا واله وآلہ و علیہ السلام) ﴿وَإِذْ تَحْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةً الطَّيْرِ يَأْذُنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذُنِي وَتُبَرِّئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ يَأْذُنِي وَإِذْ تُخْرُجُ الْمَوْتَىٰ يَأْذُنِي ...﴾

في هذه الآية نسب الخلق والاحياء والشفاء كلها للسيد المسيح علیہ السلام لكن بإذن من

الله تعالى. ^(١)

والشيعة لا تقول شيئاً غير هذا الذي في الآية الكريمة ، فالشيعة تعتقد أنَّ العظماء والأولياء يمكنهم فعل الكثير الذي يعجز عنه البشر لكن باذن الله ، كما يمكنهم أن يশفوا للعباد عند الله حل مشاكلهم. وعلى هذا فدعا الشيعة وتسلهم لا شرك ولا كفر.

ومع هذه الإيضاحات نقول : إنَّ الذي يعُدُ الشيعة لاجل دعائهم وتسلهم مشركين ، فهو يعُدُ السيد المسيح مشركاً كذلك.

ويمكنا أن نستفيد مما سبق ضمنياً أن المعجزة قد لا تحصل بدعاء النبي وإجابة الله مباشرة ، بل قد تكون من النبي أو الوالي مباشرة لكن بإذن من الله تعالى كما هو الحال بالنسبة لمعجزة شق القمر ^(٢) التي صدرت عن رسولنا علیہ السلام ، وهذا أمر غير مستبعد.

٢ . الصور المختلفة لعبادة الأصنام

ل العبادة الأصنام تاريخ طويل واشكال مختلفة ، فقد تكون بشكل صنم يُصنع بأيدي الناس من الحجر أو الخشب أو الفلز بل وحتى من الأغذية ، ثم يقع لها الإنسان ساجداً وعابداً.

في برهة من الزمن كان المشركون يقدمون على انتخاب موجودات غير ذات شعور يعتبرونها أصناماً للعبادة ، لذلك عبد البعض الشمس ، والآخر النجوم أو القمر ، ^(٣) بل إنَّ البعض أقدم على عبادة أنهار أو بحيرات مهمة مثل نهر النيل أو بحيرة ساوه في ايران ، وقد يكون جفاف بحيرة ساوه وانطفاء معبد فارس عند ولادة الرسول ^(٤) بسبب أنها كانت معابد للإنسان آنذاك.

(١) يُحکي هذا المطلب على لسان السيد المسيح نفسه في الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٢) تجد شرح هذه المعجزة في كتاب (المعراج - شق القمر - العبادة في القطبين) بالفارسية.

(٣) اشير إلى هذا المطلب في الآيات ٧٦ - ٧٨ من سورة الأنعام.

(٤) لقد حدثت معاجز كثيرة بولادة الرسول علیہ السلام كان منها انطفاء نار معبد فارس وجفاف بحيرة ساوه. وللمزيد

راجع منتهى الامال ١ : ٤٤.

وفي بعض من بقاع العالم كان البعض يعبد الاشجار وبخاصة شجرة الصنوبر التي كانت منذ القدم معبوداً لمجموعة من الناس. من هنا اعتقاد بعض المفسرين أنَّ (أصحاب الأيكة) هم أنفسهم عبدة شجرة الصنوبر الذين كانوا منشأ لخرافة (سيزده به در) أبي الثالث عشر من بداية السنة الشمسية.

وفي زمن كانت الحيوانات آلة لبعض من الناس. وَمِمَّا يُؤْسِفُ لِهِ أَنَّ هَذَا النَّوْعُ مِنِ الْعِبَادَةِ لَا زَالَ مُوجُودًا فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ مِنِ الْمَهْدِ.

وقد أَلَّهُ الْبَعْضُ أَشْخَاصًا مِنِ الْبَشَرِ ، كَمَا هُوَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ لِفَرْعَوْنِ حِيثُ كَانَ الْبَعْضُ يَعْبُدُ كَرْبَلَهُ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ نَقْلًا عَنْ فَرْعَوْنَ نَفْسِهِ : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١) وَقَدْ أَلَّهُ الْبَعْضُ الْمَلَائِكَةَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

يَقُولُ أَحَدُ الْمُؤْرِخِينَ : (كُلُّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ قَدْ تَأَلَّهُ ، وَكَانَ يُعْبُدُ فِي يَوْمٍ مَا وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا لَمْ يَتَأَلَّهُ وَلَمْ يُعْبُدُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ).

عَلَى كُلِّ حَالٍ ، أَنَّ مَا يَجْمِعُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ هُوَ التَّوْجِهُ إِلَى مَا سُوِّيَ اللَّهُ وَالْغَفْلَةُ عَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ جَاءَ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْعَظِيمَاءِ : (كُلُّ مَا شَغَلَكَ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ صَنْمَكَ). مِنْ هَنَا عُدَّ الْمَالُ وَالْبَنْوَنُ وَالْمَرْأَةُ وَالشَّرْوَةُ وَالْمَقَامُ وَالصَّدِيقُ وَكُلُّ شَيْءٍ يَغْفِلُنَا عَنِ اللَّهِ صَنْمَمًا.

الْقُرْآنُ قَدْ شَطَبَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ سُوِّيَ اللَّهُ ، وَلَا يَرِي أَهْلِيَّةَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ ذَاتِهِ الْحَقَّةِ ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ فَقِيرَةٌ وَتَحْتَاجُهُ وَتَفْتَقِرُ فِيهِ فِي كُلِّ آنِ وَلحْظَةٍ ، لَيْسَ فِي بَدَايَةِ الْخَلْقِ فَحَسِبَ بِلَ لَادَامَةِ الْحَيَاةِ وَاسْتِمْرَارِيَّتِهَا كَذَلِكَ.

إِنَّ مَثَلَ حَاجَةِ الإِنْسَانِ إِلَى اللَّهِ كَمَثَلِ حَاجَةِ الْمَصْبَاحِ إِلَى مَوْلَدِ الْكَهْرَباءِ ، فَكَمَا أَنَّ الْمَصْبَاحَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَوْلَدِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مَا دَامَ مَتَقَدًا ، كَذَلِكَ الإِنْسَانُ فَانِّهُ يَفْتَقِرُ فِيْضَ اللَّهِ فِي كُلِّ لَحْظَاتِهِ مَا دَامَ حَيًّا.

وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى : أَنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ الْعُمَرِ هِيَ خَلْقٌ وَصَنْعٌ جَدِيدٌ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ

فِي

(١) النَّصْصُ الْآيَةُ .٣٨

شَانِ^(١) وبخاصة إذا فسرنا ذلك حسب رؤية (الحركة الجوهرية) فإن الأمر سيكون أوضح.

(٢)

الدعاء من وجهة نظر القرآن والروايات

إن الدعاء قضية مهمة جداً وقد انعكست بشكل واسع في القرآن ورويات المعصومين علیهم السلام . وفي هذا المجال مباحث وأسئلة عديدة نشير إلى بعضها هنا :

١ . ما هي فلسفة الدعاء؟ إذا كنا مستحقين للاجابة فالله العالم بالظاهر والباطن سيستحجب طلباتنا من دون حاجة إلى دعاء ، وإذا لم تستحق الاجابة فإن الله سوف لا يجيب طلباتنا سواء دعوناه أم لم ندعوه ، ولا تأثير لدعائنا هنا ! وبتعبير آخر : أن طلبتنا إذا كانت بمصلحتنا فسيوفرها لنا الله من دون حاجة إلى دعاء ، وإذا لم تكن بمصلحتنا فإنه سوف لا يوفرها مهما أصررنا بالدعاء والتسلّل . إذن ما فلسفة الدعاء وما دوره؟

٢ . ما هي شروط إجابة الدعاء؟ وما علينا فعله لكي يستجيب لنا الله الدعاء ولكي يبلغ هدف الاجابة؟

٣ . ما هي موانع استجابة الدعاء؟ لماذا لم يستجب لبعض الأدعية رغم الاصرار الوافر في طلبها؟

٤ . ما هو أسوأ دعاء؟

الدعاء أفضل عبادة

المستفاد من الآيات والروايات هو أن الدعاء ليس كونه عبادة فحسب ، بل من أفضل العبادات .

(١) الرحمن الآية ٢٩ .

(٢) للمزيد راجع تفسير الأمثل ١٧ : ٣٧٣ - ٣٧٤ .

والأجل إيضاح أهمية الدعاء نشير إلى ثلاث آيات من القرآن وست روایات من المقصومين :

١ . يقول الله تعالى في الآية ٦٠ من سورة غافر (المؤمن) : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

استخدمت الآية في البداية مادة (الدعاء) ثم أبدلتها بمادة (العبادة) في نهاية الآية.

لماذا عبر القرآن بالعبادة عن الدعاء؟

قال البعض : إن العبادة بمعناها المطلق هي دعاء ، والأجل ذلك كان تعبير الروايات بأن «الدعاء مع العبادة». ^(١)

٢ . يقول الله تعالى في الآية ٧٧ (آخر آية) من سورة الفرقان : ﴿فَلَمَّا مَا يَعْبُطُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاكُمْ فَقَدْ كَذَبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾

إن هذا التعبير ﴿ما يَعْبُطُ بِكُمْ...﴾ يعني عدم اهتمام الله بكم لو لم تدعوا ، لم يستعمل في العبادات الأخرى مثل الحج والصوم والجهاد وغير ذلك ، وقد استخدم في الدعاء فقط ، وهو تعبير يعني باطلاقه أن الذي يجعل الله يهتم بكم ويعتني رغم الذنوب والآثام هو الدعاء ، فقدروا هذه العبادة وثمنوها.

٣ . يقول الله تعالى في الآية ١٨٦ من سورة البقرة بعد الحديث عن فضيلة واحكام شهر رمضان المبارك : ﴿وَإِذَا سَأَلْكُمْ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَحِبُّ دُعَوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَحِبُّوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشَدُونَ﴾

لا شك أن تعبير الآية التالية : ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِّنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ^(٢) للإشارة إلى قرب الخالق إلى المخلوق ، هو أجمل تعبير يمكن أن يرد في هذا المجال . وعلى هذا ، فإن التفكير في الآيات السابقة يرشدنا إلى أن الدعاء من وجهة نظر الإسلام أمر مهم جدا بحيث اضافة إلى كونه عبادة يجب اعتناء الرب بالإنسان ، كونه وسيلة لتقرب العبد إلى مولاه .

الدعاء في الروايات

(١) ميزان الحكم ، الباب ١١٨٩ ، الحديث ٥٥١٩.

(٢) سورة ق. الآية ١٦ .

قلنا سابقاً : إنَّ الكثير من الروايات تناولت قضايا الدعاء ، نكتفي هنا بذكر ستٍ منها.

١ . يقول رسول الله ﷺ : «الدُّعَاءُ سِلَاحٌ الْمُؤْمِنِ وَعِمْدُ الدِّينِ وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ^(١)

نعم ، رغم أنَّ الدُّعَاءَ عبادة سهلة ، لكنه ، حسب ما يستفاد من كلمات الرسول ﷺ . يحضى بشأن رفيع عند الله. إلا أنَّ الإِنْسَانَ غافل عنه بسبب سهولته وبساطته.

٢ . يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «الدُّعَاءُ مَفْتَاحُ الرَّحْمَةِ وَمَصْبَاحُ الظُّلْمَةِ». ^(٢) نعم ، هو مصباح ليس في الدنيا فحسب بل في الآخرة كذلك.

٣ . يقول رسول الله ﷺ في رواية أخرى : «عَمَلَ الْبَرِّ كُلَّهُ نَصْفُ الْعِبَادَةِ ، وَالدُّعَاءُ نَصْفٌ». ^(٣)

٤ . يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أَكْثُرُ الدُّعَاءِ فِيَّ مَفْتَاحٌ كُلِّ رَحْمَةٍ وَنَجَاهٌ كُلِّ حَاجَةٍ ، وَلَا يَنْالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالدُّعَاءِ ، وَلَا يَنْلَا مَا يَشَاءُ إِلَّا يَوْشَأُكَ أَنْ يَفْتَحَ لِصَاحِبِهِ». ^(٤)

وعلى هذا ، فالإِنْسَانُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَخْيِبَ أَمْلَهُ بِمُحْرَدِ عَدَمِ الإِجَابَةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ يَرِيدُ تطهير قلب العبد وتأديبه وتربيته من خلال الدُّعَاءِ.

٥ . يصف الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الدُّعَاءَ بالشكل التالي : «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ». ^(٥)

٦ . يقول الإمام علي بن موسى الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ : «عَلَيْكُم بِسِلَاحِ الْأَنْبِيَاءِ» ، قيل : ما سلاح الأنبياء؟ قال : «الدُّعَاءُ». ^(٦)

يستشف مما سبق من الآيات والروايات أنَّ للدُّعَاءِ شأنًا عظيمًا في الإسلام ويحضى بأهمية كبيرة.

سر الدُّعَاءِ في الإسلام

(١) الكافي ٢ : ٤٦٨.

(٢) بخار الأنوار ٩٠ : ٣٠.

(٣) ميزان الحكمة ، الباب ١١٨٩ ، الحديث ٥٥٣٣.

(٤) ميزان الحكمة ، الباب ١١٦٩ ، الحديث ٥٥٨٥.

(٥) ميزان الحكمة الباب ١١٨٩ ، الحديث ٥٥١٦ و ٥٥٣٢.

(٦) الكافي ٢ : ٤٦٨.

لماذا يخضى الدعاء في الدين بدرجة وقيمة كبيرة ، بحيث عُدَّ أفضل العبادات وسلاماً للمؤمن وعموداً للدين ونور السماوات والأرض ومفتاح الرحمة ومصباح المداية ونصف العبادة وسر النصر وسلام الأنبياء وسبباً لرفة شأن الإنسان عند الله؟
إذا دققنا في هذه التحفة والهدية الإلهية ودرستها جيداً لوحدها أهلاً لهذه الأمور كلها.

إنَّ الدعاء يترك آثاراً مهمةً في الإنسان ، وأهم تلك الآثار هو التربية ، فإنَّ الدعاء سبب لتربية الإنسان وتزكيته.

إنَّ التعليم والتربية اللتين ابنتيهما بعثة الأنبياء ، يُعدان من أهم أهداف البعثة ،
(١) وما لا شك فيه أن التعليم مقدمة للتربية ، لذلك كانت التربية المدف النهائي للبعثة.

العلاقة بين الدعاء والتربية

للدعاء آثار تربوية كثيرة نشير إلى ثلاثة منها :

إنَّ الأثر الأول هو إيجاد نور الأمل في قلوب الناس ، فالإنسان الخائب الأمل يكون في عداد الموتى. إنَّ المريض يتحسن إذا كان قد ملأ قلبه بنور الأمل وسوف لا يتحسن إذا فقد أمله في التحسن ، كما أنَّ السبب الرئيسي لنجاح المقاتلين في ميادين الحرب هو الأمل والمعنويات العالية ، أما العسكر الذي يفقد الأمل ولا يتحلى بمعنويات عالية فسوف يخسر المعركة ولو كان قد عُدَّت له العدة وجُهَّز بأكثر الأسلحة تطوراً.

إنَّ الدعاء يعكس ضوء الأمل في قلب الإنسان.

إنَّ أصحاب الدعاء والمتوكلين على الله . رغم مشاكلهم الكثيرة وأعدائهم الجسوريين وفقرهم المالي . إذا توجهوا إلى الله وناجوه ، حيث قلوبهم نضحت بنور الأمل ، وتفاءلوا بالمستقبل ، وكأنَّمِنْحُوا حياة جديدة ؛ وذلك لأنَّمِنْحُوا أيدي العون إلى من كانت أصعب الشدائـد عنده أسهلها ، مدوا أيديهم إلى الله الذي لا موقع للصعب والسهل عنده ، وذلك لأنَّ الصعب يعني الشيء الذي فوق القدرة والسهل يعني الشيء الذي أدنى من القدرة ، وهـل هناك

(١) سورة الجمعة الآية الثانية.

شيء يفوق قدرة الله؟

وعلى هذا ، فلا اختلاف عند الله بين الصعب والسهل ، فإذا أراد شيئاً قال له (كن) فيكون في لحظة حتى لو كان ذلك الشيء هو صنع ملايين من الشموس المشيلة لشمس الأرض.

إنَّ الإنسان إذا دعا وناجي من يملك مثل هذه القدرة وسجد له وخشع وبكى وطرح مشاكله عليه ، فلا شك أنَّ نور الأمل سيستحوذ على قلب هذا الشخص.

٢ . الاشر الثاني للدعاء هو ايجاد نور التقوى في الإنسان الذي هو السبب في تقرب

الإنسان إلى ربه. ^(١)

التقوى هو زاد نجاة الإنسان يوم القيمة ؛ ^(٢) وهو حواز دخول الجنة. ^(٣)

الدعاء يحيي هذه الجوهرة الثمينة في قلب الإنسان ، إنَّ الإنسان إذا ناجي الله وتосل به ودعاه باسمائه الحسنى وصفات جماله وجلاله ، فإنَّ ذكر هذه الصفات سيترك أثراً يسوق الإنسان نحو الله بشكل يشعر الإنسان بأنه إذا أراد الاستجابة تاب وأناب إلى الله.

إنَّ الدعاء يدعو الإنسان إلى التوبة ، والتوبة تدعو الإنسان لاعادة النظر في حياته ، وفي نهاية هذه الحركة يتقد نور التقوى في حياة الإنسان.

جاء في حديث : «من تقدم في الدعاء استجبيت له إذا نزل به البلاء ، وقالت الملائكة : صوت معروف ولم يحجب عن السماء ، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة : إنَّ ذا الصوت لا نعرفه». ^(٤)

يقول الإمام علي عليه السلام في خطبة همام القيمة عند بيانه لأوصاف المتقين : «نُزلت أنفسهم منهم في البلاء كَالَّتِي نُزِّلت في الرِّحْمَاء». ^(٥)

وهذا ، لا فائدة في مناجاة فرعون وإقراره بالتوحيد ، فقد جاء في الحديث ما يلي :

(١) كما هو مضمون الآية ١٣ من سورة الحجرات ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَئْقَامُكُم﴾.

(٢) كما هو مضمون الآية ١٩٧ من سورة البقرة : ﴿وَتَرَوَّذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ...﴾.

(٣) كما هو مضمون الآية ٦٣ من سورة مريم : ﴿تُلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾.

(٤) ميزان الحكم ، الباب ١١٩٤ الحديث ٥٥٦٣.

(٥) نجح البلاغة ، الخطبة ١٩٣.

«... قال جبرائيل : ... لما غرق والله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت

به بنو إسرائيل . فأخذت حمأة (حكومة من طين) فوضعتها في فمه ...». ^(١)

٣. إنّ الالّاث التربوي الثالث للدّعاء هو تقوية نور المعرفة.

إنّ الإنسان عند ما يتحمّه إلى الله سوف يبدأ بالتفكير بأنّ الله قادر وعالم بما خفي عنا وعا ظهر ومحبّط بجميع الأسرار ، وهذا سوف يرفع من مستوى معرفة الإنسان ، وبخاصة إذا كانت الأدعية المقرؤة من الصحيفة السجادية أو المناجاة الشعبانية أو الصباح أو كميل أو الندبة ، فهي تضمّ أرقى الدّروس العرفانية ، ومع وجود أدعية ، أمثل هذه ، لا داعي بالنسبة لطلبة العرفة أن يلحّوا إلى كتب مشكوك في أمرها.

وعلى هذا ، فالدّعاء يوقد نور التقوى والمعرفة في قلب الإنسان.

سؤال : نقرأ في دعاء شهر رجب . الذي يستحب قراءته بعد كل صلاة من الشهر .

العبارة التالية : «يا من يعطي من سأله ، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه».

وعلى أساس هذه العبارة فإنّ الله يعطي كل شخص سواء دعا أم لم يدعه ، وسواء

كان عارفاً به أم لم يكن. وعلى هذا فما فائدة الدّعاء وجدواه؟

الجواب : إنّ لفيض الله وبركاته أقساماً وأنواعاً :

قسم يمنحه الله لجميع البشر ، مثل الغيث ، فالجميع من الكافر والمؤمن والعارف

وغيره يفيدون منه.

وكلّ قسم من البرّكات تمنح للعارفين من المؤمنين ولا تشمل غيرهم.

وكلّ قسم من البرّكات والفيض يُنْحَنِي للداعين فقط دون غيرهم.

جاء في حديث : «لا تقل إنّ الأمر قد فرغ منه ، إنّه عند الله منزلة لا تُنْسَى إلّا

بمسأله».^(٢)

وعلى هذا ، فإنّ القسم الأول هو الوحيد الذي يشمل الجميع أما القسم الثاني

والثالث فالإيمان والدّعاء يؤثّران فيهما.

موانع وشروط استجابة الدّعاء

(١) مجمع البيان ذيل الآية ٩٢ من سورة يونس.

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ١١٨٩ ، الحديث ٥٥٢٩.

لماذا لم يستجب لبعض أدعينا؟ لماذا لم تتحقق وعود الله في مجال استجابة الدعاء؟ هل الاشكال من قبل الله . نعوذ بالله . أم الاشكال من قبل الداعين أنفسهم؟ إنَّ هذه الشبهات كان يطرحها الصحابة وال المسلمين في زمن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) ، وكان أهل الذكر (الأئمة) يجيبون عليها في روايات وردت عنهم. مجموع الروايات السابقة وروايات أخرى جاءت في هذا المجال (ولم تتضمن أسئلة) تكشف عن أنَّ هناك شروطاً لاستجابة الدعاء ، على الداعين توفيرها وتحصيلها ، كما عليهم إزالة الموانع والعقبات عن الاستجابة.

وعلى هذا ، فإنَّ الإنسان إذا دعى من دون تحصيل الشروط ورفع العقبات والموانع ، ولم يستجب دعاؤه ، فما عليه أن يلوم إلا نفسه. إنَّ مثلك الداعي من دون تحصيل الشروط ورفع الملوانع مثل المريض الذي يذهب للطبيب للتداوي فيكتب الطبيب له نسخة تتضمن إرشاد المريض بحقن ابرٍ في كل يومين مرة ، وبعد استلام المريض الدواء واستهلاكه وعدم الشفاء يرجع المريض للطبيب قائلاً له بعصبية : (أي طبيب أنت وأي دواء كتب لي؟! لم أشف منه أبداً) فيسأله الطبيب : (هل حقنت الابر في كل يومين مرة؟) فيجيبه : (لا بل في كل ثلاثة أيام).

ويسأله مرة أخرى هل : (استخدمت المضادات الحيوية في كل ثمان ساعات؟) فيجيبه المريض : (كنت أبتلع في اليوم كبسولة واحدة) ويسأله مرة أخرى : (امرتك بالاستراحة لمدة أربعة أيام هل استرحت فيها أم لا؟) فيجيبه : (وهل هذا أمر ممكن رغم ما نعانيه من غلاء في السلع والأغذية؟ فاني رجعت للعمل في نفس اليوم).

فيهز الطبيب رأسه ويقول له : (لا إشكال في الأدوية التي كتبتها لك ، والاشكال هو فيك من حيث إنَّك لم تعمل بما أمرتك به ، الامر الذي أدى بك أن لا تسترجع صحتك وعافيتك فلا تلم إلا نفسك).

كذا الحال لو أعطى متخصص زراعي بذوراً لفلاح وأمره بشرها وزرعها والعناية بها بشكل خاص وسقيها في أوقات محددة ، والفالح لم ي عمل بوصايا المتخصص ، وكانت النتيجة هي عدم إثمار البذور ، فإنَّ المقصّر هنا هو الفلاح نفسه لا شخص آخر. اعزتي : أيها الصيام المحترمون! إخوان وأخوات الأعزّة! إنَّ أدعينا مثل البذور فلا يكفي

إنّ ما تقرّه الروايات هو ضرورة توافر الظروف والشروط وارتفاع المowanع لأجل الاستجابة. لكن المؤسف هنا هو توقعنا للأجابة من دون توفير هذين الأمرين ، وذلك غير معقول.

نشير هنا إلى بعض من شروط وموانع استجابة الدعاء :

١ . عدم معرفة الله أهـم مانع عن الإستجابة

عبارة أخرى : أنّ معرفة الله من الشروط الأساسية بل أهـم شرط لاستجابة الدعاء.

وهل يمكن الطلب مـن لا يـعرف وـمن نـجهله؟!

في رواية عن الإمام الصادق عـلـيـهـالـسـلام سـأـلـهـالـبعـضـعـنـسـبـعـدـاستـجـابـةـالـدـعـاءـ

فـأـجـابـهـمـ: «لـأـنـكـمـتـدـعـونـمـنـلاـتـعـرـفـونـهـ». ^(١)

وعليه ، فـكـمـاـقـلـنـاـسـابـقـاـ: إـنـالـدـعـاءـيـلـقـيـبـنـورـالـعـرـفـفـيـقـلـبـإـلـإـنـسـانـ،ـوـالـعـرـفـةـ

هيـالـأسـاسـلـلـدـعـاءـ،ـأـيـأـنـلـهـذـينـآـثـارـمـتـبـالـدـلـةـ.

يـقـولـالـلـهـفـيـالـقـرـآنـ: ﴿إـنـالـصـلـاـةـتـنـهـىـعـنـالـفـحـشـاءـوـالـمـنـكـرـ﴾ ^(٢) أيـأـنـالـجـمـعـ

المـصـلـيـلـاـيـلـوـثـبـالـذـنـوبـوـكـذـاـأـفـرـادـ؛ـلـأـنـالـصـلـاـةـهـيـالـضـمـانـوـالـأـمـانـمـنـالـذـنـوبـ.

معـمـلـاحـظـةـالـآـيـةـالـشـرـيفـةـالـسـابـقـةـ،ـلـمـاـنـرـىـبـعـضـالـمـصـلـيـنـيـرـتـكـبـونـالـذـنـوبـ؟ـهـلـ

الـاشـكـالـ.ـنـعـوذـبـالـلـهـ.ـمـنـالـآـيـةـنـفـسـهـاـأـمـمـنـالـمـصـلـيـذـاتـهـ؟ـالـمـصـلـيـإـذـاـمـاـكـانـعـارـفـاـبـالـذـيـ

يـصـلـيـإـلـيـهـوـيـسـجـدـلـهـ،ـفـإـنـصـلـاـتـهـسـوـفـلـاـتـكـوـنـتـأـمـيـنـاـلـهـمـنـالـذـنـوبـوـمـاـنـعـاـلـهـعـنـ

الـمـعـصـيـةـ.ـإـنـمـعـرـفـةـالـلـهـجـوـهـرـةـثـمـيـنـةـوـهـيـشـرـطـلـكـثـيـرـمـنـالـعـبـادـاتـ،ـبـلـهـيـشـرـطـحـتـ

لـلـزـيـاراتـ؛ـوـذـلـكـلـأـنـثـوـابـوـآـثـارـالـزـيـاراتـتـخـصـذـلـكـبـعـضـالـذـيـتـقـتـرـنـزـيـارتـهـبـعـرـفـةـالـلـهـ.

^(٣)

(١) بـحـارـالـانـوارـ: ٩٠ : ٣٦٨.

(٢) العنكبوت الآية ٤٥.

(٣) نـجـدـنـمـوـذـجاـمـنـهـذـهـالـرـوـاـيـاتـفـيـكـتـابـوـسـائـلـالـشـيـعـةـجـ١٠ـابـوـبـالـمـزارـ،ـالـبـابـ٨ـ٢ـ.

وعلى هذا ، فإنَّ الشرط الأول لاجابة الدعاء هو معرفة صفات جلال الله وجماله وأفعاله وسمائه الحسنى ، وعلى كل شخص أن يحوي هذه المعرفة قدر طاقته وامكانه.

٢ . النية الصادقة والقلب المخلص

إنَّ الشرط الثاني لاجابة الدعاء هو النية الصادقة والظاهرة والقلب المخلص والعاري عن الرياء.

وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَيَّةٍ وَقَلْبٍ مُخْلِصٍ اسْتَجِيبُ لَهُ بَعْدَ وَفَائِهِ بِعَهْدِ اللَّهِ عَزَّ ذِيَّلَهُ». (١)
إنَّ العمل بعهد الله والوفاء به . والذي هو صفاء القلب والاخلاص في النية . هو شرط قبول الدعاء.

ينبغي الالتفات إلى كيفية تربية الدعاء للإنسان ، إنَّا نطرق باب الله لقضاء الحاجة وحلَّ المشاكل ، إلاَّ أَنَّهُ علينا أَنْ نعلم بعْدَ امْكَانِيَّةِ الْاسْتِجَابَةِ إِلَّا بِالْاخْلَاصِ وَصَفَاءِ الْقَلْبِ ، لِذَلِكَ كَانَ عَلَيْنَا السعيُ فِي التَّرْكِيَّةِ وَتَحْذِيفِ النَّفْسِ.

٣ . الأكل الحلال شرط مهم وصعب لاجابة الدعاء

يقول الرسول ﷺ في رواية جميلة جداً ومنذرة كذلك : «أطيب كسبك تستجاب دعوتك ، فإنَّ الرجل يرفع إلى فيه حراماً فما تستجاب له دعوة أربعين يوماً». (٢)
بعض الناس تلوثت أموالهم ومكاسبهم بالحرام وذلك بالتطفييف والربا وظلم الآخرين وعدم أداء الواجبات المالية ، رغم ذلك يتوقعون من الله الإجابة.
المستفاد من الكلام الشمين لرسول الله ﷺ هو أنَّ الدعاء عامل مهم في تربية الإنسان ويحضر الإنسان على رعاية الحلال والحرام.

(١) مكارم الاخلاق ٢ : ٨٧٤.

(٢) مكارم الاخلاق ٢ : ٢٠.

من الإنصاف أن نقول : إن رعاية الحلال والحرام له دور مهم في حياة الإنسان ، وأن الناس إذا اهتموا بهذا الجانب من حياتهم لما تكدرت الأضمار والشكوى في المحاكم .
إذا راعى الناس الحلال والحرام ما كان مجتمعنا يضم هذا المقدار من الفقراء .
أسفًا أن البعض غافل عن هذا ويثير عمله بشكل أو آخر ويقول : أين الحلال والحرام؟ لا وجود للحلال لكى نراه .

يقول أحد هؤلاء الذين يتمسكون بتبيرات هي هراء في الواقع : (إن الحلال الوحيد في الدنيا هو ماء المطر ويمكنك الاستفادة منه في وسط النهر فقط لأن مكان نطمئن بعدم غصبه ، فعند هطول الامطار قف هناك وافتح فمك لتناول قطرات ، وهذا هو المقدار الوحيد المسلم بحليته) .

إن أنساً مثل هذا يخادعون أنفسهم ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَحْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)

وبعبارة أخرى : أنهم يغالطون أنفسهم ؛ وذلك لأن حديثنا في الحلال والحرام الظاهرين ، وهم يتحدثون عن الحلال والحرام الواقعيين ، مع أنهم مأمورون بالعمل حسب الظاهر لا الواقع .

ألم يهيء أئمتنا مأكلاتهم ومشروباتهم من سوق المسلمين هذا ، وهم في الوقت ذاته يتزمون بالظواهر ولا يختاطرون إلا في الاماكن المناسبة . مثلاً كانوا يفيدون من الخبز واللحوم اللذين لم تدفع زكاتهما؟

ومن المناسب لنا كذلك أن نعد مقدار استهلاكنا السنوي للخبز واللحوم وندفع زكاته ؛ لأن الكثير من المزارعين والرعاة لا يدفعون زكوات أموالهم ونحن نفيد من مصروفاتهم ومنتجاتهم ، وهذا مؤسف حقاً ؛ لأنه ابتلاء لنا .

رغم أننا معدورون بسبب عدم العلم إلا أن عدم الدفع سوف يترك أثراً على الوضع . ولذلك كان عده دفع زكاته أمراً مستحسناً ويسبب الطهارة القلبية والنزاهة الروحية .
النتيجة هي أن الأكل الحلال لا يؤثر في الدعاء فحسب ، بل في جميع عبادات

الإنسان من

(١) سورة البقرة : ٩.

الصلاه والصوم والحج والزيارات الواجبة والمستحبة وأمثال ذلك. ومن ناحية أخرى ، إن الأكل الحرام لا يمنع عن استجابة الدعاء ، بل يؤثر سلباً على نشاط الإنسان ومعنوياته وعباداته وزياراته ويجره إلى الكسل عن قراءة القرآن واقامة الصلاه ، وهو في النهاية يحول دون الالتزام بهذه الأعمال.

٤ . حضور القلب

الشرط الرابع لاستجابة الدُّعاء هو حضور القلب ، ومن الواضح أنَّه شرط ذات أهمية وقيمة ؛ لما جاء في رواية : سُئل النبي ﷺ عن اسم الله الأعظم؟ فقال : « كل اسم من أسماء الله أعظم ففِرِغَ قلبك من كُلٌّ ما سواه وادعه بأي اسم شئت ». ^(١) من هنا يتضح أنَّ الأسم الأعظم ليس لفظاً خاصاً . كما يتصوره البعض . لكي يُنطَق به وتحل به جميع المشاكل ، بل إنَّه حالة وصفة خاصة ينبغي ايجادها في باطن الإنسان ، وهي عبارة عن تطهير القلب . ^(٢)

القلب إذا كان مركزاً للأصنام (صنم المال وصنم المقام وصنم الشهرة وصنم الزوجة والأولاد وما شابه ذلك) فالدعاء إذا صدر فيصدر من معبد الأصنام هذا. ومن الواضح أن دعاءً كهذا لا يستجاب.

الخطوة الأولى للاستجابة هو الاقتداء بما فعله ابراهيم عليه السلام في كسرهما الأصنام ، فبذلك تطهر القلوب ، فهي آنذاك تصفى للواحد الأحد ، ثم ادعه بأي اسم شئت ، وسوف لا تكون النتيجة إلا الاستجابة.

مع الالتفات إلى الشروط الاربعة الماضية نقول : هل نحن وفرنا هذه الشروط؟ هل كان طعامنا من حلال؟ هل كان قلبنا حالياً من الأغيار؟ هل كان الصفاء والاخلاص في النية هو الذي يحكمنا؟ هل كنا نعرف الله؟

(١) بخار الانوار ٩٠ : ٣٢٢ .

(٢) للمزيد راجع ما ورد عن (الاسم الاعظم) في تفسير الامثل فقد تناولت البحوث في هذا المجال في ثانيا الكتاب.

إذاً كنا نفقد هذه الشروط علينا السعي في كسبها وبخاصة في شهر رمضان المبارك ، شهر الرحمة واللطف الالهي ، وهو شهر تستعدُ فيه روح الإنسان لهذه الأمور أكثر ، كما هو فرصة مناسبة للدعاء ...

استجابة بعض الأدعية ليست بمصلحة الإنسان!

رغم أنّا كُلّفنا بالدعاء ونأمل الاجابة ، لكن ينبغي الالتفات إلى أنَّ إجابة بعض الأدعية ليس بمصلحة الإنسان رغم أنَّه يراها بمصلحته وأنها توفر سعادته ، لكن الله يرى فيها الملاك والشقاء لذلك لا يستجيب لها.

قلنا في قصة ثعلبة الانصاري التي مضت في البحوث السابقة : إنَّ ما أراده وطلبه من الله لم يكن بمصلحته ، إلا أنَّه كان يصرّ على دعائه وطلبه ، وكانت نتيجة الاستجابة هي فقده الإيمان وضلالته واعترافه على بعض القوانين الإلهية. وهذه القصة تتضمن دروساً وعبرًا عظيمة للجميع.

قد يُقدم شاب على خطبة بنت ترفض الزواج منه ، فيدعوه الله ويتوسل إليه كثيراً لكي يميل رأيها ويعيره نحوه ، رغم ذلك لا يستجاب دعاؤه ، فتنصلّ في ذاكرته فترة طويلة من الزمن ، إلا أنَّه يلتفت إلى مصلحة عدم استجابة الدعاء بعد ما يفهم أنَّ المرأة تلد اطفالاً معتوهين مثلاً.

وعلى هذا ، ما علينا أنْ نقلق من عدم استجابة أدعينا ؛ وذلك لأنَّه يمكن أن تكون عدم الاستجابة بسبب عدم المصلحة. إضافة إلى هذا ، فإنَّ هناك روايات وردت عن المعصومين علیهم السلام حكت عن أنَّ الله يعطي العبد في الآخرة ما يعادل أدعيته غير المستجابة.

(١)

سؤالان مهمان عن الدعاء

السؤال الأول : نجد فيما ورد عن أئمتنا أدعية لا تستجاب أبداً ، كما هو الحال في

أدعية شهر

(١) لقد وردت في هذا المجال روايات كثيرة حكت عن وجود أثر للدعاء حتى لو لم يستجب. راجع ميزان الحكمة ، الباب . ١٢٠٩

رمضان الذي تضمن بعضها عبارة : «اللهم اقض دين كل مدين» مع أننا نعلم أن هذا الدعاء لا يستجاب ؛ لأنَّه ما دامت الدنيا موجودة فهناك ديون للناس ، والحياة من دون هذه الديون حياة خيالية لا أكثر ، فما المدف من هذه الأدعية؟

الجواب : إنَّ الديون على قسمين ، قسم نشهد ممارسته من قبل التجار والكسبة بأن يستلفوا السلع دون دفع ثمنها ، ويسددون الشمن بعد بيعها ، أو استلاف الموظفين والعمال السلف من أصحاب العمل ، وتسلبيتها تدريجياً من إيراداتهم الشهرية.

والقسم الآخر هو الدين الذي لا تتوفر للإنسان أرضية دفعه ، رغم ذلك هو مجبر على استلافه ويعلم بعجزه عن الدفع. ويبدو أنَّ مراد الإمام من الدين هو القسم الثاني لا الأول.

القسم الثاني من الديون لا أنه يستحسن الدعاء فيه ويمكن تحقق الاجابة له ، بل إنَّه بناءً على ما أمر به الإسلام ينبغي تزامن الدعاء مع اجراءات عملية ؛ وذلك لأنَّ في المجتمع الإسلامي المتكامل . وهو مجتمع صاحب العصر والزمان (عج) . لا ينبغي وجود حتى جائع واحد أو عار واحد أو فقير واحد ، لذلك نقرأ في الدعاء : «اللهم أشبع كلَّ جائع ، اللهم أكسن كلَّ عريان ، اللهم أغرن كلَّ فقير».

إنَّ شاهد هذا الحديث هو رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام : «إنَّ الله عَزَّوجَّلَ فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم ، ولو علم أنَّ ذلك لا يسعهم لزادهم». ^(١) ومضمون الرواية السابقة وغيرها هو أنَّ الناس لو دفعوا ما عليهم من واجبات مالية لما بقي جائع ولا فقير ولا عاري في المجتمع ، وإذا وجدت هذه الشرائح بسبب عصيان الأغنياء ومنعهم الفقراء عن حقهم.

إنَّ مجتمع صاحب الزمان يخلو من الفقر والجحود والدين ... والدعاء لرفع هذه المشاكل لا تبعد إجابته.

السؤال الثاني : من الاعمال ذات الفضيلة الوافرة في ليلة القدر هي وضع القرآن على

(١) وسائل الشيعة أبواب الزكاة ، الباب ١ ، الحديث ٢ و ٣ و ٦ و ٩.

الرأس ، رغم أنَّ القرآن كوصفة الطيب ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ولكنها صفة لا تنفع إلَّا بعد العمل بها ، فما جدوى وضع القرآن على الرأس عند الدعاء في تلك الليلة؟

الجواب : القرآن ذات جانبين ووصفة الطيب ذات جانب واحد. فإنَّ القرآن هو كلام الله من جهة ، وهو ذات الفاظ بذاتها مقدسة من جهة أخرى. ولذلك يعتقد المسلمون بلزوم الوضوء إذا أرادوا لمسه. ومن جهة أخرى ، مضمونه مقدس ، لذلك عدَّ القرآن (الثقل الأكبر) وأهل البيت عليه السلام (الثقل الأصغر) ، ولهذا لا يصح قياس وصفة الطيب على القرآن.

بالطبع ، إنَّ هذا العمل (وضع القرآن على الرأس) يحمل في طياته رسالات خاصة ، فهو يعلمنا لزوم عدم وضع القرآن تحت الأيدي والارجل (من حيث الظاهر) ، ومن حيث المحتوى والمضمون فهو يعلمنا اعتبار القرآن على رأس قائمة الاعمال والنشاطات ، وعلى العمل بقوانينه بشكل متواصل ، وعدم نسيان أحكامه.

المثل الحادي والعشرون :

الحق والباطل

من أجمل امثال القرآن هو مثل الحق والباطل ، يقول الله تعالى في بيان هذا المثل ذات المغزى العميق في الآية ١٧ من سورة الرعد :

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أَوْدِيَةً بِقَدْرِهَا فَاخْتَمَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيَاً وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي التَّارِيْخِ حِلْيَةً أَوْ مَنَاعَ زَبَدَ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الرَّبُّ فِيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

تصوير البحث

إنَّ الحديث في هذا المثل عن الحق والباطل وسعتهما ومجاليهما وعلاقتهما وآثارهما وتعريفهما ، وفي النهاية المواجهة الطويلة والمتواصلة بينهما التي كانت على طول التاريخ.

الشرح والتفسير

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أَوْدِيَةً بِقَدْرِهَا﴾ إنَّ نتيجة هطول الامطار على الجبال ونزوله منها هو تجمع المياه في الاودية حسب حجمها ، وجريانه وصيروته أهاراً صغاراً ، وإذا التقت صنعت نهرًا كبيراً ، وإذا تجاوز الماء سعة النهر تبدل إلى سيل عظيمة ومخربة .
 ﴿فَاخْتَمَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيَاً﴾ هذه الانهار كثيراً ما يحصل فيها أمواج تضرب الاحجار والموانع التي تقع في طريقها ، وهذه العملية توجد زبداً في الماء يشبه الزيد الذي يوجده

مسحوق الغسيل ، يتجمّع على سطح النهر يبدو ساكناً ، أمّا النهر فيستمر في حركته تحت الزيد.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلَيَةً أَوْ مَتَاعً زَيْدٌ مِثْلُهُ﴾ هذا الزيد الأجوف والمتكيّر لا يختص بالماء بل قد يحصل للفلزات عدد الصهر والذوبان مثل الحديد والنحاس وغيرهما.

ما يلفت النظر هنا هو أنّ عبارة ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أشارت بظاهرها إلى أنّ النار تسلّط من فوق على هذه المعادن رغم أنّ النار في السابق كانت توقد على الفلزات من تحت أمّا حالياً فمعامل الصهر المتطرفة تسلط النار من فوق ومن تحت أي لم تستعن عن تسلیط النار على الفلز من الاعلى ، وهو أمر أشار له القرآن منذ ذلك الحين.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ﴾ أي أنّ الله لأجل إيضاح المواجهة بين الحق والباطل والتي يمتد عمرها إلى طول التاريخ يضرب هذا المثل ، فيشّبه الحق بالماء والباطل بالزيد الأجوف.

﴿فَإِنَّمَا الْزَيْدُ فِي ذَهَبٍ خَفَاءً﴾ فإنّ الزيد ، رغم تفوقه على الماء ورغم علوه عليه ، يذهب جفاء وكأنّه لا شيء. إنّ الأمواج التي توجدها السيل هي السبب في ايجاد هذا الزيد ، وبمحض أن تصل المياه المتلاطممة إلى سهول تصبح آسنة وسرعان ما يذهب الزيد وتترسب الاوساخ العالقة في الماء ولا يبقى إلّا الماء الحالص ؛ ذلك لأنّ عمر الباطل قصير ، والملائكة هو نهايته.

﴿وَمَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمِمْكُثٌ فِي الْأَرْضِ﴾ فالذي يبقى هو ما ينفع الناس من الماء الصافي والفلزات الحالصة. فالماء ، إمّا أن يركد في مكان يستخدم للشرب والسقي وإمّا أن ينفذ في الأرض ليتحقّق بالمياه الجوفية ذخراً للمستقبل ، يستخدم بعد ما يخرج كعيون تلقائياً أو من خلال حفر الآبار.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي يبيّن الله هذه الأمور للناس في صورة أمثال لكي تدرك بشكل أفضل.

خطابات الآية

لقد تناولت الآية قضايا دقيقة جداً مما يتعلّق بالحق والباطل باقتضاب ، نقوم هنا بتفصيل هذه القضايا وبيانها.

١ . تعريف الحق والباطل

على أساس هذه الآية ، فإنَّ الحق يعني الحقائق والواقعيات ، وأما الباطل فيعني الاوهام والخيالات التي لا أساس لها.

إنَّ الماء واقع وحقيقة ، يتطرق ظاهره مع باطنه ، وله آثار واقعية. أمَّا الزيد فله ظاهر خادع من دون أن يكون له باطن ، كما هو الحال في الخيالات والاوهم.

لقد جاء في الآيتين ١١٧ و ١١٨ من سورة الاعراف في بيان قصة موسى عليه السلام مع السحرة كما يلي : ﴿وَأُوحِيَنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا تَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إنَّ الحق هو معجزة النبي موسى عليه السلام ، والباطل هو سحر السحرة ، فالمعجزة حقيقة وواقع ، لأنَّ عصا موسى عليه السلام تبدل واقعاً إلى أفعى ولم تكن الحادثة تلك شعوذة . نعود بالله . أمَّا أفاعي السحرة فكانت شعوذة خالصة ولم تكن واقعاً ، بل إفكاً ، كما يعبر عنها القرآن.

إنَّ السحرة كانوا قد أعدوا عصياً وحبالاً ملؤوها بالرَّزْبِق ، ووضعوها جميعاً في مكان ما ، وكان الناس وفرعون والسحرة وكذا موسى عليه السلام يشاهدون ما يحصل. عند ما سطعت الشمس على هذه الحبال والعصي ارتفعت درجة حرارة الرَّزْبِق ، الأمر الذي جعل الحبال والعصي تتحرك وتلتوي على بعضها البعض بحيث تبدوا كأنهما أفاعي ، ولكنَّها في الواقع خيال لا أكثر.

٢ . علام الحق والباطل

ما يستفاد من الآية هو أنَّ علاماً الحق كونه مفيداً للناس ، وعلاماً الباطل كونه مضراً لهم ، فالماء مفيد وله تأثير ، والزيد مضر ولافائدة تتمنى منه ؛ وذلك لأنَّ الزيد لا يروي ضماً العطشان ولا يسقي الزرع ولا يُنميه ولا يولّد شيئاً من الطاقة ، ولا يُشغل طاحونة أو دولاً باً.

ومن العلام الآخر للحق والباطل هو كون الحق خاضعاً ومتواضعاً ، أمَّا الباطل فمتكبر.

فالحق هو الماء المتواضع تحت الزيد ، وأما الباطل فهو الزيد العالي والمتكبر.

العلامة الثالثة للحق والباطل هو أنَّ الباطل ضوضائي ، أمَّا الحق فهاديء وساكت.

فالماء

هادئ وساكن ، أمّا الزيد فصارخ وصاحب ، ولا يمكنه العيش دون هذا الضوضاء والصرارخ والصخب .

٣ . سعة الحق والباطل

إنَّ سعة الحق والباطل بسعة مفاهيم الحياة . فالحق والباطل لا ينحصران في جانب من الحياة ، بل يعمان جميع شؤونها ويشملانها ، من السياسة والثقافة والصحافة وغير ذلك . وبعبارة أخرى : يشمل جميع الجوانب المادية والمعنوية للحياة . وهذا المعنى يستفاد من القرآن المجيد ومن آية المثل ذاتها ، فكما أَنَّ الزيد لا يختص بالماء كذلك الباطل لا يختص في شيءٍ ما .

٤ . عاقبة المواجهة بين الحق والباطل

في هذه المواجهة يبقى الحق ويزهق الباطل ويتحقق ، إِلَّا أَنَّ انتصار الحق على شكلين مؤقت وزמני وآخر نهائي . إنَّ أنصار الحق إذا استقاموا ولم ينحرفوا فسينتصرون في أزمنة مختلفة ما داموا مستقيمين غير منحرفين ، أمّا النصر النهائي فلا يحصل إِلَّا بظهور صاحب العصر والزمان بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه) ، وحينئذٍ سيتغير وجه الدنيا وستحكم الدنيا حكومة عالمية حقة .

من الآيات التي فسرت في الحجة بن الحسن العسكري عليهما السلام هي هذه الآية ، حيث فسّر الماء في المثل بوجود الحجة المبارك ، والزيد بالظلم والجحود والانتهاز والاستعمار فأنما ستزول يوماً ما .

٥ . المواجهة بين الحق والباطل دائمة

كما أشرنا سابقاً ، فإنَّ المواجهة بين الحق والباطل بدأت منذ بداية الخلق ، والعصور جميعها ضمت هذين الظاهرتين ، وستضم العصور المقبلة هذين الظاهرتين وستستمر هذه المواجهة

حتى النهاية . لقد كان لكل نبي شيطان ، ^(١) فقبال آدم عليه السلام كان ابليس ، وقبل الأنبياء الآخرين شياطين آخرون ، كما تكشف الآية التالية عن هذا الأمر : ﴿وَكَذَّلِكَ جَعَلْنَا لُكَلَّ نَبِيًّا عَدُواً شَيَاطِينَ الْأَنْسِ وَالْجِنِ﴾ ^(٢)

المستفاد من الآية الشريفة هو أن الشيطان ليس شيئاً خفياً دائماً ، بل قد يكون من الناس أنفسهم ، وقد يكون هذا هو سبب تقديم الآية شياطين الانس على الجن .

وعلى هذا ، فإن المواجهة بين الحق والباطل لا زالت مستمرة حتى استقرار حكومة الحق وبسط سيطرتها على بقاع الأرض جميعاً ، وتحقيق الآية الشريفة التالية : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ رَهْوًا﴾ ^(٣) في ظل ظهور المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ، والمواجهة قبل ذلك متواصلة .

٦ . كيفية تبلور الباطل

كيف نشأ الباطل وتبلور؟ هل الله تعالى هو الذي خلق بعض الموجودات الباطلة رغم أنه حق بل ابرز وأرفع حق؟

إن الباطل موجود عدمي وهو وهم وخيال قد تلبّس ثوب الحق ، مثل الزيد الأجوف ، ذات الظاهر الخالب والخادع .

الجميل هنا هو أن الباطل اذا عمل على إبطال نفسه فذلك بركة الحق . إن المزيفين . الذين يعتمدون الزيف كمهنة لهم . إذا لم يتقمصوا قمصان ذوي الشأن والاعتبار سوف لا يتوقفون في عملهم الباطل هذا ، كذلك الكذابين فإنهم إذا لم يتمسّكوا بالحق ولم يتظاهروا بالصدق لما صدقهم أحد . والمنافق إذا لم يرتدي ثوب الإنسان الصالح ، والعدو إذا لم يتقمص قميص الصديق ،

(١) للشيطان معنيان ، الف : هو من مادة (شطن) وتعني (بعد) ، ولذلك كان (بئر شطون) يعني بئراً عميقاً ، فالشيطان حسب هذا التفسير موجود بعيد عن رحمة الله . ب : قد يكون من مادة (شاط) ويعني (احترق) و(هلك) ، وعلى هذا الشيطان يعني الموجود الذي يهلك ويحترق هو وأتباعه .

(٢) الأنعام : ١١٢ .

(٣) الأسراء : ٨١ .

والزبد إذا لم يطفو على الماء ، وبالجملة ما لم يجتمع الباطل بمختلف مصاديقه إلى جنب الحق فلا تكون هناك مواجهة . وعليه فالباطل عديم وجوده يتوقف على الحق . أمّا الحق ، فأمر وجودي وهو مصدر البركات والمنافع وذا آثار كثيرة للإنسان .

الحق والباطل من وجهة نظر الآيات والروايات

بما أنَّ أهم بحث في حياة الإنسان هو قضية (الحق والباطل) ، وهي تحضى بموقع خاص عند جميع البشر بمختلف توجهاتهم الفكرية ، لذلك كان من المناسب دراسة هذه القضية من وجهة نظر الآيات والروايات :

لقد تحدث القرآن عن الحق والباطل بقدر كثير ، وتكررت مفردة الحق ٢٤٤ مرة ، مع أنَّ مفردة الباطل تكررت ٢٦ مرة فقط .

وهذه النسبة تكشف عن أنَّ القرآن المجيد ذاته من مصاديق الحق .

ما هي مصاديق الحق؟

لقد ذكر في القرآن مصاديق مختلفة للحق نشير إلى بعض منها هنا :

١ . أبرز وأرفع مصداق للحق هو ذات الله القدسية ، وهي في الحقيقة جامعة لجميع مصاديق الحق ، وهي عين الواقع والوجود المطلق .

من هنا صرَّح الله في الآية الكريمة ٦٢ من سورة الأنعام ما يلي : ﴿ ثُمَّ رُدُوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْعَرُ الْحَاسِبِينَ ﴾ فعلى أساس هذه الآية ، إنَّ الله الذي لا مثيل له هو الحق .

٢ . النموذج الآخر وهو من أبرز مصاديق الحق عبارة عن خلق السموات والأرض أو الكون أجمع .

تقول الآية الشريفة ٢٢ من سورة الحاثة : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

٣ . المصدق الثالث للحق هو القرآن نفسه ؛ وذلك لأنَّ الآية ٤٨ من سورة المائدة

عند بيانها لهذا المطلب تقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾

٤ . الدين المبين والمنقذ للبشرية ، أي الإسلام ، وهو مصدق واضح آخر من مصاديق الحق. لذلك يقول الله تعالى في الآية ٢٨ من سورة الفتح : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُفَّارٌ﴾^(١)

وخلاصةً ، كل وجود هو منبع لخير البشر وسعادتهم يُعدّ حقيقةً ، لذلك كان الله الحق المطلق ؛ لأنّه منبع جميع البركات والسعادات ، كما أن السماوات والأرض والقرآن المجيد ودين الإسلام والتوحيد ، باعتبارها جمیعاً منشأ للهداية والبركة ، عدّت حقيقةً وكل شيء هو منبع ومصدر للشقاء فهو باطل ، مثل الشيطان والأصنام وعبادتهم والرياء والتظاهر والنفاق وامثال ذلك.

جولة الباطل ودولة الحق

المستفاد من الروايات هو أنَّ الباطل قد يكون له جولة وصراخ وصخب إلَّا أنَّ عمره مهما كان فهو قصير ومؤقتٌ : «للباطل جولة ولل الحق دولة»^(٢) والدولة هي الثبات والبقاء والخلود ، والجولة هي النفاق والخداع المؤقت.

كن مع الحق دائمًا

حسب ما ورد في الروايات الإسلامية ، على المسلم في كل حال أن يكون مع الحق والحقيقة. إذا أردت التسلّح بسلاح النصر أمام الأعداء ، فعليك التمسك بسيف الحق الصارم ، كما قال الإمام علي عليه السلام : «الحق سيف قاطع». ^(٣) إذا أردت أن تكون من أهل النجاة في مقام العمل ، وأن تكون صاحب حجة وبرهان في مقام الكلام ، فعليك بالتوجه نحو الحق ، كما يقول الإمام علي عليه السلام : «الحق منحاه لكل عاملٍ

(١) وقد تكررت الآية ذاتها في سورة الصافات الآية ٩.

(٢) غير الحكم : ٦٨ و ٧١ ، طبع مركز البحث والتحقيق للعلوم الإسلامية.

(٣) ميزان الحكمة ، الباب ٨٨٥ ، الحديث ٤٠٨٢.

وحجّة لكلّ قايلٍ». ^(١)

إذا أردت من الآخرين قبول كلامك ، وإذا ابتغيت النصر ، فقل الحق والتزمه. وإذا أردت مركبا هادئاً يوصلك إلى غايتك فكن مع الحق. يقول الإمام علي عليه السلام : «ألا وإن الحق مطايا ذلل ، ركبها أهلها ، وأعطوا أزمنتها ، فسارت بهم الهوينا حتى أنت ظللاً ظليلاً».

^(٢)

الحق مُّ والباطل حلو

تقتن مع الحق والدفاع عنه مشاكل ؛ وذلك لأنّه مُّ والباطل حلو. إنّ مرارة الحق كمرارة الدواء الذي فيه شفاء ، وحلاؤه الباطل كحلاؤه السم القاتل ، لذلك قال الرسول عليه السلام : «الحق ثقيل مُّ ، والباطل خفيف حلو ، ورُبّ شهوة ساعة تورث حزناً طويلاً». ^(٣)

نعم ، إنّ الحق ثقيل ومرّ ؛ لأنّه لا يكون في صالح الإنسان دائمًا بل قد يضره ، وقد يكون عكس ما تروق له النفس والشهوات الإنسانية ، وقد يتزامن مع لوم الآخرين وعتابهم ومع مشاكل جمة يشقّل على الإنسان تحملها ، أما الباطل فخفيف وحلو ، لكنه كالسم القاتل ، لذلك قد يؤدي إلى ندم يرافق الإنسان حتى موته ، كما لو ارتكب الإنسان ذنبًا لم يستغرق فترة طويلة ، لكن عقابه الحبس المؤبد ، فذلك يعني كفارة ساعة من الذنب عمر في الحبس والسجن.

الباطل يقمص قميص الحق دائمًا

المهم هنا هو أنّ الباطل لا يظهر بشوّه الحقّيقي دائمًا ؛ وذلك لأنّ اتضاح واقعه يعني عدم تمكّنه من الخداع ، بل إنّه يظهر بمظهر الحق لكي يغّرّ ويخدع الكثير. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المجال في الخطبة رقم خمسين من نهج البلاغة : «يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان ، فهناك يستولي الشيطان على أوليائه».

(١) ميزان الحكم ، الباب ٨٨٥ ، الحديث ٤٠٨٤.

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٨٨٥ ، الحديث ٤٠٨٩.

(٣) ميزان الحكم ، الباب ٨٨٨ ، الحديث ٤١٠٠ ، وقد جاءت روايات أخرى في نفس الباب تضمنت المعنى ذاته.

أي بما أَنَّه لا زيون للباطل الحض ، لذلك يمزجه أتباعه مع شيء من الحق ليبدو وكأنه حق ، فعندئِنْ يأتي دور الشيطان ليستولي على أوليائه وأصحابه.

لذلك علينا أن لا نخدع بالظاهر ، إذا أردنا شراء كتاب مثلاً فما علينا أن نخدع بخلافه الجميل أو يغرنّا عنوانه الحالب وشعاراته ؛ وذلك لأنّ أهل الباطل قد يستخدمون هذه الخدعة لترويج سمعهم وأباطيلهم. وهذا الأمر نفسه صادق بالنسبة للافلام والمسرحيات والجرائد والمحلات والاساتذة والمعلمين والجيران والأحزاب و... .

إنّ أهل المعرفة وال بصيرة هم الذين يميزون الباطل عن الحق ، وذلك لما أعطاهم الله من (فرقان) منحةً لتقواهم.

علي عَلَيْهِ الْكَفَافُ محور الحق

هناك الكثير من المطالب المدونة عن فضائل الإمام علي عَلَيْهِ الْكَفَافُ وشخصيته وردت في كتب السنة والشيعة ، ومن جملة ما اتفق الفريقان على نقله هو الحديث العجيب واللطيف القائل : «علي مع الحق والحق معه وعلى لسانه ، والحق يدور حيثما دار علي»^(١) وهو حديث منقول عن الرسول الأكرم عَلَيْهِ الْكَفَافُ .

إنّ هذا الحديث مقاييس معتبر لتمييز الحق عن الباطل ؛ ولذلك أفادت بعض الروايات أنّ المسلمين في صدر الإسلام عند ما يتشاربه عليهم المسلمون والمنافقون والمتظاهرون بالإسلام ويصعب تمييز ذلك ، أفادوا من هذا المقاييس واعتبروا المسلمين هم المحبون لعلي وأتباعه ، المنافقون هم الذين يكتنون العداء والبغض له.^(٢)

إنّ الشيعة تفتخر بأن لها زعيماً عظيماً وحصرياً ما كان يمنعه شيء عن احقيق الحقوق ، ما كان يتحمل الانحراف عن جادة الحق ولو كان صادراً من صحابي أو أحد أقربائه ، وكان يأمر بالجبران بمجرد حصوله.

(١) بحار الانوار ٣٨ : ٨٢ ، الملفت هنا هو أنّ مضمون هذه الرواية عنوان بباب مفصل ، والرواية الواردّة هنا نموذج من روايات ذلك الباب.

(٢) لقد جاء الحديث بهذا المضمون في ميزان الحكمة الباب ٣٩٣٢ ، الحديث ٢٠٢٩٢ .

من جملة مصاديق هذا الكلام هو قصة قنبر غلام علي الوفي وعضده التنفيذي في حكومته ، لقد أُمر هذا الغلام بإجراء حدّ الجلد ، إلا أنه أخطأ في التنفيذ وزاد على الحدّ ثلاث جلدات على المجرم ، فأمر هذا القائد الحق قنبر أن يعذّ نفسه لأجل اقتصاص المجرم منه. ^(١)

ونقرأ في قضية عقيل أنه ما وافق منحه شيئاً زائداً على ما منحه للمسلمين ، بل أحمى حديدة وقرّها من يد عقيل ، فصاح عقيل من شدّة الحرارة. ^(٢)

(١) وسائل الشيعة ج ٨١ ، أبواب مقدمات الحدود ، الباب ٣ ، الحديث ٣.

(٢) تقدم بيان هذه القصة في البحوث السابقة.

المثل الثاني والعشرون :

التفوى جواز دخول الجنة

يقول الله تعالى في الآية ٣٥ من سورة الرعد :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عَقْبَى الَّذِينَ آتَقْوَا وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

تصوير البحث

الآية السابقة ، رغم بساطة ظاهرها ، تعدّ من أعقد الأمثال القرآنية ، إنما بتّت بتشبيه الجنة . التي هي مأوى المتقين . وذكرت لها ثلاث خصال .

الشرح والتفسير

إنَّ التشبيه المستخدم في الآية يبدو تشبيهاً بسيطاً ، إلَّا أَنَّهُ في الواقع . كما قلنا سابقاً .
من أعقد التشابيه المستخدمة في القرآن المجيد .

يعتقد المفسرون أنَّ في الآية شيئاً مخدوفاً ، وهو جملة يجب تقديرها إمَّا في بداية الآية
لكي تتلقى الآية خبراً للمبتدأ المخدوف ، أو أن نقول بأنَّ صدر الآية مبتدأ ، وخبرها
مخدوف .

نعتقد نحن أنَّ خبر الآية مخدوف ، ولأجل اتضاح الأمر نقدم مقدمة :

المراحل الأربع قبل الولادة

إن الإنسان يجتاز أربع مراحل ليكتمل ويكون إنساناً.

في البداية يكون الإنسان عبارة عن تراب تنمو فيه نبتة أو شجرة ، فيصبح هذا التراب جزءاً من النبات ، يأكل حيوان ما هذا النبات ليصبح جزءاً من بدنـه ، يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان فيصبح لحم الحيوان هذا جزءاً من بدنـ الإنسان.

يمكن بيان المراحل الأربع هذه بشكل آخر بأن نقول : إنـ الإنسان كان تراباً في يوم منـ الأيام (المراحلة الأولى) ومنـ الطبيعي أنـ الإنسان لا يمكنه تناول التراب مباشرة بلـ ما تبدل منه إلى نبات أوـ حيوان (المراحلة الثانية) فيـ (المراحلة الثالثة) يتبدل النبات أوـ الحيوان إلىـ نطفة إنسانية. الجنين فيـ مراحلـه الأولى ينموـ نمواً نباتياً ؛ لأنـه يفقدـ الحسـ والحركةـ ، فهوـ ينموـ فقطـ ، وبعدـ الشهرـ الرابعـ حيثـ يكونـ قادرـاً علىـ الحركةـ والحسـ ، وعندهـا تبدأـ (المراحلةـ الرابعةـ) ، وهيـ تستمرـ حتىـ تعلـقـ الروحـ بالجنينـ.

إنـ لهذهـ المراحلـ الأربعـ عجائبـ كثيرةـ ، والمراحلةـ الجنينيةـ منـ أعجبـهاـ.

عجائبـ منـ عالمـ الجنينـ

استطاعـ العلماءـ اليومـ إعدادـ صورـ حيـةـ عنـ الجنينـ ، وصنعـ فيـ لمـ مدـتهـ نصفـ ساعةـ يصورـ المراحلـ الجنينيةـ جميعـهاـ ، وهذاـ الفيلمـ بمثابةـ هديةـ عجيبةـ قدـمتـ للإنسانيةـ فيـ عصرـناـ الحاليـ.

كيفـ استطاعـ اللهـ خلقـ هذهـ العجائبـ كلـهاـ؟ نلـفتـ انتـباـهـكمـ إلىـ نموذـجينـ منـ هذهـ العجائبـ.

١ . نطفـةـ الإنسانـ تبدأـ منـ خلـيةـ واحدةـ ، ثمـ تنتـصـفـ هذهـ الخلـيةـ لتصـبحـ اثـنـينـ ، وكـلـ منـ هـذـيـنـ الخـلـيـتـيـنـ يـتـصـفـانـ كـذـلـكـ لـتـصـبـحـ الخـلـاـيـاـ أـرـبعـاـ ، ويـسـتـمـرـ الانـقـسـامـ هـكـذـاـ بشـكـلـ تصـاعـديـ. إنـ هـذـاـ التـكـاثـرـ فيـ الخـلـاـيـاـ يـسـتـمـرـ حتىـ تـتـكـوـنـ خـلـاـيـاـ مـتـشـابـهـةـ بـالـكـامـلـ وـتـنـقـسـمـ حـيـنـدـيـنـ إـلـىـ مجـامـيعـ. بـعـضـ مـنـهـاـ يـتـكـفـلـ بـخـلـقـ رـأـسـ الإـنـسـانـ وـبـعـضـ يـؤـمـرـ بـخـلـقـ العـيـنـ أوـ الـيـدـ أوـ الـرـجـلـ أوـ غـيرـ ذـلـكـ.

إنـ هـذـهـ الخـلـاـيـاـ جـمـيـعـاـ مـتـشـابـهـةـ لـكـنـ كـيـفـ حـصـلـ أـنـ تـخـصـصـتـ الـبـعـضـ فيـ صـنـعـ الـيـدـ وـالـبـعـضـ الـآـخـرـ بـصـنـعـ الـرـجـلـ؟ مـنـ أـمـرـ هـذـهـ الخـلـاـيـاـ بـالـصـنـعـ الـمـخـتـلـفـ رـغـمـ التـشـابـهـ الـمـوـجـودـ فـيـهـاـ؟ كـيـفـ تـلـهـمـ هـذـهـ الخـلـاـيـاـ؟ وـمـنـ الـذـيـ أـلـهـمـهـاـ هـذـهـ الـقـابـلـيـةـ؟! لـمـ يـسـتـطـعـ أـحـدـ الـكـشـفـ عـنـ هـذـهـ الـأـسـرـارـ بـعـدـ.

٢ . إنَّ الجنين في بطن أمه يسبح في كيس خاص مليء بسائل غليظ وزنه يعادل وزن الطفل تقريباً . وعلى هذا ، فالجنين لا يضغط بشكل مباشر على جسم الأم ، كما أنَّ الأم لا تحتمل الطفل ضغطاً مباشراً . يا ترى ما يحدث لو لم يكن ذلك الكيس ؟

كيف يمكن للجنين أن يحافظ على نفسه ويستمر في حياته رغم ظرفه ونومته ورغم ما يتعرض له من ضربات تنشأ عن الجلسة الخاصة للأم أو نومها في اتجاهات مختلفة ؟

أعدَ الله العالم القادر محيطاً وبيئة للجنين تشبه حالة الإنسان عند فقدان الحاذية ، بحيث لا يتأثر بالضغط إذا تعرض له مهما كان اتجاهه ، ولهذا عند ما يلد يشعر بالوزن ، الأمر الذي يحرّكه على الصراخ والصياح .

إنَّ كيس السائل هو أفضل مكان للجنين . فإنَّ هذا الكيس يصد الضربات من أي اتجاه وردت ، كما أنه يعدل درجة الحرارة ، بحيث إنَّ الام اذا تعرضت للحرارة الشديدة أو البرودة الشديدة سوف لا تتنقل هذه الحرارة أو البرودة إلى الجنين مباشرة ، بل ينتقلان إلى الجنين بعد مرورهما بالسائل الموجودة في الكيس ودور السائل هنا هو تعديل درجة الحرارة ونقلها بعد ذلك لجسم الجنين .

وعلى هذا الأساس ، يقول الله في الآية السادسة من سورة الزمر : ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةً أَرْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أَمَهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تُصْرِفُونَ﴾^(١)

مراحل كمال الإنسان الأربع

لاجل بلوغ الكمال ، على الإنسان أن يطوي أربع مراحل أو عوالم :

- ١ . عالم رحم الام . ٢ . عالم الدنيا . ٣ . عالم البرزخ . ٤ . عالم القيامة .

ومدهش هنا أنَّ الإنسان يجتاز كل مرحلة ، وهو لا يعلم بالضبط بما تضم وتؤول إليه المرحلة اللاحقة . إنَّ الطفل في رحم الام لا يمكنه تصوّر مفاهيم الدنيا ، حتى لو كان له عقل

(١) وقد أشارت الآية ١٤ من سورة المؤمنون إلى نفس المضمنون .

وذكاء كذكاء وفهم ابو علي ابن سيناء ، وحتى لو استطاع أن يتواصل مع امه لتحكى له عن القمر والشمس والليل والنهر والنجوم والأشجار والأزهار والنباتات ، وقد استطاعت أن تبيّن له هذه الأمور بأفصح بيان وأبلغه ، رغم ذلك فهو سوف لا يفهم شيئاً. إنَّ مثلنا نحن بالنسبة إلى البرزخ كمثل هذا الطفل بالنسبة إلى الحياة الدنيا ، نحن سمعنا بوجود عالم باسم البرزخ قطعاً ، لكن ما هي الفباء تلك الحياة؟ ما معنى أن الشهداء هناك أحياء؟ كيف أنهم يرزقون في ذلك العالم؟ كيف يعذب الله الروح أو ينعم عليها؟

نحن لا ندرك أياً من هذه الامور. إنَّ بعض اولياء الله استطاع أن يتصل بعالم البرزخ فسأل أهل البرزخ عن ذلك العالم فأجابوه لا يمكننا وصف هذا العالم بالألفاظ والمفاهيم التي تدركونها انتم في الحياة الدنيا. إنَّ مثل مفاهيم البرزخ وألفاظ الدنيا كمثل المصفاة والماء ، وهل يتوقف الماء في المصفاة؟!

إنَّ موقف البرزخيين تجاه مفاهيم القيامة كموقفنا تجاه البرزخ لا يمكنهم استيعاب نعم الجنة ، كما لا يمكنهم استيعاب أنواع العذاب في جهنّم.

وعلى هذا الأساس ، تقول الآية الشريفة ١٧ من سورة السجدة : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَا أَحْيَنِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إذا أخذنا مفردة (نفس) باطلاقها كانت شاملة للأنبياء والائمة . صلوات الله عليهم أجمعين . وذلك يعني هؤلاء أيضاً لا يعلمون ما أُعدَ للمؤمنين من نعم في الجنة.

جاء في حديث قدسي ما يلي : «أعددت لعبادتي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشري». (١)

أي أَهَمَّ نعم لم تر في المنام ولا في اليقظة ولا في عالم الخيال ولا التصور ، وذلك لأنَّ عالم القيامة لا يمكن استيعابه.

وعلى هذا ، فمن جهةٍ أنَّ مفاهيم عالم القيامة مفاهيم لا يمكن استيعابها وإدراكها ، ومن جهة أخرى ينبغي بيان نعم الجنة وعذاب الآخرة بشكل يسوق البشر نحو الأعمال الحسنة ويبعدهم عن الأعمال السيئة.

(١) ميزان الحكم ، الباب ٥٤٦ ، الحديث ٢٥٢٩.

من هنا كان توصيف وبيان هذه الحالات والأعمال بالالفاظ الدنيوية أمراً مستحيلاً ولا يمكن بيانها بوضوح ، لذلك كان علينا مزاولة هذا العمل باستخدام المفاهيم الدنيوية المشابهة لتلك المفاهيم والألفاظ الأقرب لهذا البيان ، لترسم بذلك صور قريبة لواقع النعم والعذاب الآخروي.

كمثال على ذلك ، عند ما يقال بأنَّ في الجنة أشجاراً ، فإنه لا يمكن القياس والمقارنة بين فوائد الأشجار في العالمين. وبالنسبة إلى تفسير الآية ٤٥ من سورة الرحمن ﴿وَحَتَىٰ
الجَنَّاتُيْنِ دَانِ﴾ فيقال : إنَّ ثمار أشجار الجنة قريبة غير بعيدة بحيث تكون سهلة الوصول. وفي تفسير الآية ٤٨ من السورة المذكورة ﴿ذَوَاٰتٌ أَفْنَانٌ﴾ يقال : إنَّ الغصن الواحد يضم ثماراً مختلفة ، لكن لا يعرف أنَّ الشمار هناك هي نفسها التي هنا. أو أنَّ أصحاب الجنة إذا ما أرادوا الاستماع إلى الأنغام والموسيقى ، أخذت غصون الاشجار تتلاطم وتخرج من نفسها أصواتاً وأنغاماً.

وعلى هذا ، فنحن ندرك وجوه الشبه بين أشجار الدنيا والآخرة ، لكننا لا ندرك ولا نشعر بها ولا بما يتولد من أنغام وموسيقى وثمار.

إيضاح

مع الالتفات إلى المقدمة ، فإنَّ الآية من جملة الآيات التي هي في صدد عرض تشابيه للجنة ، وبيان أو ترسيم موقع المتقين فيها. من هنا كان خبر الآية مخدوفاً ، أي أنَّ الآية كانت بهذا الشكل : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَجَنَّةٍ تَجْرِي ...﴾ أي أنَّ في الجنة بساتين ليست مثل بساتين دنيانا ؛ لأنَّه أولاً : أن منابع المياه فيها ذاتية وتلقائية ، وتوجد عين قرب كل شجرة ولا حاجة لتأمين المياه من الخارج. ثانياً : أنَّ ثمار الجنة دائمة وفي جميع الفصول. ثالثاً : أنَّ ظل الاشجار هناك دائمي وخالد ، أي أنَّ أوراق الاشجار لا تساقط أبداً.

الخطابات المهمة للآية

المستفاد من الآيات العديدة هو كون التقوى هو مقياس الثواب الإلهي في الآخرة.

في مجال التقوى دوّنت البحوث الكثيرة ، ولأجل الاستيعاب الأكثـر لهذا المضمون ،
الذـي هو جواز دخـول الجنة وميزـان قيمـة الإنـسان وزادـه في الآخـرة نـشير إلى روـايتـين وردـتا هـنا :

١ . يقول الرسـول في حـديث مختـصر وذـات معـزـى عمـيق في نفسـ الوقت : «ـتـامـ التـقـوى أـن تـعلـم ما جـهـلـت وـتـعـمل بـما عـلـمـت». (١)

بنـاءً عـلـى هـذه الروـاية ، لا يـعـدـ الجـهـل عـذـراً ، بل عـلـى الإنـسان أـن يـتعلـم ما يـجهـلـ
ليـعمل بـما عـلـمـ وـيـعـاتـب الـذـين يـبـرـرـون أـعـمالـمـ بـأـنـمـ جـهـالـ ، ويـقـال لـهـمـ : مـلـاـذا لمـ تـعلـمـوا؟ (٢)

٢ . يقول الإمامـ عـلـيـ عـائـلـهـ في حـديث مختـصر وـمـيـزـ : «ـمـن مـلـك شـهـوـتـهـ كـان تـقـيـاً».

(٣)

إـنـ الإنـسان بـتـقـواهـ يـتـمـالـكـ غـضـبـهـ وـشـهـوـتـهـ وـحـبـ الـجـاهـ وـلـمـقـامـ وـحـبـ الشـهـرـ وـالتـطـرفـ
وـ... فـهـو سـيـتـحـكـمـ بـهـذـهـ الـأـمـورـ جـمـيـعـاً.

إـنـ هـذـينـ روـاـيـتـيـنـ يـعـرـضـانـ تـعـرـيفـاً جـمـيـلاًـ وـجـامـعاًـ وـمـفـهـومـاًـ لـلـتـقـوىـ ، يـبـنـيـ السـعـيـ
وـالـعـمـلـ لـأـجـلـ تـقـيـقـ ما وـرـدـ فيـ هـذـينـ روـاـيـتـيـنـ الشـرـيفـتـيـنـ وـبـخـاصـةـ فيـ شـهـرـ رـمـضـانـ الـمـبارـكـ ؛
بـاعتـبـارـ أـنـ التـقـوىـ هـيـ جـواـزـ دـخـولـ الجـنـةـ وـزـادـ الآخـرـةـ.

(١) مـيزـانـ الـحـكـمةـ ، الـبـابـ ٤١٧٣ـ ، الـحـدـيـثـ ٢٢١٧٩ـ.

(٢) بـحـارـ الـأـنـوارـ ٢ـ : ٢٩ـ وـ ٢٨٥ـ : ٧ـ ، ١٨٠ـ .

(٣) مـيزـانـ الـحـكـمةـ ، الـبـابـ ٤١٧٣ـ ، الـحـدـيـثـ ٢٢١٧٤ـ.

المثل الثالث والعشرون :

أعمال الكفار

يقول القرآن في الآية ١٨ من سورة إبراهيم :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكُمْ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

تصوير البحث

تناولت الآية بيان أعمال الكفار الصالحة ، وتلمح بأنَّ أعمالهم بسبب كفرهم غير مقبولة. من هنا كان احتمال حساب أعمالهم الصالحة معزِّل عن كفرهم أمراً مرفوضاً.

ارتباط آية المثل بسابقاتها

الآيات السابقة تناولت دراسة من اصطلاحت عليه **﴿جَبَّارٌ عَنِيدٌ﴾** وهو الشقي الذي يأس من ألطاف الله ورحمته ، وأنَّ جهنم ستتطلع إلى أمثال هذا ، وسيستنقى من ماء متعنف ، نتنة رائحته. وهنا يطرح سؤال وهو : هل سيُتغاضى عن أعمال الكفار الصالحة؟ المتعارف أنَّ الأعمال الصالحة قد تصدر من هؤلاء الأشقياء ، فيقال عن فرعون مثلاً : كان له مطبخ واسع يغذي به بيوت المدينة ، وكان يستفيد الجميع من هذا المطبخ ومن طعامه ، من الفقراء والمرضى والحوامل وغيرهم.

قد تنجز أعمال خيرية مهمة على يد حكام ظلمة ، وهناك الكثير من المساجد

التاريخية

الفخمة التي بنيت على يد هؤلاء الظلمة. إن العتبات المقدسة للائمة المعصومين وغيرهم عليهم السلام كثيرةً ما بُنيت أو عمرت ووسيط على يد الظلمة ، وكمثال على ذلك المسجد الحرام ومسجد النبي حيث وسعا من قبل زمرة آل سعود الظالم ، كما أن كثيرةً من المستشفيات المهمة والجامعات الضخمة والمستوصفات والمدارس العلمية وما شابه ذلك بيت على يد أمثال هؤلاء الظلمة وبأمرِ منهم ، لكن يا ترى هل أنَّ هذه الأعمال الصالحة والعظيمة تفقد الأثر ولا تفيد صاحبها شيئاً في الآخرة؟ ألا تتغمَّد هؤلاء الطاف الله ورحمته بسبب هذه الأعمال الكبيرة؟

إنَّ آية المثل التي سُنَّ قبل على شرحها وتفسيرها في الاسطر المقلبة هي بصدق الاجابة على هذا السؤال المقدر الذي قد يخطر في ذهن القارئ للآيات التي سبقتها.

الشرح والتفسير

﴿مَثُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إنَّ أمثال القرآن على قسمين : قسم يُضرب على أعمال الإنسان ، وآية المثل هذه من هذا القسم حيث تناولت دراسة أعمال الكفار .
القسم الآخر هو الامثال التي تضرب على الشخصيات ذاتها بأن يشبه الاشخاص أنفسهم بشيء ما مثل ما مرَّ في الآية الشريفة ٢٦١ من سورة البقرة ، حيث شبَّهت المنافق بحبة الحنطة التي تنتج سبعمائة حبة .

على أي حال ، الآية الشريفة تناولت أولئك الذين كفروا بربهم ، لكن الملفت في الآية هنا هو أنَّها استخدمت مفردة (رب) بدل مفردة (الله) ، وكأنها تريد الإشارة إلى الآثار الريبوية في كل مكان ورحمة الله وبركاته على جميع أعضاء جسم الإنسان وفي جميع اللحظات ، فهي تريد القول للإنسان : إنَّك تفید من نعم الله . التي يكفي واحدة منها لشكر الله . كل يوم وعلى طول العمر ، رغم ذلك تکفر وتحجَّد به ، مع أنَّ على الإنسان أن يكون شاكراً لله على نعمه دائمًا .

﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ الآية شبَّهت أعمال الكفار الصالحة بالرماد ، ولم تتطرق الآية إلى أعمال الكفار السيئة ، وذلك لأنَّها دون القيمة التي تستدعي التطرق لها وبختها .

فوائد الرماد

نشير هنا إلى بعض من فوائد الرماد وآثاره :

- ١ . إذا خلط الرماد بالتربيه سينتتج سعاداً مفيداً جداً ، وهذا نرى البعض يحرق ما تبقى من المزارع بعد الحصاد بغية تبديله إلى سعاد جيد.
- ٢ . إنَّ الرماد ينطفِيء الأشياء الورقية وينذهب بصدئها ويصقلها ، وفي الازمنة السابقة كان الناس يصقلون بعض الصفائح الفلزية بالرماد لكي يصنعوا منها مرآة شفافة.
- ٣ . الفائدة الأخرى للرماد أنه يحافظ على النار وحرارته ، بحيث إذا ألقينا التراب على النار أنطفأت النار ، لكن إذا ألقينا رماداً عليها ضلت النار تحافظ على نفسها وما انطفأت إلا في زمن متأخر.

﴿إِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يُقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ من الواضح أنَّ اليوم اذا كان عاصفاً أخذ الريح معه كل ما كان خفيفاً ودقيقاً ، وكلما كان ذلك الشيء أدق كلما صعب جمعه ، أما اذا كان رماداً فاستحال الجمع ؛ وذلك لصغر الأجزاء المكونة للرماد وتلونها بلون البيئة التي تسقط فيه. وإذا اجتمع اهالي المدينة كلهم . لا صاحب الرماد فحسب . ما استطاعوا أن يجمعوا شيئاً مما فقدوه من الرماد ولو بمقدار مثقال.

إنَّ عاصفة الكفر والجهود تعمل بأعمال الكافر كما تعمل العاصفة الطبيعية بالرماد ، بحيث لا يبقى شيء من ذلك العمل للكافر يتمتع به.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إنَّ الطرف هؤلاء عن الصراط المستقيم كالانحراف والضلال بعيد عن الطريق الذي يصعب جبرانه والرجوع عنه نحو الطريق الصواب.

خطابات الآية

١ . الایمان شرط صحة الأعمال

رصيد الأعمال الحسنة والصالحة هو الإيمان ، فإذا لم يقترن العمل بالإيمان فإنه سيفقد قيمته.

ذكر الفقهاء : أنَّ الإيمان هو شرط قبول العبادة ، بل شرط صحتها ، أي أنَّ الصلاة والصوم

والحج والإنفاق وإعانة المحتاجين وغير ذلك من الأعمال تكون فاقدة للقيمة إذا لم تتوافق مع الإيمان.

ولقد طرح نفس البحث في قضية (الولاية) فاعتقد البعض أنَّ الولاية شرط قبول الأعمال ، أي رغم أنَّ الأعمال . من وجهة نظر شيعية . صحيحة إلا أنَّ الله لا يقبلها إذا لم تقرن بالاعتقاد بالولاية . وقد يعتقد البعض أَنَّ شرط القبول والصحة أي لا يسقط التكليف من ذمة من لا يعتقد بها وإن جاء به .

في هذا الحال وردت روايات كثيرة في كتب الشيعة نأتي بنموذج واحدٍ منها :
يقول الإمام الباقر عليه السلام : «لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولی الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلاته إليه ما كان له على الله حق في ثوابه أبداً». (١)

إنَّ هذه الآية طرحت ذات البحث في أصل الإيمان بالله وتحت بُأَنَّ الذي لا إيمان له لا ثواب له رغم اتياه بأفضل الأعمال ، وقد طرح هذا البحث في آيات عديدة أخرى نشير إلى بعضٍ منها :

الف . لقد جاء في الآية ٢٦٤ من سورة البقرة التي مرَّ الحديث عنها ما يلي :
 ﴿... كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانِ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَأَبْلَى فَتَرَكَهُ صَدْلًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

باء . جاء في الآية ٣٩ من سورة النور :
 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٌ بَقِيعَةٌ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَاهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
 جيم . ويقول الله في الآية ٢٣ من سورة الفرقان :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَيْ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُنْشُورًا﴾ وهذا الآية كغيرها لم تمنح أي قيمة

(١) وسائل الشيعة ١ : ٩١

للعمل إذا لم ينشأ عن إيمان.

دال . جاء في الآية ٤٥ من سورة التوبه :

﴿وَمَا مَعُهُمْ أَنْ تُعْلَمَ نَفْقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

إنَّ هذه الآية كذلك تعتبر الإيمان شرط قبول العمل . وعليه ، فإنَّ الآية المذكورة وأيات وروایات كثيرة أخرى عدَّت الإيمان شرطاً لصحة العمل وكماله ، كما أنَّ بعض الآيات والروایات اعتبرت الولاية بنفس المستوى ومنحت الاعتقاد بها نفس القيمة التي منحتها هذه الآيات لمبدأ الإيمان بالله .

لماذا الإيمان والولاية شرطان لصحة العمل؟

عبارة أخرى : لماذا لم يفتح الله لاعمال الكفار الصالحة أو الطالحة حساباً مستقلأً ، بأن يحاسب الكافر على أعماله الطالحة بعزل عن حسابه لأعماله الصالحة؟
الجواب : لقد جاء جواب هذا السؤال في الآيات والروایات التي عدَّت الولاية والإيمان شرطين لصحة الأعمال .

جاء في رواية تقدمت أنَّ الإمام عليه السلام يقول : «ولم يعرف ولاية ولِي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلاته إليه» ، أي أنَّ للأعمال الصالحة شروطاً ومقدمات وملابسات يحدُّدها الإمام المعصوم نفسه وإذا لم تتم بتنسيق معه فانما قد تكون ناشئة عن هوى وهووس وتصبُّ في غير مجالها .

إنَّ غير المؤمنين عند ما يؤدون أعمالاً صالحة مثل المرضى الذين يداوون أنفسهم بعقاقير خاصة من دون مراجعة طبيب ، ومعالجة من هذا القبيل قد تلحق بالإنسان أضراراً كثيرة تصل إلى الموت أحياناً .

إنَّ الرسول عليه السلام والأئمة عليهما السلام هم أطباء روحيون ، ولأجل أن يداوي إنسان أو جائعه ، عليه بالعمل حسب وصفتهم لا وصفة غيرهم .
من هنا يقسم الإمام علي عليه السلام . في كلام جميل يخاطب به كميل بن زياد . الناس إلى ثلاثة أصناف :

١ . العلماء الربانيون الذين وجدوا وسلكوا طريق المداية والصراط المستقيم.

٢ . المتعلّمون والذين هم في طريقهم إلى المعرفة ويفيدون من العلماء والأساتذة لبلوغ طريق المداية والنجاة.

إنّ مثل هذين الاثنين كمثل الشمس والقمر حيث أحدهما يعدّ مصدراً ومنبعاً للنور والإضاءة ، والآخر رغم أنّه ليس مصدراً للنور إلا أنه يلهم من نور الآخرين ليتنور ويكون مصباح هداية في الليالي الظلمانية.

٣ . الصنف الثالث هو أولئك الذين لا هم أساتذة وعلماء ولا هم المتعلّمون ولا هم في طريقهم إلى العلم ، فلا هم مصدر للنور ومنبع له ولا هم متتوروون بنور الآخرين ، بل هم أناس غير هادفين ولا يعتمدون شيئاً في حياتهم إلا الخواء ، وهم مثل البعوضة التي يهددها أبسط نسيم ويدهّب بها إلى أي جهة شاء.

إنّ الذين ينتشلون أنفسهم من خط الموصومين لأنهم لا ينتبهون ويرفضون الولاية ، رغم ذلك يؤدون أعمالاً صالحة ، هم من الصنف الثالث ، وحياتهم كلها اضطراب واعوجاج ، و شأنهم شأن الشجرة التي ترقص مع كل ريح.

وعلى هذا ، فإنّ فلسفة اشتراط اليمان والولاية هو هداية الأعمال باتجاه الصراط المستقيم ، و شأن ذلك شأن المريض الذي يتداوى تحت رعاية الطبيب المختص.

٢ . الدوافع المعنوية لغير المؤمنين

ثاني خطاب للآية هو أنّ غير المؤمنين لا يملكون الدوافع المعنوية ، بل دوافعهم كثيراً ما تكون مادية ، كنموذج لذلك هو الخدمات الإنسانية التي يقوم بها ثلة من البشر ، في إطار المنظمات الإنسانية الدولية ، فهي من جهة خدمات إنسانية اخلاقية وتصل المحتاجين إليها من البشر ، لكنها في نفس الوقت كثيراً ما تكون غطاءً لممارسة التجسس لصالح الدول الكبرى.

قد يكون المدّف من هذه الاعانات هو الحفاظ على حياة هؤلاء المستضعفين لاجل استغلالهم أكثر فأكثر ، كما كان يفعل النحاسون وأصحاب العبيد حيث كانوا يطعمون عبيدهم المقدار الذي يحافظ على حياتهم وهو مقدار لا يشعّبهم ، ولذلك نرى أنّ بعض هذه الخدمات

الإنسانية تستهدف أغراضًا مادية غير إنسانية.

وقد أشارت الآية ٤٥ من سورة التوبة . التي مضى شرحها . إلى هذا المطلب ، حيث

قالت :

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يُأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

من هنا خاطب الإمام علي عليه السلام الاشتراك في عهده له طالباً منه أن يختار لصلاته أفضل أوقاته ؛ (١) وذلك لأنك اذا أحكمت علاقتك بخالقك فالله سيحكم علاقتك بباقي المخلوقات.

على أساس الآية الكريمة ، أن انفاق المنافقين وغير المؤمنين وإعانتهم المادية لم تنشأ عن نية خالصة بل نشأت عن كراهة وعدم رغبة.

لا قيمة لانفاقهم ولو بذلوا أفضل أموالهم وأكثروا ؛ وذلك لعدم ايمانهم بالله وبالولاية ، كما أن عملهم لم يكن عن صدق نية. على سبيل المثال إذا أراد المؤمن بناء مدرسة اختار منطقة محرومة لرفع الحاجة عن تلك المنطقة كما أنه سوف لا يدخل في احكام بناء المدرسة وصرف المبالغ في هذا السبيل ، أما الإنسان غير المؤمن أو المنافق بما أن هدفه الرياء والتظاهر لذلك يختار مكاناً ذا طلعة وفي مرمى من الناس وفي منطقة قد تكون مستغنية عن المدرسة ، ولا يفكري في إحكام البناء ؛ وذلك لأن جمال البناء يحقق اهدافه.

إن أعمال غير المؤمنين غالباً ما تكون عن هوی وهوس ، ولا جل كسب الشهرة والجاه والمورد ، ولا علاقة لهم بالنسبة الخالصة. اضافة إلى هذا ، نحن نعتقد أن غير المؤمنين لا يمكنهم التحلّي بالأخلاق الحسنة.

الاحباط في القرآن

كما أن الإيمان والولاية شرطان في البداية ، ولا قيمة لعمل بدونهما ، كذلك ادامة واستمراراً ، فالمفترض أن يستمر هذان الشرطان حتى نهاية العمر والانتقال من هذا العالم إلى عالم الآخرة.

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ٥٣.

وعلى هذا ، لو أنّ شخصاً جاء بجميع الاعمال الحسنة ، لكنه في اللحظات الأخيرة من عمره رحل خلو الايمان ، فإنّ أعماله التي انجزها في الدنيا سوف لا تقيده شيئاً في الآخرة أبداً.

هذه المسألة من مصاديق (الاحباط) الذي تعرض له القرآن بشكل واسع. إنّ ست عشر آية أشارت إلى قضية الاحباط في العمل ، تتعرض لاثنين منها.

١ . جاء في الآية ٨٨ من سورة الأنعام ما يلي : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِيطًا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ تعدد هذه الآية الشرك أحد عوامل إحباط الأعمال الحسنة.

٢ . وجاء في الآية ٦٥ من سورة الزمر : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبَطَنَ عَمْلُكَ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

رغم أنّ الآية تناولت الرسول ﷺ ، لكن من الواضح أنّه هو مركز التوحيد والحنفية ولا يتوقع منه أن يكون مشركاً يوماً ، لذلك نقول : إنّ الآية تحذير للآخرين لا له.

الحط في عالم الطبيعة

هل من العدالة أن تحبط الأعمال الكثيرة بذنب ما؟ بعبارة أخرى : هل الأمر يتفق مع قوانين الطبيعة؟

الجواب : أنّ الاحباط مشهود في عالم الطبيعة والتكتوين موجود كذلك في عالم التشريع والقوانين الدينية ، كما أنّه موجود في أعمالنا الروتينية.

قد يعمل المزارع ليلاً نهاراً ويبذل قصارى جهده للحفاظ على البستان الكبير والمليء بالشمار المتنوعة ، إلا أنّه قد يوقد النار في جانب منه ويغفل لفترة ليرى أنّ النار سرت إلى جميع البستان وأكلت كلّ جهوده التي بذلها لانضاج ثمار هذا البستان.

وقد يقوم الإنسان السليم خلال سنوات من العمر بكلّ ما تستدعيه اصول الصحة والرعاية الصحية ، لكنه لأسباب و أخرى يتعاطى المخدرات ليصبح بعد عدة أيام إنساناً سقيناً لا حول له ولا قوة ولا صحة ولا طاقة ولا بحجة. وعلى هذا ، فإنّ النار احبطت ما زرع المزارع وما أنتج ، والمخدرات أحبطت سلامته الإنسان ودمتها.

ويكفي الإثبات بمثال ثالث وهو : بناء سدّ ضخم يستدعي استخدام طاقة عمال ومهندسين لمدة سنوات متالية ، وبعد ملئه بالماء واستخدامه في أغراض خاصة ، يأتي سيل عظيم يغفل

المشرفون عليه عن فتح المنافذ والبوابات المخصصة لتقليل وطأة ضغط الماء على السد ، الأمر الذي يؤدي إلى كسر السد وإذهاب جهود سنوات من العمل سدى . وعلى هذا ، فمسألة الحبط لا تختص بالقضايا الدينية والعقائدية ، بل إنها جارية في قضايا التكوين والممارسات اليومية والعادية للإنسان ، ولا يتنافي ذلك مع العدالة الإلهية . علماً أنَّ المسبب الأساسي لهذا الاحتياط هو الإنسان نفسه ، فهو نفسه المسبب في اندلاع الحريق في البستان وتبدل طاقات جسم الإنسان المتعاطي للمخدرات وانكسار السد وتهديمه . إذن ، على المسلمين أن لا يفكروا بالاتيان بالأعمال الحسنة فحسب ، بل عليهم التفكير في الحفاظ على هذه الأعمال . فإنَّ الحفاظ على الأعمال أصعب بمرات من الاتيان بها ، فقد يقدم الإنسان على إحراق بستان حياته بوسائل بسيطة جداً ، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية ٢٦٤ من سورة البقرة ، التي اعتبرت أنَّ المن والأذى عوامل لاحباط الانفاق والصدقات .

إذا تبني شخص يتيمًا ورباه منذ صغره وأنفق عليه الكثير وأرسله إلى المدرسة الابتدائية ثم الاعدادية والجامعة ، ثم وفر له فرصة الزواج وعمل على تزويجه ، وفي يوم من الأيام وفي مجلس عام أراد أن يتباھي هذا الشخص ويعنّ على اليتيم فقال له : (لم تكن إلا طفلاً يتيمًا فأعلتك وأنفقت عليك وأرسلتك إلى المدرسة والجامعة وأنا الذي منحتك هذا الشأن ...) ؛ فوفقاً لمفاد آيات القرآن ، هذا الشخص أحبط أعماله التي أنجزها طوال حياته .

وبحسب المستفاد من بعض آيات القرآن ، أنَّ المسلمين ما كان لهم الحق أن يسيئوا الادب للرسول ﷺ أو يرفعوا أصواتهم عليه ، وإلا فتحبط أعمالهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١)

كما أنه عد مرض الحسد النفسي من عوامل الاحتياط .. في بعض الروايات . يقول الرسول ﷺ : «إيّاكُمْ وَالْحَسَدُ إِنَّهُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارَ الْحَطَبَ»^(٢) . في النهاية : أنَّ الإيمان والولاية شرطان لصحة الأعمال ، وعدمهما يحيط العمل سواء كان في بداية العمر أو أثنائه .

(١) الحجرات : ٢ .

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٨٥٠ ، الحديث ١٣٩٤ ، كما جاء نفس المضمون في الحديث ٣٩٣٨ .

المثل الرابع والعشرون والخامس والعشرون :

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

جاء في الآيات ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ من سورة إبراهيم ما يلي :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَادِنْ رَبَّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْرِيَّةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْرِيَّةٍ اجْتَسَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾

تصوير البحث

هذه الآيات من أجمل الآيات ومن أبلغ الأمثال القرآنية. إنَّ في الآيات الثلاث تمثيلاً جميلاً وبليغاً للكلمة الطيبة من جانب ، وللكلمة الخبيثة من جانب آخر ، وفيها يعدد الله الفوائد والآثار المترتبة على كل واحدة منها.

ارتباط آيات المثل بسابقاتها

إنَّ ذكر هذين المثلين لا يخلو من ارتباط بما ورد في الآيات السابقة من نسبة الكلمة الطيبة إلى الله والخبيثة إلى الشيطان ، كما أنها قد تضمنت مضامين ومفاهيم رفيعة. وهنا نص الآية ٢٢ من سورة إبراهيم : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَا قُضِيَ الْأُمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَقْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخَكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ينبغي الالتفات إلى أنه نقل كلاماً في الآية ، أحدهما لله ، وهو وعده الحق الذي أوفى به ، وهو مصدق للكلمة الطيبة . والثاني هو للشيطان الذي هو وعد باطل ولم يف به الشيطان ، كما أنه مصدق للكلمة الخبيثة .

حسب ما ورد في الآية الشريفة ، فإن استجابة دعوة الشيطان اختيارية غير حبرية ، وكل من تابع الشيطان فبارادته ، لذلك يلوم الشيطان الإنسان يوم القيمة ؛ لأن الإنسان يعلم بطبيعة الشيطان الخبيثة رغم ذلك يتحقق بركته .

ألا يعلم الإنسان بمعاملة الشيطان لايته آدم عليه السلام ؟ إن مكره هو الذي أدى به إلى خروجه وانقطاع نسل الإنسان من الجنة بالكامل .^(١) لم يسمع الإنسان بقسم الشيطان باتيان الإنسان من بين يديه ومن خلفه لاجل إغوائه وحرفة عن الصراط المستقيم ؟^(٢) إذن لماذا الإنسان ، رغم علمه الوافر ، يغرس الشيطان بوعوده الباطلة والكافحة ويترك كلام الله الصادق ؟ !

الشرح والتفسير

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً﴾

إن هذه الشجرة التي ضرب الله بها مثلاً ذات خمس خصائص :

١ . «طيبة» أول خصائصها أنها طيبة أي ظاهرة وذات رائحة مطلوبة . إن بعض الاشجار يستفاد من جميع أجزائها من الاوراق والاغصان والثمار والجذور وأصماugها ، كما أن منظرها جميل وعطرها مريح ، إلا أن بعض الاشجار ذات منظر قبيح ورائحة كريهة وجذور نتنة وثارها مُرّة .

إن الشجرة التي ضرب الله بها مثلاً هي شجرة ظاهرة وجميلة وبالجملة طيبة .

٢ . «أصلها ثابت» الخاصية الاخرى لهذه الشجرة أن جذورها ثابتة ومحكمة في الأرض . من مظاهر قدرة الله تعالى أنه جعل تناسباً بين غصون الشجرة وجذورها فكلما كانت

(١) مضمون الآية ٣٦ من سورة البقرة .

(٢) كما هو مضمون الآيتين ١٦ و ١٧ من سورة الاعراف .

الغضون أعظم وأكثر ، كانت الجذور عظيمة وكثيرة وعميقة بتلك النسبة التي للغضون ، وهي تحفظ الشجرة وغصونها من العواصف والفيضانات كما يفعل الحبل بما شدّ به.

٣ . «*قرعها في السماء*» الخاصية الاحرى أنّ نوها صعودي وعمودي نحو السماء.

ما لا شك فيه أنّ دور الجذور هو تغذية الغصون والأوراق ، لكن ما دور الغصون

المترفعة جداً والمتوجهة نحو السماء؟

للغصون المترفعة فوائد وأثار مختلفة نشير إلى بعضٍ منها :

الف . الغصون المترفعة تتنفس الهواء بشكل أفضل من غيرها من الغصون الأخرى.

المعروف هو أنّ أوراق الأشجار تنفس ، والعجيب هنا هو أن مردود هذا التنفس عكس مردود تنفس الإنسان ، فالأشجار تستنشق ثاني أوكسيد الكاربون وتطرح الأوكسيجين ، بينما الإنسان يستنشق الأوكسيجين ويطرح ثاني أوكسيد الكاربون.

إنّ فلسفة المفارقة هذه هي أنّ الأشجار لو كانت تنفس نفس الغازات التي يتنفسها ويحتاجها الإنسان ، لأصبحت الأرض بعد فترة وجيزة من الزمن غير صالحة للعيش ؛ لأنّ الأوكسيجين سينفذ تدريجياً ، ولا يبقى في الجو غير ثاني أوكسيد الكاربون ، وهو غاز قاتل بالنسبة للإنسان.

لذلك كان علينا أن نزرع في المدن وبخاصة المدن الكبرى أشجاراً لتصفية الهواء من الغازات السامة الناشئة عن استهلاك الوقود في السيارات ومعامل ، إضافة إلى أنّ الأشجار توفر لنا غاز الأوكسيجين.

من فوائد الريح أنه يبدل الهواء الملوث الخالي من الأوكسيجين بهواء نقى فيه مقدار كافٍ من الأوكسيجين.

إنّ رحمة الله تأتي بالهواء النقى وتذهب بهواء الملوث.

باء . تستفيد الأغصان المترفعة من نور الشمس بشكل أفضل. إنّ هذا النور يؤثر كثيراً على عملية جذب ثاني أوكسيد الكاربون وطرح الأوكسيجين ، ولذلك كانت الحدائق في النهار ذات جو وهواء أفضل من هواء الليلي الخانق.

جيم . إنّ الأغصان المترفعة في مأمن من الغبار والتلوثات التي يوجدها الإنسان على

سطح الأرض ، وقلما تطال هذه التلؤثات الاغصان المرتفعة كثيراً.

نقطة مهمة في مجال المعرفة

من دروس المعرفة الإلهية التي نتلقاها هنا هي أنَّ الأرض تحذب المياه التي تعلو سطحها ومتى تصل إلى أدنى مستوى ممكن أي نهاية القشرة ، وهذا قانون عام ، لكن المدهش هنا هو أنَّ الأشجار تحذب الماء الذي في حوالتها وتحول دون نفود المياه إلى الطبقات السفلية من قشرة الأرض ليتحول إلى مياه جوفية. فالأشجار باليصالها الماء إلى الغصون والأوراق مهما علت تعمل عكس تيار جاذبية الأرض ، وعملها يشبه مضخة الماء الضخمة التي قد تمد غابة كثيفة باطنان كثيرة من الماء لكن من دون صوت وععكس اتجاه الجاذبية الأرضية.

وهل غير الله القادر يستطيع أن يفعل هكذا؟!

في النهاية نقول : إنَّ ثالث خاصية للشجرة الطيبة هو احتواها على أغصان مرتفعة جداً تفيد من الهواء النقي المرتفع عن سطح الأرض كما تفید من نور الشمس بشكل أفضل ، وهي أخيراً في مأمن من تلؤثات الهواء في الطبقات الدنيا من جو الأرض.

٤ . «بِإِذْنِ رَبِّهَا» الخاصية الاخيرة لهذه الشجرة هي أنَّها رغم كون ثمارها تنضج في جميع الفصول ، إلا أنها تنمو وتعمل حسب قوانين الطبيعة ولا تشتد عنها ، وهي مطيعة لهذه السنن التي جعلها الله تعالى. إن هذا الأمر لم يختص بأمثال هذه الشجرة ، بل جميع ما في الطبيعة خاضع وخاضع له : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ حَبِيبَةٍ كَشَجَرَةٍ حَبِيبَةٍ﴾ إنَّ هذه الشجرة الحبيبة خاصيتين :

- ١ . «اجتئَثْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» أي أنها عكس الطيبة ذات الجذور الثابتة والمحكمة في الأرض ، فجذور الحبيبة مقلوبة من الأرض ولا تستطيع هذه الجذور الحفاظ على الشجرة من الطوفان والسيول والاعصار ، فهي مجنة الجذور.
- ٢ . «مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» أي لاثبات لها ويطرأ عليها التزلزل لأدنى ريح عاصف.

(١) آل عمران : ٨٣ .

إن شجرة تخلو من الشمار والعطر ولا يمكنها ايجاد الظل المناسب لا تفيده إلا للايقاد.

ما هي (الكلمة الطيبة)؟

هناك بحث بين المفسرين في تفسير معنى (الكلمة الطيبة) ، نشير إلى بعض النظريات

في هذا المجال :

١ . يعتقد البعض أنَّ المراد من «الكلمة الطيبة» هي كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» ^(١) فإنَّ

هذه الكلمة كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وهي في الحقيقة شجرة سعادة الإنسان. إنَّ هذه الشجرة التي هي حقيقة التوحيد ، تحفي قلب الإنسان وتكسر كل ما فيه من أصنام ، بحيث يجعله لا يسجد أمام أصنام المال والرشوة والربا والسرقة والاعتداء. ولا يكذب الآف الكذبات لأجل الحفاظ على مقامه ، ولا يرتكب الجرائم لأجل الحفاظ على مال الدنيا ؛ وذلك لأنَّ أعمالاً كهذه تعدُّ شركاً ولذلك يُدعى المرائي في الآخرة منافقاً أو فاجراً. ^(٢)

إن التوحيد إذا حلَّ وحيَّ في قلب الإنسان قضى على الهوى والهوس الذي هو السبب الرئيسي لجميع الانحرافات ودمراه.

من هنا جاءت رواية جميلة في هذا المجال : «أَبْغَضَ إِلَهٍ عُبْدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ

الهوى». ^(٣)

إن شجرة التوحيد الطيبة إذا زرعت في قلب الإنسان طردت كل ما حولها من أصنام.

٢ . يعتقد بعض آخر من المفسرين أنَّ المراد من الكلمة الطيبة هو (المؤمن) ، فقد اطلق على الموجودات (كلمة الله) في القرآن الجيد ، والمؤمن كلام إلهي كذلك ، الشمس والقمر والنجوم والأرض كلها كلمات الله ، فهي في كتاب الله التكويني من كلمات هذا الكتاب ، كما أنَّ هذا المصطلح استخدم في حق السيد المسيح عليه السلام. ^(٤)

إنَّ شجرة وجود المؤمن هي من قبيل الشجرة الطيبة التي تتمر في جميع الفصول ،

وثرارها

(١) مجمع البيان ٦ : ٣١٢.

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ١٤٠٩ ، الحديث ٦٧٨٤.

(٣) المحة البيضاء ٨ : ٤٤.

(٤) آل عمران : ٣٩.

السخاء والشجاعة والجود والرحمة والحب والاحسان والايمان وما شابه ذلك. ^(١)

٣ . وقد فسر البعض الكلمة الطيبة بالأئمة الموصومين ^{عليهم السلام}.

إنَّ هؤلاء بمثابة الشجرة الطيبة التي ملأت غصونها بالشمار ، وكل من طالع تاريخ حياتهم وسيرتهم أو اقترب لزارهم وحرمهم أو أصغى أو طالع كلماتهم وخطبهم أو مدّ يد العون إليهم فسوف لا يبقى خلو اليدين. ^(٢)

٤ . إنَّ (العلماء) هو تفسير آخر للكلمة الطيبة ؛ وذلك لأنَّ الناس يفيد من ثمار وجودهم.

٥ . (الفكر النزيه) هو خامس تفسير للكلمة الطيبة ، فإنَّ الافكار النزيهة والظاهرة هي بمثابة الشجرة الطيبة التي ثبتت على طول التاريخ.

٦ . (ال الحديث الحسن) هو تفسير سادس ذكر للكلمة الطيبة ، فإنَّ الحديث الحسن قد يخلد ويثبت ويفيد منه المجتمع. ^(٣)

وهناك رواية معروفة عن النبي ﷺ مدونة في كتاب (إرشاد الدليمي) حيث يقول فيها :

«ما أهدى المرء المسلم عن أخيه المسلم هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ويرده عن ردئ». ^(٤)

لقد جاء في قصة النبي موسى عليه السلام والحضر عليهما السلام انهما عند ما بلغا مدينة انطاكيه واجهوا جفأً من قبل ساكني المدينة ، خرجوا من المدينة ووجدوا هناك حائطاً خرياً ، أمر الحضر ببنائه ، فكان أمر الحضر لموسى مزعجاً فقال له الحضر آنذاك : إنَّ تحت الحائط كنزاً ليتيمين كان أبوهما امرئ جيداً ويؤمن أن يكونا كذلك.

لقد ورد في بعض الروايات أنَّ الكنزا هناك لم يكن ذهباً وفضةً ، بل مجموعة من الحكم التي تركها أبوهما لهما ، ^(٥) كما هو الحال بالنسبة إلى الكلام الشمين لأمير المؤمنين عليهما السلام ، فهو أغلى من أي

(١) انظر التبيان ٦ : ٢٩٢.

(٢) انظر تفسير الأمثل ٧ : ٤٤٦ - ٤٤٠.

(٣) وقد ذكرت تفاسير أخرى للكلمة الطيبة راجع الميزان وتفسير الأمثل ، ذيل الآية.

(٤) ميزان الحكمة ، الباب ٤٠١١ ، الحديث ٢١٢٠٨.

(٥) بجمع البيان ، ٦ : ٤٨٨.

كنز وهو يصلح لجميع العصور والأجيال.

كلمة طيبة من الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

إن جنادة بن أبي سفيان من أصحاب الإمام الحسين عليهما السلام المخلصين ، طلب من الإمام أن يعظه في الساعات الأخيرة من عمره المبارك ، ورغم أن الإمام كان في وضع صحي غير مناسب ، إلا أنه استطاع أن يزود هذا الإنسان المخلص ببعض النصائح الجميلة وذات المغزى العميق ، منها الجملة التالية :

«إن أردت عزًا بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فأخرج عن ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعة الله عَزِيزَكَ». ^(١) نعم ، كلام حق ، فإن العزة والاعتبار والسلطة في طاعة الله والعبودية له ^(٢)

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

(١) مستند الإمام الحسن المجتبى عليه السلام : ٥٥٦.

(٢) النساء : ١٣٩.

المثل السادس والعشرون :

الله المثل الأعلى

يقول الله تعالى في الآية الكريمة ٦٠ من سورة النحل :

﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

تصوير البحث

كما ذكرنا سابقاً ، فإنّ الهدف من أمثال القرآن هو بيان المسائل العقلية المعقدة في صيغة مسائل حسية قابلة للاستيعاب من قبل الجميع ؛ وذلك لأنّ القرآن للجميع ، فكما أنه يخاطب التوابع من العلماء ، يخاطب ابسط الناس والاميين منهم كذلك.

هناك بحث بين المفسرين في أنّ هذه الآية تُعدُّ من أمثال القرآن أم لا؟

سبب الاختلاف هو وجود تفسيرين ل الآية ، على أساس أحدهما تكون الآية مثلاً ، وعلى أساس الآخر تكون الآية ليست مثلاً ، ولأجل اتضاح الأمر ، نأتي بالتفسيرين هنا :

التفسير الأول

طبقاً للتفسير الأول ، إنّ مفردة المثل جاءت بمعنى الصفة ، أي أنّ الذين لا يؤمنون بالقيامة يحملون صفاتٍ قبيحة وغير مطلوبة . والحقيقة كذلك ، لأنّ الذين يظلمون ويرتشون ويكتبون ويقتلون و.... لا بدّ أنهم لا يعتقدون بيوم القيامة ، وإلا ما ارتكبوا هذه الذنوب.

يقول القرآن الكريم في الآية ٤ من سورة المطففين : ﴿أَلَا يَأْتُنَّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَيْعَوْثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

وحسب ما يستشفُ من الآية ، فإنَّ سبب تطفيق المطففين هو عدم اعتقادهم
وايمانهم بيوم القيمة.

نعم ، إنَّ غير المؤمنين بيوم القيمة يحملون صفات سيئة وقبيحة. من هنا كان على
الإنسان أن يخاطر جميع خطاه في ظلّ منهج يتحكم بسلوكه ويضبطه ، وإلا فكثير هم الذين
يقترفون الذنب وإن عظم لأجل كسب المال والمنافع ، مهما كانت تافهة وحقيرة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثُلُ الْأَعْلَى﴾ لأنَّ قدير لا يمكن هزمه ، كما أنه حكيم وذات منهج قويم .
إنَّ ذوي السلطة الظاهرية هم كثيراً ما يكونون غير حكماء ، ولا يفيدون من سلطتهم
بشكل مطلوب .

إنَّ للسلطة آفات كثيرة ، منها الغفلة عن البرمجة والنظام والحكمة ، لكن الله القادر .
وله أرفع قدرة وسلطة . هو الحكيم المطلق .
وعلى أساس هذا التفسير ، فالآية الشريفة لا تُعدُّ مثلاً .

التفسير الثاني

طبقاً لهذا التفسير ، إنَّ مفردة المثل حافظت هنا على معناها اللغوي. إنَّ الذين لا
يؤمنون بيوم القيمة والمعاد لا في العمل ولا في العقيدة ، لهم مثل السوء كالمثال التي ذكرت
لهم في القرآن المجيد .

إنَّ المثل الذي ذكر في الآية ١٧ من سورة البقرة ، والذي كان في حق المنافقين ، هو
من جملة الأمثال السيئة التي تُضرب لغير المؤمنين بالمعاد. يقول الله هنا : **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ**
الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ﴾

(١)

ومن الأمثال التي جاءت في هذا المجال هو المثل المذكور في الآية ١٧٦ من سورة
الاعراف ، حيث شبه الله المشركين هناك بالكلب المريض الذي يلهث والذي لا يحترم
الصديق ولا العدو .

(١) لقد مرّ شرح وتفسير هذا المثل وما بعده في أوائل الكتاب .

﴿وَلِلّهِ الْمَثُلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أَنَّ اللّهَ مِنَ الْأَمْثَالِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ ، فَلَلَّهِ الْمَثُلُ الْأَعْلَىٰ ، وَيُعَدُّ كُلُّ مَثَلٍ فِي حَقِّهِ ناقصاً مِمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَمْثَالَنَا مِنْ عَالَمِ الْمُوْجُودَاتِ الْمُمْكِنَةِ ، وَهِيَ جَمِيعاً ناقصَةً وَمُحَدَّدَةً ، وَلَا يَمْكُنُ تَصْوِيرَ الْمُمْحَدُودِ بِالْمُحَدُودِ .

وَالآيَةُ التَّالِيَةُ : **﴿فَلَا تَصْرِيبُوا لِلّهِ الْأَمْثَالَ﴾** تَشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَطْلَبِ .

رَغْمَ ذَلِكَ ، إِذَا أَرَدْنَا بِيَانَ مَثَالِ اللّهِ تَعَالَى فَالآيَةُ ٣٥ مِنْ سُورَةِ النُّورِ هِيَ أَنْسَبُ مَا يُمْكِنُ الْأَتِيَانَ بِهِ ، فَإِنَّ اللّهَ هُنَاكَ شَبِّهَ بِالنُّورِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا مُوْجُودٌ أَكْثَرُ فَائِدَةٍ وَبِرْكَةٍ وَلِطَافَةٍ وَسُرْعَةٍ مِنَ النُّورِ ، فَإِنَّ اللّهَ الْأَمْثَالُ الْعُلِيَا وَالرَّفِيعَةُ .

سُؤَالٌ : قَدْ يَخْطُرُ فِي الْذَّهَنِ هَذَا السُّؤُلُ : خَلَقَ اللّهُ كُلَّ شَيْءٍ ، لَكِنَّ مَنْ خَلَقَ اللّهَ؟
 الجواب : نَعَمْ ، أَنَّ اللّهَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، لَكِنَّ لَمْ يَخْلُقْ أَحَدَ اللّهَ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللّهَ مُوْجُودٌ أَزِيلٌ وَأَبْدِيٌّ ، أَيْ كَانَ وَيَكُونَ وَسُوفَ يَكُونُ . إِنَّهُ لَمْ يُخْلُقْ أَبَدًا لِكَيْ نَبْحُثَ عَنْ خَالِقِهِ . لِأَجْلِ اتِّضَاحِ الْمَطْلَبِ نَسْتَرْعِيُّ اِنْتِبَاهَكُمْ إِلَى الْمَثَالِ التَّالِيِّ الَّذِي فِيهِ صِياغَةُ الْأَمْرُورِ الْمُعْقُولَةِ فِي قَوَالِبِ مَحْسُوسَةٍ :

إِنَّ الْفَحْمَ الْحَجْرِيَّ الَّذِي هُوَ نَفَایَا الْغَابَاتِ فِي الْعَصُورِ الْغَابِرَةِ مَعْلُولٌ لِلطاقةِ الشَّمْسِيَّةِ . وَهَنْئَى النَّفَطُ الَّذِي هُوَ الْآنُ أَكْبَرُ مَصْدَرٍ لِلطاقةِ فِي الْعَالَمِ مَعْلُولٌ لِلطاقةِ الشَّمْسِيَّةِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ النَّفَطَ عَبَارَةٌ عَنْ بَقَايَا أَوْ مَسْتَحَاثَاتِ الْحَيَوانَاتِ فِي الْعَهُودِ الْمَاضِيَّةِ دُفِنَتْ لَتَتَحْوِلَ إِلَى هَذِهِ الْمَادَةِ بَعْدِ قَرْوَنِ . وَمِنَ الْطَّبِيعِيِّ أَنَّ الْحَيَوانَاتِ تَتَغَذَّى مِنَ النَّبَاتَاتِ ، وَالْآخِيرَةُ تَفِيدُ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْآخِيرَةُ لَمَا كَانَتِ النَّبَاتَاتِ .

إِنَّ الْمُحَرَّكَاتِ الْبَخْرَمَةِ الَّتِي تُنْصَبُ عَلَى الشَّلَالَاتِ لِأَجْلِ تَوْلِيدِ الطَّاْقَةِ تَسْتَمدُ طَاقَتَهَا مِنَ الشَّمْسِ بِالشَّكْلِ التَّالِيِّ : الشَّمْسُ تَسْطِعُ عَلَى الْبَحَارِ ، فَتَتَبَخَّرُ مِيَاهُ الْبَحَارِ ، فَتَتَبَدَّلُ الْمِيَاهُ إِلَى سُحْبٍ ، لَتَنْزَلُ عَلَى الْأَرْضِ تَارَةً أُخْرَى بِشَكْلِ مَطْرَ وَغَيْثٍ مَبَارِكٍ ، وَهَذِهِ الْأَمْطَارُ تَتَبَدَّلُ إِلَى سَيُولٍ تَحْرُكُ الْمُحَرَّكَاتِ لِتَوْلِيدِ الطَّاْقَةِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ .

أَمَّا طَاْقَةُ الشَّمْسِ فَذَاتِيَّةٌ ، أَيْ لَا تَصْلَهَا مِنْ خَارِجِ الشَّمْسِ ، بَلْ فِي الشَّمْسِ نَفْسُهَا مَا يَنْعِنُهَا الطَّاْقَةُ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهَا .

وَعَلَيْهِ ، رَغْمَ أَنَّ الشَّمْسَ مُخْلُوقَةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَوْلِدُ لَهَا الطَّاْقَةَ . وَهَذَا الْمَثَالُ

يُمْكِنُهُ

أن يوضح أزلية الله وأبديته وأنه غني عن الخالق ومن يمنحه الوجود أو السلطة.
في النتيجة : أنَّ التفسير الثاني للآية الشريفة يجعل الآية من أمثال القرآن.

ارتباط آية المثل بسابقتها

تحدث الآيات التي سبقت هذه الآية (أي الآيات ٥٧ و ٥٨ و ٥٩) عن العادات والعقائد القبيحة لعرب الجاهلية التي منها وأد البنات.

جاء في الآيتين ٥٨ و ٥٩ ما يلي : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًاٰ وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَكُ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هَؤُنِ امْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

المستفاد من الآيتين هو أنَّ العرب كانوا يعتمون إذا رزقوا بنتاً ، وهذا أمر يجعل الجميع يتساءل عن سبب ذلك.

لماذا كان عرب الجاهلية يئدون بناتهم؟

إنَّ الدراسات كشفت عن وجود علتين لهذه الظاهرة :

١ . كانوا يظنون أنَّ الذكور مولدون للثروات والمال ، أما البنات فمستهلكات لهذه الثروة. ما كان للنساء آنذاك نشاط اقتصادي ، أما الذكور فكانوا ينتحرون في قطاعات اقتصادية مختلفة أو في مجال السرقات وقطع الطريق وما شابه. لذلك كانوا يقولون : إنَّ حق العيش خاص بالذكور ، أما الإناث فلا حق لهنَّ في الحياة الدنيا.

٢ . التعصب الأعمى ، يقال : إنَّ حريًّا حصلت بين قبيلتين من العرب ، وقد أسرت القبيلة المنتصرة رجال ونساء وبنات القبيلة الخاسرة. وفي فترة الأسر تزوجت نساء القبيلة الخاسرة من رجال القبيلة المنتصرة. وبعد زمن انتهى أمر القبيلتين إلى الصلح وتبادل القبيلتان أسراهem ، لكن النساء اللائي تزوجن رفضن الرجوع إلى قبائلهن ، الأمر الذي تبع ملامات وافرة ضد تلك النساء. ومن شخصيات القبيلة الخاسرة شخص أقسم أن يقتل البنت

إذا ولدت له لكي لا يرى بعد ذلك عاراً كهذا. ^(١)

سرى هذا المرض تدريجياً إلى الآخرين ، ليتخد هذا الذنب العظيم عنواناً مقدساً مثل (الدفاع عن العرض) أو (حفظ الغيرة والحمية) وما شابه ذلك.

لقد أصبح متعارفاً في الوقت الراهن أن ترتكب الجرائم العظمى بعناوين مقدسة ، ومن جملة تلك العناوين هي عنوان (حقوق البشر) ، وبهذا الشعار يسلبون حقوق الكثير من الناس والشعوب. كما أنهم يأسرون الإنسان تحت عنوان (الحرية) أو يقترون الذنوب والجرائم تحت عنوان (التحضر) ، وهي جرائم لم يرتكبها الإنسان البدائي وغير المتحضر.

على أي حال ، إنّ عرب الجاهليّة كانوا ملوثين بهذا الذنب العظيم ، إلا أن مجيء الإسلام أغلق اضيارة هذه الجريمة العظمى ليتوج الإنسانية ويقدم للنساء خدمة عظمى. من جانب آخر ، هؤلاء العرب الذين كانوا يعتبرون البنات موجودات مشؤومة ، كانوا يعتقدون أنّ ملائكة الله بنات ، وكانوا يبعدونها ليكسسوا رضا الله. ولذلك جاء في الآية ٥٧ من سورة النحل ما يلي :

وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ

خاطب الله في الآية العرب وكلمهم بالمنطق الذي يعتقدون به ، وسألهم إذا كنتم تدعون الملائكة بنات الله ، فلما ذا تندون البنات عند ما يرزقكم الله إياها؟! بالطبع ترسّبات هذا الفكر الجاهلي لا زال موجوداً في أذهان البعض ، ولذلك عند ما يريدون رسم الملائكة يرسمونها على شكل بنات.

البنت كشدة الورد

من المؤسف أنّ هذا الفكر الجاهلي الخاطئ لا زال يشغل حيزاً في أدمغة بعض العوائل ولا يرون مساواة بين الذكر والأنثى ، ويتأذون من سماع ولادة بنتٍ لهم.

هناك الكثير من الروايات في مصادرنا الإسلامية تبنّت الرد على هذه الأفكار ، نشير إلى

(١) انظر تفسير الأمثل ، ٨ : ٢٠٤ . ١٩٧ .

نوجгин منها ، نأمل أن نزيل بحثاً وبالروايات الأخرى هذه الأفكار المشؤومة.

١ . بُشِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بابنةٍ فنظر إلى وجوه أصحابه فرأى الكراهة فيهم ، فقال :

«مالكم؟ ريحانة أسمها ورزقها على الله عَزَّلَكُمْ». ^(١)

كثير من الأولاد كانوا وبالاً على والديهم وسبباً لنكساتهم ، وكثيراً من البنات كن سبباً لرفعة رأس والديهن. إن فاطمة الزهراء (عليها السلام) كانت فخرًا لا يها ، ونسل الرسول ﷺ كله يرجع إلى هذه البنت.

٢ . جاء في ذيل الآية الشريفة : ﴿وَأَمَا الْغَلَامُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنٌ فَخَشِينَا أَنْ يُرِهَقُوهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرْدَنَا أَنْ يُبَدِّلُهُمَا رُبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ رَجُوْهُ وَأَقْرَبُ رُحْمًا﴾ ^(٢) إن الله رزق هذين الأبوين بنتاً كانت كشدة الورد ، لا أنها لم تسبب نكسة للأبوبين فقط بل كانت سبباً لرفعة رأسهم ، وذلك لأنّ سبعين نبيّاً كان من نسلها ، ^(٣) فهل هذه البنت شؤم والذكر جيد وحسن؟!

وفقاً لآية المثل ، إن الكفار بالله وبال يوم الآخر لهم أسوأ الأمثال ، وكلامهم بذيء ، ويعتقدون أن الله بنات ، مع أنه ليس كذلك ، فهو لم يلد ولم يولد.

لحيشتين يحتاج الإنسان إلى ولده :

الاولى : أن عمر الإنسان محدود ، ويحتاج الإنسان إلى الأولاد لكي يحافظ على نسله.

الاخري : لا يمكن الإنسان الحفاظ على قواه حتى نهاية عمره ، بل يضعف الإنسان كثيراً ببداية الكهولة ، وحينئذٍ يحتاج إلى من يعتمد عليه ويعينه في تلك الأيام. أما بالنسبة إلى الله ، فهو أزلٍ وأبدٍ ولا معنى للموت بالنسبة إلى ذاته المقدسة ، كما أنه قادر وقوى مطلقاً فلا يحتاج إلى الولد ذكرًا أو أنثى.

اضافة إلى هذا ، امتلاك الولد يستلزم الجسمانية ، وبديهي أن ذات الحق ليست

جسمًا ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَيْرًا﴾

(١) وسائل الشيعة ١٥ : ١٠٢.

(٢) سورة الكهف : ٨١ . ٨٠.

(٣) انظر نور الثقلين ٣ : ٢٨٦ . ٢٨٧ . نقاً عن تفسير الأمثل ٩ : ٢٩٥.

المثل السابع والعشرون :

عبد الأصنام وعباد الله

يقول الله تعالى في المثل السابع والعشرين وفي الآية ٧٥ من سورة النحل ما يلي :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَا هُوَ مَا رَزَقَنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهْرًا هُلْ يَسْتَوْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

تصوير البحث

تحدّث الآية عن عبد الأصنام والمؤمنين. ويشبّه الله عبدة الأصنام هنا بالعبد المملوك الذي لا يملك شيئاً من المال ، كما أنه غير حرّ في اتخاذ القرار. أما المؤمنون فإن الله هو رازقهم ، كما أنهم يشاركون الآخرين بأرزاقهم ، وذلك بالانفاق سراً وجهاً.

ارتباط آية المثل بسابقاتها

تحدّث الآيات السابقة عن عبادة الأصنام ، وعن سبب عبادة الإنسان موجودات لا يمكنها حل أي مشكلة من مشاكله ، رغم أنه عاقل والمفترض بأعماله أن تكون هادفة. من هنا جاء في الآية ٧٣ من نفس السورة ما يلي : ﴿ وَيَغْيِرُونَ مِنْ ذُونَ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيغُونَ ﴾

د الواقع العبادة

للعبادة دوافع عديدة ، ومن دوافع عبادة الله القادر هو قضية "شكراً للنعم" ،

فالإنسان

عند ما ينظر إلى ذاته وحواليه يرى نفسه غارقة بالنعم العديدة من العين والأذن واليد والرجل والفك والسماء والأرض والشمس والهواء والأشجار والغابات وأمثال ذلك ، وهذا يحکم وجданه بضرورة شكر المنعم وتقديره.

هل يمكن شكر المنعم دون معرفته؟ من هنا كان الشكر سبباً لمعرفة الله.

وعليه ، شكر المنعم هو من دوافع عبادة خالق المخلوقات.

قد يكون العبود خالياً من التأثير على حياة الإنسان ، لا أنه لا فائدة فيه ، ولا يزود عابديه بأي خير ، بل إنه لا يستطيع الدفاع حتى عن نفسه ، وهو بحاجة إلى حماية الآخرين. وإن موجوداً كهذا ليس أهلاً للعبادة ، ولا شك أن عقل الإنسان يرفض هذا النوع من العبادة.

بالطبع ، إن عبادة الأصنام لا يعودون أصنامهم هي حالقة المخلوقات ، بل حسب ما

ورد في القرآن : لو سألهما من خلق السماوات والأرض لأجابوا : الله هو الذي خلقها^(١) لا أصنامهم العاجزة. وهذا يكشف عن أنهم لم يكونوا مشركين في الخلق ، كما أنهم كانوا يعبدون الله الرازق الوحيـد.^(٢)

غاية الأمر أنهم كانوا يعتقدون أن الأصنام تبـث بـحل المشاكل بشكل مباشر ومستقل أو كشـفاء عند الله ، لذلك جاءت الآية ٣ من سورة الزمر لتقول : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

لا شك أن كلام المشركـين باطل وواضح عدم صحتـه ، كيف يمكن لأصنام أن تحل مشاكل الآخرين رغم أنها عاجزة عن حل مشاكلـها ذاتـا.

وفقاً لما جاء في النص القرآـني ، فإن إبراهيم عليه السلام عند ما حطم الأصنـام (في تلك القصة المعروفة والجمـيلة) قال : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يُنْعَكِسُ شَيْئاً وَلَا يُضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَلَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣)

(١) جاء هذا المضمون في آيات عديدة ، منها : الآية ١٦ من سورة العنكبوت والآية ٢٥ من سورة لقمان والآية ٣٨ من سورة الزمر والآية ٩ و ٨٧ من سورة الزخرف.

(٢) إن الآية ٢٤ من سورة سباء من جملة الآيات التي تدل على هذا المعنى.

(٣) الأنبياء : ٦٦ . ٦٧ .

فإِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاقِلَ . إِذْنَ . لَا يَسْتَسِلُمُ وَلَا يَرْكَعُ أَمَامَ أَصْنَامٍ كَهْذِهِ .
تَعْقِيْبًا عَلَى مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ نَهْيٍ إِلَيْنَا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ جَاءَتْ آيَةُ
الْمُشَلِّ .

الشرح والتفسير

الآية سعت للتمييز بين المؤمن (عبد الله) والمشرك (عبد الصنم) ، فشبّهت المشرك بالرق الذي لا إرادة له بل إرادته تابعة لモلاه ، كما أنه لا يملك شيئاً من المال ولا يملك قرار نفسه ، بل إنَّ بعض المالكين يجizzون لأنفسهم قتل عبيدهم في حالة الغضب والضجر ، فهم كانوا يعتقدون أنَّ المالك له الحق في التصرف بأمواله بأي شكل شاء . إنَّ المشركين لهم شأن كهذا الرق الذي يفقد الإرادة والاختيار .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ الْمُوَحَّدُ فَهُوَ بِمَثَابَةِ إِلَيْنَا إِنَّ الْإِنْسَانَ الْحَرَّ الَّذِي رَزَقْنَا عَلَى اللَّهِ هَنِيَّاً مَرِيَّاً ، وَيُشَرِّكُ الْأَخْرَيْنَ فِي هَذِهِ الرِّزْقِ الْحَسَنِ بِالْإِنْفَاقِ إِلَيْهِمْ فِي السُّرِّ وَالْعُلَانِيَّةِ .
هَلْ يَتَسَاوِي هَذَانِ الْاثْنَانِ؟ طَبِيعًا لَا يَتَسَاوِونَ .
إِنَّ الَّذِي جَرَّ هُؤُلَاءِ الْمُشَرِّكِينَ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ هُوَ جَهَلُهُمْ .

خطابات الآية

١ . العبيد في الإسلام

هل امتلاك العبيد أمر مطلوب؟
هل يسمح الوجود البشري بممارسة العبودية؟
لماذا لم يحرر الإسلام العبيد عند ظهوره؟ وماذا لم يلغ هذه الظاهرة بالكامل؟
لماذا هناك أحكام خاصة في الفقه تتعلق بالعبيد؟
لماذا لم يتساوى العبيد والحرار في حقوقهم الإنسانية؟
وآخر سؤال هو : هل تتفق روحية العبودية مع الإسلام الذي هو دين فطري؟
إنَّ جواب الأسئلة الماضية بحدها في كتاب مستقل يحمل عنوان (الإسلام وتحرير

العبيد) ^(١) وكذلك في مجال متعددة من تفسير الأمثل ، رغم ذلك نشير إلى الاحabات بشكل مختصر هنا :

إنَّ تحرير العبيد من الأهداف المهمة لدين الإسلام ، وقد تحقق هذا المدف تدريجياً وبمرور الزمان. وينبغي الالتفات هنا إلى أنَّ ظاهرة سيئة ما إذا تحدّرت في المجتمع فلا يمكن اقلاقها في فترة قصيرة ، بل ينبغي اتخاذ اجراءات ابتدائية خاصة لأجل احتاثتها من المجتمع ، وفي غير هذه الحالة ، فان مشاكل جمة ستواجه المجتمع والقائمين على اصلاح سلوكاته.

لو بتَ الرسول ﷺ منذ البداية بإلغاء هذه الممارسة مباشرة ، وقام المسلمون بتحرير عبيدهم (الذين يفقدون رأس المال) وبإخراجهم من بيوقهم ، لأدى ذلك إلى مشاكل عديدة ومفاسد اجتماعية من قبيل السرقة والزنا واللوساط ، وهم في النتيجة سيهدمون أساس المجتمع ، لذلك كان تحريرهم المفاجيء أمراً غير صحيح.

من هنا وضع الإسلام منهجاً تدريجياً خاصاً لتحرير العبيد وضمهم إلى المجتمع الحر ومن دون حصول هذه المشاكل المحتملة.

عمل الإسلام في البداية على قطع مناشيء العبودي في المستقبل ، لكن لا يُرقّ إنسان فيما بعد ، ولم يبق إلا طريق واحد وهو الإسترقاق عن طريق الحرب ، وذلك عند أسر الأعداء ، رغم ذلك جعل الإسلام بدليلاً لذلك حيث منح المسلمين الحق في تحرير الأسرى أو تبديلهم بفدية ، ومن جانب آخر أكد على استحباب تحرير العبيد وفرض لذلك ثواباً عظيماً ^(٢) لكن يتشجّع المسلمون على تحرير عبيدهم.

وقد ورد في بعض الروايات أن علياً أعتق ألف عبدٍ من كدّ يده. ^(٣)
كما قد جاء في رواية أن الإمام الحسن عليه السلام حرر جارية له بمجرد أن أهدت له يوماً زهرة ، وقال لها : «أنت حرة لوجه الله» ، وبعد تعجب أحد أصحابه على عمله هذا ، قال له : «أدّبنا الله تعالى». ^(٤)

(١) الكتاب بالفارسية ، وفي هذا المجال كتب عربية أخرى ، منها ما ورد في المامش اللاحق.

(٢) راجع كتاب وسائل الشيعة ، ج ٦١ ، أبواب العتق ، الباب الأول.

(٣) بخار الأنوار ١٤ : ٤٣ .

(٤) مسند الإمام الجعفي عليه السلام : ٧٠٢ .

وتشياً مع مبدأ التحرير المطلق للعبد ، فرض الإسلام تحرير الرق ككفارة لكثير من الذنب.

إنَّ الشخص إذا أفتر في شهر رمضان عمداً ، فعليه . اضافة إلى القضاء . الكفارة ، وأحد خيارات الكفارة المفروضة هو تحرير عبدٍ ، وكذا الحال بالنسبة إلى حنث اليمين والعهد والنذر فإنَّ تحرير عبد هو أحد الخيارات المفروضة هنا.

وبهذا المنهج الدقيق للإسلام تحقق التحرير التدريجي للعبد ، قبل أن تُعلن الدنيا عن قرار تحرير العبد بمئات السنين.

٢ . العبودية المتطورة

يعتبر القرآن المجيد المؤمنين أحرازاً والمشركين عبيداً. ومن هنا ندرك أنَّ مصطلح (العبد) لا ينحصر في معناه المتعارف ، بل هناك أنواع أخرى للعبودية ، وهي عبودية الشهوة والمحوى والهوس والمال والشروة والجاه والمقام وأصناف أخرى للعبودية المتطورة.

يقول ابن عباس : «إِنَّ أَوْلَى دَرَهِمٍ وَدِينَارٍ ضَرِبَأَيْنَهُمَا أَخْذَهُمَا فَوْضَعُهُمَا عَلَى عَيْنِيهِ ، ثُمَّ ضَمَّهُمَا إِلَى صَدْرِهِ ، ثُمَّ صَرَخَ ثُمَّ ضَمَّهُمَا إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ : أَشَمَا قَرْةَ عَيْنِي ، وَثُمَرَ فَوَادِي ، مَا أَبْلَى مِنْ بَنِي آدَمَ إِذَا أَحْبَبَوكُمَا أَنْ لَا يَعْبُدُوا وَثُنَّا ، حَسْبِيْ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَكْبُوْكُمَا». (١)

أي أن صنم المال والشروة وعبودية المال والدنيا هي أخطر من العبودية المتعارفة. العالم اليوم الذي أعلن عن تحرير العبد ، هو في الحقيقة غير نوعية العبودية ولم يزدها بالكامل.

أرباب القوى العظمى عند تبريرهم للجرائم التي يرتكبونها يقولون بصرامة : إنَّ هذه الجرائم تقتضيها مصالحنا ، فإنه لو لم يكن هناك حرب وإهراق للدماء وقتل واختلاف وتفرقة ، فإنَّ معامل الاسلحة ستتعطل. ألم يكن هذا شركاً وعبادة للأصنام؟!

(١) بخار الأنوار ٧ : ١٣٧ .

أليس هؤلاء أسرى أموالهم وثرواتهم وعيادة لها؟!
 هناك بعض يغتمنون كثيراً ويقيمون العزاء لأجل حرمانهم من تحملات الدنيا وزخرفها!
 إن هؤلاء أسرى حقيقيون.

يوسف عليه السلام إنسان حر

المستفاد من القرآن المجيد هو أنَّ زليخا (زوجة عزيز مصر) لم تكن الوحيدة التي دعوه لتنفيذ رغباتها وشهواتها الشيطانية ، بل إنَّ كثيراً من نساء اشراف مصر وكبارها كانَ يشجّعن يوسف عليه السلام على إطاعة زليخا والقيام بهذا العمل الشيطاني ، لذلك جاء في كلام يوسف عليه السلام : ﴿رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيِّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(١)

هناك احتمالات في مضمون الكلام المستخدم لتشجيع يوسف عليه السلام ، فقد يكون مضمون الكلام هو : (يوسف! أنت شاب وزليخا إمرأة جميلة فلما ذا لا تستسلم لها؟) وقد يكون : (إذا لم تحو جمال زليخا وحسنها ، فلا أقل فكر في مقامها وجهها ، فانك قد ترقى مقاماً من خلاها) ، وقد يكون : (إذا لم تكن من أهل الجمال والجاه والمقام ، فخف انتقام زليخا وطعنها بك).

أما يوسف الحر فقد قاوم هذه الوساوس التي تقمصت ثياباً جميلة وجذابة ورجح عبودية الله على أي شيء آخر وقال : ﴿رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيِّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾
 إلهي! إنَّ هذه النسوة الملوثات يدعوني لتحمل أسر الموى والهوس ، وأنا أبغى الحرية وأحبها رغم أنها قد لا تحصل إلا في الزنزانات والسجون ، وذلك أحب إلي من أسر النفس الأمارة ، يا إلهي العظيم!

إنَّ هذه الحنة عصبية جداً وأنا غير قادر عليها لوحدي فلا تتركني دون عنابة منك ،
 ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

أنَّ الله أuan يوسف الحر وجعله يعيش الحرية في سجون العزيز ، التي اقتربت مع رفعه رأس وافتخار ، كما أنها كانت مقدمة لحكمته وسلطانه وإثبات نراحته وطهارته.

(١) يوسف : ٣٣

إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ لَوْلَا لَوْلَا مَمْلُوكاً لَمْ يَذْهَبْ إِلَى السَّجْنِ لَمَا تَوَافَرْتْ لَهُ فَرْصَةُ تَعْبِيرِ الْمَنَامِ ، وَتَعْبِيرِ
الْمَنَامِ لَوْلَا لَمْ تَتوَافَرْ فَرْصَتِهِ لَمَا تَبَرَّءَ مِنَ الْاتِّحَادِاتِ وَلَمَا اقْتَرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَمَا حُكِمَ فِي النَّهَايَةِ .
إِلَهِي ! نَحْنُ جَمِيعاً أَسَارِيَ الْهُوَى وَالْمَوْسُونَ نَوْعًا ما ، لَكُنْ نَحْنُ أَنْ تَنْقِذَنَا مِنْ أَسْرَنَا ،
فَأَعُنَا عَلَى ذَلِكَ .

علي عليه حُرُّ آخر

من التفاسير الواردة في تفسير المؤمن الذي ورد في آية المثل هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .^(١) نعم إنّه كان حرّاً من عبودية الهوى والموس والمآل والثروة . كان ينفق كل ما عنده من ثروة في سبيل الله حتى في أثناء الصلاة .

نال الحكومة الظاهرية بعد سكوت وعود في البيت ومظلومية تحملها مدة سنوات ، وقد أصبح آنذاك حاكماً وذا سلطة ، رغم ذلك ما كان يجرؤ على التلاعب في بيت المال وإنفاقه بما تروق له نفسه . وقصته مع أخيه عقيل خير شاهد على هذا ، ولنقرأ القصة على لسان أخيه هنا ، وقد مررت على لسان الإمام علي عليه السلام فيما سبق :

«أقويةت (أي افتقرت) وأصابتني مخصصة شديدة ، فسألته فلم تند صفاته (التعبير كنایة عن بخل الإمام) فجمعت صبياني وجنته بحم والبؤس والضر ظهران عليهم . فقال : (ائتني عشية لأدفع إليك شيئاً) ، فجئتني يقودني أحد ولدي ، فأمره بالتنحي ثم قال : (ألا فدونك) ، فأهويت حريصاً قد غلبني الجشع (الحرص الشديد) أظنها صرّة ، فوضعت يدي على حديد تلتهب ناراً ، فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور (أي يصيح) الثور تحت جازره ، فقال لي : (شكلكت أمك هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وهي غداً إن سلكتنا في سلاسل جهنّم)؟ ثم قرأ : ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَالِسُ يُسْجِنُونَ﴾^(٢) ثم قال : (ليس لك عندي فوق حرقك الذي فرضه الله لك إلا ما ترى) فانصرف إلى أهله».

(٣)

(١) منهج الصادقين ٥ : ٢١٢ .

(٢) المؤمن : ٧١ .

(٣) بحار الانوار ٤٢ : ١١٨ .

إنَّ عَقِيلَ قَامَ لِيُخْرِجَ بَعْدَ مَا رَأَى فِي هَذَا الْحَاكِمِ الصَّلَابَةَ وَعَدَمِ استعداده للعدول عن طريق العدالة ولو للحظة واحدة.

هل نعلم على طول التاريخ حاكماً قادرًا يعامل أخاه هذه المعاملة ، التزاماً بالعدالة؟
إلهي ! وفق مسؤولينا للعمل كما كان يعمل الامراء الاحرار ، لكي يقدموا الضوابط والقوانين على العلاقات.

المثل الثامن والعشرون :

المؤمن والمشرك

يقارن الله في الآية ٧٦ من سورة النحل بين المشرك والمؤمن ويقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا بُوَجَّهَهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

تصوير البحث

عنت الآية بالمقارنة بين الإنسان المؤمن والإنسان المشرك ، وقد قارنت الآية بين الاثنين بمثل جميل ودقيق بحيث لا يمكن إثره انكار الفوارق بين الإنسانين ، وبخاصة إذا لاحظنا الصفات التي ذكرت للمشكك في الآية ، فإن ملاحظتها يفرض علينا القول بعدم امكانية المقارنة بينهما لشدة الاختلاف في هذه الصفات.

الشرح والتفسير

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ في هذا المثل قارن الله بين شخصين الأول وهو المشرك

يحمل الصفات الخمس التالية :

١ . ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ أي أنه أخرس. وأبكم مفردة أخرى للاخرس ، والفرق بينهما

أن الأخرس هو الذي عرضت له هذه الحالة أثناء حياته ، ولم يكن أخرس منذ الولادة. أمّا الأبكم فهو الذي يلد على هذه الحالة.

وقد أضاف بعض من أهل اللغة أن الأبكم هو الذي يكون على هذه الحالة منذ الولادة ، والسبب عقلي أي الضعف في قواه العقلية ، فهو يعاني من تخلف عقلي . وعلى هذا فإذا بكم صاحب دماغ ضعيف وسقيم ، ويшибه الله المشرك بهذا الذي يلد ضعيف العقل .

٢ . ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ الخصلة الثانية لهذا الإنسان هي أنه غير قادر على عمل شيء ، فهو ضعيف روحياً وجسمياً .

٣ . ﴿وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَيْهِ﴾ الخصيصة الأخرى لهذا الإنسان أنه كل أو ثقل على الآخرين ، أي أن هذا العبد ثقل على مولاه .

المتعدد أن الناس يقتنون العبيد لأجل حل مشاكلهم ، إلا أن العبد هذا ، لا أنه لم ينجز عملاً انتاجياً أو خدمة ما فحسب ، بل هو مستهلك بحت ولذلك كان كلاماً على مولاه .

٤ . نستفيد من العبارة الماضية أن هذا الشخص عبد وليس حرراً ، بعبارة أخرى انه ملك لغيره لا لنفسه ولا يملك إرادة نفسه .

٥ . ﴿إِنَّمَا يُوجَهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ آخر خصلة له أنه لا يتوقف في أي عمل يقدم عليه ، ويرجع متتكس الرأس كلما أرسل لقضاء حاجة .

وعلى هذا ، فإن المشرك يبدو شخصاً يحمل الصفات التالية :

١ . عبد يفقد الإرادة .

٢ . أبكم منذ الولادة .

٣ . لا يستطيع انجاز عملٍ ما .

٤ . كلام على مولاه .

٥ . فاشل في جميع أعماله .

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ ...﴾ أي هل يستوي هذا الإنسان الحامل لهذه الصفات مع

إنسان ستأتي صفاتيه؟

الإنسان الآخر (المؤمن) الذي سبب بتصنيفه يحمل خصلتين ممتازتين وبارزتين :

١ . ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أول خصائصه أنه يأمر بالعدل والقسط ، أي أنه عادل ويعمل طبقاً لما تستلزم العدالة . وأمره بالعدالة يكشف عن شخصيته القيادية والإدارية .

٢ . ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فهذا الإنسان اضافة إلى عدالته وأمره بها ، يخوضي خصيصة أخرى ، وهي أنه يخطو على الصراط المستقيم.

قد يكون البعض من طلاب العدالة والقسط في المجتمع ، لكن بما أنّ مسامعهم لم تنشأ ولم تصب في الطريق الصواب والصحيح فهي كثيراً ما تنتهي إلى الظلم والجحود. وقد نجد شخصيات من الشيوعيين يطالبون بالعدالة حقاً ، لكنهم سلكوا طريقاً غير صائب لاجل تحقيق العدالة ، فانتهت أمرهم إلى جرائم كثيرة وبشعة اقترفوها خلال سبعين عاماً من حكمتهم.

إذن ، مثل المؤمن مثل الإنسان العادل والطالب للعدالة الذي يسير على طريق الحق والصواب ، أما مثل الكافر فمثل العبد الابكم الذي لا إرادة له و.... وهل يتساوى (مع هذه المفارقة) المشرك والمؤمن؟ لا شك أنه لا يوجد من ينكر المفارقة هذه.

خطاب الآية

الشرك وعبادة الأصنام في القرن العشرين

يتصور البعض أنّ عهد الشرك وعبادة الأصنام قد ولّ ولا يوجد مشرك حالياً ، مع أنّ الواقع ليس كذلك ، فهناك مشركون وعبدة للأصنام ؛ وذلك لأنّ للشرك (ذلك البلاء المھلک) أنواعاً وأقساماً كثيرة. من هنا قال القرآن : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُون﴾^(١)

نعم ، إنّ أكثر الذين يدعون الإيمان بحد في معتقداتهم عروقاً من الشرك تصب في قلوبهم.

لو قيل للذي ادّخر مالاً وأعد لنفسه ثروة ضخمة : إنّ هذه الثروة ليست لك ، وأنّ مجرد أمين عليها ، فاعط المحتاجين كما نصّت الآية على ذلك : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَهُم مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾^(٢)

(١) يوسف الآية ١٠٦ . وقد وردت رواية جميلة عن الباقي عائلاً في ذيل هذه الآية يقول فيها : ((هو قول الرجل : لو لا فلان هلكت ، ولو لا فلان لأصبت كذا وكذا ، ولو لا فلان لضاع عيالي ، ألا ترى أنه قد جعل الله شيئاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه))؟ قال الراوي قلت : فيقول : لو لا أن الله من علي بفلان هلكت؟ قال : ((لا بأس)) ، ميزان الحكمة ، الباب ١٩٩٢ ، الحديث ٩٣٠٩ .

(٢) الحديـد : ٧ .

لأحاب : لي أولاد وبنات وهم مقبلون على الزواج وعلى دخول الجامعات ، ومصارفهم كثيرة وثقيلة ... إن هذا المسلم مشارك في الحقيقة ؛ وذلك لأنَّه غير مقتنع برازقية الله بشكل كامل ، وتوحيد رازقية الله عنده ناقص ، وإلا فإنَّ الله الذي كان قادرًا على حفظ هؤلاء الأطفال في أرحام امها لهم قادر على إعانتهم في الدنيا إلى نهاية عمرهم.

إن المترافقين الذين يتظاهرون بعبادة الله أمام الناس ، لأجل كسب العزة والجاه عند الناس ، هم في الحقيقة يمارسون الشرك بتظاهرهم هذا ؛ لأنَّ الآية ٢٦ من سورة آل عمران نصَّت على أنَّ الذل والعز يبيد الله تعالى لا بيد هؤلاء الناس الفقراء إلى رحْمَم ﴿فِلِّاللَّهِمَ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِنِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمْنَ تَشَاءُ وَتُعَزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ﴾ ...

إن المشرك ضعيف وفاشل ووحيد دائمًا ، أما المؤمن الموحد والأمر بالعدل والسائل في الطريق الصواب فإنَّ الله معه دائمًا.

لذلك يقول الله تعالى في الآية ٥١ من سورة غافر : ﴿إِنَّا لَنَصْرُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

كما قال الله في الآية ٣٠ من سورة فصلت المباركة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبَّنَا اللَّهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَشَرَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَحَافُوا وَلَا تَحْرِنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

حسب ما صرَّحت به هذه الآية ، فإنَّ الله يعين المؤمنين من خلال إرسال الملائكة إليهم. وعلى هذا ، فإنَّ الشرك (الذي هو منشأً كثيرًا من المفاسد) لا زال موجودًا في عالمنا اليوم ، وله أقسام عديدة على المؤمنين أن يتبرأوا منها.

من الآيات التي فسرت في الإمام علي عليه السلام هي هذه الآية (آية المثل) ، وحسب ما جاء في رواية وردت عن أهل البيت عليهما السلام : أنَّ المراد من ﴿مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الإمام علي والائمة المعصومون عليهما السلام .^(١)

بالطبع هذا لا يعني عدم شمول الآية لآخرين ، بل الرواية تعني أنَّ علياً والائمة عليهما السلام هم

(١) انظر تفسير الأمثل ذيل الآية.

أبرز مصاديق هذه الآية.^(١) نعم ، إن عدالة علي عليه السلام بمستوى جعلته يستحوز لا على قلوب المسلمين فحسب ، بل على قلوب جميع الأحرار في العالم . من هنا يقول الكاتب المسيحي (ميخائيل نعيمة) : لا يختص علي بالمسلمين فحسب ، بل نحن المسيحيون كذلك نحب علياً.

حقاً كما قال ، ولو كان الإمام علي عليه السلام مختصاً بالمسلمين فحسب لما كتب الكاتب المسيحي المعروف (جورج جرداك) كتاباً في علي عليه السلام أسماه : (صوت العدالة الإنسانية) ، حيث تعامل فيه مع علي عليه السلام كمعاملة عاشق له ، عاشق لفكرة ، عاشق لعدالته ، عاشق لقلمه ، عاشق لسلوكيه وأخلاقياته ، عاشق لتقواه . وبيدو أن هذا الشخص ذاته الذي قال في علي عليه السلام : يا دنيا! مالك لو تستنفرني جميع قواك ليكون لك رجل كعلى في كل قرن ، لكن أسفأ أن الدنيا غير قادرة على ذلك.

هناك مطالبات كثيرة وردت في عدالته ، إلا أن بعضها باعتبار شهرتها لم تل الاهتمام الدقيق والكافى .

إن كثيراً من خطبه ورسائله في نجاح البلاغة تحكي عن عدالته ، منها قصته المعروفة مع أخيه عقيل التي قد أشرنا لها في البحوث الماضية مراراً ، وهي تشكل قصة لا مثيل لها في التاريخ أبداً.

وفي نفس الخطبة التي جاءت فيها قصة عقيل جاءت قصته مع الأشعث بن قيس المنافق الذي كان سبباً لكتير من الاختلافات والاستفزازات والمؤمرات في عصر حكومة الإمام علي عليه السلام . إن هذا المنافق تخاصم مع مسلم على قطعة أرض وقد وقعت اضماره الاثنين بيد علي القدوة في العدالة . وفي ليلة أراد الأشعث إرشاء علي عليه السلام بإهداء حلوي له فكان جواب علي هو النفي والتأنيب ، فهي إما رشوة أو صدقة أو زكاة ، وكلها حرام ، فالرشوة حرام على جميع القضاة ، وأماماً الزكاة والصدقة فهي حرام على آل الرسول جميعاً.^(٢)

(١) ولأجل ذلك جاء في تفسير مجمع البيان ٦ : ٥٣٧ ، أن المراد هو حمزة وعثمان بن مظعون .

(٢) علماً أن الصدقات الواجبة (أي زكاة المال والفطرة) فقط تحرم على السادة ، أما المستحبة فهي غير محمرة عليهم .

أراد الأشعث المنافق أن يكسب الموقف ولو بطلي الباطل صبغة الحق ، حيث قال : إن هذه هدية ، وهي لا تدخل في العناوين السابقة ، ولكل مسلم الحق بأن يهدي ، وردها غير صحيح .^(١)

فاحابه : «هيلتك الهمبول ! أعن دين الله أتيتني لتخدعني ؟ أختبط أنت أم ذو حنة ، أم تحجر ؟ والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ». نعم ، الدنيا التي تُقْتَرِفُ الجرائم لأجل كسب مقدار قليل من زينتها هي أهون من ورقة شجرة في فم جرادة .

علينا نحن الشيعة أن ندرس أنفسنا ونراجع لنعرف إلى أي مدى نتحلى بالعدالة العلوية ؟ وأي مقدار فهمنا من دروس عدالة علي ؟ وهل يا ترى خطونا الخطوات الكافية لأجل ذلك ، أم أتنا شيعة في القول والسان فقط دون العمل ؟ لا شك إذا كنا نبحث عن السعادة والنجاة ، فلا مفر من العبور من صراط علي ، كما علينا التزام حبه وعشقه دائماً ، لأنَّ السعي لا يجدي نفعاً إذا لم يقترن بالحب .

(١) وردت روايات كثيرة حبذا على قبول المذهبة مهما كانت قليلة . راجع ميزان الحكمة ، الباب ٤٠٠٩ .

المثل التاسع والعشرون :

حديشو العهد بالإسلام

يقول الله في الآية ٩٢ من سورة النحل :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ فُؤَادِهَا أَنْكَاثًا تَسْخِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَحَلًا بَيْنَكُمْ
أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبْيَسَنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ﴾

تصوير البحث

كان المسلمون في صدر الإسلام أقلية والمشركون يشكلون الأكثريّة. وتلك الثلة من الشباب ، الذين عشقوا الرسول وأمنوا به ، كانوا يواجهون ضغوطاً من قبل عوائلهم وأصدقائهم والمجتمع المشرك عموماً ،^(١) فبعض منهم مثل أبي ذر وبلال وعمار قاوموا جميع الضغوط وثبتوا على عقيدتهم وضحوا لأجلها وماتوا وهو مسلمون ، إلا أنّ البعض الآخر لم يطق ملامة المحيطين به (وهم الأكثريّة) واعتراضاتهم ، وارتدىوا بعد ما اجتازوا مراحل الإسلام والآیان الصعبة ، والآية هذه تعرضت للثلة الأخيرة من المسلمين المتزلزل إيمانهم.

الشرح والتفسير

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ فُؤَادِهَا أَنْكَاثًا﴾ يخاطب الله في هذه الآية حديشي العهد بالإسلام الذين تحملوا مشاق الإسلام والآیان وتخطّلوا مشاكل هذه المرحلة وتتوجّوا

(١) نحن الآن نعيش في نعمة كبيرة حيث ولدنا من أبوين مسلمين وفي مجتمع مسلم ، لذلك علينا شكر الله أولاً والأبوين ثانياً وما حزّبنا معاناة تلك الثلة المؤمنة.

بإِسْلَام أَفْضَل دِين سَعْوَادِي ، وَيَحْذِرُهُمْ دُونَ أَنْ يَكُونُوا كَتْلَكَ الَّتِي نَقْضَتْ غَزْلَهَا بَعْدَ أَنْ تَحْمَلَتْ مَشَاقَ وَمَتَاعِبَ الغَزْلِ وَالْحَيَاةِ . فَإِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَرْتَدُ عَنِ الإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ إِلَى الشَّرِكَ كَمَثَلِ تَلْكَ السَّفِيهَةِ أَوِ الْبَلْهَاءِ .

اَخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي اِسْمِ تَلْكَ السَّفِيهَةِ ، فَبَعْضُهُمْ قَالَ : اَنْهَا رَائِطَةٌ ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ : اَنْهَا رَبِطَةٌ ، وَبَعْضُ آخَرَ قَالَ : إِنَّهَا رَابِطَةٌ . الْمُهَمُّ اَنْهَا اُمْرَأَةٌ كَانَتْ تَعِيشُ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَشَدَّةِ غَيَابِهَا وَبَلْهَاءِهَا كَانُوا يَسْمُوُهَا حَمَقَاءً .

إِنَّمَا كَانَتْ تَعْمَلُهُ هَذِهِ الْحَمَقَاءِ الْمُتَمَوَّلَةِ هُوَ اَنَّهَا فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ كَانَتْ تَعْدُ صَوْفًا وَتَأْمِرُ جَارِيَاتِهَا بِغَزْلِ الصَّوْفِ ، ثُمَّ تَأْمِرُ الْجَارِيَاتِ عَصْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِارْجَاعِ الغَزْلِ إِلَى الصَّوْفِ ، أَيْ تَأْمِرُ بِنَقْضِ الْغَزْلِ وَعَمَلِهَا هَذَا كَانَ يَتَكَرَّرُ كُلِّ يَوْمٍ .

يَحْذِرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حَدِيثِي الْعَهْدِ بِإِسْلَامِ اَنْ لَا يَعْمَلُوا بِإِيمَانِهِمْ وَاسْلَامِهِمْ كَمَا كَانَتْ تَعْمَلُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْحَمَقَاءُ بِغَزْلِهَا .

﴿تَنْحِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ لَا تَتَخَذُوا قَسْمَكُمْ ذَرِيعَةً لِلْخِيَانَةِ وَالْفَسَادِ وَلَا تَتَمَاطِلُوا فِي بَيْعِكُمْ مَعَ اللَّهِ .

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أُرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أَيْ لَا تَتَخَذُوا قَلْتَكُمْ وَكَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ ذَرِيعَةً لِنَقْضِ بَيْعِكُمْ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِنَّ الْقَلْةَ وَالْكَثْرَةَ لَيْسَا إِلَّا ذَرَائِعُ وَتَبَرِيرَاتٍ .

﴿إِنَّمَا يَبْلُوُكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أَيْ أَنَّ هَذِهِ الْقَلْةَ فِي الْعَدْدِ هِيَ امْتِحَانٌ لَكُمْ ، وَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا السعيُ لِأَجْلِ اجْتِيازِهِ بِنَجْاحٍ .

﴿وَلَيَبْيَسِنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَحْتَلِفُونَ﴾ لَا شَكَ أَنَّ اللَّهَ سَيِّئَنَ لِلْجَمِيعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَانَ يَخْتَلِفُ فِيهِ النَّاسُ ، وَآنذَكُمْ سِينِدَمُ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى عَدْمِ إِيمَانِهِمْ . هَذَا الْمَثَلُ جَيِيلٌ وَبَلِيغٌ وَجَدَابٌ جَدَابٌ ، كَمَا أَنَّهُ تَحْذِيرٌ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ يَغْزِلُوا حِبَالَ إِيمَانِهِمْ بِاسْتِحْكَامِ وَقُوَّةِ خَوْفِ النَّقْضِ بَعْدَ هَذِهِ الْمَشَاقِ وَالْمَتَاعِبِ وَخَوْفِ الْوَقْوعِ فِي الشَّرِكَ تَارَةً أُخْرَىً .

خطابات الآية

- ١ . إِنَّ الصَّوْفَ إِذَا لَمْ يُفْتَلْ فَلَا فَائِدَةُ فِيهِ ، وَلَا يَمْكُنُ صَنَاعَةُ شَيْءٍ مِنْهُ ، أَمَّا عِنْدَ مَا يُغَزِّلُ ، فَإِذَا

كان غزله رفيعاً ودقيقاً تبدل إلى خيوط تصلح لصناعة الأقمشة والسجاد ، وإذا كان سميكاً تبدل إلى حبال وأمكن صناعة خيام صحراوية منه.

إن المجتمع المتشتت والمترافق كالصوف غير المفتول لا يصلح لشيء ، أما إذا اتحد وتلاحم ، فإن ذلك سيكون منشأ لخيرات وبركات كثيرة.

٢ . إن الصوف في الحالات الاعتيادية ضعيف وهش ويدهّب به الريح حتى لو كان نسيماً ، ولا قدرة له على المقاومة ، رغم ذلك فإنه لو اقتل وغزل باستحكام فقد نتمكن حمل أثقل السلع بواسطته ، بل قد يتحكمون وسيطرون على السفن الكبيرة من خلال ربط خطاف السفينة به.

٣ . إن السبب الوحيد لاستحكام هذا الصوف هو اتحاد وتلاحم فتائله. نعم ؟ إن اتحاد هذه الفتائل والتنسيق والتعاضد فيما بينها وترك الاختلاف والتشتت هو منشأ لخيرات كثيرة. وهذا يعلم الإنسان أن في ذاته قابلية كبيرة تكمن وتوجد فيه بالقوة ، وهي قابلية إذا فلتت واستحكتم غزلاً فستمر محاصيل جديدة أخرى مثل الارادة ووحدة الكلمة والآيمان والتوكّل على الله.

من هنا خاطب القرآن المسلمين بأنهم قُتلوا باليمان ، وعلى العاقل أن لا يفتح فتائل الآيمان هذه.

لقد ورد في خطبة زينب (عليها السلام) عند ما وصلت بوابة الكوفة وخطّبت الناس هناك : «إِنَّمَا مُثِلُكُمْ كَمْثُلِ الَّتِي نَقْضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ...». ^(١) الواقع كذلك حيث بايعوا علياً في عهده وبايعوا سفير الحسين مسلم بن عقيل بعد ذلك. وهذا أمر أحکم غزلم لهم لكنهم نقضوا هذا الغزل إثر وعد ووعيد وتهديدات. وبذلك يثبت أن دعوّتهم للإمام الحسين غالباً وإعلانهم عن الوفاء له لم تكن إلا خدعة ، وهم الآن ي يكونون ويقيّمون المآتم عليه ! إن الذي له باع في الأدب العربي وطالع خطبة زينب (عليها السلام) يدرك قيمة هذه الخطبة. ونحن نعتقد أن زينب (عليها السلام) بعملها هذا هزت عرش حكومة الشام ، وكانت المقدمة لسقوط بني أمية والثورات والحركات التي حصلت بعد ذلك الحين.

(١) نقلأً عن كتاب (الإمام الحسن والحسين) للعلامة السيد محسن الأمين العاملبي : ٢٥٦

أهمية الوفاء بالعهد

هناك الكثير من الروايات أكدت على أهمية الوفاء بالعهد ، نشير إلى ثلات منها :

١ . في حديث قصير للرسول ﷺ يقول : «لا دين من لا عهد له». ^(١)

هذا الحديث المهم يعني أنَّ الذي لا يلتزم بعهده يتساوى مع الذي لا دين له أبداً .
والذي يعاهد اليوم وينقضه غداً هو إنسان دون دين ، فإنَّ الإنسان الذي لا يفي بعهده
أمام خلق الله سوف لا يفي بعهده أمام الله كذلك.

٢ . يقول الإمام علي عليه السلام في عهده ملوك الاشتراط : ^(٢)

«وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهده بالوفاء ،
وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شيء
الناس أشدُّ عليه اجتماعاً ، مع تفرق أهوائهم ، وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاء
بالعهود».

إنَّ العالم اليوم يفي بالعهود وأكثر الدول تلتزم بما تعهدت به ، وكذا الناس في عهد
الجاهلية وعهد عبادة الأصنام ، فإنَّها سنة لم تختص بالقرآن وال المسلمين فحسب بل عامة ،
وما ينبغي على المسلمين هو وفاؤهم بعهودهم مع الله ومع خلقه.

٣ . يقول الإمام الباقر عليه السلام في حديث جليل له : «ثلاث لم يجعل الله عَزَّوجَلَ لأحد
فيهنَّ رخصة أداء الأمانة إلى البر والفاجر والوفاء بالعهد للبر والفاجر وبر الوالدين برين كانوا
أو فاحررين». ^(٣)

على ما قرأنا في الآيات والروايات ، فإنَّ الوفاء بالعهد يقع في صدر قائمة أعمالنا.
وإذا أراد عبد أن يستجيب الله لدعوته وطلباته عليه أن يفي بعهوده مع الله.

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٩٦٤ ، الحديث ١٤١٢٤.

(٢) رغم مضي أكثر من ألف سنة على هذا العهد ، إلا أنها لا زلت نلمس طراوته ، وكأنه لا يعتق أبداً ، مع أنَّ
ما يقوله أو يكتبه البشر يعتق بعد حين من الزمن حتى لو ترشح عن افكار النوعية أمثال ابن سينا . وكأنَّ السبب
في طراوة كلام علي عليه السلام هو نشوؤه من علم متصل بالعلم الإلهي ، وبما أنَّ العلم الإلهي لا يعتق كذلك كلام علي
عليه السلام .

(٣) أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر ، باب بر الوالدين ، الحديث ١٥ .

المثل الثلاثون :

كفران النعمة

يقول الله تعالى في الآيتين ١١٢ و ١١٣ من سورة النحل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُحُودِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُون﴾

تصوير البحث

تعرضت الآياتان إلى مصير أولئك الذين لا يشكرون نعم الله بل يكفرون بها ، وأجل ذلك استحقوا العذاب الشديد من الله.

الشرح والتفسير

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ شبه القرآن الحميد الكافرين بنعم الله والمنكرين لها بالقرية^(١)

المعمرة التي تخصى . بسبب عمرانها المادي والمعنوي . بالمواصفات الأربع التالية :

١ . ﴿آمِنَةً﴾ ، إن الأمان هو أول صفة لهذه القرية ، وباعتبار أن نعمة الأمان أهم

النعم

(١) إن القرية في الاصطلاح القرآني لا تعني ما يقابل المدينة ، بل تعني كل مكان معمور سواء كان قرية بالمعنى المتعارف أو مدينة صغيرة أو كبيرة ، وقد اطلق هذا المصطلح على عاصمة مصر في عهد يوسف عليه السلام .

الإلهية لذلك قدّمها على غيرها من النعم على ما يبدو.

في الحقيقة ، الامان إذا كان مفقوداً في مكان ما فإنَّ المكان سيفقد الاقتصاد السليم ، كما أنَّه سيفقد امكانية التعليم والصناعة والتكنولوجيا الحديثة ، وامكانية العبادة وأداء الشعائر الدينية ، وخلاصة سوف لا ينجز عمل بشكله الصحيح إذا لم يقتن بالأمان.

إنَّ شعب ايران الأبي سوف لا ينسى أنه كان يواجه مشاكل أثناء الدفاع المقدس^(١) حتى في مجال العبادة ، فقد يكون البعض في أثناء صلاته ويسمع صفارة الإنذار ، الأمر الذي يوقع المصلي في حرج ومازق روحه يجعله يشك في كيفية أداء عبادته. وعلى هذا ، فإنَّ قضية الأمن تحضى بأهمية كبيرة تؤثر حتى على العبادة وكيفية أدائها.

عند ما وطأت قدما إبراهيم الخليل على أرض مكة الجراء ، وبنى بين الجبال بيت الله الحرام ، دعى لأهل تلك المدينة دعاء ينقله الله في الآية ١٢٦ من سورة البقرة كما يلي :

﴿رَبِّ اجْعُلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

في هذه الآيات النورانية نقرأ أنَّ أول دعاء دعى به إبراهيم لأهل المدينة هو الأمن.

إنَّ عقوبات أولئك الذين يخلون بأمن البلد والمجتمع هي من أشد العقوبات في دين الإسلام المقدس ، ولذلك فرضت على "المحارب" عقوبات شديدة قد تصل إلى مستوى الإعدام.

إنَّ السرقة المسلحين . سواء بالأسلحة النارية أو غير النارية . يُعدُّون محاربين وينبغى عقابهم بأشد العقوبات ، كما أنَّ الذين يخلون بأمن منطقة واسعة يعدون (مفسدين في الأرض) وعقابهم بالإعدام.^(٢)

٢ . **﴿مُطْمَئِنَةً﴾** قد تحضى المدينة بأمان ، لكنَّ أمانها متزلزل وغير ثابت ، وقد تحضى بأمان ثابت وغير متزلزل ، والامان الذي أشارت إليه الآية هو الأمان المتواصل والثابت.

٣ . **﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾** كما مضى فإنَّ الأمان يجعل كل شيء حتى الاقتصاد السليم القوي. في هذا البلد الذي أمن من السوء تأتي الناس أرزاقهم من كل مكان وصوب ،

(١) إن هذه الحرب التي فرضها نظامبعث في العراق بدأت بعد الثورة عام ١٩٨٠ وانتهت عام ١٩٨٨.

(٢) تفاصيل الحدود الشرعية المفروضة على المحاربين والمفسدين في الأرض تجدها في جواهر الكلام ٤١ : ٥٦٤ .

وهناك مجالات كثيرة ومتعددة لكسب الرزق.

٤ . ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي أنَّ اللهَ إِلَى جَانِبِهِ مَا وَفَرَّ لَهُمْ مِّنْ نَعِمٍ مادِيَةً (الأمان والاقتصاد السليم) مُنْحَمِّمُ نعمة معنوية وهي إِرْسَالُ نَبِيٍّ مَعْصُومٍ وبصِيرٍ مِّنْهُمْ؛ لِكَيْ يَتَمَّ تَعْالِيمُهُمْ وَمَعْارِفُهُمْ.

إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ يَتَمَتَّعُونَ بِهَذِهِ الْخَصَالِ الْأَرْبَعِ وَيَعِيشُونَ فِي رَخَاءٍ ، رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ.

﴿فَكَفَرُتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ إِنَّ أَهْلَيَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ كَفَرُتُ بَدِلَ أَنْ تَشْكُرَ نَعْمَ اللَّهِ ، وَكَانَتِ النِّعَمُ سَبِيلًا لِتَكْبِرِهِمْ وَغَرْوَرِهِمْ وَأَنَانِيَتِهِمْ ، فَظَلَمُوا بَدِلَ أَنْ يَفِيدُوا مِنَ النِّعَمِ بِشَكْلِ صَحِيحٍ ، وَكَانَ نَتْيَاهُ ذَلِكَ نَزُولُ الْعَذَابِ الإِلَهِيِّ ، وَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ ، إِثْرَ ذَلِكَ ، الطَّعْمَ الْمَرَّ لِلْجُوعِ وَسَلْبَ مِنْهُمِ الْأَمَانَ ، فَكَانَتِ السَّرْقَاتُ وَالْغَارَاتُ تَهَدِّدُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَتَسْلَطُ أَوْبَاشَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَتَدَمِّرُ اقْتَصَادَهُمْ إِثْرَ تَزْلِيلِ الْأَمَانِ عَنْهُمْ.

سؤال : إِنَّ تَعْبِيرَ «أَذَاقَهَا» لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ تَعْبِيرِ «لِبَاسَ» بِلِ الْمَنَاسِبُ هُنَّا اسْتَخْدَامُ مَفْرَدَةِ «أَلْبَسَهَا» ، فَمَا سَرِّ هَذَا التَّعْبِيرِ؟

الجواب : هُنَّاكَ نَقْطَتَانِ دَقِيقَتَانِ فِي مَحَالِ اسْتِخْدَامِ (أَذَاقَ) مَعَ (لِبَاسَ) نَشِيرُ إِلَيْهِمَا هُنَّا :

الف . الْلِبَاسُ يَضْمِنُ الْجَسْمَ كُلَّهُ وَيَحْتَوِيهِ ، وَكَذَا الْعَذَابُ الإِلَهِيُّ فَانِهِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرِيبَةِ .
بَاءَ . بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَبَارَةِ «أَذَاقَهَا» يَنْبَغِي الْالْتِفَاتُ إِلَى أَنَّ إِحْسَاسَ الْإِنْسَانِ وَاسْتِيعَابَهُ ذَاتَ مَرَاحِلٍ وَمَرَاتِبٍ :

قَدْ يَدْرُكُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ خَلَالِ حَاسَّةِ السَّمْعِ ، كَأَنْ يَسْمَعَ بِصَوْتِ النَّارِ ، فَيَدْرُكُ وَجْهَ حَرِيقٍ .

وَقَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ النَّارَ فَيَسْتَوْعِبُ وَجْهَهَا بِالْبَاصَرَةِ ، وَهَذَا الْاِدْرَاكُ ذَاتُ مَرْتَبَةٍ أَعْلَى مِنْ سَابِقِهِ .

وَقَدْ يَلْمِسُ النَّارَ فَيَدْرُكُ وَجْهَهَا ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْاِدْرَاكِ يَقْعُدُ فِي مَرْتَبَةٍ أَعْلَى مِنَ السَّابِقَتَيْنِ .

وَقَدْ يَدْرُكُ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْ خَلَالِ تَذَوُّقِهِ ، وَهَذَا أَعْلَى درَجَاتِ الْاحْسَاسِ . وَسَبَبَ

استخدام الآية الشريفة مادة الاذقة هو أنها ت يريد الأشارة إلى شدة إدراكم وتحسهم للعذاب الإلهي وطعمه المر.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي أن صنيعة أهل القرية هو السبب في نزول هذا العذاب الإلهي ، فان الإنسان قد يقترف الذنوب التي ترجع عواقبها عليه ، رغم صعوبة تحملها. على سبيل المثال ، إذا حل النظام الطبقي في المجتمع ما ، وكان الاغنياء لا يكتثرون من معاناة الفقراء ، فإن الأمان الاقتصادي سيسلب من هذا المجتمع وتعود مردوداته جلّها على الاغنياء أنفسهم ، وسبب ذلك ليس إلا بخل الاغنياء وامتناعهم عن الإنفاق وإعانة الفقراء.

لذلك جاء في رواية : «إذا بخل الغني بمعرفة باع الفقير آخرته بدنياه». (١) أي أن الفقر هو السبب في السرقات وفي النهاية السبب في فقدان الأمان في المجتمع. كما جاء في رواية أخرى : «سُوْسُوا أموالكم بالصدقة». (٢) أي أن طريقة حفظ الأموال ليست هي ادخارها ، بل في التصدق ببعضها لكي لا يؤدي نار الفقر إلى إحراق أمن المجتمع وإحراقها في النهاية.

خطابات الآية

١ . العذاب والبؤس نتيجتان لأعمالنا

إن الذي يستشفُ من آيات القرآن ، وبخاصة الآيتين هنا ، هو أن مشاكلنا وما نتحمله من العذاب هو نتيجة أعمالنا وأن الله لا يظلم أحداً. إذا كان معظم الشباب في المجتمع لا يتمتعون بأبسط وسائل العيش ولا يمكنهم التقدم على الزواج ، ومن جانب آخر فيه أفراد يتمتعون بأفضل وسائل العيش ويوفّرون لأولادهم مبالغ كبيرة كصداق لزواجهم ويصرفون الملايين في هذا المجال ، وشائع في هذا المجتمع الفساد والفحشاء وعدم الأمان ، فهل المقصّر في هذه الظواهر غير أفراد المجتمع ذاتهم؟! من يلامُ غير أفراده؟

(١) بحار الأنوار ٤٧ : ٧٤١ ، ونحو البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ٣٦٤.

(٢) نحو البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ١٤٦.

من هنا يقول القرآن المجيد في الآية (٤١) من سورة الروم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

نعم ، إنَّ منشأ جميع هذه المصائب والمشاكل هو ذات الإنسان. إنَّ الأب الذي لا يفكِّر إلَّا في جمع المال وادخاره ولا يكتثر بتربية الأولاد والعائلة ، إذا واجهه في المستقبل مشاكل اخلاقية ومصائب من قبيل تعاطي أولاده للمخدرات ، فلا يلوم إلَّا نفسه ؛ لأنَّه هو السبب في تلك المشاكل لا غيره.

عند ما اعتقلنا عام ١٣٤٢ هـ. ش بصحبة بعض الشخصيات السياسية والدينية ، وارسلنا إلى معتقل طهران ، كنا نسمع في بعض الأيام أصواتاً مرعبة ، كنت أتصور أنها نتيجة التعذيب الروحي الذي كان يلحقه أفراد الأمن بالسجناء ، إلَّا أنَّى علمت بعد ذلك أنَّ منشأها هو المتعاطون للمخدرات وقد حان الوقت لتناولهم هذه المواد ، وباعتبار فقدانها في السجن كانوا يواجهون آلاماً شديدة ... لا شك أنَّ هذه المصائب نتيجة لأعمالهم.

ليت النتائج تتوقف إلى هذا الحد ، بل إلَّا قد تطال العرض ، فيبيع هذا الشخص عرضه مقابل مقدار بسيط من هذه المخدرات.

شخص من أهل الهوى والهوس كان يحب بنتاً ولا يتوقف للقاء بها رغم أنَّه حرب جميع الطرق ، إلى أن فكر في جزء أخيها إلى المخدرات وتعاطيها ، فتوقف في ذلك ، وبعد الاعتياد عليه قطعها عنه ، وقال له : لا طريق لك إليها بعد ذلك إلَّا أن تصطحب اختك معك. وبذلك توقف من النيل من هذه البنت.

لقد استفاد العدو من طرق كثيرة لإيقاع شبابنا في الفخ. والمخدرات هي أحد تلك الطرق التي استفاد منها ، وهو يعلم أنَّ الشاب الذي يتعاطى هذه المادة ويتلقي بهذا المرض يفقد إرادته ويمكن جره إلى أي عمل شاء.

٢ . هل كان وجود خارجي لهذه القرية؟

المستفاد من الآية هو أنَّ للقرية ذات الموصفات الأربع وجوداً خارجياً ، لذلك كان النقاش بين المفسرين في تحديد مكانها.

١ . يعتقد بعض المفسّرين أنَّ هذه القرية الآمنة هي مكة ، (١) فهي مصداق بارز للقرية الآمنة ، كما أكَّها في الحقيقة تحضى بنعمة توفر جميع أنواع الشمار فيها ، ورغم أنها تفقد بذاتها بعض النعم ، إلَّا أن ذلك البعض يفدها من باقي المناطق والدول ، وهي بذلك تحضى بنعم قلماً بحدٍّ مكاناً يُحصي بها.

عند ما هجر الرسول ﷺ مكة قاصداً المدينة ، كانت مكة تعاني من الجفاف الذي دام سبع سنوات ، وكانت هذه المخنة نتيجةً لِكُفَّارَهُمْ نعمة تواجد الرسول عليهم ، وقد بلغ بهم الجفاف أنَّ رسول الرحمة ﷺ أرسل لهم أغذيةً من المدينة ، كما أنَّ الجفاف هذا اقترب مع فقدان الأمان فيها.

نعم ، إنَّ كفران النعمة سيتبعه عذاباً إلهياً وهذه سنة إلهية صادقة في كل مكان وزمان ، وتكرر في كل مكان تتكرر فيه كفران النعمة.

٢ . يعتقد بعض آخر من المفسّرين أنَّ المراد من هذه القرية هو مدينة سبأ (٢) حسب ما جاء في سورة سبأ ، فإنَّ تلك البلدة كانت عامرةً كثيراً ، وكان فيها سدًّا يُدعى (مارب) تبدلت هذه البلدة بفضل هذا السد إلى قطعة من الخضار ، وكانت النعم فيها متوفّرة بشكل لا يحتاج قاصدتها إلى أن يصطحب معه غذاءً ومتاعاً ؛ لأنَّه يكفيه أن يضع سلة على رأسه ويمشي في طرقها ، فإنَّ السلة ستتمتّلئ بعد فترة وجيزة بشمار الاشجار التي في طرق الشارع. إنَّ هذه المدينة كانت تتمتع بالأمن والاستقرار والنعيم الوفير ، إلَّا أنَّ أهلها اختاروا طريق الكفر لهذه النعم ، فأوحى الله تعالى فرعان أن دمرى هذه المدينة ، فأثقبت هذه الفرعان السد ، وتوسعت هذه الثقوب تدريجياً إلى أن دمرت السد في ليلة ، وأخذ الماء بسيوله الباردة المدينة بأجمعها ودمر ما فيها من قصور ومزارع وبيوت وأشجار وبساتين. وكان التدمير إلى درجة اضطُرَّ بعده للهجرة من سلم من أهالي المدينة ، وما استطاعوا العيش فيها.

(١) انظر تفسير مجمع البيان ، ٦ : ٣٩٠ ، التبيان ٦ : ٤٣٢.

(٢) انظر تفسير الأمثل ، ٨ : ٣١١ . ٣١٢ .

لقد ذاق عصرنا حالياً ثمرة كفران النعمة ، فاوريا قبل الحرب العالمية الثانية كانت غارقة في النعم وكانت مدحها معهورة وذات حضارة متقدمة وتقنية عالية و... فقد كانت تحضى بكل شيء ، إلا أنَّ كفراهم للنعم أبلاهم بحرب شاملة كان ضحيتها ثلاثين مليوناً من القتلى وثلاثين مليوناً آخرين بين معوق أو مجرح ، وتدمر إثر ذلك قسم كبير من أوروبا . وعلى هذا ، فإنَّ الآيات هذه تحذير لنا بأن لا نكفر بنعم الله المعنوية والمادية ، ما علينا هو شكرها .

المثل الحادي والثلاثون :

أمثال الكُفَّار

يقول الله تعالى في الآية ٤٨ من سورة الاسراء :

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِعُونَ سَبِيلًا﴾

تصوير البحث

هذا المثل يختلف عمّا تقدّم وعمّا سيأتي من أمثال ؛ لأنّ الأمثال التي جاءت في القرآن أوضحت أموراً عقلية معقدة وغير حسية ، أمّا هذه الآية فحكت الأمثال التي جرت على ألسن الكُفَّار في حق الرسول ﷺ ، وهي أمثال استهدفت بها الإضلال ، عكس أمثال الله حيث استهدفت المداية والإرشاد.

الشرح والتفسير

لأجل معرفة ما جاء على لسان الكُفَّار في حق الرسول ﷺ ينبغي الرجوع إلى الآيات التي سبقت هذه الآية.

يقول الله في الآية ٤٥ من سورة الاسراء :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾

ما هو الحجاب المستور؟

اختلاف المفسرون في معنى الحجاب المستور ، فبعض اعتبره الستار الحقيقي الذي يمنع

من

رؤيه الأشياء التي خلفه. وعند ما كان الرسول ﷺ يتلو القرآن يجعل ستار حائل بينه وبين الكفار يمنع من رؤيتهم إياه ، لكنهم كانوا يسمعون صوته. والمراد من المستور هنا هو غير المائي ، أي أنه كان ستاراً لا يرى بالعين يجعل بين الرسول ﷺ والكفار.

فلسفة هذا الستار غير المائي هي أنَّ الرسول ﷺ عند ما كان ينشغل بتلاوة القرآن يقرأ آيات في ذمِّ الكُفَّار والمشركين والأصنام وآيات عن مستقبل الإسلام وانتصاراته مما قد يغيب الكفار ويجعلهم ينفجرون غيضاً وكماً ، وهو أمر يشكل خطراً على حياة الرسول ؛ لاحتمال هجومهم على الرسول وتعريضه لبعض المساوئ ، وقد جعل الله هذا الستار لكي يحول بينه وبينهم ^(١).

يعتقد بعض آخرين من المفسرين أنَّ عبارة **﴿حجاباً مستوراً﴾** كناية عن الحجاب المعنوي من اللجاجة والتعصّب والجهل والعداوة ، فهذه الصفات المذمومة تبلورت على نحو حجاب للمشركين حالت دون فهمهم آيات القرآن ، التي هي سبب هداية القلوب وضيائها ، لكنها لا تؤثر في هذه القلوب بسبب هذا الحجاب المضمر ^(٢).

إذن ، كلام التفسيريين في مقام بيان مفهوم أنَّ هذا الحجاب كان مانعاً عن نفوذ الآيات في قلوب المشركين.

جاء في الآية ٤٦ من نفس السورة :

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

بلغ تعصّبهم وجلاحتهم مستوى جعلهم يولون أدبارهم عن الحق ويعرضون عنه نفرةً منه بدلاً من أن يولوا أدبارهم عن الباطل ويعرضوا عنه.

ولهذا جاء التعبير العجيب واللافت التالي على لسان نوح عليه السلام في الآية ٧ من سورة

نوح :

﴿وَإِنَّيْ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَسُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾

الآية تحكي مستوى جهل وعناد معاصر النبي نوح عليه السلام حيث ما كانوا يكتفون

بوضع

(١) انظر مجمع البيان ٦ : ٤١٨.

(٢) انظر تفسير الأمثل ٩ : ٢٢٠١٨.

أصابعهم في آذانهم بل كانوا يستغشون ثيابهم ويضعونها على رؤوسهم لكي يتغى بالكلية احتمال سماعهم شيئاً من كلام نوح عليه السلام الحق.

نعود بالله جمِيعاً من بلاء التعصّب واللجاجة وحفظنا من حريق ناره.

وجاء في الآية ٤٧ من سورة الاسراء :

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الطَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا﴾

والآية تشير إلى شيطنتهم من الاستماع ثم التسقيط والتنقيص بغية منع الناس من الإهتداء ، فيناجي أحدهم الآخر ويقول : إنَّ النبيَّ رجلٌ مسحورٌ .
إنَّ الرجلَ المسحورَ يُعدُّ من الأمثالِ التي قالها المشركون في حقِّ الرسولِ .

ما تعني المسحور؟

عرب الجاهلية كانوا يرون سبب الجنون مساس الجن أو حلوله في الانسان^(١) ويدعون الذي حلّ فيه الجن مجنوناً ، كما يرون سبباً آخر للجنون ، وهو سحر السحرة ويدعون المبتلى بهذا مسحوراً.

أثُرَ لِكَلَامِ الرَّسُولِ الْجَذَابِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ .
وَبِنَاءً عَلَى هَذَا شَبَهِ الْمُشْرِكُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِالْمَسْحُورِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ يَحْوِلُونَ دُونَ تَرْكٍ

يُستفاد من آية المثل الشريقة أنَّ المشرِّكين كانوا قد ضربوا للرسول أكثَرَ مِن مُثُلٍ واحدٍ يَهَا مسحوراً أو مجنوناً أو كاهناً^(٢) وساحراً وشاعراً.

أسلحة الجاحدين

على طول التاريخ كان ولا زال الرسل وأوصياؤهم والأئمة ونوابهم الخواص والعموم

(١) ولأجا، ذلك كانوا ينهالون على الجانين بالضرب.

(٢) الكاهن هو الذي يتبيّأ ويُخَبِّر عن الغيب ، وقد كان معروفاً أنَّ الكهنة كانوا ذات علاقة بالجن والشياطين ، وكانوا يستلمون الأخبار منهم.

والعلماء والفقهاء وكل من خطى خطاهم موضع إهانة من قبل الجاحدين ومنكري الله ، ولا ينفكون دائماً عن إلصاق مختلف التهم والتخرّصات والأكاذيب بهؤلاء الثلة من سالكي طريق الحق والحقيقة لغرض إبعاد طلاب المعارف الإلهية عنهم ، كما فعلوا ذلك عند الشورة الإسلامية في إيران وقد شهدنا الأعداء دائماً يلصقون التهم بالشوار وبالامام عليه السلام وبأتباعه وأنصاره الأوفياء ، لكنّا نعلم جميعاً أن حبل الكذب قصير ، ولا تبقى الحقيقة خافية دائماً. من التهم التي الصقوها بالرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه همتان رائجتان سبق وأن أُهْمِّ بهما باقي الأنبياء ، وهما : ساحر وجنون ، وفي ذلك يقول القرآن :

﴿كَذَلِكَ مَا أتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(١).

كما قلنا فإن هذه التهم والتخرّصات ما كانت إلا لإغفال الناس ، لكنها لم تترك أثراً ، لذلك ما انفكوا عن تبديلها وتغييرها إلى مستوى التناقض أحياناً من قبيل نسبة السحر والكهانة والجنون للرسول وهي متناقضه ؛ لأن السحر والكهانة يستدعيان الذاكرة القوية والذهنية الناشطة ، ولا يمكن لجنون أن يكون ساحراً أو كاهناً.

الحقائق المستبطنة في الاتهامات

في هذه الاتهامات حقائق مستبطنة ينشرها الأعداء بنحو لا إرادي ، فهم ينسبون الجنون والسحر للرسول مثلاً ، وفلسفه هذه النسبة المستقبحة أنهم جاءوا للرسول وقالوا له : ما المدف من دعوتك للدين الجديد؟ إذا كان هدفك جمع المال فسنعطيك مالاً تصبح به أغنى رجال مكة وإن كنت ترغب الزواج فسنزوجك أفضل نساء مكة ، وإذا كنت ترغب في الرئاسة فسنجعلك رئيساً علينا.

لكن الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه أجابهم بعبارة التالية : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن ترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(٢).

(١) الذاريات : ٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥.

ولأجل هذا الجواب الصريح كانوا ينسبون له الجنون ؛ لأن شخصاً يترك أفضل النساء والجاه والمقام والشروة لغرض الدعوة للتوحيد لا بد وأن يكون . حسب عقليتهم . مجنوناً .
نعم ، إنَّ الموحِّدين مجانين من وجهة نظر عبادة الدنيا ، الموحَّد عند ما يجد ضالة في الشارع أو الرزق يسعى متواصلاً للحصول على صاحبها ، وهذا العمل يُعدُّ جنوناً من وجهة نظر الدنيويين ؛ لأن العقل من وجهة نظرهم هو عبادة الدنيا ، أمّا الطهارة والتقوى فجنون ! من هذه التهم التي أطلقها الأعداء نفهم أنَّ الرسول ﷺ كان رجلاً لا يراهن على مبادئ الإسلام ولا يستبدلها بأي شيء ، ولذلك دُعي مجنوناً ومسحوراً .

ونستفيد من نسبة الكهانة إليه أنه كان يعلم الغيب ويخبر عنه دون أن يخطأ بحيث يصدق إخباره ويتطابق مع الواقع ، ولهذا جاء ما يلي في الآيات الأولى من سورة الروم :
﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَخُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَصْرُ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾
وفقاً للآية غُلبت الروم بواسطة الفرس ، وبعد فترة غير طويلة غلت الروم الفرس ، وتزامن مع ذلك انتصار المسلمين ، وعندما شاهد الكفار تحقّق هذا الأمر وصدق إخبار الرسول بالغيب نسبوا إليه الكهانة ، واين هو من الكهانة مع أن إخباره عن الغيب يكشف عن واقع وحقيقة مستقبلية لا كذباً ولا وهماً .

لماذا نسبوا إليه الشعر؟

سبب نسبة الشعر إلى الرسول ﷺ هو أنَّ آيات القرآن كانت فصيحة وبليغة وموزونة بدرجة استقطبت قلوب الناس ، فما كان مفترًّا للكافر إلَّا أن يقولوا : إنه شاعر ، وقد أجابهم القرآن الكريم من الآية ٦٩ من سورة ياسين بما يلي :
﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾

نسبة الشعر للرسول ﷺ تكشف عن حاذية ولطافة وظرافة في القرآن .
ونسبة السحر للرسول ﷺ تحكي عن آثار مهمّة ومعجزة ترشّحت عن الرسول ﷺ ، الأمر الذي أعجزهم عن مواجهته بالحق والحقيقة والواقعية فاضطُرُّهم ذلك لإلصاق هذه

التهمة ، وقصة أسعد بن زرارة التي مضى ذكرها في الجزء الاول شاهد حسن على ما نقول.

خطاب الآيات التربوي

الآيات المزبورة تعلّمـنا أـنـا إـذـا أـرـدـنـا إـدـرـاكـ الـحـقـيقـةـ فـعـلـيـنـا إـزـالـةـ الـحـجـبـ الـتـيـ تـمـعـ منـ إـدـرـاكـ وـخـاصـةـ حـجـابـ التـكـبـرـ وـالـتـعـصـبـ وـالـأـنـانـيـةـ وـالـلـحـاجـةـ ،ـ وـإـذـا لـمـ تـنـزـلـ هـذـهـ الـحـبـ فـسـيـدـوـ الـبـاطـلـ حـقـاـ ،ـ وـعـنـدـهـاـ يـنـحـرـفـ الـإـنـسـانـ عـنـ طـرـيقـ الـحـقـ .ـ

يقول الرسول ﷺ :

«من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيمة مع أعراب الجاهلية» ^(١).

إذن ، ينبغي إزالة حجاب التعصب لرؤية الحق.

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٧٤٣ ، الحديث ١٢٧٣٣ .

المثل الثاني والثلاثون :

المستكرون والمستضعفون

إثني عشر آية من سورة الكهف (وهي الآية ٣٢ إلى ٤٤) تشكل المثل الثاني والثلاثين من بحثنا ، يقول الله في هذه الآيات :

﴿وَاضرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَّنَا هُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ كُلُّا الْجَنَّتَيْنِ آتُ أَكْلَاهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَرُ نَفْرًا﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْنُ أَنْ تَبِيَّدْ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وَمَا أَظْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدْدُثُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنَ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِينِنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتَكَ وَيُرِسِّلَ عَلَيْهَا حُسَبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُضْبَحَ صَعِيدًا زَلَّا﴾ أَوْ يُصِبَحَ مَا أُولَئِكَ غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَبًا﴾ وَأَحِيطَ بِشَمَرِهِ فَأَاصْبَحَ يَنْقَلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشَهَا وَيَقُولُ يَا لَيْشِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ اللَّهُ الْحَقُّ هُوَ خَيْرُ ثَوَابًا وَخَيْرُ عُقَبَا﴾

تصوير البحث

تضمنت الآيات الإثني عشر مثلاً هو من أكبر أمثال القرآن ، وهو مثل المؤمنين

والكافرين

أو المستكرين والمستضعفين ، فشبّه الله الطائفتين بشخصين ، أحدهما : ثري ومحروم بماله وثروته ، والآخر : مستضعف لكنه موحد . ونهاية هذين الشخصين زوال ثروة الشري وفباءها ، مما أدى إلى استيقاظه من نوم الغفلة . والمثل يستطرد نكات طريفة ولطيفة نعرض لها تدريجياً .

علاقة آيات المثل بسابقاتها

لماذا طرح الله هذا المثل ضمن هذه السورة؟ وهل هناك علاقة بين آيات المثل والآيات التي سبقتها؟

الجواب : إذا راجعنا الآيات السابقة للمثل وجدنا علاقة بينها وبين آيات المثل ، وبذلك تبدو ضرورة بيان هذا المثل في هذه السورة .

ولأجل ذلك يقول الله في الآية ٢٨ من نفس السورة :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعِنْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

قيل في شأن نزول الآية : إنَّ مجموعة من أثرياء العرب المشركين جاءوا للرسول ﷺ وأعرموا عن رغبتهم للإلتراك بدين الرسول ولكنهم قالوا : ما يمنعنا من الالتحاق بربك وجود فقراء حواليك من أمثال سلمان وأبي ذر وصهيب وخباب ، فلا تناسب بيننا وبينهم فأبعدهم عنك لكي نلتَّفَ حولك ^(١) .

ولهذا الشأن نزلت الآية وأوضحت معيار الإسلام الأصيل ومنهجه في هذا المجال ، وأوضحت وظيفة الرسول ﷺ تجاه القضية .

تحطيم القيم الكاذبة من أهداف الأنبياء

من الأهداف المهمة للأنبياء والأولياء وبخاصة الرسول الكريم ﷺ هو تحطيم القيم الكاذبة ؛ لأنَّه كان للمال والثروة أرفع قيمة من وجهة نظر عبَّادة الأصنام عهد الجاهلية ، ولا

(١) انظر تفسير الأمثل ٩ : ٢٢٨ - ٢٢٩

زالت هذه النظرة تحكم عالمنا اليوم ، ولا تنتظم الحياة الدنيا ما دامت هذه القيم الكاذبة تحكم مجتمعاتنا.

عند ما بعث الرسول ﷺ وأنبأ عن دينه الجديد قال بعض مشركي مكة : تعالوا اسمعوا خبراً جديداً ، إنَّ يتيماً فقيراً لا يملك مالاً يدْعِي النبوة ويبلغ لرسالة جديدة من الله ، وهل هذا ممكن؟ ولو أراد الله أن يبعث لنا رسولاً فلما ذا لم يبعث واحداً من أثرياء مكة أو الطائف؟

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ^(١).

سبب تفوه المشركين بهذا الكلام هو أنهم كانوا يصنفون المال والثروة في أعلى مرتبة للقيم ، وقد سبقهم في ذلك فرعون ، فعند ما دعاه موسى عليه السلام إلى الدين الاهلي نظر إلى ظاهره وقال ضاحكاً : وهل يمكن لرَّاعٍ أن يكون نبياً؟ أنا لا أستسلم لرَّاعٍ مع ما أملك من ثروة وسلطة.

نعم ، كانت السلطة والثروة تشكل أعلى مراتب القيم عند هؤلاء الناس ، وكانت بعثة الرَّسُول لغرض تحطيم هكذا قيم سقيمة. في آيات كثيرة من القرآن المجيد عَدَ الله القيم الدنيوية كالمال والبنون لعباً ولهموا ^(٢) ، كما اعتبر القيمة الحقيقة تمثل في التقوى ^(٣).

من هنا قال الله في الآية ٣٣ من سورة الزخرف :

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أَمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكُفُرُ بِالْحَمْنِ لِيُبُوتُهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجٍ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾

وفي الآية ٥٣ من نفس السورة يتحدى فرعون عن نبوة موسى عليه السلام ويقول لن حواليه وللمصريين : **﴿فَلَوْلَا الْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾** ويريد بذلك أنَّ على الرسول أن يكون ثرياً.

بعث الأنبياء لإبطال هذه التوهمات وتحطيم هذه القيم الكاذبة ، وآية المثل الكريمة

تدخل

(١) الزخرف : ٣١.

(٢) جاء هذا المضمون في آيات عديدة من قبيل : الآية ٣٢ من سورة الأنعام ، والآية ٦٤ من سورة العنكبوت ، والآية ٣٦ من سورة محمد.

(٣) الحجرات : ١٣.

في هذا الاطار ، أي أَنَّهَا تُرِيدُ تَحْطِيمَ هَذِهِ الْقِيمَ الْكَاذِبَةَ ، حَيْثُ قَالَ :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَّيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

أيها الرسول أن تكِيف نفسك مع أمثال سلمان وأبي ذر وبلال وصهيب الذين يدعون ربهم دائماً ويتوّجهون إليه رغبة في وجهه الكريم رغم فقرهم وفقدهم للمال والشروة وغيرها من القيم الدنيوية الكاذبة.

﴿وَلَا تَغُدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ثُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾

أي لا تتناسهم رغبة في زينة الحياة الدنيا وطاعة من غفل قلبه عن ذكرنا ، أي ذكر الله.

﴿وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ ^(١) فإن هؤلاء الأثرياء تابعون لأهوائهم ، وأعمالهم لا

تخلو عن الإفراط والتفرط.

المستفاد من هذه الآية أن الاسلام للمستضعفين والفقراء لا الأثرياء المغورين.

كان هذا المنطق والنهج عجيباً للبعض لذلك ضرب لهؤلاء مثلاً أوضح فيه شأن

المستضعفين والمستكبرين لكي تتضح من خلال ذلك القضية للجميع.

الشرح والتفسير

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾

يطلب الله من الرسول أن يضرب لهم مثل رجلين أخوين أو صديقين.

اختلف المفسرون في أنهما كانوا صديقين أو أخوين ، فبعض قال بأنهما كانوا أخوين

بلغهما ثمانية آلاف درهم كإرث من أبيهما ، أحدهما اشتري بمقدار قليل من الأربعه ألف

درهم وسائل بسيطة يعيش بها وانفق ما تبقى ، أمّا الآخر فاستهلك سنه من الإرث كله

لأغراضه الشخصية ولم ينفق منه في سبيل الله ولا درهماً ، فأصبح صاحب رأس مال وبستان

وحياة مرفهة ، والآية تشير إلى قصة هذين الأخرين.

(١) الكهف : ٢٨ .

يرى بعض آخر من المفسرين أنَّ الرجلين كانوا صديقين ولا نسبة بينهما ^(١).
مضمون الآيات يفيد أنَّ النظرية الثانية هي الصحيحة ، أي أنَّ المراد من رجلين هو صديقان لا أخوان.

المطلب الآخر الذي يمكن استفادته من الآيات هو أنَّ الآيات ليس بياناً محضاً مثلِ كما ظن البعض ذلك ، بل هي بيان لقصة حقيقة حصلت في الأزمان الماضية بينها الله في صيغة مثل.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَّنَا هُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بِيْنَهُمَا زَرْعًا كُلْنَا الْجَنَّاتِيْنِ آتَيْنَاكُلَّهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾

المستفاد من عبارة **﴿وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾** أنَّ البستان كان يُسقى من الخارج ، ثم اكتفى ذاتياً من حيث السقي بعد ما فُجِّرَ النهر في داخل أرضه.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْرَا﴾

عند ما ينال ضيقوا الصدر والمغوروون شيئاً من مال الدنيا وبلغون مستوى فيها يبدون وكأنَّ الزمان والمكان يدين لهم ، فبعضهم عند ما يبلغ شأنه في المجتمع ينسى صديقه الذي كان إلى جنبه مدة سنوات ، وعند ما يتلقيه يتصرف وكأنَّه لم يلتقي به من قبل. إنَّ صاحب البستان الشري الذي تحدَّث عنه الآية كان من هذا القبيل ، فقد اغترَ بنفسه عند ما شاهد بستانه والنهر الذي يجري فيه وما انتع من ثمار ، فكان يتفاخر بما حصل وينظر إلى صديقه القاسم والفقير نظرة تحقر ويقول : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً من العمال والمزارعين والخدم.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْلَنُ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبْدَ﴾ أي أنه ما كان يظن

أنَّ بستانه سيفنى يوماً ما بل سيفنى دون أن يزول بأفة أو ما شابه.

عبارة **﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾** تشير إلى أنَّ كلَّ ظالم يبدأ بظلم نفسه في البداية ثم ظلم الآخرين ، كما هو حال المحسنين حيث يفيدون أنفسهم بأعمالهم الصالحة ثم يفيد الآخرين بها.

على أي حال ، نسى هذا المغور ذكر الله الذي خلق له هذه الجنة والذي يمكنه أن يفنيها في كل لحظة بحيث لا يبقى لها أثر مذكور.

(١) أشار الطبرسي قطيْع في مجمع البيان ٦ : ٤٦٨ ، إلى كلا النظريتين.

﴿وَمَا أَظْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾

لقد أنكر هذا الرجل يوم القيمة بسبب تفاخره وغروره ونسيانه رب العالمين ، وبلغ جحوده مستوى أن قال لصديقه : لا أظن أن هناك قيامة ، ولو كانت هناك قيامة كان ذلك يعني موتي وانفصال عن أموالي وجنتي وزراعتي ، وأنا لا اريد الانفصال عن الدنيا لذلك أنكر يوم القيمة.

ثم قال : على فرض وجود قيامة فإني سأكون من المقربين كذلك ، ولو لم أكن من المقربين لما أعطاني الله هذا المقدار من المال والثروة ، فكثرة الثروة دليل على قربى إلى الله في عالم الآخرة . على فرض وجوده . سأكون هناك أقرب منك إلى رب العالمين.

هذا هو ظن كثير من الأثرياء ، جهلاً منهم بأن ذلك اختبار إلهي وقد يكون بلاءً.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾

صديقة الفقير صاحب الصدر المشروح يرى رفيقه مريضاً في علاجه بأساليب نفسانية جميلة لعلاج مرض الغرور فيه ، أي مرضه الأساس الذي سببته كثرة النعم ، ولو عالج مرضه هذا تعالجت باقي أمراضه.

طريقان لمعالجة الغرور

يمكن معالجة الغرور عن طريقين :

الاول : أن نرجع المغدور إلى ماضيه ، إلى طفولته ، حيث كان عاجزاً عن الاحتفاظ بلعاب فمه ، إلى الزمن الذي كان في رحم امه ، حيث كان جنيناً يتغذى من الدم ، وما كان أحد غير الله قادرًا على مساعدته ، نرجعه إلى حيث كان نطفة قدرة ينفر الإنسان من النظر إليها ، ونرجعه إلى حيث كان تراباً فاقداً للقيمة.

الثاني : أن نذكره بالمستقبل ونرسمه له ، فنأخذ بيده إلى المقبرة ونقول له : يرقد في هذه المقبرة اناس كانوا مثلنا أقوياء ومتسللين لكنهم ماتوا في النهاية ، فتلانت أجسامهم ولم يبق منها إلا العظام ، والعظام ستتكل كذلك بمرور الزمان ولم يبق من الإنسان إلا الصخرة التي توضع على قبره ، والصخرة ستتحول كذلك ولم يبق من الإنسان إلا اسماً في التاريخ ، والتاريخ

سينسى بعد مدة من الزمان ، بحيث لم يبق من الانسان شيء يذكر وكأنه لم يلد أبداً.

عاقبة الانسان المغدور

لم يكن ولن يكون عاقبة حسنة للمغدور أبداً. كان وزير عهد حكومة رضا خان الظالم يدعى تيمور تاش وكان مغروراً وجباراً وخطراً وصاحب صالحيات وسلطة واسعة بحيث يُعدُّ المحور الأساس للسلطة.

في يوم كان علماء طهران قد اجتمعوا في مجلس فبلغهم أن تيمور تاش وزير البلاط يقصد الجيء إليهم ، فدخل هذا الرجل الذي يعيش سكره الغرور وقال : «أنتم تقولون : للكون رب؟! يمكنني أن أبرهن على عدم وجود رب بألف دليل».

نظر العلماء إليه وما كان أحدهم يتجرأ بالتفوه بشيء ، كما أكّم يعلمون ما من شيء يؤثّر فيه ولا يرون أنه للاجابة. وعلى كل حال ختم المجلس وذهب تيمور تاش. لكن رياح الزمان لا تجري دائمًا بما تشتهيه السفن ، فلم يمضِ زمن طويل حتى أصبح تيمور تاش موضع غضب الشاه فادع السجن الانفرادي ثم حكم عليه بالإعدام. عند ما كان في السجن ذهب أحد العلماء لزيارته فوجده يدور في زنزانته مردداً أبيات عرفانية للشاعر مولوي ^(١) تقرُّ بالله.

يقول هذا العالم : تعجبت من ذلك واقتربت منه وقلت له : هل تعرفي؟ قال : نعم ،
قلت :

جئْتُ لأبطل ألف دليل ادعية وجودها بدليل واحد ، وهو : إن الله هو الذي أسقط تيمور تاش المغدور من قمة السلطة ليضعه في سجن. فهو رأسه معرباً عن أسفه. نعم ، هذا هو شأن ضيق الصدر والمغورين ، أما واسعو الصدر فيكونون متواضعين ، كالامام علي عاشيراً ، حيث لم يختلف شأنه أثناء ٢٥ سنة من سكوته مع شأنه أثناء ٥ سنوات من حكومته.

(١) شاعر إيراني شهير.

يقول الإمام علي عليه السلام : «سُكْر الغفلة والغرور أبعد إفاقه من سُكْر الخمور»^(١)؛ وذلك لأنَّ الإنسان يفيق من سكرة الخمر بعد لحظات أمَّا سكرة الغرور فلا يفيق منها الإنسان حتى الموت أحياناً ولا يوقيه منها إلَّا صفعة الموت والأجل ، حيث لا وقت للتدارك والجبران.

وفي رواية أخرى يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِدَةِ حِجَابٌ مِّنَ الْغَيْرَةِ»^(٢).

إذن ، علينا التَّوْقِي من الابتلاء بالغرور من خلال استذكار الماضي والتفكير في المستقبل ، وخاصة بما بعد الموت.

﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾

أي صَنَعَ مِنْكَ رَجُلًا بَعْدَ اجْتِيازِ مَراحلِ الْجَنِّينِ الْمُخْتَلِفةِ ، وَالَّتِي تَشَكَّلُ كُلُّ مِنْهَا اعْجُوبَةً فَرِيدَةً مِنْ نُوْعِهَا ، وَمِنْ خَلَالِ بِرْنَامِجِ مُنْتَظَمٍ وَمُتَكَاملٍ يَخْلُقُ إِنْسَانًا كَامِلًا لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ طَرَا أَقْلَى تَغْيِيرٍ فِي هَذَا الْبِرْنَامِجِ لَوْلَدَ الطَّفْلُ أَعْمَى أَوْ أَصْمَى أَوْ مَعْتُوهٍ أَوْ تَوَمٍ مَتَّلِاصِقٌ وَمَا شَابَهُ.

من فلسفة وجود ولادة الأطفال المشوهين ونافضي الخلقة هو الاطلاع على هذه المرحلة المهمَّة من الخلقة ، ولكنَّ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ مَا يَصْبُحُ مَتَمِّلِّاً وَصَاحِبُ سُلْطَةٍ ، وَلَكِنَّ لَا يَغْتَرُ ، وَلَكِنَّ يَكُونُ شَاكِرًا لِعَمَّ اللَّهِ وَلَوْلَيْ نِعْمَتِهِ دَائِمًاً.

ولأجل ذلك لا يسأل النَّزِيْهُونَ عَنْ جِنْسِ الطَّفْلِ عِنْدَ وَلَادَتِهِ بَلْ عَنْ سَلَامَتِهِ ؛ لَأَنَّ الذِّكْرَةَ وَالْأُنْوَثَةَ كَلَّا هُمَا مِنْ نَعْمَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْمَهْمُ هُوَ سَلَامَةُ الطَّفْلِ.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا اشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

بعد ما بيَّنَ القرآن منطق ذلك الصديق الشري الغافل عن الله بدأ ببيان منطق الصديق الفقير المؤمن الذي نصح الشري ولم تؤثر نصيحته في صديقه.

استخدام الآية لمفردة الرب دون باقي أسماء الله يُحضى بأهمية قصوى ، فهو استخدام دقيق ويعني أنَّ الله ربناي منذ أن كنت نطفة إلى آخر عمري ، ولو لم تكن تربية رب القادر لم أكن شيئاً يذكر ، فهو ولِي نعمتي وصاحبي ومالكـي ، وهل يمكن جعل شريك لرب يملك كل ما لدى؟!

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٣٠٣٩ ، الحديث ١٤٥٣١ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، الحديث ٢٨٢ .

بعد ما بين الصديق المؤمن منطقه ومنهجه اتجه إلى صديقه قائلاً : عند دخولك جناتك الواسعة ذات الشمار الكثيرة والمعطرة بعطور الفواكه والمضللة بالأشجار والباردة والمنشطة لماذا لا تقول : هذه ممَّا أنعم الله عليَّ من نعمٍ فلا قوة لأحدٍ غيره ، وكل قوَّة تنشأ منه .

يا صديقي ! عليك عد هذه النعم من الله ، وعليك شكره على هذه النعم والألطاف والرحمات ، ولا تغتر بل استفد منها بأفضل ما يمكن ، كما عليك أداء حق الأيتام والفقراء والمحاجين منها .

﴿إِنْ تَرَنَّ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَ خَيْرًا مِنْ جَنِّتِكَ﴾

يذكّر المؤمن صديقه هنا قائلاً له : إنك تفكّر بوضعك الراهن حيث إنك متّمّل وصاحب سلطة ، وأنا فقير ولا أملك سلطة ولا أفراداً ، لكنك لا تفكّر في المستقبل الزمن الذي قد يدمر فيه الله جنتك في لحظة واحدة ويعطيني حنّة أفضل من جنتك.

الروايات التي وردت في ذيل هذه الآية حكت عن أن الوضع المالي لذلك الفقير كان

وَيُرِسَلُ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا رَلْقَاءِ

الحساب يعني إصابة السهم للهدف ، والتسمية باعتبار أن الإصابة كانت عن حساب ، كما يطلق الحساب على الصاعقة التي تصيب المهدى ، وكذلك الزلزال التي تصيب المهدى وتدمره ، والخلاصة أن الحساب يطلق على كلّ بلاء مؤثر ومحسوب . الآية تتمة خطاب المؤمن الفقير لصديقه ، فيقول له : قد يغیر الله كلّ شيء في لحظة واحدة ويرسل على جنتك بلاء سماوياً أو حسباناً يبدّل به جنتك المشمرة إلى صحراء .

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غَورًاً فَلَنْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَبًا﴾

أو تتبع الأرض كل ما احتوته جنتك فلا يبقى منها أثر ، ولا قدرة لك عندئذٍ لعمل شيء ، كما يحصل ذلك عند حصول الزلزال وما شابهها من الكوارث الطبيعية بحيث تدمر قرية كاملة أو تغطّي بالوحول في لحظة واحدة.

(١) انظر البرهان ٢ : ٤٦٩ .

في المستقبل.

﴿وَاحِيطُ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾

وكما قال له صديقه المؤمن فإنَّ بلاًءَ سماوياً وصاعقة نزلت ودمَّرت أشجار جنَّته وزراعته ، فبها المغرور عند ما دخل جنَّته ورأى الشمار مدمرة والأشجار قد احترقـت ، وقد ذهبت كلَّ أمواله وآماله سُدِّى ، فأصبح يقلِّب كفَيْهِ تحسراً على ما كان قد أنفق على زراعته وما استثمره من الأموال فيها.

﴿وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشَهَا﴾

الآلية تصف كيفية خراب الأبنية والعمارات ، وهي عجيبة من حيث إنها تصف الانهـدام بأن الجدران والأعمدة سقطت على السقوف ، بينما المأثور هو سقوط الجدران والأعمدة ثم سقوط السقوف عليها.

قد يكون سبب ذلك هو أنَّ الصاعقة هـدمت السقوف في البداية ثم هـدمت الأعمدة والجدران فسقطت على السقوف ^(١).

﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ اشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

استيقظ الصديق المغرور من سكرة الغرور بعد ما نـزل العذاب الإلهي ودمَّر جنَّته وزراعته وأفقدـه كل ما يملـك من رأس مـال ، وقال : ليـتني لم اـشرك بالله ولم أنـكر يوم القيـمة والمـعاد ولم اـبتـل بـسبب الشرـك والـجـحـود بـالـعـقـاب الإلهـي.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فَتَّةٌ يَتَصْرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾

لم يـنصرـه أحد مـنْ كان يـحـوم حـولـه عند ما كان صـاحـبـ مـال وـثـرـوـةـ من الأـصـدـاءـ والـمـعـارـفـ ، ولم يـحـمـه أحدـ منـ عـذـابـ اللهـ ، وما كان لهمـ الـقـدـرةـ لـنـصـرـتهـ.

اعتبروا

كان شخصـ في قـمـ يـدعـىـ السـيـدـ صـادـقـ ، كانـ قدـ فـقـدـ إـحدـىـ عـيـنـيهـ ، وكانـ لهـ بـسـتـانـ عـنـبـ ،

(١) وقد يكون التعبير كناية عن شدة العذاب.

عند ما كان يحلى فصل جنى العنبر يجتمع حوله أصدقاؤه ويهمنون بتمجيده واحترامه ويدعونه في هذه الأيام (ال الحاج السيد صادق) ، وعند انتهاء فصل جنى العنبر يتبعاً دون عنده وإذا أرادوا ذكره دعوه بصادر الأعمى.

كان السيد صادق ملتفتاً إلى اتصاف أصدقائه بأحد صفات الذباب وقد أنسد في المجال أبياتاً وصف فيها أصدقائه وأحوالهم السقيةمة.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرُ ثَوَابًا وَخَيْرُ عُقَبًا﴾

أي أنَّ الولاية الحقيقة لله وحده فقط ، ولا يمكن الوثوق بولاية وصداقة أحدٍ غيره.

اختلاف المفسرون في أن **﴿هُنَالِكَ﴾** إشارة لعالم الدنيا أم الآخرة. لكن يبدو أنها إشارة إلى العالمين ، والآية تعرضت لولاية الله في كلا العالمين.

الولاية شأن مهما حداً ، وتأتي من مادة التوالي ، أي مجيء شيئاً أحدهما بعد الآخر ، فيقال لشعبان ورمضان اللذين يأتي أحدهما بعد الآخر شهراً متواлиان. وإذا جاء طبيان إلى العيادة أحدهما تبع الآخر قيل : توالى الطبيان على المجيء إلى العيادة.

بما أن الصديق يصاحب صديقه الآخر دائمًا قيل له : ولي ، أي كل منهما ولـ الآخر ، وبما أن الله صديق المؤمن ومصاحبه وناصره قيل له : ولي. إذن ، الولي يعني الصديق والناصر والمعين والرئيس.

فرق البعض بين الولاء (بالكسر) مع الولاء (الفتح) ، فالكسر تعني النصرة وبالفتح تعني السيادة والرئاسة.

وهناك بعض آخر اعتبر الكلمة بمعنى واحد سواء كانت بالكسر أو بالفتح.

خطابات الآية

١ . زمن تأثير التوبة

مما يستفاد من آيات المثل الائتني عشر هو : أنَّ للتوبة زمناً خاصاً فإذا مضى ذلك الزمن ترفض التوبة.

رغم أن الروايات حكت سعة باب التوبة وأنه باب يدخله المذنبون والعاصون وال مجرمون إلا أن هذا الباب يغلق في ثلاثة أزمنة :

الف : التوبة عند نزول البلاء

إذا تاب الإنسان عند تورطه بشوكة البلاء فلا تُقبل توبته.

ولهذا يقول الله في الآية ٦٥ من سورة العنكبوت :

﴿فِإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ

يُشْرِكُونَ﴾

أي إنهم يتوبون ويدعون الله عند ما يتلون بأمواج البحر وعند ما يشعرون بتهديد وتحدي الموت ، وتوبتهم هنا مرفوضة ؛ لأنها نشأت عن اضطرار ، وهي من قبيل إعلان شخص عن توبته واستغفاره تحت ضربات السوط ، فإن توبه من هذا القبيل غير مقبولة. هؤلاء المشاركون الذين أعلنوا عن توبتهم واستغفارهم ودعوا الله في ظرف الخوف الذي عاشوه في السفينة ، وعند ما يهدأ البحر أو ترسو السفينة قرب اليابسة ينسون الله تارة أخرى ويعودون إلى شركهم.

إذن ، لا تُقبل توبة كهذه ؛ لأن التوبة هي التي يتغير معها منهج حياة الإنسان ،

وهذه التوبة لم تغير من منهج المشركين ولا سلوكهم شيئاً.

التوبة التي تحصل في الزنزانا وتنسى بعد الخروج منها ، أو التي تحصل عند المرض وتنسى بعد الشفاء ، أو التي تحصل في خضم الحوادث وتنسى بعدها ، هذه كلها توبات غير مقبولة ؛ لأنها ردود فعل مؤقتة تحصل إثر جلد الحوادث الإلهية وصفعاتها.

باء : توبه المذنبين عند الموت

عند ما يسمع الإنسان صفة الأجل وتفتح عينيه نحو البرزخ ويتبلور عنده اليقين

بالموت والوداع مع الدنيا فلا تقبل منه توبة ، وقد قال الله تعالى في الآية ١٨ من سورة النساء :

﴿وَلَيَسْتَ الْتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ

الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وفرعون من زمرة هؤلاء ، فإنه عند ما شاهد شوكة الموت ووجد نفسه على عتبة الغرق

قال : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لِإِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ يَهُ بِنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) ، لكن توبته هذه لم تُقبل ، وقد ورد في بعض الروايات أن جيريل أحد حمأة (أي طيناً أسود منتًا) فوضعه في فم فرعون وقال له : ﴿أَلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢). وهل من المناسب قبول توبة فرعون بعد كل هذه الجرائم التي ارتكبها من شق بطون الحوامل وقتل أولادهن الذكور ، والاجراءات الظالمة بحق الناس ومطاردة بني اسرائيل وتعذيب مؤمنيهم؟

إذن ، لا تُقبل التوبة على عتبة الموت وعند ما تفتح عينا الإنسان نحو البرزخ.

﴿جِيمٌ : التَّوْبَةُ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ الْعَذَابِ الإِلَهِيِّ﴾

كثير من الناس يتوب عند مشاهدة العذاب الإلهي ، وتوبة من هذا القبيل غير مقبولة.

يقول الله في هذا الحال في الآيات ٨٤ و ٨٥ من سورة المؤمن (غافر) :

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَانَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

لا تأثير للتوبة عند رؤية العذاب ، ولذلك لم تُقبل توبة قوم نوح عليه السلام عند الطوفان ولا توبة قوم لوط عند نزول عذاب الأحجار التي تساقطت من السماء وكذا غيره من العذاب.

أعرّي ، الموت لا يخبر عن وقت مجئه ، بل هو يكمن في كل لحظة من لحظات العمر ، وعوامله وأسبابه بسيطة جداً تتحقق لأي إنسان. ولذلك على الإنسان أن ينوب إلى الله ويتبّع توبة حقيقة في كل لحظة ، ولا يترك التوبة إلى زمن قد اغلقت فيه جميع أبوابها. المستفاد من الآيات المتقدمة أن رفض التوبة في ظل الظروف المزبورة لا يختص بقوم أو شعب أو نحلة ما ، بل هو سنة إلهية تجري في حق جميع الأقوام والشعوب والتحل.

٢ . لا قيمة للدنيا

يستفاد من آيات المثل أن لا قيمة ولا اعتداد بالأموال والمقام والثروات والقوى

(١) يونس : ٩٠ .

(٢) يونس : ٩١ ، ومصدر الرواية تفسير الصافي ١ : ٧٦٣ .

الجسمانية ، والاعتماد على الامور الدنيوية بمثابة الاعتماد على بيت العنكبوت بل على ما هو أضعف وأوهن ^(١).

قوة الشباب والنشاط والقوى العضلية ليست دائمة ، لا ينبغي الاغترار بها . قد يصبح بطل من الأبطال أضعف انسان بسبب المرض ، كما حصل ذلك في الواقع ، وهناك بعض من الأبطال عجزوا في آخر عمرهم عن المشي والحركة دون الاستعانة الآخرين.

قصة بطل

كان بطل قمي معروف بالقدرة البدنية وطول القامة وكان يخدم في حرم فاطمة المعصومة سلام الله عليها في قم ^(٢) ، وعند إرتدائه ملابس الخدمة يكتسب اتجاه أكثر ، وكان يهابه الشرورون في المدينة بحيث يبتعدون عنه عند ما يرونـه ، وفي يوم من الأيام وجدته على كرسي المعدين يدفعه طفل لإيصالـه للحرم لغرض الزيارة.

تذكـرتـ عندهـاـ أيامـ بـطـولـتـهـ وـقـدرـتـهـ الـبـدنـيـةـ الـعـالـيـةـ وـقـلتـ :ـ أـيـنـ هـذـاـ وـأـيـنـ ذـاكـ؟ـ!ـ يـاـ لهاـ منـ دـنـيـاـ غـادـرـةـ ،ـ لـمـ تـكـنـ جـنـةـ ذـلـكـ المـغـرـورـ الـأـمـرـ الـوـحـيدـ الـذـيـ هوـ عـرـضـةـ لـلـزـوـالـ وـالـدـمـارـ بـلـ آـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ التـوـقـ بـجـمـيعـ اـمـوـرـ الـدـنـيـاـ.

المطبخ السلطاني

تشاجر اثنان من امراء خراسان إثر اختلاف بينهما ، وقد انتهى الشجار إلى حرب وهزيمة وأسر أحدهما بيد الآخر. وفي يوم من الأيام جيء للأسير بالغذاء وكانت آنية ذلك الزمان تشبه السطل ذات المقبضين ، وقد تركـهـ إـلـىـ جـانـبـ لـيـرـدـ فـجـاءـ كـلـبـ وـأـرـادـ الـأـكـلـ مـنـهـ فـلـعـقـ مـنـهـ وـبـسـبـبـ حـرـارـتـهـ صـدـرـ مـنـهـ رـدـ فعلـ سـرـيعـ أـدـىـ إـلـىـ دـخـولـ رـأـسـهـ فـيـ مـقـبـضـ الـآـنـيـةـ فـفـرـرـ وـالـآـنـيـةـ مـعـلـقـةـ بـرـبـتـهـ ،ـ فـضـحـكـ الـأـمـرـ الـأـسـيـرـ بـصـوـتـ عـالـيـ وـقـالـ :ـ كـانـ مـطـبـخـ الـسـلـطـانـ تـحـمـلـهـ أـرـعـامـةـ

(١) يستفاد هذا المعنى من الآية ٤١ من سورة العنكبوت ، وهي بنفسها من أمثال القرآن الجميلة كذلك.

(٢) الخدمة في مراقد هؤلاء العظام يُعدُّ من مفاسـرـ الشـيـعـةـ الـكـبـرـىـ ،ـ وـسـاحـةـ الـإـسـتـاذـ آـيـةـ اللـهـ الـعـظـمـىـ مـكـارـ الشـيـرـازـيـ (ـمـدـ ظـلـهـ)ـ مـنـ جـمـلةـ الـخـادـمـ الـفـخـرـيـنـ فـيـ هـذـاـ المـرـقـدـ الشـرـيفـ.

عربة واليوم يسرق كلب حسأء ومطبخ الأمير^(١).

٣ . التدقيق في اختيار الصديق

كما تقدّم أَنَّه كان لهذا الشري صاحب البستان والثروة والسلطة أصدقاء كثيرون ، وكان يتفاخر بهم ، لكنهم تفرقوا وابعدوا عنه عند ما فقر وواجه الخسارة وأصبح مُدانًا ، فما أعاده على مشكلته ، كما أَنَّه بنفسه ما استطاع جبران ما تحمله من خسائر.
يا ترى ، ما سبب عدم إعانة إصدقائه له ؟

سبب ذلك واضح ، فإنهم لم يكونوا أصدقاء له بل ثروته وسلطته ، فكانوا بمثابة الذباب الذي يحوم حول السكريات.

إنَّ أصدقاءً من هذا القبيل تنتهي صداقتهم بنهاية سلطة الإنسان وثرؤته ، وبعض منهم أصدقاء لسلطة الإنسان وتنتهي صداقته بانتهاء السلطة ، وبعضهم أصدقاء لجمال الإنسان وتنتهي صداقته بانتهاء الجمال ، وبعضهم أصدقاء لثروة الإنسان وتنتهي صداقته بانتهاء الثروة ، وبعضهم أصدقاء للمقام ، وتنتهي صداقته بانتهاء المقام وبلوغه نهاية الخط.

أصدقاء الشري الذين ورد ذكرهم في آيات المثل كانوا من هذا القبيل ، أي أنهم كانوا أصدقاء لثروة ذلك الإنسان وسلطته ولم يكونوا أصدقاء له بالذات ، مضافاً إلى أنَّهم لم يكونوا أصدقاء حقيقين عند ما كان ثريّاً بل كانوا بلاً عليه ؛ لأنَّ أشخاصاً من هذا القبيل وبأهداف مادية دنيوية يظهرون له . بتملّقهم . الزين شيئاً والشين زيناً ، أي أنهم لم يكونوا أصدقاء حقيقين أبداً.

سؤال : من هم الأصدقاء الحقيقيون؟ وعلى من يطلق عنوان الصديق الحقيقي؟

الجواب : ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار معايير خالدة لانتخاب الصديق ، لكي تبقى صداقته وتندوم. علينا اعتبار محبي العلم والإيمان والتقوى وما شابه ذلك أصدقاء لنا ؛ لأنَّ محبة هؤلاء لا تتزلزل بالحوادث والمتغيرات ، والمحبة تستمر ما دام التقوى والإيمان والعلم والاعتقاد بالأخرة موجوداً.

(١) جهل حديث ، لرسول مخلقي ٢ : ٥٠٨ (بالفارسية).

وقد وردت هذه الموصفات كمعايير لاختيار الصديق في بعض الروايات نشير إلى

اثنين منها :

- ١ . يقول الإمام علي عليه السلام : «مودة أبناء الدنيا تزول لأدنى عرض يُعرض» ^(١). إن أصدقاء من هذا القبيل يتخدون صبغة خاصة في الحوادث بحيث يبدون وكأنهم لا يعرفون صديقهم السابق أو لم يروه من ذي قبل.
- ٢ . يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في رواية أخرى : «فُؤْدُ أبناء الآخرة يدوم لدوم سببه» ^(٢).

صداقة أمثال هؤلاء صامدة وثبتة على كل حال ، سواء أقبلت الدنيا أم أدبرت ، وفي الأسر والحرية ، وفي المرض والسلامة.

هكذا أصدقاء قليلون وبخاصة في آخر الزمان ، لذلك ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

«أقل ما يكون في آخر الزمان أخ يوثق به أو درهم من حلال» ^(٣).
 حقاً إنَّ كليهما قليلان وعزيزان. فلنفرض حصول الإنسان على مالٍ حلال بمشقة كثيرة فيضعه في حسابه في البنك ، عندئذٍ يختلط بأموال أشخاص مرابين ولا يعتقدون بالخمس والزكاة ولا يدفعون ما عليهم من وجوه شرعية أخرى أو يرتفعون عن طريق السرقة أو يحتكرون ما يحتاجه الناس أو يهربون السلع المحظورة وغيرهم ممَّن لا تخلو أموالهم من الحرام ، ورغم أنه لا تكليف في الظاهر ملقي على عاتق الإنسان المفروض هنا إلَّا أنَّ اختلاط أمواله الحال بالآموال الحرام يترك أثراً وضعياً.

وقد يكون هذا هو سبب ما ورد في الحديث التالي :

« يأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلَّا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره» ^(٤)

تنطلع إلى اليوم الذي يسعى فيه الناس جمِيعاً لكسب الرزق الحلال ويرفع المربون

أيديهم

(١) غير الحكم ، الحديث ٦٨٢٨.

(٢) غير الحكم ، الحديث ١٠١١٨.

(٣) تحف العقول : ٤٤.

(٤) مجمع البيان ١ : ٣٩١.

عن الربا ويعتنى السارقون عن السرقة والمتذكرون عن الاحتياط والمهربون عن تخريب المخدرات.

٤ . من هو ولی المؤمنين؟

الله ولی الذين آمنوا وناصرهم ومعينهم في الدنيا والآخرة ، فهو القادر على كل شيء ، كما جاء ذلك في الآية ٢٥٧ من سورة البقرة :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكُمْ هُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ اولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَالُدُونَ﴾

كما أن أولياء الله هم أولياء للمؤمنين كذلك ، حيث يقول الله في الآية ٥٥ من

سورة المائدة :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

بناءً على هذه الآية يُعدُّ الرسول ﷺ والأمام علي عليهما السلام (١) أولياء للمؤمنين .
كما ورد في الآيتين ٣٠ و ٣١ من سورة فصلت كون الملائكة أولياء للمؤمنين كذلك

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَشَرَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ تَحْنُ أُولَيَّاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾
و بما أنَّ الناس غير معصومين فالملائكة تحُمُّ دائمًا بحفظ المؤمنين من الحوادث والمخاطر ، وهذه هي الولاية التكوينية .

وجود الرسول ﷺ والأئمة علي عليهما السلام وأولياء الله سبب للبركة والآثار المعنوية ، وعند ما يُسأل المعصوم عن فائدة وجود إمام غائب ، أي المهدي (عجل الله فرجه) بيننا ، يقول : «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب» (٢) .

(١) أجمع علماء الشيعة والسنّة على نزول هذه الآية الكريمة في الإمام علي عليهما السلام وللمزيد راجع تفسير الأمثل ٤ . ٤٥ . ٥٥

(٢) منتخب الأثر : ٢٧١ ، الحديث ٣ و ٤ .

إذن ، الله والرسول ﷺ والأئمة طبائعهم والملائكة أولياء للمؤمنين ، بشرط أن يخطو المؤمن في طريق الحق تعالى ، فإذا خطى المؤمن خطوة نحوه تعالى خطى الله باتجاهه خطوات كثيرة ، وإذا قلنا (ربنا) واستقمنا شملتنا ألطاف إمام الزمان (عجل الله فرجه) ، كما شملت بعضنا.

علينا مدّ أيدينا نحو السماء والتضرع إلى الله تعالى لكي يحل مشاكلنا الفردية والاجتماعية والسياسية بعنایاته الخاصة .

المثل الثالث والثلاثون :

الحياة الدنيا

يقول الله تعالى في الآيات ٤٥ و ٤٦ من سورة الكهف :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتَرْلَنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصَبَحَ هَشِيمًا تَدْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾

تصوير البحث

شبَّهَ الله تعالى الحياة الدنيا في هذا المثل بماء الغيث. الخصوصية البارزة لهذا الماء أنه يضفي طراوة ونشاطاً على الزرع والنباتات مدة أيام ، لكن هذه الطراوة والنشاط تنتهي بحلول فصل الخريف ، أي فصل الموت المؤقت للنباتات ، وينتهي به شوط قصير من حياة النباتات. وهذا الشوط تحذير في الحقيقة إلى الإنسان الغارق في الحياة الدنيوية بأنَّ حياته سيحلُّ فيها فصل الخريف حيث بداية الموت.

الشرح والتفسير

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

يخاطب الله بهذه الآية الرسول ﷺ بأن يضرب للناس الغارقين في الدنيا مثلاً على هذه الحياة ويشبهها بما شبيهها.
لماذا ضرب الله هذا المثل هنا؟

قد يكون ذلك باعتبار أَنَّه أشار إلى عاقبة عَبَدَة الدنيا والذين غرقوا في مُتعها من خلال الآيات الائتني عشر الماضية ، ولأجل اتضاح أصل الحياة الدنيا طرح الله هذا المثل تعقيباً للمثل المتقدم.

﴿كَمَاءِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾

يسقط هذا الماء على أرجاء الأرض كلها سواء كانت خصبة أو سبخة ، لكن الأرضي لم تستفد من هذا الماء بمنحه واحد ، فقد يكون هذا الماء سبباً للحياة في جزء وقد يكون سبباً للعذاب الإلهي في جزء آخر.

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾

عند ما يسقط هذا الماء على الأرضي الخصبة يضفي عليها حياة وطراوة ونشاطاً وافراً ، فتنبت من جراء ذلك نباتات مختلفة ومتنوعة ، كُلُّ منها تكشف عن قدرة الخالق ، وتتشكل بذلك مناظر طبيعية خلابة ومحيرة للعقل في فصلي الربيع والصيف ، وتحرض كل صاحب بصيرة لتمجيد الخالق وتحسينه.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياْحُ﴾

لكن عمر الطراوة والنشاط ، الذي منحه الماء للنباتات وجَّهَ الأرض ، قصير ؛ لأنَّه بعد أيام حيث يحلُّ فصل الخريف والشتاء ويتبَدَّلُ الخضار إلى صفار والنشاط إلى خمول وموت ، وعند ما تهبُّ الرياح حاملة معها رسالة الموت الظاهري للطبيعة تتساقط أوراق الأشجار التي كانت تحمل الطبيعة وتجعلها خضراء خلابة ، وبعد ما ترقص في الهواء للحظات تقع على الأرض لتُدفن في باطنها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

بالطبع ، هذه التحولات والتغييرات التي تطرأ على الإنسان وجميع الموجودات في العالم تحتاج إلى قدرة الله من حيث الوجود والبقاء ، فهي فقيرة إلى قدرته تعالى ، أمَّا ذات الحق فقادرة ومستطيعة دائماً ، ولا يؤثُّر فيها مرور الزمان وتحولات الفصول والمناخات وغير ذلك ، بل الله بقدرته أوجد هذه التحولات ، وكل شيء يتغير إلَّا ذاته الظاهرة.

نعم ، الله قادر على كل شيء.

﴿الْمَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

البنون كالمال بمثابة رأس مال في الحياة الدنيا ، كما هو حال النباتات ففي برهة من الزمن تُعد سبباً لجمال الأرض ويتهاها بها الإنسان أحياناً ، لكنها ممّا لا ينبغي الوثوق بها ، ولا ممّا تسبب إنفاذ الإنسان ونحوه في الدنيا وفي الآخرة .

﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾

الرصيد الذي يمكن الاعتماد عليه والذي يُعد ذخراً حسناً عند الله تعالى هو الأعمال الصالحة الباقية التي عبر عنها الله في هذه الآية بالباقيات الصالحة .
نعم ، الأعمال الصالحة والقيم الثابتة تعد رصيداً يعتمد عليه ، فهي ذات صبغة خالدة ولا خريف فيها ولا موت .

بأي شيء شبّهت الحياة الدنيا؟

سؤال : بأي شيء شبّهت الحياة الدنيا في هذه الآية؟ هل شبّهت بالأشجار الطيرية ذات العمر القصير والتي تموت بحلول فصل الخريف ، كما تقدّم شرح ذلك ، أو أنها شبّهت بماء المطر الذي ينزل من السماء شفافاً صافياً؟
إذا كان الثاني فعلينا معرفة وجوه الشبه بين الدنيا والمطر؟

الجواب : الإنكار أنها شبّهت بكليهما ، والمعنيان والتشبيهان صحيحان ، وقد تقدّم تفصيل تشبيه الدنيا بالنباتات ، أما وجه تشبيهها بالغيث فهو كون الغيث ينزل من السماء وينصب في قالب النباتات ، وينحها حياة ونشاطاً وقوه فتخضر الدنيا بها وتصبح زاهية بزهور النباتات ، وبعد مدة قصيرة من عمرها تتجه نحو الموت وتنتهي ويتبخّر الماء ويتركها هيكلًا بلا روح متوجهًا نحو السماء تارة أخرى ، وهذا هو الذي يؤدي إلى موت النباتات .

نعم ، ينزل الغيث من السماء لكي يرسخ في صلب النباتات وينحها حياة ، وبعد مدة يرجع إلى السماء ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١) عائدًا إلى أصله ومحافظًا على سنة الرجوع والعود إلى الأصل .

. (١) البقرة : ١٥٦

المُدْفَعُ مِنْ تَشْبِيهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْغَيْثِ هُوَ إِفْهَامُ الْإِنْسَانَ بِأَنَّ رُوحَهُ مُثْلُ الْمَاءِ الَّذِي يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنَ الْعَالَمِ الْعُلُوِّ جُعِلَتْ فِي هِيكَلِهِ الْمَادِيُّ ، فَعَلَيْهِ اِنْتَهَازُ فَرَصَّةٍ تَوَاجِدُهَا فِي جَسْمِهِ وَالاستِفَادَةُ مِنَ الْحَيَاةِ بِأَحْسَنِ وِجْهٍ مُمْكِنٍ ، وَعَلَيْهِ الإِكْثَارُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ ، وَلِيَكُنْ مُطْبِعًا مُخْلِصًا وَعَبْدًا خَاضِعًا لِذَاتِ الْحَقِّ تَعَالَى ، وَهَذَا هُوَ مَتَاعُهُ فِي سَفَرِهِ نَحْوَ الْآخِرَةِ وَالصَّعُودُ إِلَى دَارِ الْعَقْبَى وَالْعَالَمِ الْعُلُوِّ . إِذْنَ فَلِيَقْدِرُ الْإِنْسَانُ لَهُظَّاتِ عُمْرِهِ الْقَصِيرَةِ فِي الدُّنْيَا وَلِيَتَهَرَّبُ حَتَّى أَقْصَى لَحْظَةٍ .

يُشَبَّهُ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ أَرْوَاحَ النَّاسِ بِالْغَوَاصِينَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الْلَّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ وَيُضْطَرُّونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ لِلْغَوْصِ إِلَى أَعْمَاقِ الْبَحَارِ ، وَالْغَوْصُ يَسْتَحِيلُ عَلَى الْغَوَاصِ إِلَّا أَنْ يَصْبُرَ مَعَهُ ثَقَلًا ثُمَّ يَفْسُلُهُ عَنْدَ مَا يَعْتَرُ عَلَى الْلَّؤْلُؤِ أَوْ الْمَرْجَانِ الْمُسْتَهْدَفِ لَكِي يَمْكُنَهُ أَنْ يَطْغُوَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ تَارَةً أُخْرَى .

الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِمَثَابَةِ الْغَوَاصِ الْبَاحِثِ عَنِ الْلَّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَهِيَ الْمَقَامَاتُ وَالْكَمَالَاتُ الْإِخْلَاقِيَّةُ وَالْطَّاعَاتُ الْعَبُودِيَّةُ ، خَصْبُوْعًا لِلَّهِ الْأَحَدِ فِي بَحْرِ الْوِجْدَانِ الْمَوْجَاجِ ، قَضَاءً لِأَيَّامِ مِنَ الْاِسْرِ فِي عَالَمِ التَّرَابِ ، وَالْإِنْسَانُ الْمُوْفَّقُ وَالنَّاجِحُ وَالْمُنْتَصِرُ فِيهِ هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي اصْطَادَ صَيْدًا جَيْدًا وَاسْتَطَاعَ تَحرِيرَ نَفْسِهِ مِنْ قِيدِ جَسْمِهِ التَّرَابِيِّ صَعُودًا نَحْوَ دَارِ الْبَقاءِ مُتَحَرِّرًا مِنْ كُلِّ قِيدٍ .

اختلاف هذه الآية مع الآية ٢٤ من سورة يونس

جاءَ مَا يُلَيُّ فِي الآيَةِ ٢٤ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ وَالَّتِي تَقْدَمُ الْحَدِيثُ عَنْهَا فِي الْمَثَلِ الثَّامِنِ :

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءُ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ رُخْرُفَهَا وَأَزْيَّتْ وَطَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَمَا لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

والسؤال : هل المثل المذكور في الآية ٤٥ من سورة الكهف تكرار للمثل المذكور في الآية ٢٤ من سورة يونس من حيث التحاد وجه التشبيه فيهما؟

الجواب : المثلان مختلفان وليسَا مُكَرَّرِينَ ؛ لأنَّ الْحَدِيثَ فِي الْمَثَلِ الْمُطْرَوْحِ فِي سُورَةِ

يونس

عن حصول حادث مفاجئ يمحو آثار حياة النباتات ونشاطها ، وذلك قبل إتمام عمرها الطبيعي ، أمّا المثل الذي هو موضع بحثنا (الآية ٤٥ من سورة الكهف) فالحديث فيه ليس عن حادث خاص يطرأ فجأة بل الحديث عن حادث يطرأ تدريجياً في فصل الخريف يسلب النباتات خضارها ونشاطها وطراوتها حتى يتنهي الأمر إلى جفافها وموتها في نهاية المطاف ، لكن تدريجياً لا فجأة.

هذه السنة الالهية تصدق في حق الانسان كذلك ، فهو يمر بمرحلة الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة والشيخوخة.

على كل حال ، هذه الحياة الدنيا زائلة وينبغي الإعداد والتهيؤ لحياة البقاء الآخرية حيث الديمومة والقيمة العالية.

خطابات الآية

١ . تنوع النباتات من معالم القدرة الإلهية

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾

هذه العبارة تشير إلى تنوع واختلاف النباتات ، وعدد فصائلها حالياً يبلغ مئات الآلاف ، وهذه الإحصائية التي يقرّها علماء النباتات تخص الأماكن التي بلغها البشر دون تلك التي لم يستطعوها أو الوصول إليها.

يقول العلماء : ما يعادل هذا العدد وقد يزيد عليه من فصائل نباتية توجد في أعماق البحار والغابات التي لم تطأها أقدام البشر ولم يكتشف نباتاتها ، وهذا يقال بأن عدد فصائل النباتات قد يصل إلى المليون ^(١) ، ولكل فصيلة منهج وبرنامج خاص ، كما أنّ لكل عجائب كثيرة.

(١) يقول فردينا ندلين كاتب (عالم الأرض) : يبلغ عدد فصائل كاسيات البذور مائة وخمسين ألف. وقد ورد في بعض مصادر علم النبات شرح مفصل لأكثر من ثمانية عشر الف نبات ومائة ألف فطر وأكثر منأربعين ألف طحلب وسبعين ألف نوع من التفاح وخمسة وثلاثين نوع للحنطة.

كما أورد بعض العلماء شرحاً لثلاثة آلاف فصيل من النخيل وألفاً وسبعمائة للتين وألفاً ومائتين لورد

هناك نباتات تتشكل من زهرة فقط ، أي أنها لا تحتوي على غصون وأوراق وغير ذلك بل كل ما هناك زهرة تنبت مباشرة على الأرض. والأعجب من ذلك هو النباتات الآكلة للحوم ، فهي تحس وتحريك ، وعند ما يقترب منها حيوان تلف غصونها وأوراقها حول ذلك الحيوان لتلتقطمه وتبتلعه.

كل من هذه النباتات معلمٌ من معالم القدرة الإلهية ، يسلّم بها حتى المنكرون لو فتحوا أعينهم وأبصروا بها ، فإن آثار الله تجدها كل مكان لكن رؤيتها تحتاج إلى عين باصرة.

٢ . ما هي الباقيات الصالحات؟

ذكر المفسرون احتمالات عديدة للباقيات الصالحات ، نشير إلى خمسة منها :

الف : المراد هو الصلوات اليومية الخمس^(١) ؛ لأنها أعمال صالحة وخالدة كذلك ، فالصلاحة تعم كل مكان اقيمت فيه من البيت والدائرة والمجتمع والبلد ، والمكان الذي لا تقام فيه صلاة يخرب ويُدمَر. الصلاة إذا وجهت القلب الذي هو مركز الاضطرابات والقلق نحو الله طمانته وسكننته^(٢) ، وملخص الكلام هو أنها معيار قبول أو رد الأعمال وبقى العادات^(٣).

باء : المراد من الباقيات الصالحات هو الذكر الشريف التالي : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَر﴾^(٤).

هذا الذكر ينزع الله تعالى عن كل عيب ونقص ويوصفه بصفات الكمال ، ورب بهذه الصفات جدير بالحمد والثناء ؛ لأنَّه الوحد المتصف بهذه الصفات الكمالية والوحيد الذي هو جدير وأهل للعبادة ، ولا معبود غيره ، وهو أرفع شأنًاً مما نصفه به وممَّا نظن ونتصور وأعظم من أن تخذله أفكارنا.

وبعد آلاف للتتفاخ.

يا له من تنوع عجيب! يا لها من عظمة! يا له من خالق مدبر! للمزيد راجع نفحات القرآن ٢ :

.٣٥٨ . ٣٥١

(١) انظر تفسير جوامع الجامع ٢ : ٣٦٧.

(٢) الرعد : ٢٨.

(٣) ميزان الحكم ، الباب ٢٢٦٥ ، الحديث ١٠٢٣٣ والباب ٢٢٧٣ .

(٤) انظر تفسير الميران ١٣ : ٣١٥.

جيم : المراد منها صلاة الليل ^(١) ، فهي صلاة تحضى بأهمية كبيرة ، وكل ما قلنا فيها كان قليلاً ، يقول الله في هذا المجال :

﴿وَمِنَ الظَّلَلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَنَا رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ ^(٢).

بلغ المقام الحمود غير ميسّر حتّى للرسول ﷺ إلا من خلال صلاة الليل. بالطبع لا ينبغي للإنسان أن يأتي بجميع آداب ومستحبات صلاة الليل وبخاصة بالنسبة إلى أولئك الذين قصدوا تواً نيل هذه السعادة العظمى بل يكتفي بهم الاتيان بأحد عشرة ركعة بنحوها العادي والمأثور ، رغم أن الذي يأتي بباقي آدابها ومستحباتها سينال قسطاً أوفر من الثواب عند الله قطعاً.

أتمنى التوفيق للقيام بهذه العبادة الكبيرة لكي يتسمى لنا الإحساس بذلك بلوغ المقام الحمود تدريجياً.

DAL : فسر بعض المفسّرين الباقيات الصالحتات بالبنات الالاتي يتم تربيتها بالآداب الاسلامية ليصبحن امهات نموذجيات ^(٣) ؛ لأنهن منشأ أمل لوالديهن في عالم الآخرة.
HAE : نقرأ في رواية وردت عن الإمام الصادق عاشراً أن حبّ أهل البيت وولايته من مصاديق الباقيات الصالحتات ^(٤).

هذه خمسة تفاسير مختلفة للباقيات الصالحتات ، لكن تقدّم منها أنّ هذه التفاسير رغم تضادها الظاهري غير متضادة ولا متنافية في الواقع ، ويعكن شمول الباقيات الصالحتات لها جائعاً من خلال القول بأن كلاً من التفاسير التي ذكرناها والتفسير التي لم نذكرها ^(٥) بمثابة المصادر لباقيات الصالحتات ^(٦) ، فإنّ لهذا العنوان مصاديق متعددة ومختلفة.

(١) انظر البيان في تفسير القرآن ٧ : ٥٢ .

(٢) الاسراء : ٧٩ .

(٣) انظر مجمع البيان ٥ : ٤٧٤ .

(٤) انظر الأمثل ٩ : ٢٥٣ .

(٥) راجع مجمع البيان ٦ : ٤٧٣ و ٤٧٤ .

(٦) كما يرى ذلك المرحوم الطبرسي في مجمع البيان في العنوان المتقدّم والعلامة الطباطبائي في الميزان ١٣ : ٣١٥ .

والنتيجة هي أن لا يتعلّق الإنسان بدنياه الفانية والعاجلة بل عليه التعلّق بالباقيات الصالحات.

مباحث تكميلية

١ . ما هي الحياة الدنيا؟

الدنيا مؤنث أدنى ، والحياة في عبارة **«الحياة الدنيا»** مؤنث موصوف ، والدنيا صفتها.

الدنيا والأدنى يعنيان القرب وقد تعني الدنائة والوضاعة. وبهذا يكون معنى الجملة الحياة القريبة ويعتقدها الحياة البعيدة أي الآخرة ، أو بمعنى الحياة الوضيعة والدنيئة ، ويقابلها الحياة العليا والرفيعة ، أي الآخرة.

الدنيا مجموعة من الامكانيات المادية من قبيل الشروة والمال والمقام والزوج والولد والمنزل والسيارة والامور الأخرى التي تحضى بأربع خصال :

- ١ . فانية وغير دائمة ، كما اشير إلى ذلك في كثير من الآيات والروايات.
- ٢ . خادعة وذات مظهر جذاب ، فهي جميلة وفاتنة جداً إذا نظرنا إليها من بعيد.
- ٣ . جوفاء ، أي رغم ظاهرها الجذاب بخدها . عند الاقتراب منها . جوفاء خالية ، كالسراب الذي يبدو ماءً من بعيد ، لكنه لا شيء في الواقع ومن قريب.
- ٤ . ممزوجة بمختلف المشاكل والمصائب ، فلا تخلو الحياة من المشاق والمتابع أبداً.

مجموع ما تقدّم مع هذه الخصائص الأربع يشكل الحياة الدنيا ، رغم ذلك فائحاً إذا اتّخذت صبغة إلهية والتزمت الأهداف السامية والعليا فلا تبقى دنيا بل تصبح آخرة.

عن ابن أبي يعفور : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إنّا لنحبّ الدنيا ، فقال لي : «تصنع بها ما ذا»؟ قلت : أتزوّج منها وأحتج وأنفق على عيالي وأنيل إخواني وأتصدق ، قال لي : «ليس هذا من الدنيا ، هذا من الآخرة» ^(١).

إذن ، إذا اتّخذت الحياة لغرض الالتذاذ المادي ولتلبية الشهوات والأهواء كانت عبادة

(١) ميزان الحكم ، الباب ١٢٢٢ ، الحديث ٥٨٢٥.

للدنيا ، وإذا اتّخذت جسراً لبلوغ الأهداف المعنوية السامية كانت آخرة.

٢ . الدنيا من وجهة نظر الروايات

في الروايات نجد مباحث كثيرة وواسعة عن الدنيا ، بل يمكن القول بأنَّ الدنيا من أوسع المباحث المطروحة في الروايات.

من المباحث المطروحة في الروايات عن الدنيا هو التمثيل لها ، نشير إلى نماذج منها.

الف : يقول الإمام الكاظم عليه السلام :

«مُثُلُ الدُّنْيَا مُثُلُ مَاءِ الْبَحْرِ كُلُّمَا شَرَبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ ازْدَادَ عَطْشًا حَتَّىٰ يَقْتَلَهُ»^(١).
وفقاً لهذا الحديث كون الدنيا لا تروي عطش أيٌّ من عَبْدَةِ الدُّنْيَا ، وإذا ظنَّ أَحَدُ أَهْلِهِ سِيقْتَنَعُ ، بِمَسْتَوَىِ خَاصٍ مِنْ مَسْتَوَيَاتِ الدُّنْيَا وَمَقَامَاتِهَا فَإِنَّ ظَنَّهُ وَهُمْ وَخِيَالٌ لَا أَكْثَرُ ، وَمِنْ الْمَحَالَاتِ ، وَعَكْسِهِ ، أَيْ طَلْبِ الزِّيَادَةِ ، هُوَ الْوَاقِعُ الصَّادِقُ.

لم يبلغ أُتْرِياءُ الدُّنْيَا الْكَبَارُ مَسْتَوَاهُمُ الْمَعَاشِي وَدُنْيَاهُمُ الدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ ارْتِكَابِ جَرَائِمٍ تَنْفَرُ النَّفْسَ لِبِيَانِهَا فَضْلًا عَنْ أَرْتِكَابِهَا ، وَقَدْ أَعْدَوْهَا لَهُمْ إِثْرَ هَذِهِ الْجَرَائِمِ حَيَاةً كَمَالِيَةً اسْطُورِيَّةً يَصُعبُ تَصُورُهَا عَلَى الآخَرِينَ ، فَقَدْ قَيْلَ فِي بَعْضِهِمْ أَنَّ لَهُ حَوْضٌ سَبَاحَةٌ فِي طَائِرَتِهِ الْخَاصَّةِ.
لَكِنْ يَا تَرَى هَلْ يَشْبَعُونَ؟ وَهَلْ ذَلِكَ يَرْوِي ضَمَائِمَ؟ كَلَّا ، إِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ لِاِكْتَسَابِ الْأَكْثَرِ فَالْأَكْثَرِ دَائِمًا ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ يَقْتَحِمُونَ كُلَّ مَحَالَاتِ التِّجَارَةِ مَهْمَا كَانَتْ ، فَيَتَاجِرُونَ بِالْأَسْلَحَةِ الَّتِي يُقْتَلُ بِهَا الْمَذْنُوبُونَ وَغَيْرُ الْمَذْنُوبِينَ سَوَاءً ، كَمَا يَتَاجِرُونَ بِالْأَسْلَحَةِ الْكِيمِيَاوِيَّةِ الَّتِي يَكْفِي قَذِيفَةً مِنْهَا لِقَتْلِ الآلَافِ مِنَ الْمَدْنِينِ الْعَزَلِ بِأَبْشَعِ وَجْهٍ ، فَيُضِيقُ الْعِيشُ عِنْدَئِذٍ لَا عَلَى الْبَشَرِ فَحَسِبٌ بَلْ عَلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَاةِ ، رَغْمَ ذَلِكَ فَهُمْ غَيْرُ مَكْتَرِثِينَ بِالْعَوَاقِبِ الْمُفْجِعَةِ وَالْوَحْشِيَّةِ لَهُذِهِ الْأَعْمَالِ وَالْتِجَارَةِ ، وَمَا يَهْمِهِمْ هُوَ زِيَادَةُ أَرْيَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ .
إِنَّهُمْ مُسْتَعْدُونَ . لِإِرْوَاءِ عَطْشَهُمْ تَجَاهُ الدُّنْيَا لَأَنَّ يَتَاجِرُوا بِالْمَخْدُراتِ وَأَنْ يَحْطُّمُوا عَوَائِلَ وَمَجَامِعَ وَيُسْلِبُوا الشَّبَابَ إِرَادَتَهُمْ بِهَذِهِ الْمَوَادِ ؛ وَذَلِكَ لِأَجْلِ زِنْخَرَفَةِ دُنْيَاهُمْ أَكْثَرُ فَأَكْثَرَ .

(١) ميزان الحكمة ، الباب ١٢٥٣ ، الحديث ٦٠٠٩ .

فيشترون الأطفال . سواء بناط أو بنين . من الدول الفقيرة وبمبالغ زهيدة ليعوضونها بمبالغ طائلة للممولين وأصحاب الأهواء من أمثالهم ، وهي عملية تختلف آلاماً وحسرات ، حيث يبقى الوالدان يتحسّران على رؤية ولدهم ويتحملون حرقة فراقه إلى آخر العمر . ولا يفهمون ذلك ؛ لأنَّ هدفهم زيادة المال وإناءه .

يا لهم من اناس دنيعين؟ لكن لماذا هم كذلك؟

يمكن الإجابة على ذلك بالقول : إنَّهم لا يفكرون بغير الدنيا ولذاتها المتنوعة ، ولا علاقتهم بشأن الدين والشرف والانسانية ، وقد قُيِّد وحدانهم البشري في زنزانة الحرص والطمع وطلب الزباد ، ودُفنت فطرتهم تحت تلٍّ من الرذيلة والدناءة .

باء : يقول سابع إمام للشيعة موسى بن جعفر عليهما السلام واصفاً الدنيا :

«مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَاةِ مَسْهُلًا لَّيْنَ وَفِي جَوْفِهَا السُّمُّ الْقَاتِلُ»^(١).

هذا الحديث يشير إلى خداع الدنيا ويشبهها بالحياة ذات المنظر الفاتن والباطن المسموم والقاتل .

جيم : يقول الإمام علي عليه السلام :

«إِنَّمَا الدُّنْيَا شَرَكٌ وَقَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُه»^(٢).

وياله من شرك واسع وكبير يسع لصيده وقرباني مختلفه ومتنوعة !

DAL : كما يقول أول أئمة الشيعة :

«الدُّنْيَا ظُلُلُ الْعَمَامِ وَحُلُمُ الْمَنَامِ»^(٣).

يحكي هذا الحديث الشريف جانبًا من الدنيا ، وهو كونها زائلة وغير دائمة ، فهي من

قبيل

(١) ميزان الحكم ، الباب ١٢٥٣ ، الحديث ٦٠٠٥ .

هذا السم الذي تحدثت عنه الرواية من عجائب قدرة الله تعالى ، حيث يمكن ل قطرة منه أن تقتل حيواناً أو إنساناً ، فيما له من سم؟! ومن أي عناصر يتربّغ؟ وكيف يمكنه أن يقتل حيواناً تلدغه الحية ولا يقتل ذاتها مع أنه موجود في جوفها .

(٢) ميزان الحكم ، الباب ١٢٥٣ ، الحديث ٦٠١٢ .

(٣) ميزان الحكم ، الباب ١٢٦٢ ، الحديث ٦٠٥٤ .

الظل الذي تفتعله الغمام ، وهو ظلٌّ سائر وغير دائم ولا ثابت في محل ما ، فلا يمكن اللجوء إليه هروباً من حرارة الشمس.

الدنيا منام يراه الانسان النائم ، وهو خيال أجوف ، من قبيل رؤية الانسان لكتوز كثيرة يمتلكها ، ولا يجد لها ولا آثارها في اليقظة.

إذن ، الدنيا فانية ، كما أنها جوفاء وخالية من المحتوى.

هاء : في حديث يصف لقمان الحكيم الدنيا لابنه كما يلي :

«إنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرَقَ فِيهَا عَامٌ كَثِيرٌ» ^(١).

الذي يغرق إما أن يصبح طعاماً للحيوانات البحرية أو أن أمواج البحر تلقي به إلى أماكن بعيدة ، بحيث لا يقوى منه أثر. والدنيا تفعل بالانسان كما يفعل البحر بالغريق ، فهي قاسية وغير وفيّة.

عاش في هذه الدنيا أقوام ونحل كثيرة لا نجد لها أثراً حالياً ، فهي قد غرقت في بحر الدنيا ، فعلينا البحث عن وسيلة نجاة من بحر الدنيا يطمئن إليها ننقذ بها أنفسنا من الغرق.

واو : يقول الامام علي عليه السلام فيما يخص أهل الدنيا :

«أَهْلُ الدُّنْيَا كَرْكِبٌ يُسَارِبُهُمْ وَهُمْ نِيَامٌ» ^(٢)

عبدة الدنيا يقضون حياتهم في نوم الغفلة ، وقد أدهشتهم شهوات الدنيا ولذاتها ، لذلك لا يصطحبون معهم متابعاً في سفرهم نحو الآخرة ، يستيقظون عند ما يشعرون بصفعة الأجل ، عندها يندمون ويأسفون ، لكن ذلك لا يفيدهم ؛ لأن زمن التدارك قد مضى وولى.

زاء : يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بمثل جميل ويقول :

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ^(٣).

يحكم المؤمنين قيود كثيرة في الدنيا ، هي من قبيل الحلال والحرام ورضا الله وغضبه والحرمات والواجبات ، وهي قيود تحدُّ من نشاطات المؤمنين كثيراً ، أمّا الكفار فهم في حلٍّ من

(١) ميزان الحكم ، الباب ١٢٦٣ ، الحديث ٦٠٥٦.

(٢) ميزان الحكم ، الباب ١٢٥٤ ، الحديث ٦٠١٧.

(٣) ميزان الحكم ، الباب ١٢٤١ ، الحديث ٥٩٣٣.

جميع هذه القيود ، فهم أحرار والأهواه هي التي تحكمهم ، ولذلك يُعد المؤمن سجين الدنيا في زناة تتحطّم عند الموت لتحقّق روحه منها نحو الحرية. وهذا هو السبب في أنَّ أولياء الله يتطلّعون إلى الموت ويعدونه فوزاً «فُزْتُ وربُّ الكعبة» أو يتمنّونه «اللَّهُمَّ عَجِّلْ وفاتِي سرِيعاً» ، فهم يستقبلون الموت برحابة صدر ولا يهابونه أبداً.

إذا كان دفتر أعمال الإنسان أبيض كان الموت نعمة له ؛ لأنَّه يتحلّص عنده من الدنيا المفعمة بالمصادف والفحاخ الشيطانية ، ويتحلّص كذلك من قيود الدنيا ليبلغ نعمة الحرية التي ينالها المؤمن في الآخرة.

حاء : يصف النبي عيسى عليه السلام الدنيا كما يلي :

«إِنَّمَا الدُّنْيَا قَطْرَةٌ فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا»^(١).

الدنيا ليست هدفاً ولا غاية ، بل وسيلة ، والنظر إلى الدنيا من هذه الزاوية يُعد إيجابياً جداً ، ونرتكب خطأً كبيراً إذا نظرنا إليها كهدف وغاية. لذلك شبهها النبي عيسى عليه السلام بالجسر الذي ينبغي العبور عليه لا المكث فيه ، فالعامل لا يبني متذلاً على الجسر ، فهو ليس ملماً للتوقف والعيش ، والعجيب إذا صدر ذلك من الإنسان.

في هذا المجال ورد حديث عن الإمام علي عليه السلام يقول فيه : «عجبت لعامر الدنيا دار الفناء وهو نازل دار البقاء»^(٢).

طاء : ينقل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام مكاشفة عن أمير المؤمنين عليهما السلام فيما يخصُّ الدنيا الدانية ، حيث يقول :

«إِنِّي كُنْتُ بِفَدْكَ فِي بَعْضِ حِيطَانِهَا ، فَإِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ قَدْ قَحَّمْتُ عَلَيْ وَفِي يَدِي مَسْحَةً وَأَنَا أَعْمَلُ بِهَا ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهَا طَارَ قَلْبِي مَمَّا تَدَخَّلَنِي مِنْ جَمَالِهَا فَشَبَهَتْهَا بِثُيُونَةِ بَنْتِ عَامِرِ الْجَمْحِيِّ وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ فَرِيشَ ، فَقَالَتْ : يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ ، هَلْ لَكَ أَنْ تَنْزُوَنِي فَاغْنِنِي عَنْ هَذِهِ الْمَسْحَةِ وَأَدْلِكَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَيَكُونُ لَكَ الْمَلْكُ مَا بَقِيَتْ وَلَعْقَبَكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ فَقَالَ لَهَا : مَنْ

(١) ميزان الحكمة ، الباب ١٢٥٩ ، الحديث ٦٠٣٣.

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ١٢٥٤٩ ، الحديث ٦٠٣٥.

أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقلت : أنا الدنيا. قال : قلت لها : فارجعي واطلي زوجاً غيري». ثم أنسد عليهما أبياتاً جميلة في ذمها ^(١).

تقدّمت تسعه من الأمثال الواردة عن الدنيا على لسان المعصومين واذا جمعناها إلى الآية تصبح عشر أمثال جميلة تعكس بوضوح الجوانب والخصائص الأربع التي ذكرناها للدنيا. اللافت أن المعصومين أينما تحدّثوا عن موضوع بيتهونه بنحو واف لا لبس ولا نقص فيه ، وبه تتم الحجة على الجميع بحيث لا يمكن لأحد أن يدّعى عدم العلم أو المعرفة.

٣ . ما سبب ذم الروايات الدنيا؟

كثرة مذمة الدنيا من قبل الروايات إشارة منها إلى نقطة جاءت في نفس الروايات تحدّد فلسفة وعلة هذه المذمة ، على سبيل المثال جاء ما يلي في رواية وردت عن الوجود المقدس للإمام الصادق عليهما السلام :

«رأس كل خطيئة حب الدنيا» ^(٢).

هذه الرواية تُرجع الذنوب كلها (وهي من قبيل السرقة والتهمة والغيبة والاستهزاء وإيذاء المؤمن والزنا واللواط والاعتداء على الآخرين وترك الواجبات و فعل المحرمات) إلى حب الدنيا وعبادتها.

وفي رواية لافتة وجميلة يقول الإمام الكاظم عليهما السلام :

«إعلم أن كل فتنة بذرها حب الدنيا» ^(٣).

وفي رواية يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أكبر الكبائر حب الدنيا» ^(٤).

(١) ميزان الحكم ، الباب ١٢٥٣ ، الحديث ٦٠١٥.

(٢) ميزان الحكم ، الباب ١٢٢١ ، الحديث ٥٨١٥.

(٣) ميزان الحكم ، الباب ١٢٢١ ، الحديث ٥٨١٣.

(٤) ميزان الحكم ، الباب ١٢٢١ ، الحديث ٥٨١٤.

تحليل الروايات

الدنيا محل التزاحم عكس الآخرة ، فلا تزاحم فيها ، وبعبارة أخرى : للتزاحم مجال في الامور الدنيوية ، ولا يتصور هذا التزاحم في الامور المعنوية. وعلى سبيل المثال إذا كنت حافظاً للقرآن فلا يتزاحم ذلك مع حفظ القرآن من قبل الآخرين حتى لو حفظه نساء الدنيا ورجالها جهيناً. وعكس ذلك في الأمور الدنيوية فإذا كنت مالكاً لقطعة من الأرض ، تزاحم ذلك مع ملك شخص آخر لنفس الأرض. أي هناك تزاحم بين ملكك وملك الآخرين أو إذا كان زيد رئيساً للجمهورية فلا يمكن لعمرو أن يكون رئيساً للجمهورية كذلك.

وهما أنَّ هذه الدنيا دار تزاحم كانت سبباً للذنوب. وامكانيات الدنيا لو قسمت بعدلة بتكافؤ لأمكن للجميع الاستفاده منها بالنحو المطلوب إلَّا أن طلاب الزيادة وعبدة الدنيا حالوا دون حصول تعادل في توزيع الامكانيات ووفرّوا الأرضية للتعدي والتتجاوز على الحقوق ، وبذلك تندرس حقوق الضعفاء وتضييع. وهذا هو تصوير كون الدنيا منشأً للذنوب .

إذن ، لو اقتنع الإنسان بما لديه وأخذ القناعة كمنهج حياته حفظ نفسه بعيداً عن التلّوث بكثير من الذنوب.

المثل الرابع والثلاثون :

تنوع أمثال القرآن

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١)

تصوير البحث

خلافاً لباقي الأمثال حيث تحدثت عن عينيات خارجية فان الحديث في هذه الآية عن المسائل الكلية وتنوع أمثال القرآن ، لعل هذه الأمثال تقع بتعديها وتنوعها الانسان الجاحد والمحادل وتحديه إلى الصراط المستقيم.

هل هذه الآية من أمثال القرآن؟

اختلف المفسرون في هذا الباب ، فبعض عدّها من أمثال القرآن وبعض آخر رفض إدراجها في الأمثال ، وبرأيي أن الإجابة على هذا السؤال يتوقف على كيفية تفسيرنا لأمثال القرآن ، فإذا كان المراد من المثل التمثيل بشيء ذي عينية خارجية ، كما هو حال الكثير من أمثال القرآن ، كانت هذه الآية خارجة عن نطاق المثل ، وإذا كانت الإشارة الكلية إلى أمثال القرآن كافية في صدق المثل اندرجت هذه الآية تحت هذه الأمثال ؛ لأن هذه الآية تشير إلى تنوع الأمثال القرآنية.

(١) الكهف : ٥٤.

يُذكر أن بعضاً مِنْ كتب في أمثال القرآن أحطأ هنا ، ومع احترامي له أقول : لا ينبغي عد الآية مثلاً بمجرد تضمنها مفردة (مثل) ، فقد جاء في الآية :

﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ ^(١) رغم ذلك لا علاقة للآية بالأمثال القرآنية ، بل تحدثت

عن إعجاز القرآن الجيد.

كما وردت مفردة (مثل) في الآية التالية : **﴿لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأَنْثَيَّنِ﴾** ^(٢) وهي كذلك لا علاقة لها بأمثال القرآن ، بل الحديث فيها عن الإرث.

ومن جانب آخر ، هناك البعض من أمثال القرآن لم تستخدمن فيها مفردة (مثل) ، رغم ذلك يعدها الجميع من الأمثال.

النتيجة : وجود أو عدم وجود مفردة (مثل) لا يدل على كون الآية من الأمثال أو ليست من الأمثال ، بل المثل هو أن تبين الآية معنى عقلياً معقداً في قالب أمرٍ محسوس يسهل استيعابه للجميع.

الشرح والتفسير

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾

مفردة **﴿صَرَفْنَا﴾** من مادة التصريف ويعني التبديل والتغيير ، ولذلك يقال صرافاً لمن يبدّل النقد من عملة إلى أخرى فيبدل الدينار بالدولار أو بالعكس مثلاً.

وقد اطلق اصطلاح (علم الصرف) على العلم المعروف ؛ باعتبار كونه علمًا يعني بتبدل الكلمة إلى أشكال وصيغ مختلفة من الماضي والمضارع واسم الفاعل والمفعول والجمع والتشيئة والمذكر والمؤنث والمخاطب والغائب وغير ذلك.

يقول الله في هذه الآية : إِنَّا بَيَّنَاهُ أَمْثَالًا مُخْتَلِفةً وَمُتَنَوِّعَةً لِلنَّاسِ ، وَبَيَّنَاهُ الْمَوْضُوعَ الْمُتَحْدَدَ بَاشْكَالٍ وَصَيْغَاتٍ مُخْتَلِفةً وَمُتَنَوِّعَةً لِعَلَى الْإِنْسَانِ يَهْتَدِي بِهَا إِلَى رَبِّهِ.

(١) البقرة : ٢٣ .

(٢) النساء : ١١ .

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثُرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

ما ذا يعني الجدل؟

الجدل يعني قتل الحبل فتلاً جيداً ، كما يطلق على المتصارعين ، باعتبار اشتداد وافتال أحدهما بالآخر ، كما يطلق على نقاش شخصين في القضايا الفكرية والمنطقية ، حيث تُقتل أفكار كلٌّ منهما بالآخر وتلتجم.

النتيجة : كون الجدل في البداية اطلاق على قتل الحبل وشده ثم توسيع هذا المفهوم ليشمل كل افتال مادي حتى لو كان من قبيل تصارع شخصين ، ثم اطلق على مفهوم أوسع ليشمل افتال الأفكار بالنحو المشار إليه في الأسطر المتقدمة.

استخدم القرآن ولغرض هداية الإنسان أمثلاً متعددة ومتنوّعة ، لكن الإنسان رغم ذلك يجادل في الحق ويقف أمامه أكثر من أي موجود شاعر آخر. الإنسان موجود مجادل ، هذا هو سبب عدم تسليمه للحق وهو سبب جحود البعض في صدر الإسلام وعدم إيمانهم رغم سماعهم آيات القرآن من الرسول ﷺ ورؤيتهم إيهام كل يوم ، وظلوا هكذا حتى الموت. وقبال هؤلاء اناس آمنوا بمحمدٍ سمعاً لهم آية من آيات القرآن دون أن يروا الرسول ﷺ .

سبب ذلك واضح ، فالذين لم يؤمنوا كانوا انساناً مجادلين يقلبون الحقائق بالجدل ، أمّا أولئك الذين آمنوا بالرسول بحرّ جرعة واحدة من جرعات الهداية دون أن يروا الرسول فقد كانوا يبحثون عن الحقيقة والمهدى ، وهذا هو الشرط الأساس للهداية.

أشار الله إلى هذا الموضوع المهم في بداية سورة البقرة وعبر جملة قصيرة حيث قال :

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبِّ فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ؛ وذلك لأن المراد من التقوى في هذه الآية ليس المعنى المألوف والمصطلح بل المتقين هنا هم أولئك الذين خلت قلوبهم من العناد واللجاجة والجدل ، فالقرآن بالنسبة إلى هؤلاء سبب للهداية ، أمّا أصحاب اللجاجة والعناد مما يزيدهم القرآن إلا ضلالاً فضلاً عن أن يكون سبباً لهدايتهم.

أمثال أبي هب وأبي جهل لم ينهلوا من القرآن شيئاً ، وذلك لأنهم كانوا يفقدون أرضية التهل من بركات ونعم هذا الينبوع ، فإن قابلية القابل شرط مضافاً إلى فاعلية الفاعل ، فكما أنَّ

نزول قطرات الغيث الشفافة شرط لنمو النباتات كذلك الأرض المعدّة والخصبة شرط لنمو النباتات.

خطابات الآية

١ . تنوع أمثال القرآن

سؤال : لماذا استخدم القرآن أمثلة متنوعة؟ ولما ذا بين مطلبًا ومضمونًا واحدًا بقولب متباعدة؟ تارة يمثل بالحيوانات وأخرى بالصالحين أو الفاسدين وأخرى بالنباتات أو نور الشمس وما شابه ذلك ، فما سبب هذا التنوع؟

الجواب : ذهنية الأشخاص تختلف كاختلاف أشكالهم الظاهرة ، فشخصيات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب والتحليل وأذواقهم وثقافتهم مختلفة ، وإذا أراد المتكلّم أن يتوفّق ويؤثر في المخاطبين فعليه صياغة كلامه بقولب مختلف ومتّوّعة ناظراً في ذلك إلى قابليات المخاطبين ؛ لأنّ منهاجاً في البيان قد يكون مؤثراً في الشباب وغير مؤثر في الكهول أو بالعكس ، وقد تؤثر جملة في شخصٍ امّي ولا تؤثر في المثقف ، وقد تكون بعض المطالب مؤثرة في النساء غير مؤثرة في الرجال وهكذا.

إذن ، على المتكلّم أن يلاحظ هذه النقطة المهمة وينوع في أساليب بيانه سعياً في التأثير على جميع المخاطبين ويعتّل مختلف مستوياتهم.

مخاطبو القرآن المجيد اناس كانوا عهد البعثة ، وسيكون له مخاطبون إلى يوم القيمة وفي أرجاء المعمورة وبأذواق وأفكار ومستويات وتطلعات ومعلومات مختلفة فاستخدم أمثالاً متنوعة علمًا منه باختلاف البشر في مختلف الجوانب. وبعبارة أخرى : إنَّ كتاباً من هذا القبيل لا يمكنه أن يتحدّث بأديبيات واحدة مع اختلافات وتنوع مخاطبية ، بل عليه توسيع أدبياته ليستوعبه الجميع.

على سبيل المثال تحدّث القرآن عن نفسه بأنحاء مختلفة ، ففي مورد يقول :

جاءكم من الله

نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ^(١) فشيئه نفسه بنور الشمس حيث ينفذ في كل مكان ويؤثر أثره حيث ينفذ.

وفي مورد آخر يشبه نفسه بالشجرة ذات الجذر والأصل الثابت والتي تثمر في كل وقت وفصل ، حيث يقول :

﴿إِنَّمَا تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةَ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ إِنَّمَا تُؤْتَى أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(٢).

القرآن الكريم هو من ضمن التفاسير الواردة للكلمة الطيبة ^(٣) ، فإنَّه بمثابة الشجرة المشمرة والطيبة دائمة وعامة البركات ويمكن للجميع الاستفادة منها ، كُلُّ حسب قابليةه.

وفي مورد آخر تحدث القرآن عن سعة كلامه الحق قائلاً :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا﴾ ^(٤).

القرآن المجيد من التفاسير الواردة في هذه الآية ^(٥).

إنَّ بطون القرآن ومفاهيمه وتفاصيله ومصاديقه الجديدة كثيرة جداً بدرجة لا يكفيها استخدام بخار الأرض كمداد وحبر للكتابة.

عندما نراجع كلمات المعصومين عليهما السلام نجدهم قد انتهجو منهج القرآن في الكلام مع المخاطبين ، ويعبرون عن المطلب الواحد تعابير مختلفة ويستخدمون له بيانات متعددة.

على سبيل المثال عند ما يجيبون عن السؤال عن قدرة الله يجيبون أجوبة متناسبة مع قابليات الأفراد وقدراتهم على الاستيعاب ، لاحظوا النموذج التالي :

السؤال : قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : هل يقدر ربكم أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟

(١) المائدة : ١٥.

(٢) إبراهيم : ٢٤ و ٢٥.

(٣) انظر الميزان ١٢ : ٤٩.

(٤) الكهف : ١٠٩.

(٥) انظر مجمع البيان ٦ : ٤٩٨.

الجواب : يجيب الامام علي عليه السلام كما يلي : «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُنْسِبُ إِلَى

لكن هذا السؤال غلط من الأساس ؛ لأنَّ مفهوم هذا السؤال كون العالم كبيراً وصغيراً في ذات الوقت ، وهو من قبيل القول بأنَّ موجوداً طوله عشرين متراً وعشرون متراً في آن واحد ، فهذا تناقض محال. ولو طلبت من طالب أن يقسم عشرين جوزة بين ثلاثين طالباً على أن لا يصل لكلٍّ منهم أقل من جوزة كاملة ما استطاع الطالب فعل ذلك ، فهل التقصير منه أو من طلبتك غير الممكنة؟ طبعي أن لا تعكس هذه المسألة عجز الطالب بل أنَّ المسألة غلط.

الامام علي عليه السلام عند ما وجد في السائل ذهنية جيدة ومعرفة بمسائل من قبيل التناقض والامكان وما شابه أجابه بما تقدَّم من جواب.

ذات السؤال سأله آخر من الإمام الرضا عليه السلام فكان جواب الإمام الرضا عليه السلام مختلفاً عن جواب الإمام علي عليه السلام ، فقد قال له : «نعم وفي أصغر من البيضة ، وقد جعلها في عينك ، وهي أقل من البيضة ؛ لأنك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما ، ولو شاء لأعماك عنها»^(٢).

وجواب الإمام كان متناسباً مع عقلية المخاطب وقابليته وقدرته على الاستيعاب. النتيجة : هي ضرورة اختلاف الخطاب باختلاف المخاطب من حيث القدرة على الاستيعاب والقابلية على إدراك المفاهيم^(٣) ، وهذا لا يعدُّ نقصاً ولا يُحمل على قلة معلومات المتكلم بل يعد فناً عظيماً يكشف عن قدرة المتكلم على البيان ، ولذلك على مبلغينا أن يلموا بالسن جميع المخاطبين وعقلياتهم لكي ينفذوا في قلوب الجميع ويؤثروا أثراً وإلا فسيحرمون من الموقفية.

٢ . منع الجدال

الجدال والمراء عن غير حق حرام في الإسلام ، و يعد من الكبائر ، ولذلك لا يرضى

الإسلام

(١) بحار الأنوار ٤ : ١٤٣ ، الحديث ١٠.

(٢) البحار ٤ : ١٤٣ ، الحديث ١٢.

(٣) للمزيد راجع نفحات القرآن ٤ : ١٧١ فما بعدها.

بالمظاهرات إلَّا إذا قصد طرفاها اتضاح الحق والحقيقة وكانا يغشان عن الحق ، أمَّا إذا قصد كلُّ منهما التغلب على الطرف الآخر كان ذلك جدلاً محماً .
على المناظرين أن يتخلُّوا بشجاعة لقبول الحق ، وهذا هو المطلوب في الإسلام .
في مجال الجدال نقرأ آية وروايتين .

١ . جاء في الآية ٣ من سورة الحج :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَسْعَى كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾

يُجادل البعض حول التوحيد وحول الله تعالى دون أن يكون له علم ومعرفة في هذا المجال ، ويطلق مجادلاته عن هوى وهو سوء المُجادلُون يُعدون من أتباع الشيطان ؛ لأن الشيطان رائدُهم في هذا المجال ، وقد انحرف بواسطة الجدل ، عند ما أمره الله بالسجود بصحبة الملائكة امتنع عن السجود مستخدماً القياس وقائلاً لربه : خلقت آدم من تراب وخلقتني من نار ، والنار أفضل من التراب ^(١) . مع أن السجدة لم تكن لتربوية آدم عليهما السلام بل للروح الahlية التي نفخها الله فيه .

إذن ، جدال إبليس هو الذي جلب له الشقاء ، كما أنَّ المُجادلُون أتباع الشيطان المُجادل .

٢ . يقول رسول الله ﷺ في رواية :

«مَا ضَلَّ قَوْمٌ إِلَّا أُوتَقْوَى الْجَدَلَ» ^(٢)

وهذا الحديث يعني أن الجدل سبب الضلال .

٣ . يقول الإمام علي عليهما السلام في رواية قصيرة :

«الْجَدَلُ فِي الدِّينِ يُفْسِدُ الْيَقِينَ» ^(٣)

خلاصة ما تقدم كون الجدل غير المنطقى سبباً في الضلاله ومفسداً لليقين ، والمُجادلُون أتباع الشيطان ، وما علينا هو الابتعاد عن الجدل والتسليم إلى الحق والخضوع له .

(١) هذا مضمون الآية ١٢ من سورة الأعراف .

(٢) بخار الأنوار ٢ : ١٣٨ .

(٣) ميزان الحكمة الباب ٤٩٢ ، الحديث ٢٢٨٥ .

المثل الخامس والثلاثون :

التوحيد والشرك

الآية ٣١ من سورة الحج تشكل المثل الخامس والثلاثين ، وقد جاء فيها :

﴿وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُوي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ﴾

سَاحِقٌ

تصوير البحث

المثال يحكي موضوعاً هو موضع اهتمام جميع الأديان ، أي الشرك والتوحيد ، فقد شبههما هنا بالسماء والسقوط منها ، وسيأتي شرح ذلك.

الشرح والتفسير

﴿وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَانَمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾

في هذه الآية شُبِّهَ التوحيد بالسماء والشرك بالسقوط من السماء ذات الشمس والقمر والنجوم ، أي مصادر النور والضياء والبركات ، مضافاً إلى أن السماء نفسها تحضى بجمال وعظمة خاصة.

التوحيد مركز النور والعظمة الإلهية ويأتي للموحدين بالبركة والضياء ، أمّا الشرك فبمثابة السقوط من سماء التوحيد.

مع الالتفات إلى هذه المقدمة تقول الآية : اولئك الذين امتنعوا عن توحيد الله وجعلوا

شريكًا له وخرجوا عن صفوف الموحدين بمثابة الذي يسقط من السماء ، ومن الطبيعي أن لا يعيش الذي يسقط من السماء إلى الأرض.

﴿فَتَحْطَقُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّبْعُ وَفِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

المشرك الذي يسقط من السماء إلى الأرض لا ينحو ؛ لأنه سبيطلي . وهو معلق في الهواء . بأحد مصيرين نتيجة كلّ منهما الموت والفناء.

الأول : أن يقع فريسة للطيور الجوارح آكلات اللحوم والجيف ، بحيث كل طير منها تلتقم جزءاً من لحمه ، وعندها لا يصل إلى الأرض إلّا عظامه.

الثاني : إذا لم يبتل بالطيور المتقدم ذكرها فسيطلي بالأثناء برياح وعواصف تلقى في مكان بعيد لا يصله انسان لكي ينقذه.

وخلاصة الكلام أن المشرك شُبه في هذه الآية بالذي يسقط من السماء نحو الأرض ويطلي في الأثناء بطير حوار حلة لحوم أو رياح وعواصف تلقى به إلى مكان سحيق يستحيل على انسان الوصول إليه.

خطابات الآية

١ . ما المراد من الطير؟

لا يبعد أن يراد من الطير المتقدم ذكرها هو الأهواء^(١). المشرك مبتلى بالأهواء ، وبعض من الأهواء تذهب بماء وجه الإنسان ، وبعضها الآخر تذهب بانسانية الإنسان ، وبعضها الآخر تذهب بشجاعة الإنسان أو مرؤته أو غير ذلك ، وفي النتيجة لا يبقى من الإنسان المشرك شيء ، بل طير الأهواء والهوى والهوس تأكل كل ما لديه من شخصية وانسانية.

٢ . ما المراد من الريح

قد يكون المراد من الريح التي أشارت إليه الآية والذي يلقي الإنسان الساقط إلى

أماكن

(١) انظر الأمثل ١٠ : ٣٠٦

بعيدة يصعب الوصول إليها هو الشيطان الطاغي ^(١) ، فالمشرك إذا نجى من طيور الموى والهوس قع أسيراً بريع الشيطان العاصي فيأخذ به إلى حيث لا ناصر ولا معين يعيش الضلال والشقاء.

٣ . لا هدوء للمشرك

جاذبية الأرض من نعم الله علينا ، فهي تسبب أن يكون وزن لكل شيء ، ولو لاها لما كان استقرار وثبات لشيء في الكورة الأرضية. المنازل والمزارع والمعامل والمدارس والمستشفيات مستقرة في مكانها بسبب وزنها والجاذبية التي ترد عليها. وهذه الجاذبية خاصة بالأرض وتقلُّ كلما ابتعدنا عن الأرض ومركزها ، والأشياء تفقد أوزانها خارج ميدان جاذبية الأرض ، ولذلك يدخل رقاد الفضاء دورات تعليم وتأقلم على الفراغ والفضاء الخالي من الجاذبية قبل رحلتهم الفضائية لكي يستعدوا لقضاء مدة في الفضاء.

من سبل تجربة الفراغ وفقدان الجاذبية هو السقوط الحر من الأماكن المرتفعة ، عندها يجرّب الإنسان حياة لم يجرّ بها سلفاً ، وهذا يعتقد الأطباء أن كثيراً من الذين يسقطون من شاهق تحصل لهم سكتات قبل الوصول إلى سطح الأرض.

يشعر المشرك عند سقوطه من السماء بحالة الفراغ والخلو من الوزن ، وعندما تتابه أحاسيس الاضطراب تخيم على وجوده بالكلية ، ويبدو أن الذي ينفصل عن التوحيد ويتجه نحو الشرك يودع المدوع والطمأنينة ويلتقي بالاضطراب والقلق ، ولا يعود له الاطمئنان والمدوع إلا تحت ظل التوحيد وترك الشرك وعبادة الأصنام ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَعَظِّمُ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

وهذا أمر يقرُّ به حتى المشركون أنفسهم ، فقد جاء في الآية ٦٥ من سورة العنكبوت : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلُكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ؛ وذلك لأنَّهم يعلمون جيداً بأنه لا أحد سيرُجع لهم الطمأنينة غير الله ، فيدعونه مخلصين له ، أمّا الأصنام فيعلمون بعجزها عن إنقاذهن ، لكن

(١) انظر الأمثل ١٠ : ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

توحيدهم مؤقت ويعودون إلى الشرك تارة أخرى بعد ما يصلون إلى السواحل حيث ترسو سفنهم.

والخلاصة أن الشرك وعبادة الأصنام سبب للاضطراب والقلق ، والتوحيد سبب للطمأنينة والمدوى.

٤ . لا إرادة للمشرك

الانسان صاحب إرادة قبل السقوط ، لكنه عند ما يسقط ويعمل في الفضاء تنسلب عنه الإرادة ، ولا يستطيع تقرير شيء ، والمشرك عند ما يسقط من سماء التوحيد يكون كذلك ويفقد إرادته وقدرته على اتخاذ قرار.

أهمية التوحيد

التوحيد أهم مباحث القرآن المجيد وبباقي الكتب السماوية ، وقد دعى الانبياء وأوصياؤهم الناس إليه وحدّروهم عن الشرك وعبادة الأصنام.

لا مسألة أهم من التوحيد في التعاليم الدينية ، والشاهد على هذا آية من القرآن تكررت بالنص في موضعين من سورة النساء ، هما الآية ٤٨ و ١١٦ ، حيث جاء هناك :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

واللافت هنا أن المراد من الغفران هنا هو الغفران دون توبة ، أمّا مع التوبة فُغفر الشرك كذلك. فإنّ أكثر الصحابة باستثناء بعض قليل مثل الإمام علي عليه السلام كانوا مشركين ، وعندما أسلموا وتابوا غفر الله لهم.

إذا مات العاصي قبل أن يتوب فلا يغفر له إن كان مشركاً ولا أمل في غفرانه ، أمّا إن كانت معصيته اموراً أخرى غير الشرك فيحتمل أن يغفر الله له وأن يشفع له أولياء الله ، أمّا المشرك فلا يغفر له ولا يُشفع له ، فالشرك لا يقع موضع غفران ولا شفاعة. وهذا يكشف عن أهمية التوحيد وخطوره وعظمته في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فالتوحيد ينبع السعادات والشرك ينبع الشقاء ودمار لكل حسنة.

سؤال : ما سبب أهمية التوحيد؟ وما سبب ذم الشرك وبغضه إلى هذا الحد؟

الجواب : فلسفة الأهمية البالغة للتوحيد والذم الشديد للشرك هي امور مختلفة نشير

إلى بعضها :

الأول : أول أثر وبركة للتوحيد هو اتحاد المجتمعات البشرية. تختلف البشرية فيما بينها باللغات والأعراف والعقائد والأفكار والتقاليد والثقافة وما شابه ذلك ، وفي بلد مثل ايران حيث يشكل جزءاً بسيطاً من العالم توجد لغات عديدة وثقافات وأقوام متنوعة ، وقس عليه باقي أرجاء المعمورة ، فيها آلاف اللغات والقوميات والثقافات ، لكن يا ترى ما حلقة الاتصال بين البشر؟ وما نقطة الاشتراك بينهم؟ وإذا قررت الشعوب والحكومات العيش تحت ظل حكومة عالمية واحدة فما الذي يشتركون فيه؟

لا شك أن التوحيد المتجلّ في معتقداتهم الأساسية يشكل أهم عامل في اتحادهم ، فالتوحيد محور جيد جداً للاتحاد وحل متين يمكن للجميع أن يتمسك به.

يشير الله إلى هذا المطلب في الآية ٦٤ من سورة آل عمران قائلاً :

﴿فَلَمَّا أَهْلَكَ رَبُّكَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

تجلى هذه الوحدة في مراسم الحج على أرض الحجاز ، حيث يمكن مشاهدة الملايين من المسلمين من بلاد مختلفة وبألوان ولغات وثقافات وتقاليد متفاوتة جميعهم محتشدين هناك متوجهين نحو كعبة معبودهم ، يسدون كالنهر الشفاف قاصداً الالتحاق ببحر الوحدة اللامتناهي يبنعون من قلل الانسانية العالية ويلقون حول الكعبة معلنين خضوعهم وتسليمهم للحق تعالى.

في آخر صلاة جمعة قبل عرفة في مكة المكرمة يشترک أكثر من مليون مسلم ، وهي أعظم صلاة جمعة لل المسلمين في السنة ، يصطفون جميعاً في صفوف العبودية ويرفعون أيديهم دفعة واحدة داعين ربهم معظمنه ومجدينه ، فيركعون متّحدين ، ويسجدون متّحدين ، وبذلك

تشكل لقطات بدعة فريدة للاتحاد والتلاحم .^(١)

يا ترى كم ستزداد اللقطة جمالاً وبداعه لو أن رقعة الاتحاد تجاوزت المسلمين لتبلغ مستوى العالم ب مختلف ثقافاته ، تمسكاً بجبل الله .

إذن ، الاتحاد من الآثار المهمة للتوحيد ، وفي قبالة الشرك الذي يؤدي إلى التفرق والاختلاف . كان للعرب الجاهليين ثلاثة وستين صنماً ، وهذا يعني اختلافهم وتشتتهم إلى ثلاثة وستين فرقة صغيرة وانقسام مجتمعهم إلى هذا العدد رغم صغره ، ومن الطبيعي أن لا يخلو هكذا مجتمع من نزاع وجداول وصراع وقتل وعصيان وأن لا يكون له نصيب من السعادة والمهدوء ، لكن هذا المجتمع أَخْد وتماسك في ظل التوحيد وهداية الاسلام ورسوله ، وتفوق عندها على جميع المجتمعات .

الثاني : الأثر الآخر للتوحيد هو منحه للموحدين قدرة وقوة ، كما أن الشرك يسلب عن المشركين قدرتهم و يجعلهم عاجزين .

ما انفك المشركون عن حيَاة المؤامرات ضد الرسول ﷺ والمسلمين عند ما كانوا اقلية في مجتمع مكة ، فكانوا يأتون كل يوم بمؤامرة جديدة سعياً لإطفاء نور الاسلام وإخماد جذوته .

جاء رؤساء قريش لأبي طالب في يوم من الأيام لكي يعلموا وقف اطلاق النار . كما يصطلح عليه حالياً . مع الرسول ﷺ وبعد النقاشه الذي دار بين الطرفين قال الرسول ﷺ : مخاطباً أبو جهل : «أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم» ، فقال أبو جهل : ما هي وأبيك لتعطيكها وعشرون أمثالها؟ قال : «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون الأنداد من دونه»^(٢) .

لا زالت هذه العبارة التي أطلقها رسول الله ﷺ تشكل طريق حلٌ للبشر حيث عيوا الحروب والخلافات والنزاعات ؛ وذلك لأن الرجوع إلى شجرة التوحيد الطيبة هو الحل

(١) مَمَّا يؤسف له أن هذه الصلاة وهذا التجمع العظيم لا يستخدم لغرض حل مشاكل المسلمين في الوقت الراهن ، بل يقتصر الامام على ذكر مطالب تكررت على المسلمين منذ مئات الأعوام .

(٢) فروغ ابديت ١ : ٢٢٢ (بالفارسية) ، على أن السير نقلت هذا الحادث بأشكال شَيْء ، راجع المنظم ٢

٣٦٩ ، وكذا تفسير جمع البيان ٨ : ٣٤٣ .

الوحيد حلّ هذه المشاكل وبلغ السلطة المتزامنة مع العزة والأمان والمهدوء والطمأنينة والعدالة الحقيقة.

تعالوا نفكّر ونتأمل في كيفية تبديل الاسلام عرب الجاهلية في مكة والمدينة ، الذين كانوا غارقين بالاختلاف والتراوّعات الداميكية ، إلى اناسٍ مقتدرین وذوي عزة استطاعوا تحت ظلّ الاخوة والاتحاد أن يفتحوا شرق الأرض وغريها في أقل من نصف قرن؟ ألم تكن تلك العظمة ثمرة للتّوحيد والتّمسك بجبل الله؟

الثالث : التّوحيد يأتي بالمهدوء والطمأنينة إلى المجتمع. السبب الأساس للجرائم والمعاصي في الدنيا هو الشرك وعبادة الأصنام ، والشرك لا يقتصر على عبادة الأخشاب والاحجار بل يشمل كل عبادة لغير الله من المقام والهوى وما شابه ، فهذه كلها شرك نوعاً ما ، والانسان عند ما يعبد هذه الامور يغفل عن الله فيرتكب الكثير من الذنوب والمعاصي والجرائم.

تقدّمت الاشارة إلى رواية حكت أن الشيطان قبل أول درهم ودينار ضربا في الأرض ، ونظر إليهما ووضعهما على عينيه ثم ضمهما إلى صدره ثم قال : «أنتما قرّة عيني وثمرة فؤادي ما أبالي منبني آدم إذا أحبوكما أن لا يبعدوا وثناً ، حسي منبني آدم أن يحبوكما» .^(١)

لا زال الشرك رائجاً في عصرنا رغم حلول الفكر والتعقل مكان الجهل ، فكم من جرائم تُرتكب لأجل جمع المال واكتنازه؟ لا هدوء ولا أمان في مجتمعات هذا العصر ، بل النزع والاضطراب هو الحاكم فيها ، ولو كانت المجتمعات موحّدة حلّ فيها الأمان والطمأنينة والمهدوء.

لبلوغ المجتمع الموحّد علينا كسر أصنام أنفسنا ، وعلينا مراجعة معبد الأصنام الكائن في قلوبنا بين الحين والآخر لنكسر الأصنام التي تكونت فيها. ما أحلى القلوب التي شاءها شأن الكعبة بعد الاسلام حيث تكسّرت جميع الأصنام التي كانت فيها.

إنَّ قلوب البعض تشبه الكعبة قبل الاسلام حيث كانت تكتض بالأصنام ، لكن أصنامها من نوع الشروة والمال والنساء والأولاد والجاه والمقام والأمني وغيرها. القلب بيت الله علينا تطهيره من كل الأصنام ، ومن صدا الشرك لكي نشاهد من خلاله صاحب البيت الأصلي.

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٧٥٠ ، الحديث ١٩٠٢٦ .

المثل السادس والثلاثون :

عبدة الأصنام

جاء في الآية ٧٣ من سورة الحج :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الدُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾

تصوير البحث

هذا المثل حول الشرك والتوحيد ، كما هو حال المثل المتقدم ، وهما تنوع لبيان مطلب واحد ، لعل ذلك يفيد الجميع ؛ باعتبار اختلاف مستوياتهم. والله تعالى ضرب مثلاً هنا صور فيه ضعف وعجز الأصنام وعبدتها.

ماهية عبادة الأصنام

عبدة الأصنام من المسائل المعقدة ، يمكن الإجابة عن بعض أسئلتها التالية :

ما الأهمية التي كان يوليهها عبدة الأصنام لأصنامهم؟ هل كانوا يعدونها حالقهم ورهم؟
وإذا كان الجواب إيجابياً فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يعتبر شيئاً قد صنعه بيده
حالقاً له؟ وإذا كان الجواب سلبياً فما تبرير عملهم الجاهلي تجاهها؟
طرح القرآن الكريم هذه التساؤلات ، كما أجاب عنها.

جاء في الآية الثالثة من سورة الزمر :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفِي إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

كما جاء ما يلي في الآية ١٨ من سورة يونس :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَاعَانَا عِنْدَ اللَّهِ﴾

وفقاً لما ورد في هاتين الآيتين فائئم ما كانوا يعدون الأصنام خالقين ، بل كانوا يعتقدون بخالقية الله تعالى ، لكنهم كانوا يولونها قداسة خاصة ويعتبرونها شافعة وواسطة حيدة بينهم وبين رحيم ، فهي تشرع لهم. هذا شأن غالب المشركين ، لكن بعضاً قليلاً منهم كانوا يعدون الأصنام خالقين ، أمّا الأغلب فما كانوا يحملون هذه العقيدة ، وكانوا يعبدونها لأجل أن تقرّهم إلى الله خالقهم ، فيطلبون منها السعادة والسلامة والسعادة والبركة وما شابه ذلك ، وبذلك نسوا الله تدريجياً لتصبح الأصنام المعبد المستقل والمناجي الأصيل.

سؤال : البيانات المتقدمة أوضحت مدى تعقد عمل المشركين ، لكن يبقى سؤال

وهو : كيف يمكن للإنسان العاقل أن يسجد لشيء صنعه بيده ويعتبره واسطة ينال به من فضل الله ، ويعتبره مقدساً إلى درجة قد يضحي لأجله إنساناً آخر.

الجواب : لم تكن أصلالة للأصنام في الأيام الأولى من بداية عبادتها ، أي بداية الانحراف الكبير ، فقد كانت عندهم نموذجاً للمقدسات. على سبيل المثال لو جاء النبي أو وصي إلى بلدة عدّ عندهم واسطة بينهم وبين الله تعالى وحضي باحترام خاص ، باعتبار هذه العلاقة ، وعند ما يتوفاه الله يُصنع له نصب تذكاري لكي يستمر التقديس والاحترام ، لكن هذه العلاقة المفروضة تتناهى بمرور الزمان بحيث يتّخذ النصب ذاته طابعاً مقدساً ، ولا يتدعى في أذهان الناس العلاقة الأولى لصاحب النصب وخالقه ، بل يصبح النصب بذاته وعلى نحو الاستقلال مقدساً فيُعبد.

وهذا هو حال الانصاب والتماثيل التي تُصنع لغرض الإشارة إلى مصادر البركة والنور من الشمس والقمر وما شابه ، فإنها تُعبد تدريجياً وبعد مرور زمن. ومن هذا القبيل كذلك أن يؤتى بحجر من مكان مقدس مثل الكعبة فنوضع في مكان لكي يتذكّر الحاج سفره الروحاني إلى بيت الله متى ما انتبه إلى الحجر ، لكن بعد فترة من الزمن تُنسى هذه العلاقة ليصبح الحجر بعد رفع صنماً ومعبدًا بحد ذاته.

أو من قبيل ما يعتقد البعض من أن الله تعالى أرفع شأنًاً من أن تخيط به الأفكار ، ولا يمكن للأفكار أن تفعل ذلك ، ولا فائدة في رب لا تخيط به الأفكار ، لذلك ينبغي أن نبحث عن مخلوقاته التي هي في متناول أيدينا ويمكن للأفكار أن تخيط بها فنعبد بعضًا منها. وهذا مما نجده عند بعض الفرق الصوفية المنحرفة ، فالمرشد لهذه الفرق يقول لمريديه : عند ما تصلون للآية : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ في الصلاة تصوروا مرادكم ومرشدكم ، وهذا هو نقطة بداية الانحراف نحو الشرك.

على أي حال ، كان للأنبياء والرسل أطول مواجهة مع الشرك والمشركين ؛ لكون الشرك بلاءً كبيراً على الإنسانية في الماضي والحاضر.

أساليب مواجهة عبادة الأصنام

سؤال : ضرورة مواجهة الشرك وعبادة الأصنام أمر بديهي واضح ، لكن ما هي أساليب هذه المواجهة؟ وما هي الأساليب التي اختارها الأنبياء والأوصياء لمواجهة هذه الظاهرة؟ وكيف كان تعاملهم مع هذا الانحراف الخطير والعظيم والمعقّد؟

الجواب : وفقاً لما جاء في القرآن المجيد فإن الأنبياء سلّكوا أساليب متنوعة لمواجهة الشرك وعبادة الأصنام نشير إلى نماذج منها :

الأول : تعريف الناس وبخاصة المشركين بخالق الكون الأصيل. وقد أشار القرآن إلى هذا الاسلوب في الآية ٦١ من سورة العنكبوت من خلال طرح سؤال والإجابة عليه ، حيث جاء هناك :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

أي أنَّ الله خالقنا ورازقنا ولوي نعمنا وملحاناً ومحيناً وميتنا ، وإذا كان كذلك فلما ذا نعبد أصناماً من دونه؟ ألا ينبغي للانسان أن يسلم نفسه لولي نعمته وي الخضع له؟ سعى الأنبياء لإيقاظ فطرة المشركين ومسح الغبار عنها لربطها بخالقها الأصلي وتوحيدهم إياه.

الثاني : تحكير الأصنام وبيان عجزها وكذبها أمام القدرة الإلهية ، وذلك يقلل من قداستها وقيمتها عند المشركين .

في هذا الحال تُطرح على المشركين أسئلة من قبيل : هل تدرك هذه الأصنام ما يدور حولها من شؤون؟ أو هل يمكنها الإجابة على أسئلتكم؟ أو هل هي قادرة على حل مشاكلكم؟

من الواضح أن السلب هو جواب هذه الأسئلة جميعها ، وإذا كان الواقع كذلك كان ذلك يعني أنها عمياء صماء ولا إرادة لها ، وعلى هذا كيف يمكن لها أن تكون حالة مشاكلكم؟

في القصة المعروفة عن النبي إبراهيم عليه السلام عند ما سُئل عَمَّنْ كسر الأصنام وحطّمها أجاب :

﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأُلُوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ^(١).

القرآن ينقل جواب المشركين كالتالي :

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكَسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ^(٢).

عند ما شاهد فيهم إقراراً على عدم امكانية تكلم الأصنام فضلاً عن دفاعها عن نفسها بدأ بذمّها تحكيرها والمشركين كذلك وقال :

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْقَعِدُ كُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٣).

سعى إبراهيم عليه السلام من خلال تحكير الأصنام وبيان ضعفها وكوتها ليست منشأ لا للخير ولا للشر لتنبيه المشركين إلى سوء عملهم وبطلان اعتقادهم.

الثالث : إيقاظ وحدان المشركين النائم وتوظيف هذا الوجدان في هذا الطريق ، وقد أشارت الآية ٦٥ من سورة العنكبوت إلى هذا الاسلوب حيث تورّط المشركون في السفينة وسط البحر بأمواج عظيمة شعرو إثرها بقرب موتهم فإذا بهم يدعون الله مخلصين له وطالبين منه المعونة . وهذا يكشف عن جوئهم إلى الله في المغزالت حيث ينقطع أملهم بكل شيء غيره وتنغلق عليهم الأبواب إلّا بآبه ، ويعرفون عندئذٍ أن لا معبد أهل للعبادة غير الله تعالى .

(١) الأنبياء : ٦٣ .

(٢) الأنبياء : ٦٤ و ٦٥ .

(٣) الأنبياء : ٦٦ و ٦٧ .

الآية التي هي موضع بحثنا بيان لضعف الأصنام وعجزها ، ولزيادة من الإيضاح نشرع بتفسيرها.

الشرح والتفسير

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾

التعبير بضرب مثل قد يكون لأجل أن هذا المثل الجميل وذات المغزى كان دارجاً بين الموحدين منذ الأزل من الماضية ولم يكن جديداً ، رغم ذلك طرحته الله هنا تارة أخرى ؛ لكونه ذات طابع تربوي عالي ويحتوي على عبر جيدة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾

الأصنام التي يعبدوها المشركون ويسجدون ويركعون لها ضعيفة إلى درجة أنها غير قادرة على خلق ذبابة ، كحشرة صغيرة ، بل إن اصنام العالم كلها لو تكاثفت واجتمعت لأجل خلق ذبابة واحدة ما استطاعت عمل ذلك.

﴿وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ﴾

بل ضعف الأصنام أشد مما ذكر ، فلو أنَّ الذباب أخذ من الأصنام شيئاً ما كانت قادرة على استرجاعه ، فهي لا إرادة لها ولا قدرة على عمل شيء ما ، أي أنها لا تنفع ولا تضر ولا قابلية لها لدفع الشر عن عبادها ؛ لأنَّها غير قادرة عن الدفاع عن نفسها فضلاً عن الغير.

يقال : كان المشركون في أيام خاصة من السنة ، كأيام العيد يطلبون أصنامهم بالعسل والزعفران أو بمواد مشابهة لهم مما يجعلها ملحةً ومصدر طعام للذباب ، وتستمر الذباب بالتردد واللحوم حول هذه الأصنام حتى آخر قطرة من العسل ، وإذا أخذت الذباب ذرة بسيطة من هذا العسل فإنَّ الصنم غير قادر على استرجاعه^(١) ، وهذا يخاطبهم الله قائلاً : إنَّها أصنام ضعيفة عاجزة عن استرجاع ما سرقة منها من العسل ، فكيف يمكن للإنسان أن يطلب منها العون والمساعدة.

(١) انظر الأمثل ١٠ : ٣٥٧

﴿ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ﴾

نقلت احتمالات متباعدة في تفسير هذه الجملة ، يبدو أن اثنين منها أقوى من الباقي :

الاول : المراد من الطالب الذباب ، ومن المطلوب الصنم ، أي أن الذباب ضعيف ، كما هو حال الصنم.

الثاني : المراد من الطالب عبادة الأصنام (المشركون) ، ومن المطلوب الأصنام ، أي أن الأصنام وعبدتها كلها ضعيفان ، أما ضعف الأصنام فواضح ، وأما ضعف المشركين ، فباعتبار ضعفهم الفكري والعقائدي.

أراد الله هنا التذكير بنقطة هي أن الله هو الوحيد القادر على حل مشاكل الإنسان لا الموجود الضعيف والعااجز عن الدفاع عن نفسه.

تداعى هنا عدة أسئلة :

١ . هل هناك تشبيه في آية المثل؟

بحث المفسرون قضية الضعف وما إذا كان قد شُبِّه في الآية بشيءٍ ما أو لا ، وبعض قال : لا يوجد تشبيه في الآية ، والحديث فيها عن ضعف الأصنام وعجزها عن خلق موجود صغير مثل الذباب ، ولم يشبه المسألة بشيءٍ ما ، وهو كلام أوقع ذلك البعض بمشاكل ، وبرأينا مفردة (مثل) ذات معنيين :

الاول : المثل تعني الشبيه والمثل ، وهو تشبيه لأمر معقول خارج عن الحس والتجربة بأمرٍ محسوس.

الثاني : المثل بيان لصدق واضح لأمرٍ ما.

والمراد من المثل في الآية هو المعنى الثاني ؛ لأن الله أراد أن يبين بالآية ضعف عبادة الأصنام وعقيدة المشركين في الأصنام ، وبذلك حكى مصداقاً واضحاً لهذا الضعف والعجز في قالب المثل المزبور.

٢ . هل الذباب موجود حقير؟

لم يشر القرآن إلى الذباب إلّا في هذه الآية ، وهو موجود يبدو للانسان حقيراً وفاقداً للقيمة ، فهل هو كذلك حقاً؟

الجواب : ينبغي القول هنا : الذباب لا أنه موجود قيّم فحسب بل من عجائب المخلوقات ومن آيات الله.

فهذا الموجود رغم صغره يحتوي على جهاز تنفس وهضم وفم ولسان ومعدة وأمعاء وجهاز أعصاب وفهم وإدراك وعضلات قوية جداً ، بحيث يمكنه تحريك أجنبته بها بسرعة ، ولوه أعضاء آخرى كذلك.

اللافت أنه يحصى بنية هي أكثر تعقيداً ودقة من طائرة كبيرة ، ويُعدُّ صناعة طائرة كبيرة أبسط من خلق ذبابة ؛ فإنَّ الطائرة لا إدراك لها ولا شعور ولا إرادة ولا جهازاً تناسلياً ، وغير قادرة على إعداد غذاء لنفسها ولا يمكنها الدفاع عن نفسها ، أمّا الذبابة فلها القابلية على جميع ما تقدّم.

إذن ، الذباب من عجائب المخلوقات حقاً ، ولا أحد قادر على خلق هذا الموجود ، رغم التطور والتقدُّم العلمي الكبير الذي حصل في مجالات علمية مختلفة ، عندئذٍ يُطرح سؤال آخر.

على عتبة القرن الحادي والعشرين سمعنا أنَّ الإنسان أصبح قادراً على الاستنساخ ، وذلك يعني تمكنه في ظروف خاصة من خلق انسان أو حيوان من جزء صغير جداً من أجزاء انسان أو أي حيوان آخر ، والنتيجة هي : خلق موجود دون ام وأب ، وهذا يكشف عن قدرة الإنسان على خلق ما هو أعظم من الذباب ، فكيف يمكن عده عاجزاً عن خلق ذبابة؟

في الجواب نقول : لا يمكن عدّ هذه العملية خلقاً ، بل هي من قبيل غرس شتلة مأخوذة من شجرة لتصبح بعد مدة شجرة ضخمة ومشمرة ، وجسم الحيوانات والانسان من قبيل الأشجار التي يمكن إيجاد أشجارٍ شبيهة لها بعد قطع جزءٍ صغير منها وشتله في مكان آخر ، فيتحوّل بعد فترة شجرة كبيرة ؛ والتناسخ من هذا القبيل ، وبخاصة أنا نعتقد كون خلية الإنسان تحتوي على كل خصوصيات الانسان ، وتبقى قضية الحياة لغزاً من الألغاز لم يُحل بعد.

جسر نحو التوحيد في شهر التوحيد

مهما كنّا ومهما استطعنا نبقى ضعفاء أمام القادر المطلق ، ومرض السرطان المهلل من خاذج ذلك الضعف.

تنمو خلايا الجسم بنحوٍ منتظم ومتوازن ، لكن قد تكون هناك خلية يخرج نموها عن حاله الطبيعي فتنمو أكثر مما ينبغي أن تنمو وتكبر كثيراً لتحول إلى غدة تشنّل عضلات جسم الانسان تدريجياً ، والانسان رغم تقدمه وتطوره علمياً ما استطاع أن يجد علاجاً لهذا المرض ، وقربانيه تزداد كل يوم ، هذا مضافاً إلى المرض الجديد الذي يُدعى (الايدز) ، وذلك هو قول الله :

﴿صَفَقَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

إلهي ، العزة لك والقدرة لك والعلم لك والحياة والممات بيده ، وكل شيء منك ، والسعادة منك نعبدك وحدك لا شريك لك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

(١) آل عمران : ٢٦ .

المثل السابع والثلاثون :

ذات الله لا مثيل لها

الآية ٣٥ من سورة النور تشكل المثل السابع والثلاثين من أمثال القرآن الجميلة ،

يقول الله فيها :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثُلُّ نُورِهِ كَمِشْكَاهٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاحَةٍ الرُّجَاحَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرْرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ رَبِيعَةً لَا شَرْقَةً وَلَا غَربَةً يَكَادُ رَيْسُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

تصوير البحث

هذا المثل من أهم أمثال القرآن المجيد ، وقد هم المفسرون والعرفاء بتفسيره ، وكل من الطائفتين ذكر له تفسيراً خاصاً ، والآية تمثيل بين وبلغ لذات الله تعالى ، حيث شبّهته بالنور ، ويأتي شرحه.

الآية تشتمل على مثلين

في الآية مثلان ، الأول هو المستبطن في العبارة : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، والثاني هو الذي تستبطنه باقي عبارات الآية.

نحن على يقين بأن الله تعالى ليس نوراً محسوساً لذلك علينا تقدير كاف التشبيه في الآية لتكون كالتالي : الله كنور السماوات والأرض ، فان تحسيم الله تعالى أمر محال ذاتي . وعلى هذا تكون الجملة الاولى لوحدها مثلاً.

هل يجوز التمثيل لذات الله؟

هل يجوز لنا أن نمثل لذات الخالق تعالى ونشبه ذلك الموجود المعنوي الواجب الوجود
بموجودات مادية ممكنة الوجود؟

الجواب بالإيجاب والسلب معاً ، فلا إشكال في التمثيل وفقاً لما جاء في الآية الكريمة ، فإنَّ الله نفسه مثل لذاته ، لكن التمثيل منع كذلك وفقاً لما جاء في الآية ٧٤ من سورة النحل ، فقد جاء هناك : ﴿فَلَا تَصْرِفُوا اللَّهَ الْأَمْتَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإذا كان التمثيل مموماً وفقاً لما جاء في الآية الأخيرة لماذا مثل القرآن لذات الله في الآية ٣٥ من سورة النور؟

جاء الجواب على هذا السؤال في ذيل الآية ٧٤ من سورة النحل ، فقد ورد هناك : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، أي أنه لا مانع من التمثيل لله من قبل الله نفسه ، أما التمثيل له من قبلكم فلا يجوز ؛ لأنكم لا تعلمون بما تمثلون له ، فقد تمثلون لذاته بما يثبت النقص له ، بينما هو لا يمثل لذاته إلا التمثيل المناسب ؛ لأنَّه يعلم بذاته والانسان لا يعلم بها.

شأن نزول الآية ٧٤ من سورة النحل هو أن المشركين كانوا يبررون عبادتهم للأصنام بالقول بأنَّ الله بمثابة الملك والأصنام بمثابة وزراء له ، وبما أنه لا يمكن الوصول إلى الملك فنقترب إلى الوزراء ونتمسك بهم تقرباً إلى الملك^(١).

نزلت هذه الآية لرد التبرير المتقدم ، معلنة منع التمثيل لذات الله على الاطلاق ، مغلطة ذلك التمثيل ؛ وذلك باعتبار أنَّ الملك أو أي انسان آخر موجود ضعيف ومحدود من حيث الزمان والمكان ، فلا يمكن للجميع الوصول إليه ، أما الله العالم والقادر فهو موجود وحاضر في كل مكان و zaman وفي قلب كل انسان ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والاتصال به ممكن وسهل للجميع ، بل أسهل من الاتصال بالام والأب والزوج والأخ والاخت والولد ؛ وذلك لأنه غير محدود ويمكن مناجاته وخطابه في كل لحظة وأن ، وفي النوم واليقظة ، وعند القيام والقعود ، وفي الصحاري والبواقي ، وفي الشوارع ، وتحت أي ظرف من الظروف.

(١) انظر الأمثل ٨ : ٢٣٦ - ٢٣٧.

يصف الله العلماء في الآية ١٩١ من سورة آل عمران قائلاً :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَنْتَكِرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

إذن ، لا مشكلة في الاتصال بالله والتواصل معه لكي نحتاج لإيجاده إلى واسطة مثل الأصنام ، ولهذا لا يمكن تشبيه الله بموجود ضعيف عاجز ، فهو يسمعنا ويرانا عند الصلاة التي ندعوه في كل واحدة منها مرتين على أقل تقدير ونقول : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** ، ولا يمكن قياسه مع ممکن الوجود.

ونتيجة ذلك : عدم امكانية التمثيل لله إلا من قبل الله نفسه فحسب.

بالطبع ، ما تُضرب له من أمثال توضّح بعض الجهات من وجوده وتعيننا على معرفة جوانب خاصة منه ، ولا تمثيل يُبيّن جميع أبعاد وجوده فهو **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ^(١) ؛ باعتبار أن المخلوقات جميعها فانية أما هو فباقٍ ، كما أنَّ كُلَّ شيء متناهٍ وهو غير متناهٍ ، وكل المخلوقات ضعيفة وحاللة ، وهو قادر وعامٌ.

الشرح والتفسير

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

لأجل اتضاح هذا المثل الذي شبّه فيه وجود الله المقدس بنور السماوات والأرض علينا دراسة خواص النور.

نور الشمس هو المصدق الباز والكامل للنور ، وله خواص وآثار متعددة ، أهمها أربع

: :

١ . الهدایة

يمكن الاهتداء بالنور ، ويمكن استخدام نور القمر والنحوم لهذا الغرض. ولهذا يصلّى الإنسان في الليالي المظلمة. فالاهتداء أثر مهم للنور.

(١) الشورى : ١١ .

٢ . التربية والنمو

الأثر المهم الآخر لنور الشمس هو النمو ، فالانسان والحيوانات والنباتات وجميع الموجودات الحية تنمو وتترى برعاية هذا النور ، وتنعدم الحياة أينما انعدم النور.

نور الشمس ينفذ إلى عمق ٦٠٠ أو ٧٠٠ متر في البحر ، وتبعد الظلمات الخالصة فيما بعد هذا العمق ، ولأجل ذلك كان العلماء يتذمرون كون الحياة منعدمة في تلك الظلمات ، بينما عثروا على موجودات حية فيها.

والسؤال المطروح هنا هو : كيف أمكن للموجودات أن تعيش وتترى في هذه الأعماق دون نور؟

الحقيقة أنَّ هذه الموجودات تناولت نصيباً من النور ؛ لأن بعض الأغذية التي تُعدُّ في المستويات الأعلى من هذه البحار تسقط إلى تلك الأعماق لتناولها الموجودات هناك. وهذا يعني أنَّ الله قد أعدَّ مطبخاً واسعاً بحجم سطح البحار لإطعام الموجودات الحية في البحر.

فالنمو والتربية والحياة أثر مهم آخر للنور.

٣ . إيجاد القدرة والحركة

الأثر المهم الآخر لنور الشمس كمصدق أكمل للنور هو إيجاد القدرة على الحركة وإيجاد الطاقة.

يعتقد العلماء أنَّ منشأ الطاقة الموجودة هو نور الشمس ، والحرارة التي تصدر من الحطب عند احتراقه هي في الحقيقة نتيجة لادخار نور الشمس في الحطب عند ما كان شجرة تنمو بنور الشمس ، وتحررَّ هذه الطاقة عند احتراق الحطب لتبدل إلى قوة محركة.

يُعدُّ الفحم الحجري من مصادر الطاقة ، وقد حصل على طاقته من الشمس كذلك ؛ لأنَّه . وفقاً لاكتشافات العلماء . عبارة عن بقايا لأشجار تحجرت في باطن الأرض تدريجياً لتصبح فحماً بعد مرور زمن طويل.

النفط من أهم مصادر الطاقة في عصرنا الراهن ، وقد اكتسب طاقته من الشمس كذلك ؛ لأنَّه عبارة عن بقايا حيوانات تربت في البحر وتفسخت بعد جفاف البحر إثر تحولات

وانقلابات تحصل على وجه الأرض ، تُدفن بعدها بقايا هذه الحيوانات لتتَّدَّل بمرور الزمان إلى مادة سوداء معروفة بالنفط. ومن الواضح أن الحيوانات تتغذى من النباتات ، والأخيرة تنمو بفضل نور الشمس.

الكهرباء من مصادر الطاقة المهمة ، وهي كباقي مصادر الطاقة تناول قدرتها من الشمس كذلك ، فماء البحر يتَّبَخِّر بواسطة نور الشمس ويصعد إلى الطبقات العليا من الجو ، ثم يتبَدَّل البخار إلى غيث يسقط على سطح الأرض ، فتتبدل قطراته إلى قنوات وأنهار يُدَخِّر مأواها خلف السدود ، ويوضع في السدود محركات تربينية تُحرِّك من خلال الماء المجتمع خلف السدود عند ما تفتح منافذ له نوها.

الريح هو الآخر من مصادر الطاقة ، وهو يحصل بفضل نور الشمس.

والنتيجة : كل مصادر الطاقة في عالم المادة تستلهم قوتها وقدرتها من نور الشمس.

٤ . رفع موانع الحياة

من الآثار المهمة الأخرى لنور الشمس هو كونه بمثابة مضاد حيوي للميكروبات ، فهو يعمل على تطهير الأرض من الميكروبات والبكتيريا المضرة ، والشمس عند ما تستطع تقتل هذه الموجودات إذا نالتها إشعاعات من الشمس ، ولو لم يكن نورها لتبيَّلت الأرض إلى مستشفى واسعة ومقبرة عظيمة.

إذن ، تعدُّ الهدایة والتربية واجداد القدرة والطاقة ورفع موانع الحياة من الآثار المهمة لنور الشمس.

ومع الالتفات إلى الخصائص المتقدمة لنور الشمس نبُّتُ بشرح الآية الشريفة ، لكي يتَّضح كيفية تشبيه الله بنور السماوات والأرض.

كما أن النور سبب للاهتداء كذلك الله تعالى ، فهو مرشد وهادي الموجودات جميعها ، المادية منها والمعنوية ، وقد جاء في الآية ٥٠ من سورة طه :

﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

هدایة الله للموجودات تختلف باختلافها ، فيهدي الله بعضها بالهدایة الغریزية وبعضها

الآخر بالهداية الالهامية وبعضاها من خلال التعاليم التي يأتي بها الانبياء والأوصياء ، والمسلم هو أن الموجودات كلها مشمولة ببداية الله تعالى ، ولو لم تكن هدايته لما اهتدى موجوداً.

على سبيل المثال ، توجد طيور لا تعرف امها ولا أبيها ؛ لأنها لم تر والديها أبداً ، فهما يموتان قبل تفقيس البيوض ، رغم ذلك نرى الفراخ يخرج من البيوض وهي تعلم منهج حياتها من الطيران والبحث عن الطعام و اختيار الطعام المناسب والتزاوج والتلاقي وصناعة العش وما شابه ذلك ، فكيف أمكنها تعلم ذلك دون أن يكون لها مرشدأً من أب أو أم؟ ذلك عين الهداية الغرزية والتكتوبية التي منحها الله سبحانه للموجودات ، ﴿الذِّي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

شملتنا نحن البشر الهداية التكتوبية والتشريعية كذلك ، فمن الذي علّم حديث الولادة أن يخصّ ثدي امه؟ ومن علّمه أن يكثي عند ما يشعر بالجوع أو العطش أو الألم؟ هذه كلها من مصاديق الهداية التكتوبية ، أما الهداية التشريعية فهي التي شملتنا بواسطة تعاليم الرسل والأنبياء والأنتمة.

كما أنّ نور الشمس يريّي الموجودات ويجعلها تنموا كذلك الله خالق الموجودات فهو يريّيها ، ولهذا اطلق عليه (رب العالمين) ، ونكرر هذه الصفة مرتين في كل صلاة نصلّيها.

تربيّة الله للإنسان تبدأ منذ انعقاد النطفة وتستمر حتى نهاية عمره ، ولو انقطع فيض الله ورعايته لنا لحظة واحدة انتهينا جميعاً ، ولهذا نقول بأن حياة جميع الموجودات بيد الله الحسيب.

الأثر الآخر لنور الشمس هو كونه منشأ للطاقة ، والله تعالى منشأ لجميع الطاقات المتصوّرة في العالم حتى الشمس التي هي منشأ كل طاقة مادية على وجه الأرض ، فهي من مخلوقاته تعالى وتستلهم طاقتها منه ، ولو انقطعت فيوضات الله تعالى عن الشمس للحظة واحدة لتلاشت بحيث لا يبقى منها شيء رغم عظمتها وضخامتها ، ولهذا يقال : (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم).

الله عظيم يمكنه منح المخلوقات حركة وقدرة وقابلية ، وهو الوحيد القادر على خلق موانع مادية للحركة ، وقدر كذلك على رفعها ، فلو أراد تلاشت كل قدرة ، أمّا البشر فضعيف إلى

درجة قد يقتله ميكروب أو فيروس لا يمكن رؤيته إلّا بمحجر قوي.

علينا التدقّيق في عبارات تردد على ألسنتنا كثيراً من قبيل : (لا حول ولا قوّة إلّا بالله) أو (بحول الله وقوّته أقوم وأقعد) ، فإن التدقّيق فيها يصلنا إلى نتائج هي : لو رفع الله فيضه عن الإنسان لفقد الإنسان كل قواه ولأماته موجودات ضعيفة جداً ولعجز عن حفظ لعب فمه كما يعجز عن ذلك حديث الولادة.

الآخر الآخر لنور الشمس هو عمله كمضادٍ حيوي ، كما تفعل ذلك المضادات الحيوية والمطهرات الصناعية ، والله يعمل كذلك ، فهو يرفع موانع الحياة ليتسنى لموجودات من قبيل الإنسان أن يعيش على وجه الأرض.

على سبيل المثال ، نذكر الأسماك كغذاء للبشر ، فاناث الأسماك تفرز بيوضاً كثيرة جداً لو سمح للبيوض جميعها أن تعيش لاكتضاض البحر بالأسماك بحيث تسلب ماء البحر قدرته على الحركة ، لكن تدابير الله تعالى كانت في خلق موجودات أخرى في البحر تعيش على هذه البيوض وتقضى عليها ، إيجاداً للتوازن والتعادل في بيئه البحر.

ومثال آخر ، بعض النباتات تنمو بسرعة فائقة جداً يمكنها أن تغطي مدينة كاملة في فترة قصيرة. ومثال آخر كذلك هو وجود حيوانات سريعة التكاثر لو سمح لها لما تركت مساحة واسعة للبشر وباقى الموجودات. لكن الله تعالى رفع هذه الموانع كلها وجعل تعادلاً في البيئة ليتسنى للجميع العيش معاً.

تحطّ ميكروبات كثيرة على عيون الناس يومياً وبخاصة في المدن الملوثة ، بامكانها أن تعمي عيون البشر جميعهم في فترة قصيرة لكن الله خلق الدموع لدفع هذه الميكروبات وقتلها ، فان الدموع يحتوى على مواد من صنف المضاد الحيوي يطهّر العين ، وهي مواد موجودة في لعب الإنسان كذلك وتلعب نفس الدور الذي تلعبه في الدموع.

إذن ، الله كالنور سبب للهداية والتربية والطاقة والحيوية ويعن الحياة ويرفع الموانع عنها

، وهذا هو :

﴿الله نُور السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الأشياء التي شُبّهت بالنور

في الآيات والروايات شُبّهت أشياء كثيرة بالنور ، نكتفي بذكر خمسة نماذج.

١ . ذات الله تعالى ، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وقد تقدّم شرح ذلك في الأسطر السابقة.

٢ . القرآن المجيد ، كما جاء في الآية ١٥ من سورة المائدة : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ، والنور في هذه الآية إشارة إلى القرآن الكريم.

٣ . الرسول الأكرم ﷺ ، كما ورد ذلك في الآية ٤ من سورة الأحزاب : ﴿وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾

٤ . أئمة المهدى عليهما السلام فهم نور المهدى في ظلمات الضلال ، كما جاء ذلك في زيارة الجامعة الكبيرة : «خَلَقَكُمُ اللَّهُ أُنُوارًا فَجَعَلَكُمْ بِعِرْشِهِ مُحْلِّقِينَ».

٥ . العلم كذلك شُبّه بالنور ، فقد ورد ما يلي في الرواية : «العلم نور يقذفه الله في قلبِ مَن يشاء» ^(١).

يُذكر أن العلم من حيث الحصول على قسمين :

الف : علم اكتسابي تحصيلي ، وهو الذي يحصل عليه الإنسان بالسعى والجهد في المدارس والمحوزات والجامعات.

باء : علم إلهي ، وهو الذي يقذفه الله في القلوب الجديرة والمفعمة بعشق الله والطاهرة ، وهو ليس اكتسابياً.

هذه خمسة نماذج ممّا شُبّه بالنور ، وعند التدقّيق فيها نراها تشتّرك في شيء واحد ، وهو الله تعالى ، فالقرآن المجيد كلام الله ، والرسول ﷺ مبعوث من قبل الله ، والأئمة خلفاء رسول الله ، والعلم يقذفه الله في القلوب المؤهلة. وعلى هذا ، جميع الأنوار ترجع إلى الله تعالى.

﴿مَثَلُ نُورٍ كِمِشْكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴾

(١) مصباح الشريعة : ١٦ ، والرواية منقولة عن الإمام الصادق ع ، وفي الوافي ١ : ١٠ ورد تعبير «من يريد» بدلاً عن «من يشاء».

تقديم أن الآية ٣٥ من سورة النور عبارة عن مثلين ، مضى الحديث عن المثل الأول حيث شبّهت ذات الله بنور السماوات والارض ، أمّا المثل الثاني فيبدأ من عبارة **﴿مَثَلُ نُورٍ﴾** إلى آخر الآية.

طرح بحوث كثيرة في ذيل المثل الثاني ، فكل صاحب تخصّص نظر إلى الآية من زاوية تخصّصه ، وفسّر علماء الكلام الآية من وجهة نظرهم ، وفسّرها الفلاسفة من وجهة نظرهم الخاصة ، وفسّرها العرفاء من وجهة نظر عرفانية ، وفسّرها مفسرو القرآن بما يتلاءم مع اختصاصهم ، سنشير إلى بعض من هذه التفاسير ، وقبل البث بالتفصير نورد توضيحاً حول السراج أو المصباح.

السراج في التاريخ

كان الإنسان يعيش في الظلام قبل اكتشاف النار ، وما كان يستفيد إلّا من الأنوار الطبيعية ، مثل الشمس والقمر والنجوم ، ثم اكتشف أكبر وأهم نعمة إلهية ، وهي النار ، بعد ما شاهد القدحة الحاصلة من اصطكاك شبيئين أو احتراق مواد حافة لسبب ما ، عندها حصل تحول عظيم من جميع الجوانب في حياة البشر ، بحيث يمكن الادّعاء بأنّ النار أهم سبب للتقدم الصناعي ولتسهيل العيش على الأرض.

استخدم الإنسان النار لإيجاد الحرارة وللإضاءة كذلك ، وصنع لهذا الغرض وسائل تكاملت تدريجياً ، منها : السراج الذي أعدّ لأجل استخدام النار للإضاءة.

السراج الذي كان يستخدمه الإنسان في عصر الجاهلية وأوائل ظهور الإسلام داخل ضمن سلسلة التكامل الذي نالته الصناعات البشرية ، وهو آنذاك كان يتكون من خمسة أجزاء ، ومورد الآية هو السراج الذي كان يُستخدم آنذاك ، لتعرف هنا على أجزائه الخمسة.

١ . الفتيلة ، وهي الخرقة التي تحتذب الوقود لتحترق وتُضيء ، والتي عُبّر عنها بالمصباح في الآية الكريمة.

٢ . الزجاجة ، وهي التي توضع فوق الفتيلة لكي تنظم جريان الهواء ، ولا ترك الفتيلة تخرج منها دخاناً بسبب عدم الاحتراق الكامل ، الأمر الذي يؤدي إلى اسوداد السقف بسخام

المصباح ، كما أن الانارة ضعيفة دون هذه الزجاجة.

٣ . الوعاء الذي عَيْرَ عنه القرآن بالمشكاة .

السراج المزبور يعمل جيداً في الظروف الاعتيادية لكنه ينطفأ عند هبوب الريح ، كما أن الزجاجة تنكسر إذا صدمها شيء ، ولهذا كان يستدعي وجود مكان معدّ له ، وعلى هذا الأساس تُصنَع أوعية خاصة تُقسَم إلى قسمين :

الف : الأوعية المحمولة ، وهي مستطيلة يحيطها الزجاج من كل الأطراف ، فيها نافذة يدخل من خلالها السراج ، ويمكن حملها ونقلها من مكان إلى آخر.

باء : الأوعية الثابتة التي لا يمكن نقلها من مكان إلى آخر ، غالباً ما توضع حيث يوجد رف أو شباك يطل على ساحة البيت ل Yoshiء المصباح للبيت ولساحته ، ويجعل فوقه منفذ لتبادل الاوكسجين ونافذة لإدخال السراج في الوعاء . وأحياناً يجعل الزجاجة في الجانب المطل على الساحة ويترك الجانب المطل على البيت دون زجاجة.

فائدة هذا الوعاء هو المنع من انطفاء الشعلة أو تحطم زجاجة السراج.

٤ . الوقود ، الأمر الآخر الذي يستدعيه السراج هو الوقود الذي يحتدبه الفتيلة ويشتعل بعد إيقاد النار في الفتيلة ^(١).

٥ . مصدر الطاقة والوقود ، إذا كان وقود السراج زيت الزيتون فلا بد وأن يكون مصدر لهذا الزيت ، وهو شجرة الزيتون.

والنتيجة : كون شجرة الزيتون والوعاء والزجاجة والفتيلة تشكل مجموعها عوامل خمسة لتوليد النور والإضاءة ، وهي أمور أشارت لها الآية الكريمة.

الشرح والتفسير

﴿مَثَلُ نُورٍ كِيمْشَكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الْزُجَاجَةُ كَانَهَا كَوَكَبٌ دُرَّيٌ﴾

(١) كانت تستخدم أنواع مختلفة من الزيوت إلا أن زيت الزيتون كان أفضلها ؛ باعتبار عدم تصاعد دخان منه ، وباعتبار رائحته المناسبة ، مضافةً إلى دوامه وعدم احتراقه بسرعة.

زجاجة هذا السراج شفافة ونظيفة ولا معة وتنير كإنارة النجم في السماء.

﴿بُوْقُدُّ مِنْ شَجَرَةِ مِيْرَكَةِ زَيْتُونَةِ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾

مصدر طاقة هذا السراج شجرة الزيتون المباركة والنابتة لا في شرق البستان بحيث تكون في الظل عند شروق الشمس ولا في غرب البستان بحيث تحر من نور الشمس عند الغروب ، بل هي وسط البستان تتمت بنور الشمس والهواءطلق بأفضل ما يمكن.

﴿بِكَادُ زَيْتَهَا يُضِيَّ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾

وقود السراج زيت الزيتون ذات جودة عالية جداً ، يؤخذ من الشجرة المزبورة ، وهو شفاف ويبدو بحد ذاته منيراً ومشعاً دون إيقاد النار فيه ، فهو خالص جداً.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

النور يصدر من كل أجزاء السراج ، من المصباح ومن الزجاجة ومن الوعاء ، بحيث يبدو السراج نوراً متراكماً ، والله سبحانه وتعالى يهدي ويرشد من يشاء إلى هذا النور الإلهي.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

يضرب الله هذه الأمثال لكي يستوعب الناس مختلف مستوياتهم المفاهيم العالية بنحو أفضل ، والله عالم بكل شيء .

خطابات الآية

١ . ما المراد من نور الله؟

شبه نور الله تعالى في هذه الآية بالسراج ذات الأجزاء المتقدم ذكرها ، فما ذلك النور الذي شبه بالسراج؟

أبدى المفسرون نظريات مختلفة في هذا المضمار ، لكن هناك نظرية منسجمة مع ما يراه المتكلمون ، وهي كون المراد منه نور الإيمان.

نور الإيمان شعلة متقدة ومصباح في زجاجة قلب الإنسان ، وقلب الإنسان ونور الإيمان وضعا في وعاء الصدر. المشكاة هي صدر المؤمن ، والزجاجة قلبه والمصباح نور الإيمان المتقد في قلب المؤمن. يستلهم نور الإيمان المتقد في قلب المؤمن طاقته من الكلمات التورانية للقرآن

المجيد وروایات المعصومین ، أي أن الآيات والروايات بمثابة زيت الزيتون الذي يؤمن وقود سراج الإيمان الكائن في قلب الإنسان ، ولهذا تزداد نورانيته كل يوم وكلّما اقترب من الآيات والروايات.

مصدر وقود الإيمان (الآيات والروايات) هو شجرة الوحي المباركة التي هي لا شرقية ولا غربية ، فليست ذات طابع مادي بحث ولا ذات طابع معنوي بحث ، بل تغطي كل الجوانب والأنهاء. وهذا الوقود زلال وشفاف وصاف جداً ، فلا خطأ ولا زيف في الآيات وكلمات المعصومين ، فهي كلمات مضيئة ولامعة لا تحتاج إلى شيء آخر لإيقادها. كلّ من الآيات والروايات نور على نور ، آيات الله في القرآن المجيد نور ، وكلمات المعصومين نور على نور كلمات الله.

إن الله يهدي من يشاء من حلال آياته وروایات المعصومین ، والله يضرب الأمثال المتنوّعة للناس ، وهو يعلم ما يضرب من الأمثال.

إذن ، وفقاً لهذا التفسير ، المراد من نور الله هو نور الإيمان ، والشاهد عليه ما ورد في بعض الآيات من التعبير بالنور للاشارة إلى نور الإيمان ، كما جاء ذلك في آية الكرسي :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(١).

هذا مضافاً إلى الروایات التي دلت على أن كلمات المعصومين نور ، وبهذا يكون المراد من النور في الآية هو نور الإيمان.

٢ . «يَهْدِي اللَّهُ لُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» ما ذا تعني؟

سؤال : هل أن الله يهدي من أراد هدايته ولا يهدي من لم يرد هدايته؟ أو هل المداية الإلهية المبنية على أساس الحكم تشمل أولئك الذين شملتهم مشيئة الله فقط؟

الجواب : مشيئة الله تتبع حكمة الله دائماً ، والحكيم يهدي وفق محاسبات لا اعتباطاً.

(١) البقرة : ٢٥٧

إن هذه المداية الالهية شملت سلمان الفارسي الذي طوى مسافات شاسعة بين ايران والمدينة وتحمّل المشاق والمتاعب الكثيرة لأجل لقاء الرسول وقول دينه ، وقد كان من أوائل المسلمين الذين لبّوا دعوة الرسول وبقى على عقيدته وصمد وقاوم ودافع عنها حتى آخر لحظات عمره الشريف.

ولم تشمل هذه المداية أمثال أبي هب وأبي سفيان ؛ لأنهما كانا إلى جنب الرسول وكانا يرانه كل يوم ويسمعان حديثه وآيات الله ، ولم يزدهما ذلك إلّا عصياناً وجاجاً ومقاومة لهذا الدين.

من الواضح أن شمول أو عدم شمول المداية لم يكونا اعتماداً بل كانوا عن حكمة ، فقد تحمّل سلمان المشاق والمتاعب الوافرة لأجل هذا الدين ، وتحمّل عباء العبودية والرق مرات عديدة وتحمّل التعذيب ، ولم ترتبط هذه الامور عزيمته على لقاء الرسول ، فكان جديراً للهداية حقاً ، أما العصاة المتعصّبون وعبدة الأهواء والمغرورون ، فكان التعلّق والغرور واللحاجة قد ضرب بينهم وبين نور الإيمان ستاراً يمنع من نيلهم من هذا النور ، فكانوا دون نصيب منه.

لا يمكن للأعمى أن يهتدى بنور الشمس مهمما كان قوياً ، وهذا ليس لنقص في نور الشمس بل لسقم في عينيه.

والخفاش إذا كان يعيش في الظلام ويهرّب من نور الشمس سعيًا وراء الظلمات فلأجل أنه غير جدير ولا مؤهّل لنور الشمس ، بل ذلك هو شأنه.

النور نور مهمما كان ، وما علينا هو إعداد أنفسنا للاستلهام منه ، فنتجنب الرذائل الأخلاقية لكي نكتسب أهليه المداية الالهية.

إذن ، الآية : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعني : يهدي الله لنوره من وجدت فيه الأهلية والجدرة.

والآية : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعني : الله عالم بمن تحققت فيه هذه الجدرة فيهتدى ومن لم تتحقق فيه فلا يهتدى بل يحرّم من المداية. وبتعبير آخر : لا يتوفّق الإنسان لعمل إلّا إذا عشقه ، ولو أراد الإنسان المداية الإلهية فعليه أن يحب الله ويترك الأهواء واتّباع الشيطان.

شكى شخص عند أحد العظام بأنه لم يُوفّق لرؤيه صاحب الأمر والزمان (أرواحنا وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء) حتى في المنام ، رغم حبه إياه وعشيقه الوافر له.

فقال له العالم : أدلك على طريق يبلغ بك إلى الرؤية ، كُلْ هذه الليلة طعاماً مالحاً جداً ونم دون أن تشرب ماء بعده.

عمل هذا الشخص بوصفه هذا العظيم ، فنام عطشاناً ، وقد سرق العطش منه النوم إلّا أنه كان ينام بين الحين والآخر وكَلَّما نام شاهد في المنام ماءً وأنهاراً ومنامات تتعلّق بالماء فقط ولم ير في المنام شيئاً غير الماء. وفي الصباح استيقظ وقال مع نفسه : عملت بوصفه ذلك الرجل ولم أر إلّا الماء ، فذهب وحكي له ما جرى ، فأجاب ذلك الرجل : إنك كنت أمس عطاشاً ومستفاقاً للماء حقاً فما رأيت في منامك غيره ، ولو كنت مشتاقاً لرؤية الحجة بن الحسن حقاً (عجل الله فرجه) لرأيته.

يناسب بحثنا رواية وردت عن رسول الله ﷺ ، فقد قال في طعم الإيمان : «ثلاث من كُنَّ فيه ذاق طعم الإيمان ، من كان لا شيء أحبُّ إليه من الله ورسوله ، ومن كان لأنْ يُحرق بالنار أحبُّ إليه من أنْ يرتدَّ عن دينه ، ومن كان يحبُّ الله ويُبغض الله» ^(١).

وجود هذه الثلاثة في الإنسان يعني الالتفات والتوجّه الحالص لله لا للزوج والأولاد والأهواء والجيران والأصدقاء والمعارف ، كما تعني اختيار الإنسان الحرق بالنار فيما لو خَيَّر بينه وبين البقاء على دينه ، كما تعني أن لا يعاديه إلّا من أراد الله معاداته وإن لا يحب إلّا من أحبه الله ، أي أن علاقاته تبني على حب الله وبغضه ، عندئذٍ يذوق الإنسان طعم الإيمان وحالاته.

وهناك رواية أخرى يقول فيها الرسول ﷺ :

«من كان أكثر همّه نيل الشهوات نزعَ من قلبه حلاوة الإيمان» ^(٢).

كيف يقوى إيماناً؟

سؤال : مع الأخذ بنظر الاعتبار الأهمية القصوى للايمان ، فما نعمل لتقويته؟ أو

كيف يمكننا

(١) تنبية الخواطر (من مجموعة و Zam) ٢ : ١١٦ .

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٢٨٢ ، الحديث ١٣٧٤ .

أن نوقن نور الإيمان في قلوبنا؟

الجواب : هناك أساليب متعددة لتقوية الإيمان نشير إلى بعضٍ منها :

الأول : التعرُّف على القرآن

يقوى إيماننا أكثر كلما تعرَّفنا على القرآن أكثر ، ويضعف إيماننا كلما ابتعدنا عن ينبع السعادة هذا ، وقد صرَّحت بذلك الآية الثانية من سورة الأنفال :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيهِمْ آيَاتُهُ زادُتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

أيتها الأعزة ، عليكم التعرُّف على القرآن أكثر فأكثر ، فاتلوا القرآن وراجعوا تفسيره ، وبخاصة أن تفاسيرًا حيدة أصبحت في متناول اليد هذا العصر.

يسريني أن أرى بعض المسلمين الذين يعيشون بين الكفار قد حافظوا على دينهم وإيمانهم بل ازدادوا إيماناً بفضل هذا الأسلوب.

الثاني : التدقيق في أسرار الخلق

الدنيا التي نعيشها مفعمة بآيات الله تعالى ، وإذا سبق وأن قيل في ورقة الشجرة : إنها بمثابة كتاب لأولي الألباب ، يقال فيها اليوم : إنها مكتبة لذوي العقول ، وتكتفي الإنسان ليتعرَّف على الله إذا لم يعر منها دون تفكير ، فهي من عجائب الخلق رغم كثرتها وتواجدها في كل مكان من ساحات المنازل والشوارع والازقة.

يقول العلماء : إذا وضعنا الورقة تحت مجهر نجدها تتكون من بناء ذات عدَّة طبقات ، لكل طبقة بناء خاص ومسئوليَّات خاصة. في الورقة شبكة معقدة وطويلة ومنتظمة من الأنابيب ، لا يمكن للمهندسين تصميم هكذا شبكة لأنابيب المياه في مدينة. ولهذا يقال : كل ورقة مكتبة لمعرفة الخالق.

لبلوغ هذا المدْفَع ، يمكن للشباب أن يطالعوا ما دون في علم الأحياء والنبات ، والتي تُدرَّس بعضها في الإعدادية ، وكلما دققنا في خلق الله كلما زادت معرفتنا ، وكانت نتيجة هذه المعرفة وثارتها حب الله ، وفاكهة حب الله الصون من الخطأ وارتكاب المعصية.

الثالث : التقوى والورع

الاجتناب عن ارتكاب الذنوب والسير في طريق الاسلام المستقيم من عوامل تقوية الایمان ، وكلما زاد تقوى المؤمن وورعه كلما تنور قلبه بنور الإيمان أكثر فأكثر ، وكذا العكس ، أي كلما ضعف تقوى الانسان كلما ضعف إيمانه .
كما أن هناك علاقة متبادلة بين الایمان والتقوى ، فكما أن التقوى تقوي الایمان كذلك الایمان فهو يقوى التقوى ويزيد فيه .

الرابع : التوسل والدعاة

التوسل بلطفل الله والمعصومين عليهما السلام من عوامل تقوية الإيمان ، فلا ينبغي الغفلة عنهما ، والمفروض في التوسل والدعاة أن يقتربنا بحضور القلب والواقعية ، وأن ينطلقوا من الإحساس بالحاجة حقاً ، فلا ندعوا ولا نتوسل إلا ونعتبر أنفسنا فقراء محتاجين ، ونخاطب الله ونقول : (لا نأمل شيئاً إلا منك) أو (من لنا غيرك؟)
لو أحكمنا علاقتنا مع الله تعالى أصلح الله علاقتنا مع باقي المخلوقات .
أتمنى أن يبلغ منازل الإيمان العليا من خلال العمل بهذه الأوامر والأساليب .
في نهاية البحث ننقل حديثاً جميلاً عن الرسول ﷺ يقول فيه : «إِنَّ أَعْلَى مَنَازِلِ الإِيمَانِ دَرْجَةً وَاحِدَةً مَنْ بَلَغَ إِلَيْهَا فَقَدْ فَازَ وَظَفَرَ، وَهُوَ أَنْ يَتَهَيَّءَ بِسَرِيرَتِهِ فِي الصَّلَاحِ إِلَى أَنْ لَا يُبَالِيَ لَهَا إِذَا ظَهَرَتْ وَأَنْ لَا يَخَافَ عَقَابَهَا إِذَا اسْتَرَتْ» ^(١).

مباحث تكميلية

تفاصيل متباعدة لآية واحدة!

قلنا : للآية تفاسير مختلفة ، تقدم تفسير واحد وسيأتي تفسيران (التفسير الفلسفـي والتفسير الروائي) ، وقبل التعـرض لهذين التفسيرين ينبغي الإجابة عن السؤـال التالي : هل يمكن أن يكون عدـة تفاسير لآية واحدة؟ وهـل يمكن أن يكون هناك عدـة معانـي

جملـة

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٧٣ ، الحديث ١٣٣٨ .

واحدة وفي وقت واحد؟ وهل يجوز استعمال اللفظ الواحد في أكثر من معنى واحد؟

الجواب : نعتقد أن ذلك ليس جائزاً فحسب بل يُعدُّ فناً ويكشف عن بلاهة المتكلم

وجمال وعمق كلامه ؛ فاستعمال اللفظ في أكثر من معنى من مخاسن الكلام وكماله^(١).

وعلى هذا ، فلا مانع للآية أن يكون لها سبعون تفسيراً قصدها المتكلم جميعاً ، ونجد

نماذج لذلك في باقي مجالات اللغة العربية بل حتى غير العربية. وعلى سبيل المثال ذكر

سبعون معنى لفردة العين ، كعضو الانسان المعروف والذهب والشمس وغير ذلك. وقد

وصف أحد الشعراء الرسول ﷺ بالبيتين التاليين :

المتحى في الدُّجى والمبتلى بعمرى والمشتكى ضمائراً والمبتغى ديناً

يأتون سدته من كل ناحية ويستفيدون من نعماه عيناً

أي أنَّ طوائف أربع تأتي للرسول وتطلب منه شيئاً ، هم :

١ . المبتلون بالظلمات يأتون لعين وشمس وجوده.

٢ . العمى الذين يقبلون عليه لنعمة عينه.

٣ . الفقراء يأتونه لطلب العين ، أي الذهب.

٤ . المسلمين الذين يشعرون بالظلمأً فيقدمون له لطلب عين الماء.

ضمَّنَ هذا الشاعر الماهر المعاني الأربع للعين في مفردة العين التي وردت في شعره.

على أي حالٍ ، لا مانع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى واحد ، ولهذا يمكن

للآية الواحدة أن يكون لها عدَّة معانٍ وتفاصيل ، على أن يكون لكل تفسير شواهد وقرائه

لا أن يكون تفسيراً اجتهادياً وبالرأي ، فنحن ممنوعون من ذلك.

بعد هذه المقدمة نَبْتُ بالتفسيريين الآخرين لهذه الآية.

الف : التفسير الفلسفـي

ذكر الفلاسفة تفاسير متعددة لهذه الآية نشير إلى واحدٍ منها.

(١) بحث هذا الموضوع علماء الاصول ، منهم الاستاذ في كتابه : أنوار الاصول ١ : ١٤١ ، وقد أشبعه بحثاً هناك.

يقول الفلاسفة : هناك ثلاثة عوالم ، هي :

١ . عالم المعقولات : وهو عالم العقول وال مجرّدات ، أي عالم ما وراء المادة ، وهو عالم لا زمان فيه ولا مكان ولا جسم ولا أجزاء.

٢ . عالم النفوس : وهو العالم الذي تلتقي فيه المجرّدات بالمادة ، مثل روح الإنسان التي هي من المجرّدات تلتقي بجسمه الذي هو مادي.

٣ . عالم الأجسام : وهو الذي أشارت إليه العبارة : **﴿مَثُلُ نُورٍ﴾** ، فهي تعني نور الوجود ، فقد شبّه الفلاسفة الوجود بالنور في كثيرٍ من مباحثهم ، وقالوا هنا : المراد من النور هو نور الوجود الذي يقع في ثلاث مراحل ، في عالم المجرّدات توحد الملائكة ، وفي عالم النفوس يوجد الناس وفي عالم الأجسام توجد الأجسام الأخرى.

المراد من المصباح الذي ورد في الآية هو عالم العقول ، وهذه العقول تقع في الزجاجة التي هي عالم النفوس ، وهذه العقول التي في النفوس توضع في مشكاة تُدعى أجسام. ينشر الله نور الوجود ، حيث خلق العقول وال مجرّدات أولاً ثم الزجاجة التي هي النفوس ثم الوعاء والمشكاة ، وهو عالم الأجسام ، أما شجرة الزيتون المباركة فهي ذات الله تعالى ، التي هي مصدر كل الموجودات في العالم ، وأما الزيت فهو فيض الوجود الذي ينبع من الله تعالى. الخلاصة : فسرّ الفلاسفة النور الالهي بالوجود ، وطابقوا المصباح والزجاجة والمشكاة على العوام الثلاثة.

باء : التفسير الروائي

يستفاد من الروايات الواردة في تفسير هذه الآية أن المراد من المصباح هو العلم ، فهو سراج منير يهتدي به الناس ، والمراد من المشكاة قلب الرسول ﷺ الطاهر ، والمراد من الزجاجة هو وصي الرسول ، أي الإمام علي عليه السلام ، فقد حافظ على الرسول وآثر بنفسه لأجل الرسول وتحمّل الأنططار والمشاق في هذا المجال ، وللمثال البارز لهذا الكلام دفاعه عنه في معركة (احد) ، فقد كتب الشيعة والسنّة أن من تبقى حياً من المسلمين فرّ إلّا علي فقد عكف في

ساحة الحرب دفاعاً عن الرسول وللنحو عنه فكان يحوم حوله ويواجه كل من قصد الرسول وأراد قتله.

انتهت معركة أحد وعليه عليهما السلام يحمل معه جروحاً كثيرة ، عدّتها بعض الروايات إلى تسعين جرحاً ، وفي رواية وردت عن الامام نفسه يقول فيها : «أصابني يوم أحد ست عشر ضربة سقطت إلى الأرض في أربع منها ، فأتاني رجل حسن الوجه ، حسن اللمة ، طيب الريح ، فأخذ بضعي فأقامني ثم قال : أقبل عليهم ، فإنك في طاعة الله وطاعة رسول الله ، وهو ما عندك راضيان» قال علي عليهما السلام : «فأتيت النبي عليهما السلام فأخبرته فقال : يا علي أقرّ عينك ذاك جبرئيل» ^(١).

جملة **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾** تشير إلى الأئمة الاثني عشر ، فكلّ منهم نور على النور الذي سبقه ، والمراد من الشجرة المباركة هو الشجرة الإبراهيمية المباركة التي تفرّع منها الرسول عليهما السلام ، والمراد من **﴿لَا شَرِقَةَ وَلَا غَرْبَةَ﴾** هو نفي التوجّهات اليهودية والمسيحية ^(٢).

(١) بحار الأنوار ٢٠ : ٩٣ .

(٢) انظر الأمثل ١١ : ٩٥ .

المثل الثامن والثلاثون :

سراب الحياة

جاء ما يلي في الآية ٣٩ من سورة النور :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

تصوير البحث

وردت هذه الآية في الكفار غير المؤمنين ، عكس آية المثل السابق ، حيث وردت في المؤمنين (وفقاً لأحد التفاسير) ؛ فهي أجابـت على التساؤل التالي : هل تقبل الأعمال الحسنة لهؤلاء عند الله أم لا تقبل منهم أي من الأعمال الحسنة؟ جواب الآية على هذا التساؤل كان من خلال ضريـها مثلاً يأتي شرحـه .

الشرح والتفسير

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ﴾

لأجل اتضاح معنى الآية ينبغي شرح المفردتين (سراب) و (قيعة) .

السراب من مادة سرب ، وتعني الحركة والجري من الأعلى نحو الأسفل ، ففي العربية مفردات دقيقة ، فقد وضع العرب للجري من الأعلى إلى أسفل مفردة غير التي وضعوها للجري من الأسفل إلى الأعلى أو الجري على الأرض المستوية ، أي أئمـ كانوا يضعون مفردة

مستقلة للحالات المتباينة وال مختلفة ، فللجري من الأعلى إلى الأسفل وضعوا (سراب) ، والذي تورّط بالسراب يقال : (سراب) ، كما قد يُطلق (سراب) على الماء الجاري ؛ لأنّه يجري ويسيل من الأعلى إلى الأسفل دائمًا ، أما علميًّا فالسراب ليس ماءً بل يشبه الماء وينشأ من انكسار الضوء ^(١).

حرارة سطح الأرض إذا ازدادت سبب ترقق طبقات الجو القريبة من سطح الأرض ، والضوء الذي يأتي من الطبقات العليا ينكسر عند ما يصل سطح الأرض ، ويبلغ الانكسار إلى مستوى الانعكاس الكامل ، فيعكس لون السماء الأزرق فتبعد طبقات الجو القريبة من سطح الأرض ماءً ، وهو ما يُطلق عليه السراب.

أرجع بعض العلماء قصة سعي هاجر زوجة إبراهيم عليهما السلام بين الصفا والمروة إلى رؤيتها السراب ، وخلاصة القصة : أن هاجر صعدت جبل الصفا سعيًّا نحو الماء فشاهدت سرابةً على جبل المروة ، فركضت نحو المروة ، لكنها لم تجد ماءً ، فنظرت إلى الصفا فرأت سرابةً فركضت نحوه كذلك ولم تجد ماءً عند ما بلغته ، واستمر سعيها للبحث على الماء بين الجبلين سبع مرات حتى نبعثت عين زرم تحت رجلي اسماعيل عليهما السلام ، وبذلك نجيا من الموت ^(٢).

اتضح بذلك معنى السراب لغةً وعلمياً ، لكنَّ المعنيين غير منظورين في الآية ، والمراد من السراب في الآية المعنى الكنائي ، الذي هو عبارة عن الشيء الذي يبدو جميلاً وخلالاً من بعيد ، وهو أجوف في الواقع.

مفردة (قيعة) تعني الصحراء الحالية من الماء والكلأ ، واحتلِف في كون هذه الكلمة مفرداً أو جمعاً ، والإنصاف أَنَّها مفرد ، كما هو حال السراب.
إذن ، من كان نور الإيمان منطفأً عنده ولا إيمان له فإن أعماله الصالحة وعباداته وسجاداته وإنفاقه وإعانته كسراب في صحراء جراء حالية من الماء والكلأ.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَآنُ مَاءً﴾

(١) كمثال على ذلك : لو وضعنا ملعقة بندق مائل في قدر ماء لوجدنا الملعقة تبدو موعضة ، وهذا بسبب انكسار الضوء.

(٢) تفاصيل القصة تجدتها في الأمثل ١ : ٣٩٧ . ٣٩٨ .

الظمآن يعني العطش ، والظمآن هو العطشان ، والسراب يجذب العطشان نحوه ؛ باعتبار حاجته الملحة للماء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾

الظمآن بعد ما يرى السراب ، يتحرّك باتجاهه ، وعند ما يصل إليه لا يجد ماءً ، فينظر إلى حيث كان ، فيرى سرابةً آخر ، فيتجه نحوه كذلك ، وهذه العملية تستمر هكذا ، مما يؤدي إلى ازدياد عطشه. هذا هو شأن الكفار يوم القيمة ، فهم يبحثون عن أعمالهم الحسنة التي أدوها في الدنيا لعلّها تنجيهم ، لكنهم لا يحصلون على شيء فيرجعون خلو اليدين ؛ لأن أعمالهم كانت بمثابة السراب الذي يجدون ماءً وما هو بماء.

﴿فَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَاهُ حِسَابٌ﴾

يتعطش الكافر يوم القيمة إلى الأعمال الصالحة ، فيرى من بعيد تلًا من أعماله فيتجه نحوها ، وعند ما يقترب منها يجدها لا شيء بل يجد الله (أي يجد عظمته أو عذابه) يهتم بحسابه ويريه جزاء أعماله القبيحة.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

لا يتواتي الله في حساب الكفار ، بل يُسرع في حساباتهم. وحساب يوم القيمة يختلف عن الحسابات العادلة التي نمارسها يومياً ، فهو حساب معقد ودقيق ويستدعي وقتاً طويلاً ، فمن الصعب جداً أن تراجع أعمال الإنسان كلها منذ بداية خلقه ، سواء التي نفذها بيده أو برجله أو بلسانه أو بقلبه أو بعينه أو أذنه.

رغم ذلك جاء في رواية : «إِنَّهُ تَعَالَى يُحَاسِّبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي مَقْدَارِ لَمْحِ الْبَصَرِ»^(١)

، وهذا هو معنى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

لكن يا ترى كيف يمكن هذا؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي إلقاء نظرة على بعض منجزات البشر.

يوضع في الطائرة صندوق يُدعى الصندوق الأسود ، وهو في الحقيقة نظام مراقبة

يشرف

(١) مجمع البيان ١ : ٢٩٨ .

على حركات وإيعازات الطيار بدقة ، وإذا بُرِزَ نقص أو إشكال فني في الطائرة يحدّده مباشرة حتى لو سقطت الطائرة وتحطّمت وقتُلَ من كان فيها.

النموذج الآخر الحاسوب الذي تستخدمه المخابرات في العالم ، فهي قادرة على سرد كل معلومات ذات علاقة بحدث أو قضية أو شخص ما في لحظات من خلال حاسوباتها . والنماذج الأبسط لذلك أجهزة الحاسوب التي تحدد ساعات دخول وخروج الموظفين في دائرة ، فهي تعين مقدار تأخير الموظف وساعاته إن نقصت ، ومقدار راتبه في نهاية الشهر .

كذلك أعمال الإنسان فإنّها مراقبة من قبل أجهزة إلهية دقيقة جداً ، تسجّل عندها كل حركة ونشاط للإنسان ، وبإمكان الله تعالى أن يحصل على أعمال الإنسان الكثيرة التي قام بها خلال عشرات السنين من عمره بنظرة واحدة ، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ غالباً ما تخلو الأعمال السريعة والمستعجلة من الدقة الكافية ، لكن الدقة هنا فائقة بحيث لا يبقى شيء ولو بسيط دون حساب ، رغم السرعة العالية .

معاذ بن جبل يسأل رسول الله ﷺ يا نبي الله ، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به يا رسول الله؟ فيجيبه الرسول ﷺ : «فهل يكتب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد الستّهم»^(١).

أي أن كلام الإنسان لا يُحاسب عليه فقط بل خطره أكثر من خطر باقي الأعمال ، وبإمكانه إدخال الإنسان في النار ، وبخاصة أن كبار الذنوب تُقترف باللسان . ولهذا علينا الانتباه عما يصدر منّا من أعمال ، فإنّا محاسبون على كل واحد منها ، خصوصاً اللسان الذي خطره أكبر من غيره .

النتيجة : وفقاً لما جاء في هذه الآية كون أعمال الإنسان الكافر بمثابة السراب الذي يبدو شيئاً من بعيد ، وهو لا شيء ولا واقع له من قريب ، فلا يعني من جوع ولا يروي من عطش .

خطابات الآية

١. المثل لدنيا الكافرين أم لآخرهم؟

سؤال : هل أعمال الكفار في الآخرة بمثابة السراب ولافائدة تعقبها أم في الدنيا كذلك؟

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٥٦٨ ، الحديث ١٧٩١٤ .

وبتعبير آخر : هل أن أعمال الكفار غير مشرمة في الدنيا والآخرة معاً؟

الجواب : نعتقد أن الآية تشير إلى دنيا الكفار وإلى آخركم ، فأعمالهم في الدنيا

كذلك سراب لا أكثر.

الانسان المعاصر تورّط بأنواع مختلفة من السراب الذي يسعى حيثاً نحوه ثم يجده لا

شيء ، ومن ذلك الحرية الغربية.

إذا نظرنا إلى العالم الغربي من بعيد نرى الحرية الجميلة تتلألأ فيه وتحتذب الانسان

نحوها ، لكنّا عند ما ندخل في المجتمعات الغربية لا نجد أثراً للحرية الحقيقية ، بل نجد

الغربيين اسرى لأمور مختلفة من قبيل الأهواء والمواضع والمخدرات و مختلف الأمراض الجنسية

والتمييز العنصري وما شابه ذلك.

الإدمان جعل من الانسان موجوداً لا اباليًا تجاه الدين والشرف والناموس. كما أن

المواضيع والأزياء لا تنسمح مع العقل السليم ؛ لأن ترك لبس الحذاء أو الملابس بذرعة

سقوط موضعه يُعد نوع إسراف مذموم. أما الأهواء فقد سيطرت على الانسان كالأخطبوط

الذي يسيطر على فريسته ، وقد سلب من الانسان كل نشاطاته العقلانية.

نعم ، الحرية الغربية سراب لا أكثر ، فهي ذات ظاهر جذاب وباطن أجوف ، كما

هو حال حياة الانسان غير المؤمن ، فهي حياة سرالية من جميع الجهات ، فقد نراها حياة

مرفهة وسعيدة من بعيد ، لكن واقعها من قريب غريق المموم والأمراض ، بحيث نصيه عند

الغداء أو العشاء قرص صغير من الخبز لا أكثر !

كتبت احدى الصحف أنَّ في أمريكا غابة تدعى غابة انتحار الأثرياء ، يقصدتها

الأثرياء بعد مللهم من سراب الحياة فيقدمون على الانتحار.

أليست هذه الحياة سراباً؟ فهي من بعيد قصر فخم وحياة مرفة وسيارة فاخرة وعمل

مفصل وامكانيات وافرة ومعمل وأسهم و... أمّا من قرب فمرض واضطراب ويأس وفراغ

وما شابه ، إذن حياة الكفار سراب لا أكثر.

يقول الله تعالى في الآية السابعة من سورة الروم : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

أي أنهم يعلمون زخارف الحياة وزينتها وما ظهر منها ، ويجهلون باطنها الأجوف . ومن نماذج السراب في حياة الإنسان المعاصر هو الأمراض النفسية الموحشة . نعلم بتقدُّم العلم والطب كثيراً في علاج الأمراض العضوية والبدنية ، كما أنه قضى على كثيرون من الأمراض التي كانت في العهود السابقة ، أمّا الأمراض النفسية فقد أخذت بالانتشار ، ومن المحتمل أن يأتي يوم يستحيل فيه العثور على إنسان سليم نفسياً ؛ لأنَّ سراب الحياة سلب منه النوم ، ولا يمكنه أن يغفو ساعات متولدة إلا بأقراص منومة .

تحاوز هذه الدنيا الفانية والخادعة يتم من خلال العمل بالوصفة الدقيقة للطبيب الكبير المعالج لهذه الأمراض ، أي الإمام علي عليه السلام ، حيث قال : «تَحَقَّقُوا تَلْحَقُوا» ^(١) . الاسفار القديمة كانت تتسم على نحو قوافل ، وما كان يتوقف فيها إلا من كانت امتنته قليلة وخفيفة وإنما يختلف عن القافلة في مراحلها الأولى ، والإمام علي عليه السلام يرى شأن السفر في الدنيا نحو الآخرة شأن السفر مع القافلة ، فمن خفف فيها استطاع اللحاق بها وإنما يختلف .

٢ . الاسلام دين النوعية لا الكمية

لم يطلب الاسلام أعمالاً كثيرة من المسلمين بل طلب منهم أعمالاً خالصة ، ولهذا قد توضع يوم الآخرة تلاؤ من الأعمال في الميزان لا تزن شيئاً . نفس الاشخاص يوزنون كذلك من حيث الاخلاص ، وفي هذا المجال جاءت الرواية التالية : «إِنَّه لِيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعْوَذَةٍ» ^(٢) .

إذن ، ما يوليه الاسلام من أهمية هو عميق العمل ، ولهذا لا يوصي الاسلام بالكثرة والكمية أبداً بل بالكيفية والنوعية .

يقول الله تعالى في الآية السابعة من سورة هود :

﴿لَيَسْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَالًا﴾ ، داعياً الانسان من خلال هذه الآية إلى الاهتمام

بنوعية العمل وكيفيته .

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ٢١ .

(٢) مجمع البيان ٦ : ٤٩٧ .

المثل التاسع والثلاثون :

أعمال المشركين

يقول الله تعالى في الآية ٤٠ من سورة النور :

﴿وَكَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٌّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

تصوير البحث

تضمنت سورة النور ثلاثة أمثال ، أحدها : الآية ٣٥ ، وقد تحدثت عن نور الإيمان ، وفي المثالين الآخرين (الآية ٣٩ و ٤٠) ورد الحديث عن أعمال الكفار ، فشبّهت أعمالهم في الآية ٣٩ بالضوء الكاذب الذي يبدو ماءً (السراب) ، أمّا في المثل الذي هو موضع بحثنا فلا يعتبر الله أعمالهم ضوءً ولو كاذباً بل ظلمات مطلقة.

الشرح والتفسير

﴿وَكَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٌّ﴾

لجيٌّ من الحاجة وتعني الإلحاح على عمل ، كما لو راجعت شخصاً لكي يقوم بعملٍ لك ، لكنه يرفض فتراجعه تارة أخرى فيرفض كذلك وتستمر المراجعات ... وهذا لجٌّ . ومن هذا الباب اطلق لجيٌّ على البحر عند ما تتتابع أمواجه ، فكأنَّ الأمواج تلجم . والله شبه أعمال الكفار بظلمات البحر إذا كان لجيًّا .

﴿يَعْشَأُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾

يصف القرآن هذا البحر الموج بأن أمواجه تتلاحق موج بعد موج أو موج فوق موج وفي ليلة غائمة.

البحار كلما عمقت كلما ازدادت أمواجه وعظمت ، ويمكن تصور عظمة الأمواج في البحار العميق من خلال قياسها مع الأمواج الصغيرة التي تحصل في حوض السباحة التي هي أصغر بكثير من أمواج البحار وبخاصة العميق منها.

المستفاد من توصيف القرآن بأن البحر جلي كونه عميقاً ، كما أن العلماء يقولون : لا ضوء في الأعماق الأكثر من سبعمائة متر ، وهذا يكشف عن وجود ظلمات دامسة في هذه الأعماق . والعجيب أن في هذه الأعماق توجد نباتات وحيوانات مشعة ، أي يشع منها ضوء . فمن أين جاءت بالضوء؟ وما هي الأجهزة التي تولّد الضوء؟ يا من في البحر عجائبه؟

(١)

ما سبب كون أعمال الكفار بمثابة الظلمات التي في البحر اللجي وفي أعماق لا يصلها ضوء؟

لهذا الأمر علتان ، أحدهما : عمق البحر ، وثانيهما : أمواجه . الأمواج تسبب انكسار الضوء وتنبع من عبوره إلى أعماق البحر ، مضافاً إلى هذه الظلمات المتراكمة فإن السماء غائمة ومطرة ، وعادة ما تكون الغيوم الممطرة متراكمة وتزيد من الظلام ،عكس الغيوم الأخرى التي يقل تراكمها ويسهل عبور الضوء منها^(٢).

﴿ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا﴾

ملخص الكلام هنا أن عوامل الظلام جميعها قد اجتمعت في هذا البحر ، من الليل المظلم والسحب المتراكمة والمطرة التي تمنع من نفوذ الضوء فيها ومن العمق الكبير ومن الأمواج المتتالية التي تكسر الضوء.

لقد تراكمت الظلمات هنا إلى مستوى لو أنّ شخصاً وضع يده أمامه ما أستطيع رؤيتها حتى لو قرب يده من عينيه ، مع أنه بامكانه رؤيتها في الليالي العادية.

(١) هذه جملة من دعاء جوشن الكبير الذي يحتوي على ألف اسم من أسماء الله تعالى.

(٢) هذا إشارة إلى ما ورد في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكلمة ٤٧٢ من كلماته القصار ، حيث قسم السحاب إلى قسمين قائلاً : «اللهم اسقنا ذلل السحاب دون صعباها».

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

الله مصدر كل ضوء ونور ، ومن أراد النور فعليه اخذه من مصدره ، وهذا هو المراد من هذه الآية ، والمراد من النور هنا نور المعنوية والعلم والمعرفة والإيمان ، وما يمكن الحصول عليه إلّا من منبع النور.

أعمال الكفار مثل الشخص الذي ذكرته الآية حيث يكون في قعر بحر مظلم تراكمت عليه الظلمات بحيث لا يمكنه رؤية يده ، عكس المؤمنين فإنّ نور إيمانهم نور على نور ، يفيد منه الآخرون كما يفيد المؤمنون ذاتهم منه.

خطابات الآية

١ . أعمال الكافرين فقط ، لماذا؟

سؤال : أهم عامل يشكل شخصية الإنسان هو العقيدة والإيمان ، فلما ذا شُبّهت أعمال الكافرين فقط هنا بالظلمات ولم تُشّبه عقائدهم وكلامهم؟

الجواب : عمل الإنسان ترجمة لعقيدته وطريقة تفكيره ، وفي الحقيقة العمل يكشف عن ماهية الإنسان وواقعه ولا يدع مجالاً للنفاق إلى مدة طويلة ، مع أنّ بالامكان إخفاء العقائد الفاسدة والتقوّه كذباً بما يعاكسها بحيث يبدو الإنسان صاحب عقائد صالحة.

الإيمان القوي هو الذي يظهر أثره في العمل ، وقد جاء في تعريف الإيمان : «الإيمان عقد بالقلب ولفظ باللسان وعمل بالجوارح» ^(١).

رغم أن العقيدة والإيمان يشكلان أهم عاملين لشخصية الإنسان ، لكن العقيدة تتجلّس في القول والعمل ، وامكانيّة النفاق في القول كثيرة ، وعمل الفرد هو الذي يكشف عن شخصيته ، والآية أكّدت على أعمال الكفار رغم أنّ عقائدهم وأقوالهم كأعمالهم ظلمات في ظلمات.

٢ . «ظُلْمَاتٌ بعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» إلى أي شيء تشير؟

يقول البعض : إن الظلمات الثلاث ناظرة إلى عقائد الكفار وأقوالهم وأعمالهم.

(١) ميزان الحكم ، الحديث ١٢٦٣.

وبعض آخر يقول : الظلمات الاولى تشير إلى ظلمة جهل الانسان ، فالجاهل لا إيمان له ، وإذا سلك طريق العلم هداه هذا الطريق وأرشده .

والظلمات الثانية تشير إلى الجهل الناشئ عن الجهل ، أي كون الانسان لا يعلم بأنه جاهل ، وهو خطر كبير ؛ لأنَّ الذي لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم يظن كونه هادياً ومصلحاً ، لكن واقعه عكس ذلك ، فجهله مركب ، عكس الذي يجهل ويعلم أنه يجهل فإنَّ جهله بسيط .

والظلمات الثالثة تشير إلى من يجهل ولا يعلم أنه يجهل بل يتصور نفسه عالماً^(١) . استخدم القرآن الكريم تعبيراً جميلاً جداً في الآية ١٠٤ من سورة الكهف واصفاً هؤلاء

بما يلي :

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

مثل هؤلاء يعدون خيانتهم خدمة ، فيعصون الله ويطعنون أنفسهم بطياعه ، وهذه هي الظلمات الثلاث المتراكمة بعضها فوق بعض .

٣ . الجبر أم الاختيار؟

سؤال : جاء في نهاية الآية : **﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** ، فهل هي تعني أنَّ الله تعالى يمنح من نوره إلى البعض فيهتدون بالطبع ، وينفع عن البعض نوره فيضلُّون بالطبع؟ أليس هذا جبراً؟

الجواب : جرت سنة الله تعالى على أن يتم توفير الأرضية من قبلنا والإفاضة منه ، أي نجد القابلية ، والفاعلية منه تعالى . وعلى هذا يجعل الله نوره ويعطيه لمن وفر في نفسه الأرضية والقابلية الالزمة للنور الإلهي . وهذا لا يعني أنَّ الله تعالى يجعل نوره اعتباً دون حساب أو كتاب ، بل نور الإيمان لا يدخل في قلب اللجوء والمعصي والمعادي للحق وسيئ السيرة ومتبع الأهواء ؛ لأنَّه لم يُعد الأرضية الالزمة لدخول هذا النور . القلب مرآة الإنسان لا ينعكس فيها النور الإلهي ما لم تمسح وتنظف ، كما لا ينعكس لو كانت قد صدأت

(١) انظر الأمثل ١١ : ١٠٣ .

وفساد ، وسبب ذلك الانسان نفسه.

علينا أن نوفر الأرضية الالزمه للنبيل من الفيض الإلهي في كل اللحظات.

من هنا يتضح الجواب عن سبب قولنا في الصلاة : ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ،

مع أنا لو كنا في غير الصراط المستقيم لما كنا نصلّى؟ أليس ذلك تحصيل حاصل؟

وجوابه : أنا بحاجة إلى فيض الله تعالى ونوره في كل لحظة ، ولهذا علينا الحفاظ على

هذه القابلية دائمًا وفي كل وقت وعلى كل حال لكي تكون أهلاً لنور الإيمان ، كما هو

شأن المصباح الكهربائي الذي يحتاج إلى الكهرباء في كل آن ولحظة وإنما فينطفأ بمجرد انقطاع التيار.

في هذا الحال يُنقل عن الرسول ﷺ قوله دائمًا :

«إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً»^(١) ، وهذا الحديث يشير إلى حقيقة هي :

أنَّ الإنسان يستعدُّ لتقْبُلِ المداية الإلهية بعناية منه تعالى ، ولا تتأتَّى هذه العناية إلَّا في ظلِّ سعي الإنسان في طريق العبودية.

مباحث تكميلية

١ . مظاهر من نور الإيمان

في أول إجراء اتخذه الرسول بعد الهجرة من مكة إلى المدينة أمر ببناء مسجد وتشكيل

حكومة إسلامية . وعلى هذا كيف يمكن القول بفصل الدين عن السياسة؟

من خلال الدراسة البسيطة لسيرة حياة رسول الله ﷺ نعرف أن المسجد في ذلك

العهد كان بمثابة المقر والمركز للقيادة رغم بساطته.

وفقاً لما جاء في الكتب التاريخية فإن مسجد الرسول ﷺ كان عبارة عن أربعة

جدران بُنيت من الوحل ، ولم يكن له سقف ، وكان ارتفاع الجدران بم مستوى قامة انسان ،

وما كان بالامكاني الاستفاده منه عند هطول الأمطار ، لذلك جاء بعض الصحابة إلى

الرسول ﷺ

(١) نقل هذا الدعاء عن الرسول ﷺ والأئمة المعصومين عـ بألفاظ مختلفة ، وفي مجالات مختلفة ، نقل ثلاثة منها : ١ - بحار الأنوار ١٤ : ٣٨٤ ، ٢ - بحار الأنوار ١٦ : ٢١٨ ، ٣ - بحار الأنوار ١٨ : ٢٠٤ ، ولم نشر على رواية تدل على أن الرسول ﷺ كان يكرر هذا الدعاء يومياً.

يطلبون منه بناء سقف للمسجد ، وبعد أن سمح بذلك بدأ المسلمين ببناء السقف ، فبني من السعف ، أمّا أعمدته فكانت من جذوع النخل.

وقد بقي هذا المسجد على بساطته حتى آخر عمر الرسول ﷺ ، لكن بما أن الذين قاموا بهذا العمل أشخاص مؤمنون ، وكلُّ منهم بمثابة منبع نور الإيمان ، توسع بعد وفاة الرسول تدريجياً ليتبدّل إلى أعظم وأجمل مسجد في العالم الإسلامي بلغت مساحته حالياً كل المدينة عهد الرسول ﷺ ، ولو أن أحدهنا بذل أمولاً طائلة في سبيل رؤية هذا المسجد كان عمله في محله.

نعم ، إنَّ أعمال المؤمنين النيرة تنمو وتتسع.

عند ما أخذنوا بأسرى كربلاء إلى الشام أقعدوهم في بيت خرب يقرب من قصر يزيد الذي شق السماء بارتفاعه والذي كان يلفت نظر كل مار ، أمّا حالياً فالبيت الخرب أصبح مزاراً ثنوياً إليه قلوب الشيعة من محيي أهل البيت ظاهرًا ، وأمّا القصر فأصبح خربة لا أكثر ، وأمّا قبر معاوية فمهما بحثت عنه لا تجد إلَّا أثراً ضعيفاً في الباب الصغير ، في بيت صغير خرب ، رغم أنه كان حاكم الشام ومطلق العنان في تلك البلاد وظلماً جباراً لا يعرف غير أهوائه وشهواته. أمّا بنت الحسين الصغيرة فقبتها معمور ويهدى إلى الناس من كل مكان.

نعم ، ذلك من خصائص اليمان ، فيعلو ضياؤه وبهاؤه كلما طال عمره ، أمّا الكفر فترثاكم ظلماته كلَّما طال عليه الزمان.

المصدق الآخر لهذا الإدعاء هو ما حصل في معركة أحد حيث طُلب من المسلمين حفر خندق أطراف المدينة يمنع من عبور المشركين رجالاً وفرساناً وفي الأثناء واجهوا صخرة عجزوا عن كسرها ورفعها من مكانها فاستعنوا بالرسول ، ولنقرأ الحادث على لسان الرواية : «... فبینا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل المعامل فيه ، فبعثوا حابر بن عبد الله الأنباري إلى رسول الله ﷺ يعلمه ذلك ... فقلت : يا رسول الله ، إنَّه قد عرض لنا جبل لا ت العمل فيه المعامل ، فقام مسرعاً حتَّى جاءه ثم دعا بماء في إناء وغسل وجهه وذراعيه ومسح على رأسه ورجليه ، ثم شرب ومجَّ ذلك الماء في فيه ثم صبَّه على ذلك الحجر ثمَّ أخذ معلولاً فضرب ضربه فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور الشام ، ثم ضرب آخرَى فبرقت برقة

فنظرنا فيها إلى قصور المدائن ، ثم ضرب اخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور اليمن ، فقال رسول الله ﷺ : أما إنّه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق ، ثم انحصار علينا الجبل كما ينهض الرمل »^(١).

هؤلاء المنافقون من تنبؤات الرسول ، وقالوا : كيف سيفتح المسلمين هذه البقاع وهم يعيشون حالياً تحديات تحدد وجودهم ودينهم ، وما أستطاعوا الغلبة على المشركين العرب فضلاً عن غيرهم. انتهت الخندق بنجاج المسلمين وانتصارهم ورفع رأسهم ، ولم يمض زمان طويلاً من تنبؤات الرسول ﷺ حتى رأى المسلمين تحققها في أرض الواقع ، واستطاعوا الإسلام بعد خمسين عاماً من الحادث السيطرة على أجزاء كبيرة من العالم.

نعم ، ذلك امتياز نور الإيمان حيث يزداد بريقه وضياؤه بمرور الزمن ليبدو أفضل من ذي قبل دائماً ، أمّا الأعمال السوداء لغير المؤمنين فتزداد ظلاماً بمرور الزمن.

كل ما لنا فقد حصلنا عليه في ظل الإيمان ، ويكتفي للمؤمن أن يكون الله ولئمه يهديه من وادي الظلمات إلى النور ، وبئس حال الكفار ، الذين ولئهم الشياطين يخرجونهم من وادي النور إلى وادي الظلمات.

٢ . عالمة الإيمان

في نهاية البحث ننقل رواية عن الرسول ﷺ يحكي فيها واحدة من عائذ المؤمن :

«لا يستكمل عبدُ الإيمان حتى يحبُ للغير ما يحبُ لنفسه»^(٢).

من السهل التفوّه بهذه العالمة ، ولكن من الصعب جداً العمل بها.

(١) البحار : ٢٠ : ٢١٩ .

(٢) كنز العمال ، الحديث . ١٠٦ .

المثل الأربعون :

الأصل سبيلاً

يقول الله تعالى في الآية ٤ من سورة الفرقان :

﴿فَمَنْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلًا﴾

تصوير البحث

المثل يخص الكفار والمشركين الذين سلكوا طريق اللجاجة والعناد أمام الرسول عليهما السلام ، وألحوا على عقيدتهم الباطلة وسعوا نحو أهوائهم حتى ذهبت قواهم العقلية فما باتوا يدركون شيئاً ، لذلك شبههم الله بالأنعام.

الشرح والتفسير

لاتضاح خطاب هذا المثل الفريد من نوعه علينا دراسة الآيات التي سبقت آيته.
تحدّث الآيات السابقة عمّا أورده الكفار من إيرادات وانتقادات تجاه الرسول

عليهم السلام وقالت :

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُرُّوا﴾ ، أي أنهم يستهزؤون بالرسول متى ما شاهدوه ، وكان ذلك أحد ردود الفعل التي صدرت من أعداء الرسل والأنبياء ، واقترنـتـ معـ نـسـبةـ بعضـ

(١) وينسب إلى موسى الجنون قائلاً : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(٢).

﴿أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٣) ، أي أنه لو كان رسولاً فلما ذا ييدو كباقي البشر

ويفعل كما يفعلون ، ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤) ، مع أن المفروض بالرسول أن يكون من الملائكة.

بطلان هذا الكلام واضح ، فالمفروض بالرسول أن يكون من البشر لا الملائكة^(٥) ،

لكي يفهمهم ويفهم آلامهم ومشاكلهم ويشعر بها فيعالجها بالعلاج المناسب. ولو كان من الملائكة لما أدرك مشاكلهم ولما احس بها ، مضافاً إلى أنه لا أحد من البشر يصغي لكلام الملائكة ؛ لأن الناس سيقولون : ما تقوله الملائكة خاص بأمثالها ويناسب ما يجانسها ؛ باعتبارها معصومة ولا شهوة لها ، ولا يمكن لنا العمل بما تقول به الملائكة ، فإنما غير معصومين و... أما لو كان الرسول من جنس البشر فان هذه الذرائع جميعها ترتفع ولا مجال للتتشبث بها.

﴿إِنْ كَادَ لِيُضْلِلُنَا عَنِ الْهُدَى لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾^(٦) ، وهذا الكلام أطلقه المشركون

بعد ما مضى منهم من استهزاء ، ويريدون بذلك أنهم قاوموا الرسول وصمدوا على عبادة الأوثان ، ولو لا ذلك لانحرفوا مع الرسول ، كما يزعمون.

كلمات المشركين متناقضة هنا ، فهم ينسبون له الجنون من جانب ، ومن جانب آخر يبرزون تحفتهم من تأثير كلام الرسول عليهم ، مع أنه لا أحد يخاف تأثير كلام الجنون عليه ، ولو كان جنونناً حقاً فلا ينبغي الخوف من تأثير كلامه ، ولو لم يكن جنونناً فالمفروض أن يكون كلامه صادقاً ، فلما ذا يرفض كلامه؟ وكلامهم هذا يكشف عن سخف عقائدهم ويزيل ذلك

(١) النازعات : ٢٤.

(٢) الشعرا : ٢٧ ، وهذه التهمة لا تختص ببعض الأنبياء ، بل تُسب الجنون والسحر لجميع الأنبياء ، كما ورد ذلك في الآية.

(٣) الفرقان : ٤١.

(٤) الفرقان : ٧.

(٥) ولهذا اعتبر الله كون الرسول بشراً ممّا مَنَّ الله تعالى به على البشر ، كما ورد ذلك في الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٦) الفرقان : ٤٢.

بوضوح .

أجاب الله تعالى بثلاثة أجوية على كلامهم الباطل والمتناقض :
الاول : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾^(١) .

وهذا الجواب يعني الانتظار إلى يوم رؤية العذاب ، فعندئذٍ يتضح الحق والباطل.

سؤال : لماذا لم يدرك الكفار الحق قبل نزول العذاب؟

الجواب : الأهواء ضربت على قلوبهم ستاراً لا يسمح دخول الحقائق فيها ، فالآهوء وعبادة الأصنام والمال والجاه والمقام الدنيوي بمثابة الحجب والموانع التي تمنع من إدراك الحقائق ، وهذه الموانع لا ترفع إلا بالعذاب الإلهي .

وهذا هو سبب اعتراف فرعون بحقيقة ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) بعد أن أوشك على الغرق ، رغم أنه كان يقول : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٣) ، لكن إيمانه عندئذٍ دون جدوى .

عند ما يتزل العذاب الإلهي تزال حُجب الغرور والغفلة والجهل ، وبعدها يفهم الكفار من هو الأصل سبيلاً .

سؤال : الآية الكريمة في مقام الإجابة على الكفار ، وهل يُعد التهديد بالعذاب الإلهي جواباً؟

الجواب : نعم ، قد يكون التهديد بالعذاب آخر جواب ، ولا يوجد جواب غيره . السفسطائيون ينكرون كل شيء ويشكرون في كل ما يوجد حتى في شكوكهم ذاتها ، وكبار الفلاسفة يقولون : السفسطائيون يرفضون كل دليل يقام ، وأفضل دليل هو أن تُضرم ناراً وتقرّهم إليها وتقول لهم : لا وجود لهذه النار والحرارة الصادرة منها ، فهي خيال لا أكثر ، ولا يمكن أن يحترق بما أحد ، لأن الاحتراق وهم لا حقيقة ، عندها يتراجعون عنها تدريجياً ليتبَدَّل هذا الإنسان إلى واقعي بعد ما كان سوفسطائياً .

(١) الفرقان : ٤٢ .

(٢) يومن : ٩٠ .

(٣) التتصص : ٣٨ .

إذن ، لا طريق لإيقاظ المتعصبين واللحوظين من غفوتهم وغفلة أفكارهم غير العذاب الإلهي ، فهو الذي يزبح ستار الغفلة ويوقظهم.

الثاني : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(١).

كيف يمكن هداية من كان إلهه هواه؟ إنَّ تعاملهم غير المؤدب مع الرسول ﷺ وما يطلقونه من كلام بذيء تجاه الرسول ، كله يرجع إلى اتباع الأهواء ، وإلا فبطلان عبادة الأواثان أمر واضح.

أساساً لا يخفى الحق على أحد دائماً ، بل لا بد وأن يظهر له في وقت ما ، وما يمنع من اتضاح الحق هو عبادة الأواثان. ألم يكن الحق واضحاً عهد الإمام علي عليه السلام في حربه مع معاوية (لعنه الله)؟

في جانب كان علي عليه السلام مركزاً للعدالة والعبادة ، وأنصاره عبارة عن ثلة من المسلمين المخلصين من الصحابة الذين لا يغون من الحرب إلا رضا الله تعالى ، وفي الجانب الآخر كان معاوية مركزاً للظلم والتمييز وسيباً للاضطرابات وعدم الثبات في الدولة الإسلامية ، ويحوم حوله مجموعة من الذين جمعتهم مائدة معاوية الدسمة ورشاويه ، وهل يستحبيل تشخيص الحق بين هاتين الطائفتين؟ بالطبع لا ، لكن الأهواء والموائد المنوعة والرشاوي والأموال هي التي منعت من التشخيص.

يا رسول الله ، أنت لا تستطيع إنقاذ هؤلاء ، فإن أرباهم أهواهم ، وبئس للإنسان الذي يصبح إلهه هواه ، فهو أحضر ما يمكن أن يكون في حياة الإنسان.

يقول المؤلف الشهير ويل دبورانت : «لما كان لكل شيء روح أو إله خفي في المعبودات الدينية لا تقع تحت الحصر» ، كما يقول : «لا تكاد لا تجد حيواناً في الطبيعة كلها . من الجعران المصري إلى الفيل عند الهندوس . لم يكن في بلده ما موضع عبادة»^(٢).

لكن جاء في رواية : «أبغض إله عبد على وجه الأرض الهوى»^(٣) ؛ وذلك لأجل أنَّ

هذا

(١) الفرقان : ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة ١ : ١٠٢ - ١١٠ .

(٣) المحة البيضاء ٨ : ٤٤ .

الصنم يلتوث الانسان بكثير من الذنوب ، من قبيل : المسكرات والمخدرات والسرقة والتهريب والقتل وما شابه. كثير من المحاذير التي تُرتكب في الوقت الراهن تحصل بداع من اتباع الهوى والنفس. إنَّ مجزرة هiroshima من قبل امريكا وقصف مدينة حلبجة بالأسلحة الكيميائية من قبل النظام العراقي ودفن النساء والأطفال البوسنيين وهم أحياء ، كلها من الآثار المخربة لحكومة الاهواء على حياة البشر.

على أي حال ، لا مشكلة ولا صعوبة في تمييز الحق عن الباطل ، على أن لا يَتَبع الانسان هواه.

الثالث : ﴿أُمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

في هذه الآية يخاطب الله تعالى المشركين ويحيب على كلامهم الوارد في آية المثل ، قائلاً للرسول : إنَّ أكثراهم لا عقل لهم يدركون به ولا آذان لهم يسمعون بها ، فهم كالحيوانات العاجزة عن الإدراك ، بل هم أضلُّ سبيلاً من الحيوانات ، فإن صوت الحق ملأ العالم ، وآيات الله وآثاره موجودة في كل مكان ، لكن سماع صوت الحق ومشاهدة آثار الله وآياته تستدعي آذاناً تصغي وعيناً تشاهد وعقلاً يعي ويدرك ، وهم يفقدون هذه الأشياء. لو أن ضوء الشمس ملأ الأرض كلها ما استطاع الأعمى أن يراه ، كما أن الأصم لو كان جالساً على شاطئ البحر ما كان بإمكانه أن يسمع صوت أمواجه ، وهذا هو شأن الكفار فلا يسمعون الحق ولا يرون ولا يدركونه ، فهم كالأنعام بل أضل.

لماذا شبّه الكفار بالحيوانات؟

كما لاحظنا فان الله شبَّه الكفار الذين لا يسمعون ولا يرون ولا يدركون من الحق شيئاً بالحيوانات ، بل اعتبرهم أضل من الحيوانات ، لكن لماذا؟ هناك وجوه شبَّه بين الكفار والحيوانات ، هي :

الف : لا تدرك الحيوانات شيئاً ، فلا قدرة لها على الفهم والاستيعاب ولا شعور لها ،

وأعمالها

(١) الفرقان : ٤٤ .

تصدر عنها بداع غريزي ، وهذا هو شأن الكفار ، فلا شعور لهم ، لذلك لا يدركون شمس الحقيقة؟

باء : الحيوانات لا تشعر بالمسؤولية ، فهي لا تدرك كون المزرعة ليتيم أو موقوفة وأن الدخول إليها حلال أم حرام ، فهي لا ترى نفسها مسؤولة تجاه هذه الأمور ؛ لأنّها لا تدرك ، أي أن عدم إحساسها بالمسؤولية ينشأ عن عدم إدراكها ، وعدم احساس الكفار بالمسؤولية من هذا القبيل ، فهو ناشئ عن عدم إدراكهم.

جيم : الحيوانات تابعة لغائزها ، فهي لا تعرف غير العلف والاصطبل ، وكذا حال المشركين ، فهم لا يعرفون غير أهواهم وما تعليه عليهم.

DAL : الحيوانات غير تابعة للمنطق ، ولا ترى معنى للاستدلال ، وكذلك الكفار ، فهم عاجزون عن إدراك استدلالات القرآن القوية رغم بساطتها ، والتي وردت في مجالات مختلفة مثل التوحيد والمعاد ، ويصرّون دائمًا على كلماتهم التي يرددونها دائمًا.

هاء : لا تشخيص الحيوانات المصالح والمفاسد ، ولا تعلم بما يصلحها أو يفسدها ، وهذا قد تجذّب أو تقرب من المخاطر وهي لا تعلم ما قد أقدمت عليه ، كما هو حال الكفار الذين لا يعلمون بأنّ عبادة الأصنام واتّباع الأهواء لا يجلب لهم نفعًا ولا فائدة ، كما لا يعلمون أن السعادة والنجاح يتحقق في ظلّ التوحيد.

هذه وجوه خمسة يشتراك فيها الكفار مع الحيوانات ، ولهذا شبّهوا بها في الآية الكريمة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَيِّلًا﴾

مقارنة الحيوانات بالمشركين تثبت تفوق الحيوانات على المشركين ، وكون الآخرين أسوأ حالاً من الحيوانات ، للأمور التالية :

الأول : الحيوان حيوان كان ويكون وسيبقى كذلك ، وهذا هو شأنه ولا يمكنه أن يتجاوز حيوانيته ؛ لعدم قابليته على التطور والتقدّم ، أمّا الإنسان فله القابلية على التطور ليكون حتى أفضل من الملائكة ، لكنه قد يبقى في مرحلة الحيوانية بسبب تماديه في العnad وتعصيه ، مما يجعله أن يكون دون مستوى الحيوانات.

لا يلام الشخص على عدم انتفاعه من السوق إذا دخله دون أن يكون له رأس مال

، بينما

يُلام لو دخله وقد كان له رأس مال ولم ينتفع منه. والانسان الذي سجدت له الملائكة ونفح الله فيه من روحه وأصبح أفضل المخلوقات إذا سقط كان أضل من الحيوانات دون شك.

الثاني : الحيوانات تقدم خدمات كثيرة للانسان ، فبعضها تمنح الانسان لبناً يعبر عنه القرآن تعبيراً جيالاً في الآية ٦٦ من سورة النحل ، حيث جاء هناك : **﴿نُسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾** ، وكثير من المنتجات الأخرى مثل اللحم والعظم والصوف والجلد بل حتى الدم فان الانسان وكذا باقي الحيوانات تقيد منه ، هذا كله مضافاً إلى الإفادة منها كوسائل للنقل والحمل ، علاوة على كونها أداة طيبة يد الانسان ^(١).

الثالث : الحيوانات تتبع منهجاً غريزياً ، بعبارة أخرى : إيعازات خلقتها هي التي تهدىها إلى أهدافها أمّا المشركون فان الأهواء ضربت على عقولهم وفطرتهم ستاراً ، لذلك كان خطر ضلالتهم أكثر.

الرابع : خطر الحيوان محدود مهما بلغ ، فالذئب من أخطر الحيوانات ، وأقصى خطره أن يهاجم قطيعاً من الغنم ويأكل أو يقتل عدة خراف ، أمّا خطر الانسان عند ما يتبع الأهواء ويعصي العقل فقد يلقي بقنبلة نووية في هيروشيما ويقتل (٨٥٠٠٠) انساناً في لحظة واحدة ويصيب آخرين لا زالوا يعانون من إصاباتهم. ألم يكن هكذا اناس أضل من الحيوانات؟

الخامس : الحيوانات لا تسعى للتظاهر بمظهر حسن عند ما ترتكب ذنباً ولا تسعى لتبرير أعمالها السيئة ، أمّا المبعدون عن الهدى فيرون جرائمهم الكبيرة ويقولون في تبرير قصف مدinetين يابانيتين بقنابل نووية : لو لم نعمل هذا لاستمررت الحرب وطالت ولزالت الضحايا والقربان إثر ذلك!

يقول أحد الكبار : لو أن الآية الشريفة المزبورة كانت قد نزلت دون ذيلها **﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾** لم تُغيطاً ؛ لأن الحيوانات أفضل من بعض الناس بكثير.

خطاب الآية

العزّة في ظل الإيمان

يستفاد من مجموع ما قيل في تفسير هذه الآية الكريمة أن الانسان إذا كان يسعى نحو

بلغ

(١) أشارت الآيات ٥ . ٨ من سورة النحل إلى فوائد الحيوانات المختلفة.

مقامه الحقيقي و شأنه الواقعي وأراد تنمية قابلياته والنجاة من خطر السقوط فعليه السير تحت ظل الإيمان والطاعة ، والعمل بما أوصى به الإمام علي عليه السلام حيث قال : «من أراد عزّاً بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، وهيبة بلا سلطان فليتقل عن ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته»^(١).

(١) ميزان الحكمة الباب ٢٧١٠ ، الحديث ١٢٥٤٠ ، وقد نقل مضمون هذه الرواية عن كلٌّ من الرسول عليهما السلام والامام الحسن المجتبى عليهما السلام والامام الصادق عليهما السلام .

المثل الحادي والأربعون :

اتَّخَذُوا أُولَئِكَ مَنْ دَوْنَ اللَّهِ

الآية ٤١ من سورة العنكبوت تشكل المثل الحادي والأربعين من أمثال القرآن ، حيث

جاء فيها :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَاءِ كَمَثَلِ الْعَنْكُبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أُوْهَنَ الْبَيْوَتِ لَبَيْثُ الْعَنْكُبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

تصویر البحث

بما أنَّ التوحيد والشرك من أهم مباحث القرآن ولهم دور أساسي في سعادة الإنسان وشقائه ، لذلك خصَّ الله تعالى ببعضًا من أمثلته بهذا الموضوع ، مستخدماً مبدأ التنويع في بيانه. والمثل المزبور يتعلق بالشرك وعبادة الأوثان ، مشبيهاً فيه الشرك وما يعبد من الأصنام بالعنكبوت وب بيته ، بياناً لضعف الأصنام وعجزها.

أهمية التوحيد

تقديم أن الشرك كان أول اهتمامات الانبياء والرسل ، وكان يشكل أساس المواجهة بينهم وبين معاصرיהם ، أمَّا التوحيد فكان أهم ما دعى إليه وأساس دعوتهم ؛ وذلك لأجل أنَّ الشرك أساس شقاء البشر ومنشأ كل الدنوب والانحرافات العقائدية ، أمَّا التوحيد فأساس السعادة ومنشأ النجاح والفالح.

التوحيد ينير القلب ويوحد المجتمع ، أمّا الشرك فلا يجلب معه إلّا الظلمات والتشتّت والتفرقة في المجتمع ، ولهذا اختص ثلث القرآن بموضوع التوحيد والمسائل ذات الصلة به.

الشرح والتفسير

﴿مَثُلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاء﴾

شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ هُنَا بِالْعَنْكَبُوتِ وَأَصْنَامِهِمْ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، وَالتَّشْبِيهُ لَا يَخْتَصُ بِالْمُشْرِكِينَ بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ كَوْلِي لِنَفْسِهِ ، فَالآيَةُ عَامَةٌ دُونَ اخْتِصَاصِ بِالْمُشْرِكِينَ. وَعَلَى هَذَا تَكُونُ شَامِلَةً لِوُثْنِ الْمَقَامِ وَالسُّلْطَةِ وَالشَّهْوَةِ وَالْأَهْوَاءِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالشَّرْوَةِ وَكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَصِّيَ اللَّهَ بِهِ .

﴿كَمَثُلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذُتْ بَيْتًا﴾

أَيْ أَنْ مُثُلَ هُؤُلَاءِ كَمَثُلِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي تَتَّخِذُ بَيْتًا لِتَلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَهُؤُلَاءُ قَدْ يَكُونُونَ مُشْرِكِينَ أَوْ غَيْرَهُمْ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ ، وَمُثُلُ آهَمَتْهُمْ كَمَثُلِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، وَهُوَ قَدْ يَتَمَثَّلُ بِالْمَقَامِ أَوِ الشَّهْوَةِ أَوِ الصَّنْمِ أَوِ مَا شَابَهُ ، فَهَذِهِ كُلُّهَا بَيْتٌ لِلْعَنْكَبُوتِ.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبَيْوَتِ لَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ﴾

وَهُلْ يَكُونُ الْوَثْوَقُ بِمَثُلِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ؟ وَهُلْ يَكُونُ الْوَثْوَقُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَالاطْمَئْنَانُ بِهِ؟
الْجَوَابُ بِالسُّلْبِ قَطْعًا؛ لِأَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ مِنْ أَوْهَنِ الْبَيْوَتِ وَأَضْعَفُهَا؛ وَذَلِكُ
لِأَنَّهَا مُصَنُّوعَةٌ مِنْ مَوَادٍ لَا مَقَاوِمةً لَهَا أَمَامَ الْحَوَادِثِ ، وَتَتَلاشِي بِقَطْرَاتٍ وَلَوْ قَلِيلَةٌ مِنَ الْمَطَرِ ،
فَضْلًا عَنِ السَّيْوَلِ ، كَمَا أَنَّهَا تَتَلاشِي بِشَعْلَةِ الشَّمْعَةِ الْمُضَعِّفَةِ ، فَضْلًا عَنِ الْحَرِيقِ ، كَمَا
يَكْفِيهَا نَسِيمًا مِنِ الرِّيحِ لِتَتَلاشِي دُونَ حَاجَةٍ إِلَى إِعْصَارٍ ، كَمَا أَنَّهَا تَتَلاشِي بِغَبَارٍ بَسِيطٍ وَمَا
شَابَهُ ذَلِكَ وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ ضَعْفِ هَذِهِ الْبَيْوَتِ ، كَمَا يَلْاحِظُهَا الْجَمِيعُ.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أَيْ أَنَّ الْإِتْكَاءَ عَلَى الْأَوْثَانِ الْمُزِيَّورِ كَالْإِتْكَاءِ وَالْوَثْوَقِ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانَ هُؤُلَاءِ
يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ.

خطابات الآية

١ . أصنام جديدة

كما تقدّم فإنّ عبادة الأوّثان لم تقتصر على عبادة أحجار أو أخشاب ، بل تشمل كل عبادة لغير الله ، وفي عصرنا الحاضر هناك الكثير من الأوّثان من قبيل المقام والشهوة والمال والشوهة والأهواء النفسانية والشياطين وكل ما يغفل الإنسان عن الله.

تحدّث الآية ٦٠ من سورة يس عن أحد أشكال عبادة الأصنام قائلة : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بْنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ، أي أنّ عبادة الشيطان وطاعته من أصناف عبادة الأصنام ، لكن هل تعلمون كيف تكون عبادة الشيطان؟ وهل هي تعني الصلاة والصوم للشيطان؟

في الإجابة على ذلك ينبغي القول : كلا ، فلا يعمل أحد هذا ، وعبادته تعني متابعة شخص والإلتئام بأوامره ^(١).

العمل وفق أوامر الشيطان عبادة له ، وكل أمر لم يصدر من الله وائتمر به الإنسان كان نوع شرك وعبادة للأصنام.

٢ . بيت العنكبوت من آيات الله العظمى

بيت العنكبوت من عجائب الخلق ، كذلك العنكبوت نفسه الذي يبدو بأعيننا موجوداً قليلاً القيمة. وقد اكتشف العلماء حتى الآن عشرين ألفاً من أصناف العنكبوت ذات أشكال وسلوك وحياة متباعدة.

في القسم التحتاني من بطنه توجد حفرة صغيرة بحجم رأس الأبرة ، في داخلها سائل لزج يدخل العنكبوت أطرافه فيها ويخرج مقداراً من هذا السائل اللزج يصنع منه خيوطاً تُستحكم عند تعرضها للهواء ، وبهذه الخيوط ينسج بيتاً أو شبكة للصيد. يوفر العنكبوت غذاءه من خلال الحشرات التي تقع في شبكته ، فهو من الحيوانات

التي

(١) جاء هذا المضمون في رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام ، راجع ميزان الحكمة ، الباب ٢٤٩٦ . الحديث ١١٣٥٢ .

تتغذى على اللحوم. بعض الحشرات تقع في الشبكة وهي طائرة ، فيهم بسرعة على لفّها بخيوطه لتصبح سجينته حتى الموت فيأكلها عندئذ.

لهذه الخيوط خصائص فريدة نشير إلى بعض منها :

الاولى : أكثر استحكاماً من الفولاذ ، فإذا صنعنا خيوطاً من الفولاذ بنفس مقاسات خيوط العنكبوت كانت خيوط العنكبوت أكثر استحكاماً ، وإذا صنعنا أنابيب من سائل العنكبوت بحجم قطر أنابيب الفولاذ كانت أنابيب سائل العنكبوت أقوى وأكثر استحكاماً بمرات .

الثانية : ينسج العنكبوت من السائل الموجود في حفرة بطنه ما يقرب من ٥٠٠ خيطاً أو وترأً ، وهذا أمر عجيب حقاً.

الثالثة : الأعجب من ذلك كله أن بعض الخيوط تشكلت من أربعة خيوط أقل سمكاً ، كل منها يتشكل من ألف خيط.

ألم يكن ذلك من آيات الله؟ ﴿وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعَرِّضُونَ﴾^(١).

الرابعة : هندسة العنكبوت مما تثير الإعجاب ، فهذا الحيوان الضعيف ينسج بيته على غرار أشعة الشمس بنحو مساوي ومنتظم ، مراعياً في ذلك الفواصل والزوايا بدقة فائقة . خلاصة الكلام ، أن الله تعالى أعمل دقة ونظماماً في غاية الدقة عند حلقة هذه الحشرة التي تبدو ضعيفة .

كل من العجائب تكفي لمعرفة الله تعالى ، مع أن الكون مفعماً بهذه العجائب والآيات ، ولا مسألة غير التوحيد تتمتع بهذا المقدار من البراهين والأدلة ، فلها مليارات من البراهين ، فكل من النجوم والكواكب وحتى الحيوانات وأوراق الاشجار والبشر كلها أدلة على الله تعالى ، فهو ليس بالأمر الخفي .

سؤال : إذا كان وجود الله تعالى بهذه الدرجة من الواضح فلما ذا ينكره الماديون؟

. ١٠٥ : يوسف (١)

الجواب : إِنَّمَا يَقْرُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ بِنَحْوِهِ أَوْ أَخْرَى لِكُنْهِمْ يَبْدَلُونَ اسْمَهُ ، فَعِنْدَ مَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقَدْرَتِهِ الْمُتَجَلِّيَّةِ فِي مَعْدَةِ الْإِنْسَانِ حَيْثُ يَمْكُنُ لَهُ الْعِيشُ بِشَلَّهَا فَقَطْ ، يَقُولُونَ : (الطَّبِيعَةُ عَمِلَتْ بِنَحْوِهِ حَيْثُ يَمْكُنُ لِلْإِنْسَانِ الْعِيشُ بِشَلَّهَا ثَلَاثَ أَجْزَاءِ الْمَعْدَةِ ، فَعِنْدَ التَّعْطِيلِ يَقُولُونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ الْمُعَطَّلِ بِجَمِيعِ النَّشَاطَاتِ الْمُتَطَلِّبَةِ مِنْ الْمَعْدَةِ) . وَفِي الْحَقِيقَةِ مَرَادُهُمْ مِنَ الْطَّبِيعَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَنَحْنُ نَدْعُوهُ وَنَخَاطِبُهُ وَلَا نَدْعُوُ الْطَّبِيعَةَ وَلَا نَخَاطِبُهَا ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ ذَاتِ شَعُورٍ وَلَيْسَ أَهْلًا لِلْخَطَابِ.

٣ . فلسفه التمثيل بحيوان ضعيف

عند ما سمع المشركون تشبيه الله المشركين بالعنكبوت وأصنامهم ببيت العنكبوت اعتبرضوا وتساءلوا عن سبب تمثيل الله بحيوانات ضعيفة ، وهل هي تناسب مع عظمة الله؟ أجاب القرآن عن اعتراضهم وتساؤلاتهم من خلال الآية ٤٣ من نفس السورة ، حيث قال :

﴿وَتَلَكَ الْأَمْثَالُ نَصْرِئُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾

أي أن الفصيح والبلigh يتكلّم بما يقتضيه الحال ، فإذا كان الحديث عن ضعف وهون موجودٍ من قبيل معبود المشركين فعليه التمثيل بما يكشف عن هذا الضعف والوهن ، وأي مثال أفضل من بيت العنكبوت يكشف عن ضعف وهون الأوثان؟

٤ . قيمة العلم

أكّد القرآن على العلم والمعرفة في موضوعين من الآيات المتقدّمة :

الاول : في نفس المثل حيث ذيّله بالعبارة التالية : **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**

والثاني : عند الإجابة على اعتراض المشركين على تمثيل القرآن بحيوانات ضعيفة مثل العنكبوت والبعوض ، فقد جاء هناك : **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾**

مفهوم الجملتين ، حيث أكّد فيهما القرآن على العلم ، هو كون العلماء والمفكّرين هم المخاطبون الأصليون لهذا الكتاب ، رغم أنه كتاب لجميع البشر.

كَلَّمَا ازدادت قابلية الإنسان العلمية كَلَّمَا ازداد خُلُّهُ منه.
أهمية العلم في ديننا باللغة بحيث يُعدُّ رأس الفضائل وغايتها^(١) ، كما أنه من الأعمال
الموصى بها في ليالي القدر ، رغم كون هذه الليالي للدعاء والمناجاة والتوبة^(٢).

مباحث تكميلية

١ . لنعتبر من التاريخ

عند ما نتصفح التاريخ نجد شواهد كثيرة تحكي عن ضعف وهون كل قدرة غير الله تعالى.

يحكى القرآن الكريم قصة قوم سبأ في الآيات ١٥ - ٢١ من سورة سبأ ، وهي نموذج كامل وشاهد حقيقي على ما نقول.

خلاصة قصة قوم سبأ

كانت في بلاد قوم سبأ جبال تجري منها سيول عند هطول الأمطار ، مما يؤدي إلى تدمير مزارعهم ومنازلهم ، فأقدموا على إيجاد سدّ تراي يعني وصول السيول إلى المزارع والمنازل ، ويبدو أنه أول سدّ بناه البشر ، فأوجدوا بحيرة عظيمة خلف السد ، كما أوجدوا قنوات لري المزارع والبساتين.

تبذلت بلادهم ببركة هذا السد إلى مزرعة عامرة عظيمة ملؤها الأزهار والشمار والفاكه ، فازدهر اقتصادهم ، وكان منشأً لبلورة حضارة سميت باسمهم ، وقد بلغ الرفاه والنعم في بلدتهم إلى درجة كانت الطرق جميعها مظللة بالأشجار المثمرة ، وكان المسافرون يمشون تحت ظل الأشجار ما داموا في هذا البلد ، كما كانوا في غنى عن حمل أمتעה معهم باعتبار وفرة فواكه وأشجار الطريق ، بل كان يكتفيهم أن يحملوا معهم سلة يملؤونها من أمتعة الطريق.

لكن وفور النعمة يبعث إلى الغرور والغفلة ، فقد بدأ يصدر من البعض ما يكشف

عن

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٨٣١ ، الحديث ١٣٣٣٠.

(٢) المصباح المنير (المشكيني) : ٣٩٥.

نكر لهم نعم الله ، فكانوا يقولون مثلاً : (يا له من وضع ، فقد كان السفر خاصاً بالأثرياء ، وحالياً الجميع بإمكانه السفر) ، أو (يا له من بلد تتصل فيه القرى بالمدن والقرى بالقرى ، وكل مكان فيه مشجر ومعمور؟ يا رب فرق بين القرى) ، وكثير من الكلمات الأخرى التي تصدر عن غفلة.

أدى نكراً النعمة إلى نزول العذاب الإلهي وتدمير ما كان معيناً.

هل تعلمون كيف دمر الله هذا البلد العamer؟ هل دمّره بالقنابل النووية؟

كلا ، كانوا ضعفاء كبيت العنكبوت ، فما كانت الحاجة إلى قنابل نووية ، فقد أوكل الله وظيفة تدمير هذا البلد إلى مجموعة من الفئران ، لكي يفهم الإنسان أن كل قدرة غير الله ضعيفة كضعف بيت العنكبوت.

أوجدت الفئران ثقباً صغيراً في السد توسيّع هذه الثقوب تدريجياً إلى أن أدت إلى اختيار السد في ليلة تزامن مع صوت مرعب ، وغطى الماء البلد لكي يتبدّل إلى مستنقع بعد ما كان يبدو بليداً أخضر من كثرة الأشجار والمزارع والبساتين ، ولم يعد بلداً مؤهلاً للعيش ، فهجره أهله إلى البلاد المجاورة.

٢ . أليس الاتكال على غير الله اتكال على بيت العنكبوت؟

النموذج الآخر للقدرات الشبيهة ببيت العنكبوت هو قدرة الشاه نادر قلي أفسار ، فقد استطاع بقدرته طرد الأفغان الذين كانوا يسيطرؤن على إيران ظلماً وعدواناً ثم أقدم على توسيع رقعة سلطنته ، فهاجم عدّة دول حتى وصل الهند وتحول إلى أسطورة ، لكنَّ هذه الأسطورة وافتها الأجل ببساطة. في ليلة غضب على أحد طباخيه ، وخوفاً من توقيع حكم إعدامه صباح اليوم اللاحق سابق الطباخ وأقدم على قتل نادر شاه ليلاً وقطع رأسه ، وهو نائم.

نعم ، هذا هو شأن كل قدرة بيت عنكبوتية ، وإذا دقق الناس فهموا أنه لا يمكن الوثوق بقدرة غير قدرة الله ، ولا يمكن الاتكاء على غير الوحيد الأحد.

المثل الثاني والأربعون :

تَوْحِيدُ الْمَالِكِ

يقول الله تعالى في الآية ٢٨ من سورة الروم :

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءِ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاةٌ تَخَافُونَهُمْ كَجِيلَةٍ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَقْلُوْنَ﴾

تصویر البحث

نظراً للأهمية الفائقة للتَّوْحِيد وفروعه المختلفة جاء هذا المثل لبيان أحد فروع الشرك والتَّوْحِيد ، منطلقاً من بعض عقائد المشركين وموظفياً وجداً لهم وفطركم لتفكير في التَّوْحِيد ، ومن خلال طرح بعض التساؤلات حثّهم على التفكير في عبادة الأصنام وقضاياهم المختلفة.

فروع التَّوْحِيد

لتَّوْحِيد فروع مختلفة نشير إلى بعض منها باختصار .

١ . تَوْحِيدُ الذَّاتِ

تَوْحِيدُ الذَّاتِ يعني القول بأن ذات الله تعالى واحدة ، وهو خالق ومبدأ كل شيء ، وفي قبال ذلك الوثنيون الذين يقولون بمبدأين الكون هما : الله والشيطان ، وأن الإنسان مخلوق من الشر والخير ، وحالي الخير لا يمكنه أن يكون خالقاً للشر ، كما أن خالق الشر لا يمكنه أن يكون

خالق الخير ، والله مبدأ الخير ، والشيطان مبدأ الشر.

وواجهت الأديان التوحيدية وبخاصة الاسلام هذه العقيدة ، ومن وجها نظر المسلم لا شرّ في العالم ، وكل ما يوجد هو خير ، لكن الأشقياء يسيئون استخدام الأشياء ، فالمال والثروة والمقام والشهوة كلها خير ، لكن المسيئين يستخدموها بنحو غير مشروع ، وبذلك يتبلور الشر ، وسوء استخدام شيء لا يدل على كونه شرًّا.

تجري هذه القاعدة في حق باقي الأحياء كذلك ، فسموم الحيوانات ليست شرًّا ؛ لأنها وسائل للدفاع عن نفسها ، كما أنَّ كثيراً من الأدوية تُعدُّ بهذه السموم ، لهذا نرى اهتمام بعض شركات صناعة الأدوية بقضية تربية الحيوانات السامة من قبيل الأفاغي . إذن ، لا شرّ في الكون لكي تحتاج للقول بوجود مبدأين للكون ، وكل ما يوجد يُعدُّ خيراً ولا مبدأ للعالم أكثر من واحد ، فهو مبدأ كل شيء وكل أمر وهو ذات الله ، وهذا ما يطلق عليه توحيد الذات.

٢ . توحيد الصفات

المراد من توحيد الصفات هو كون كُلّ من الصفات عين الأخرى ، عكس صفات الإنسان ، فكُلّ منها غير الأخرى . يدا الإنسان من مظاهر قدرته ، ودماغه وسيطه للتعقل والإدراك ، أمّا الله تعالى فذاته كلها قدرة وذاته كلها علم ، وذات قدرته عين ذات علمه ، وذات علمه عين ذات قدرته .

وهناك تفسير آخر لتوحيد الصفات ، وهو أنَّه لا يمتلك أحد الصفات الإلهية ، وهو وحيد في صفاتيه ومنفرد بها ، علمه وقدرته ورحمته وحكمته موجودة فيه بنحو استقلالي ، ولم يأخذها من آخر ، عكس ما عليه الإنسان فقد اكتسب قدرته وعلمه من الله ولم تكن فيه على نحو الاستقلال ، والله هو الذي منحه هذه الصفات .

٣ . التوحيد في الأفعال

هذا التوحيد يعني رجوع جميع الأفعال والحركات والنشاطات إليه ، وكل ما يملكه

الآخرون حتى الأنبياء والأولياء من حياة وحركة ونشاط يرجع إليه تعالى.

إذا قالت الشيعة بالتوسل بالأولياء فلا يعني ذلك قدرة الأولياء على العمل على نحو الاستقلال وأن قدرتهم على أداء شيء في عرض قدرة الله تعالى ، بل تعتقد الشيعة بقدرة هؤلاء على عمل شيء بإذن من الله تعالى أو أن بإمكانهم الطلب من الله ليلبي حاجاتنا.

إذا استطاع عيسى عليه السلام على إبصار الأعمى أو إحياء الموتى أو تبديل مثالٍ لطير إلى طير حقيقي أو معالجة المرضى الذين انقطعت الآمال عن شفائهم ، فذلك كله بإذن الله لا أن عيسى عليه السلام كان قادراً بنحو مستقل على تنفيذ هذه الأعمال ، كما صرّح بذلك في الآية ٤٩ من سورة آل عمران والآية ١١ من سورة المائدة.

خطأ الوهابية في نسبة الشرك إلى الشيعة وبعض الفرق السنوية ينشأ من تصوّرهم أنّا نقول بالقدرة المستقلة لكلٍّ من الأولياء ونعتبر قدرتهم في عرض قدرة الله ، مع أنّا نعتقد في أولياء والائمة المعصومين نفس الاعتقاد الذي صرّح به الله سبحانه في حق عيسى عليه السلام .

يسريني أن بعضًا من مفكّريهم التفت إلى هذا الخطأ وأصلاح معتقداتهم في هذا المجال ، ونشرت له كتب تخص الموضوع ^(١).

٤ . التوحيد في الحاكمة

الحاكم الوحد للكون هو الله تعالى ، ومن أراد الحكومة فعليه كسب الإذن من الله والعلم وفق قوانينه ، وهذا ما يُطلق عليه التوحيد في الحاكمة ، وهو من فروع التوحيد.

الحكومات حتى حكومات الأنبياء تكتسب شرعيتها من تأييد الله لها ، وإذا شكل النبي عليه السلام حكومة في المدينة بإذن من الله تعالى. وإذا شكل الإمام علي عليه السلام حكومة في الكوفة فبأمر من رسول الله وإذن من الله ، وكذلك حكومة باقي الأئمة عليهما السلام .

حكومة الولي الفقيه في هذا الزمان مشمولة بهذه الضابطة ، فالفقيه يتولى الحكومة في

عهد

(١) يمكن الاشارة في هذا الباب إلى كتاب (مفاهيم يجب أن تصحّح) تأليف السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني ، وقد لاقى إقبالاً وانتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي.

الغيبة ، وفقاً لما جاء في روايات عن امام الزمان (عجل الله فرجه) وبافي المقصومين عليهما السلام ، وهذا تكتسب حكومة الولي الفقيه شرعيتها من الله ، رغم أن قولها من قبل الناس يعد عاماً مؤثراً جيداً في المجال التنفيذي.

الآلية ١٨٩ من سورة آل عمران تشير إلى هذا الفرع من فروع التوحيد ، حيث جاء

هناك : ﴿وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾

٥ . توحيد المالك

توحيد المالك يعني اعتبار الله مالكاً لكل شيء في السموات والأرض ، بعبارة أخرى

:

الملكية الحقيقة لله فقط ، وما عند الآخرين بإذن الله ومنه تعالى. ملكية الله للكون ملكية تكوينية ، فهو الذي خلق الكون وحافظ عليه. وقد جاء في بداية آية الكرسي : ﴿اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلٰهٌ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١) ، والقيوم تعني القائم بالذات والمقوم للغير ، أي أن الله قائم وباق بالاتكاء على ذاته ، وقيام وبقاء باقي الموجودات مرتبط به ، فهو خالق الكون وحافظه ، ولهذا يُعدُّ المالك الحقيقي له. أمّا ملكية الإنسان للبيت والسيارة وما شابه فملكية اعتبارية لا حقيقة ، رغم امكانية تصور الملكية الحقيقة في حق الإنسان ؛ لأن ملكيته لعينه ويده وادنه وبافي أعضائه ليست ملكية اعتبارية بحيث يمكن بيعها وشراؤها ونقلها بل ملكية حقيقة ، بالطبع في طول ملكية الله لها لا في عرضها.

إذن ، الله المالك الحقيقي للكون كلّه ، وجعل مالك له غير الله يُعدُّ شركاً ، والمرشكون عُدُوداً كذلك ؛ لأنّهم كانوا يعتبرون الأصنام تملّك النفع والضرر ، ويقولون بتأثيرها بنحو مستقل لا بإذن الله ، وذلك شرك.

أشارت آية المثل إلى هذا الفرع من فروع التوحيد ، ومع لاحظ ما تقدّم نبتُ بشرحها.

الشرح والتفسير

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾

جملة ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تشير إلى مطلب حيد ، وهو أن الله يوظّف معتقدات المشركين

الباطلة

(١) البقرة : ٢٥٥

لإبطال عقائدهم الأخرى ، وهي نقطة مهمة في المداولات والمناقشات ، ولا تعني صحة الاعتقادات الموظفة والمستدل بها.

﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

خلاصة المثل : لو كان لك عبد لا يملك شيئاً ولا صلاحية له لعمل شيء إلا بإذنك ، فهل أنت مستعد لجعل ذلك العبد شريكأ لك فيما رزقك الله وفيما جعله ملكاً لك؟

﴿فَأَنْشُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾

بأن تتساوی أنت وعبدك في الأموال والتخاذل القرارات وإبداء الرأي.

﴿تَخَافُونَ كَخِيفِتُكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾

ذكرت تفاسير مختلفة لهذه العبارة نبيّن واحداً منها :

ان تشتراك مع عبدك في جميع الأموال والممتلكات وتحاف أن يتصرف العبد بالأموال المشتركة بنحو مستقل^(١). عندئذٍ فهل أنت مستعد لإشراكه في أموالك كلها؟ أنت غير مستعد قطعاً. إذن لماذا تجعلون الله شركاء من الأصنام ، مع أن جميع ما في الكون من مخلوقات الله؟ وهل يمكن أن يكون مخلوق الله شريكأ له؟

عبدك ليس شريكأ لك ، فكيف تجعل مملوك الله شريكأ له؟ أنت غير مستعد لإشراك عبدك في أموالك رغم أن ملكيتك لها اعتبارية ، فكيف لك أن تجعل مخلوق الله شريكأ له ، مع أن ملكيته للمخلوقات حقيقة؟

﴿كَذَلِكَ نَفَضَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

العقلاء والعلماء والمفكرون مخاطبون في القرآن دائماً ، والدين الذي يدعو دائماً للتعقل والتفكير والعلم هو دين إلهي ؛ لأنَّ الأديان الباطلة وغير السماوية تدعوا للجهل ، وبجعل

(١) يُذكر أنَّه لا يجوز التصرف في المال المشترك إلا برضاء جميع الشركاء ، والمنزل الذي يرثه الأولاد لا يمكن لأحدتهم أن يتصرف به حتى مثل الصلاة فيه دون إذن باقي الورثة ؛ لأنَّ إذن جميع الشركاء في المنزل شرط في التصرف ، وإذا أجاز بعض كبار الورثة لنفسه التصرف فيه بنحو مستقل أو منع الأخوات من التصرف فيه ، وفقاً لبعض التقاليد ، كان ذلك غير مشروع ، خاصة إذا كان طفل صغير بين الورثة.

أتباعها يعيشون الجهل لكي يتيسّر لها الاحتفاظ بهم.

هذا الحديث لو أنَّ عدداً من الناس صلوا ركعتين فانهم لا ينالون ثواباً متساوياً ، فقد يعادل ثواب صلاة أحدthem مائة ألف ضعف ثواب صلاة الآخر ، بل قد لا يصل ثواب صلاة أحدthem مستوى ثواب ركعتين ؛ وذلك لأن العقل مُعامل لثواب الأعمال.

خطابات الآية

١ . الله مالك لكل ضرر ونفع ، ولا يؤثر شيء دون إذنه ، وحتى النار لا تحرق دون إذنه ، ولهذا لم تحرق نار نمرود إبراهيم عليهما السلام ولم تضره أقل ضرر ؛ لأن الله لم يأذن لها بذلك. السكين لا تقطع دون إذن الله ، ولهذا لم تذبح إسماعيل رغم ظرافته رقتها ورغم قوّة إبراهيم عليهما السلام ؛ وذلك رغم أن الله أمر الخليل بالذبح إلا أنَّه لم يأذن للسكين بالقطع ، وهذا ما يُدعى بالتوحيد في الأفعال.

٢ . تقدّم أن الله يستخدم بعض عقائد المشركين ويوظّفها لغرض إبطال عقائدهم الأخرى ، رغم أن العقائد المستخدمة غير صحيحة. وقد استخدم القرآن هذا المنهج في آية هذا المثل ، وأثبت بطلان عقائدهم من خلال عقائدهم ذاتها ، وقال : إذا كنتم غير مستعدّين لتشريك عبیدكم بأموالكم وممتلكاتكم فكيف لكم أن تجعلوا مخلوقات الله شركاء له؟ بالطبع لا يعني ذلك أنهم لو استعدّوا لهذه الشراكة جاز جعل شريك الله. وقد استخدم هذا المنهج في موارد أخرى كذلك ، على سبيل المثال يعتقد المشركون بأن الملائكة بنات الله ، مع أنّهم يخجلون من تبشيرهم بولادة بنت لهم ، كما نقرأ ذلك في الآية ٥٧ . ٥٩ من سورة النحل :

﴿وَيَجْعَلُونَ اللَّهَ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشَتَهُونَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْشِيَّةِ طَلَّ وَجْهُهُ مُسَوَّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارِى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٧٨٦ ، الحديث ١٣٠٤٢ .

إذا كنتم تعلّون البنّت موجوداً غير ذات قيمة فلما ذا يجعلون الله بنات. بالطبع ، هذا لا يعني إقرار الله تعالى بما يعتقدون به تجاه البنّات ، بل الآية ت يريد تنبيه المشركين على عدم انسجام عقائدهم ، وهو بحد ذاته دليل على بطلانها ؛ لأن العقائد الحقة منسجمة دائمًا.

بحث تكميلي

الرق من وجهة نظر الاسلام

الرق ممّا يرفضه وجدان البشرية جميعها ، ولهذا انتفاضت ضده البشرية قبل قرن ، لتعلن اغلاق اضبارة الرق ، وما بات لأحدٍ بعدها الحق في امتلاك انسان آخر أو اعتباره عبداً له ، رغم أن بعضًا من مدافعي ما يصطلح عليه بحقوق البشر يمارسون هذه التجارة ويشترون أطفالاً من الدول الفقيرة بأسعار زهيدة ليبيعونهم في الدول الغربية بأسعار باهضة.

سؤال : ما رأي الاسلام في الرق؟ وباعتبار أن الاسلام بشّر بالحرية ، فهل خطى في هذا الحال؟ وهل سلك منهجاً خاصاً لتحرير العبيد؟

الجواب : لاتضاح الجواب على هذا السؤال ينبغي توضيح ثلاثة مطالب :
الاول : لم يبدع الاسلام ظاهرة العبودية ، بل هي كانت موجودة قبل الاسلام بآلاف السنين.

الثاني : رسم الاسلام خطّة لتحرير العبيد ونقذها حلال مراحل .

المرحلة الاولى : ترغيب الناس لتحرير العبيد من خلال أقوال المعصومين عليهم السلام وكذا أفعالهم ، فعلى سبيل المثال وردت الرواية التالية عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم : «شُرُّ الناس من باع الناس»^(١). طبقاً لهذا الحديث فإن التعامل على الانسان أسوء تعامل ، ومعاملته أسوء معاملة ، وهناك روايات أخرى نعرض عن ذكرها.

رُغْبَ المعصومون عليهم السلام الناس عملياً في تحرير العبيد ، ومن مفاخر الامام علي عليه السلام أنه حرر

(١) مستدرك الوسائل ج ١٣ ، أبواب ما يكتسب به ، الباب ١٩ ، الحديث ١.

ألف عبد من كد يده ^(١). كما أن الإمام الحسن عليه السلام حرر إحدى جواريه بداعي أنها أهدت له زهرة ^(٢).

المرحلة الثانية : الحدّ من مصادر العبوديّة ، فالإسلام منع ترقّيق الإنسان بسبب دينه أو سرقته ، كما منع بيع الأحرار على من غصبهم ، كما نهى بشدة عن بيع الأولاد من قبل والديهم بسبب الفقر.

المرحلة الثالثة : اتخاذ الإجراءات العملية لتحرير العبيد ، فقد نفذ الإسلام إجراءات عملية كثيرة في هذا المجال ، من قبيل فتح مجال لهذا الأمر في باب الزكاة ، وجعل كفارة بعض الذنوب تحرير رقبة ، كما منع بيع الجارية ذات الولد من مولاها ، لكي تتحرر من إرث ابنتها بعد وفاة مولاها ، كما سمح للعبد الاستغاثان من المولى للعمل ولتهيئة المبلغ الكفيل لشراء النفس وتحريرها من مولاها.

سؤال : لماذا لم يحرر الإسلام العبيد دفعة واحدة ، ولم يعلن حريةهم في وقت واحد؟

الجواب : لم يكن ذلك لصالح العبيد ؛ لأنهم كانوا قد قدموا الحجاز من بلاد بعيدة ، ولم يكن لهم في الحجاز أحد ، كما لم يكن لهم ثروة ، ولو تركوا أحراراً آنذاك لانسابوا في الشوارع والأزقة ، ولشکلوا كارثة ، ولما بعضهم من الجوع ، أمّا لو تحررّوا بنحو تدريجي لاستقطابهم المجتمع دون مشكلة.

الثالث : غير الإسلام مفهوم العبودية ، ونهي عن قتل العبيد وتعذيبهم وإيذائهم ، واعتبرهم كباقي الناس ، ومنهم نفس الشخصية التي يتمتع بها باقي البشر ، ولهذا كان الإمام علي عليه السلام يشتري ثوبين ويعطي واحداً منهما لقبر علامه ، وفي رواية أنه اشتري ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين وطلب من قبر أن يأخذ الذي بثلاثة دراهم ^(٣).

وبهذا لا يبقى العبد عبداً بل يصبح سيّداً ، بل أكثر من ذلك حيث سمح الإسلام للعبد أن يصبح إمام جماعة وقاضياً وأمراً عسكرياً.

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ، أبواب العتق ، الباب ١ ، الحديث ٦.

(٢) مسند الإمام البختي عليه السلام : ٧٠٢.

(٣) بخار الأنوار ٤٠ : ٣٢٤.

وجاء في سيرة الامام السجاد عليهما السلام : كان له عبد كسول وكثير النوم ، فدخل الامام المنزل يوماً ورآه نائماً وقد عرق كثيراً من شدة الحر فأخذ يروح له بالمرحة ، وبعد ما استراح استيقظ ، فقال له الامام : استرح لكن عليك أداء وظيفتك تجاهنا كذلك.

للمزيد راجع الأمثل^(١) ذيل تفسير سورة محمد عليهما السلام .

(١) الأمثل ١٦ : ٣٠٨ : مما بعدها.

المثل الثالث والأربعون :

انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة

يقول الله تعالى في الآيات ١٣ . ٣٠ من سورة يس :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلَنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُم إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُم إِلَّا تَكْذِلُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيِّرُنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لِنَرْجُمَنُكُمْ وَلِيَمْسِنُكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكْرُهُمْ بِالْأَنْثُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الدِّيْ فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * إِنَّا نَخْذُلُ مِنْ دُونِهِ آلَهَةً أَنْ يُرِدُّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرِّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلَنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزَلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ حَامِدُونَ * يَا حَسْرَةٌ عَلَى الْعِنَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُؤُونَ﴾

تصوير البحث

المثل المزبور يرتبط بوضع المسلمين في مكة ، فقد كانوا فئة قليلة ، وكان المشركون

يشغلون الأكثريّة ، والقرآن استهدف من بيانه هذا المثل إعطاء المسلمين وعداً بالنصر

وتسكن قلوبهم وطمئنها من خلال نقل قصص ذات صلة. هذا من جانب ، ومن جانب آخر هدد فئة الأكثريّة من المشرّكين وحذّرّهم من الاغترار بكتلة نفوسهم وقدرّتهم فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

يمكن النظر إلى آية المثل من زاويتين ، وفقاً لإحداهما تكون الآية تشجيعاً وطمئنة للأقلية ، ووفقاً لثانيهما تكون الآية تحديداً لأعداء الإسلام ومشركي مكة.

الشرح والتفسير

تدلّت هذه الآيات بأبحاث مختلفة في الروايات والتفاسير ، نأتي بملخصها هنا ، لكن قبل شرح الآيات نوضح مفردة (قرية) و (أصحاب القرية).

القرية لغة تعني جمع الناس أو المسر الجامع ، وهذا أطلق القرآن هذه المفردة على مكة

^(١) رغم كونها مدينة كبيرة آنذاك ، كما استخدمت هذه المفردة في مصر ^(٢) (البلد العربي المعروف) ، والقرية تُطلق على كل تجمّع للناس سواء كان ذلك في ريف أو مدينة ، وسواء في المدينة الكبيرة أو الصغيرة أو بلد ، فهي تصدق على كل تجمّع سكاني إنساني ، لكن المعنى المراد في الآية هو الاول ، أي تجمّع الناس.

والمراد من أصحاب القرية هو أهالي انطاكية ، وهي مدينة تقع في جنوب شرقى تركيا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، وقد كانت جزءاً من الشامات في السابق ، أي جزءاً من الروم الشرقية ، ووّقعت بأيدي الفرنسيين في الحرب العالمية الأولى ، وقد أراد الفرنسيون إرجاعها إلى المسلمين آنذاك ؛ لكنّهم وجدوا أغلب أهاليها من المسيحيين واحتملوا إيزادهم من قبل المسيحيين فأعطوهها لتركيا.

كانت انطاكية قبل ظهور المسيح بلداً عامراً ومركزاً لتجمّع المشرّكين وعبدة الأوثان ، وبعد بعثته أرسل إليها اثنين من حواريه يُدعيان بولص وبربابا ^(٣).

(١) النحل : ١١٢ .

(٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) بولص اسم أحد الأنجليل الرائحة بين المسيحيين ، وبربابا اسم أنجيل آخر أقل رواجاً من سابقه ، لكن فيه مطالب

التقى المبعوثان قرب انتطاكيه راعياً كبير السنّ يُدعى (حبيب النجار) ، فحصل حوار بينهم ، سألهما حبيب النجار : من أنتما ومن أين جئتما؟ فقالا : نحن مبعوثاً السيد المسيح رسول الله عيسى ، بعث مؤخراً ، جئنا انتطاكيه لدعوة أهلها إلى عبادة الله ودين عيسى عليهما السلام .

قال الشيخ : هذا إدعاء كبير ، ويمكن لكل أحده أن يدعوه ، فهل لكم دليل ومعجزة لإثبات كلامكم؟

قالا : نعم ، نشفى الذين استعصت أمراضهم.

قال الشيخ : لي مريض قعید المنزل منذ سنوات ، فإذا عالجتموه كنّت أول من آمن بكم.

قصد المبعوثان المريض وعالجه ، وبذلك آمن حبيب النجار بالدين الجديد. ثم دخلوا المدينة ودعيا الناس إلى الدين الجديد ، فآمن المشاركون بعد ما رأوا معجزة منهما. وانتشر خبرهما وشاع في انتطاكيه كلها ، فكان الناس يقصدونهما أفواجاً أفواجاً ويؤمنون بهما. غضب من هذا التحول أولئك الذين كانوا يرون مصالحهم في الاستمرار على عبادة الأصنام ، فهاجموا المبعوثين وأنهالوا عليهما بالضرب الشديد.

أحاط الخطر بيولص وبرنابا ، فقصدوا ملك انتطاكيه يشتكيان عنده حالمما ، لكن هؤلاء منعوهما من لقاءه. وبعد التفكير في الموضوع قررا الانتظار جنب جدار القصر ويلفتا نظر الملك بالتكبير (الله أكبر) عند ما يخرج ، باعتبار كون التكبير عبارة جديدة ، وعندما يلتقيان به ويطرحان شكوكهما عنده.

بعد مدةٍ خرج الملك من قصره ، فكبّرا ، فسمع تكبيرهما وانتبه لهما ، فسأل حواشيه : من هما؟ فأجابوه : إنّهما انتفضا على أصنامنا وأهانوها ، فأمر بسجنهما دون أن يسمع كلامهما.

بلغ عيسى عليهما السلام خبر اعتقالهما ، لكن هذا الخبر لم يثنه عن عزمه ولم يبطّل عزيمته في الدعوة إلى التوحيد ، فكان يعلم بأن التبليغ لا يتم إلا ببالغ طائلة وثمن غالٍ وبشهداء ومعوقين واسرى ، وينبغي تحمل هذه كلها لأجل القيام بهذه المهمة ، فأمر شخصاً آخر لاستمرار عملية التبليغ ، وهو (شمعون الصفا) رئيس الحواريين.

بعد دخول شمعون المدينة أدرك ما كان قد أوجده الدين الجديد من ضجيج وصدى ،
فما رأى المصلحة في التبليغ له بنحو مباشر بل في التقرُّب إلى الملك مستهدفاً النقطة
الأساسية للخطر. ولأجل ذلك أوجد تدريجياً علاقة صداقة مع بعض شخصيات البلاط ،
وباعتبار حسن بيانيه وفكره وأخلاقه كسب ثقة البلاط بسرعة ، فعرفوه إلى الملك ، وبعد فترة
قصيرة استطاع زرع محبته في قلب الملك وازداد شأنه عند الملك شيئاً فشيئاً.

مضت أيام وهو يترصد اليوم والفرصة المناسبة لإنقاذ زملائه وللقيام بعملية تبليغ الدين الجديد. وفي يوم انفتح الكلام عن سجينين يدعيان بولص وبرنابا ، فسأل شمعون الملك : ما ذنبهما؟ فحكى الملك قصتهما بالتفصيل ، فسألته شمعون : وهل حفقت في ذنبهما أم لم تتحقق؟ فأجاب الملك : عند ما شاهدنا نشاطهما غضبنا عليهما وأودعناهما السجن دون أن نحقق في أمرهما.

قال شمعون : كان من الأفضل أن تتحقق في أمرهما ، واسمح لهما حالياً أن يأتيا ليتم التحقيق. فوافق الملك على ذلك وجىء بهما إلى هناك.

لم يعرّف شعّعون نفسه ، وبادرهم بالسؤال : لماذا سجّنوكما؟ وما جنّايتكم؟

قالا : نحن مبعوثا الرسول عيسى عليه السلام امرنا أن ندعوا الناس إلى التوحيد.

قال شمعون : وما دليلكما على ما تقولانه؟ وهل لكما معجزة تثبت ذلك؟

قالا : نعم ، نعالج المرضى المستصعب علاجهم بإذن الله.

أمر الملك للاتيان بمريض استحال علاجه فعالجاه ، مما آثار تعجب الملك وحواشيه.

فـسـأـلـهـمـاـ شـمـعـونـ :ـ وـهـاـ لـكـمـاـ مـعـجـزـةـ اـخـرـىـ؟ـ

قالا : نحيي الموتى بإذن الله ، ففعلا ذلك أمام الملك.

عندئذٍ حذر شععون الملك من فقدانه التاج والعرش فإذا لم يستسلم لمعوثي عيسى

عليه السلام؛ لأن آياتكم صحيحة وثبتت كونهم من مبعوثي رسول بعثة الله.

وبهذه الخطوة الدقيقة التي رسمها شمعون أسلم الملك بعد ما اتضحت له الحقيقة ، وبعد

ما بلغ الناس اعتناق الملك الدين الجديد قدموا أفواجاً أفواجاً معلين اعتناقهـم الدين الجديد.

اعتنقت انطاكية جميعها هذا الدين الجديد إثر مساعي هؤلاء المبلغين الثلاثة ، وإثر

٢٧٣

المشاق والمتابع والسجن والتخطيط الصحيح وتغيير اسلوب الدعوة في الوقت المناسب . وفقاً لهذا التفسير ، فإنَّ الآيات الشمان عشرة لهذا المثل عبارة عن طمئنة وتبشير للأقلية المسلمة المتواجدة في مكة ، فهي تخاطبهم : أيها المسلمين الذين تعيشون تحت وطأة الضغط والتعذيب ، لا تخافوا قلة عدكم ، فإنكم ستنتصرون على الأعداء الأكثريه في مكة إذا استقmetم وتحملتم المصاعب وواجهتهم المشاكل والمصائب وخططتم تخطيطاً صحيحاً واستخدمتم الاسلوب الأنفع في الإعلام والتبلیغ ، رغم كثرة أعدائكم وتفوقهم عليكم بالكمية .

وفقاً لنقلٍ وحکایةٍ اخری لهذه القصة ، شهدت عليه بعض الآيات حسب الظاهر ، فإنَّ رسول عيسى عليه السلام قتلوا بعد ما بتّوا بالتبليغ هناك ولم يؤمن الملك ولا الناس بهذا الدين الجديد إلَّا البعض ، فابتلوا بعذاب الله ، وكان من نوع الصاعقة السماوية ، وأشارت لها الآية

٢٩ من سورة يس : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَاصَحَّةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾

وفقاً لهذا التفسير ، فإن الآيات المتقدمة تحدیداً للأكثريه المشركة في مكة ، وتخاطبهم : لا تغتروا بکثرتكم ، فلا حاجة للكثرة والعدد الكبير لتدميركم ، ويكفيكم صيحة الله لتوجد زلزال تخترقون به جميعكم . إذن ، للآيات المزبورة تفسيران ، أحدهما : كونها طمئنة للمؤمنين ، وثانيهما : كونها تحدیداً للمشركين .

خطابات الآيات

للآيات المزبورة خطابات كثيرة نقتصر بثلاثة منها :

١ . لا تخافوا قلة عدكم

لا ينبغي للمؤمنين أن يخافوا الأعداء لقلة عددهم ، وفي هذا المضمار يقول الإمام علي عليه السلام : «لا تستوحشوا في طريق الحق لقلة أهله» ^(١) ، فإن القلة عند الله كثرة ، كما جاء في الآية الكريمة :

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ٢٠١ .

﴿كُمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلٌ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرٌ يَأْذِنُ اللَّهُ﴾^(١).

على الشباب الذين يهاجرون للدول الغربية لغرض الدراسة أن لا يخافوا عند ما يجدون أنفسهم وحيدين في عبادة الله وطاعته بين مجموعة كبيرة من عبادة الأهواء ، ولا ينبغي لهم أن يأسوا من هذا الوضع وينحرفوا مع الكثرة.

أيها الموظف المتدین في الدائرة ، الذي تجد نفسك الوحيد الذي لا تسمح لنفسك أخذ الرشوة ، عليك أن لا تخاف من انفرادك ، واسع لأن تنهى زملائك عن المنكر وتأمرهم بالمعروف ، وإذا صبرت واستقامت في هذا الطريق فسيتحقق بك الآخرون.

٢ . الاتحاد سر الانتصار

خطاب الآية الآخر هو الاتحاد والوفاق ، فقد انتصر الحواريون عند ما تكافدوا ، والتكافف هو سر انتصارهم وكل انتصار يحصل في مكان أو زمان ما ، وهو أمر نحتاجه في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر ، وكل ما يدعو للتفرقة هو من الشيطان ؛ لأن الفرقة منه.

٣ . التخطيط في التبليغ

ينبغي بالاعلام والتبليغ أن يتم وفق خطة ومنهج مُعد ، فعلى حواري عيسى الأولين أن يدعوا الناس إلى التوحيد عليناً ، وعند ما ابتلوا بالسجين كان على شمعون أن يسلك المنهج غير المباشر في التبليغ لكي تحصل النتيجة المطلوبة.

هذا هو شأننا كذلك ، فلا يمكننا النجاح في العمل مع وجود عدوٌ مكّار ومحтал إلّا أن نسير وفق منهج وخطة مرسومة ، وهل يمكن مواجهة عدوٌ خطط للاستعمار خلال عشرات السنين المقبلة دون أن يكون لنا خطط وبرمجة مناسبة؟

(١) البقرة : ٢٤٩

المثل الرابع والأربعون :

الشرك والتوحيد

يقول الله تعالى في الآية ٢٩ من سورة الزمر :

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَابِكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَإِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

تصوير البحث

هذا المثل ككثير من أمثال القرآن يدور حول محور الشرك والتوحيد. شيء المشرك هنا بالعبد الذي يملكه أرباب متعددون و مختلفون فيما بينهم كثيراً ، كل منهم يأمر العبد بأمر مختلف ، مما يسبب حيرة العبد ، كما شبه الموحد بالعبد الذي له مولى واحد ، وكل اموره تجري وفق برنامج ومنهج محدد.

التوحيد أساس الأصول والفروع

الكثير من المسلمين يتصور أن التوحيد أحد اصول الدين فحسب ، وأنه بمثابة باقي الأصول الخمسة من العدالة والنبوة والامامة والمعاد ، كما أن فروع الدين عشر ، مع أن التوحيد يُعدُّ الأساس لأصول الدين وفروعه ، وليس أصلاً في طول باقي الأصول ، والاسلام طرح أصل التوحيد في مجالات مختلفة ، نشير إلى بعض النماذج.

الاول : نعتقد أن خالق الكون واحد ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١).

الثاني : الاسلام يقول بنوع خاص من التوحيد في حق الرسل والأنبياء ، ولا يفرق بينهم ويكتنف الاحترام لجميعهم ، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ﴾^(٢) ، والفرق في رسالتهم ودينيهم ، فلكل دين خاص بزمانه وظروفه المكانية والزمانية ، ويعود حقيقةً في ذلك الزمان والمكان ، فدين موسى كان دين الحق في زمانه ، ودين عيسى كان دين الحق في زمانه وعصره ، وهي من قبيل مراحل التعليم التي تبدأ بالابتدائية وتنتهي بالجامعة وتمر بالمتوسطة والاعدادية ، أمّا الاسلام فهو دين إلى آخر الزمان وقيام القيمة ، ويمكن تبنيه والعمل به في كل عصر ؛ لأنّ الرسول محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء.

إذن يعتقد المسلمون . وفقاً للآلية المتقدمة . بنوع خاص من التوحيد في حق الرسل والأنبياء.

الثالث : يمكن تصوّر التوحيد في المعاد كذلك ، بمعنى أنّ الناس جميعاً منذ بداية خلق الإنسان وحتى آخر انسان سيجتمعون في يوم القيمة للحساب ، وقد أشارت الآية الكريمة ٤٩ . ٥٠ من سورة الواقعة إلى هذا المطلب ، حيث قالت : ﴿فُلَّ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾

إذن ، هناك نوع توحيد يمكن مشاهدته في يوم القيمة.

الرابع : الناس والبشر مشمولون بنوع خاص من التوحيد ؛ لأنّهم جميعاً من أب واحد وام واحدة ، وكلهم سواسية عند الله تعالى ولا رحجان لأحدتهم على الآخر إلا بالتقوى. وقد أشار القرآن إلى هذا الصنف من التوحيد في الآية ١٣ من سورة الحجرات : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَانثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَئْتَاقُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ خَيْرٌ﴾

كما قال الرسول ﷺ : «المؤمنون تتكافئ دمائهم»^(٣) ، ولهذا تتساوى دية

المسلمين سواء

(١) البقرة : ٢٥٥.

(٢) البقرة : ٢٨٥.

(٣) ميزان الحكم ، الباب ٢٩ ، الحديث ١٤٠٥.

الصغير الذي لم يمض من عمره إلّا عاماً منهم والكبير الذي أتمّ مراحل دراسية علیها.

الخامس : القانون والدين الإلهي واحد ، ولا يقبل من الإنسان إلّا ديناً واحداً ، وهو

الإسلام : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

السادس : يتّحد المسلمون في القبلة التي يتوجهون نحوها في الصلاة.

السابع : كتاب المسلمين السماوي واحد ، وهم جمیعاً تبع لكتاب واحد ، هو

القرآن.

الثامن : على المجتمع الإسلامي أن يكون متّحداً ليشكّل أمّة واحدة.

يوجد حالياً أكثر من خمسين دولة إسلامية تفرقها الحدود السياسية والجغرافية ، ومن

وجهه نظر إسلامية لا اعتبار بهذه الحدود ، المسلمين جميعهم إخوة وسواسية ، وفي هذا

المضمار وردت الرواية التالية : «المؤمن أخو المؤمن»^(٢).

وخلص الكلام أنَّ الدعوة للتّوحيد والوحدة نعثر عليها في كل مكان ، ولهذا لا يُعدُّ

التوحيد أصلًاً من اصول الدين فحسب بل أساساً لأصول الدين وفروعه. وهذا هو سبب

تعدد وكثرة الأمثال القرآنية التي تعرّضت لهذا الموضوع.

الشرح والتفسير

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَئَلًا رَجْلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾

مثل الله المشرك بالعبد الذي يملكه عدّة أرباب متشاركون وغير متفقين.

مادة (شَكَس) تعني الاختلاف والنزاع وسوء الخلق وسوء التعامل والمشاجرة ، وأرباب

هذا العبد متشاركون و مختلفون دائمًا ، ويأمر كلُّ منهم العبد بأمر يناسبه ، فيتحبّر العبد ؛

لأنَّ أحدهم يقول : إذهب إلى المكان الفلاي والآخر يقول له : لا تذهب ، أو أحدهم

يقول : استرح اليوم ، والآخر يقول : عليك العمل اليوم وبدل جهد أكثر ، أو أحدهم يقول

: سافر اليوم ، والآخر يقول : لا تسافر ، وهكذا ...

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) ميزان الحكم ، الباب ٢٩١ ، الحديث ١٤١٣ .

هذا من جانب ، ومن جانب فإنّه في حيرة من حيث مئونته الشخصية واليومية ؛ لأن كلاً من الأرباب يلقي مسؤولية تأمين احتياجاته على الآخر . وبذلك تختل حياته ويظل في حيرة من أمره .

مثل المشركين كمثل هذا العبد ؛ لأنهم جعلوا حياتهم رهن هذه الأصنام فأصبحوا جاهلين بأهدافهم ، وفي حيرة من أمرهم ولا يعلمون بأيٍ يتعلّقون ، فتتعلق قلوبهم بشيء يوماً ما وفي يوم آخر تتعلق قلوبهم بشيء آخر .

شأنهم شأن غير الموفقين والفاشلين الذين يبرمون عقدة الصدقة مع أحدٍ في يوم ويفتحونها في يوم آخر ليبرموها مع آخر ، ويستمرون بنھجھم هذا . أو من قبيل أولئك الذين يميلون مع الريح أين ما مالت وينضمون إلى راية في يوم ويلجّحون إلى أخرى في يوم آخر ، فالاليوم تھوى قلوبهم إلى الجah والمقام ، وغداً إلى الشروة وبعد غد إلى الشهرة ، ولا يتبعون إلى ما هم عليه إلّا وقد انتهت أيام عمرهم .

﴿رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ﴾

أيّاً مثل الموحد فمثل العبد الذي له أرباب واحد ، أمره واضح ، وهو غير متخيّر ، ومطيع لسيده ومسلّم أمره إليه ، ولا مشكلة له من حيث تأمين احتياجاته .

نعم ، قلوب الموحدين تعليّقت بعبود واحد ، فهو ملجأهم وناصرهم ومعينهم ومرادهم وملجئ حاجاتهم ، ولا يرجون أحداً غيره ، ولا إيهام في وظائفهم وما ينبغي عليهم فعله ، فلا يعيشون حيرة ابداً .

أيها الناس ، كونوا في ظل معبودكم كهذا ، ونالوا من نوره الرياني ، وأنيروا طريقكم به ، فإن العزة له والقدرة لديه والذلة بيده ، ولو أرادت الدنيا بأكملها شيئاً وهو أراد شيئاً آخر فلا تتحقق إلّا إرادته .

كان فرعون قد قرر قتل موسى وهو في بطن أمّه ، ووظف لأجل ذلك جميع امكانياته ، فبقر بطون الكثير من الحوامل ، وقتل الكثير من الأطفال ، وارتكب جرائم كثيرة ، لكنه ما توفق لتحقيق رغبته وإرادته ؛ لأن الله كان قد أراد شيئاً آخر ، فترى موسى عليه السلام في حضن فرعون نفسه ، إذن علينا التعلق بربّ كهذا .

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ﴾

الحمد خاص له تعالى ومنحصر به ؛ لأنّه خالق ورازق وحافظ وهادي ، وما من شيء إلا منه عِزْلَة .

﴿بِنَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

المشركون لا يعلمون شيئاً ؛ لأن الطغيان والشهوات حالت دون إدراك الحقائق.

خطابات الآية

١ . وحدة مصدر القرارات

أول خطاب للآية هو أن يكون مصدر صناعة القرارات عند المشاكل الاجتماعية واحداً ، فلو تعددت مصادر صناعة القرار في المجتمع ولم تتحدد أو تتمركز أصبح المجتمع بمثابة العبد الذي تعددت أربابه وظل متخيلاً ، وبذلك يفقد المجتمع قواه ، وسوف تستهلك طاقاته في النزاعات التي تحصل بين التكتلات ، وبعد فترة ينسى المجتمع قضياه الأساسية.

٢ . على عليه مصدق كاملاً لآية المثل

المصدق الكامل والأتم لهذه الآية التي وردت في العبد ، الذي لا مولى له إلا واحد ، ولا يتبع أحداً سواه ويتوكل عليه ، هو مولى الموحدين وأمير المؤمنين عليه .
في هذا المضمار ننقل روايتين ، احدهما وردت عن طريق أهل السنة ، والثانية وردت في مصادر الشيعة :

١ . ينقل أبو القاسم الحسکاني في (شوahed التنزيل) ، الذي يجمع شأن نزول الآيات ، حديثاً عن الإمام علي عليه في ذيل آية المثل يقول فيه : «أنا ذاك الرجل السلم لرسول الله».

نعم ، الإمام علي عليه سلم أمره إلى رسول الله واجتنب عن اتخاذ موالي متعددين ، وهذا ليس ادعاءً ، بل التاريخ يشهد له بذلك ، فقد كان عاشقاً للرسول ومطيناً له وذاباً عنه في أخطر اللحظات.

٢ . يقول المفسّر الشيعي الكبير العياشي في تفسيره وفي ذيل الآية المزبورة : «الرجل السلم حقاً على وشيعته».

كان قلب علي مفعماً بحب الرسول ، وقلوب الشيعة مفعمة بحب علي ، كانت حياة علي إلهاماً من حياة الرسول ، وحياة الشيعة إلهاماً من حياة علي ، وعلى ضحى بنفسه في سبيل الرسول ، والشيعة يضحيون بأنفسهم في سبيل علي المرتضى .
تمكيناً للبحث نذكر نموذجين من تصريحات الامام علي عليهما السلام في سبيل الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الف : جاء في الآية ٢٠٧ من سورة البقرة :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَوِوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

العلامة الأميني رحمه الله من عشاق أمير المؤمنين ومن شيعته ينقل في الجزء الثاني من كتابه القيم (الغدیر) تذيلًا للآية عشر مصادر معروفة لأهل السنة يعتزفون فيها بنزول الآية في شأن علي عليهما السلام ، ويذاعي التواتر في الروايات المنقوله هنا.

جاء في روايات هذا الباب : «كمن المتأمرون حول بيت رسول الله عليهما السلام محدثين به من كل جانب ، ومكثوا يربون ريشما يغلب عليه النوم لينهالوا عليه بضرابهم ، لكن الحق تعالى أطلع رسوله على مكرهم ، ونزل جبرئيل بقوله عزوجل :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبُتوْكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

(١).

وأناه الأمر بأن ينام أمير المؤمنين عليهما السلام في فراشه وأن يغادر مكة فأخبر علياً عليهما السلام أن المشركين آتون في طلبه الليلة ، وأنه أمر بالرحيل عن مكة إلى غار ثور ، وأمر بأن يخلفه في فراشه ، كي لا يعلم المشركون برحيله ، فسألته عليهما السلام : وهل ستكتب لك السلامه؟ قال : أجل ، قال : حبًّا وكراهة ، ثم سجد لله شاكراً ، وكانت تلك أول سجدة شكر في هذه الامة ، ثم رفع رأسه وقال : اذهب أينما أمرت روحي لك الفداء ، ثم احتضنه عليهما السلام وبكي ، ثم استودعه الله ، وأخذ جبرئيل بيده وخرج به من البيت وهو يقرأ :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾

(١) الأنفال : ٣٠ .

(٢) يس : ٩ .

فلما تقاطروا إلى البيت عند الصبح وقف لهم أمير المؤمنين عليه السلام زاعقاً بهم ، فسألوه :
أين محمد؟ فأجاب : وهل أودعتموه عندي؟ لقد خرج ...»^(١).

وبعد ما دار نقاش بين الإمام وأبي جهل ، قال الأخير : لا تشغلو بعالي المخدوع
ليتحوّه بحاله محمد ، وإنّا فما منعه أن يبيت في موضعه وإن كان ربه يمنع عنه كما يرّع؟
فقال علي عليه السلام : «ألي تقول هذا يا أبي جهل؟ بل الله قد أعطاني من العقل ما لو
قسم على جميع حمقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاً ومن القوة ما لو قسم على جميع
ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوىاء ، ومن الشجاعة ما لو قسم على جميع جبناء الدنيا لصاروا به
شجعانًا ...»^(٢).

باء : فرّ المسلمون في معركة أحد عند ما واجهوا الخسارة ، لكن علياً بقي يدافع عن
الرسول ويصدّ كل ضربة توجّه إليه ، فكانت النتيجة ٩٠ جرحاً ، وبعد انتهاء المعركة بعث
الرسول بطبيعين إلى علي ، لكنهم عجزوا عن معالجته ، وكلما خاطوا جرحاً اتفق جرح آخر
لتقاربها.

ثم جاء علي إلى الرسول قائلاً له : استشهد في المعركة من استشهد من أبطال
الإسلام لكن الشهادة حيزت عني وشق ذلك عليّ.
فقال له الرسول عليه السلام : «أبشر فإنّ الشهادة من ورائك»^(٣).

وعند ما ضربه عبد الرحمن بن ملجم تذكّر ما بشره به رسول الله عليه السلام من الشهادة
والقتل في سبيل الله فصاح بصوت عالٍ : «فُزْتُ وربّ الكعبة»^(٤).
النتيجة أن علياً عليه السلام أثبت حبه الواffer للرسول وتضحيته في هذا السبيل ، كما اتّضح
أن الإسلام كأفضل دين وأكمله لم يصلنا ببساطة وسهولة لكي نفقده كذلك ، بل علينا
الحافظ والدفاع عنه بأثمن ما عندنا ونضحي بالغالي والرخيص في هذا السبيل.

(١) منتهى الآمال ١ : ٨٠.

(٢) بحار الأنوار ١٩ : ٨٣.

(٣) بحار الأنوار ٣٢ : ٢٤١ ، و ٤١ : ٧.

(٤) بحار الأنوار ٤١ : ٢.

المثل الخامس والأربعون :

المسيح عيسى عليه السلام

الآيات ٥٧ إلى ٥٩ من سورة الزخرف تشكل مثلنا الخامس والأربعين ، حيث جاء

فيها :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمٌ كَمِنْهُ يَصْدُونَ وَقَالُوا إِلَهُنَا خَيْرٌ أُمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

تصوير البحث

لم يمثل القرآن هنا كما فعل في أمثال القرآن الأخرى ، بل وأشار إلى مثل ضربه المشركون في حق عيسى عليه السلام .

وهناك اختلاف في اعتبار هذه الآية من أمثال القرآن ، فبعض أدرجها في الأمثال وبعض آخر رفض ذلك.

معنى (المثل) في استخدامات القرآن

لأجل اتضاح المطلب المتقدم علينا التعرف على معنى أو معانٍ مفردة المثل الواردة في القرآن.

جاءت هذه المفردة بمعانٍ مختلفة ، هي كالتالي :

الاول : المعنى الذي هو موضع بحثنا في أمثال القرآن ، أي تشبيه معنى معقد غير محسوس بمعنى محسوس وبسيط واضح يسهل هضميه على الجميع ، كتشبيه ثواب الصدقه بحبة أنبتت

سبعين سنابل في كل سنبلة مائة حبة^(١). وأمثال القرآن تبحث عن هذا الموضوع في الآيات حتى لو لم يرد فيها مفردة (مثل).

الثاني : ما يطلقه عوام الناس من تشبيهات للأنبياء ، من قبيل ما ورد في الآية ٧٨

من سورة ياسين : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِي خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحِيِّ الْعَظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

وشأن نزول الآية هو شخص يدعى (ابي بن خلف) أو (امية بن خلف) أو (ال العاص بن وائل) أو (عبد الله بن ابي) نحضر للاحتجاج على الرسول ﷺ وابطال أدلة على المعاد ، فأخذ بعظام ومن المحتمل أنه فتنتها أمامه وقال له : من يحيي العظام بعد ما تفتتت؟ ومن يستطيع إرجاع الحياة لها؟ وأيُّ عقل يمكنه التصديق بعودة حياة هذه العظام؟

فأجابه الله جواباً حاسماً قائلاً : ﴿ قُلْ يُحِيِّسَهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً ﴾^(٢)

على أي حال ، وردت مفردة المثل هنا وتعني ما ضربه الناس من الأمثال لا ما ضربه الله نفسه ، وهي أمثلة خارجة عن موضوع بحثنا ؛ لأنَّ بحثنا يختصُّ الأمثلة التي ضربها الله نفسه لا الناس.

الثالث : الحوادث المرة والمؤلمة التي يواجهها الإنسان في طول حياته ، فقد اطلق عليها

مثل في القرآن ، كما جاء ذلك في الآية ٢١٤ من سورة البقرة :

﴿ أَمْ حَسِيبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مُسْتَهْمُ الْبَاسَاءُ الضَّرَاءُ وَرَزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعْهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

فالمثل هنا فسر بما جرى على من تقدم من الأقوام.

الرابع : بمعنى العبرة ، وهذا المعنى ورد في الآية ٥٥ و ٥٦ من سورة الزخرف :

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخَرِينَ ﴾

المثل هنا بمعنى العبرة ، كما أنَّ آياتٍ من هذا القبيل خارجة عن موضوع بحثنا ، أي

أمثال القرآن.

(١) ورد هذا المثل في الآية ٢٦١ من سورة البقرة ، وتقدم شرحه في المثل الخامس ، فراجع.

(٢) راجع التبيان في تفسير القرآن ٨ : ٤٧٨.

الخامس : بمعنى النموذج والاسوة ، كما ورد ذلك في آية المثل الذي نحن فيه ، أي الآية ٥٩ من سورة الزخرف .

المعنى الأول للمثل هو المعنى الوحيد الذي يدخل في صلب موضوع بحثنا ، ويخرج منه المعانى الأربع الباقية ، فهي خارجة عن كونها أمثلاً قرآنية ، رغم أن البعض ضمّها إلى أمثال القرآن ، وهو أمر مؤسف ؛ لأنهم جعلوا كل آية اشتتملت على مفردة المثل في عداد أمثال القرآن ، وذلك خطأ .

هل آية هذا البحث مثل قرآني ؟

لهذه الآية تفاسير مختلفة ومتباعدة ، تندرج في عنوان أمثال القرآن وفق بعض التفاسير ، وتخرج عنها وفق تفاسير أخرى ، نلفت انتباهم إلى بعض هذه التفاسير :

التفسير الأول

وفقاً لما جاء في الآية ٩٨ من سورة الأنبياء فإن الأصنام وعبدتها كاللاما في النار ، حيث ورد فيها : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ، أي أنهما يصبهان بمناشة الحطب لجهنم .

افتعل المشاركون ضجيجاً بأن المسيح وفقاً لهذه الآية يدخل جهنم (نعود بالله) ؛ لأنه معبد لبعض المسيحيين ، وكذلك الملائكة (نعود بالله) ؛ لأنها معبدات لبعض الناس ، وجادلوا في هذا الأمر وأخذنوا يهذبون بالرسول ويقولون : إذا كانت جهنم مأوى للملائكة ولوعسى فلا بد وأن تكون مكاناً جيداً ، ونحن مستعدون للذهاب إليها من خلال عبادة الأصنام .

أجاب الله على هذه الضجة بقوله : عيسى عبد من عبادنا ، لم يدع الالوهية ، والمعبد الذي يدخل جهنم هو الذي يرضى بأن يعبد ، أما المسيح لا أنه لم يرض على عبادة نفسه فحسب بل يكره ذلك ويتأنّ منه .

إذن ، ما كانت الضجة التي افتعلها المشاركون إلا جدلاً ومحاجة لا أكثر ، وهي بمناشة الفقاعة الجوفاء . وبهذا التفسير تخرج الآية عن كونها من أمثال القرآن .

التفسير الثاني

شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَسِيحَ عَلَيْهِ الْأَنْبَاحُ بِآدَمَ عَلَيْهِ الْأَنْبَاحُ فِي الْآيَةِ ٥٩ مِنْ سُورَةِ آلِ عُمَرَانَ ، إِذْ قَالَ : **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾** ، أَيْ أَنَّهُ كَمَا اسْتَطَاعَ خَلْقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، يُمْكِنُهُ كَذَلِكَ أَنْ يَخْلُقَ عِيسَىٰ مِنْ مَرِيمَ (سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهَا) دُونَ زَوْجٍ .

إِذَا اعْتَبَرْنَا الْآيَةَ ٥٧ مِنْ سُورَةِ الزُّخْرُفِ تَشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَثَلِ وَأَنْ ضَجْجِيْجَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ لِأَجْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَانَّ الْآيَةَ عِنْدَئِذٍ تَنْدَرِجُ فِي أَمْثَالِ الْقُرْآنِ ، لِأَنَّهَا تَشِيرُ إِلَى مَثَلٍ طَرْحَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدْ اسْتَخْدَمَ فِيهِ تَشْبِيهًـ جَيِّلًا .

التفسير الثالث

عِنْدَ مَا انْطَرَحَ مَثَلُ عِيسَىٰ بِدَأَ الْمُشْرِكِينَ بِافْتِعَالِ ضَجَّةٍ قَالُوا فِيهَا : إِنَّ الرَّسُولَ يَرِيدُ دُعْوَةَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَلِأَجْلِ التَّنْهِيْدِ لِذَلِكَ طَرَحَ مَثَلُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ الْأَنْبَاحُ بِاعْتِبَارِهِ مَعْبُودًا لِلنَّصَارَى ، وَالْقُرْآنُ رَدَّ عَلَى هَذِهِ الدَّعَاوَى بِقَوْلِهِ : عِيسَىٰ عَبْدُ مِنْ عَبْدَنَا ، وَمَنْ نَعَمَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَالْآيَةُ مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ وَفَقَـاً لِهَذَا التَّفْسِيرِ .

خطابات الآية

الضجيج من معالم الجاهلية

الجاهل انسان متغصّب ، والمتغصّب من أصحاب الضجيج لا من أصحاب المنطق .

لللامام علي عليه السلام خطبة في (نحو البلاغة) تُدعى القاصعة ، أشار فيها إلى الضجيج كبلاء كبير تعاني منه المجتمعات البشرية في الماضي والحاضر ، والخطبة وحدتها تكفي للكشف عن مقام الأمير الرفيع وعلمه وعظمته ومنطقه .

يقول أمير المؤمنين في جزء من الخطبة : «فَاللَّهُ تَعَالَى أَكْبَرُ الْحَمْيَةِ وَفَخْرُ الْجَاهْلِيَّةِ ، فَإِنَّهُ مُلْقِي الشَّنَآنِ وَمُنْافِعُ الشَّيْطَانِ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأَمْمُ الْمَاضِيَّةُ وَالْقَرْوَنُ الْحَالِيَّةُ حَتَّى أَعْتَقُوا فِي

حنادس جهالته ومهماوي ضلالته»^(١).

كلام الامام جميل جداً ، وكأنه بيان لآلام المجتمع المعاصر ، وعلى متعصبي مجتمعاتنا الحالية أن يدركوا خطاب الامام ويتخلّوا عن التعصّب الذي ليس في محلّه ويتركوا الضجيج ويسلّموا أنفسهم للحق والحقيقة.

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ١٩٢.

المثل السادس والأربعون :

الصحابة

آخر آية من سورة الفتح تشكل المثل السادس والأربعين من أمثالنا ، يقول الله فيها :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعْهُ أَشِدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بِيَتَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَاسًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْزَعٌ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَأَسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الرُّزَاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

تصوير البحث

هذا المثل الجميل الذي يتكون من توصيف ورد في التوراة ومثل ورد في الإنجيل يتحدث عن أصحاب الرسول الحقيقيين ، وهو يحكي . من جانب . عمّا كان يتصف به الصحابة ، ومن جانب آخر يخبر عمّا ينبغي عمله وما هي مواصفات من أراد أن يصير مسلماً حقيقياً وناصراً للرسول ﷺ وأهل بيته .

شأن نزول الآية

نزلت سورة الفتح بعد صلح الحديبية ، إذ طلب الرسول من المسلمين في السنة السادسة من الهجرة أن يستعدوا للحج والعمرة وزيارة بيت الله الحرام ، فأحرم الرسول بصحبة ألف

واربعمائة من المسلمين في مسجد الشجرة ، وغادروه باتجاه مكة ، ولم يأخذوا معهم من المعدات الحربية غير السيف الذي كان يحمله كل مسافر لغرض الدفاع عن نفسه ، وبذلك وبارتداء المسلمين ثوبي الإحرام بدأ بوضوح كونهم غير قاصدين الحرب ، وظاهرهم يكشف عن نواياهم الحقيقة كزائرين.

لأسباب خاصة تحرك الرسول ﷺ بصحبة المسلمين باتجاه الحديبية^(١) ، وتوقفوا هناك. قلق المشركون واضطربوا بسبب قدوم المسلمين ، وكان قلقهم ناشئاً عن أن دخول المسلمين مكة واتيائهم بمناسك الحج بالنحو المتباين مع النحو الدارج يثير انتباه باقي الحاج ويؤثر فيهم أو يميل قلوبهم نحو الاسلام فيسلمون. ولأجل ذلك قرروا منعهم من دخول مكة ، وبعثوا إلى المسلمين شخصاً يدعى (عروة بن مسعود) وهو من علمائهم وأدكائهم ، وبعد وصوله إلى المسلمين سأله الرسول عن سبب مجئه إلى مكة ، فأجاب الرسول : جاء المسلمون للزيارة وال عمرة المفردة ، ولهذا لم يأتوا معهم بعدة حرية من الدروع والخناجر و... وبعد المفاوضات تقرر أن يبقى المسلمون في الحديبية حتى يخبر عروة زعماء قريش بنتيجة مفاوضاته مع المسلمين.

وفي هذه الأثناء شاهد عروة لقطة كانت مؤثرة في انعقاد صلح الحديبية ، لقد شاهد الرسول ﷺ يتوضأ والمسلمون يتسابقون على قطرات الوضوء التي تسقط من أعضائه ليتبرّكوا بها.

بعد ما رجع عروة إلى مكة عرض على زعماء قريش نتائج مفاوضاته وأوصاهم بعدم مواجهة المسلمين ؛ لأن المسلمين ذائبون في عشق الرسول ﷺ ومستعدون لكل تضحيه وعمل في سبيله ، وذكر لهم قصة وضوئه.

(١) تقع الحديبية غرب مكة ، بينها وبين جدة ، وتبعد عن مكة حالياً ستة عشر كيلو متراً ، وهي ميقات العمرة المفردة ، أي بالامكان الاحرام منها للعمرة المفردة ، وهي أقرب المواقع بالنسبة إلى من قدم مكة من جدة ، لكنه ميقات يقع في الطريق القديم بين جدة ومكة ، وفي الطريق الجديد بنوا مسجداً بمحاذاته ، بالامكان الإحرام منه ، والحدبية بمثابة الحدود النهائية للحرم تقريباً ، والفاصل بينها وبين العالئم الم موضوعة للحرم قليلة ، كما يعيش فيها عدّة من السادة ، ومن المحتمل أن هذا هو سبب تسميتها وادي فاطمة.

وبعد نقاش دار بينهم توصلوا إلى أن يبرموا صلحاً مع المسلمين بشرط أن لا يحجوا هذا العام.

قصد عروة وسهيل بن عمرو الحديبية لإبرام عقد الصلح مع المسلمين ، وبعد لقائهما الرسول ﷺ واتفاقهما ، أمر الرسول ﷺ الامام علي عليه السلام بكتابه عقد الصلح .
أمر الرسول عليه السلام بكتابه (بسم الله الرحمن الرحيم) لكن سهيل اعترض زاعماً أَنَّمَا لو كانوا متفقين مع المسلمين في شعاراتهم لما تنازعوا معهم ، وطلب كتابة (بسمك اللهم)^(١).
ثقل على المسلمين كلام سهيل ، لكن الرسول ﷺ وافق عليه وأمر علي كتابة ما كان دارجاً كتابته ثم قال لعلي : «اكتب! هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال لعلي : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ...» ، وعندئذ انعقد صلح الحديبية ، وتقرر فيه أن يقدم المسلمون العام المقبل ويقيموا في مكة مدة ثلاثة أيام لغرض الزيارة وأداء العمرة المفردة^(٢).

ترتب آثار كثيرة على صلح الحديبية ، والفتح المبين الذي أشارت له الآيات الأولى من سورة الفتح هو هذا الصلح ، فقد كان فتحاً مبيناً حقاً ؛ لكثرة مردوداته الإيجابية وبركاته ، رغم استياء بعض المسلمين والمتطرفين وضيق الصدور مَنْ لا ينظرون إلَّا للمستقبل القريب ، حيث قال البعض : يا عشر المسلمين أَرْدَى إلى المشركين يفتونني في ديني؟ فقال له رسول الله ﷺ : «اصبر واحتسِب ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرْجًا وَخَرْجًا».

وبعد الانتهاء من كتابة الصلح والإشهاد عليه أمر الرسول المسلمين بالنحر والذبح للإحلال من الأحرام ، ثم رجعوا إلى المدينة.

عندما نزلت آيات تطمئن قلوب المسلمين وتسكّنها وتعدّهم بفتح مكة ودخولها بعز : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٣) ، وهي تعدّ من معجزات القرآن ؛ لكونها أخبرت عن الغيب.

(١) كان هذا التعبير دارجاً عند المشركين ويدأون به رسائلهم وكتبهم.

(٢) راجع سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) الفتح : ٢٧.

كما وعدت الآيات المسلمين الانتصار على باقي الأديان والمذاهب في العالم :

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(١) ، ثم أدرجت أوصاف المؤمنين وأصحاب الرسول .

بعد ما اتضح شأن نزول الآية نبت بتفسيرها .

أوصاف أصحاب الرسول في التوراة

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾

الانسان المتعصب والجاهل مثل سهيل بن عمرو ينكر نبوة محمد ﷺ ورسالته ،

وهذا لا يغير الواقع ، وما على المسلمين أن يستاؤوا من انكار مثل هذا الشخص ؛ لأن الله

خالق الكون قد قبل نبوة محمد ﷺ ورسالته .

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾

الذين معه ويسرون في خطه ولم يدعوا الاسلام فقط بل اثبتوه كونهم مؤمنين بجدارة في

Miyadīn al-’Aml ، وكانت عقيدتهم بالرسول صادقة وحقيقة يحملون خمس صفات عالية .

وأنتم كذلك ، إذا أردتم أن تكونوا من أنصار امام الزمان (عجل الله تعالى فرجه

الشريف) فعليكم الاتصاف بهذه الصفات الخمس .

أول صفة هي أن يكونوا أشداء وأقواء أمام الأعداء ، ولا يهابونهم ، بل يقفون

أمامهم كالسد المانع ذي قوة على الصد والمنع الشديد .

وفقاً لهذه الآية ، فإنَّ استخدام العنف في حق الأعداء لا أنه غير مستعاب فقط بل

مطلوب ولازم أحياناً . أولئك الذين يرفضون العنف بالكلية في زماننا هم لا يعرفون معنى

العنف ولا يفهمونه ، ولا معرفة لهم بآيات القرآن وتاريخ الاسلام .

ينبغي الوقوف أمام الذئب الذي لا يفهم اللين والمنطق والاستدلال باستحكام وقوة ،

بل ينبغي استخدام كل ما نملك من سلاح لصدده ومنعه .

كثير من الناس في عصرنا الحالي هم أسوء من الذئب ، أولئك الذين يقررون بطن

الحامل

. ٢٨ : الفتح

بطلقة رصاص ويقتلونها مع طفلها تقمصوا ثوب الانسانية وليسوا بأناس ، وعليها الوقوف أمامهم ؛ لأنهم لا يفهمون غير العنف ، والعدالة عينها في الدفاع والمقاومة ، وهو أمر منسجم مع الطبيعة ، وذلك من قبيل كربات الدم البيضاء التي تفزع للمواجهة مجرد احساسها بالخطر وشعورها بدخول عدو أجنبي ، أي الميكروبات .

إذن ، أول صفة لأنصار الرسول هو مواجهة الأعداد بشدة والوقوف باستحكام أمامهم .

﴿رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

الصفة الثانية لل المسلمين الحقيقيين هي اللين والرحمة فيما بينهم بنفس نسبة الشدة التي يتمتعون بها لمواجهة الأعداء ، فهم شديدون مع الأعداء ومتراحمون فيما بينهم ، أي يتمتعون بجاذبية تجاه بعضهم الآخر ودافعه تجاه الأعداء والكفار ، والمسلم الحقيقي هو الذي تجتمع فيه صفة القهر واللطف .

لو لم يكن المجاهدون الشيعة في جنوب لبنان انعكاساً لـ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ لاستطاعت اسرائيل الزحف من لبنان إلى باقي الدول المجاورة لها ؛ لأن اسرائيل ذئب ، والذئب لا يفهم شيئاً غير العنف ، فقد مل هؤلاء الشباب وفعلوا فعلتهم ، وكما قال فيهم الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله : إنّهم فعلوا ما لم تفعله جيوش الدول العربية جميعها .

﴿تَرَاهُمْ رَكَعاً سُجَّداً﴾

الصفة الثالثة لل المسلمين الحقيقيين هي علاقتهم المتواصلة مع الله ، فيركعون ويسجدون لله دائماً .

وهذه العبارة تعني أن أعمالهم جميعها من الركوع والسجود والاستراحة والتوفيق والحب والبغض وكل سلوكهم عبارة عن عبادة ؛ لأنها تصدر عنهم بنية القرابة وإرضاء الله تعالى ، ويستلهمون قدرتهم وقوتهم من خلال هذه العبادة ، فيبدون أشداء أمام أعدائهم ولينين ورحماء فيما بينهم .

﴿بَيْتُهُمْ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾

صفتهم الأخرى هي خلوص نيتهم تبعاً لرسولهم ﷺ ، فلا يتغرون ولا يطلبون شيئاً من خلال أعمالهم غير رضا الله والفضل من قبله تعالى ، ولا بحد في أعمالهم الرياء والتظاهر .

أيتها القراء ، الإخلاص إكسير عجيب ، والانسان يزداد توفيقاً كلما ازداد إخلاصاً ، فالإخلاص والإخلاص ثم الإخلاص.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَئِرِ السُّجُود﴾

الصفة الأخرى لأصحاب الرسول ﷺ الحقيقين هو ظهور علامات وآثار العبادة والسجود في وجوههم ، فالإنسان ينضح بما فيه.

السيماء في العربية تعني العلامة ، وعلامة المسلم الحقيقي هو ارتسام عقيدته الباطنية وعباداته التي يمارسها في الخفاء على وجهه وسراريتها إلى ظاهره ، ونور إيمان قلبه يشع من وجهه. وإذا وسعنا في معانى الآية قلنا : يمكن مشاهدة آثار الإيمان في جميع لقطات حياته ، في سلوكه الفردي والاجتماعي ، وفي حركاته وسكناته.

﴿ذَلِكَ مَثُلُّهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾

هذه الصفات الخمس لأصحاب الرسول ﷺ ورد ذكرها في التوراة. أعزتي ، الطريق واضح ، لكنه بحاجة إلى همة وإرادة مستحكمة ، اتصف بهذه الصفات الخمس لترى نفسك في لواء أنصار صاحب الزمان (عجل الله فرجه). يا أيتها الذين قضوا عمرهم قائلين : (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً) ، إن الفوز العظيم في الاتصاف بهذه الصفات الخمس.

علي عليه نموذج كامل للصفات الخمس

في مجال المقاومة والصمود يقول الإمام علي عليه السلام : «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت»^(١) ، وهو نفسه الذي كان رمزاً في الغضب والمواجهة كان في ذات الوقت بحراً من اللطف والعاطفة عند ما يرى يتينا مسلماً فيجلسه في حضنه ويلاطفه ويسمح بيده على رأسه ويدرف الدموع عليه ، بحيث لا يصدق أحد أن هذا الرجل هو نفسه الذي يقف أمام الأعداء كالجبل الصامد.

(١) بحار الأنوار ٢١ : ٢٦ .

علي يذهب لمساعدة زوجة شهيد ويقرب وجهه من التئور ليذيق نفسه حرارته ، خوفاً من أن يغفل يوماً عن الأيتام.

علي يعيش العبودية دائماً ، فهو أسوة العابدين وقدوتهم ، وأحياناً يأتي بألف ركعة يومياً^(١).

لا مثيل لإخلاص علي ، فكان قطعة من الإخلاص ، عند ما بارز عمرو بن عبد ود في معركة الخندق غلبه وكاد يقتله فبصدق عمرو في وجه علي وشتمه فتوقف عن قتله ومشى قليلاً في ميدان المعركة ثم قتله ، وعند ما سأله المسلمون عن سبب ذلك الإجراء وأنه لماذا لم يقتله مباشرة بعد ما تغلّب عليه ، قال : «قد كان لشتم امي وتفل في وجهي فخشيت أن أضره لحظة نفسي فتركته حتى سكن ما بي ثم قتلتة في الله»^(٢) ، أي أنه لو كانه قتله مباشرة كان لانتصار النفس سهم في قتله فهذا نفسه لكي يكون قتله خالصاً لوجه الله تعالى . علام الایمان كلها مطبوعة في سلوك علي ، وآثار العبادة تشع من وجهه النوراني .

مثل أصحاب الرسول في الإنجيل

قرأنا أوصاف أصحاب الرسول في التوراة من خلال الأسطر السابقة ، وهذا يكشف ضمنياً عن أن الرسول ليس الوحيد الذي كان قد ذُكر في التوراة والإنجيل بل وكذلك أصحابه من خلال ذكر أوصافهم ، كما تقدم توضيح ذلك.

آية المثل وأشارت إلى مثل أصحاب الرسول الحقيقيين في الانجيل وقالت :

﴿وَمَنْلَهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَرَزْ﴾

أي مثل أصحاب الرسول الصادقين في كتاب النصارى السماوي (الإنجيل) كمثل المزرعة أو الزرع الذي له مواصفات خمس.

١ . ﴿أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾

(١) انظر بخار الأنوار ٤١ : ٢٤ . قد يشكل البعض في امكانية الإتيان بألف ركعة يومياً ، لكن العالمة الأميني يقول : كان في النجف من يأتي بألف ركعة في ثمان ساعات ، وبهذا يتنفس احتمال استحالة الأمر.

(٢) انظر بخار الأنوار ٤١ : ٥١ .

للشطأ معنيان ، أحدهما : ما يخرج حول اصول الشجر ، فينمو تدريجياً ليستقل ويصبح شجراً بعد مدة. ثانيهما : فراغ الحيوانات إذا ازدادت ، وعلى العموم الشطأ يفيد معنى التكاثر والتوسيع وما شابه.

أول خصلة للزرع المذكور في الآية هو أنه غير عقيم بل يتکاثر وتزداد رقعته ، ولا حدود له.

﴿فَازْرَةُ﴾ ٢ .

آزر يؤازر تعني الرعاية والحماية والتقوية ، وقد اطلقت مفردة (الوزير) على المقام المعروف ، باعتباره يقوى الملك ويحميه ، كما اطلقت هذه المفردة على الامام علي عليه السلام ؛ باعتباره يدافع عن الرسول ويحميه ويسعى في طريق تقوية الدين.

الزراعة المفروضة في المثل لا أنها تتکاثر وتنمو وتزداد فحسب بل فراخها وما ينتج منها ترفع المowanع من طريقها وتؤمن احتياجاتها وتقوى أصلها وتوأزره.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ٣ .

الخصيصة الثالثة هي أن الشطأ الحمي في المزرعة يستحكم في الأرض تدريجياً وفي ظل هذه الحماية يستغلظ ويقوى.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِه﴾ ٤ .

تستمر الرعاية والحماية للشطأ إلى حيث تشعر بالاستقلال وعدم الحاجة إلى التقوية والحماية وأن عهد الارتباط وال الحاجة للغير قد ولّ ، وتقوم بنفس العمل الذي كان أصلها يقوم به ، وينبر شطاؤها بالمراحل التي مرّ بها الأصل ، أي المؤازرة والاستغلال والاستقلال.

﴿يُعَجِّبُ الزَّرَاعَ لِيَغِيَطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ ٥ .

نمو الزراعة وتکاثر اصولها كبير وبارك جداً بحيث تثير إعجاب المزارعين والفالحين وتحلهم في حيرة من أمرها ، فيضعون أصابعهم في أفواههم تعجبًا ، لما يشاهدونه من سرعة نمو الاشجار وازيادها بحيث تغطي المزرعة بعد فترة قصيرة. أما الكفار فيمتلئون غيظاً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

وعد الله أصحاب الرسول بالغفرة والأجر العظيم إذا تحقق فيهم شرطان ، الاول :
 آمنوا بالله واصلحو اعتقداتهم حقاً.

الثاني : كانت أعمالهم صالحة كنتيجة للاعتقادات السليمة ، وهذا يعني أن الله لم يعد جميع الصحابة بل ذلك البعض الذي تحقق فيه الشروط المزبورة . والشاهد على ذلك هو أن ﴿مِنْهُم﴾ تبعية ، وتحصّل بعض الصحابة ولا تشمل الجميع .

الخلاصة : الآية شبهت أصحاب الرسول بالمزرعة النامية ، وأجل إيمانهم وأعمالهم الصالحة بشرفهم بالغفرة والأجر العظيم .

خطابات الآية

١ . الاسلام دين عالمي

الآية المتقدمة من أمثال القرآن العجيبة ، وتحمل معها خطاباً مهماً وعظيماً لل المسلمين .

وفقاً لهذه الآية ، لا ينبغي للمسلمين أن يسعوا لإصلاح أنفسهم وحفظ دينهم وعقيدتهم فحسب ، بل عليهم التفكير والسعى لأجل نشر الاسلام وهداية باقي الشعوب والامم . حفظ الدين أمر مطلوب ومستحسن لكنه غير كاف ، وعلى المسلم أن يخرج شطاً وبهتمم بتربية تلامذة وأولاداً طيبين ويختار أصدقاء جديرين ويهتمّ بإصلاحهم ، ويشكّل عائلة نموذجية ، ويرعاهم ويحميهم لكي يستحکموا تدريجياً ويستقلوا ، ثم كلّ منهم يدخل خط الانتاج والنمو والحماية والاستحكام والاستقلال .

المجتمع الاسلامي مجتمع متّنامي ومتّسعاً ومتّكاً ، وليس محدوداً ومنحصراً في حدوده ولا يتقدّم ولا يتتطور . الآية تأمر المسلمين أن لا يقتنعوا بما لديهم بل عليهم السعي لعولمة الاسلام ، أي دين الحق الوحد .

ماذا يقول القرآن؟ وماذا أنجزنا وما عملنا؟ وماذا أنجز الآخرون وما عملوا؟ القرآن . وفقاً لهذه الآية . يأمرنا باستخدام كل ما لدينا من وسائل وآليات من المرسلات والأقمار الصناعية والكمبيوتر والانترنت والمطبوعات والكتب والصحف والمبلغين والسينما وتوظيفها جمّعاً لغرض تبليغ الاسلام وإيصال رسالته إلى العالم كله .

هل ترجمنا القرآن ، الذي هو وصفة سعادة البشر ويحتوي على أفضل المعارف الدينية ، إلى لغات أجنبية؟ هذا في وقت ترجم فيه الانجيل المحرّف إلىآلاف اللغات وعرض على جميع الشعوب والأقوام.

وهل عملنا هذا يعد استخداماً مناسباً للوسائل المتقدمة والتقنية الحديثة؟ آية المثل توجّه خطابها للحووزات العلمية لأن يعدّوا مبلغين جديرين وبارزين ملّمين باللغات الأجنبية تلبية للطلبات ، سواء في داخل الدول الإسلامية أو خارجها.

بعد تحطّم الاتحاد السوفياتي شعرت أوروبا الشرقية بفراغ عجيب ، وباعتبار وجود مسلمين هناك تبلورت الأرضية لقبول الإسلام من قبل الأوروبيين ، لكنّ ما يؤسف له أنّا كنّا نفقد المبلغين الذين ينطّقون بلغات أوروبا الشرقية ، ففقدنا هذه الفرصة الذهبية ، في وقت أرسل البابا إلى هناك مائة ألفٍ من مبلغتهم الذين ينطّقون بلغات أوروبا الشرقية مع رأس مال يقدّر بمائة مليون دولار ، وبذلك كانت الفرصة من نصيب المسيحيين.

في هذا المجال مسؤولية الحوزات العلمية والجامعات والحكومات الإسلامية والآباء والآمهات والمربين والمعلمين والله ثقيلة جداً.

زعماؤنا الدينيون كانوا موفّقين في هذا المجال ، كما كانوا موفّقين في المجالات الأخرى ، على سبيل المثال كانت لعلي عليه السلام في عصره كلمات وخطب وحكم ورسائل كثيرة مفعمة بالمعارف ، وقد جمع (نحو البلاغة) مقتطفات من تلك الكلمات والخطب والرسائل ، ليت السيد الرضي كان قد جمع كل ما صدر منه من رسائل وخطب وكلمات وحكم.

كان علي عليه السلام يخاطب الزرع الذي يخرج شطأه ، كان منشغلاً دائماً في هداية الناس والنشاطات الاجتماعية والعبادية. نشاهد عدد الألف في سيرة علي عليه السلام كثيراً ، فقد حرر ألف عبدٍ من كد يده^(١) ، وكان أحياناً يأتي بآلف ركعة يومياً^(٢) ، وقتل في ليلة من ليالي

معركة

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ، أبواب العتق ، الباب ١ ، الحديث ٣ و ٦ .

(٢) في روایة رواها أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أن علياً عليه السلام كان يأتي بآلف ركعة يومياً في أواخر عمره ، انظر بخار الأنوار ٤١ : ٢٤ .

صفين خمسماة وعلى رواية ألفاً من أنصار معاوية ، وكان يكبر عند كل ضربة ^(١). على الشيعة أن يقتدوا بعلي في جميع امورهم وبخاصة في مسائل من هذا القبيل. ما الذي عمله النبي ﷺ في صدر الاسلام؟ كيف نمى الاسلام الذي ظهر في مهد الجاهلية وعلى ارض مكة الجرداء؟ كيف أخرج شطأه وتوسّع رقعته ليغطي أكثر بقاع الأرض خلال فترة تقل عن مائة عام؟

كانت مكة آنذاك محاطة بخمس حضارات ، في الشمال الحضارة الرومية ، وفي الشرق الحضارة الفارسية وإلى جنبها حضارة بابل في العراق ، وفي الجنوب حضارة اليمين ، وفي الغرب حضارة مصر ، وعند ما بدأت تنمو شتلة الاسلام استحكمت واستقلت ثم بدأت تخرج شطاً فشطاً ، وفي فترة تقل عن القرن فتحت ايران واليمين ومصر وبابل ، واستطاعت الشتلة أن تغطي ببراعتها بلاد أربع حضارات.

على المسلمين أن يكونوا هكذا ، لكن مما يؤسف له أنَّ بعضنا لا يسعى في تربية أولاده ، فهو لا يراهم ولا يتقيهم إلَّا وهم نائمون ، يستيقظ صباحاً وهم نائمون ولا يرجع إليهم إلَّا ليلاً حيث غرقوا في نومهم ، ولا مجال له للياشر عملية تربيتهم.

آخر شيء تبغي أنَّ المسلمين حالياً إذا أرادوا أن يكونوا كما كان المسلمون في صدر الاسلام حيث فتحوا بلداناً كثيرة فعليهم أن يصلحوا أنفسهم وأن يدعوا الاختلافات ويدلّوا فرقهم إلى وحدة واتحاد وكتبهم وصحفهم إلى كتاب واحد وصحيفة واحدة.

٢ . المثل لا يشمل جميع أصحاب الرسول

يُطلق الصنادي على كل من تشرف في الكون بخدمة الرسول ﷺ وزاره من قريب ، لكن هل المثل الجميل المذكور في الانجيل يعم كل من كان صاحبياً أم يخصُّ البعض من الصحابة؟

الجواب : يتضح جواب هذا السؤال من خلال التدقيق في الآية ذاتها ، فقد جاء في

ذيلها : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

(١) وقد سميت تلك الليلة بليلة المربوبي المروي ؛ لأنَّه هرب فيها الكثير من أفراد العدو ، كما استشهد فيها ألف وسبعمائة من معسكر الامام علي عليهما السلام ، منهم اويس القرني وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، كما قتل عشرات الآلاف من معسكر معاوية ، انظرمناقب الخوارزمي : ٢٩٤ ، ومنتهى الآمال ١ : ٢٩٣.

والآية تقسم الصحابة إلى القسمين التاليين :

الأول : الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فلهم أجر عظيم.

الثاني : الذين لم يؤمنوا حقيقة وما عملوا الصالحات فهم محرومون من الأجر الإلهي

العظيم.

إذن ، تزنيه جميع الصحابة . كما فعل ذلك بعض أهل السنة . لا ينسجم مع القرآن الكريم ^(١) ؛ لأن هناك آيات كثيرة خصوصاً في سورة التوبة وردت في ذم بعض الصحابة ، مع أننا لو نزّهنا جميع الصحابة واعتبرناهم جيدين ، فلما ذا تنازعوا فيما بعد؟ ألا يعُد ذلك تنافقاً؟

في أحد أسفاري إلى مكة كان لي نقاش في المسجد الحرام بعد صلاة المغرب مع بعض الاخوة من أهل السنة ، حرسنا الحديث إلى قضية الصحابة ، فكانوا يقولون : إِنَّمَا مُنْزَهُونَ جِيَّعاً ، فسألتهم : لو كنتم في حرب صفين فتضضمون إلى عسكر الامام علي عليه السلام أم معاوية؟ فقالوا : إلى عسكر علي عليه السلام ، لكننا لا نسيء إلى معاوية.

فسألتهم : لو أعطاكما الامام علي سيوفاً وأمركم بقتل معاوية مما تفعلون؟ قالوا : ننفّذ أمر علي ونقتل معاوية ، لكننا لا نقول في معاوية إِلَّا قولاً حسناً! وهذا يشبه النصب والهزل أكثر من الحقيقة.

يبرر البعض هذا المنهج بأن كلاً من علي ومعاوية عمل وفق اجتهاده واستبطاطاته الشخصية ، ولذلك لا يعدان مقصرين ، وكذا الحال بالنسبة إلى طلحة والزبير وعائشة ، فما خروجهم عن خلافة الامام علي عليه السلام إلا وفق اجتهاداتهم ، ولهذا لا يعدون مذنبين أو مقصرين عند الله ؛ لأن كلاً منهما عمل وفق ما تفرضه عليه وظيفته الشرعية.

بطلان هذا التبرير واضح جداً ، فإذا قبلنا هذا الكلام فلا يبقى مذنب على وجه الأرض ، لأن هابيل وقابيل عملاً وفقاً لما تملّيه عليهما اجتهاداتهما واستبطاطاتهما ، ولا يمكن مؤاخذة أيٍّ منهما وفقاً لهذا المنهج ، كما أنَّ كلاً من موسى وفرعون ، وإبراهيم ونمرود ، وعيسى وعبدة الأصنام ، وشعيب وقومه و... عمل وفق اجتهاده واستبطاطه ، ولا يُعُدُ واحد منهم مقصراً أو مذنباً!!!

(١) للمزيد راجع نظرية عدالة الصحابة ، للاستاذ أحمد حسين يعقوب.

المثل السابع والأربعون :

الغيبة

يقول الله في الآية الثانية عشر من سورة الحجرات :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُنِ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا وَلَا يَغْتَبْ
بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهُبْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابٌ
رَّحِيمٌ﴾

تصوير البحث

رغم عدم ورود مفردة مثل في هذه الآية ، إلا أن أمراً معنوياً وغير مادي شبهه فيها بأمر محسوس ومادي ، لهذا تدرج في أمثال القرآن .

في هذه الآية شُبِّهَت الغيبة ، التي هي من الذنوب الكبيرة والخطيرة وبلاء عاماً ، بأكل لحم الأخ الميت ، وتزيد القول من حلال ذلك : كما أنه لا أحد يأكل لحم أخيه كذلك الحال المفروض في الغيبة ، فلا ينبغي أن ترتكب أبداً.

تعريف مجمل بسورة الحجرات

الحجرات هي السورة التاسعة والأربعون من القرآن ، وهي مدنية وذات ثمانية عشر آية ، وتضمنت مجموعة من الأوامر والآداب تختص كيفية التعامل مع الرسول ﷺ وأولياء الله ، ولو سمعناها سورة الأخلاق كانت تسمية في محلها ؛ لما تضمنته من أوامر أخلاقية عديدة .

في فضل هذه السورة روي ما يلي عن الرسول ﷺ :
«من قرأ سورة الحجرات اعطي من الأجر عشر حسنات بعده مَنْ أطاع اللَّهَ وَمَنْ عصاه» ^(١).

قد يظن البعض أنَّ ذكر فضائل جمّة من قبيل ما ورد في الحديث الشريف لقراءة سورة صغيرة مثل الحجرات يُعدُّ مبالغة ، لكن بطلان هذا الظن واضح ؛ لأنَّ الرسول ﷺ والمعصومين عليةما لا يحيط به العقول عموماً لم يبالغوا أبداً ، ومراد الحديث وما شابهه ليس التلاوة المحرّدة بل التلاوة مع التفكّر في معانيها مقتنناً بالعمل بمضامينها.

الشرح والتفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

المخاطبون في هذه الآية هم المؤمنون وقد حذّرُوا فيها من اقتراف ثلاثة أعمال ، هي :

﴿١﴾ . اجتباوا كثيراً مِنَ الظُّنُونِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُونِ إِثْمٌ

يطلب الله من المؤمنين هنا أن يتركوا إساءة الظن لآخرين ، لأنَّه إنْ كان خاطئاً كان إثماً كبيراً.

يريد الله للمؤمنين محيطاً وبيئة آمنة تحفظ فيها الأموال والأرواح والشخصيات ، لا على مستوى البيئة الخارجية فحسب بل على مستوى الأفكار والذهن. انظر إلى تعالى هذا الدين.

ينقل المرحوم الفيض الكاشاني الحديث المفعم بالمعانى التالى عن الرسول ﷺ : «إن الله حرم من المسلم دمه وما له وعرضه وأن يظنَّ به السوء» ^(٢).
إذا عملنا بهذا الأمر الأخلاقي فحسب فإن كثيراً من البغض والعداوة والحسد سينتفي
؛ لأن منشأ الكثير من هذه الذنوب هو سوء الظن.

سؤال : إساءة الطن ليس إرادياً لكي يجترب عنه ، فعد يتبلور سوء الطن مجرّد رؤيتنا للقطة

. ١٢٨ : ٩) مجمع البيان (

٣٦٨ : ﻋَلَى ﺍﻟِبْيَضَاءِ (٢)

خاصة دون إرادة أو اختيار منا ، فكيف يمكننا ترك ما ليس بأيدينا؟

الجواب : أولاً : ينبغي السعي لحمل أعمال الآخرين وتصرفاتهم على الصحة وعلى محامل حسنة ، وعلى سبيل المثال لو شاهدنا شخصاً يأكل في شهر رمضان نقول : قد يكون مريضاً أو معذوراً لعذر آخر . وإذا شاهدنا شاباً مع شابة تحمل أحما من محارمه وأقربائه . وإذا شاهدنا تصرفاً غير مناسب صدر من شخص نقول : لا بد وأنه صدر عنه إثر تعب أو اضطرار ...

جاء في الروايات : احمل أعمال الآخر على سبعين حملاً^(١) ، وإذا تصوّرنا هذه الاحتمالات انمحى من أذهاننا سوء الظن عن الآخرين تدريجياً .

ثانياً : إذا استحکم في ذهنك سوء ظنٌ تجاه شخص فلا تبرزه ولا تخرجه عن محيط ذهنك ولا تعمل وفاته ، فإذا كان صديقك وتحبه فاستمر في صداقتك وحبك له ، ولا تقلل منهما شيئاً .

خلاصة الكلام : أن لا تسمح لسوء الظن أن يؤثر في نفسك .

٢ . ﴿وَلَا تَجْسِسُوا﴾

ثاني أمر أخلاقي أمرت به الآية هو عدم التجسس على الآخرين . جاء التجسس والتحسّس بمعنى واحد ، وهو الفحص أو البحث أو السعي لادراك الامور ، والاختلاف بينهما في أن التحسّس هو التفحّص في الامور المشروعة والمحازة ، بينما التجسس هو التفحّص في الامور غير المشروع التفحّص فيها . ومن ذلك قول يعقوب عليهما السلام : ﴿يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحْسِسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَجِيه﴾^(٢) .

(١) لم تأت رواية بهذا النص (أي الحمل على سبعين حملاً) لكن جاءت رواية من قبل الرواية التالية : قال أبي بن كعب : «إذا رأيتم أحد إخوانكم في خصلة تستنكرونها منه فتأولوا لها سبعين تأويلاً فإن اطمأنتم قلوبكم على أحدها وإنما فلوموا أنفسكم حيث لم تغدوه في خصلة سرها عليه سبعون تأويلاً وأنتم أولى بالإنكار على أنفسكم منه». بحار الأنوار ٧٢ : ١٩٦ .

لا يبعد أن أبي بن كعب روى هذه الرواية عن الرسول ﷺ ؛ باعتبار مضمونها الرفيع الذي لا يصدر إلا عن المعصوم . كما أن هناك روايات كثيرة وردت عن المعصومين تأمر بحمل الأعمال على الصحة لكن لم يرد فيها كلمة سبعين ، راجع بحار الأنوار ٢١ : ١٨٧ ، ٢٢ : ١٩٦ ، ٢٥١ : ٣٣ و ٧٥ ، و عمدتها مروية عن أمير المؤمنين عليهما السلام الصادق عليهما السلام .

(٢) يوسف : ٨٧ .

للناس أسرار وأعمال سرية لا يرغبون البوح بها ولا اطلاع الناس عليها ، والسعى للاطلاع عليها يُعد تجسسًا غير مجاز .

جاء في رواية : «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»^(١) ، أي أنه إذا كان يتلتفت يميناً ويساراً خوفاً من اطلاع أحد على سره فعليكم الاجتناب من السعي لإدراك ما يقوله ؛ وذلك لأن إفشاء أسرار الناس من الذنوب الكبيرة ، وإفشاء أسرارهم ييدل الدنيا إلى جهنم يصعب تحملها .

لا يمكن للناس التعايش دون أن يتداولوا الثقة ، والتجسس يلزلل اسس الثقة وأعمدتها .

بالطبع هناك موارد مستثناة لا إشكال فيها ، من قبيل التجسس على شخص متهم بالارتباط بالأجانب يسرّب لهم معلومات ، أو من قبيل التجسس على شخص متهم بتهريب المخدرات وما شابه ، وهذه الموارد ليست من قبيل التجسس بل هي تجسس ، على أن يكون تجسسًا منطقياً ووفق ضوابط لا يكون مطلق العنوان بحيث يسمح في الانصات للمكالمات الهاتفية مطلقاً .

٣ . ﴿وَلَا يَعْتَبِرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾

ثالث وصية أخلاقية هو الاجتناب عن الغيبة ، فلا ينبغي لأحد أن يفضي أسرار آخر في غيابه .

سؤال : ما العلاقة بين الذنوب الثلاث؟ وهل اقترنت اعتماداً دون أن يكون بينها علاقة؟

الجواب : الانصاف هو أن هناك علاقة تربط هذه الذنوب فيما بينها ، وكل منها معلول للآخر . عند المعاشرة يحصل سوء الظن ، ولو استطاع الإنسان مقاومته ومواجهته كان عليه شكر الله ، ولو استمر أدى إلى التجسس على أعمال الآخرين ، ولو استطاع جهاد هذه المرحلة والتغلب عليها فبها ونعمت وإنما أنتجه ثمرة غير مباركة ، وهي الغيبة ، فالغيبة معلول للتجسس .

إذن ، سوء الظن منشأ للتجسس ، والتجسس علة للغيبة ، وبعبارة أخرى الغيبة معلول

(١) المحة البيضاء : ٥ : ٢٣٧ .

للتتجسس ، والأخير معلول لسوء الظن.

﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ﴾

بعد ما بين الله الذنوب الكبيرة الثلاثة ونفي المؤمنين عنها يضرب مثلاً للغيبة التي هي فاكهة مجالس أكثر الناس ، قائلاً : إنّها بمثابة أكل لحم الأخ الميت ، وهل أحدكم مستعد لأكل لحم الأخ الميت؟

سبب هذا التشبيه هو أنّ الغيبة تذهب بماء وجه المغتاب ، وإذهاب ماء الوجه بمثابة قطع قطعة من بدنـه ، بل قد يكون أصعب من ذلك . وبما أن المسلمين إخوة فاغتياب أحدهم الآخر بمثابة أكل لحم الأخ . وتشبيه الأخ المغتاب بالميـت باعتبار وجه الشبه بين الغائب عن المجلس والمـيت ، فإنـ كلاهما عاجزان عن الدفاع عن انفسـهما.

التمثيل عجيب جداً ، وهل يمكن تصوّر ما هو أسوء من أكل لحم الأخ المـيت؟ وهل

يستعد أحدنا عمل ذلك ولو كان مجـوناً؟

يحيـب القرآن على هذه التساؤلات بقولـه :

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابُ رَحِيمٌ﴾

نعم ، كلـ منا يكره عمل ذلك ويستاء منه . وعلى هذا ، ينبغي بالانسان أن يتقيـ الله ويتجنبـ الغيبة ، بل لا يفكـر بها ، فالتفكيرـ بها تفكـيرـ بأـكل لـحمـ المـيت .
اتـقوا الله واتـركوا سـوء الـظنـ لـكيـ لا تـتجـسـسـوا ولا تـطـلـعـوا عـلـى أـسـرـارـ الآخـرينـ ولـكيـ لا تـفـشـلـوهاـ ، وـإـذـا سـبـقـ وـأـنـ اـرـتكـبـتـ هـذـهـ الذـنـوبـ أوـ ذـنـوبـ آخـرـيـ فـعـودـواـ إـلـىـ اللهـ وـتـوـبـواـ مـنـهـاـ بـعـدـ ماـ أـدـرـكـتـ قـبـحـهاـ ، فـالـلـهـ يـقـبـلـ التـوـبـةـ وـيـغـفـرـ الذـنـوبـ ، فـهـوـ غـفـورـ رـحـيمـ.

خطاب الآية

الغيبة قبيحة للغاية

خطاب الآية الواضح والموجـه للجميع هو أنـ التـلاـعـبـ بـكـرامـاتـ النـاسـ واستـعـابـهمـ بمـثـابةـ أـكـلـ لـحمـ الـانـسـانـ ، بلـ أـكـلـ لـحمـ الـانـسـانـ مـيـتاـ ، وـأـيـ مـيـتاـ؟ـ لـيـسـ مـيـتـ الأـعـداءـ بـلـ مـيـتـ الإـحـوانـ ، وـهـوـ عـمـلـ يـصـدرـ مـنـ الـحـيـوانـاتـ الـأـكـثـرـ وـحـشـيـةـ فـقـطـ .ـ وـمـنـ الـوـاضـحـ أـنـ الـانـسـانـ لـوـ

كان يحمل شيئاً بسيطاً من العاطفة لا يقدم على هذا العمل. إذن لماذا هذا التساهل في التلاعيب بكرامة الإنسان وماء وجهه واعتبار الغيبة فاكهة المحالس؟

مباحث تكميلية

١ . عاقبة الذي يستغيب

أئيَّها القراء المختermen ، للغيبة عواقب سيئة كثيرة أشارت لها الروايات ، نكتفي هنا بذكر روایتين :

الف : جاء في رواية :

«من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار»^(١).

باء : ورد في روايات أنَّ على الذي يستغيب أن يدفع غرامة غيبته ، وهي عبارة عنأخذ بعض ذنوب المغتاب (إذا كانت له ذنوب) ووضعها في صحيفة أعمال الذي يستغيب ، وإذا كان المغتاب خالياً من الذنوب تؤخذ بعض حسنات الذي استغاب وتعطى للمغتاب

^(٢)

وفي رواية : «يُؤتى بأحد يوم القيمة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيقول : إلهي ليس هذا كتابي ، فاني لا أرى فيها طاعتي؟ فيقال له : إن ربك لا يضل ولا ينسى ، ذهب عملك باختياب الناس ...»^(٣).

الروايات السالفة تكشف عن أن الغيبة من حقوق الناس ، وهي أشد وأصعب من حقوق الله ، ولهذا يجب احتياطاً إبراء الذمة من المغتاب ، وإذا كان في الإبراء مفسدة فعلية العمل للمغتاب بكثرة إلى درجة يجبر فيها سوء عمله تجاه المغتاب.

بعض المصير مصير من اغتاب شخصاً ومات الشخص قبل أن يبرء ذمته من الغيبة ، فلا يمكن الوصول إليه عندئذٍ ، لكن عليه الإكثار من الأعمال الصالحة له لكي ترضي روحه عليه.

(١) بحار الأنوار ٧٢ : ٢٢٢ ، المحة البيضاء ٥ : ٢٥٢.

(٢) المحة البيضاء ٥ : ١٢٥ (نقلًا عن أنوار الفقاهة ، المکاسب الخرماء : ٣٦٤).

(٣) ميزان الحكمة ، الباب ٣١٣٣ ، الحديث ١٥١٩٧.

٢ . لا نخدع أنفسنا

كثير من الناس يخدع نفسه في مجال الغيبة ويسعى لتبير سوء عمله بنحو آخر ، مثلاً عند ما نعترض على البعض ونأمره بعدم الغيبة يقول : (ذلك ليس غيبة ، بل إني أقول هذا أمامه) أو (هذه ليست غيبة بل إحدى صفاته) ، مع أن هذا تبیر خاطئ ؛ لأن الغيبة لو لم تكن ذكرًا لأحدى صفات المغتاب كانت تهمة أو بحثاناً عليه ، وباعتبار كونها صفة لم يطلع عليها الآخرون كانت غيبة ، وذكرها عند المغتاب لا أنه لا يحمل المشكلة بل يضاعف من الذنب ؛ لأنها تدخل عددي في باب إيذاء المؤمن ، وهو من الكبائر ^(١) .

يتثبت البعض الآخر بعذر آخر من قبيل : (أنه أساء لي فأغتابه) ، مع أن هذا لا يسيغ الغيبة ، فلو أن شخصاً أساء لعرض آخر فهل يمكن للأخير أن يسيء لعرض الأول؟ بالطبع لا ؛ لأن الحاكم الشرعي هو الوحيد الذي يمكنه تعزير المذنب.

٣ . إضفاء صفة القداسة على الغيبة

البعض من الناس يغتاب الآخرين بظاهر شرعي مقدس ، كما لو سأله آخرون عن فلان فيجيئهم : (آسف على أن الشّرع لم يسمح لي بالكلام عنه) ، وحديثه هذا أسوء من الغيبة ، ولو ذكر عييه بصراحة كان أفضل بكثير من ما يتتركه من إيهام واحتمالات كثيرة في ذهن المستمع لكتابه ، وقد قال بعض العلماء في هذا الكلام : إن صاحبه يتحمل ذنبين : الغيبة والرياء.

اللهم وفقنا جميعاً لترك هذه الذنوب الثلاثة وبالخصوص الغيبة.

(١) ورد في هذا الحال روایات كثيرة دلت على ما ذكر ، للمزيد راجع وسائل الشیعة الجزء ٨ ، أبواب أحکام العشرة ، الباب ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ ، ومجموع الروایات فيها تبلغ ٢٤ روایة.

المثل الثامن والأربعون :

قرب الله من الانسان

يقول الله تعالى في الآية ١٦ من سورة (ق) :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسُهُ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

تصوير البحث

لم تستخدم مفردة مثل أو كاف التشبيه في الآية ، رغم ذلك أدرجناها في الامثل ؛

باعتبار ما تضمنته من تشبيه أمر معقول ومعنوي بأمر محسوس.

في الآية شبّه الله قريبه إلى الانسان بقرب الوريد إلى الانسان بل اعتبر نفسه أقرب إلى

الانسان من قرب الوريد إليه.

إلقاء نظرة على الآيات السابقة للمثل

آيات القرآن على العموم متراقبة فيما بينها ترابطًا خاصاً ، وهذا الترابط قد يبدو واضحًا وحليًا ، مثل آيات سورة يوسف التي تحكي قصة واحدة ، وأحياناً لا يكون الترابط جليًا وواضحًا بل يتضح بعد التأمل والتدقيق.

العلاقة بين آية المثل والآيات التي سبقتها من نوع العلاقة الثانية ، فلا تدرك ببساطة

بل بعد التدقيق والتفكير. وبعد هذه المقدمة نلقي نظرة عابرة على الآيات التي سبقت آية

المثل .

رَبُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُسْلِمِينَ خَلَالِ تَوَاجُدِهِ فِي مَكَةَ تَرِيَةٍ عَقَائِدِيَّةٍ مُسْتَحْكَمَةٍ بِنَحْوِ
كَانَتْ مُنْشَأً لِلْحَرَكَاتِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ. وَالْإِنْسَانُ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ عِقِيدَتُهُ فِي مَحَالِيِّ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ
تَعَبَّدُ لَهُ طَرِيقُ الْعِقِيدَةِ الْكَاملَةِ وَاتَّضَحَ لَهُ سَبِيلُ السَّعَادَةِ.

إِشْكَالُ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ يَنْشَأُ عَنْ ضَعْفِ عِقِيدَتِهِمْ فِي الْمُبْدَا وَالْمَعَادِ، وَأَمْثَالُ هُؤُلَاءِ لَا
يَرَوْنَ اللَّهَ حَاضِرًا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَلَا نَاظِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مَمَّا يَحْرِضُهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ الذُّنُوبِ
وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ، وَإِذَا اعْتَبَرُوهُ حَاضِرًا وَنَاظِرًا فَيَقُولُونَ ضَعْفَ اعْتِقَادِهِمْ أَوْ انْدَادَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
بَعْدِ الْمَوْتِ.

عَنْدَ مَا امْرَأَ بْنَ سَعْدَ بِقتَالِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اسْتَاءَ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَثِيرًا؛ لِأَنَّهُ
أَصْبَحَ بَيْنَ خَيَارَيْنِ، إِمَّا قَتْلُ حَفِيدِ الرَّسُولِ وَابْنِ بَنْتِهِ وَإِمَّا رَفْعُ الْيَدِ عَنْ إِمَارَةِ الرَّيِّ، ذَلِكُ
الْبَلْدُ الْخَصْبُ، فَنَشَبَتْ عِنْدَهُ الْحَرَبُ بَيْنَ عَقْلِهِ وَأَهْوَائِهِ، وَكَانَتِ الْغَلْبَةُ لِأَهْوَائِهِ وَاخْتَارَ إِثْرَ
ذَلِكَ حَرَبِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سعيًّا لِبَلوغِ إِمَارَةِ الرَّيِّ، وَأَنْشَدَ عِنْدَهَا :

يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَتَعْذِيبٍ وَغَلَّ يَدِينَ
فَإِنْ صَدَقُوا فِيمَا يَقُولُونَ أَنِّي أَتُوبُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ سَنَتَيْنِ
وَإِنْ كَذَبُوا فَرَزْنَا بِدُنْيَا عَظِيمَةٍ وَمَلَكُ عَقَيْمٍ دَائِمُ الْحَجَلَيْنِ^(١)

إِذْنُ ، الاعتقاد بأصلِيِّ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ مفَيْدٌ لَا فِي الْآخِرَةِ فَحَسْبٌ بِلَّا فِي الدُّنْيَا كَذَلِكُ
وَبِمَا نَسْتَغْنِي عَنِ الْحَاكِمِ وَالسُّجُونِ، وَهَذَا هُوَ سَبِيلُ تَأكِيدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمَا خَلَالِ
تَوَاجُدِهِ فِي مَكَةَ، كَمَا أَنْ حُورُ حَدِيثِ غَالِبِ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَّلَتْ فِي مَكَةَ هُوَ هَذَا
الْأَصْلَانُ. أَمَّا الْآيَاتُ الْمَدِنِيَّةُ فَقُلَّ تَأكِيدُ فِيهَا عَلَى هَذِينِ الْأَصْلِينِ، وَغَالِبُهَا كَانَ يَصْبُرُ فِي
قَضَايَا أَخْلَاقِيَّةٍ وَفَقِيهِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ، وَقَلَّمَا تَعَرَّضَتْ لِلْمُبْدَا وَالْمَعَادِ؛ وَذَلِكُ لِأَنَّ اسْسَ
عِقَادِ الْمُسْلِمِينَ ثَبَّتَ فِي مَكَةَ وَاسْتَحْكَمَتْ هَنَاكَ.

(١) منهاج الدَّمْوع : ٢٩١

يَا تَرَى مَنْ يَضْمُنْ لَابْنِ سَعْدَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْحَرَبِ وَالتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ، وَالتَّارِيخُ يَشَهِّدُ بِأَنَّهُ لَمْ يَتُوفَّ لِلتَّوْبَةِ، كَمَا
لَمْ يَنْلِ إِمَارَةَ الرَّيِّ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَمَا تَبَأَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ قُتِلَ بِيَدِ الْمُخْتَارِ ذَلِيلًا. راجِعُ مَقْتَلِ الْخَوارِزمِيِّ

تعرّض القرآن في الآيات ٦ . ٨ من سورة (ق) إلى مسائل التوحيد قائلاً فيها :

﴿أَفَلَمْ يُنْظِرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَا لَهُمْ مِنْ فُرُوجٍ﴾

سؤال : يظن البعض أنَّ السماء ليست سقفاً لكي نتصور فيه الثقب أو التزلزل ، وما نراه شيء يشبه السقف لا سقفاً حقيقياً ، ويبدو أنَّ كلام القرآن هنا غير منسجم مع الاكتشافات العلمية.

الجواب : من معانى السماء هو غلاف الكرة الأرضية ، أي الجو الذي أحاط بالكرة الأرضية ولا ثقب فيه ، وهو رغم ظرفته يعد أكثر استحكاماً من السقف المصنوع من الغواص السميك جداً ، فهو يصد الشهب رغم عظمتها ، وخطرها على الأرض كبير جداً ، بحيث إذا سقطت على الأرض أمكنها تدمير منازل كثيرة ومزارع واسعة ومعامل وما شابه ، لكنَّ الله حفظ الأرض وسكتتها من خلال هذا الغلاف الذي يحرق الشهب عند ما تصطدم به ، لتبدل إلى رماد.

هذا مضافاً إلى أنَّ الغلاف يمنع من دخول بعض الأشعة المضرة إلى الكبة الأرضية ، ولو سمح لهذه الأشعة بالدخول لعَرَضَت حياة الإنسان إلى الخطر.

إنَّ هذا الغلاف بمثابة المصفاة الذي يصفي الأشعة التي تصدر من الشمس ليصل المفید منها إلى الأرض وينعكس غير المفید إلى خارج الجو.

لو كان في هذا الغلاف ثقوب لتسنى للشهب وكذا الأشعة المضرة الدخول إلى الأرض ، ولعَرَضَت حياة الإنسان إلى خطر جدي. ألا يفكر الإنسان الجاحد بهذه الآيات لكي يدرك عظمة حالقه؟

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(١).

كان سطح الأرض يعممه الماء ، وظهرت اليابسة تدريجياً ، ولهذا يُعدُّ ظهور اليابسة من آيات الله العظمى ومن معالم التوحيد.

جبال الأرض بمثابة الأوتاد (الرواسي) التي تصدُّ الإعصارات الشديدة ، وتمنع من

حصول

(١) ق : ٧

آثار الزلازل المحرّبة ، وهي بذلك من آيات الله ومعالم قدرته. قضية الزوجية في الحيوانات والنباتات دليل آخر على عظمة الخالق. في القرن السابع عشر من الميلاداكتشف العلماء أن الزوجية لا اختصاص لها بالحيوانات ، بل النباتات لها ذكر وانثى ، وإنما أثبتت . كشف القرآن المجيد عن هذا اللغز العلمي منذ ١٤ قرناً وأعلن وجود الزوجية حتى في النباتات.

﴿تَبَصِّرَهُ وَذَكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (١).

أي أئنّا جعلنا الآيات السالفة ذكرها لغرض الإبصار والتذكرة لكلّ عبد تائب. بعد ما تعرّض الله تعالى إلى قضية التوحيد في الآيات الثلاث المتقدّمة ينتقل في الآية ١٥ من نفس السورة إلى قضية المعاد والحياة بعد الموت ويقول : **﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَيْسٍ مِّنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾** أي أئمّهم ظنوا أننا عجزنا في الخلق الأول وشكوا في امكانية خلقنا الثاني أو الجديد. النتيجة : أن الله تعرّض في الآيات التي سبقت آية المثل إلى معارف توحيدية ، وآية المثل تتمّ بهذه الآيات بصلة ؛ باعتبار أنّ حاسبة أعمال الإنسان من الآثار المفروضة للمعاد.

المعاد للمحاسبة ، وهي عملية منوطـة بتسجيل وثبتـيت الأعـمال ، لكن من سـجـلـ الأعـمال وـأثـبـتها؟ هـذا ما تـجـبـ عنه آـيةـ المـثـلـ.

الشرح والتفسير

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسَهُ﴾

الله يعلم بكل ما يصدر من الإنسان ، لا أعماله الخارجية وكلامه فحسب بل بكل ما يدور في باطنه من أسرار واعتقادات وأفكار. الوسوسـةـ في الأصلـ تعـنيـ الصـوتـ الذيـ يـحدثـهـ الـحـلـيـ عندـ اـحتـكـاكـ بعضـهاـ بـالـآخرـ ، ثمـ

(١) ق : ٨

استخدم لكل ما يخدع الانسان ، ومنها الاوهام والخيالات غير المراده التي تنتقش في ذهن الانسان.

إذن ، الله يعلم بكل شيء حتى في بالوساوس والأوهام التي تدور في الأذهان ، فبأي شيء أنتم تشكون؟

﴿وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

الله ليس بعيداً عن الانسان بل قريب وقريب جداً أقرب مما يتصوره الانسان.

للوريد معنيان :

١ . الوريد الذي في أحد طرفي عنق الانسان.

٢ . الوريد الذي يتصل بالقلب.

القلب من مخلوقات الله العجيبة ، فهو جهاز يعمل متواصلاً ليل نهار مدة ثمانين سنة أو أقل أو أكثر.

الله أقرب إلى الانسان من وريد قلبه إليه ، ومع هذا هل يبقى شيء من الانسان خافياً على الله؟ هل تخفي على الله أوهام الانسان وخیالاته؟ كلا ، بل هو يعلم بكل شيء.

خطاب الآية

آثار الایمان بقرب الله

إذا آمنا بقرب الله إلينا وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد نبدأ نشعر بأننا في حضرة من الله تعالى دائماً ، ونخجل من ارتكاب الذنوب والمعاصي في حضره.

العالم الخارجي ليس الوحيد الذي هو حضرة الله تعالى ، بل كذلك عالم الباطن ، وما أبشع المعصية وسوء الأدب في حضرة الله العفورة الرحيم الكريم؟

مباحث تكميلية

١ . أمثال اخرى لقرب الله من الانسان

ضررت أمثال اخرى لقرب الله من الانسان ، من قبيل : مثل الله والانسان كمثل الروح إلى

البدن ، أو كمثل الشمس إلى الكون ، أو كمثل المولود للكهرباء إلى المصباح أو الوسائل الكهربائية الأخرى ، التي تنطفئ بمجرد انقطاع التيار الكهربائي.

لكن لا أحد من الأمثال المتقدمة تبيّن قرب الله إلى الإنسان مثلما بيّنه مثل الآية الشريفة.

الله تعالى أقرب من كل قريب ، ولا ينفصل عنا أبداً ، لكن ليتنا نصدق ذلك؟ ولو صدق الإنسان هذه الآية فقط لاستحال ارتكابه الذنب وتلوثه بالظلم والآثام.

٢ . حديث للامام الكاظم عليه السلام

ورد في حديث أنَّ أبا حنيفة (زعيم الطائفة الحنفية لأهل السنة) جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام يوماً فقال : رأيت ولدك يصلني والناس يعودون من أمامه ^(١) إلَّا أَنَّه لَمْ يَنْهَمُ عن ذلك ، مع أنَّ هذا العمل غير صحيح. فقال الصادق عليه السلام ادعوا لي ولدي موسى فدُعِيَ له ففكَّر الإمام الصادق عليه السلام حديث أبي حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلاً :

«إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَصْلَى لَهُ أَقْرَبَ إِلَيْيَّ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِيْجَلَّ يَقُولُ : نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ» ^(٢). وإذا كان الله بهذا المستوى من القرب للإنسان مما يؤثر عبر المارة من أمام المصلي؟

إنَّ الله قريب جداً للإنسان حقاً ، فلما ذا لا نستحب؟
إنَّ عدم حياءنا بسبب عدم فهمنا للآلية أو عدم تصديقنا لها ، وإذا أردنا تصديقها فعلينا تردیدها والتزم بها كل يوم ليل نهار.

(١) أهل السنة ييدعون حساسية شديدة تجاه هذه القضية ، ومن تشرف إلى مكة المكرمة يدرك ذلك ، فأشتم يواجهون الذي يمر من أمام المصليين بعنف ويدفعون المار إلى جانب ، والذين ييدعون حساسية قليلة تجاه هذه القضية يشيرون للمار بأيديهم للابتعاد عنهم وعدم المرور من أمامهم ، وهم عموماً يستاؤون من هذا العمل كثيراً ، وأبو حنيفة يشير إلى هذا المطلب.

(٢) نور الثقلين ٥ : ١٠٨ (نقلأً عن الأمثل ١٧ : ٢٦).

المثل التاسع والأربعون :

مثل آخر للحياة الدنيا

الآية ٢٠ من سورة الحديد تعدد مثلاً آخر للحياة الدنيا ، يقول الله فيها :

﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاقُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ كَمَثَلِ عَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَيَّاهُ ثُمَّ يَهිجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

تصوير البحث

هذا المثل ضرب للحياة الدنيا ، كما ضربت أمثال أخرى تقدم شرحها ، لكنه مختلف عمّا تقدم. في هذا المثل شبّهت الحياة الدنيا بالغيث الذي يهبط على الأرض فينبت الرع ويضفي على الأرض حياة وطراوة عجيبة ، لكنه سرعان ما يفقد أثره وتنتهي الحياة والطراوة بعد فترة من الزمن.

الشرح والتفسير

﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاقُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ﴾

المحاطبون في هذه الآية ليس المسلمين فحسب بل الناس أجمعين ، الآية تقول : أيّها الناس أينما كنتم وعشتم وفي أي زمان ومكان ، إن الدنيا لا تخرج عن حالات خمس :

١ . ﴿لَعِبٌ﴾

الدنيا لعب يمارسه عدّة من أتباع الأهواء ، كما يفعل ذلك الأطفال ، ورغم كبر سنهم إلّا أنّ عقولهم وسلوكهم طفولية.

﴿لَهُ﴾ . ٢

مجموعة أخرى من الناس هم أصحاب اللهو ، وما داموا في الحياة الدنيا لا يفكرون بشيء غير اللهو ، وشعارهم اللهو ما داموا قادرين عليه.

﴿زِينَة﴾ . ٣

الشكل الآخر للحياة الدنيا هو الزينة ، فالبعض لا يهتم بأمرٍ مثل ما يهتم بالزينة ، وهو دائمًا منهمك في الزينة والملابس الجديدة والمواضات الجديدة والمنزل الجديد والحركات الجديدة ، والخلاصة أنه لا شأن للبعض غير الزينة.

﴿تَفَاخِرُ بَيْنَكُمْ﴾ . ٤

التفاخر هو الشكل الآخر للدنيا ، وقد يكون المراد من التفاخر هنا هو التفاخر في الجاه والمقام والشأن الاجتماعي ، الذي يتفاخر به البعض على الآخر.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ﴾ . ٥

الشكل الآخر للدنيا هو التكاثر في الأموال أو الثروة والجانب الاقتصادي والأولاد. الدنيا تتحصر أشكالها فيما تقدم من الحالات الخمس.

سؤال : ما المراد من حالات الدنيا وأشكالها الخمسة؟ هل المراد منها أن الناس ينقسمون إلى خمسة أقسام ، بحيث حياة البعض مفعمة باللعب وحياة بعض آخر مفعمة باللهو وحياة بعض آخر مفعمة بالزينة وحياة آخرين مفعمة بالتفاخر أو التكاثر ، أو أن المراد كون الإنسان يمرّ بالمراحل والأشكال الخمسة من الحياة؟

الجواب : يعتقد بعض المفسرين أنّ كلّ إنسان يمرّ بهذه المراحل الخمس حتى يبلغ الأربعين ، وعندما يكون كاملاً ، والسنوات التي تسبق هذا العمر تنقسم إلى خمس مراحل ، كل مرحلة تتكون من ثمان سنوات ، المرحلة الأولى هي الثمان سنوات الأولى من عمر الإنسان ، حيث يقضي وقته باللعب ، وفي الثمان سنوات الثانية يقضي وقته باللهو والعبث ، وهي مرحلة الأشبال والأحداث ، وفي الثمان سنوات الثالثة يقضي الإنسان أوقاته في الزينة ، وهي مرحلة

الشباب ، وفي الشمان سنوات الرابعة يسعى لكسب الجاه والمقام والتفاخر به ، ومنذ الثانية والثلاثين وحتى الأربعين يحاول جمع أكبر حجم من الشروة والمال والذهب ، وبدخوله الأربعين يتكامل وتثبت شخصيته وتستقر^(١).

﴿كَمَثَلَ عَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتَهُ﴾

بعد ما بين الله تعالى ماهية الدنيا وحقيقةها ضرب لها مثلاً فقال بأكمل تشبه الغيث الذي ينزل على الأرض فيحييها وينبت فيها مختلف النباتات والزهور الجميلة ، بحيث تشير إعجاب الكفار.

المراد من الكفار هنا هو المزارعون وال فلاحون ، والكافر بمعنى الستر والتغطية ، وأطلق الكافر على غير المؤمن باعتبار أنه يستر الحقيقة وما تعتقد به فطرته ، كما اطلق هذا اللفظ على المزارع باعتباره يستر البذور ويخفى بها تحت التراب ، كما يطلق هذا اللفظ على القبر والليل ؛ باعتبار أن القبر يستر الجسد والليل يستر أشياء كثيرة لظلمته.

على أي حال ، الآية تشير إلى أن الغيث يثير إعجاب المزارعين لما يمنحه من حياة وطراوة ونشاط على وجه الأرض ، فينبت النباتات وتتغير وجه الأرض بما.

﴿ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْنَعًا﴾

لكن عمر النباتات والأشجار والزهور التي نبتت جراء الغيث ليس طويلاً ، وينتهي بحلول فصل الخريف ، فيذهب بكل ما جاء به الغيث من حياة ونشاط وطراوة.

﴿ثُمَّ يَكُونُ خَطَامًا﴾

بعد ما تصفر النباتات تتبدل إلى خطام يتلاشى بريء بسيط أو نسيم ، فيذهب به إلى مكان أو آخر ، بعد ما كان صامداً أما الأعاصير عند ما كان أحضر.

نعم ، الحياة الدنيا بأموالها وزينتها ومقامها بمثابة هذه المزرعة ، أولاً زخرف جذاب ، لكنها سرعان ما تتلاشى ، ولو شकكتنا في ذلك يكفيانا أن نلقى نظرة عابرة على حياة النباتات التي

(١) نقل العلامة الطباطبائي رضى الله عنه في تفسيره (الميزان ١٩ : ١٧٠ - ١٧١) هذه المراحل عن الشيخ البهائي عليه السلام ، لكنه لم يشر إلى مدة كل منها.

ستين عاماً ، الموت هو نهاية كل حياة ، وكل من الانسان والنبات يموت يوماً ما ، والانسان ضعيف كالنبات ، فهو في بداية ولادته عاجز على الاحتفاظ بلعاب فمه ، وينتهي به الأمر في الشيخوخة إلى ذلك أيضاً.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾

سيتلي الانسان في الآخرة بأحد المصيرين ؛ العذاب الشديد أو المغفرة والرضوان.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُور﴾

ليست الحياة أكثر من سلعة للخداع ، أي لها ظاهر جذاب خادع دون باطن.

خطابات الآية

١ . الدنيا خادعة وفانية

خطاب الآية هو أن لا تخدعكم الدنيا بظاهرها ولا تصدّكم عن أهدافكم الأساسية ، فالدنيا ممّا لا يمكن الوثوق بها ، فهي خادعة زائلة.

يصف الامام علي عليه السلام الدنيا كما يلي : «تغرُّ وتضرُّ وتقرُّ» ، أي أنّ لها صفات ثلاثة :

١ . خادعة تغرّ الانسان وتخدعه.

٢ . تضرُّ الانسان وتصدّه عن الآخرة.

٣ . فانية وزائلة وغير دائمة.

ثم يقول : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضِهَا ثَوَابًا لِأُولَائِهِ وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ».

ثم يمثل للدنيا مثلاً جميلاً ويقول : «وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرْكِبٍ بَيْنَا هُمْ حَلَّوْا إِذْ صَاحُوهُمْ سَاقِهِمْ فَارْتَحَلُوا»^(١).

في كل تشبّه ثلاثة أركان ، هي : المشبه والمتشبه به ووجه الشبه ، وعند ما نشبّه الانسان بالأسد ، يكون الانسان مشبهًا ، والأسد مشبهًا به ، والشجاعة وجه الشبه ، أي أنا ن شبّه الانسان بالأسد في الشجاعة.

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، الكلمة ٤١٥.

وفي المثل الذي هو موضع بحثنا تكون الدنيا مشبّهًا ، والغيث والنباتات مشبّهًا به ، لكن ما هو وجه الشبه؟ أي ما هو الذي في النباتات والزهور يشبه الدنيا؟ احتمل المفسرون عدّة احتمالات هنا :

الاول : شُبِّهَت الدنيا بالنباتات من حيث عدم الثبات وكونها مؤقتة وزائلة ، فكما أن طراوة النباتات وخضارها ليس دائمًا وتصفر بعد فترة من الزمن كذلك الحياة الدنيا فلا دوام لها ولا وفاء لها لأيٍّ من البشر ، فهي زائلة وفانية^(١).

الثاني : وجه الشبه هو التحولات الدنيوية السريعة ، فهي سرعان ما تتغير ، فالمملوك قد يتحول إلى فقير متسلّل أو يُسجن ، والرئيس قد يُقال من منصبه ، وتحولات من هذا القبيل كثيرة في الدنيا ، ولا ينبغي الوثوق بها في أي وقت ، فهي كبيت العنكبوت ، فإذا كنت شاباً فلا تغرك طاقتك وقدرتك ، وإذا كنت ثرياً فلا تغرّك ثروتك ، وإذا كنت صاحب مقام وشأن فلا يغرك شأنك ومقامك.

الخلاصة : لا تغتر بوضعك الراهن ، فإن الأوضاع غير ثابتة ، ويمكن أن تتحول الأوضاع كلها في حادث واحدٍ.

الثالث : اعتبر البعض الخداع هو وجه الشبه ، فكما أن النباتات جذابة وخداعة ومتنوّعة كذلك الدنيا ، فهي كالحية ذات الظاهر الجذاب والخداع.

العقل لا يفكّر بلحظة طراوة النباتات فقط بل بفصل الخريف ، الذي سرعان ما يقدم ويبدل خضار النباتات إلى صفارٍ ، فلا يغتر بخضارها الخادع ، ولا ظاهراها الفاتن دون أن يفكّر بباطنها الأجوف^(٢).

٢ . الهدف من الخلق

هل ينشر المزارع البذور في الأرض دون هدف؟ هل ينمّي الفلاح النباتات والزهور دون

(١) انظر مجمع البيان ٩ : ٢٣٩ .

(٢) انظر الميزان ١٩ : ١٧١ .

هدف؟ لماذا لم يزرع الفلاح أعلاه وأشواكه بدلاً عن النباتات المفيدة؟
 لا شكَّ بأن للفلاح هدفاً ، وعلى هذا كيف يمكن الله الحكيم والأعقل من كل عاقل
 والأعلم من كل عالم أن يخلق الإنسان والدنيا دون هدف؟ وهل يمكن الله أن يخلق الإنسان
 ويخلق جميع المخلوقات لأجله ، لغرض اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتکاثر ولأجل أن
 يعيش أياماً ثم ينتقل إلى عالم الآخرة؟
 أيُّها الإنسان ، خلقك زارع الكون لم يهدِّف أَهْمَ ، وحياتك الخالدة تبدأ بعد الحياة
 الدنيا ، والدنيا بمثابة عالم الأجنّة ، حيث موتك فيه هو الحياة ﴿وَانَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهُيَ
 الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) ، فاسع لتلك الحياة الخالدة ، ولا تلقي نفسك في مستنقع
 اللهو واللعب والتفاخر والزينة والتکاثر في الأموال والأولاد.

(١) العنكبوت : ٦٤ .

المثل الخمسون والحادي والخمسون :

اليهود

الآيات ١٤ - ١٧ من سورة الحشر تشتمل على مثلين ، يقول الله فيها :

﴿ لَا يَقَاوِلُنَّكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرْيَ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُونَهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَأَهْمُمْ عَذَابُ الْيَمِّ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ أَكُفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ حَالَدِينِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

تصویر البحث

الآيات الأربع تضمُّ مثلين جمiliين عن طائفة من اليهود تدعى بني النضير قصدت الحرب مع المسلمين بإيعاز من المنافقين ، وهذه الآيات حذرت هذه الطائفة من الحرب ومن عواقبها لكلاً من المنافقين واليهود ، وضررت مثلين يأتي شرحهما.

تاريخ اليهود في المدينة

لاتضاح الآيات الأربع علينا إلقاء نظرة على تاريخ اليهود في المدينة .
كان في المدينة يعيش ثلاث طوائف من اليهود ، هي : بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة ، كانوا قد صنعوا لأنفسهم قلاعاً مستحکمة ، وكانوا يعملون في المجالات التجارية ، وكانت أوضاعهم المالية جيدة.

كان اليهود قد قدموا من شبه الجزيرة العربية إلى المدينة ؟ محاولة منهم لقاء الرسول الموعود ؛ باعتبار أكْمَنْ كانوا قد سمعوا من علمائهم أن الرسول سيظهر في الحجاز. كانوا يعيشون انتظار رؤية جمال الرسول الخاتم ﷺ في مكة ، كما كانوا يبشرون أهل المدينة بظهوره وظهور دين جديد.

عند ما ظهر الرسول ﷺ وجاء بدين جديد أضاء بنوره ظلمات الحجاز وجد متعصّبـو اليهود هذا الدين متضارياً مع مصالحـهم وأهوائهم الشيطانية فهموا بالمخالفة . اعادـنا الله من هوـي النفس ، ما ذا يعـمل؟ مجموعة تـهاجر من وطنـها لتسـكـن موطنـ الرسـول المـوعـود ، حـيـاً بـه وانتـظـارـاً لـرؤـيـته ، وعـندـ ما تـنقـضـي لـحظـات الـانتـظـار الصـعبـة وـيـرـونـهـ أـمـامـهـم لا أـنـهـمـ لا يـسـتـقـبـلـونـهـ ولا يـرـجـبـونـ بهـ فـحـسـبـ بل يـخـطـطـونـ لـقتـلهـ وـيـتـحدـونـ معـ أـعـدـائـهـ وـيـتـأـمـرونـ لـلـقـضـاءـ عـلـيـهـ .

انتصر الاسلام في هذه المواجهة وفتح القلاع الثلاث ودمّر اليهود وتركهم بين قتيل وبين مغادر المدينة بذلٌ وصغار.

شأن نزول الآيات

بعد ما تلاشت طائفة بني قينقاع إثر المواجهة التي حصلت بينها وبين المسلمين ، هم المنافقون للإيعاز إلى طائفة بني النضير لمواجهة المسلمين ولشنّ حرب ضدهم ، وقالوا لهم : لتعاون معًا لطرد الإسلام واحتئاته من الجذور ما دام غير مستحکم ولم يشكل حکومة في المدينة بعد.

الآيات المزبورة تحذر اليهود من التعاون مع المنافقين ومن الوقوع في مستنقع الشقاء بسببهم ، والمنافقون سوف لا ينفعونكم شيئاً ، وأنتم لوحدهم غير قادرين على المقاومة أمام المسلمين ، ومصيركم هو نفس المصير الذي ابتلى به بنو قينقاع ، وعاقبة كلا الطائفتين واحدة ، ثم يضرب لهم مثلين.

الشرح والتفسير

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾

أيها المسلمون ، لا تخافوا هؤلاء اليهود ، فهم لا يتجرّرون مواجهتكم ، وإذا أرادوا مواجهتكم فمن خلف قلاع محسنة وجدران ، وهذا يكشف عن قدرتكم وقوتكم وعن ضعفهم وعجزهم.

﴿يَأُسْفِهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾

شديدو البأس فيما بينهم إذا تقاتلوا ، مما يجعلكم تتصرّرون أكّهم متخدون وأقواء ، مع أكّهم متشتتين ، والحادهم ظاهري ، وبذور التفرقة ممزروعة في قلوبهم. هذا هو حال اليهود في العصر الحاضر ، فهم أقوىاء متخدون عند القتال في الظاهر ، لكنهم عاجزون لا خيار لهم أمام مسلمي حزب الله^(١) ، وأن بذور الفرق ممزروعة في قلوبهم ، فهم ماديون ومن عبادة الدنيا ، وعيilon حيالاً مالت مصالحهم وينفصلون ويتفرقون أينما اقتضت تلك المصالح.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

سبب اختلافهم وفرقتهم هو جهلهم وعدم كونهم من ذوي العقول والفكير ، فالعقل سبب للاتحاد ، والجهل سبب للاختلاف والفرقة. إذن ، ما على المسلمين أن يرهبوا اليهود.

وبعد بيان ما عليه اليهود من الفرق والاختلاف شرع في بيان مثلين لهم.

المثل الأول : ﴿كَمَّلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَاتَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

مثلبني النصير كمثل الذين سبقوهم ممن دفعوا ثمن أعمالهم وكفارتها ، وهم حالياً يعيشون في عذاب أليم.

وبهذا مثل الله ببني النصير بالأقوام الذين سبقوهم من حيث دفعهم كفارة سوء أعمالهم.

احتفل المفسرون احتفالاً في المراد من القوم المذكور في الآية :

الاول : المراد هو مشركو مكة الذين دفعوا ثمن أعمالهم أو كفارتها في حرب بدر.

المنافقون أو عزوا لمشركي مكة لخوض حرب بدر ، وبعد ما نشببت خسروها ورجعوا أذلاء ، واليهود

(١) وقد لاحظنا كيف أرغم رجال حزب الله وإمامهم الجيش الإسرائيلي على الانسحاب من جنوب لبنان بذلٍ.

سيبتلون بنفس المصير الذي ابتلى به هؤلاء.

الثاني : المراد هو يهودبني قينقاع ، الذين تأثروا بإيعازات المنافقين واغواة ائمهم وخاضوا حرباً مع المسلمين وخسروها وارغموا على ترك المدينة. فيما يهودبني النصير ، إن مصيرأ كمصيربني قينقاع في انتظاركم.

المثل الثاني : ﴿كَمَّلَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ أَكُفِّرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

كان المثل الاول متصروباً في حق اليهود الذين حاربوا المسلمين بإيعاز من المنافقين ، أمما المثل الثاني فيخص المنافقين ، وبعبارة اخرى : كان المثل الاول يخص من اثاروا تحريضاً ، وهذا المثل لمن اثاروا وحرّضوا.

يقول الله في هذا المثل : المنافقون الذين أثاروا اليهود وأوزعوا لهم حرب المسلمين مثل الشيطان الذي يثير الانسان ويوعز له لأن يكفر بالله ، ويتركه هارباً مجرداً أن لا يرى الموقف لصالحه.

قد يتجلّى الشيطان بشكل انسان ليخدع وليمرر حيله ^(١) ، نشير إلى نماذج من هذا القبيل :

الف : تمثل الشيطان بشكل انسان في معركة بدر ، يدعو المشركين للحرب ويحرّضهم للهجوم على المسلمين ، وسحب نفسه عند ما مالت كفة الميزان لصالح المسلمين ، وأنزل الله عندها ملائكة لنصرتهم ، وعند ما سئل عن سبب الانسحاب رغم أنه كان يحرّض على القتال ، قال : إني أرى ما لا ترون ^(٢).

باء : عند ما عقد زعماء قريش جلسة لدراسة قضية كيفية مواجهة الرسول ﷺ تمثل لهم كشيخ عجوز من أهالي نجد ، اقترح عليهم أن يستحب من كل قبيلة فتى ، يجتمعون وبهاجمون بيت الرسول ﷺ ويقتلونه ، لكي يتوزع دمه على جميع القبائل ، وتعجز قريش عن الانتقام من

(١) بحث العلامة الجلسي الموضوع بالتفصيل ، راجع بحار الأنوار ٦٠ : ٢٨٣ فما بعدها أو ٦٣ : ١٣١ على طبعة مؤسسة الوفاء.

(٢) تاريخ الأنبياء : ٦١٧ ، البحار ٦٣ : ٢٣٣ .

جميع العرب ، ووافقوا على هذه الخطة ^(١).

جيم : في قضية بيعة أبي بكر بعد وفاة الرسول يُقال : تمثّل الشيطان لل المسلمين كشيخ عجوز في المسجد ، وكان أول من أقدم على بيعة أبي بكر ^(٢).

على كل حال ، يقول الله للمنافقين مثلّكم كمثل الشيطان الذي يوعز للإنسان بالكفر ويحرّضه عليه ، ثم يلوذ بالفرار من الساحة عند ما يشعر بالخطر ، ويقول : إني بريء منك إني أحاف الله رب العالمين.

هذا الكلام يصدر من الشيطان عند ما يرى نفسه على حافة العذاب ، فيتوب ، لكن لا فائدة في التوبة عند نزول البلاء والعذاب ، كما أن التوبة غير مقبولة على عتبة الموت حيث تنجلّي ستار الغفلة ، وحيث يتورّط الطرفان ، الشيطان الذي حرّض وأثار والإنسان الذي تأثر وتحرّض ، وكذا المنافقون الذي أثروا اليهود وحرّضوهم واليهود الذين أثروا وتحرّضوا ، وعاقبة الطرفين هي جهنّم وبئس المصير.

المثلان ضربا في اليهود والمنافقين في صدر الإسلام ، لكن هل يختصان بعهد الرسول؟ الإنصاف في القول بأن المثلين جاريان في جميع العهود والأزمان والأماكن ، وشاملان لكلّ من هم بقتال المسلمين بتحريض من المنافقين ، الذين يرفعون يد العون والإثارة عند ما يرون الورطة بأعينهم ، بل أحياناً يهمّون بالدفاع عنّمن حرّضوا الآخرين ضدّه ؛ وذلك لأنعدام مفاهيم من قبيل العهد والوفاء في قوميّس المنافقين والشياطين.

خطابات الآية

١ . أعداء الإسلام ضعفاء

وفقاً لما جاء في الآية ، أعداء الإسلام ليسوا كما نتصوّر ، فهم غير متّحدين ولا أقواء ،

(١) البحار ١٩ : ٤٦ .

(٢) راجع تفصيل القصة على لسان الإمام علي عليه السلام في الكتاب القيم : أسرار آل محمد : ٢١٩ فما بعدها ، وكذا كتاب سليم : ١٤٥ ، تحقيق محمد باقر الأنصاري الزنجاني ، كما أن هناك نماذج أخرى لا تحالف الشيطان شخصيات إنسانية ، راجع البحار ٦٣ : ١٣١ فما بعدها على طبعة مؤسسة الوفاء.

ويقاتلون حتى حلفاءهم إذا ما تعرّضت مصالحهم للخطر ، فقلوّبهم متفرّقة ، وأفضل دليل على تفرقهم هو عدم الاشتراك في المصالح ، فلكلّ مصالح تخصّه.

٢ . الجهل سبب الاختلاف

جاء في ذيل الآية كون الجهل هو سبب التفرقة والاختلاف بين المشركين والكافر ، إذ يقول الله : ﴿ذِلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ، وهذا يعني أن الوحدة والاتحاد يكشف عن الباهة والعقل والدراءة.

المجتمع الوعي هو الذي يهتم بالمصالح العامة لكل المجتمع ، وسلامة الفرد بسلامة المجتمع ككل.

هل أدركنا هذا الخطاب المهم الذي أوحاه الوحي وقال به العقل؟ وهل نحن مستعدون للتخلّي عن اختلافاتنا وميولنا الحزبية نزولاً عند طلب العقل والشرع؟ كم من الطاقات والقوى هُدر في النزاعات الداخلية والحزبية؟ من المفروض أن تُصرف هذه الاموال والطاقات الفكرية والثقافية في طريق عمران البلاد والدين ، فلما ذا تستهلك في نزاعات داخلية تافهة؟
نعم ، الاتحاد علامه العقل ، والاختلاف علامة الجهل.

٣ . الوثوق بالمنافقين خطأ

عرفنا من آيات المثل أنه لا يمكن الوثوق بالمنافقين الداخليين ولا الأجانب ، ولا ينبغي لأنصار النظام الإسلامي وأتباع المدرسة القرآنية أن ينخدعوا بجبل المنافقين أو يتعاونوا معهم أو يشقولو لهم ، فإنهم يلوذون بالغدار ويتركون الآخرين لوحدهم بمجرد إحساسهم بالخطر ، بل يتعاونون مع الأعداء إذا وجدوهم أقوى.

كان المنافقون ولا يزالون يشكّلون خطراً جدياً على الإسلام والمسلمين ، وسيبقون كذلك ، وما علينا إلا الحذر منهم.

٤ . تاريخ المتقدّمين يضيء الطريق للمتّاخرين

إذا أردتم احتيال الطريق الصحيح لحياتكم فعليكم دراسة التاريخ ومطالعة سيرة المتقدّمين ، لكي تستفيدوا من تجربتهم وتعتبروا من عبرهم ، فإنَّ التاريخ يكرر نفسه.

يقول الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إنَّ الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين».^(١)

وهذا هو المراد من تكرُّر التاريخ.

ينبغي النظر في تاريخ المتقدّمين وسيرتهم ، ومن خلال استيعاب ومعرفة عوامل انتصاراتهم أو خسارتهم يمكننا أن نخطو نحو المستقبل بشقة وبنحو أفضل.

٥ . خطى الشيطان والمنافقين واحدة

النتيجة المستفادة من تشبيه المنافقين بالشيطان هي أن نهج الشيطان والمنافقين واحد ، وأنهم يخططون في نفس النهج ، كما أن اليهود والمرتكبين من هذا القبيل ، ولهذا شبّه اليهود بالمرتكبين.

الاختلاف الوحيد بين الشيطان والمنافقين هو أن الاول شياطين الجن والآخرين شياطين الإنس ، أمّا مناهجهم وخططهم فواحدة ، وينبغي الحذر من كليهما.
إلهي ! نعوذ بك من شر الشيطان ونسألك أن تخيمنا منه.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٧.

المثل الثاني والخمسون :

جاذبية القرآن المتميزة

يقول الله تعالى في الآية ٢١ من سورة الحشر :

**﴿لَوْ أَنَّرَلَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَائِشًا مُتَصَدِّعًا مِنْ حَسْبِيَّةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضْرِيْهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**

تصوير البحث

هذا المثل يتعلّق بالجاذبية الحارقة للطبيعة التي يتمتّع بها القرآن ، وقد شبه الله تعالى قدرة النفوذ المعنوي لكلامه في الإنسان بخposure وخشوع الجبال أمام القرآن ، بحيث لو نزل هذا القرآن على الجبال لخشت وخضعت له ؛ خوفاً من الله ورعبه منه. ثمّ يعتبر التعقل والتفكير في آيات الله هو المدف من أمثال القرآن.

جاذبية القرآن العجيبة

سيرة الرسول ﷺ تكشف عن أن المشركين كانوا يخافون من جاذبية القرآن القوية.

وقد بين القرآن خوفهم هذا في الآية ٢٦ من سورة فصلت كالتالي :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

نعم ، كانت جاذبية القرآن كبيرة جداً وكان خوفهم بدرجة حيث كانوا يوجدون ضوضاءً عند تلاوته من قبل الرسول ﷺ ، لكي لا تصل كلماته إلى أسماع الناس ، وغاية ما كانوا

يفعلونه في هذا المجال أَكْمَمُ كانوا يوصون من يدخل المسجد الحرام بوضع قطنة في اذنه لكي لا يسمع شيئاً من كلام الرسول ﷺ ويُسْحِر به^(١).
ومن المؤسف أن هذا المنهج بأساليبه المتقدمة متبع حالياً ، سعياً للحؤول دون بلوغ صوت الحق أسماع الناس.

بعض التّهم التي أصقها المشركون بالرسول ﷺ تكشف عن هذا المعنى ، منها :
تمة السحر التي أشارت إليها الآية الثانية من سورة يونس :

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾

الشرح والتفسير

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاسِعاً مُنْصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

نعم ، لو أن هذا القرآن كان قد نزل على الجبال لتلاشت ، لكن الإنسان الغافل يسمعه يُتلّى على لسان الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً ، وقلبه لا يتأثر به ، وكأنه أقسى من الحجر .

وردت نظريتان في تفسير الآية الشريفة :

ال الأولى : لو كان للجبال عقل وإحساس وقابلية للاستيعاب والفهم وأنزلنا عليها هذا القرآن لخشت ، أي أن الآية قضية شرطية لتبنيه الإنسان ، وأن المفروض بالانسان أن يخشى قلبه للقرآن إذا كان له عقل ، لكنه لا يخشى للقرآن ولا يخضع له لماذا ؟^(٢)

الثانية : الآية ليست قضية شرطية بل حقيقة ؛ لأن جميع الموجودات إدراكاً وإحساساً يناسبه^(٣). وهذا المعنى انعكس في آيات عديدة ، منها : الآية الأولى من سورة التغابن ، إذ جاء هناك :

﴿يُسَبِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾

قَدِيرٌ

(١) في هذا المجال وردت قصص كثيرة وجميلة مَرَّ ذكر بعضها في الأمثال المتقدمة.

(٢) انظر مجمع البيان ٩ : ٢٦٦ .

(٣) انظر مجمع البيان ٩ : ٢٦٦ .

ولو لم يكن للموجودات عقل وإدراك متناسب معها لما كان هناك معنى لتسبيحها ، بل هي تدرك فتسبع وتقدىس وتحمد وتشني ، لكننا لا ندرك تسبيحها وتقديسها وذكرها ، أمّا الذي يتمتع بحالة شهود عالم الباطن فيسمع تسبيح الموجودات ويفهمها . الآية تدرج في أمثل القرآن طبقاً للتفسير الأول ، لكنها تخرج عن موضوع بحثنا طبقاً للتفسير الثاني .

الآية ٣١ من سورة الرعد التي وردت في تأثير القرآن شاهد على التفسير الأول ، وقد

جاء فيها ما يلي :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجَبَلُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾

جميعاً

في شأن نزول هذه الآية يرى بعض الفطاحل أنّها نزلت جواباً على بعض مشركي مكة حيث جلسوا خلف الكعبة واستندوا إلى الرسول ﷺ ، فقدم إليهم أملاً في هدايتهم . قال له المشركون : إذا أردت أن تتبعك فعليك بإبعاد جبال مكة ، لكي تتسع من خلال ذلك أراضينا ، وعليك كذلك تفجير الأرض وجعل ينابيع وأنهاراً فيها ، فندرس أشجاراً وزرع ، فإنك . كما تزعم . لست أدنى من داود الذي سخر الله له الجبال وكانت تسبيح معه ^(١) ، أو سخر لنا الريح تنقلنا إلى الشام نحمل مشاكلنا ونؤمن حاجياتنا ونرجع في ذات اليوم ، كما سخر الله لسليمان ، وأنت . كما تزعم . لست أقل من سليمان ، كما عليك إحياء جدك قصي (من أجداد قريش) أو أيّ شخص آخر من الموتى ، لكي نسأله عمّا تدعوه له من أئنه حق أو باطل ؛ لأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، وأنت . كما تزعم . لست أدنى شأنًا من عيسى .

عندما نزلت هذه الآية قائلة لهم : ما تقولونه صدر عن عناد وجاهة لا سعيًا للايمان

بالرسول ، ويكتفي الرسول ﷺ ما لديه من معاجز ^(٢) .

(١) كما ورد ذلك في الآية ٧٩ من سورة الأنبياء : «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوَدَ الْجَبَلَ يُسَبِّحَنَ وَالْطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ» ، كما جاء ذلك في الآية ١٨ و ١٩ من سورة (ص).

(٢) انظر الأمثل ٧ : ٣٦٤ .

خطاب الآية

هيبة القرآن وعظمته

هذه الآية تحكي هيبة القرآن وعظمته ، وهي بدرجة يجعل الجبال متتصدة ، ومع هذا كيف هو حال الذين يقرأ عليهم هذا القرآن متواصلاً دون أن يؤثر فيهم أدنى تأثير ، إن قلوب هؤلاء أكثر قساوة من الحجر .

إلهي ، زدنا علماً بالقرآن ، واجعل كل آية منه سبباً لزيادة إيماننا .

المثل الثالث والخمسون :

علماء بلا عمل

الآية الخامسة من سورة الجمعة تشكل مثلاً آخر من أمثل القرآن الجميلة ، يقول الله

تعالى فيها :

﴿مَثُلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثُلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

تصوير البحث

الآية تحدثت عن اليهود الذين لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ رغم أن التوراة بشّرت بها ، لكنهم تجاهلو البشرة ، وبتعبير أدق : الآية تضرب مثلاً للعلماء غير العاملين بعلمهم وتشبههم بالحمار الذي حمل كتاباً لكن لا يمكنه أن يستفيد منها.

شأن النزول

عند ما نزلت الآية الثانية من سورة الجمعة التي قالت بأن الله بعث الرسول ﷺ في مجتمع اتّى ، قال متعصبو اليهود : عدم إيماننا بالإسلام بسبب أن الإسلام دين غير شمولي ويخصُّ المجتمع الامي المذكور في الآية ، التي هي بمثابة الاعتراف بعدم شمولية الإسلام^(١).

(١) انظر الأمثل ١٨ : ٢٩٩ .

غالباً ما يبحث اللجوجون والمعرورون عن الذرائع ، واليهود اللجوجون غير خارجين عن هذه القاعدة ، والآية جواب لما تشبّث به هؤلاء من ذريعة.

الشرح والتفسير

﴿مَثُلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التُّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثْلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

وهب الله تعالى نعمة إلهية كبرى لليهود ، وهي كتاب التوراة السماوي ، لكنّهم لم يؤدوا حق هذا الكتاب ، وكأنّهم لم يُوهبوا هذه الموهبة الكبيرة ، ومثل هؤلاء كمثل الحمار الذي يحملوه كتاباً لا يفيد من مضمونها ومحتوها.

التوراة بشّرت بالرسول وذكرت علامات ومواصفات الرسول بنحو دقيق ، بحيث أصبحت معرفتهم الرسول كمعرفتهم أولادهم ، رغم ذلك أنكروا الرسول أو تنكروه ، لماذا؟
 (١) لم يهاجروا من بلدانهم الأصلية إلى الحجاز شوقاً لرؤية خاتم الرسل؟ إذن ، لماذا أدبروا عن بشارات التوراة ولم يؤمنوا بالرسول وبدينه ، بل حاربوه؟
 مثل هؤلاء الذين لا يعلمون بعلمهم كمثل الحمار الذي لا يفيد من مضمون الكتب التي يحملها.

﴿إِنَّمَا مَثُلُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

كيف لا يُشبه هؤلاء اليهود العنودون بالحمار مع أنهم أنكروا آيات الله تعالى لا في العمل فحسب بل أنكرواها بأسنتهم كذلك؟ وهذا الموقف الذي صدر من اليهود لم يختص بيهود صدر الاسلام ، بل اليهود . طبقاً لما ورد في الآية ٨٧ من سورة البقرة . استكروا أمام كل رسول جاءهم بما يخالف أهواءهم النفسية ، فقتلوا بعضًا من الرسل وكذّبوا بعضًا آخر ، وهذه سيرتهم على طول التاريخ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

رغم أن ذات الله هي منبع الهدى ومصدرها إلا أن قابلية الإنسان شرط في ذلك ، والله لا

(١) كما هو مضمون ما ورد في البقرة : ١٤٦ ، الأنعام : ٢٠ .

يهدي إلّا من توفرت فيه هذه الأرضية ، وهدايته لا تشمل من اتخذ العناد واللحاجة كمنهج له وظلم نفسه.

خطابات الآية

١ . المثل عام

معنى العبارة : ﴿ حُمِّلُوا ... لَمْ يَحْمِلُوا ﴾ هو أن الله منح اليهود نعمة كبرى دون أن يريدها ، والنعمة هي التوراة ، لكنهم لم يفيدوا منها. وهذا أمر لا يختص باليهود ، بل تشمل كل انسان وكل نعمة منحها الله للانسان ولم يفدها شيئاً.

العقل من النعم التي لا بدديل لها وقد منحها الله الانسان دون إرادة منه ، لكن كثيراً من الناس لم يستفاد من هذه النعمة بنحو صحيح ومناسب.

السلامة نعمة كبرى بجهولة^(١) ، منحها الله للانسان دون إرادة و اختيار منه ، لكن يا ثرى هل نفيد منها بنحو صحيح ومناسب ، أم أنها من مصاديق ﴿ حُمِّلُوا ... لَمْ يَحْمِلُوا؟﴾ يا ترى هل استفادنا من المعارف الدينية والقرآن وسنة الرسول والائمة وأقوال العلماء والمراجع ، التي هي نعم كثيرة منحها الله إلينا دون إرادة منا ، لغرض هداية أنفسنا والمجتمع؟

٢ . لماذا الحمار؟

الحيوانات التي تستخدم للحمل كثيرة ، لكن لماذا الله مثل العلماء غير العاملين واليهود المتعصّبين بالحمار دون غيره من الحيوانات؟

الجواب : يبدو أن ذلك لاشتهار الحمار بالحمامة والجهل ، ولهذا يُضرب به المثل في حق الأحمق من الناس. ويكتفي في حماقة هذا الحيوان أنه لو امر بالعبور من طريق وعر ومفعم بالأخطار عشر مرات لفعل ذلك دون أن يحاول تغييره.

(١) كما ورد ذلك في رواية للإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَام حيث قال : «الصحة والأمان نعمتان مجھولتان لا يعرفهما إلّا من فقدهما» ، مسند الرضا : ١٢٠ .

لأجل أن يبيّن الله حماقة اليهود ولجاجتهم وكذا العلماء غير العاملين شَبَّهُم بالحمار الذي لا يفيد من الكتب التي يحملها على ظهره ، ولا يعرف عنها غير إحساسه بالثقل والتعب. وهل يمكن تصور حماقة أكثر من حماقة الشخص الذي يحمل علوماً دون أن يفيد منها طول عمره؟

٣ . سبب التعبير بالأسفار لا الكتب

الأسفار من مادة سفر ، ويعني الكشف عن شيء ، ويطلق على النساء غير المحجبات سافرات ؛ باعتبار كشفهنَّ عمَّا يجب ستره ، كما استخدمت هذه المادة في السفر (أي التنقل من مكان إلى آخر) ؛ باعتبار أنَّ الإنسان يكشف عن نفسه في السفر عكس ما كان عليه في الحضر حيث يكون مستوراً في محلته وبنته وبنائه التي يعيش فيها أو في السيارة التي يتنقل بها أو في دائرته أو معمله الذي يعمل فيه. كما يطلق على الكتاب سفر ؛ باعتبار كشفه عن الحقائق والواقعيات والمعارف الإنسانية.

الكتاب السماوي سبب لهدایة الإنسان نحو الحقيقة ويكشف له عن الواقع ، لكن الكثير من البشر لا نصيب له من هذا الكتاب إلَّا عناء حمله ونقله دون أن يفيد منه شيئاً.

٤ . الهدایة تستدعي قابلية

كما تقدَّم ، فإنَّ الأنوار الإلهية تقدم من الله ، أمَّا القابليات فنحن نوجدها. لا خلاف في طبع الغيث اللطيف ، لكنه لا يثبت الزهور أينما هطل ، بل الأمر يتوقف على نوعية الأرض ، فإذا كانت سبخة فلا تنبت إلَّا الأعلاف ، وتثبت الزهور قطعاً إذا كانت خصبة.

لأجل ذلك قد يهتدي الإنسان ويبلغ قَلْةِ الْكَمَالِ إِثْرَ سَمَاعِهِ كَلْمَهِ صَدَرَتْ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ قبل أكثر من ألف سنة ، فإنَّ انساناً من هذا القبيل يحمل قابلية الهدایة. لكن أشخاصاً من قبيل أبي سفيان وأبي جهل قضوا عمراً إلى جنب الرَّسُولِ ﷺ وسمعوا منه مباشرةً آيات كثيرة وبلغتهم مواعظه العديدة ، ولم يخطوا أدنى خطوة باتجاه الإنسانية ، بل كانوا يبتعدون عن الإنسانية شيئاً فشيئاً ليصبحوا كالأنعام بل أضل سبيلاً^(١) ؛ وذلك لأجل انعدام القابلية فيهم.

(١) كما هو مضمون ما ورد في الفرقان : ٤٤.

٥ . الآية شاملة لكلّ عالم غير عامل

كما تقدّم ، فإن الآية رغم نزولها في اليهود إلّا أنها دون شك شاملة لكلّ عالم لم يعمل بعلمه.

يقول المفسر الكبير المرحوم العالمة الطبرسي في ذيل هذه الآية :

«قال ابن عباس : فسواء حمل على ظهره أو حجده إذا لم يعمل به ، وعلى هذا فمن تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه كان هذا المثل لاحقاً به وإن حفظه وهو طالب لمعناه فليس من أهل هذا المثل» ^(١).

إذن ، الآية تحذير لل المسلمين جميعاً بأن لا يتخلوا بالنصير الذي ابتلى به اليهود ، وقد شملهم فضل الله بتنزيل القرآن عليهم ، على أن لا يترك على الرفوف يتراكم عليه الغبار أو يعلق على الجدران لدفع العيون أو ليهدى للعرايس أو ليقرأ في مجالس الفاتحة فقط ، أو لتجويد آياته وتلاوتها بصوت حسن وحفظه على أقصى تقدير دون أن تتعكس تعاليمه في سلوكنا الفردي والاجتماعي ، ودون أن نجد له أثراً على عقائdenا وأعمالنا.

العلماء غير العاملين في الروايات

للعلم والعالم قيمة عالية في الثقافة الإسلامية ، حيث وصفت الروايات العلم بما يلي :

رأس الفضائل ، ووراثة كربلة ، وأفضل غنية ، ومصباح العقل ، ونعم دليل ، وأفضل هداية ، وجمال لا يحظى ، وأفضل الأنبياء ، وأفضل شرف ، وأشرف الأحساب ^(٢).

كما وصفت العالم بما يلي : العلماء ورثة الأنبياء ، ومصابيح الأرض ، وخلفاء الأنبياء ^(٣).

ومن الواضح أن هذه الفضائل والقيم خاصة بالعلم الذي يُجسّد في الخارج ويُترجم إلى الواقع وللعلم الذي يعمل بعلمه ، وإلّا فالعلم الذي يخلو من العمل لا أنه لا يسبب الهداية ولا يضيء الطريق لآخرين بل لا يهدي حامله كذلك.

ورد في رواية يقشعر لها البدن عن الرسول ﷺ :

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٨٥.

(٢) انظر ميزان الحكمة ، الباب ٢٨٣٠.

(٣) انظر ميزان الحكمة ، الباب ٢٨٣٨.

«مَنْ أَزْدَادَ عِلْمًاٌ لَمْ يَزْدَدْ هُدًىٌ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا»^(١).

مَمَّا يَبْعُثُ إِلَى التَّأْمُلِ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَقُلْ مِنْ لَمْ يَزْدَدْ هُدًى بَعْلَمِهِ لَمْ يَقْتَرُبْ إِلَى اللَّهِ بِلْ قَالَ : يَزْدَادُ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ عَذْرَ الْإِنْسَانِ مُقْبُولٌ عِنْدَ اللَّهِ مَا دَامَ جَاهَلًا ، لَكِنَّهُ عِنْدَ مَا يَزْدَادُ عِلْمًاٌ فَلَا يَقْبِلُ اللَّهُ لَهُ عَذْرًا ، وَهَذَا يَتَرَاجِعُ وَيَخْلُفُ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلٍ.

النتيجة : يَنْبَغِي السعي لِكَسْبِ الْعِلْمِ وَيَنْبَغِي تَحْمِيلُ جَمِيعِ المَنَاعِبِ الَّتِي تَوَاجَهُنَا فِي هَذَا الطَّرِيقِ ، كَمَا يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ وَجَعْلُ هَذَا الْعِلْمَ وَسِيلَةً لِهُدَايَةِ أَنفُسِنَا وَهُدَايَةِ الْآخَرِينَ ، لَكِي لَا تَصْدِقَ عَلَيْنَا الرَّوَايَةُ وَالآيَةُ السَّالِفَتَانِ.

(١) المُحْجَةُ الْبَيْضَاءُ ١ : ١٢٦ .

المثل الرابع والخمسون :

من خصائص المنافقين

جاء في الآية الرابعة من سورة المنافقون :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدٌ
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَأَخْذَرُهُمْ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

تصوير البحث

بما أنَّ المنافقين أخطر أعداء الإسلام كان من المفروض التعريف بهم والكشف عن واقعهم ، من هنا وردت أوصافهم في آيات مختلفة ، منها الآية المزبورة ، التي أشارت إلى ثلاثٍ من خصائصهم ، التي تكشف عن واقعهم وزييف ظاهرهم للجميع.

أوصاف المنافقين

من الضروري التعرُّف على أوصاف المنافقين ذوي الوجهين ، لغرض مواجهتهم ، ومن هذا المنطلق بتَّ الله بالتشهير بهم وتعريفهم في كثير من الآيات. وفي سورة المنافقون أشار إلى عشرة من أوصافهم ^(١) ، ثلاثة منها في آية المثل.

(١) الأوصاف هي : ١ . الكذب الصريح «وَالله يَشَهِدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». ٢ . اليمين الكاذب لتضليل الناس «اَخْذُنَا أَيْمَانَهُمْ جَنَّةً». ٣ . عدم إدراك الواقعيات بسبب تركهم دين الحق «لَا يَفْقَهُونَ». ٤ . ذوي ظاهر حسن

ونحن نبت بدراسة هذه الأوصاف الثلاثة ، أملأً بالتعرف على المنافقين من خلال هذه العلائم الثلاثة ، كما يتعرف الطبيب الخبر على المرض المزمن والخطر من خلال علائمه.

الشرح والتفسير

١ . ﴿وَإِذَا رَأَيْتُهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾

صفة المنافقين الاولى هي أن لهم ظاهراً جدّاً وخداعاً ، أمّا باطنهم فضعيف ، ولا يتمتعون بشخصية ثابتة ، ولهذا يهتمون بظاهرهم كثيراً ، فيبدون بظاهر قوي وجميل ومنتظم ، لكن حقيقتهم شيء آخر.

أيها النبي ، إذا نظرت لهم فلا يعجبك ظاهرهم ولا يخدعك ، وهم عكس المؤمنين ذوي الظاهر البسيط وشخصيات ثابتة وواقعية.

روى بعض المفسرين في صفة رئيس المنافقين (عبد الله بن أبي) : «كان عبد الله بن أبي رجلاً جسماً صبيحاً فصحيحاً ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين في مثل صفتة ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولم ينلهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ، فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم»^(١).

٢ . ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مَسْنَدٌ﴾

الصفة الثانية للمنافقين هي كونهم يشبهون الاخشاب التي تستند أحدها على الآخر. (الخشب) جمع (خشب) ، و (مسندة) تعني اليابسة التي لا تعتمد على نفسها بل تحتاج لشيء آخر تعتمد عليه^(٢).

ولسان ذلك ومتلقي رغم الفراغ الباطني «إذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم». ٥ . عدم الخضوع للحق والصلابة الظاهرة «كأنهم خشب مسندة». ٦ . سوء الظن والخوف من كل شيء باعتبار حياتهم «يحسرون كل صيحة عليهم». ٧ . الاستهزاء بالحق «لروا رؤوسهم». ٨ . الفسق وارتکابهم الذنب «إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي النَّاسَ إِلَّا فَمَا يَرِيدُونَ». ٩ . يعتبرون أنفسهم أغنياءً ومالكيـن ، والناس بحاجة إليـهم «هـم الـذـين يـقولـون لـا تـنـفـقـوا عـلـى مـن عـنـد رـسـول اللـه حـتـى يـنـفـضـوا». ١٠ . يعتبرون أنفسهم أعزـةـ والأـخـرـين أـذـلـةـ «لـيـخـرـجـنـ الأـعـزـ مـنـهـا الأـذـلـ». انظر الأمثل ١٨ : ٣٣٤ . ٣٣٥ .

(١) الكشاف ٤ : ٥٤٠ (نقلـاً عن الأمثل ١٨ : ٣٢٨).

(٢) قد تموت شجرة وتحفـ مـكانـها وـتـسـنـدـ إـلـى جـذـورـها ، وقد تقطع الشـجـرـةـ فـتـحـفـ ، وـعـنـدـهاـ تكونـ بـحـاجـةـ إـلـى ما

يستبطن هذا التشبيه نكبات مختلفة ، وبتعبير آخر : شُبّه المنافقون بالخشب المسندة لوجوه مختلفة :

الف : كما أنَّ الخشب المسندة لا أصل ولا جذور لها ، كذلك المنافقون فلا أصل ولا أساس لهم ، وهم بحاجة إلى الآخرين دائماً ولا يمكنهم الاعتماد على أنفسهم ، فلا استقلالية لهم بل هم بحاجة إلى الأجانب والكفار ، فيرتبطون بهم ، وتاريخ صدر الإسلام يؤيّد هذا. وقد تقدّمت قصة مسجد ضرار في المثل الثامن عشر ، وشاهدتم كيف تعاون أبو عامر النصري مع الروميين واعتمد عليهم وبنى مسجد ضرار في خطة للتأمر على المسلمين. وبهذا تتضح إحدى صفات المنافقين ألا وهي الارتباط بالأجانب والاعتماد عليهم لإيجاد البلبلة والاضطراب في البلاد الإسلامية.

باء : الخصيصة الأخرى للخشب المسندة أنَّه لا فائدة فيها غير استخدامها كوقود وإحراقها لهذا الغرض ، فلا تثمر شيئاً ولا تنمو فيها الأوراق ولا توجد ظلاً ، كما هو حال المنافقين ، فلا فائدة فيهم.

جيم : الخشبة اليابسة لا تقبل الانعطاف ، كما هو حال المنافق ، فلا يمكن تغييره ؛ لتعصّبه ولجاجته ، حتى لو أقمت له أفضل البراهين والأدلة وأوضحتها ، فلا يلينوا أمامها أبداً ، عكس ما عليه المؤمنون من الليين والانعطاف ، وهذا هو الذي يسبب اقتحامهم الأعاصير.

التفتوا إلى هذه الرواية الجميلة التي وردت عن الرسول ﷺ :

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ، لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُفْيُهُ وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصْبِيهُ بِلَاءً، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّجَرَةِ الْأَرْزَةِ لَا تَحْتَرُهُ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ»^(١).

والحديث يشير إلى قابلية الانعطاف التي يتمتع بها المؤمن ولا يتمتع بها المنافق ، فالمؤمن كالزرع الذي تحنيه الرياح ثم يرجع إلى ما كان عليه ، أمّا المنافق فمثل شجرة الصنوبر ذات القامة المستقيمة التي لا تقبل الانحناء ممّا يجعلها تنكسر بالرياح الشديدة.

تستند إليه ، وما أشارت إليه الآية هو النوع الثاني.

(١) ميزان الحكم ، الباب ٣٦٠٨ ، الحديث ١٨٤٦٨.

خلاصة ما تقدم أن المنافق ذا الوجهين لا قابلية له على الانعطاف ، وبهتابة الخشبة المسندة التي تستند على غيرها ولا أساس لها ولا فائدة ولا ثمرة.

٣ . ﴿يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

الصفة الثالثة للمنافقين هي أئمـم يسيئون الظن ، ويحسـبون كل صـيحة وـوضـاء ضـدـهم ، فـهم مـصادـيق للمـثـل المـعـرـوف (الـخـائـنـ خـائـفـ) ^(١).

الـسـارـقـ يـتـلـقـىـ كـلـ نـظـرةـ تـلـقـىـ عـلـيـهـ نـظـرةـ ذاتـ معـنىـ ،ـ ويـقـولـ فيـ نـفـسـهـ :ـ أـخـافـ أـنـهـ عـلـمـ بـسـرـقـتـيـ ،ـ أـوـ أـخـافـ أـنـ يـفـشـيـ سـرـقـتـيـ ،ـ أـوـ أـخـافـ أـنـ يـكـوـنـ شـرـطـيـاـ يـعـقـبـنـيـ ،ـ وـماـ شـابـهـ ذـلـكـ مـنـ الأـوـهـامـ وـالـتـصـوـرـاتـ ،ـ هـذـاـ مـعـ أـنـهـ مـنـ الـمـحـتمـلـ أـنـ يـكـوـنـ النـاظـرـ لـمـ يـرـ السـارـقـ مـنـ ذـيـ قـبـلـ ،ـ لـكـنـ طـبـيـعـةـ الـخـائـنـ أـنـ يـشـعـرـ بـالـخـوـفـ وـالـاضـطـرـابـ دـائـمـاـ ،ـ عـكـسـ الـانـسـانـ الـذـيـ لـمـ يـتـلـقـثـ بـالـخـيـانـةـ وـصـحـيـفـةـ أـعـمـالـهـ طـاهـرـةـ فـلاـ يـخـافـ الـحـسـابـ وـالـتـحـقـيقـ ،ـ وـلـاـ يـتـابـهـ الـخـوـفـ وـالـاضـطـرـابـ وـلـوـ نـظـرـتـهـ آـلـافـ الـعـيـونـ ،ـ وـلـوـ كـانـ فـيـ مـرـكـزـ الـشـرـطـةـ فـلاـ يـخـافـ شـيـئـاـ ،ـ بـلـ سـوـفـ يـشـعـرـ بـالـاطـمـئـنـانـ الـأـكـثـرـ عـنـدـ مـاـ يـجـدـ نـفـسـهـ جـنـبـ قـوىـ الـأـمـنـ.

وـخـلاـصـةـ الـكـلـامـ هـنـاـ أـنـ سـوـءـ الـظـنـ ^(٢) مـنـ صـفـاتـ الـمـنـافـقـ.

﴿هُمُ الْعُدُوُ فَأَخْذُرُهُمْ﴾

معـ الـأـخـذـ بـنـظـرـ الـاعـتـبـارـ صـفـاتـ الـمـنـافـقـينـ السـابـقـةـ فـهـمـ أـعـدـاءـ وـلـيـسـواـ أـنـصـارـاـ ،ـ بـلـ هـمـ الـأـعـدـاءـ الـأـصـلـيـونـ وـإـنـ كـانـ لـكـمـ أـعـدـاءـ آـخـرـونـ ،ـ لـكـنـ خـطـرـهـمـ أـقـلـ مـنـ خـطـرـ الـمـنـافـقـينـ ،ـ وـلـهـذـاـ عـلـيـكـمـ الـحـذـرـ مـنـ الـمـنـافـقـينـ أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهـمـ.

الـجـملـةـ الـأـخـيـرـةـ انـعـكـسـتـ فـيـ كـلـامـ الرـسـولـ ﷺـ بـنـحـوـ آـخـرـ ،ـ حـيـثـ قـالـ :ـ «ـإـيـّـيـ لـاـ أـتـخـوـفـ عـلـىـ اـمـتـيـ مـؤـمـناـ وـلـاـ مـشـرـكاـ ،ـ أـمـّـاـ الـمـؤـمـنـ فـيـ حـجـرـةـ إـيمـانـهـ ،ـ وـأـمـّـاـ الـمـشـرـكـ فـيـقـمـعـهـ كـفـرـهـ ،ـ وـلـكـنـ أـتـخـوـفـ عـلـيـكـمـ مـنـافـقـاـ عـالـمـ الـلـسـانـ ،ـ يـقـولـ مـاـ تـعـرـفـونـ وـيـعـمـلـ مـاـ تـنـكـرـونـ» ^(٣).

(١) نـزـهـةـ النـاظـرـ :ـ ٨ـ٤ـ ،ـ الـحـدـيـثـ ١ـ٣ـ ،ـ وـالـحـلـوـانـيـ يـقـلـلـهـاـ فـيـ الـكـتـابـ الـمـبـورـ كـحـدـيـثـ وـارـدـ عـنـ الـإـمـامـ الـحـسـينـ عـلـيـهـ الـسـلـامـ .ـ

(٢) سـوـءـ الـظـنـ عـلـىـ الـعـمـومـ يـعـدـ مـنـ الصـفـاتـ الـأـخـلـاقـيـةـ الـسـيـئةـ ،ـ وـلـهـاـ عـوـاقـبـ وـنـتـائـجـ غـيرـ مـحـمـودـةـ ،ـ حـاءـ ذـكـرـهـاـ فـيـ الـمـثـلـ السـابـقـ وـالـأـرـبعـينـ.

(٣) مـيـزـانـ الـحـكـمةـ ،ـ الـبـابـ ٣ـ٩ـ٣ـ٤ـ ،ـ الـحـدـيـثـ ٢ـ٠ـ٢ـ٩ـ٥ـ ،ـ وـشـبـيهـ لـهـذـاـ الـكـلـامـ وـرـدـ فـيـ الرـسـالـةـ ٢ـ٧ـ مـنـ نـجـحـ الـبـلـاغـةـ ،ـ الـتـيـ

وهذا الحديث يكشف عن سبب اعتبار الآية المنافقين الأعداء الأصليين بصرامة.

﴿ قاتلُهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾

بعد ما بين الله الصفات الثلاث للمنافقين يشير إلى خطتهم البالغ ويعتبرهم أعداً المسلمين الأصليين يدعو عليهم بأن يقاتلهم الله مثلما اخروا وضلوا وأضلوا الآخرين ^(١). إذن ، ينبغي التعرُّف على المنافقين من خلال ما تقدّمت الاشارة إليه من صفات وعلامات ، وبعد التعرُّف عليهم ينبغي الاجتناب عنهم ، وبخاصة في زماننا الحاضر ، حيث أصبح خطتهم أكبر ونشاطاتهم أوسع وأكثر تعقيداً.

خطاب الآية

معايير النفاق

إذا وجدت ضميرك لا يهتز بسماع آيات القرآن .
وإذا وجدت نفسك لا تخطو نحو الأعمال الصالحة ولا تبتعد عن الأعمال السيئة عند ما تقرأ آيات الشواب والعقاب الإلهي .
وإذا وجدت نفسك لا تتأثر بكلام الحق وتستمر في طريق الباطل فاعلم أن فيك رساً من النفاق قد نفذ في قلبك جعلك تخطو في طريق المنافقين .
نعم ، إنَّ المنافقين كالخشب المسندة وكل من تشبه بهم صنف معهم .

مباحث تكميلية

١ . مَنْ هُوَ الْمَنَافِقُ؟

للمنافقين وجهان وشخصيتان ، ظاهراً لهم شيء وباطناً لهم شيء آخر ، في الظاهر يدّعون

نقلها الإمام علي عليه السلام عن الرسول عليه السلام .

(١) مما يلفت أن التعبير بقاتلهم الله استخدم مرتان في القرآن فقط ، أحدهما : فيما نحن فيه ، والآخر : في الآية ٣٠ من سورة التوبة ، وقد استخدم هناك في حق اليهود والنصارى ، وهل هناك علاقة بين المنافقين واليهود والنصارى المنحرفين؟

الإيمان ويصنفون مع المؤمنين ويؤدون العبادات ، لكن قلوبهم تخلو من الإيمان أو فيها إيمان سقيم^(١).

وقد ورد هذا المعنى في الروايات الإسلامية ، فقد ورد في واحدة منها أن الله خاطب عيسى بن مريم عليهما السلام بالخطاب التالي :

«يا عيسى ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك ، إنني أحذرك نفسك ، وكفى بي خيراً ، لا يصلح لسانان في فمٍ واحدٍ ولا سيفان في عمودٍ واحدٍ ولا قلبان في صدرٍ واحدٍ»^(٢).

على أي حال ، النفاق هو أن يكون للإنسان وجهان وظاهر يضاد الباطن ، ولا يمكن للإنسان أن يتظاهر منه بالكامل إلا أن يتَّحد ظاهره مع باطنه ويتطابقا . اللهم ، أعنَا على هذا الأمر الخطير.

٢ . أخطار النفاق

خطر المافقين في كل مجتمع أشد من أي خطر آخر ، وخطر الأعداء الذين يعلنون الحرب أقل بكثير من خطر المنافقين ذوي الوجهين ؛ لأن الإنسان عند ما يتعرّف على أعدائه يستعد لمواجهتهم ويُتّخذ الإجراءات اللازمة ضدهم ، أمّا الأعداء الذين تقمصوا الصدقة فإنّهم يباغتون الإنسان وبهجمون عليه قبل أن يستعد للمواجهة . وهذا هو سبب كون خطر المنافقين أكثر وأشد من غيرهم من الأعداء . وإذا راجعنا

تاریخ

(١) بالطبع ، للنفاق درجات ، فبعضها شديدة ويمكن تمييزها ببساطة ، وبعضها الآخر خفيفة يصعب تمييزها حتى على ذات الشخص ، وفي هذا المجال وردت روايات عديدة نشير إلى اثنين منها :

الف : في رواية لافتة يقول الرسول ﷺ : «مَنْ حَالَفَتْ سُرِيرَتِهِ عَلَيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ كَائِنًا مِنْ كَانِ» ميزان الحكمة ، الباب ٣٩٣٢ ، الحديث ٢٠٢٩٠ ، والعموم الذي تقيد به الرواية مما يشير التأمل .

باء : وفي رواية لافتة أخرى يقول أمير المؤمنين عليهما السلام : «أشد الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم ي عمل بما ونهى عن المعصية ولم ينته عنها» ميزان الحكمة ، الباب ٣٩٣٣ ، الحديث ٢٠٢٩٤ ، وهذه الرواية بمثابة التحذير للكتاب والخطباء وكل من تولى شؤون الاعلام والتبلیغ .

(٢) ميزان الحكمة ، الباب ٣٩٣٦ ، الحديث ٢٠٢٩٩ .

الاسلام وجدنا المنافقين كانوا سبباً لأكثر الضربات والانتكاسات ، وقد تحمل الاسلام الكثير بسببهم ، ولو جمعنا في كتابٍ مؤامرات المنافقين وما افتعلوه من مشاكل ومصائب لل المسلمين أصبح كتاباً تربوياً جيداً. نشير هنا إلى بعض النماذج.

الف : قصة الإفك

يستفاد من مجموع الآيات ١٦ - ١١ من سورة النور أن امرأة بريئة ذات شأن وجه اجتماعي تعرضت لتهمة تمثيل بعرضها من قبل أحد المنافقين ، وكان الغرض من هذه التهمة تشويه سمعة الرسول وتدينيس عرضه في المجتمع. حاول بعض المنافقين المتظاهرين بالاسلام والايمان لاستغلال الحادث والتضليل بالماء العكر وكسب بعض التائج لصالحهم ، فنزلت الآيات المزبورة وأفشت مؤامرتهم^(١).

باء : إيجاد العقبات في الحديبية

قرر الرسول ﷺ بصحبة المسلمين في السنة السادسة من الهجرة أن يقصدوا مكة للإتيان بالعمرة^(٢). ثم أطلع الرسول المسلمين أنه رأى مناماً يدخل فيه بصحبة المسلمين المسجد الحرام ومكة ، والجميع منهم بالآتيان بمراسم العمرة.

تحرك المسلمون باتجاه مكة وبعد ما بلغو ذو الحليفة^(٣) أحرموا فيها ، ثم تحركوا مصطحبين معهم نوقاً لأجل تضحيتها^(٤). وبما أن الرسول لم يقصد من رحلته هذه غير العبادة العظمى

(١) هناك مباحث مختلفة وردت لتحديد شخصية المرأة المزبورة والمنافق الذي اتهمها ، للمزيد راجع الأمثل : ١١ . ٣٥ . ٣٢

(٢) يمكن الاتيان بالعمرة في جميع أشهر السنة ، عكس ما عليه الحج ، حيث لا يمكن الإتيان به إلا في شهر ذي الحجة ، للمزيد راجع مناسك الحج ، لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي ، المسألة ٣٥٣ فما بعدها.

(٣) يطلق ذو الحليفة على مكائن في الحجاز :

الف : قرية تقرب من المدينة ، ويقع فيها مسجد الشجرة ، وهو ميقات من قصد الحج عن طريق المدينة المزبورة.

باء : مكان بين حادة وذات عرق ، من أراضي تهامة.
والمراد منها هنا المكان الاول ، راجع جمع البحرين ٥ : ٤٠ .

(٤) التضحية من الأعمال الواجبة في الحج ، وأفضلها بغير ثم بقرة ثم بحروف ، للمزيد راجع مناسك الحج ، لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي ، المسألة ٢٨٧ فما بعدها.

(الاتيان بالعمره) لم يحمل معه من الاسلحة إلّا سيفاً ، وهو سلاح كل مسافر ، وكذا باقي المسلمين ، حتى بلغوا أرض الحديبية^(١).

بعد ما اطّلع زعماء قريش على حركة المسلمين باتجاه مكة أغلقوا الطريق أمامهم ليمعنوهم من الاتيان بالعمره ، وبعد حادث مختلفة حصلت آنذاك انتهى الأمر إلى انعقاد معاهدة صلح بين قريش والمسلمين تدعى صلح الحديبية.

أثناء تدوين المعاهدة خالف ممثل قريش (سهيل بن عمرو) كتابه (بسم الله الرحمن الرحيم) و (محمد رسول الله) في بداية العقد ، مما أثار حفيظة المنافقين ، واتخاذ ذلك ذريعة لا يجاد بلبلة ، فأخذنا يقولون مثلاً : أيُّ منام أنت رأيته لنا؟! أي زيارة وعدتها إيتانا؟!

يا له من امتياز منحته للكافر !

وقد تعّقدت الاعتراضات إلى أن بلغت كلام الله ، حيث عدَّ صلح الحديبية فتحاً مبيناً^(٢) ، فقال بعضهم : أيُّ فتح هذا ، حيث صدّدنا عن زيارة بيت الله وصُدِّد هدينا؟ وقال بعض آخر : لم نشك بر رسالة الرسول يوماً مثلما شكّكتنا به اليوم . هذا مع أن صلح الحديبية أحد أكبر انتصارات المسلمين وقد كان له آثار إيجابية جمة

^(٣)

جيم : ﴿فشل محاولة اغتيال الرسول ﷺ﴾

«اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك ، فأخبر جبيريل عليه السلام رسول الله بذلك ، وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم ، وعمّار كان يقود دابة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها ، فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم ، فضربها حتى نحاصم ...»^(٤) ، وبذلك فشلت محاولتهم لاغتيال الرسول ﷺ .

DAL : ﴿اجتماع المنافقين في السقافة﴾

خبر موت الرسول ﷺ أفعى قلوب المسلمين ، وقبل أن يتم تغسيل وتكفين ودفن

(١) تبعد حالياً الحديبية عن مكة ١٧ كيلو متراً ، وهي أقصى الحرم.

(٢) نجد هذا التعبير في أوائل سورة الفتح ، أي السورة ٤٨.

(٣) تفاصيل القصة تجدها في الأمثل ١٦ : ٣٧٧ فما بعدها.

(٤) بحار الأنوار ٢١ : ١٩٦ .

الرسول اجتمع عدّة من المغرّ بهم والمنافقين في سقيفة بني ساعدة تلبية لنداء الشيطان ، فحاكوا مؤامرة خطيرة ضد الاسلام ، ورغم إيمان الرسول ﷺ بعلي عليهما السلام ك الخليفة بعده إلا أنهم توافقوا لابعاده عن الخلافة ، وبذلك أوردوا أكبر ضربة قاصمة على الاسلام^(١).

اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد وآخر تابع له على ذلك.

من الصعب إحصاء كل ما أوجده المنافقون من عقبات ومؤامرات وضربيات قاصمة ضد الاسلام ، فهؤلاء هم الذين جاءوا بمعاوية الذي ارتكب جرائم بشعة ، وهؤلاء هم الذين جعلوا من الامام علي عليهما السلام والامام الحسن عليهما السلام قعيدي البيت ، وهؤلاء هم الذين خلقوا حادثة كربلا المفجعة ، التي ذبح فيها أفضل البشرية و ...

ملخص الكلام أن المنافقين أخطر الأعداء لا للمجتمع الاسلامي فحسب بل لكل المجتمعات ، ولذلك هاجمتهم الآيات القرآنية بأعنف ما يمكن ، وكشفت عن حقيقتهم المزيفة في سور مختلفة كسوره المنافقون والتوبة والبقرة والحزاب .

اللهم ، احفظ الاسلام والمسلمين من شر المنافقين وافضحهم واخزهم.

(١) تفاصيل القضية تجدها في كتاب أسرار آل محمد.

المثل الخامس والخمسون :

الضوابط لا العلاقات

يقول الله تعالى في الآية ١٠ من سورة التحرير :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً نُوحٍ وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِيْنِ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِي عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِيْنَ ﴾

تصوير البحث

لا شك أن لكل شيء معياراً ، فما معيار نجاة الإنسان في الآخرة؟ هل ملاك النجاة العلاقة والانتساب إلى الرسول ﷺ والأئمة عليهما السلام وأولياء الدين أم أن الملاك الأساسي هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح؟ احتضنت هذه الآية بالحديث عن هذا الموضوع.

دراسة إجمالية لسورة التحرير

لأجل اتضاح العلاقة بين آية المثل والsurah ككل ينبغي إلقاء نظرة إجمالية على جميع آيات هذه السورة.

السورة مدنية ، ولها اثني عشرة آية ، والذي يبدو من اسمها أنها تتحدث عن شيء حرمته الرسول على نفسه ، كما تشير إلى الملابسات التي أدرت إلى هذا التحرير .
يدعو الله الرسول في هذه السورة إلى نكث ما حرمته على نفسه ، كما هدد المتواطئون بعذاب إلهي شديد إذا لم يتوبوا ، ثم بين مطلبًا ، وهو أن العلاقة والقرابة لوحدها دون الأعمال الصالحة

لا تنجي الانسان ، فلا ينبغي له أن يعتمد عليها ، ثم يضرب مثلين جمiliين في أمراً نوح عليهما وامرأة لوط عليهما اللتين لم ينفعهما قرابتهم بالرسولين المذكورين ؟ وذلك لأنهما لم يعملا صالحاً ، فكان مصيرهما جهنم كباقي من دخلها من الناس.

قصة التحرير

وردت أقوال متباعدة في قصة التحرير ، أنسابها ما يأتي :

«إنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ كَانَ يَذْهَبُ أَحِيَانًا إِلَى زَوْجِهِ (زَيْنَبَ بَنْتَ جَحْشَ) فَتَبَقِّيَهُ فِي بَيْتِهِ حَتَّى تَأْتِي إِلَيْهِ بِعَسْلٍ كَانَتْ قَدْ هَيَّأَتْ لَهُ ، وَلَكِنْ لَمَا سَمِعْتِ عَائِشَةَ بِذَلِكَ شَقَّ عَلَيْهَا الْأَمْرُ ، وَلَذَا قَالَتْ : إِنَّمَا قَدْ اتَّفَقْتُ مَعَ حَفْصَةَ (إِحْدَى أَزْوَاجِ الرَّسُولِ) عَلَى أَنْ يَسْأَلَ الرَّسُولَ بِمَحْرَدٍ أَنْ يَقْرَبَ مِنْ أَيِّ مِنْهُمَا بِأَنَّهُ هَلْ تَنَاهُ عَنْ صَمْعِ الْمَغَافِرِ^(١) ، عَلِمَ الرَّسُولُ كَانَ يَصْرَّ عَلَى أَنْ تَكُونَ رَائِحَتَهُ دائِمًا^(٢) . وَفَعْلًا سَأَلَتْ حَفْصَةَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الْكَلَمُ هَذَا السُّؤَالُ يَوْمًا وَرَدَ الرَّسُولُ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَاهُ عَنْ صَمْعِ الْمَغَافِرِ وَلَكِنَّهُ تَنَاهَ عَسْلًا عَنْ زَيْنَبَ بَنْتِ جَحْشٍ ، وَلَهُذَا أَقْسَمَ بِأَنَّهُ سَوْفَ لَنْ يَتَنَاهُ ذَلِكُ الْعَسْلُ مَرَةً أُخْرَى ، خَوْفًا مِّنْ أَنْ تَكُونَ زَنَابِيرُ الْعَسْلِ هَذَا قَدْ تَغَدَّتْ عَلَى شَجَرِ صَمْعِ الْمَغَافِرِ وَحْدَرَهَا أَنْ تَنْقُلَ ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ لِكَيْ لَا يَشْيَعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ حَرَمَ عَلَى نَفْسِهِ طَعَامًا حَلَالًا فَيَقْتَدُونَ بِالرَّسُولِ وَيَحْرُمُونَهُ أَوْ مَا يَشْبَهُ عَلَى أَنفُسِهِمْ ، أَوْ خَوْفًا مِّنْ أَنْ تَسْمَعَ زَيْنَبُ بْنَتُ جَحْشَ وَيَنْكِسُ قَلْبَهَا وَتَنَأِمْ لِذَلِكَ .

لَكِنَّهَا أَفْشَتَ السَّرَّ فَتَبَيَّنَ أَخْيَرًا أَنَّ الْقَصَّةَ كَانَتْ مَدْرُوسَةً وَمَعْدَةً ، فَتَأَمَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الْكَلَمُ لِذَلِكَ كَثِيرًا فَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ لِتَوْضِيحِ الْأَمْرِ وَتَنَهَى مِنْ أَنْ يَتَكَرَّرَ ذَلِكَ مَرَةً أُخْرَى فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ^(٣) .

طَبِيقًا لِهَذِهِ الرَّوَايَةِ فَإِنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ارْتَكَبَتا ذَنْبًا ثَلَاثَةَ :

١ . حَسَدُهُمَا زَيْنَبُ بَنْتُ جَحْشَ لِكَثْرَةِ حُبِّ الرَّسُولِ لَهَا .

(١) وهو نوع من الصمغ يترشح من بعض أشجار الحجاز يسمى عرفط ويترك رائحة غير طيبة.

(٢) وهو من شأن أي زعيم للمجتمع.

(٣) الامثل ١٨ : ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ويذكر أن اصل هذه الرواية نقلها البخاري ٦ : ١٩٤ .

٢ . كذبها على الرسول بأن فيه رائحة كريهة .

٣ . إفشاء سر الرسول .

وهذه الذنوب ثلاثة من الكبائر .

الشرح والتفسير

بعد اتضاح العلاقة بين آية المثل وبقي آيات السورة بحسب بشرح آية المثل .

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً نُوحٍ وَامْرَأَةً لُوطًا﴾

رغم أن المثلين وردان في أمرأتين محددين إلا أن استخدام (الذين) يفيد التعميم والشمول للجميع .

رغم أن صلة كانت تربط بين نوح عليهما وامرأته وكذا بين لوط عليهما وامرأته إلا أن هذه القرابة والصلة ما نفعتهما ؛ لأنه لم يكن لهما أعمال صالحة .

يعتقد بعض المفسرين أن اسم امرأة نوح (والمة) وامرأة لوط (والعة)^(١) ، لكن البعض

عكس ذلك واعتبر اسم امرأة نوح (والعة) وامرأة لوط (والمة) أو (وائلة)^(٢) .

﴿كَاتَنَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِيْنِ فَخَانَتْهُمَا﴾

المراد من العبددين الصالحين هو نوح ولوط فلم يستفيدها من نعمة تواجد هذين العبددين إلى جنبهما ولم يسترضيما بهما الدرب ليهتديا ، بل منعا المداية عن الآخرين ، خانتا زوجاهما .

ينبغي التذكر بأن المراد من الخيانة هنا ليس الانحراف عن جادة العفة ، فإن ذلك لم

يحصل لأي من زوجات الأنبياء ، وقد ورد عن الرسول عليهما السلام قوله : «ما بَغَتْ امْرَأَةٌ نَبِيًّا قط»^(٣) ، وهذا الحديث يدل على أن الخيانة لم تكن خيانة زوجية جنسية ، بل كانت من

نوع آخر ، وهو إفشاء سر الزوج .

امرأة نوح كانت تفشي أخبار من آمنوا سراً بنوح وتبوح بأسرارهم للوثنيين ، مما يؤدي

(١) تفسير القرطبي ١٠ : ٦٦٨٠ ، نقلًا عن تفسير الأمثل ١٨ : ٤٢٤ .

(٢) روح المعاني ٢٨ : ١٤٢ ، نقلًا عن تفسير الأمثل ١٨ : ٤٢٤ .

(٣) الدر المنشور ٦ : ٢٤٥ .

إلى إيذاء النبي والموحدين.

أمّا امرأة لوط فعند ما شاهدت رسل الله عند لوط خرجت إلى الناس تخبرهم بمحاجيء
شباب صبيحين إلى لوط ، سعيًا منها لإثارتهم جنسياً ، وكما هو المعروف عن قوم لوط
فأنهم كانوا يمارسون اللواط.

على أي حال ، خيانة هاتين المرأةتين في إفشاءهما أسرار زوجيهما ، وافتعال مشاكل
لهم من خلال ذلك.

ومن الصعب بمكان احتمال زوجةٍ تفضي أسرار زوجها وتوجد له المشاكل وتتوتر
البيت وتعكّر صفوه ، رغم أن المفترض بها أن تكون سبباً في سكينة البيت والعائلة^(١).

﴿فَلَمْ يُغْنِي عَنْهُمَا مِنَ الْهِشَيْرِ وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾

مقاييس نجاة الإنسان . كما تقدم . هو الأعمال الصالحة لا العلقة الزوجية والعائلية وما
شابه ، لذلك لم ينفع هاتين المرأةتين علقتهمما الزوجية باثنين من الأنبياء ، فدخول جهنم كما
يدخل باقي الناس ممّن لا علاقة له ببني .

وهذا لأجل أن يفهم الجميع بأنّ الأعمال الصالحة هي الوحيدة التي يمكنها أن تنجي
الإنسان من العذاب الإلهي وتسبب له الفلاح والسعادة .

خطاب الآية

ملاك النجاة هو العمل الصالح

كما تقدم فإن الملائكة الأساسية والوحيد لإنقاذ الإنسان يوم القيمة هو أعمال
الإنسان الصالحة لا العلقة العائلية والقبلية ، ولا ينجو من ذلك اليوم من لم يكن له أعمال
 صالحة ولو كان زوجة رسول .

زوجة شيخ الأنبياء نوح وابنه نوذجان كاملاً لـ هذا المطلب ، وعند ما استعدَّ نوح

لركوب

(١) جاء في الآية ٢١ من سورة الروم : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتُسْكِنُوا إِلَيْهَا﴾**.

السفينة وشاهد ابنه موشكًا على الغرق طلب من الله الطلبة التالية :

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

وهو يشير بالوعد إلى ما ورد ذكره في الآية ٤٠ من سورة هود ، حيث وعد الله نوحًا أن يحمل أهله ومعه ويركبهم السفينة.

أجاب الله نوحًا في الآية ٤٦ من سورة هود ، وأشار فيها إلى أنه لا تأثير للعلقة والقرابة النسبية في هذا الموضوع ، إذ ورد هناك :

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّمَا أَعِظُّكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

نعم ، العلقة لا تؤثر ولو كانت قوية بدرجة النبوة ، فهي غير مفيدة ما دام الإنسان غير صالح ، ولهذا كانت عاقبة ابن نوح ، كباقي الكفار ، الغرق.

في قصة الامام السجاد عليه السلام مع طاووس الفقيه عبرة ، نقرأها هنا :

يقول طاووس الفقيه :رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتبعـد ، فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه وقال : «إلهي غارت نجوم سماواتك ، وهجعت عيون أنامك ، وأبوباك مفتـحـات للسائلـين ، جئتـك لـتـغـفـرـ لي وـتـرـحـمـي وـتـرـيـني وـجـهـ جـدـي مـحـمـدـ ﷺـ في عـرـصـاتـ الـقـيـامـةـ» ، ثم بكى وقال : «وعـزـتكـ وـجـالـلـكـ ماـ أـرـدـتـ بـعـصـيـتـيـ مـخـالـفـتـكـ ، وـمـاـ عـصـيـتـكـ إـذـ عـصـيـتـكـ وـأـنـاـ بـكـ شـاكـ ، وـلـاـ بـنـكـالـكـ جـاهـلـ ، وـلـاـ لـعـقوـبـتـكـ مـتـعـرـضـ ، وـلـكـ سـوـلـتـ لـيـ نـفـسيـ وـأـعـانـيـ عـلـىـ ذـلـكـ سـتـرـكـ المـرـخـىـ بـهـ عـلـيـ ...»

ثم بكى وقال : «سبـحانـكـ تـعـصـيـ كـائـنـكـ لـاـ تـرـىـ ، وـتـحـلـمـ كـائـنـكـ لـمـ تـعـصـ ، تـتوـدـدـ إـلـىـ خـلـقـكـ بـجـسـنـ الصـنـيـعـ كـائـنـ بـكـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـ ، وـأـنـتـ يـاـ سـيـديـ الـغـنـيـ عـنـهـمـ» ثم خـرـرـ إـلـىـ الأرض سـاجـداـ.

قال : فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خـدـهـ ، فـاستـوىـ جـالـساـ وـقـالـ : «مـنـ الـذـيـ أـشـغـلـنـيـ عـنـ ذـكـرـ رـبـيـ؟ـ» فـقلـتـ : أـنـاـ طـاوـوسـ يـاـ اـبـنـ رـسـولـ اللـهـ ، مـاـ هـذـاـ الـحـزـنـ وـالـفـزـعـ؟ـ وـنـحـنـ يـلـزـمـنـاـ أـنـ نـفـعـلـ مـثـلـ هـذـاـ ،

(١) هـودـ : ٤٥ـ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

قال : فالتفت إليَّ وقال : «هيهات هيهات يا طاووس دع عنِي حديث أبي وأمي وحدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبداً جبشاً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً ^(١) ، أما سمعت قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(٢) والله لا ينفعك غداً إلَّا تقدمها من عمل صالح» ^(٣).

نعم ، إذا لم يصطحب الإنسان معه عملاً صالحًا يوم القيمة فلا ينفعه شيء ولا ينجيه ؛ لأن القيمة . كما عبر عنها القرآن الكريم . عبارة عن يوم ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهُ بِقُلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ^(٤).

النتيجة هي أن الحسد والكذب وإفشاء أسرار الآخرين توجب بعداً عن الله ، والملائكة الأساسي لإنقاذ الإنسان يوم القيمة هو الأعمال الصالحة لا القرابة السibبية أو النسبية.

(١) السؤال المطروح هنا هو : أن هناك روايات نحت عن إساءة الأدب وعدم احترام السادة ولو كانوا مذنبين بذنب من قبيل شرب الخمر ، وقد نقل بعضها الشيخ عباس القمي عليه السلام في (منتهى الآمال) في ذيل سيرة الإمام الحسن العسكري عليه السلام ، وهي متنافية في الظاهر مع ما ورد في هذه الرواية ، فما الجواب؟
الجواب : لا تنافي بين هذين الطائفتين من الروايات ؛ لأن أحدهما تتعلق بالحياة الدنيا والآخر بالحياة الأخرى ، بعبارة أخرى : ينبغي على المسلمين احترام الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه وأهل بيته عليهم السلام وأولادهم وأحفادهم وما نزلوا في الدنيا . وفي هذا المجال لا ينبغي أن يكون استثناء ليكون أصلاً عاماً لا يمكن للمنافقين ومن أراد بآل البيت سوء استغلال استثنائه . وهذا لا يعني كفاية القرابة لهم يوم الحساب ، بل المقياس الوحيد للنجاة هناك هو الأعمال الصالحة ، وحتى الشفاعة فهي غير شاملة لمن خلت صحفة أعماله من الصالحات ، وتشمل من كانت أعماله الصالحة قليلة جباراً لقلة الأعمال وإلَّا فلا تشتمل .

(٢) المؤمنون : ١٠١ .

(٣) بخار الأنوار ٤٦ : ٨٢ - ٨١ .

(٤) الشعراء : ٨٩ - ٨٨ .

المثل السادس والخمسون :

استقامة زوجة فرعون

يقول الله في الآية الحادية عشر من سورة التحريم :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبُّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَّلِهِ وَنَجَّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

تصوير البحث

كما قلنا فإنَّ سورة التحريم تحدَّثت عن بعض المشاكل التي واجهها الرسول ﷺ وفيها تنويه ببعض الضغوط التي أوردها الأعداء على الرسول ﷺ ، فإنَّ ضغوط الأعداء بلغت درجة ما بات يشعر إثرها بالأمان الكافي حتى في منزله ، وقد مضى ذكر مؤامرة اثنين من زوجاته ، حيث أفصحت سرَّه ﷺ .

المؤامرة المزبورة وإفشاء سرِّ الرسول ﷺ سببنا نزول سورة التحريم ، ولأجل أن تفهم أزواج النبي وكذا باقي الناس بأنَّ الأعمال الصالحة هي الوحيدة التي تنجي الإنسان من عذاب يوم القيمة ضرب الله مثيلين في هذا المجال ، في أحد هما تحدَّث عن امرأتين خانتا نبيين من أنبياء الله ، وفي الآخر تكلَّم عن امرأة مؤمنة لم تؤثِّر علاقتها بطاغوت مثل فرعون على درجتها عند الله تأثيراً سلبياً.

الشرح والتفسير

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ﴾

كانت هذه المرأة تعيش في جهاز ملك هو أحد أكبر الملوك ظلماً ، ورغم أنها كانت تعيش في ظل نعم ورفاه عالي إلا أنها وجدت نفسها في مفترق طريقين ، هما : الدنيا والآخرة ، فإنما أن اختار العيش في دنيا سعيدة مرقهة ، وإنما العيش بقرب الله ودخول الجنة . اختارت القرب الإلهي ورجحته على الحياة الدنيا ، والله جعلها في أفضل الجنان عنده ، وعد حياتها نموذجاً ومثلاً لكل النساء بل حتى الرجال .

رغم أن آسية بنت مزاحم كانت زوجة فرعون الظالم وقريبة منه إلا أنها اختارت ضابطة الإيمان بالله ، وكوتها زوجة جبار كفرعون لم يشنها عن اتباع الحق ، ولم يجعل منها امرأة تعيسة ، كما لم يؤثر القرب بالعباد الصالحين في زوجتي نوح عليهما ولوط عليهما ، ولم ينقذهما من عذاب يوم القيمة ، بل إدحهما غرقاً كابتها ، والآخرى دفنت تحت تل الأحجار الإلهية ؛ وهذا كله لأجل أن الانتساب والعلاقة لا دور لها عند الله ولا يترجحان على الضوابط ، فهي الحاكمة في جهاز الحكم الإلهية .

﴿إِذْ قَالَتْ رَبُّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّي مِنْ النَّاسِ﴾

الظالِمِينَ

حياة آسية بعد إيمانها برب موسى أسوة وقدوة في كل لحظاتها ، وهذه الآية تشير إلى بعض من تلك اللحظات التي عاشتها تلك المرأة العظيمة ، وهي لحظات كونها ترزخ تحت أشد الضغوط و مختلف أساليب التعذيب ، فضرب الله مثلاً بهذه اللحظات .

أصبحت آسية اسطورة في الصبر والمقاومة ، وفي أحلك اللحظات وأشدتها رفت

يديها إلى السماء طالبة من الله تعالى ثلات طلبات :

ال الأولى : ﴿رَبُّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾

كان القرب إلى الله تعالى يشكل أول طلبة طلبتها هذه المرأة ، وهو شيء أرفع من الجنة ، ولا يمكن قياسه بالجنة .

وقد استُخدم هذا التعبير في حق الشهداء كذلك ﴿عَنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١) ، وآسية على عتبة الاستشهاد طلبت شيئاً هو جدير بالشهداء.

الثانية : ﴿وَنَجَّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَّالِهِ﴾

وهذه الطلبة تكشف عن أنَّ الذي كان يؤذى آسية ليس التعذيب والضغط ؛ لأنها تبدو لا شيء أمام رضا الله ، بل الذي يؤذيها هو أعمال وأفكار وعقائد فرعون ، فهي لا تحتمل هذه العقائد القاصرة ، لذلك لا يخلو لها العيش بقرب فرعون ، فدعت الله لإنقاذها منه.

في اللحظات الأخيرة من العمر وتحت أشد الضغوط والآلام أعلنت آسية عن استيائها من فرعون ومظلمته وجناياته.

الثالثة : ﴿وَنَجَّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

الطلبة الأخيرة لهذه المرأة الصالحة هي النحاة من المجتمع الفاسد الذي تعيش فيه ، أي لا أنها لا تشنى للمجتمع الفاسد ولا تتأقلم معه بل تعتبر التأقلم معه والانصياع له عاراً ، ولهذا أغرت عن استيائها منه في أعمالها وأقوالها.

الجمل الثلاث التي شكلت دعاء هذه المؤمنة والعارفة في اللحظات الأخيرة من عمرها جميلة ودقيقة ومحسوبة ، بإمكان هذه الجمل أن تثير درب المؤمنين من الرجال والنساء ، فهي تنفي ما يتمسك به البعض من ذريعة الضغط الذي يواجهه الإنسان من قبل المجتمع أو الزوجة لترك طاعة الله ولالتزام التقوى.

خطابات الآية

١ . الاستقلال الفكري

لماذا آمنت آسية بربِّ موسى رغم كونها تعيش في قلب الشرك وإلى جنب فرعون؟
كيف استطاعت هذه المرأة الثورية الصبوره أن تخرق الحجب جميعها وتبلغ الدين الحق؟

سرّ موفقيتها يكمن في استقلالها الفكري ، فما تركت المسائل الهمامشية تؤثّر سلباً على

(١) آل عمران : ١٦٩ .

فكراً وتحرفه أو تسلبه منها. آمنت آسية وتنور قلبها عند ما رأت معجزة موسى ، حيث أسلم له سحرة فرعون وسيطر الاضطراب والخوف على فرعون الذي كان يدعى الربوبية ، وازداد إيمانها وشعلته النيرة في قلبها تدريجياً بعد ما منعت من تأثير المجتمع والعائلة على فكرها ونفسها ^(١).

٢ . لماذا لم تستخدم آسية التقىة؟

حقيقة التقىة هي تغيير شكل المواجهة ، وتجب فيما إذا كان إظهار العقيدة يعرض الإنسان للخطر دون فائدة ، لكن لماذا لم تستخدم آسية زوجة فرعون التقىة ؟ حفظاً لنفسها وتغييراً لظاهر المواجهة؟

الجواب

أولاً : التقىة تجري فيما إذا كان الإنسان أن يخفي عقيدته ويكتئها ، لكن حبّ الإنسان لله بمثابة الشعلة التي تعلو ألسنتها لظهور على حركات الإنسان وسكناته حتى لو حاول إخفاءها.

شعلة حب الله كانت قد اتقدت وارتقت إلى درجة لا يمكن إخفاؤها بأي نحو من الأحياء ، وهذا هو الذي جعل من آسية أن تعلن إيمانها وتصمد أمام المشاكل والعقبات.

ثانياً : قد يكون إظهار الإيمان والشهادة في هذا الطريق يعقبه فوائد أكثر من فوائد الحياة وكتمان الإيمان ، وقد كان إظهار آسية لإيمانها وانتشار خبرها وخبر تعذيبها وصمودها في هذا الطريق حتى الشهادة من هذا القبيل. مضافاً إلى أن هذه القضية بحد ذاتها تعدّ وثيقة دامغة على حقانية موسى عليه السلام وبطلان دعاوي فرعون ، وسبباً لطمأنة المؤمنين وتعزيز ثقتهم بأنفسهم ، باعتبار أنها تكشف عن امكانية نفوذ الإيمان قلوب الأعداء ، وتحديدهم في قعر دارهم. وهذا يسلب الدرائع التي قد يتمسك بها البعض لترك الإيمان بالواحد الأحد.

(١) من هنا يتضح سر الأهمية القصوى التي منحها القرآن الكريم والروايات الشريفة للتفكير ، ومن هنا يمكن عدّ الأديان الإلهية التي لم تحرّف أدياناً للعقل والفكر.

وقد شهد التاريخ لعلماء أصبحوا شمعة أضاءت درب المؤمنين وزرعت الأمل في قلوبهم
إثر تركهم التقية.

٣ . التعذيب عامل تكامل أو وسيلة قهر !

يتوصل الجبارة والظلمة بوسائل شتى للمنع عن الحقائق والخصوص لها ، والتعذيب واحدة من تلك الوسائل. استخدم فرعون أقسى أنواع التعذيب في حق آسية لكي يثنها ويشبط عزتها وإرادتها الحديدية ويردها عن اتخاذ دين الحق ، ورغم كونها امرأة إلّا أنها صمدت وقاومت وواجهت جميع حيل فرعون حتى آخر لحظات عمرها ، عكس ما عليه ضعيفو الإيمان ، حيث يستسلمون إثر أدنى نوع من التعذيب.

من المسلم به أن لا وجود لجهاز ودنيا أعظم زخرفة وأكثر جبروتاً من جهاز فرعون ، كما أنه لا تعذيب ولا اضطهاد أعظم ممّا مارسه فرعون المجرم ، لكن لا زخرفة دنيا فرعون وجبروته أثنت آسية المؤمنة ولا اضطهاده ولا تعذيبه ، بل قد جعلت من التعذيب . الذي هو وسيلة للقهر . وسيلة لتكاملها ، وأفدت بنفسها في طريق العشق الإلهي .

قصة إيمان آسية

ذهبت آسية ملكة مصر بصحبة فرعون إلى مشاهدة سحر السحرة ومعجزة موسى عليهما السلام في ساحة المدينة ، فألقى السحرة حبالمهم وعصيهم التي كانت مملوقة بالرقب لتتحرّك إثر حرارة الشمس ولتبعد أفعاعي حقاً^(١) ، فرح الناس واستأنسوا بعد ما حصل هذا وصفقوا للسحرة وأطلقوا شعارات لصالح فرعون.

لكن لم يمض وقت طويلاً على الفرحة وعلى إغواء الناس حتى جاء الدور إلى موسى عليهما السلام ، فألقى بعصاه ، امثالةً لأمر الله ، فبدت حية كبيرة بلعت كل ما كان ألقاه السحرة من العصي والحبال وتحركت باتجاه فرعون.

(١) كما أشارت إلى ذلك الآية ٦٦ من سورة طه.

عندئِ تبَدَّل الموقف لصالح موسى عليه السلام ، وتغيير الابتسامة والتصفيق والهلاهل إلى هموم واستياء وتعجب ، وخيم الرعب على فرعون والتعجب على المشاهدين.

ظنَّ فرعون أن هذه الأفعى ستبلغه ، وبذا الاضطراب على وجهه واضحًا ، وبخاصة بعد ما سقط التاج من على رأسه.

أسلم السحرة جميعهم وسجدوا ولم يؤثر فيهم تحديات فرعون ولم تشبط عزمه على اليمان برب موسى.

بعد ما شاهدت آسيمة هذه اللقطات غرقت بالتفكير ، وبعد مشوار انقدحت شعلة من اليمان في قلبها ازدادت تدريجياً لتثير كل وجودها بل وحتى خارجه.

أخذت آسيمة بمناجاة الله في الخلوة ، وبادرت بالقيام بالأعمال الصالحة ، وبعد ما شاهد فرعون آثار اليمان وحب الله في سلوكها سألهما عن الحقيقة ، فما استطاعت كتمان حبها المقدس وما استطاعت الكذب عليه فقالت الحقيقة له.

غضب فرعون الجبار كثيراً وهددتها ، لكن تحديده لم يؤثر فيها أدنى تأثير ، وكما قال الصادق عليه السلام : «إن المؤمن أعز من الجبل ، إن الجبل يستقل منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه»^(١) أي لا أنه لا يثنى أمام الريح فحسب بل يغير اتجاهه.

بدأت النصائح واللامات تمطر على آسيمة من كل مكان وبخاصة الأقرباء والأصدقاء ، فكانوا يقولون لها : كيف يمكن لك أن تدبري عن هذه النعم من الخدم والحسنات والنعم التي تحيط بك كملكة مصر؟!

لكن جواب آسيمة لهذه الاعتراضات واللامات هو : أي لا أرفع يدي من اليمان بالله.

ما كاد فرعون يتحمل نفوذ موسى في بيته وفي قلب شريكه حياته ، ولو استمررت آسيمة على إيمانها بإله موسى شكلت أزمة كبيرة لفرعون الطاغوت ، لذلك أصدر حكماً بالقضاء عليها.

أخذوا بآسيمة إلى صحراء قاحل وأوتدوا رجليها على الأرض ووضعوا صخرة ثقيلة على صدرها وحرموها من الماء والغذاء لعلَّها ترجع إلى دين فرعون أو تموت ، فاختارت هذه البطلة الطريق الثاني.

(١) الكافي ٥ : ٦٣.

عند ما أوشكت أنفاسها على الانقضاض أخذت تدعو بالدعاء التالي : ﴿رَبِّ ابْنِ لَيِّ

عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنِحْنُ يَوْمَئِلُهُ وَنَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

استجابة الله لدعاء آسية وجعلها قدوة للمؤمنين والمؤمنات ، وصنفها في زمرة أفضل

نساء العالم ، كما ورد ذلك على لسان الرسول ﷺ ، إذ قال :

«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران

وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ^(١).

ممّا يلفت أن زوجة فرعون حَفَّرت البلاط الفرعوني الطاغي بطلباتها الثلاث ، حيث

رجحته على بيت في الجنة ، واعتبرته لا شيء في قبال جوار رحمة الله ، وبذلك أجبت من

لامها على ترك كل هذه الامكانيات التي كانت في متناول أيديها ؛ باعتبارها ملكة مصر ،

وعلى توجهها إلى راعٍ مثل موسى ، وهذا درس وعبرة للجميع.

إلهي ، وفقنا لحفظ الإيمان حتى آخر لحظات من عمرنا.

ربنا ، نحن ضعفاء أمام الوساوس الشيطانية ، فأعذنا عليها.

آمين رب العالمين.

(١) الدر المنشور ٦ : ٢٤٦ (نقلًا عن الأمثل ١٨ : ٤٢٦).

المثل السابع والخمسون :

مریم بنت عمران

يقول الله تعالى في الآية ١٢ من سورة التحريم :

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَخْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

تصویر البحث

ورد هذا المثل في نفس الاتجاه الذي ورد فيه المثلان المتقدّمان ، وهو يؤكد أن المعيار الوحيد للقرب إلى الله والحلول في ضيافته هو العمل الصالح والالتزام بالضوابط الالهية ، ولا تغني الأواصر والعلاقات مهمما كانت قوية .
بالطبع ، هناك اختلاف بين هذا المثل والمثلين المتقدّمين نشير إليه فيما بعد .

الشرح والتفسير

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَخْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾

الجانب الذي لاحظه القرآن في التمثيل بآسية غير الجانب الذي لاحظه في التمثيل
مریم بنت عمران ، فقد لاحظ هناك جانب الصبر والاستقامة وهنا جانب العفة والطهارة .
بین القرآن ثلاثة امتيازات لمریم :

الأول : العفة ، فقد كانت مریم عفيفة بدرجة أنها كانت تخاف جبرئيل ويرتعش

جسمها

عند ما كان يأتيها متمثلاً بشاب جميل ، وهي في الخلوة تغسل جسمها وتقول له : ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(١) ، ورغم أن جبريل طمئنها وقال لها : ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ لِرَبِّكَ لَا أَهَبُ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(٢) إلا أن الاضطراب لا زال يسيطر عليها ، لذلك قالت له : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^(٣) ، وهذا كله يكشف عن مستوى عفتها وطهارتها.

الثاني : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُشِّهِ﴾

التسليم المطلق والخالص إلى الله والعبودية هي الامتياز الآخر الذي بيّنه القرآن لمريم.

كانت مريم مصدقة لكتب الله السماوية ولكلمات ربها.

اختلف المفسرون في أنّ (كتبه) عطف تفسيري على (كلمات ربها) أم لا ، وأنا أعتقد انعدام العطف التفسيري أو قلة موارده في القرآن. وعلى هذا يكون المراد من (كتبه) هو الكتب السماوية ، أي التوراة والإنجيل والقرآن ، والمراد من (كلمات ربها) هو الأحاديث القدسية ، أي كلام الله الذي لم يرد في الكتب السماوية^(٤).

الثالث : ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْتَدِينَ﴾

قوت مريم هو امتيازها الثالث ، وهو يعني العبادة والطاعة ، وبما أنه جاء مطلقاً دون

قيد كان يعني أنها مفعمة بالطاعة والعبادة لربها رب العالمين.

ليس من السهل أن يكون الإنسان مطيناً خالصاً دون قيد أو شرط ، وكثير من أعمال عباد الله منتقاة ، أي أنه ينتقي ما ينفعه ويذر ما لا ينفعه ، بينما عباد الله المخلصون يعملون له مطلقاً مهما كانت آثار العمل ومرواداته.

نتيجة العفة التي يُضرب بها المثل وكذا الإيمان والاعتقاد بجميع ما أنزل الله والطاعة والعبادة الحالصة التي لا مثيل لها أن نفح الله فيها من روحه ومنحها ولداً طاهراً كعيسي بن

مريم عليه السلام .

(١) مريم : ١٨ .

(٢) مريم : ١٩ .

(٣) مريم : ٢٠ .

(٤) انظر الأمثل ١٨ : ٤٢٧ .

فوارق هذا المثل مع المثلين المتقدّمين

رغم أن الأمثال الثلاثة المذكورة في سورة التحرير تابعت هدفاً واحداً ، وهو بيان الملائكة الأساسي لنجاة الإنسان ، أي الضوابط الإلهية لا العلاقات والانتساب بأولياء الله ، إلّا أنها متباعدة فيما بينها.

كان الحديث في المثل الأول عن امرأتين مشركتين أدركتن عن الضوابط الإلهية فدخلتا جهنم مع الداخلين ، ولم ينفعهما علاقتهما بزوجيهما اللذين كانوا من كبار أنبياء الله ، والمثل تحذير لضعفاء الإيمان الذين تمسكوا بالانتساب لبعض أولياء الله.

في المثل الثاني كان الحديث عن أمّة صبوره ومقاومة ، قد تمسكت بالتعاليم الإلهية وما أكترثت بشيء إلّا برضاء الله ، ولم تنتسب إلى أحدٍ من أولياء الله ، بل إلى طاغوت ، فقد كانت زوجة فرعون الأكثر ظلماً في البشرية ، رغم ذلك لم تؤثر هذه العلقة وهذا الانتساب في عزّها وإرادتها ، وكان قرارها التزام الإيمان بالله وحفظه حتى آخر لحظة من حياتها.

وهذا المثل يُضرب لمن عاش في عائلة ومحيط غير مساعد ، تكثر فيه العقبات والموانع الموضوعة في طريق الإيمان ، فالاقتداء بها يعني تجاوز الموانع والانتصار عليها وعدم التشكيث بها كذلك.

الحديث في المثل الثالث عن إمّة عفيفة تمنتت بامتياز الانتساب وكذا العمل بالضوابط الإلهية في أعلى مستوياتها ، ولهذا عُذّت أسوة.

مزيد ايضاح : البيئة التي كانت تعيشها آسية غير مناسبة ولا تساعده على انعقاد الإيمان من جميع الجهات ، فقد كانت تعيش منزلاً يُعدّ بؤرة للكفر والشرك والعناد والوثنية ، وما كان يسمع فيه صوت التوحيد أبداً ، وكان زوجها يُعدّ نفسه ربّاً أعلى^(١) بل ربّ الأرباب ، أمّا البيئة التي كانت تعيشها مريم فكانت بيئه طاهرة ومفعمة بالإيمان ، وقد كانت تسمع الترانيم الإلهية وهي حنين في بطن أمّها.

ينقل القرآن المجيد مناجاة أم مريم في الآية ٣٥ من سورة آل عمران كما يلي :

(١) كما ورد ذلك في سورة النازعات : ٢٤ .

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

ذكرها عليها السلام بعد حادث لطيفة حصلت ، مما زاد في قداستها وسمح لها دخول بيت المقدس والمسجد الأقصى لتقديم عبادتها هناك. وبلغ بها القرب إلى الله أن كان الله يبعث لها الغداء ، كما جاء ذلك في الآية ٣٧ من سورة آل عمران :

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا رَجُلٌ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

خلاصة الكلام أن بيئة مريم عكس بيئة آسية ، رغم ذلك كلتاهمما بلغتا الكمال.

جاء في رواية عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «كَمُلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكُملْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ ، آسِيَةُ بْنَتُ مَرْاحِمَ امْرَأَةُ فَرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بْنَتُ عُمَرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بْنَتُ خَوَيلَدَ ، وَفَاطِمَةُ بْنَتُ مُحَمَّدٍ» ^(١).

مريم وآسية عاشتا بيئتين متضادتين وبلغتا الكمال ، وفي ذلك درس عظيم وعبرة للجميع. وعلى الناس أن يفهموا أن المقياس الأساس هو إرادة الإنسان وعزمه ، فلا يُعدُّ فساد العائلة أو المجتمع والبيئة وما شابه ذلك عذرًا ، فإنه يصعب بلوغ المهدف مع وجود هذه الأمور لكن لا يستحيل ، ويمكن الانتصار والتغلب على الموانع من خلال التحلّي بإرادة صلبة ؛ سعيًا لبلوغقرب الالهي ، كما فعلت آسية ، والإرادة والعزم هما اللذان يلعبان الدور الأساسي في هذا المجال.

خطابات الآية

١ . العفة رأس مال عظيم

آية المثل أكدت على فضيلة العفة التي كانت مريم تحلى بها ، وهي صفة لو تمعن به أحد (سواء كان رجلاً أو امرأة) حصل على كل شيء ولو فقدها فقد كل شيء. لو تحلى المرأة بهذه

(١) مجمع البيان ١٠ : ٣٢٠ (نقلًا عن ميزان الحكمة ، الباب ٣٥٣٥ ، الحديث ١٧٦٧٤).

الصفة ما تلوّث بالذنوب ولو توافرت جميع العوامل والأرضيات المساعدة على التلوّث ، ولو لم يتمتع بها شخص تلوّث بالذنوب ولو كان جنب أفضل البشرية.

العفة تعدُّ النقطة التي تقابل عبادة الشهوة والبطن ، ومن أهم فضائل الإنسان ، ويعتبرها علماء الأخلاق صفة بين عبادة الشهوة والاغتنام والكسل. وفي هذا المجال وردت مباحث مختلفة كثيرة في القرآن والروايات ^(١).

٢ . الارادة أساس العمل

لا شكَّ أن للعوامل والأرضيات ، من قبيل : العائلة والمجتمع والبيئة والحكومة وتوافر أرضيات الطاعة أو المعصية ، دوراً وتأثيراً على سعادة الإنسان وشقائه ، لكنَّ أيّاً من العوامل المذكورة لا يمكنها أن تقهـر الإنسان وتجبره على انتخاب الطريق الذي يخالف إرادته. نفهم من الأمثلـة الثلاثة المتقدمة ، وبخاصة مثل آسية ومريم عليـلـا ، أن الارادة تشكل أساس العمل أو العامل الأساسي لأفعال الإنسان وأعماله واعتقاداته.

أثبتت آسية أنَّ بامكان الإنسان أن يحـكـم إرادته للامـان والتقوـى في أحـلـكـ الظـروف واعتـسـها ، وأنه يتـوفـق رغم هذه الظروف ، كما عرفنا من سيرة زوجة نوح عليـلـا وزوجة لوط عليـلـا أن عاقبة الإنسان لا تكون إلى خـيرـ حتى في أـفـضلـ الـظـروفـ إذا لم يتمـتعـ بإـرـادـةـ ثـابـةـ وـقـويةـ.

إذن ، الآيات المتقدمة جواب داحض لمن يعتقد بالجبر ، وتدلُّ بوضوح على أن السبب الأول والأخير للسعادة والشقاء هو إرادة الإنسان.

(١) للمزيد راجع الاحـلـاقـ في القرآن ٢ : ٣٠٧ فـما بـعـدـهاـ (بالفارسـيةـ ولـلـمـؤـلـفـ كذلكـ).

المثل الثامن والخمسون :

تصویر للمؤمنين والكافرين

يقول الله تعالى في الآية ٢٢ من سورة الملك :

﴿أَفَمَنْ يُمْشِي مُكْبِتاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

تصویر البحث

الآية الكريمة . بقرينة ما سبقها وما لحقها . تصویر حال المؤمنين والكافرين ^(١) ، ومثل جحيل لهذه القافلة التي تبدأ من نقطة العدم ثم تلبس ثوب الوجود متوجهة نحو نقطة اللا نهاية ، أي ذات الله تعالى . وهي قافلة قد ينحرف البعض عنها في بداية حركتها أو في وسطها ، وبعض يستمر معها في حركتها المستقيمة حتى نهاية شوطها .

نظرة إلى الآيات التي سبقت المثل

الآيات الاولى لهذه السورة تحدثت عن المبدأ وصفات الله تعالى ، ودعت الإنسان للتفكير في صفات الله وآياته ، ثم شرعت ببيان حال المؤمنين والكافر ، وفي المرحلة الثالثة ذكرت بعض آيات الله ، من قبيل آية خلق نظام الكون العجيب ، وبخاصة السماوات والكواكب والارض ونعمها وخلق الطيور .

(١) كما يرى ذلك تلميد الامام علي عليه السلام القدير (ابن عباس) ، وعدّها من أمثال القرآن ، التي وردت لتوصيف المؤمنين والكافر ، راجع التبيان ١٠ : ٦٨ .

ندرس هنا إحدى الآيات الإلهية ذات الصلة بآية المثل.

﴿أَوْ لَمْ يَرُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾

خلق الطير وطيرانه بأشكال مختلفة من آيات الله المنان. وإذا دقق الإنسان في خلق الطير وكيفية طيرانه العجيب أدرك قدرة الخالق صاحب كل قدرة في الكون ، وكل شيء يقابلها هو كلا شيء ، ويمكن الوثوق به والاتكاء عليه كافضل ما يمكن الاتكاء عليه. يمكن للإنسان أن يكتسب القدرة على الطيران بالتأمل في ظراوة خلق الطير ، ويمكنه كذلك احتراع الآليات التي يمكن فتح السماوات بها وبلغ محالٌ من السماوات لم تبلغها الطيور.

كلما زاد العلماء من دراساتهم على الطيور كلما استطاعوا أكثر على رفع نوافذ الطائرات. وعلى سبيل المثال كانت عجلات الطائرات مفتوحة عند الطيران مما يسبب بعض المشاكل لها ، وبعد تدقيق العلماء في طيران الطير شاهدوا أنها تضم رجليها عند الطيران ، وهذا هو الذي دعاهم إلى صناعة طائرات تضم عجلاتها عند التحلق. وهذا مما يدعو حقاً إلى تعظيم الخالق ومجده.

﴿صَافَاتٍ وَيَقْبَضُنَ﴾

من خلال هذين الجملتين القصصيتين بين الله نوعين من طيران الطيور ، ففي الجملة الأولى بين نوعاً مرموزاً من الطيران ، وهو الطيران بصف الأجنحة دون تحريكها ، كما نلاحظ في طيران بعض الطيور في طبقات السماء المرتفعة. والنوع الثاني هو الذي يتم من خلال تحريك الأجنحة ، كما هو ملحوظ في أكثر الطيور.

وهناك نوع ثالث من الطيران ، وهو الذي يكون خليطاً من النوع الأول والثاني ، فتقبض أجنحتها تارة وتصفها تارة أخرى.

وهناك نوع رابع من الطيور ، وهي التي تحرك أجنحتها لفترة ثم تضمها وتتحرك في الجو على غرار الذي يريد الغطس ، كما نلحظ ذلك في العصافير.

والخلاصة أن جميع الطيور تشترك في أصل الطيران ، لكن كلاً منها تطير بنحو خاص يتناسب وفيزيولوجياً جسمها والفضاء الذي تطير فيه ، والالتفات إلى نوعيات الطيران يزيد من إيمان الشخص ويقينه بخالقه القادر.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

من الذي خلّص هذه الطيور من جاذبية الأرض القوية التي تجذب حتى ذرات الغبار
المتناهية في الصغر؟ ومن منعها من السقوط على الأرض؟
يا لها من قدرة فائقة ساعدت هذه الطيور على التحليق والطيران كل يوم ، متغلبة
بذلك على جاذبية الأرض؟!

هناك بعض من الطيور المهاجرة التي تقطع بالطيران ١٨٠٠٠ كيلو متراً في السنة! من
الذي أنقذها من جاذبية الأرض؟ كيف يمكنها تحمل الغذاء لنفسها في سفراتها الطويلة؟ كيف
تمكنها التعرف على الاتجاه الصحيح؟^(١) هل هناك قدرة بإمكانها فعل ذلك غير قدرة الله
العالم والمحيط بكل شيء؟

مع الالتفات إلى ما تقدّم من شرح مبسط للآيات التي سبقت آية المثل ، وبخاصة
مسألة التأمل في خلق الطيور ، نرجع إلى آية المثل لنبحث بشرحها وتفسيرها.

الشرح والتفسير

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى﴾

تقسم الحيوانات من حيث الحركة والمشي إلى ثلاثة أقسام : الأول : مستقيمة القامة ،
وهي التي تمشي على رجلين اثنين ، مثل الإنسان ، الثاني : ذات الأربع ، وهي التي تمشي
على أربع ، رجلين ويدين ، الثالث : الزواحف ، مثل الأفاعي .
شبه الله الكفار في هذه الآية بالزواحف التي ترتفع على بطنهما .

﴿أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

كما شبه المؤمنين بمستقيمي القامة الذين يمشون بنحو سوي وعلى طريق مستقيم .
ومع هذا التشبيه كيف يمكن المقارنة بين من يمشي مستقيم القامة وسوياً وبين من
يمشي زاحفاً على بطنه؟ فمن هو أهدي منهما؟

(١) لمزيد معلومات في عجائب الطيور راجع الأمثل في ذيل الآية ٧٩ من سورة النحل .

ترك الله الحكم والجواب على المقارنة إلى مخاطبي القرآن ، وحرّضهم على معرفة الاختلاف بين الاثنين.

مشاكل حركة الزواحف ومعايبها

للزحف مشاكل متعددة :

الاولى : تتحدد عنده قدرة النظر ، والأخطار تهدده دائمًا ، ويكون عرضة للسقوط في وادٍ أو الانحراف عن الطريق ؛ لأنّه عاجز عن تحديد الأخطار وتشخيصها في وقتها.

الثانية : سرعة الزحف قليلة جدًا ، وقد تكون نسبتها إلى المشي العادي نسبة الواحد إلى العشرة.

الثالثة : الزحف يتعب الإنسان بسرعة ، هذا على فرض عدم مواجهة موانع في الطريق وعدم انحرافه عنه وعدم سقوطه في وادٍ والزاحف يتوقف عن الحركة بسرعة ؛ لكون الزحف متعباً جداً.

إذن ، الخطأ في تحديد الخطر وعدم القدرة الكافية للنظر وبطء الحركة والتعب المفرط يغسل الزاحف عن الاستمرار في الطريق ، وتعد تلك الأمور من معايب الزحف ومشكلاته. أما الذي يمشي مستقيم القامة فقابلية على الرؤية أكثر ويرصد الأخطار من بعيد . وبخاصة أنَّ أكثر حواسه واقعة في رأسه . ويحددتها ويتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، ولا ينحرف عن الطريق ، مضافاً إلى أنَّه يتمتع بالسرعة الكافية ولا يتعب عاجلاً ، فلا يتوقف. هل يتساوى هذان الاثنين؟ بالطبع لا ، والذي يمشي مستقيم القامة أهدي لطريقه من الذي يمشي زاحفاً.

المؤمن الذي يمشي سوياً ومستقيم القامة في الصراط المستقيم ونور إيمانه يضيء له الدرج أهدي من الكافر الزاحف الذي لا نور له يضيء دربه ولا سرعة ولا قابلية له لتحديد المخاطر ولا السير لفترة طويلة.

هذا مضافاً إلى أن الكافر الزاحف لا قدرة له على إبصار آيات الله التي تقدّمت الاشارة إليها في الآيات السابقة من السماوات والطيور وما شابه ، أمّا الذي يمشي سوياً فله القابلية على

إبصار آيات الله جيداً ، فيتأمل فيها ويتدبر ، ويدرك بذلك عظمة الله وقدرته أكثر ، فيخطو في طريق المداية باستحكام واستقامة.

خطاب الآية

الإيمان ينبع المحسن

تقدّم أن الآية نزلت في توصيف المؤمنين والكافّار ، وهي ليست الوحيدة التي وصفت الفريقين بل تقدمت آيات وكذلك روايات في توصيفهما.

لماذا كل هذا الحديث والتأكيد على الإيمان وما يقابلها ، أي الكفر؟
الحقيقة هي أن الإيمان والتقوى مصدر الخيرات والبركات ، وينبغي القول دون مبالغة :
كلّ شيء يتحقق في ظل الإيمان والتقوى

من هو المؤمن؟

إذا كان الإيمان قلة عالية وارتقاها يُعَدُّ منهاً لجميع الحاسن وإنما ثواباً ثميناً فينبغي
معرفة من هو الجدير بهذا الثواب الثمين والصعود إلى هذه القلة الملائعة بالافتخارات.
وصف الرسول ﷺ المؤمن في ثلاث جمل قصيرة لكنّها ذات معنى عميق ، حيث
قال : «المؤمن كيسٌ فطّن حذر»^(١) ، ومن خلال هذه الصفات الثلاث يمتاز المخاطر ، أمّا
غير المؤمن فكالزواحف لا يتمتع بفطنة ولا كياسة ولا حذر ، ويقع في المصيدة ببساطة ،
وانسان من هذا القبيل يظن نفسه كيساً ، وليس كذلك ، وبذلك يتلف رأس ماله الأعظم ،
وهو عمره ، ونهايته الهالاك دون جدوى

مراقب الإيمان

كتاب الززاد : قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : تخشى أن لا تكون مؤمنين. قال :
«وَمَذَاكَ؟»

(١) ميزان الحكمة ، الباب ٢٩١ ، الحديث ١٤٥٠.

قلت : وذلک أنا لا نجد فينا من يكون أخوه عنده آثر من درهمه وديناره ، ونجد الدينار والدرهم آثر عندنا من أخ قد جمع بيننا وبينه موالاة أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَرَمَةُ ، قال : «كَلَّا انكم مؤمنون ولكن لا تكملون إيمانكم حتى يخرج قائمنا ، فعندما يجمع الله أحلامكم فتكونوا مؤمنين كاملين ، ولو لم يكن في الأرض مؤمنون كاملون إذاً لرفعنا الله إليه وأنكرتم الأرض وأنكرتم السماء ، بل والذي نفسي بيده أنّ في الأرض في أطرافها مؤمنين ما قدر الدنيا كلها عندهم تعذر جناح بعوضة»^(١).

يتميّز الإمام في رواية إدراك المؤمنين الذين تكامل الإيمان عندهم وبلغوا القمة في الإيمان ، ويوصي من أدركهم أن يستفيض من نورهم ، ودنيا الحرام عندهم لا تعذر أكثر من جناح بعوضة.

اللهُمَّ وفقنَا لطِي مَدَارِجِ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ بُلُوغُ قَمَةِ جَبَلِ الشَّامِخِ.

اللهُمَّ ارْزُقْنَا كِيَاسَةَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَقِيقَيْنَ وَذَكَاءَهُمْ لَكَيْ يَتَسَوَّلُ لَنَا رَفْعُ عَقَبَاتِ الرُّقِيِّ
وَبُلُوغُ أَعْلَى درجات الإيمان.

(١) سفينة البحار ١ : ١٤٧ .

المثل التاسع والخمسون :

البخلاء

يقول الله تعالى في الآيات ١٧ . ٣٣ من سورة القلم :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْوِنََ
فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا
عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَّلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَّوْنَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مِسْكِينٌ * وَغَدَوا عَلَى حَرَدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُمُونَ * قَالَ
أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقْلِ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ يَتَلَوَّهُمْ وَنَوْنَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِيْنَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُيدِلَنَا خَيْرًا مَنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
رَاغُبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعْنَادُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

تصوير البحث

قد يجسّم الله الحقائق التربوية المهمة جداً في قالب تشبيه محض ، وقد يجسّمها من خلال قوله قصة حقيقة من الواقع الخارجي في إطار مثل ، والآيات السبع عشرة من سورة القلم من قبيل القسم الثاني .

الشرح والتفسير

كان الحديث في الآيات السابقة لآيات المثل عن المناعين عن الحير ^(١) ، وعقب ذلك

ذكر

(١) هؤلاء لا أنهم بخلاء فحسب بل يمنعون الآخرين من الانفاق كذلك.

قصة أصحاب الجنة في قالب تمثيل جميل.

يستفاد من تعاير الآيات الجميلة أن هذه القصة كانت معروفة عند العرب قبل الاسلام ، بالطبع ليس بالتفصيل المذكور هنا ، وحاول القرآن بيان نكات ظريفة في هذه القصة ، أوضح من خلالها عاقبة المنّاع للخير.

جاءت قصة أصحاب الجنة في القرآن كالتالي :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

يا رسول ، إِنَّا أَدْخَلْنَا امْتَكَ فِي اخْتِبَارٍ كَمَا أَدْخَلْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ^(١) ،
ويراد من الجنة هنا البستان لا ما تقابل جهنم.

كان في الامم السالفة والد خير ، له بستان واسع ، عند ما يحلُّ فصل جني الشمار
كان هذا الرجل السخي يخبر الفقراء والمساكين لينالوا نصيباً منها ، وأجل ذلك كان
البستان ينمو ويشرب كل عام أكثر فأكثر.

توفي هذا الأب السخي وترك البستان لأولاده ، الذين كانوا بخلاء وقصير النظر ،
ويرون ثمار البستان حقهم الخاص بهم دون غيرهم ، فمنعوا الفقراء والمساكين من النيل من
البستان ، كما كان يفعل ذلك والدهم ، وكان لسان حالم يقول : لَمْ نَعْطِ هُؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ
لَمْ يَفْعُلُوْ لَنَا وَلِبَسْتَانِنَا شَيْئاً وَلَمْ يَعْمَلُوْ فِيهِ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْرِفُوْ شَيْئاً مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي
البستان؟

وهل هم يدينون لنا بشيء؟ وهل هو إرث آبائهم؟ والحق ينبغي أن يرجع لصاحبـه ،
ونحن أصحابـ هذا الحق وما لنا وهؤلاءـ الفقراء؟ وما ذا يعيشـ الفقراء؟ فليموتوـ!

ولأجل تحقيق أفكارـهم الشيطانية رسموا الخطة التالية :

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِفُ مُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْرِفُونَ﴾

تقضي خطتهمـ التي أقسمـوا عليهاـ أن يذهبـوا في الصباحـ الباكرـ مع غلـمانـهمـ إلى
البستان

(١) اختلف المفسرون في محل هذه الجنة ، فقال البعض : إنـها في اليمن ، واحتمالـها البعض مدينة صنعـاءـ الكـبـيرـةـ ،
وطائـفةـ ثـالـثـةـ قـالـتـ : إنـهاـ فيـ الحـبـشـةـ ، وـ طـائـفةـ رـابـعـةـ قـالـتـ : فيـ الشـامـ ، وـ الـاحـتمـالـ الخامسـ : كـوـنـهاـ فيـ الطـائـفـ ،
والـاحـتمـالـ الأولـ هوـ المشـهـورـ ، رـاجـعـ الأمـثلـ ١٨ـ : ٤٩١ـ .

ويجرون ثماره قبل أن يأتوا القراء ، وإذا جاءوا فلا يشاهدون شيئاً يأخذونه معهم ^(١) ، فذهبوا إلى فراشهم بهذا الأمل.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾

الطائف تعني الذي يطوف ، وقد اطلق هذا الاصطلاح على من يطوف الكعبة بهذا الاعتبار. كما يطلق الطائف على البلاء الذي ينزل ليلاً ، من قبيل السرقة التي غالباً ما تحصل ليلاً ، وسبب الاطلاق هو أن السارق غالباً ما يطوف البيت الذي يقصد سرقته قبل أن يسطو عليه ، وذلك ليتعرف على نقاط ضعفه وفجواته ليدخل منها. تأوهات المظلومين تبلورت على نحو طائف وبلاء إلهي نزل على بستانهم وأتلفه.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾

عند الصباح لم يجدوا أثراً من الشمار والفواكه التي خططوا لها بالأمس ، فقد تبدلت جناتهم إلى قطعة من الفحم.

ما هو البلاء الذي نزل على هذه الجنة؟ قد يكون عبارة عن صاعقة أمرها الله أن تحرق الجنة لتبدل إلى فحم ورماد.

تكفي درجة حرارة بمستوى مائة لإحراق هذه الجنة ، أمّا إذا كانت درجة حرارة الصاعقة خمسة عشر ضعفاً مما تفعل بالجنة؟ إنَّ هذه الدرجة من الحرارة تذيب كل أنواع الفلزات فضلاً عن الأشجار والفواكه والخضار.

﴿فَتَنَادَوْا مُصَبِّحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرَثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾

استيقظ أصحاب الجنة صباحاً ولم يكونوا على علم بما كان قد حصل لبستانهم ، فنادى أحدهم الآخر ليستعجلوا في اليقظة والذهاب لجني الشمار ، وبعد حمل المستلزمات الضرورية تحرکوا باتجاه البستان.

(١) لم يتّحدوا هذا القرار بناءً للحاجة ، بل لضعف إيمانهم وبخلهم ؛ لأن بامكانهم أن يبذلو مقداراً من محصولات بستانهم مهما كانت حاجتهم. إلا أن بعض المفسرين فسّر عبارة «ولَا يَسْتَثُنُونَ» بنحو آخر وقال : عند ما خططوا للغد لم يقولوا : إن شاء الله ، فما كان غرورهم يسمح لهم بالتفوه بهذه العبارة المباركة. لكن التفسير الأول اصح ؛ لكونه متناسباً مع القصة. راجع الأمثل ١٨ : ٤٩١ .

فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَّوْنَ* أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرَدٍ

قَادِرِينَ

أيقظ أحدهم الآخر بإيجاد ضوابط ، لكنهم خرجوا ببطء ودون إيجاد أي صوت
ودون أن يتكلّموا ، وإذا أرادوا مبادلة الكلام همس أحدهم في إذن الآخر ، وما كان كلامهم
إلا تحذير أحدهم الآخر من أن يطّلع واحد من القراء على الموضوع.

نعم ، كانوا قد قرروا أن يحولوا دون اطلاع الفقراء ، وأن يمنعوهم بقّوة دون الوصول إلى الجنة ، ومن المحتمل أَنْ هم وظفوا بعض الأقوياء ليمنعوا الفقراء عن دخول الجنة إذا ما أطلعوا رغم الإجراءات التي اتخذوها للحؤول دون اطلاعهم.

﴿فَلَمَّا رأواهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

بعد الاجراءات والاحتياطات التي قاموا بها وصلوا جتنهم وفقاً لخطتهم ، لكنهم عندئذٍ تعجبوا حيث لم يعشروا على أثرب للطراوة والخضار ، ولا نسيم ، ولا صوتاً للطيور ولا للقنوات ، ولا فاكهة ولا شجرة ، فلم يبق من الجنة غير الفحم والرماد ، عندئذٍ اعترفوا بخطأهم وأقرّوا بصحة منهج والدهم واعتبروا أنفسهم ضالين.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَفْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾

يبدو أن واحداً من الأخوة كان أعمىهم ، وكان مخالفًا لهم منذ البداية وكان مصرًا على العمل وفق نهج الوالد ، إلا أن إخوته كانوا يشكلون الأكثريّة ، وهو الأقلية ، لذلك لم يكن لرأيه تأثير عليهم ، لكنه بعد ما شاهد . كاخوته . ما آلت إليه جنتهم قال لهم ما ورد في العبارة المتقدمة.

﴿فَالْمُؤْمِنُونَ يَتَلَاءَمُونَ وَالظَّالِمُونَ يَتَبَارَكُونَ﴾

كانت ملامة أخيهم بمثابة السوط الذي جلد ضميرهم وأيقظه من سبات الغفلة ،
عندئِلٍ جرى تقديس الله وتسبيحه على ألسنتهم ، وبدعوا يعترفون بأئمَّهم ظالمون .
إئمَّهم ظلموا أنفسهم ، كما ظلموا الفقراء ، ثم أخذ أحدهم يوم الآخر ، ويحمل
أحدهم الآخر مسؤولية هذا العمل ، وهو سيرة المذنبين دائمًا .

نعم ، في الصباح الباكر كان أحدهم يوقظ الآخر بصوت عال ، وتحركوا باتجاه الجنة

باحتياط ، وهم حالياً يتّهم بعضهم الآخر.

مَمَّا يلْفِتُ أَنَّ الْآيَةَ ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تكشف عن أَكْثَمَ لِمَ يَتَلَقَّوْنَا نزول العذاب ظلْمًا من الله عليهم ، بل نَزَّهُوا الله من كل ظلم ، واعتبروا أنفسهم سبباً لهذا العذاب. إنهم أعلموا من خلال هذه الجملة كونهم ظلموا الآخرين فكانوا أهلاً لنزول العذاب ، ولم يكن ذلك ظلماً من الله عليهم ، بل ما صدر منه هو عين العدالة والحكمة ونوع من اللطف في حُقُّهم ؛ لأن واجدَهُم استيقظ من سباته إثر هذا العذاب فتابوا إلى الله وأنابوا إليه.

﴿قَالُوا يَا وَيَّا لَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِيْنَ﴾

رَبِّنَا ، أَغْوَتْنَا نِعْمَكَ وَأَغْفَلْنَا عَنْ صَاحِبِ النِّعَمِ ، فَانْحَرَفْنَا. رَبِّنَا ، مَا كَنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْوَالَ الَّتِي وَهَبْتَهَا لَنَا لَمْ تَكُنْ بِأَكْمَلِهَا لَنَا ، بل جعلت سهلاً للفقراء فيها.

رَبِّنَا ، عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ اخْتِبَارًا مِنْكَ لَنَا فَنَتَوْبُ وَنَفْرُ بِذَنْبِنَا ، وَهَا نَحْنُ جَنَّنَاكَ تَائِبِينَ نَادِمِينَ دَاعِيكَ بِالدُّعَاءِ التَّالِيِّ :

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾

يقطُّ أصحاب الجنة من سبات الغفلة بصفعة العذاب الإلهي ، فاعتبروا ممّا حدث لهم وتابوا ودعوا الله بهذا الدعاء.

بعد التوبة والدعاء عزموا بجدٍ ومثابرة على العمل على الأرض ، فلم يمض وقت طويلاً - كما ينقل ابن مسعود . حتى رزقهم الله بطشه جنة أعظم وأفضل مما كانت لهم^(١). لكن بعض المفسرين يرى أن توبتهم لم تُقبل لعدم توافر شروط التوبة فيهم^(٢).

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

هذه الآية استنتاج لقصة أصحاب الجنة ، وهي تحذير لكل من كان يعيش حياة ذات وجوه شبه مع حياة أصحاب الجنة ، فهي تقول : إن العذاب الآخرمي أشد وأكبر من العذاب

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٣٧ .

(٢) انظر الأمثل ١٨ : ٤٩٧ .

الأليم والمفجع الذي أنزلناه على هؤلاء. وعلى كل من توفرت عنده امكانيات وثروة أن يترك منها سهماً للفقراء ، ولو بخل في ذلك وخطى في هذا الاتجاه بحيث لا هو بذل ولا ترك الآخرين يبذلون فليطمئن من نزول عذاب الله عليه في الدنيا والآخرة.

بالطبع لا ينبغي أن يكون العذاب دائماً عبارة عن صاعقة سماوية تحرق ممتلكات البخيل ، بل لله جنود لكل زمان ومكان ، من قبيل : الآفات والحروب والسيول والأمراض المستعصية والجفاف وانعدام البركة ، فهذه كلها جنود الله يعيشها حيث يشاء.

خطابات الآية

١ . الاستئثار بلاء خطر

إذا أخذت الأموال والثروة جسراً للوصول إلى الغايات ، ولم يخرج حبها عن مستوى الاعتدال كان ذلك أمراً مطلوباً ومستحسناً ، أما إذا بلغ حبها مستوى الإفراط وعدت بحد ذاتها هدفاً وليس وسيلة وأنتجت ثماراً من قبيل الاستئثار كان ذلك أمراً مذموماً.

ولأجل ذلك فرض الإسلام الحقوق الواجب دفعها ، كما دعى المسلمين إلى الإنفاق الرائد على ذلك (الإنفاق المستحب) لكي يحول بذلك عن انتاج أو نمو شجرة الاستئثار البغيضة.

تحلى أحطار الاستئثار عند ما تتسع رقعة آثاره الذميمة لتشمل المجتمع كله بعد ما كانت منحصرة في المستأثر فقط ، كما هو حال باقي الذنوب ، وذلك لأن آهات المظلومين والمستحقين والمساكين قد تبدل إلى إعصار يكتسح المجتمع بأسره.

علينا تطهير أنفسنا من هذه الصفة الذميمة ، وذلك من خلال إنفاق بعضٍ من أموالنا (قدر الإمكان) لمحروم المجتمع وفقرائه ، ولنقتدي في هذا المجال بالأئمة المعصومين

عليهم السلام .

ينقل في أحوال الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ قوله التالي :

«كنت آمر إذا أدركـت الثمرة أن يثلم في حيطانـها الثلم ليدخل الناس ويأكلـوا ، وكـنت آمر في كل يوم أن يوضع عشر بنـيات يـقـعـدـ على كل بنـية عشرة كـلـما أـكـلـ عشرـة آخرـي يـلقـى لـكـلـ نفسـ منـهـمـ مـدـ منـ رـطـبـ ، وكـنت آـمـرـ لـجـيـرانـ الضـيـعـةـ كـلـهـمـ الشـيـخـ والعـجـوزـ والـصـبـيـ

والمريض والمرأة ومن لا يقدر أن يجيء فيها كل منها لكل إنسان منهم مذًا ...»^(١).

٢ . الهدف من البلاء والعذاب

البلاء والعذاب والمرض والمشاكل الاجتماعية والفردية والغلاء والتضخم وما شابه ، كل ذلك ليس عقوبة دائمًا ، بل قد يكون بمثابة الصدمة التي يوردها الطبيب على المريض لكي يشعره ويحسمه . والله قد يستهدف من العذاب تربية الإنسان وإيقاظه من غفلته . العذاب الذي نزل على أصحاب الجنة كان من هذا القبيل ، بناءً على رأي أولئك الذين يرون أنّ توبتهم قد قبلت ، بعد ما أعزبوا عن ندمهم ، ليتهجوا بعدها نجاح أبيهم في الانفاق على الفقراء والمساكين ، مما وفر الأرضية لأن يرزقهم الله الجنة مرة أخرى .

٣ . العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق

للعصيان والذنوب والخلاف عن القوانين الالهية عواقب سيئة لا في الآخرة فقط بل في الدنيا كذلك ، فآثار العصيان مشهودة في الدنيا ، كما هي ثابتة في الآخرة .

البحث في الآثار الدنيوية للذنوب بحث جميل ويكشف عن وجود بعدين للذنوب لا بعد واحد ، وقد انعكس هذا البحث في آيات وروايات كثيرة . الآيات التي هي موضع بحثنا تشير إلى هذا المطلب ، والبخل والأسوأ منه منع الخير لا أنه لا يوجب زيادة ثروة الإنسان وأمواله فحسب بل يكون بمثابة الحريق الذي يحرق الرع ويترك الإنسان يعيش المؤس والتعasse .

الرواية التالي ذكرها واحدة من كثير من الروايات الواردة في هذا المجال ، يقول الإمام

الباقر عليه السلام :

«إنَّ الرَّجُلَ لِيَذْنُبَ الذَّنْبَ فَيُدَرِّأُ عَنْهُ الرِّزْقَ» وتلا هذه الآية : ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ...﴾^(٢).

(١) وسائل الشيعة ٦ : ١٤٠ - ١٤١ ، أبواب زكاة الغلات ، الباب ١٨ ، الحديث ٢ .

(٢) تفسير نور الثقلين ٥ : ٣٩٥ ، الحديث ٤٤ . (نقلًا عن الأمثل ١٨ : ٤٩٩).

كما نقل عن ابن عباس قوله : إنَّ العلاقة بين الذنب وقطع الرزق أوضح من الشمس ، كما بينها الله عَزُّوجلَّ في سورة ن والقلم^(١) .

النتيجة : العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق واضحة ، وعلى الانسان ترك العصيان حتى لو كان طالباً للدنيا فقط.

٤ . العناد أو الإنابة؟

عند ما يشاهد الانسان نتيجة أعماله في الدنيا يختار أحد الطريقين ، إِمَّا اللجاجة والعناد وإِمَّا الإنابة والرجوع. البعض يتلقى البلاء لطفاً من الله يوقظه به من سبات الغفلة وينفعه دون تكرار الأخطاء ، فيتوب ويخرج ، ولا شك أنَّ الله سيغفر له بالطافه.

وبعض آخر في سبات عميق ، لا شيء يوقظه منه إِلَّا الموت ، فلا توقعه هذه الحوادث من نومه فيستمر في المضي في درب الخطأ ، بل تزيد الحوادث من سرعة مشيه في هذا الطريق ، أي طريق المعصية والذنوب عناداً ولجاجة ، وهو في الحقيقة في عنادٍ مع سعادته ، وكَلَّما تقدَّمَ كلما نقص احتمال نجاته ، وكلما ابتعد عن رحمة الله.

العناد ناشئ عن الرذائل الأخلاقية ، ومصدرها الأساسي هو الجهل ، الذي خلَّف للإنسان على طول التاريخ آثاراً مشؤومة وغير مباركة كثيرة^(٢) .

وفقاً لما جاء في بعض الروايات فإنَّ أصحاب الجنة اختاروا الطريق الاول فتابوا وأنابوا إلى الله فشملتهم الألطاف الالهية.

إِمَّا أفراد من قبيل أبي هب وأبي سفيان ومعاوية فاختاروا درب العناد فأصبحوا لعنة على ألسن المؤمنين إلى يوم القيمة.

(١) الميزان ٢٠ : ٣٧ (نقلأً عن الأمثل ١٨ : ٤٩٩).

(٢) راجع البحوث ذات الصلة بالعناد واللجاجة في الأخلاق في القرآن ٢ : ٢١١ فما بعدها.

٥ . العلاقة بين التسبيح والتوبة

عند ما التفت أصحاب الجنة إلى خطأهم تابوا وبدعوا توبتهم بتسبيح الله ، كما ورد

في الآية : ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

كما نلحظ هذا المعنى في قصة يونس التي وردت في الآية ٨٧ من سورة الأنبياء ،

فunden ما أدرك أنه ترك الأولى تاب وقال :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فسبّح الله أولاً ثم تاب.

كما نلحظ هذا المعنى في قصة موسى عليه السلام الواردہ في الآية ١٤٣ من سورة

الأعراف.

سؤال : ما العلاقة بين تسبيح الله والتوبة والندم؟

الجواب : حقيقة المذنب كونه جاهلاً لبعض صفات الله ذات الصلة بذنبه أو أنه

تجاهلها وأنكرها عملياً ، فالسارق . مثلاً . يجهل صفة الرزق التي يتصرف بها الله أو أنه أنكرها

عملياً ، وعند ما يدرك خطأه يصحح اعتقاده في البداية فيسبّح الله وينزهه من كل عيب

ونقص ثم يبتئل بإصلاح أعماله وسلوكه ، ويغير ما سبق منه بالتوبة والعمل الصالح .

النتيجة : الذنب ينشأ عن عاملين ، الاول : الاعتقاد ، والثاني : السلوك والعمل ،

ولهذا يفرض بالتوبة أن تكون اعتقادية وسلوكية .

ابتلينا حالياً^(١) باختبارات مختلفة ، وما هي إلا نتيجة لأعمالنا واعتقاداتنا ، فالجفاف

بلغ مدنناً كانت محاصرة بالأنهار والمياه ، من قبيل اصفهان وعبادان ، وقد أعملت الحكومة

بعض القيود ونظام الحصص في اصفهان وغيرها من المدن مما سبب مشاكل للناس . هذا من

جانب ومن جانب آخر فان حرب الصحافة والاتهامات والافتراءات تستمر بلا هدف ،

وبعض الصحف استهدفت بحسارة جميع المقدسات ، يستحيي القلم من ذكر ولو نموذجاً

واحداً منها^(٢) .

(١) يقصد ايران صيف ١٣٧٩ هـ ، حيث ابتليت ايران بالجفاف مضافاً إلى تيارات فكرية مشبوهة .

(٢) اندرجت نماذج منها في رسالة مفتوحة وجهها مجموعة من فضلاء الحوزة ومدرسيها إلى وزارة الإرشاد ،

انعكس قسم منها في العدد ٣٥٦١ لصحيفة القدس ، الصادرة بتاريخ ١٧ / ٢ / ١٣٧٩ هـ ، والقسم الآخر

انعكس في مقال يحمل عنوان (پھلو به پھلو) أي جنباً جنباً ، كما سرد كتاب (آزادی یا توطّه) ، أي الحرية أم

المؤامرة ، كل ما ورد في الصحف

ومن جانب آخر كذلك فان مؤامرات الأعداء تزداد وتعقد يومياً ويزداد خطرها كل يوم. والأسوأ من ذلك الاختلاف والنزاعات الكلامية بين الأحزاب السياسية ، فقد بلغت مستوى أن نسوا أرباب الأحزاب مشاكل الناس إثرها.

أم تدعنا هذه الحوادث للإنابة إلى الله؟ أم يأن لنا أن نسبح الله ونترّهه ثم نتوب إليه لكي يتغمدنا بلطفه ورحمته وفيضه؟

اللهم ، اجعل البلاء الذي سببناه لأنفسنا عاملاً ليقظتنا ووعينا.

اللهم ، أرنا طريق الإنابة ووفقنا للتوبة.

التي سعت لإلقاء الشبهات في المجتمع ونقدها.

إلهي ، نعود بك من هذه الأفكار والكلمات ، فاحفظنا ومجتمعنا منها.

المثل الستون :

الموقف تجاه الكلام الحق

يقول الله في الآيات ٤٩ . ٥١ من سورة المدثر :

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضُينَ كَانُوكُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَأَتُمْ مِنْ قَسْوَرَةِ﴾

تصوير البحث

في هذه الآيات الثلاث ، التي تشكل آخر مثل من أمثال القرآن الجميلة ، شبهه الله جماعة الوثنيين المتعصبين والمعاندين المتهربين عن تذكرات القرآن والرسول بالحمر الفارأة من صوت الأسد.

الشرح والتفسير

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضُينَ﴾

بعد ما ينقل القرآن المجيد حوار أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم ، يطرح السؤال التالي : لماذا أعرض أصحاب الجحيم عن التذكريات في الدنيا؟

تكررت مفردة (تذكرة) تسعة مرات في القرآن ، واريد منها القرآن في جميع هذه الموارد ، أمّا مفردة (ذكر) ، التي هي من نفس المادة ، فتكررت خمسين مرة ، واريد منها القرآن المجيد كذلك في كثير من الموارد ، منها : الآية ٦ من سورة الحجر : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْكِتْبَ إِنَّكَ لِمَجْنُونٌ﴾ والقرآن هو الذي نُزِّلَ على الرسول ﷺ .

وباعتبار أن الرسول ﷺ جاء بالذكر والتذكرة (القرآن المجيد) سُمي مُذكراً ، فقد جاء في الآية ٢١ و ٢٢ من سورة العاشية :

﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

إذن ، القرآن المجيد ذكر ، والرسول مذكراً ، لكن من المؤسف أن بعضًا من العنودين والمعصبين لا يصغي إلى تذكريات الرسول ، بل يفرُّ منها.

﴿كَانُوكُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَأَتُ مِنْ قَسْوَةٍ﴾

الحُمُر جمع حمار ، وما أنها مطلقة فتشمل جميع ما يندرج تحت هذا الصنف من الحيوانات ، لكن المراد منه هنا ليس الحمار الأهلي الذي يستخدمه الإنسان لأداء أعماله بل المراد هو الحمار الوحشي ؛ وذلك للأمور التالية :

أولاً : الحمار الوحشي يخاف الأسد أكثر ويفرُّ منه ، وقيد **﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾** يفيد كون المراد الحمار الوحشي لا الأهلي .

ثانياً : الحديث في الآية عن الأسد والحمار ^(١) ، ومن الواضح أن هناك تناسباً أكثر بين الأسد والحمار الوحشي ، وبخاصة أن للأسد رغبة خاصة بصيد الحمار الوحشي ، والخوف يستولي على الحُمُر بمجرد أن تسمع صوته بحيث تفقد صوابها ولا تعلم إلى أين تتوجه ، ويتفرق الفضيل إلى جهات عديدة .

أحسن القرآن بيان كل شيء أراد بيانه واستخدم أرفع مستويات التعبير وأكملها فيه ، وفي هذه الآية رسم الله أكمل أنواع الفرار والهروب ، وذلك من وجوه فصاحة القرآن وبالغته .

لماذا يفرُّ الوثنيون من تذكريات الأنبياء؟ لماذا يفرون من الجنة المدعون لها باتجاه جهنّم؟ لماذا يتوجهون إلى الظلمات تاركين خلفهم النور؟

لماذا يتركون الأماكن الآمنة ويتجهون نحو أماكن خطرة يحتمل السقوط فيها؟

يزداد إعجاب الإنسان عند ما يفكّر بهذه الآيات وكذا روایات وردت في هذا المجال .

(١) اشتقت قصورة من مادة (قسر) وتعني القهر والغلبة ، وهي أحد أسماء الأسد ، وقيل : هو السهم ، وقيل : الصياد . ولكن المعنى الأولى هو الأنسب ، راجع الأمثل ١٩ : ١٧٣ .

كان عبدة الأصنام المتعصبون يفرون من نداء الحق بذرائع مختلفة ، وبعض منهم كان يجعل القطن في اذنيه لكي لا يسمع شيئاً من كلام الحق.

جاء أسعد بن زراة (من كفار المدينة) يوماً إلى مكة لتهيئة بعض وسائل الحرب وحالات أخرى ، فشاهد جنوب باب المسجد الحرام واحداً من كفار مكة بيده كيس من القطن يدعو كل من أراد دخول المسجد أن يجعل قطناً في اذنيه.

سأله أسعد عن سبب ذلك ، فقال له : هناك ساحر حنب الكعبة يدعى محمد يسحر الناس بكلماته ، والقطن يحول دون تأثير سحره على الناس ... ^(١).

وكان بعض آخر منهم يجعل أصابعه في اذنيه لكي لا يسمع شيئاً من كلام الحق الجذاب الذي يتغوه به الأنبياء ، بل كان البعض لا يكتفي بذلك ويجعل ثيابه فوق رأسه لكي لا تقر اذنيه ولو كلمة من كلمات الحق.

في هذا المجال خاطب نوح ربه قائلاً :

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ^(٢).

وبعض آخر كان يأمر غلمانه ومن تحت يديه أن يحدث ضوضاء بالصراخ والصفير والتصفيق عند تلاوة القرآن لكي يحولوا دون سماع نغمات القرآن الجميلة.

يقول الله في الآية ٢٦ من سورة فصلت :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

خلاصة الكلام : أن المشركين والوثنيين كانوا يحولون دون بلوغ صوت الحق أسماع الناس ، ويستخدمون لهذا الغرض أساليب مختلفة.

أسأل تارة أخرى :

لماذا كانوا يفرون من تذكريات الأنبياء والرسول؟

(١) تقدم تفصيل القصة في تحليلنا لأمثال القرآن في بداية الكتاب.

(٢) نوح : ٧.

لماذا كانوا أعداءً لسعادكم وهدایتهم ونجاتهم؟

جواب هذه الأسئلة ينحصر في أربع جمل : العناد ، والحمامة ، والتعصّب الذي في غير موضعه ، والجهل.

نعم ، هذه الأمور تحول دون سماع صوت الحق وتؤدي إلى فرار الإنسان وهرويه من الحق.

اللهم ، وفقنا لترك هذه الرذائل الأربع ، لكي نقبل نداءك الحق بكل وجودنا.

خطابات الآية

١ . القرآن ذكر والرسول مذكور

سؤال : لماذا اطلق على القرآن (ذكر) و (تذكرة) وعلى الرسول ﷺ (مذكور)؟ وما السر في هذا التعبير؟

الجواب : هذه التعبيرات تستبطن نقطتين مهمتين ، هما مصادر معارف عليا.

النقطة الأولى : مما يمكن استفادته من الآية التي هي موضع بحثنا وكذا آيات وروايات أخرى كون التذكير إحدى مهام الأنبياء ووظائفهم. وهذا يعني أن فطرة الإنسان الطاهرة مجبرة على الإيمان وتعاليم الأنبياء ﴿فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١) ، لا فيما يخص أصول الدين فحسب بل وكذا فروعه ، والفطرة بأعماقها تستبطن هذه التعاليم الفريعة. بناءً على ذلك تكون وظيفة الأنبياء هي التذكير بهذه المعرفة والقضايا الفطرية ، لكي لا ينساها البشر ، بل يبقى واعياً متذكراً لها وموحداً في فكره وسلوكه ، ومعتقداً بالمعاد والحياة بعد الموت ، ومتداعياً في ذهنه ما استبطنته الفطرة بأعماقها من مفاهيم من قبيل : العدالة والتقوى.

أوضح الإمام علي عليه السلام في الخطبة الأولى من (نوح البلاغة) وظيفة الأنبياء ببيان جليل جداً ، وقال في الإجابة عن سبب بعثة الأنبياء :

(١) الروم : ٣٠

«ليستأدوهم ميثاق فطرته ويدّركوهم منسيّ نعمته ويختجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ...».

للبعثة أهداف مختلفة :

الاول : مطالبة البشر بأداء ميثاق الفطرة. ومن هذه العبارة يستفاد أن الله أبرم مع فطرة البشر عهداً ، وعلى الانسان أن يؤديه في حياته ، وقد يكون العهد الذي أشارت إليه الآية ١٧٢ من سورة الأعراف هو هذا.

الثاني : تذكيرهم بما نسوه من نعم الله ، فهو نوع تذكير ، ولو بحث الانسان عن تلك النعم لوحدها في أعماق وجوده ، لكنه نساحاً ؛ لأنّه غرق في الماديات ، ومن خواص عالم المادة أنه ينسى ، فالدنيا تُغفل الانسان وتنسيه.

الثالث : أن يتمّوا عليهم الحجة عن طريق البراهين العقلية ، مضافاً إلى القضايا الفطرية ، وبذلك يلّغون الانسان تعليم السماء.

الرابع : أن يكتشفوا الأرضيات والحوافر المستودعة في فطرة الانسان وعقله ويستخرجوها.

الرسول بمثابة المزارع الذي لا يخلق البذر بل يزرعها ويهيئ الأرضية اللازمة لنموّها ، والأنبياء بتذكيرهم بالتعاليم التي تستبطنها فطرة الانسان يسعون في نموّها وازدهارها.

هناك شواهد من الآيات والروايات على هذا الكلام ، منها ما ورد عن الرسول ﷺ قوله : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»^(١) ، أي أن الجميع يتمتع بوجود ذي قيمة ينبغي استخراجه بإشراف الخبر.

إذن ، النقطة الاولى التي استبطنها هذه التعبير هي كون اصول الدين وفروعه متجلّدة في فطرتنا ، وما يقوم به الأنبياء هو التذكير بها.

النقطة الثانية : هي ما ورد في الآية ٢٦ من سورة الغاشية ، من أن التذكير هو الوظيفة الوحيدة للأنبياء ، ولا سلطة على أكثر من ذلك ، وبعبارة أخرى : الدين غير اجباري ، فهم

(١) بخار الأنوار ٥٨ : ٦٥ ، الحديث ٥١.

يذكرون الناس بالمعارف الالهية ولا يمكنهم أن يجبروهم على قبول الدين ، والدين من شؤون الناس ذاتهم قبلوه أم لم يقبلوه.

لم يجبر الرسول المشركين على قبول الدين ، بل دعاهم إليه ، وتركهم يقررون ما يشاورون ، والنتيجة هي أن بعضاً منهم ما استعدَ حتى للإصغاء إلى كلامه.

٢ . ينبغي الإصغاء لنداء الحق

خطاب الآية الثاني هو ضرورة الإصغاء لنداء الحق من أي شخص صدر ، حتى لو كان طفلاً وأصغر من الصاغي بل حتى لو كان عدواً ، فينبغي الإصغاء للحق والانصياع له دائماً ومن أيّ صدر.

٣ . عوامل التذكرة

آيات القرآن وكلمات الأنبياء ليست الوحيدة التي تذكر الإنسان ، بل جميع الحوادث التي تحصل للإنسان تعدُّ عوامل للتذكرة ، فالكوارث والمحفاف والأمراض والزلزال والسيول وما شابه ، كلها عوامل تساعد على التذكرة.

لكل معلول علة ينبغي البحث عنها ومعرفتها للاعتبار منها ، والتجربة تشتت وتدعى الإنسان لأن يبحث عن علة كل ما واجه من مشاكل ولو كانت من قبيل حرج بسيط ، خوفاً من أن يكون نتيجة لحرج لسان أو سوء أدب صدر منه.

الخلاصة : لا يحدث شيء من لا شيء ، بالطبع هذه الحوادث بحد ذاتها ألطاف إلهية ، وبمثابة السوط الذي يوقظ الإنسان إذا ما جُلد به ، وبمثابة الغرامة التي تمنع من حصول الجريمة مقبلاً.

إلهي ، نسألك بعظمة القرآن المجيد ، هذه التذكرة العظمى ، وبحرمة المذكور أن يجعلنا يقطرين نعي ونتذكرة دائماً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

٧	المقدمة
تحليل لأمثال القرآن	
١١	أهمية القرآن وشهر رمضان
١٢	علاقة شهر رمضان المبارك بالقرآن
١٢	موضوع البحث
١٣	الأمثال العملية واللسانية
١٣	١ . عندما تتراءكم الذنوب الصغيرة
١٤	٢ . ترسيم نار جهنم
١٥	المهدف من الأمثال من لسان القرآن
١٦	أهمية خطاب المثل
١٦	تأمل في الآية
١٧	الشرح والتفسير
١٩	خطأ المنافقين
٢٠	جاذبية القرآن وانقاد المسلمين
٢١	نموذج آخر لتأثير القرآن
٢١	خطابات الآية
٢١	١ . البعوضة ليست حيواناً حقيراً!
٢٢	٢ . حجابان عظيمان : كثرة النعم والتعود عليها
٢٢	٣ . المداية والضلال في القرآن
٢٢	معنى المداية والضلال

المثل الأول: المنافقون

٢٥	تصوير البحث ..
٢٥	الشرح والتفسير.....
٢٥	دُوّن تفسيران للأية الشريفة:
٢٧	خطابات الآية
٢٧	١ . أقسام المنافقين.....
٢٧	٢ . صور التفاق.....
٢٧	٣ . علائم التفاق.....
٢٨	٤ . نبذة من تاريخ المنافقين.....
٢٨	المنافقون في القرآن.....
٢٩	خطر المنافقين من وجهة نظر رسول الإسلام(صلى الله عليه وآلـه).....
٣٠	٥ . التعبير بـ (النار) في القرآن.....
٣٠	٦ . النور والظلمات.....
٣١	٧ . خصال المنافقين الثلاث.....
٣٢	٨ . منشاً (التفاق).....
٣٢	للتفاق ثلاثة مناشئ:

المثل الثاني: تمثيل آخر للمنافقين

٣٧	تنوع أمثال القرآن.....
٣٩	الشرح والتفسير.....
٤٠	خطابات الآية
٤٠	١ . كيفية ايجاد البرق والرعد والصاعقة.....
٤١	٢ . الاختلاف بين المثلين.....
٤٢	٣ . عالم التفاق أو التفاق العالمي.....
٤٣	٤ . ظهور المنافقين في الإسلام.....
٤٣	مراحل جهاد الرسول لادعاء الإسلام.....
٤٣	المرحلة الاولى: الاستهزاء والاستخفاف بالدين
٤٤	المرحلة الثانية: نسبة السحر والشعر للرسول(صلى الله عليه وآلـه).....

٤٥.....	المرحلة الثالثة: المحاصرة الاقتصادية وقطع العلاقات
٤٥.....	المرحلة الرابعة: التدبير لاغتيال الرسول(صلى الله عليه وآله).....
٤٦.....	المرحلة الخامسة: الحروب المتواتلة ضد المسلمين.....
٤٧.....	المرحلة السادسة، اللجوء إلى اخطر سلاح (النفاق)
٤٨.....	نتائج الأمثال
٥٠	سعيد بن جبیر عند الموت

المثل الثالث: قسوة القلب

٥٢.....	قصة بقرة بنى اسرائيل
٥٣.....	الشرح والتفسير.....
٥٤.....	القلب الصناعي مرآة لعظمة قلب الإنسان
٥٧.....	تسبيح الموجودات جميعاً.....
٥٧.....	القسوة.....
٥٩.....	العلم والعاطفة وجه تمایز الإنسان عن الحيوان.....
٥٩.....	دنيا دون عاطفة.....
٦٠.....	الدين أو المذهب يقویان العاطفة.....
٦١.....	عوامل القسوة في القرآن.....
٦٢.....	القسوة في الروايات الاسلامية.....

المثل الرابع: الكفار

٦٨.....	الشرح والتفسير.....
٦٩.....	خطابات الآية ..
٧٠.....	التقليد في القرآن ..
٧٠.....	أقسام التقليد ..

المثل الخامس: الإنفاق

٧٣.....	تصوير البحث ..
٧٤.....	طرق علاج الفقر.....
٧٥.....	علاجات الإسلام ..
٧٥	الإنفاق طريق لرفع الفقر ..

خطابات الآية ٧٦	خطابات الآية ٧٦
١ . المراد من (في سبيل الله) ٧٦	١ . المراد من (في سبيل الله) ٧٦
الأول: صندوق إعانة عوائل السجناء ٧٧	الأول: صندوق إعانة عوائل السجناء ٧٧
الثاني: جمعية اعانة مرضى الكلية ٧٨	الثاني: جمعية اعانة مرضى الكلية ٧٨
٢ . المراد من «الحبة» في الآية الشريفة ٧٨	٢ . المراد من «الحبة» في الآية الشريفة ٧٨
٣ . المراد من (يضاعف) في الآية الشريفة ٧٩	٣ . المراد من (يضاعف) في الآية الشريفة ٧٩
أرفع نموذج للإنفاق في القرآن ٧٩	أرفع نموذج للإنفاق في القرآن ٧٩
٤ . دراسة المشبه في آية الإنفاق ٨٢	٤ . دراسة المشبه في آية الإنفاق ٨٢
نحو المال المنفق في كلام الرسول(صلى الله عليه وآله) ٨٤	نحو المال المنفق في كلام الرسول(صلى الله عليه وآله) ٨٤
(الإنفاق) في تعبير القرآن الجميلة ٨٥	(الإنفاق) في تعبير القرآن الجميلة ٨٥
المثل السادس: الإنفاق مع المن والأذى	
الشرح والتفسير ٨٧	الشرح والتفسير ٨٧
خطابات الآية ٧٩	خطابات الآية ٧٩
سيرة الائمة في الإنفاق والبذل ٩١	سيرة الائمة في الإنفاق والبذل ٩١
الصدقة تدفع ميزة السوء ٩٢	الصدقة تدفع ميزة السوء ٩٢
المثل السابع: الإنفاق اللاقى	
الشرح والتفسير ٩٥	الشرح والتفسير ٩٥
خطابات الآية ٩٦	خطابات الآية ٩٦
طرق الإنفاق وإعانة الآخرين ٩٩	طرق الإنفاق وإعانة الآخرين ٩٩
ما أحسن السعادة التي ينالها الإنسان ١٠١	ما أحسن السعادة التي ينالها الإنسان ١٠١
آداب الإنفاق ١٠٢	آداب الإنفاق ١٠٢
١ . الإنفاق مما تحبون ١٠٢	١ . الإنفاق مما تحبون ١٠٢
٢ . الإنفاق في غاية الأدب ١٠٣	٢ . الإنفاق في غاية الأدب ١٠٣
٣ . التعجيل في دفع الصدقة ١٠٤	٣ . التعجيل في دفع الصدقة ١٠٤
٤ . صدقات السر والعلانية ١٠٥	٤ . صدقات السر والعلانية ١٠٥
٥ . الأولوية للمساكين المستربين ١٠٥	٥ . الأولوية للمساكين المستربين ١٠٥

المثل الثامن: عاقبة الأمور	
١٠٧ تصوير البحث	
١٠٧ الشرح والتفسير	
١١٠ إن السوء كان عاقبة هذا الشخص	
١١١ خطابات آية المثل هي الاحباط والتکفير	
١١٢ الاستدلال على وجود الاحباط والتکفير	
المثل التاسع: أكل الربا	
١١٣ تصوير البحث	
١١٣ علاقة الآية بما قبلها	
١١٤ الشرح والتفسير	
١١٦ خطابات الآية	
١١٦ عقاب آكلي الربا في الدنيا والآخرة	
١١٦ نسبة الجنون إلى الشيطان	
١١٧ التناسب بين الجنابة والعقاب	
١١٧ فلسفة تحريم الربا	
١١٨ الإرتباط بين الإلحاد والاقتصاد في الإسلام	
١٢٠ الأسوة في القيم الأخلاقية	
١٢٢ علي(عليه السلام) والمدرية الليلية	
١٢٣ البحوث التكميلية للآية	
١٢٣ ١ . أكل الربا في عصرنا	
١٢٤ ٢ . النشاط المتصري الاربوي هل هو ممكن؟	
١٢٥ ٣ . حكم الادعاءات والسلف	
١٢٦ ٤ . آيات أخرى عن الربا	
١٢٦ شأن نزول الآية	
المثل العاشر: الحَلْقُ المَدْهَشُ لِعِيسَى بْنِ مُرِيمٍ (عليه السلام)	
١٢٩ الشرح والتفسير	
١٣٠ قدرة الله في كلام أمير المؤمنين(عليه السلام)	

١٢١	قصة خلق الإنسان
١٢٢	الاختلاف بين (الفرضية) و (القانون)
١٢٢	رأي القرآن في خلق الإنسان.....

المثل الحادي عشر: إنفاق الكفار

١٢٣	تصوير البحث ..
١٢٣	الشرح والتفسير.....
١٢٤	خطابات الآية ..
١٢٤	١ . المراد من الإنفاق في آية المثل.....
١٢٥	٢ . الإنقاص من كافر النعمة.....
١٢٧	٣ . فلسفة الكوارث الطبيعية.....
١٢٨	اعتبروا.....

المثل الثاني عشر: الكفر والإيمان

١٤١	تصوير البحث ..
١٤١	شأن نزول الآية ..
١٤٢	ما هي الحياة؟.....
١٤٣	أقسام الحياة ..
١٤٤	المراد من الحياة في آية المثل
١٤٤	لماذا عَدَّ عرب الجاهلية أمواتاً؟.....
١٤٦	آثار النور وبركاته ..
١٤٦	نور الفرقان
١٤٧	التقوى ثمرة الصوم والفرقان ثمرة التقوى
١٤٧	الأعمال القبيحة تبدو حسنة في نظر الكفار.....

المثل الثالث عشر: شرح الصدر

١٤٩	تصوير البحث ..
١٤٩	الشرح والتفسير.....
١٥٠	خطابات الآية ..
١٥٠	١ . المداية والضلال بيد الله.....

٢ . الاعجاز العلمي للقرآن في آية المثل ١٥١
٣ . شرح الصدر ١٥٢
الرسول (صلى الله عليه وآلـه) وجاره اليهودي ١٥٣

المثل الرابع عشر: المبدأ والمعاد

تصویر البحث ١٥٥
أهمية المبدأ والمعاد ١٥٥
المعاد الجسماني والمعاد الروحاني ١٥٦
الشرح والتفسير ١٥٨
فواكه مختلفة من ماء وهواء وتراب واحد ١٥٩
آثار المعاد ١٦٠

المثل الخامس عشر: البلد الطيب

تصویر البحث ١٦١
إشارة للمثل السابق ١٦١
الشرح والتفسير ١٦٢
لمن هذا المثل؟ ١٦٣
خطابات الآية ١٦٣
١ . فاعلية الفاعل وقابلية القابل كلاهما ضروريان ١٦٣
٢ . مردودات القرآن والوحى على الكافر عكسية ١٦٤
الناس ثلاثة أصناف ١٦٥
الفاعلية اكتسابية أم حبرية؟ ١٦٦

المثل السادس عشر: العالم المنحرف

تصویر البحث ١٦٩
شأن نزول الآية ١٦٩
الشرح والتفسير ١٧٠
خطابات الآية ١٧٢
خطر العلماء المنحرفين ١٧٢
عالم الدين من وجهة نظر الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) ١٧٤

المثل السابع عشر: مسجد ضرار

١٧٧	تصوير البحث ..
١٧٧	شأن النزول ..
١٧٨	الشرح والتفسير ..
١٧٩	أبو عامر النصراوي العدو اللدود للإسلام ..
١٧٩	الأمر بتحريم مسجد ضرار ..
١٨٠	خطابات الآية ..

المثل الثامن عشر: الدنيا العابرة

١٨٣	تصوير البحث ..
١٨٣	الشرح والتفسير ..
١٨٦	فلسففة المثل ..
١٨٦	تفسير وتطبيق للمثل المذكور ..
١٨٧	خطابات الآية ..
١٨٧	١ . معرفة الله ..
١٨٨	٢ . كل ما في الكون مخلوق على أساس من النظم ..
١٨٨	٣ . قد تتبدل النعمة إلى نعمة ..
١٨٨	٤ . إذا جرى الماء كان سلماً وهنيئاً وذا طعم لذيد ..
١٨٩	٥ . بعض النباتات سامة رغم جمالها ..

المثل التاسع عشر: الكافر والمؤمن

١٩١	تصوير البحث ..
١٩١	إشارة إلى الآيات ما قبل آية المثل ..
١٩١	سيرة الكافرين ..
١٩٢	سيرة المؤمنين ..
١٩٣	الشرح والتفسير ..
١٩٣	العين من أعظم آيات الله ..
١٩٤	الأذن آية الله الأخرى ..
١٩٥	العين والأذن وسبيلتان مهمتان للمعرفة ..

١٩٦	الكافر يفتقد وسائل المعرفة
١٩٦	لماذا كان الكافر أعمى وأصم؟
١٩٦	كيف يمكن إزالة الحجب؟
١٩٧	علامات المؤمن

المثل العشرون: الذين يدعون من دون الله

١٩٩	تصوير البحث
٢٠٠	البرق والسحب الشّقال
٢٠٠	كيف يسبب البرق نزول المطر؟
٢٠١	الرعد دليل على عظمة الله
٢٠٢	الشرح والتفسير
٢٠٤	خطابات الآية
٢٠٤	١ . هل التوسل بالمعصومين (عليهم السلام) شرك؟
٢٠٥	٢ . الصور المختلفة لعبادة الأصنام
٢٠٧	الدعاء من وجهة نظر القرآن والروايات
٢٠٧	الدعاء أفضل عبادة
٢٠٩	الدعاء في الروايات
٢١٠	سر الدعاء في الإسلام
٢١٠	العلاقة بين الدعاء والتربية
٢١٣	موانع وشروط استجابة الدعاء
٢١٤	١ . عدم معرفة الله أهم مانع عن الاستجابة
٢١٥	٢ . النية الصادقة والقلب المخلص
٢١٥	٣ . الأكل الحلال شرط مهم وصعب لاجابة الدعاء
٢١٧	٤ . حضور القلب
٢١٨	استجابة بعض الأدعية ليست بمصلحة الإنسان!
٢١٩	سؤالان مهمان عن الدعاء
المثل الحادي والعشرون: الحق والباطل	
٢٢١	تصوير البحث

٢٢١	الشرح والتفسير.....
٢٢٢	خطابات الآية
٢٢٣	١ . تعريف الحق والباطل
٢٢٣	٢ . علائم الحق والباطل.....
٢٢٤	٣ . سعة الحق والباطل
٢٢٤	٤ . عاقبة المواجهة بين الحق والباطل.....
٢٢٤	٥ . المواجهة بين الحق والباطل دائمة.....
٢٢٥	٦ . كيفية تبلور الباطل
٢٢٦	الحق والباطل من وجهة نظر الآيات والروايات
٢٢٦	ما هي مصاديق الحق؟
٢٢٧	جولة الباطل ودولة الحق.....
٢٢٧	كن مع الحق دائماً
٢٢٨	الحق مرُّ والباطل حلُّ.....
٢٢٨	الباطل يتقمص قميص الحق دائماً.....
٢٢٩	عليٰ(عليه السلام) محور الحق

المثل الثاني والعشرون: التقوى جواز دخول الجنة

٢٣١	تصوير البحث
٢٣١	الشرح والتفسير.....
٢٣١	المراحل الأربع قبل الولادة.....
٢٣٢	عجائب من عالم الجنين
٢٣٣	مراحل كمال الإنسان الأربع
٢٣٥	إيضاح
٢٣٥	الخطابات المهمة للاية

المثل الثالث والعشرون: أعمال الكفار

٢٣٧	تصوير البحث
٢٣٧	ارتباط آية المثل بسابقاتها
٢٣٨	الشرح والتفسير.....

٢٣٩	فوائد الرماد
٢٣٩	خطابات الآية
٢٣٩	١ . اليمان شرط صحة الأعمال
٢٤٢	٢ . الدوافع المعنوية لغير المؤمنين
٢٤٣	الاحباط في القرآن
٢٤٤	الجحط في عالم الطبيعة
المثل الرابع والعشرون والخامس والعشرون:	
الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة	
٢٤٧	تصوير البحث
٢٤٧	ارتباط آيات المثل بسابقاتها
٢٤٨	الشرح والتفسير
٢٥٠	نقطة مهمة في مجال المعرفة
٢٥١	ما هي (الكلمة الطيبة)؟
٢٥٣	كلمة طيبة من الإمام الحسن البصري (عليه السلام)
المثل السادس والعشرون: لله المثل الأعلى	
٢٥٥	تصوير البحث
٢٥٥	التفسير الأول
٢٥٦	التفسير الثاني
٢٥٨	ارتباط آية المثل بسابقتها
٢٥٨	لماذا كان عرب الجاهلية يعدون بناتهم؟
٢٥٩	البنت كشدة الورد
المثل السابع والعشرون: عبيد الأصنام وعبد الله	
٢٦١	تصوير البحث
٢٦١	ارتباط آية المثل بسابقاتها
٢٦١	د الواقع العبادة
٢٦٣	الشرح والتفسير
٢٦٣	خطابات الآية

١ . العبيد في الإسلام.....	٢٦٣
٢ . العبودية المتطورة.....	٢٦٥
يوسف(عليه السلام) إنسان حر علي(عليه السلام) حر آخر	٢٦٦ ٢٦٧
المثل الثامن والعشرون: المؤمن والمشرك	
تصوير البحث ..	٢٦٩
الشرح والتفسير.....	٢٦٩
خطاب الآية.....	٢٧١
الشرك وعبادة الأصنام في القرن العشرين	٢٧١
المثل التاسع والعشرون: حديث العهد بالإسلام	
تصوير البحث ..	٢٧٥
الشرح والتفسير.....	٢٧٥
خطابات الآية ..	٢٧٦
أهمية الوفاء بالعهد.....	٢٧٨
المثل الثلاثون: كفران النعمة	
تصوير البحث ..	٢٧٩
الشرح والتفسير.....	٢٧٩
خطابات الآية ..	٢٨٢
١ . العذاب والبؤس نتيجتان لأعمالنا.....	٢٨٢
٢ . هل كان وجود خارجي لهذه القرية؟.....	٢٨٣
المثل الحادي والثلاثون: أمثال الكفار	
تصوير البحث ..	٢٨٧
الشرح والتفسير.....	٢٨٧
ما هو الحجاب المستور؟ ..	٢٨٧
ما تعني المسحور؟ ..	٢٨٩
أسلحة الجاحدين.....	٢٨٩
الحقائق المستبطنة في الاتهامات.....	٢٩٠

٢٩١	لماذا نسبوا إليه الشعر؟
٢٩٢	خطاب الآيات التربوي.....
المثل الثاني والثلاثون: المستكبرون والمستضعفون	
٢٩٣	تصوير البحث
٢٩٤	علاقة آيات المثل بسابقاتها
٢٩٤	تحطيم القيم الكاذبة من أهداف الأنبياء
٢٩٦	الشرح والتفسير.....
٢٩٨	طريقان لمعالجة الغرور
٢٩٩	عاقبة الإنسان المغور
٣٠٢	اعتبروا.....
٣٠٣	خطابات الآية
٣٠٣	١ . زمن تأثير التوبة.....
٣٠٥	٢ . لا قيمة للدنيا
٣٠٦	قصة بطل
٣٠٦	المطبخ السلطاني.....
٣٠٧	٣ . التدقيق في اختيار الصديق.....
٣٠٩	٤ . من هو ولی المؤمنين؟
المثل الثالث والثلاثون: الحياة الدنيا	
٣١١	تصوير البحث
٣١١	الشرح والتفسير.....
٣١٣	بأي شيء شبّهت الحياة الدنيا؟.....
٣١٤	اختلاف هذه الآية مع الآية ٢٤ من سورة يونس
٣١٥	خطابات الآية
٣١٥	١ . تنوع النباتات من معاًم القدرة الإلهية.....
٣١٦	٢ . ما هي الباقيات الصالحات؟.....
٣١٨	مباحثات تكميلية.....
٣١٨	١ . ماهي الحياة الدنيا؟

٣١٩	٢ . الدنيا من وجهة نظر الروايات
٣٢٣	٣ . ما سبب ذم الروايات الدنيا؟
٣٢٣	تحليل الروايات

المثل الرابع والثلاثون: تنوع أمثال القرآن

٣٢٥	تصوير البحث
٣٢٥	هل هذه الآية من أمثال القرآن؟
٣٢٦	الشرح والتفسير
٣٢٧	ماذا يعني الجدل؟
٣٢٨	خطابات الآية
٣٢٨	١ . تنوع أمثال القرآن
٣٣٠	٢ . مع الجدال

المثل الخامس والثلاثون: التوحيد والشرك

٣٣٣	تصوير البحث
٣٣٣	الشرح والتفسير
٣٣٤	خطابات الآية
٣٣٤	١ . ما المراد من الطيور؟
٣٣٤	٢ . ما المراد من الريح
٣٣٥	٣ . لا هدوء للمسرك
٣٣٦	٤ . لا إرادة للمسرك
٣٣٦	أهمية التوحيد

المثل السادس والثلاثون: عبادة الأصنام

٣٤١	تصوير البحث
٣٤١	ماهية عبادة الأصنام
٣٤٣	أساليب مواجهة عبادة الأصنام
٣٤٥	الشرح والتفسير
٣٤٦	١ . هل هناك تشبيه في آية المثل؟
٣٤٧	٢ . هل الذباب موجود حقير؟

جسر نحو التوحيد في شهر التوحيد.....	٣٤٨
المثل السابع والثلاثون: ذات الله لا مثيل لها	
تصوير البحث	٣٤٩
الآية تشتمل على مثلين.....	٣٤٩
هل يجوز التمثيل لذات الله؟.....	٣٥٠
الشرح والتفسير.....	٣٥١
١ . الهدایة.....	٣٥١
٢ . التربية والنمو	٣٥٢
٣ . إيجاد القدرة والحركة	٣٥٢
٤ . رفع موانع الحياة.....	٣٥٣
الأشياء التي شبّهت بالنور	٣٥٦
السراج في التاريخ.....	٣٥٧
الشرح والتفسير.....	٣٥٨
خطابات الآية	٣٥٩
١ . ما المراد من نور الله؟	٣٥٩
٢ . (بَهْدِي اللَّهُ نُورٌ مَنْ يَشَاءُ) ماذا تعني؟.....	٣٦٠
كيف يقوى إيماننا؟.....	٣٦٢
مباحث تكميلية.....	٣٦٤
تفاصيل متباعدة لآية واحدة!	٣٦٤
الف: التفسير الفلسفی.....	٣٦٥
باء: التفسير الروائي.....	٣٦٦
المثل الثامن والثلاثون: سراب الحياة	
تصوير البحث	٣٦٩
الشرح والتفسير.....	٣٦٩
خطابات الآية	٣٧٢
١ . المثل لدنيا الكافرين أم لأحراهم؟.....	٣٧٢
٢ . الاسلام دين النوعية لا الكمية	٣٧٤

المثل التاسع والثلاثون: أعمال المشركين

٣٧٥	تصوير البحث
٣٧٥	الشرح والتفسير.....
٣٧٧	خطابات الآية
٣٧٧	١ . أعمال الكافرين فقط، لماذا؟.....
٣٧٧	٢ . (ظلماتٌ بعضها فوق بعض) إلى أي شيء تشير؟.....
٣٧٨	٣ . الجبر أم الاختيار؟.....
٣٧٩	مباحث تكميلية.....
٣٧٩	١ . مظاهر من نور الإيمان.....
٣٨١	٢ . علامة الإيمان.....

المثل الأربعون: الأضل سبيلاً

٣٨٣	تصوير البحث
٣٨٣	الشرح والتفسير.....
٣٨٧	لماذا شبّه الكفار بالحيوانات؟.....
٣٨٩	خطاب الآية.....
٣٨٩	العزّة في ظل الإيمان.....

المثل الحادي والأربعون: اتَّخذُوا أُولِياءً من دون الله

٣٩١	تصوير البحث
٣٩١	أهمية التوحيد.....
٣٩٢	الشرح والتفسير.....
٣٩٣	خطابات الآية
٣٩٣	١ . أصنام جديدة.....
٣٩٣	٢ . بيت العنكبوت من آيات الله العظمى.....
٣٩٥	٣ . فلسفة التمثيل بحيوان ضعيف
٣٩٥	٤ . قيمة العلم
٣٩٦	مباحث تكميلية.....
٣٩٦	١ . لنعتبر من التاريخ.....

٣٩٦	خلاصة قصة قوم سباً
٣٩٧	٢ . أليس الاتكال على غير الله اتكال على بيت العنكبوت؟
	المثل الثاني والأربعون: توحيد المالك
٣٩٩	تصوير البحث ..
٣٩٩	فروع التوحيد.....
٤٠٠	١ . توحيد الذات.....
٤٠٠	٢ . توحيد الصفات.....
٤٠٠	٣ . التوحيد في الأفعال.....
٤٠١	٤ . التوحيد في الحاكمة.....
٤٠٢	٥ . توحيد المالك.....
٤٠٢	الشرح والتفسير.....
٤٠٤	خطابات الآية ..
٤٠٥	بحث تكميلي
٤٠٥	الرق من وجهة نظر الاسلام.....
	المثل الثالث والأربعون:
	انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة
٤٠٩	تصوير البحث ..
٤١٠	الشرح والتفسير.....
٤١٣	خطابات الآيات
٤١٣	١ . لا تخافوا قلّة عدكم.....
٤١٤	٢ . الاتحاد سرّ الانتصار
٤١٤	٣ . التخطيط في التبليغ
	المثل الرابع والأربعون: الشرك والتوحيد
٤١٥	تصوير البحث ..
٤١٥	التوحيد أساس الأصول والفروع
٤١٧	الشرح والتفسير.....
٤١٩	خطابات الآية ..

١ . وحدة مصدر القرارات.....	٤١٩
٢ . علي (عليه السلام) مصدق كامل لآية المثل	٤١٩
المثل الخامس والأربعون: المسيح عيسى (عليه السلام)	
تصوير البحث	٤٢٣
معنى (المثل) في استخدامات القرآن	٤٢٣
هل آية هذا البحث مثل قرآنی؟.....	٤٢٥
التفسير الأول.....	٤٢٥
التفسير الثاني	٤٢٦
التفسير الثالث	٤٢٦
خطابات الآية	٤٢٦
الضجيج من معلم الجاهلية.....	٤٢٦
المثل السادس والأربعون: الصحابة	
تصوير البحث	٤٢٩
شأن نزول الآية	٤٢٩
أوصاف أصحاب الرسول في التوراة.....	٤٣٢
علي (عليه السلام) نموذج كامل للصفات الخمس	٤٣٤
مثل أصحاب الرسول في الإنجيل	٤٣٥
خطابات الآية	٤٣٧
١ . الاسلام دين عالمي.....	٤٣٧
٢ . المثل لا يشمل جميع أصحاب الرسول	٤٣٩
المثل السابع والأربعون: الغيبة	
تصوير البحث	٤٤١
تعريف محمّل بسورة الحجرات.....	٤٤١
الشرح والتفسير.....	٤٤٢
خطاب الآية.....	٤٤٥
الغيبة قبيحة للغاية.....	٤٤٥
مباحث تكميلية.....	٤٤٦

٤٤٦	١ . عاقبة الذي يستغيب
٤٤٧	٢ . لا نخدع أنفسنا
٤٤٧	٣ . إضفاء صفة القدسية على الغيبة

المثل الثامن والأربعون: قرب الله من الانسان

٤٤٩	تصوير البحث
٤٤٩	إلقاء نظرة على الآيات السابقة للمثل
٤٥٣	الشرح والتفسير
٤٥٣	خطاب الآية
٤٥٣	آثار اليمان بقرب الله
٤٥٣	مباحث تكميلية
٤٥٣	١ . أمثال أخرى لقرب الله من الانسان
٤٥٤	٢ . حديث للإمام الكاظم (عليه السلام)

المثل التاسع والأربعون: مثل آخر للحياة الدنيا

٤٥٥	تصوير البحث
٤٥٥	الشرح والتفسير
٤٥٨	خطابات الآية
٤٥٨	١ . الدنيا خادعة وفانية
٤٥٩	٢ . المدف من الخلق

المثل الخمسون والحادي والخمسون : اليهود

٤٦١	تصوير البحث
٤٦١	تاريخ اليهود في المدينة
٤٦٢	شأن نزول الآيات
٤٦٢	الشرح والتفسير
٤٦٥	خطابات الآية
٤٦٥	١ . أعداء الاسلام ضعفاء
٤٦٦	٢ . الجهل سبب الاختلاف
٤٦٦	٣ . الوثوق بالمنافقين خطأ

٤ . تاريخ المتقدّمين يضيء الطريق للمتأخرين ٤٦٧

٥ . خطى الشيطان والمنافقين واحدة ٤٦٧

المثل الثاني والخمسون: جاذبية القرآن المتميّزة

تصویر البحث ٤٦٩

جاذبية القرآن العجيبة ٤٦٩

الشرح والتفسير ٤٧٠

خطاب الآية ٤٧٢

هيبة القرآن وعظمته ٤٧٢

المثل الثالث والخمسون: علماء بلا عمل

تصویر البحث ٤٧٣

شأن النزول ٤٧٣

الشرح والتفسير ٤٧٤

خطابات الآية ٤٧٥

١ . المثل عام ٤٧٥

٢ . لماذا الحمار؟ ٤٧٥

٣ . سبب التعبير بالأسفار لا الكتب ٤٧٦

٤ . الهدایة تستدعي قابلية ٤٧٦

٥ . الآية شاملة لكل عالم غير عامل ٤٧٧

العلماء غير العاملين في الروايات ٤٧٧

المثل الرابع والخمسون: من خصائص المنافقين

تصویر البحث ٤٧٩

أوصاف المنافقين ٤٧٩

الشرح والتفسير ٤٨٠

خطاب الآية ٤٨٣

معيار النفاق ٤٨٣

مباحث تكميلية ٤٨٣

١ . مَنْ هو المنافق؟ ٤٨٣

٤٨٤	٢ . أحطار النفاق
المثل الخامس والخمسون: الضوابط لا العلاقات	
٤٨٩	تصوير البحث
٤٨٩	دراسة إجمالية لسورة التحرير
٤٩٠	قصة التحرير
٤٩١	الشرح والتفسير
٤٩٢	خطاب الآية
٤٩٢	ملاك النجاة هو العمل الصالح
المثل السادس والخمسون: استقامة زوجة فرعون	
٤٩٥	تصوير البحث
٤٩٦	الشرح والتفسير
٤٩٧	خطابات الآية
٤٩٧	١ . الاستقلال الفكري
٤٩٨	٢ . لماذا لم تستخدم آسية التقىة؟
٤٩٩	٣ . التعذيب عامل تكامل أو وسيلة قهر!
٤٩٩	قصة إيمان آسية
المثل السابع والخمسون: مريم بنت عمران	
٥٠٣	تصوير البحث
٥٠٣	الشرح والتفسير
٥٠٥	فوارق هذا المثل مع المثلين المتقدّمين
٥٠٦	خطابات الآية
٥٠٦	١ . العَفَّة رأس مال عظيم
٥٠٧	٢ . الارادة أساس العمل
المثل الثامن والخمسون: تصوير للمؤمنين والكافرين	
٥٠٩	تصوير البحث
٥٠٩	نظرة إلى الآيات التي سبقت المثل
٥١١	الشرح والتفسير

٥١٢	مشاكل حركة الزواحف ومعايبها
٥١٣	خطاب الآية.....
٥١٣	الإيمان ينبوع المحسن.....
٥١٣	من هو المؤمن؟.....
٥١٣	مراتب الإيمان
المثل التاسع والخمسون: البخلاء	
٥١٥	تصوير البحث
٥١٥	الشرح والتفسير.....
٥٢٠	خطابات الآية
٥٢٠	١ . الاستئثار بلاء خطر.....
٥٢١	٢ . الهدف من البلاء والعذاب.....
٥٢١	٣ . العلاقة بين الذنب وانقطاع الرزق
٥٢٢	٤ . العناد أو الإنابة؟.....
٥٢٣	٥ . العلاقة بين التسبيح والتوبه.....
المثل السادسون: الموقف تجاه الكلام الحق	
٥٢٥	تصوير البحث
٥٢٥	الشرح والتفسير.....
٥٢٨	خطابات الآية
٥٢٨	١ . القرآن ذكر والرسول مذكّر
٥٣٠	٢ . ينبغي الإصغاء لنداء الحق.....
٥٣٠	٣ . عوامل التذكّر.....
٥٣١	الفهرس